

جامعة تونس

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس

قسم التاريخ



البلاد العباسية

(334-132 هـ / 749-945 م)

بحث لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط

الأستاذ المشرف:

الدكتور راضي دغفوس

إعداد الطالبة

أسماء عمارة

السنة الجامعية 2009-2010

فهرس المواضيع

1	المقدمة.....
21	الباب الأول: الحيز المادي للبلاط العباسي: دار الخلافة العباسية.....
24	الفصل الأول: دار الخلافة العباسية في بغداد.....
24	I عواصم العباسيين قبل تأسيس مدينة بغداد.....
24	1- الحميمة:.....
28	2- الهاشمية:.....
29	II بغداد: هل كانت مدينة ملكية حقيقة أم مجرد معسكر؟.....
56	III الرصافة.....
58	الفصل الثاني: دار الخلافة العباسية في الرقة.....
63	I- القصر "أ":.....
64	II- القصر "ب":.....
75	III- القصر "ج":.....
87	VI- القصر الشرقي أو قصر هارون الرشيد في الرقة.....
96	V- مرقلة.....
108	IV- ميدان سباق الخيل.....
112	الفصل الثالث: دار الخلافة في سامراء.....
112	I القادسية.....
118	II سامراء.....
118	1- تخطيط المدينة.....
121	2- دار الخليفة أو قصر الخليفة المعتصم في سامراء.....
143	III عودة دار الخلافة إلى بغداد وبروز مركب دار الخلافة.....
143	1- الحسني: نواة دار الخلافة العباسية.....
144	2- بروز مركب دار الخلافة العباسية.....
149	3- الخصائص المعمارية لدار الخلافة العباسية.....
158	الباب الثاني: مجتمع البلاط أو مجتمع دار الخلافة العباسية.....
166	الفصل الأول: رجال البلاط العباسي.....
166	I العائلة العباسية.....
166	1- الخليفة.....
180	2- ولي العهد.....
189	3- أولاد الخلفاء من غير ولاية العهد.....
199	4- الأقارب: بنو هاشم.....
210	II موظفو البلاط.....

222	1- الوزراء
230	2- الحجاب
237	3- الحرس
240	4- الشرطة والجيش
246	5- الخدم والخصيان
252	6- الأطباء والمنجمون
262	الفصل الثاني: توزع إقامات رجال البلاط
262	1- توزع الإقامات في بغداد
273	2- توزع الإقامات في سامراء
277	الفصل الثالث: الحرم في البلاط العباسي
277	1- نشأة الحرم العباسي
277	1- معنى الحرم عند العباسيين
285	2- اتساع حجم الحرم
287	2- ترتيب النساء داخل الحرم
293	2- دور المرأة في البلاط
293	1- دور المرأة في الحكم
302	2- دور المرأة الاقتصادي
307	الباب الثالث: الحياة اليومية وتسليات البلاط العباسي
309	الفصل الأول: نشأة فن البلاط
310	1- التصوير العباسي
310	1- التصوير على جدران القصور
323	2- التصوير على الورق
331	2- الملف الأيكونوغرافي
332	1- صور مجالس البلاط
370	2- صور النساء في البلاط العباسي
385	الفصل الثاني: مجالس الخلفاء العباسيين
385	1- أصناف المجالس
394	2- مقومات المجلس الخلفي
394	1- مكان المجلس
396	2- الأثاث والفرش
405	3- المراسم والتشريفات
406	1- تهيئة المجلس
412	2- شارات السيادة أو الملك
412	- شارات الملك الإسلامية
419	- شارات الملك الساسانية والبيزنطية

428	-الرموز التركية.
432	-زِيّ الخلافة.
442	3 - آداب المجلس أو التشريفات.....
453	الفصل الثالث: الحياة اليومية داخل الحرم العباسي.....
454	I الزينة: اللباس، التجمل، الحلي.....
454	1- اللباس:.....
460	2- التجمل:.....
463	3- الحلي:.....
466	II القنون دخل الحرم العباسي.....
466	1 - دور الحرائر الفني.....
472	2- دور الجوّاري الفني.....
486	III أنشطة ووسائل ترفيه أخرى.....
489	VI المراسم والتشريفات داخل الحرم.....
494	خاتمة.

جامعة تونس

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس

قسم التاريخ



البلاط العباسي

(334-132 هـ / 749 - 945 م)

بحث لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط

الأستاذ المشرف:

الدكتور راضي دغفوس

إعداد الطالبة

أسماء عمارة

السنة الجامعية 2009 - 2010

إهداء

إلى أبي وأمي عرفانا وتقديرا ومحبة
إلى ياسمين أغلى ما في حياتي
إلى ریحان، إلى إخوتي
إلى أصدقائي الذين أزرروني
وإلى كل من علمني حرفا وساهم في تكويني العلمي.....

أهدي هذا العمل.

لا يسعني وأنا أقدم هذا العمل إلا الإشادة بفضل من أعانني على إنجازه. وأول من يتعين عليّ شكره أستاذي الفاضل راضي دغفوس، الذي وجدت لديه مساعدة على المطالب المختلفة التي اقتضتها هذه الدراسة والتي تراوحت بين طلب شهادات الدعم والمنحة الجامعية وبين طلب النصيحة العلمية. كما أشكره على المجهود الكبير الذي بذله في مراجعة هذا العمل والتعليق عليه.

ديني كبير كذلك إلى أستاذتي الفاضلة منيرة شابوطو، التي شجعتني على العمل في هذا الموضوع، وساهمت في انفتاحي على العديد من مراكز البحث الفرنسية والأساتذة الأجانب، وهو ما أنار لي السبيل في إنجاز هذا العمل، فإليها كل شكري وتقديري. لا يفوتني كذلك أن أتوجه بالشكر إلى أستاذي عبد اللطيف المرباط، لما أمدني به من شهادات دعم، مكنتني من الحصول على منحة بحث ورخص تصوير اقتضتها الدراسة. كذلك الأستاذ فوزي محفوظ الذي شجعتني على الاهتمام بالايكونوغرافيا، والتي ساهمت في إعطاء رؤية جديدة للموضوع.

لن يتسع المجال لذكر كل من له عليّ حق الاعتراف، لكن لا يفوتني ذكر الأستاذ مبروك الباهي، والأساتذة سلوى العايب، لما وجدته لديها من تشجيع ودعم ومساعدة، كذلك الأساتذة بثينة بن حسين.

بصيغة الاعتراف نفسها أتجه إلى الأساتذة الأجانب الذين احتضنوني وفتحوا أمامي مكتباتهم، من هؤلاء أخص بالذكر الأستاذ أليستار نورثادج، لما وجدته لديه من مساعدة ولما أبداه من تحمس للموضوع، وحرص جاد على مساعدتي، وتشجيعي على الاستعانة بالآثار في دراسة هذا الموضوع. كذلك المرحومة ماريان بركان، التي احتضنتني يوما ما وساهم نقاشي معها في توضيح العديد من المسائل. و الباحثة الأثرية صوفي برتي التي أرشدتني في الزيارات الميدانية التي قمت بها في مدينة الرقة العباسية.

كما لا يفوتني أن أشكر الأساتذة السوريين سهيل زكار، عفيف البهنسي، وقاسم طوير. شكر خاص كذلك أتوجه به إلى مرهف الخلف مدير الآثار بالرقة، لما وجدته لديه من مساعدة. ولا يفوتني أيضا أن أتوجه بالشكر إلى مخبر العالم العربي الإسلامي الوسيط، وإلى معاهد البحث الفرنسية، التي احتضنت آمالي المعرفية، من هذه المعاهد نذكر: المعهد الفرنسي للشرق الأدنى (دمشق عمان)، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، المعهد الفرنسي للدراسات الأناضولية باسطنبول، ومركز دراسة تاريخ النصوص في باريس.

Abréviations

Annales. E. S.C : Annales, Economies. Sociétés. Civilisations.

Annales. H. S.S : Annales, Histoire, Sciences Sociales

AI : Ars Islamica

BEO : Bulletin d'études orientales

BSOAS: Bulletin of the School of Oriental and African Studies

E I: Encyclopédie de l'Islam

IOS: Israel Oriental Studies

JA: Journal Asiatique

JAOS: Journal of the American Oriental Society

JOAS: Journal of Oriental and African Studies

JRA: Journal of Roman Archaeology

JRAS: Journal of the Royal Asiatic Society

JSAI: Jerusalem Studies in Arabic and Islam

REI: Revue des études islamiques

SI : Studia Iranica

SI: Studia Islamica

" واعلم أن هذه الدولة - أي العباسية - من كبار الدول ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك، فكان أخيار الناس وصلحائهم يطيعونها تدينا والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة ثم مكثت فيها الخلافة والملك حتى حدود ستمائة سنة " ¹.

ابن الطقطقي

¹ - ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت 1966، ص 140.

المقدمة

كان وصول العباسيين إلى الحكم سنة 132 هـ / 749 م، نتيجة انتصار حركة معارضة سرّية استمرت حوالي ثلث قرن وانتهت بثورة مسلّحة أطلق عليها اسم " الثورة العباسية "، انتقدت الحكم الأموي وأدانته كحكم غير شرعي وجائر ودعت الناس وعبّأهم من أجل الإطاحة به وتعويضه بحكم أفضل منه وأكثر شرعية. وكان شعارها أو مبدأها الأساسي في ذلك يتمثل في الدعوة إلى " الرضا من أهل البيت "، أي من عائلة الرسول محمد،¹ الذي سيصبح المبدأ الأساسي الذي سيقوم عليه الخطاب الايديولوجي العباسي.

ومع وصول العباسيين إلى الحكم وصل فعلا أهل البيت إلى الحكم، واستطاعوا أن يكونوا دولة شاسعة شملت معظم المجال العربي الإسلامي، وامتدت مدّة خمسة قرون من (132 هـ / 749 م إلى 656 هـ / 1258 م)، حكم فيها سبعة وثلاثون خليفة بدءا بأبي العباس السفاح أول خليفة عباسي وصولا إلى المستعصم بالله آخر خليفة عباسي. لكن في ذلك تطبيق إلّا لجزء من الشعار المذكور أي - الرضا من أهل البيت - لأن فكرة الرضا لم تطبق من المنطلق ولا فيما بعد.

فمنذ وصولهم إلى الحكم أو حتى قبل ذلك التاريخ سعى العباسيون إلى إثبات حقهم في الخلافة كحق ذاتي وكحق سابق للعلويين اعتمادا على العباس عم الرسول محمد. وهو ما يكشف لنا عن فهم وإدراك واضح من قبل العباسيين لمفهوم شعار " أهل البيت " ذلك أنهم وإن كانوا متساوين مع العلويين على مستوى النسب، فإن هناك عنصر هام لا بدّ من أخذه بعين الاعتبار يتمثل في فاطمة بنت الرسول محمد، ولذلك حاولوا التأكيد على أهمية ودور العم في الوراثة، وعلى ثانوية النساء في النسب، بالإضافة إلى التأكيد على امتياز العباس لذاته كفرد من أفراد أهل البيت. وهكذا صارت للخلفاء العباسيين الجدد صبغة دينية إضافية بالمقارنة مع الأمويين تتمثل في الانتماء المباشر للرسول محمد بواسطة عمه العباس وهو ما لم يتوفر للعلويين.

ولم يكتف العباسيون بذلك بل حاولوا إكساب هذه الصبغة الدينية طابعا أو صفة قدسية سعوا إلى تكريسها ليس فقط عن طريق الخطب الشفوية أو الرسائل المكتوبة بل كذلك بواسطة أشياء مادية كالقصور والمدن، والظهور على الناس بشارات ملك مادية وراثية. وقد جعلت هذه القداسة الخلافة تتحول إلى ملك ونتج عن ذلك ظهور أو نشأة ظاهرة البلاط لأول مرة في العام الإسلامي ولو أن جذوره قد مهد لها الأمويون من قبل. فقد عاش الخلفاء العباسيون في بلاط لا نظير له في دول العالم الإسلامي، سالكين في ذلك منهجا عالميا أرستقراطيا، على غرار ملوك الفرس القدامى وأباطرة الروم والبيزنطيين. وكان لهذا البلاط قصورا فخمة، كما

¹ - مؤلف مجهول، أخبار العباس وولده، بيروت 1971، ص 194؛

- Sharon. M, « Ahl al- bayt – people of the house », in *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, 8, 1986, p. 169.

كما تضمن كتاب " البلدان " للفقير الممذاني، معلومات هامة وإضافية تتعلق بأسوار بغداد وأبوابها وكذلك ذكر لقطائع وقصور جديدة، لم يذكرها اليعقوبي.

كما اعتمدنا كتب الطبقات والأنساب والأدب. إن أهم كتاب من كتب الطبقات هو كتاب "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي، وهو كتاب ضخيم يقع في 14 جزء، يقدم فيه الكاتب تراجم رجال كثيرين عرفتهم هذه المدينة من خلفاء ووزراء ورجال من الأسرة العباسية، كما خصص الجزء الرابع عشر لأخبار نساء العصر العباسي وخاصة نساء الخلفاء العباسيين. وقد نظمت التراجم فيه على الأحرف الأبجدية، وركزت بصفة خاصة على ذكر سلسلة نسب الشخص، وذكر مؤدبيه الذين أخذ عنهم العلم، وذكر تلامذته، ومحل دراسته وتدرسه، ثم ذكر الخطة التي كلف بها في البلاط، وتاريخ وفاته...، وقد تميزت التراجم فيه باختصارها، وكذلك تركيزها على مدى حذق الشخص خاصة لميداني الفقه والحديث، وإغفالها لجزئيات أخرى، لكن أهميتها تكمن في كونها ترجمت لشخصيات لا تذكرها مصادر أخرى.

أيضا المصدر الثاني الذي اعتمدنا عليه من حيث الأهمية، هو " معجم الأدباء " لياقوت الحموي، (توفي سنة 626 هـ/1228)، والذي احتوى على ترجمة لـ 1068 شخص من الشعراء والأدباء، نسبة كبيرة منهم اتصلوا بالبلاط العباسي، وهو لا يهتم بذكر التحركات الجغرافية للشخص، وإنما يركز بصفة خاصة على ذكر تدرجه في السلم الوظيفي سيما في مختلف الدواوين، ويعطي أهمية للعلوم العقلانية كالهندسة والتنجيم والفلسفة، على حساب العلوم الدينية، وعادة ما تمتد تراجمه على عدة صفحات. وقد احتوى على تراجم لرجال البلاط العباسي.

كذلك كتاب "وفيات الأعيان" لابن خلكان (المتوفى سنة 681 هـ/ 1281 م)، والذي أمدنا بتراجم لعديد الشخصيات العباسية البارزة، من وزراء، وكتاب، ومنجمين، وقد استطعنا من خلاله التعرف على ممتلكات بعض نساء الخلفاء العباسيين.

ومن كتب الطبقات ما أفرد للوزراء والكتاب مثل "الوزراء والكتاب" للجهشياري (متوفى سنة 331 هـ/ 943 م) والذي مثل أهم مصادرنا في التعرف على تاريخ الوزراء والكتاب لدى الخلفاء العباسيين وقد نقل عنه ياقوت وابن خلكان.¹

كذلك كتاب " تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء " للصائب (متوفى سنة 448 هـ/ 1056 م)، وفيه أخبار الوزراء في العصر العباسي الثاني وذكر علاقتهم بالبلاط والأعمال المنوطة بهم والرسوم المقررة في عهدهم. ومن الكتب ما أفرد للأطباء مثل كتاب " عيون الإنباء في طبقات الأطباء "، لابن أبي أصيبعة المتوفى سنة 668 هـ/ 1270 م والذي ترجم للعديد من الأطباء الذين اتصلوا بالبلاط العباسي.

في حين أفردت كتب أخرى للنساء، وأهمها كتاب " نساء الخلفاء " لابن الساعي (متوفى سنة 674 هـ/ 1275 م)، يتناول فيه أخبار النساء من الجواري والحرائر اللاتي عشن في قصور الخلفاء العباسيين، إلى جانب

¹- مصطفى (شاكور)، التاريخ العربي والمؤرخون، ج 2، ص 44.

أخريات. كذلك كتاب " المستظرف من أخبار الجوّاري " للسيوطي (متوفى سنة 911 هـ / 1505 م)، وقد انفرد هذا الكتاب بسرد أخبار الجوّاري وأشعارهنّ وأغلبهنّ عشن في قصور الخلفاء، في حين خصص كتاب " نزهة الجلساء في أشعار النساء "، للحديث عن الحرائر من زوجات وبنات الخلفاء العباسيين وقد أمدّنا بمعلومات هامة عن أشعارهن.

ومكنتنا كتب النسب من التعرف على رجالات الأسرة العباسية. ومن بين هذه الكتب كتاب " حذف من نسب قريش " لمؤرّج السدوسي (متوفى سنة 195 هـ / 811 م)، ونسب قريش لمصعب الزبيري، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم، وقد خصص ابن حزم فصلاً كاملاً ذكر فيه أسماء الخلفاء العباسيين وأسماء أولادهم وقد اقتصر فقط على ذكر أسماء الأشخاص والإشارة إلى من ولي منهم على الولايات. بينما اقتصر الزبيري على ذكر أولاد العباس بن عبد المطلب بالتفصيل وأحفاده ممن عاشوا في العصر الأموي أما عن العصر العباسي فقد اقتصر على ذكر اسم الخليفين العباسيين الأولين.

كما احتوت كتب الأدب على العديد من المعلومات التي تخص بلاط العباسيين، كرسائل الجاحظ (المتوفى 255 هـ / 869 م، فقد أمدّنا بمعلومات هامة عن أخبار الجوّاري في البلاط العباسي، حيث أفرد للجوّاري رسالة خاصة بمن أطلق عليها " رسالة القيّان".

كذلك كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (متوفى 284 هـ / 897 م – 356 هـ / 967 م)، والذي يتألف من 24 جزءاً، احتوت على وصف دقيق للعديد من مجالس الغناء والطرب والرقص للخلفاء العباسيين، مكنتنا من التعرف على النواحي الفنية في البلاط العباسي لا سيما داخل الحرم. كما اشتملت كذلك على بعض الإشارات التي تخص رسوم وعادات البلاط العباسي، وعلى أخبار تخص النساء من شاعرات ومغنيات وأخبار أولاد الخلفاء.

لكن من بين المصادر الأدبية التي تحتل أهمية، نذكر كتب آداب الملوك، حيث أن البعض منها قد ألف بأمر من الخلفاء العباسيين، كما أن البعض من أصحابها قد عايش البلاط مدّة، لذلك فقد حرصوا على وصف مجالس الخلفاء ونظامهم اليومي، بالإضافة إلى احتواء هذه الكتب على إشارات من شأنها أن تمكّتنا من ملاحظة هرمية معينة داخل البلاط العباسي. لذلك فلا بد من التركيز على هذا الصنف من الأدب الذي عرفه العالم الإسلامي بصفة مبكرة، حيث تعود أولى كتابات آداب الملوك إلى القرن الثامن ميلادي، الثاني هجري، أي في عهد الدولة العباسية. وذلك عندما أخذت الخلافة الإسلامية تتحول من زعامة دينية إلى سلطة ملكية ذات نظم وتقاليده مرسومة ومدروسة بإتقان.¹

وأول من عني بهذا الصنف من الأدب ابن المقفع (توفي سنة 142 هـ / 759 م)، الذي قام بنقل كتاب "كليلة ودمنة" من الفارسية إلى العربية. وفي الحقيقة فإن هذا الكتاب هندي الأصل يعرف تحت عنوان

¹ - Dakhlija. J, « Les miroirs des princes islamiques : une modernité sourde ? », dans *Annales, Histoire, Sciences Sociales*, 57, N 5, sep. oct 2002, p. 1192.

« Karataka et Damnaka »¹. وقد وضعه علماء الهند على السنة الطير والبهايم والسباع وغيرها من حشرات الأرض، وذلك في شكل نصائح موجهة إلى الملوك.² والتي يمثلها دائما الأسد بوصفه سيد الغابة. وقد ألف الكتاب الهندي في الأصل ليكون وسيلة لتأديب أبناء ملوك الهند، لكن باعتماد أسلوب في طريف، ولذلك تمّ اعتباره بمثابة نصائح موجهة إلى الملوك.³

وقد نقل الكتاب إلى الفارسية في القرن السادس ميلادي في عهد الملك كسرى أنوشروان، نقله له أحد أطباء فارس المشهورين، يدعى برزويه، الذي زار بلاد الهند وحذق اللغة الهندية.⁴ وذلك كنموذج يقتدى به في تسيير شؤون البلاط الساساني. وفي القرن الثامن ميلادي قام ابن المقفع الكاتب الفارسي المشهور بدوره بترجمته من الفهلوية إلى العربية للخلفاء العباسيين ورثاء الملوك الساسانيين.⁵ وبالتالي فإن كتاب كليله ودمنة هو كتاب موجه إلى الملوك على اختلاف الأزمنة والأمكنة ويمكن الاستعانة به في فهم الواقع المعيش في كل البلاطات الملكية سواء كانت إسلامية أم غير إسلامية.

لكن من بين الكتب العربية المبكرة التي تناولت الآداب والتقاليد المتبعة في بلاطات الملوك والخلفاء، كتاب "أخلاق الملوك" للثعلبي، والمنسوب إلى الجاحظ سابقا، والذي كان يعرف بكتاب "التاج في أخلاق الملوك". وقد شكك العديد من الباحثين في مدى نسبة هذا الكتاب إلى الجاحظ، ومن بينهم عبد العزيز الدوري الذي بين أن في نسبة هذا الكتاب إلى الجاحظ فتنا جديدا من فنون الشعبية هدفه أن يظهر الخلفاء الأمويين والعباسيين تابعين ومقلّدين للملوك الفرس، حيث يتساءل كيف ينتظر من الجاحظ الذي بذل مجهودا كبيرا في ردّ الشعبية أن يعمل ذلك؟⁶

وقد توصل مؤخرا الباحث جليل العطية، إلى الكشف عن صاحب هذا الكتاب، وذلك بفضل مخطوط تمّ العثور عليه في مكتبة برلين، لم يكن معروف من قبل عنوانه "آداب الملوك"، لأبي الحسن علي بن رزين الكاتب نسخت سنة 630 هـ / 1233 م، وقد صرح فيه صاحبه أنه عوّل في تأليف كتابه على عدّة مصادر أهمها كتاب "أخلاق الملوك" للثعلبي.⁷

والثعلبي هو محمد بن الحارث، وبالرغم من أن العديد من المؤرخين قد نقلوا عنه مثل المسعودي والبيهقي في كتابه "الحاسن والمساوي"، فإنهم لم يتعرضوا له واكتفوا فقط في بعض الأحيان بالإشارة إليه. وأهم ترجمة له تلك التي خصّه بها ابن النديم في كتابه "الفهرست"، والتي ذكر فيها أنه كان في جملة الفتح بن خاقان وأنه

¹ - Barry (Michael), *L'Art figuratif en Islam Médiéval et l'engime de Behzard de Herat* (1465 - 1535), Paris 2004, p. 65.

² - ابن المقفع، كليله ودمنة، دار المعارف، الطبعة الثالثة، د - ت، ص 3-15.

³ - Barry (Michael), *Ibid.* p. 65.

⁴ - ابن المقفع، نفس المصدر، ص 16 - 22.

⁵ - Barry (Michael), *Ibidem.* p. 65.

⁶ - الدوري (عبد العزيز)، الجنور التاريخية للشعبوية، بيروت 1981، ص 52.

⁷ - الثعلبي (محمد بن الحارث)، أخلاق الملوك، (المنسوب إلى الجاحظ سابقا)، بيروت 2003، تحقيق جليل العطية، ص 5.

ألف كتاب " أخلاق الملوك " له.¹ والفتح بن خاقان هو وزير المتوكل وقد قتل معه سنة 247 هـ / 861 م.² وعلى هذا الأساس فإن أهمية كتاب الثعلبي تتمثل في أنه كان مقرباً من الفتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل، بل إن هذا الكتاب إنما هو مهدى له. والفتح بن خاقان هو أحد المقرئين من الخليفة المتوكل، وكان يشاركه مجالسه وقد قتل معه. أي أنه كان يشهد عياناً كل ما كان يدور في مجلس الخليفة المتوكل، ويبدو أن الثعلبي قد استعان به في تأليفه لهذا الكتاب.

فقد احتوى هذا الكتاب على خمسة أبواب تضمنت معلومات وافية عن خلفاء العصر العباسي الأول ومجالسهم، لاسيما مجالس الغناء والمنادمة، وقد بينّ مراسم هذه المجالس وآدابها كما بينّ مراسم وآداب المحادثة في حضرة الملوك والخلفاء، وآداب الأكل. واشتمل الكتاب أيضاً على فصل خاص عن ترتيب المغنين وطبقاتهم، وكان هذا الترتيب سائداً في عهد الخليفة الرشيد، كما كانت معظم هذه الرسوم منقولة عن الفرس.

وهي تتشابه إلى حدّ كبير مع الرسوم والآداب التي أوردها ابن أبي الربيع في كتابه " سلوك الممالك في تدبير الممالك ". لكن هذا الكاتب لم يحظ بعناية المؤرخين الذين اهتموا بالتراجم، لذلك نجعل سنة ولادته وكذلك سنة وفاته. وقد تسبب ذلك في إثارة جدل كبير بين المؤرخين المحدثين حول معرفة إلى أي من الخلفاء العباسيين ألف هذا الكتاب؟ فهل ألف للخليفة المعتصم بالله مثلما تشير إلى ذلك الصفحة الأولى من مخطوطة القاهرة وهو ما أكدّه كذلك حامد بن عبد الله ربيع الذي قام بتحقيق هذه المخطوطة والذي أشار إلى أن هذا الكتاب لا يمكن أن يكون ألف إلا للخليفة المعتصم بالله لأن كل الأحداث والوقائع التاريخية تؤكد ذلك، لاسيما وأن ابن أبي الربيع يعلن في بداية مؤلفه أنه إنما ألف هذه الدراسة بناء على طلب الخليفة " القوي العادل الذي جمع بين شجاعة هارون الرشيد وحكمة المأمون ".³

لكن من الباحثين من يشكّ في أن يكون هذا الكتاب قد ألف للخليفة المعتصم بالله وإنما للخليفة المستعصم بالله المتوفى سنة (656 هـ / 1285 م)، مثلما تشير إلى ذلك مخطوطة باريس ، فهو يرى أن أسلوب الكتاب ونضجه الفلسفي يبعد احتمال أن يكون مؤلفه قد عاش قبل الكندي والفارابي، فلا بدّ أن الاسم المذكور هو المستعصم وأن الناسخ قد أخطأ فجعله المعتصم.⁴

وعلى هذا الأساس فإن كان ابن أبي الربيع قد ألف هذا الكتاب للمعتصم، فإن الثعلبي يكون قد استعان به في تأليفه لكتاب " أخلاق الملوك "، أما إذا كان قد ألفه للخليفة المستعصم بالله فإن العكس هو الصحيح، ومن هنا تتجلى لنا أهمية هذين المصدرين فالأول مهدى لوزير الخليفة العاشر والثاني ألف بناء على طلب من الخليفة

¹ - الثعلبي (محمد بن الحارث)، نفس المصدر، مقدمة المحقق، ص 13.

² - الطبري، تاريخ، ص 1922-1923.

³ - ابن أبي الربيع (شهاب الدين)، سلوك المالك في تدبير الممالك، تحقيق حامد عبد الله ربيع، القاهرة 1983، ص 95 - 96، 314 - 315.

⁴ - التكريتي (ناجي)، الفلسفة السياسية عند ابن أبي الربيع مع تحقيق كتابه سلوك المالك في تدبير الممالك، بغداد، 1987، ص 7-8.

الثامن أو الأخير من الخلفاء العباسيين وقد احتوى على معلومات تخص طريقة وآداب التعامل مع الملوك في المجالس والمواكب.

ويمكن أن نضيف إلى هذين المصدرين مصدر آخر هام هو "رسوم دار الخلافة" لأبي هلال الصائبي (359 - 448 هـ). وتمثل أهميته في أن الصائبي صاحب الكتاب، كان مقرباً من أحد الخلفاء العباسيين، وهو القائم بالله المتولي الخلافة من سنة 422 هـ / 1031 م إلى سنة 467 هـ / 1075 م بل إن هذا الكتاب إنما هو مهذا إن لم نقل تقريباً ومدحاً له.¹

وقد كان جدّ هلال، إبراهيم كذلك من كبار الكتاب، فورث عنه هذه الموهبة، وعمل في ديوان الإنشاء مما فسخ له المجال للتعرف على رسوم دار الخلافة العباسية والتعرف على عادات الخلفاء العباسيين في المأكّل والملبس والمشرّب وغيره... لاسيما وأنه ألّف كتابه "رسوم دار الخلافة" عندما كان يعمل في ديوان الإنشاء.² أي أنه كان يشهد عن كتب ما كان يدور في مجالس الخلفاء مما جعله ينفرد بمعلومات لا نجدها لدى الثعلبي، ولا في غيرها من المصادر الأخرى التي كتبت حول التاريخ العباسي، وتعلّق بترتيب المجلس وتهيئته. فالخطة التي كلّف بها أبو هلال الصائبي في دار الخلافة العباسية، جعلت كتابه يكتسي أهمية قصوى تتمثل في أن صاحبه عايش البلاط مدّة بوصفه مكلفاً بمهمة من قبل الخليفة، ومن ثمة فهو من هذه الناحية واصفاً أو ناقلاً أكثر مما هو راو، وهذه ميزة قلما توفرت في المصادر.

كذلك مصدر آخر هام، لا بدّ من ذكره في هذه المجال، هو كتاب "آداب الملوك" لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (متوفى 429 هـ / 1038 م)، وهو عربي الأصل لكنه عاش في بيئة فارسية، وقد اشتهر كذلك بمناذمته للملوك والأمراء. وكتابه "آداب الملوك"، إنما هو كذلك مهذا لمأمون بن مأمون الملقب بخوارزم شاد، والذي قارنه فيه بالمأمون العباسي.³ وهو مصدر ثري بالوقائع والأحداث النادرة التي تمكننا من رسم صورة تاريخية وأدبية حيّة عن المراسم والآداب التي كانت تسود البلاطات الملكية والأميرية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين.⁴

تسمح لنا جميع هذه المصادر، والتي يمكن أن نطلق عليها "كتب الرسوم"، بتتبع التقاليد والآداب التي اتبعتها الخلفاء العباسيون في مقابلاتهم الخاصة والعامة. كما تسمح لنا بتتبع تطور هذه الرسوم من العصر الساساني، مروراً بالعصر الأموي ووصولاً إلى العصر العباسي.

وبالإضافة إلى هذه المصادر التي اعتنت أساساً بالرسوم والآداب، هناك مصادر أخرى اهتمت بالفرش والأثاث وغيرها من محتويات دار الخلافة وأهمها بل أقدمها كتاب "التحف والهدايا" للأخوين، أبا بكر محمد وأبا عثمان سعيد، المعروفان بالخالدين، وقد عاشا في القرن الرابع هجري، واشتهرا باشتراكهما في قرض الشعر،

¹ - الصائبي (أبو الحسين هلال)، رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، بيروت 1986، ص 3-4.

² - الصائبي (أبو الحسين هلال)، نفس المصدر، مقدمة المحقق، ص 12 - 13.

³ - الثعالبي، آداب الملوك، بيروت 1990.

⁴ - Sadan (Joseph), « Adab- Règles de conduits et Adab- Dictions, Maximes, dans quelques ouvrages inédits d'al - Ta'albi », R.E.I, N54, 1986, p. 283 ;

وجمعه والتأليف فيه، كما اشتركا كذلك في تأليف هذا الكتاب.¹ والذي خصّصاه للحديث عن الهدايا التي تلقاها الخلفاء العباسيون في مناسبات عديدة كالنيروز والمهرجان والفصد، أو بدون مناسبات كذلك، من أهل البيت العباسي، حتى الحرم، ومن قادة الجيش وحكّام المقاطعات والأقاليم ومثلي الدول الأجنبية، والتي تمكنا من خلالها من التعرف على ذخائر الخلفاء، وما كانت تحتويه خزائهم من أنواع الآلة والأثاث.

وكذلك كتاب "الذخائر والتحف" للقاضي الرشيد بن الزبير، لم نعث له على ترجمة خاصة في كتب التراجم والطبقات، لكن يبدو من خلال الأحداث والوقائع التي أوردها في كتابه أنه عاش في القرن الخامس هجري.² وقد حاول فيه أن يستقصي كل ما كانت تحتويه خزائن دار الخلافة من ذخائر وكنوز وترك وفرش، كما احتوى على ذكر لممتلكات نساء الخلفاء العباسيين.

ولا بدّ أن نظيف إلى هذين المصدرين، مصدر آخر هام هو كتاب "مطالع البدور في منازل السرور" للغزولي المتوفى سنة 818 هـ/ 1415، ويوجد هذا الكتاب في شكل مخطوط تمّ نسخه سنة 1005 هـ، على يد محمد بن خليل بن إبراهيم بن يزيد الخليلي، وهو محفوظ حالياً بالمكتبة الوطنية بباريس.³

ورغم كونه متأخراً فإن أهمية هذا المخطوط تتمثل في أنه اشتمل على وصف دقيق لما تحتويه "دار الملك" أو "دار الخلافة" من فرش وغمارق وأرائك وزرابي وأواني وخزائن سلاح، وملابس وهدايا. كما احتوى كذلك على وصف للنديم وللآداب التي يجب أن يتحلّى بها، ووصف للمطربين والجواري والغلمان وكذلك وصف للأطعمة والحلوى ولمسايد الملوك والخلفاء. وقد نقل فيه عن الثعالبي والقاضي الرشيد.

ويشير الغزولي في مقدمة كتابه إلى انفراده بمثل هذا التأليف، الذي لم يصل إليه بن خلكان، ولا وجود لنظير له في "مرآة الزمان".⁴ فأهمية هذا التأليف تتجلى في أنه جمع في نفس الوقت بين الحديث عن الآداب والرسوم والحديث عن الولائم والدعوات والثروات. فهو إذن من هذه الناحية يمكننا من التعرف على الحياة في دار الخلافة العباسية في عهدها اليومي والمناسباتي.

ولا بدّ أن نضيف إلى هذه القائمة كتاب "الموشى" للوشاء، وهو لا يهتم بالأثاث والفرش، وإنما يهتم بالزّيّ، وقد أمدنا بمعلومات عن لباس الجواري والقيان والمغنيات والقهرمانات وغيرهن.

ولا بدّ أن لا نغفل كتب التاريخ العام، والتي أوردت في أثناء حديثها عن أخبار الخلفاء معلومات متفرقة عن البلاط العباسي تتعلق بمجالس الخلفاء ومواكبهم وذكر عائلاتهم وحاشيتهم والمحيطين بهم. ومن أقدمها "كتاب التاريخ" لخليفة بن خياط (متوفى سنة 240 هـ/ 854 م)، وهو منظم على أسلوب الحوليات، وقد قدّم لنا قوائم هامة بأسماء العمال والولاة في عهود الخلفاء وكذلك أسماء الموظفين الكبار في الشرطة وبيت المال.⁵ وقد

1- الخالدين (أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد)، كتاب التحف والهدايا، القاهرة 1956، ص 20.

2- القاضي الرشيد، كتاب الذخائر والتحف، الكويت 1956، مقدمة المحقق ص 25.

3- الغزولي (علي بن عبد الله)، مطالع البدور في منازل السرور، suppliant n 1551

4- الغزولي، نفس المخطوط، v 1.

5- دغفوس (راضي)، التاريخ العربي والإسلامي في القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة من خلال النصوص والوثائق، تونس 2009، ص 22.

تمكنا من خلاله من التعرف على أصحاب الشرطة والحرس والكتاب والوزراء لدى الخلفاء العباسيين. فهو من هذه الناحية مصدر لا يستغنى عنه لدراسة رجال البلاط.

كما أمدنا كذلك كتاب " المحبر " لابن الحبيب متوفى سنة (245 هـ / 859 م) بقائمة بأصحاب الشرط والحجاب لدى الخلفاء العباسيين، وهو يتوقف عند عهد الخليفة المتوكل، وقد أفادنا خاصة في التعرف على علاقات المصاهرة داخل الأسرة المالكة العباسية، كما احتوى على معلومات هامة لا نجدها في المصادر الأخرى.

وقد درس البلاذري (متوفى سنة 279 هـ / 892 م) في كتاب " أنساب الأشراف "، التاريخ الإسلامي في إطار الأنساب لا الزمن التاريخي فجعل لكل موضوع عنوان خاص به ذكر فيه سيرة كل خليفة مع تطور الأحداث السياسية، وراعى التسلسل الزمني¹، وتكمن أهميته في كونه رجل بلاط إذ أنه شغل خطة مربى لعبد الله بن الخليفة المتوكل². لكنه لم يؤرخ لكل خلفاء الفترة التي نحن بصدد دراستها، فقد ذكر أخبار بني العباس وأخبار دولتهم إلى أيام المهدي كما أنه أعطى مكانا أوسع للأمويين مما أعطى للعباسيين، فقد خصص للعباسيين جزء فقط وهو الجزء الرابع. ويبقى البلاذري رغم اتصاله بالعباسيين محايدا في أخباره وامتزنا إلى جانب موضوعيته³.

وقد اعتمدنا مصادر أخرى تكميلية من بينها " تاريخ اليعقوبي " و " مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر " لليعقوبي أيضا، وقد احتوى على معلومات هامة تخص عادات العباسيين في اللبس لا نجدها في مصادر أخرى. واعتمدنا أيضا كتاب " مروج الذهب " و " التنبيه والإشراف " للمسعودي وقد تعاملنا معها بحذر نظرا لميولات أصحابها الشيعة.

كما اعتمدنا في دراسة هذا الموضوع كتاب " تاريخ الأمم والملوك " للطبري (متوفى سنة 310 هـ / 922 م)، وقد مثل الطبري قمة ما وصلت إليه كتابة التاريخ عند العرب في فترة التكوين⁴. وتكمن أهميته الطبري في كونه مؤرخا ومجمعا للنصوص القديمة " rassembleur de textes "، لا سيما النصوص التي ألقت في القرنين الثاني والثالث من كتب لغة ونسب وأخبار لم يصلنا أغلبها⁵. وقد اتبع الطبري طابعا إخباريا مكثنا من التعرف على كل خصائص البلاط العباسي بما فيها المادي، السياسي، الاجتماعي، والبروتوكولي. كما احتوى مؤلفه على عدد من الرسائل والخطب الهامة التي مكنتنا من التعرف على الفكر الإيديولوجي للخلفاء العباسيين وسياساتهم.

¹- مصطفى (شاكر)، التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت 1979، ج 1، ص 243-244.

²- دغفوس (راضي)، التاريخ العربي والإسلامي، ص 23.

³- دغفوس (راضي)، نفس المرجع، ص 24.

⁴- الدوري (عبد العزيز)، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، بيروت د.ت.

⁵- دغفوس (راضي)، إشكاليات الانتشار في الإسلام المبكر، تونس 2002، ص 14.

وبما أن الطبري يتناول التاريخ الإسلامي من عهد الرسول إلى سنة 302 هـ / 914 م،¹ فقد أتمناه بمصادر تكميلية متصلة بتاريخ الطبري ولو أنها جاءت متأخرة بعده، أهمها كتاب " تكملة تاريخ الطبري " للهمداني متوفى سنة 571 هـ / 1127 م، وقد أمدنا بمعلومات عن جوانب هامة من الحياة السياسية والاجتماعية للخلافة العباسية من 295 هـ / 908 م إلى نهاية الفترة التي نحن بصدد دراستها. ورغم أن الهمداني حاول إتمام تاريخ الطبري إلا أن معلوماته جاءت ضعيفة التوثيق وخالية من السند.

لذلك يعدّ كتاب " تجارب الأمم " لمسكويه (متوفى سنة 421 هـ / 1030 م)، أكثر ثقة في هذا المجال، وهو يضم تاريخ الأحداث من سنة 295 هـ / 908 م إلى سنة 369 هـ / 979 م، وقد أمدنا بمعلومات وافية عن الأحداث في عهد الخليفة المقتدر، لا سيما تسلط والدته على الوضع، وسيطرة القهرمانات على شؤون البلاط، وكذلك معلومات عن تعيين وعزل الخلفاء في تلك الفترة.

كما اعتمدنا أيضا كتاب " الإنباء في تاريخ الخلفاء "، لابن العمري (متوفى سنة 580 هـ / 1184 م)، وتمثل أهميته في كونه أرّخ لكل خلفاء الفترة التي نحن بصدد دراستها، وقد احتوى على معلومات قيّمة تتعلق خاصة بلبس الخلفاء العباسيين للتاج. وكذلك كتاب " المنتظم " لابن الجوزي (متوفى 597 هـ / 1201 م)، ورغم أنه ركّز كل جهوده على تاريخ بغداد بالذات،² فإنه بحث الحوادث السياسية مرتبة على السنين فأورد في نهاية كل سنة تراجم لعدد من المتوفين فيها، فكان من بينهم خلفاء عباسيين وقادة ووزراء وحجاب ونساء كان لهم دور في البلاط العباسي.

اعتمدنا أيضا في دراسة هذا الموضوع على مصادر متخصصة في التاريخ العباسي مثل كتاب " النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس " لذي النسيين دحية والحسين (متوفى سنة 633 هـ / 1235 م)، و " تاريخ الخلفاء العباسيين " لابن الساعي (متوفى سنة 674 هـ / 1275 م)، ورغم كونهما جاءا تلخيصا للمصادر السابقة فقد تضمنا أخبارا هامة تتعلق خاصة بإيديولوجيا الخلفاء العباسيين. فقد احتوى كل منهما على ترجمة ذاتية لـ 36 خليفة عباسي من الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المستعصم بالله الذي أزاحه الماغول.

إن هذه المصادر التقليدية الأساسية، التكميلية، والمتخصصة، تعدّ أدوات ضرورية وأولية لدراسة هذا الموضوع، لكنها تبق غير كافية وفي كثير من الأحيان لا تفي بالغرض.

✓ المصادر الأثرية

إضافة إلى هذه المصادر التاريخية، اعتمدنا المصادر الأثرية. وقد دفعتنا إلى ذلك طبيعة الموضوع المدروس، فلا يمكن دراسة القصور العباسية دون العودة إلى الآثار، وقد اعترضتنا أيضا صعوبات بعضها يرتبط بطبيعة العمارة العباسية التي استخدمت أدوات بناء لم تستطع الصمود أمام العوامل الطبيعية وأمام الحروب التي عرفتها المنطقة على مرّ العصور، والبعض الآخر يتعلق بالظروف الأمنية والسياسية الحالية في العراق.

1- دغفوس (راضي)، نفس المرجع ، ص 27.

2- مصطفى (شاكر)، التاريخ العربي والمؤرخون، ج 2، ص 108؛

لكن لا تزال تحتفظ مدينة الرقة في سوريا بعدد من القصور والمدن العباسية، وقد قمنا بزيارتها ميدانيا وأهمها، مدينة الرافقة وتمثل أهميتها فيما ذكره الطبري من أن المنصور بناها على شاكلة بغداد،¹ ولا تزال آثارها قائمة إلى يومنا هذا، وقد اعتمدناها كنموذج لدراسة مدينة بغداد المندثرة.

كما مثلت الرقة مقر البلاط العباسي في عهد الخليفة هارون الرشيد وقد قام بتشييد عدد من القصور إلى الشمال من سور مدينة الرافقة، وتبدو آثار هذه القصور واضحة في الصور الجوية الملتقطة، كما قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية بالكشف عن البعض منها منذ الخمسينات من القرن السابق إلا أن التوسع العمراني والمشاريع الزراعية ساهمت في تغطية هذه القصور من جديد لكن لحسن حظنا فقد حفظت لنا مجلة الحوليات الأثرية السورية وكذلك المجلة التي يصدرها المعهد الأثري الألماني تقارير عن مجمل الحفريات التي أجريت في مدينة الرقة، وقد اعتمدنا عليها في دراستنا لقصور الرقة العباسية.

ولم يبق اليوم من قصور هارون الرشيد في الرقة سوى قصر أطلق عليه اسم القصر الشرقي أو قصر هارون الرشيد وقد قمنا بدراسته وإنجاز تخطيط له، بالإضافة إلى حصن هرقله والذي هو أيضا من المعالم المنسوبة إلى هارون الرشيد في الرقة.

وعكس مدينة بغداد التي اندثرت كل معالمها لآثار مدينة سامراء قائمة إلى يومنا هذا، وقد لاقى عناية كبيرة من قبل عدد من الأثريين، أولهم فيوليه الذي زار المنطقة ودرس بعض آثارها وكتب مقال عن قصر المعتصم. ثم قامت البعثة الألمانية بعماليات تنقيب أثري هامة في منطقة سامراء وقد نشر نتائجها هرتزفيلد في مجلدات ضخمة.² كما قامت كذلك مديرية الآثار العراقية بدراسات ميدانية لبعض آثار سامراء، و نشرت نتائجها في مجلدين، يحملان عنوان " حفريات سامراء "،³ وفي أعداد متفرقة من مجلة سومر العراقية وقد اعتمدنا على الكثير منها في بحثنا هذا.

ومن أحدث المهتمين بدراسة آثار سامراء اليوم البريطاني ألستر نورثادج، والذي درس العديد من معالم سامراء من قصور واصطبلات وحلبات سباق الخيل، مستندا في ذلك إلى الصور الجوية وإلى خرائط وتصاميم معتمدة على المسح الجوي. وقد نشر نتائج أبحاثه في كتابه " الطبوغرافيا التاريخية لمدينة سامراء"،⁴ وكذلك في مقالات عدة. وقد اعتمدنا على خرائطه في بحثنا هذا، والتي أمدنا بنسخ منها.

ولم تقتصر في عملنا على ما قمنا به من دراسة ميدانية لعدد من القصور العباسية في الرقة، وعلى ما وفرته لنا نتائج البحث الأثري، بل اعتمدنا أيضا الايكونوغرافيا كأدات عمل في هذا البحث، وقد دفعنا إلى مثل هذا العمل الإشارات العديدة الواردة في المصادر والتي تدل على أن مجالس الخلفاء العباسيين كانت مصورة الجدران، وهو ما أكدته نتائج التنقيب الأثري، التي أثبتت لنا عناية العباسيين بالتصوير وبالنحت وذلك حتى

¹ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، بيت الأفكار الدولية، الأردن والسعودية، دت، (مجلد واحد) ، ص 1582.

² العميد (طاهر مظفر)، العمارة العباسية في سامراء، بغداد 1987، ص 62.

³ مديرية الآثار القديمة، حفريات سامراء 1936-1939، ج 1 الرياسة والزخارف، ج 2 الآثار المنقولة، بغداد 1940.

⁴ - Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, Samarra Studies I, published by The British School of Archaeology in Iraq, London, 2005.

قبل تسلمهم الحكم، حيث تم العثور في موقع الحميمة بالأردن أين نشطت الثورة العباسية على بعض اللوحات من العاج التي جسّم فوقها بعض القادة العسكريين.

كما كشفت لنا عمليات التنقيب الأثري التي أشرف عليها الأثري الألماني هرتزفلد في قصر الجوسق الخاقاني بسامراء بين سنة 1911 و1913 على العديد من الرسوم الجدارية التي كانت تزين قاعة العرش وخاصة قسم الحرم منه، وكذلك في منازل الخاصة، وبعض الحمامات وقسم كبير منها محفوظ اليوم في متحف الفن التركي والإسلامي باسطنبول.

كما تم العثور كذلك على عدد من المسكوكات التي تحمل صور بعض الخلفاء العباسيين، والموزعة بين متاحف بلدان عديدة، وكذلك على عدد من المنمنمات، التي عكست مشاهد بلاط، بالإضافة إلى احتوائها على صور لخلفاء عباسيين. وقد دفعني ذلك إلى تكوين ملف إيكونوغرافي.

وهنا لا بدّ أن نشير إلى الصعوبات التي اعترضتنا في التعامل مع الرسوم والصور. فقد كان لزاما علينا قبل كل شيء توفير تلك الرسوم والصور والحال أن البعض منها ليس في المتناول، مما حتم علينا البحث عنها مباشرة في المتاحف، مثل متحف الفن التركي والإسلامي باسطنبول، المتحف الأثري بالعقبة، متحف دمشق الدولي، قصر عمرة بالأردن، أو المكتبات مثل المكتبة القومية بباريس، ودار الكتب الوطنية بالقاهرة، ولا يخفى علينا ما يتطلبه مثل هذا العمل من صعوبات تتعلق خاصة بالحصول على رخص التصوير.

كما أن الكثير من تلك الرسوم والصور مبعثرة في كتب كثيرة. وهذا كلّه تطلب منا جلدا وصبرا على جمع الرسوم المبعثرة هنا وهناك والربط بين بعضها البعض لتكوين مادة إيكونوغرافية مستقلة خاصة بالعباسيين، وقد واجهتنا هنا صعوبة أخرى وهي أن النماذج الفنية التي حفظها لنا الزمن والتي تعود إلى العصر العباسي تعدّ قليلة ونادرة، وقد دفعنا ذلك إلى اعتماد إيكونوغرافيا تحليلية وليس كمية، كما دفعنا كذلك إلى اعتماد إيكونوغرافيا مقارنة، ودفعنا أيضا إلى إعطاء الأولوية للنص التاريخي، وجعله مصدرنا الأول.

وهكذا فقد تمّ هذا العمل استنادا إلى المصادر التاريخية والأثرية. فالمصادر التاريخية هي مستندنا الرئيسي، تليها المصادر الأثرية، مهما كان نوعها أثارا معمارية، أو رسوما جدارية، أم تماثيل أم ميداليات، إلخ. فقد سعينا من خلال هذه الدراسة إلى إبراز العلاقة بين النص والآثار وفي حدود الإمكان. إضافة إلى هذه المصادر التاريخية والأثرية، اعتمدنا:

✓ الدراسات الحديثة

الملاحظ أنّها كثيرة، حيث لا يخفى الاهتمام المتزايد بالتاريخ العباسي من قبل المؤرخين المحدثين المستشرقين والعرب. وقد درس هؤلاء التاريخ العباسي أو تاريخ الدولة العباسية من زوايا مختلفة فهناك من درس التاريخ العباسي ضمن التاريخ العربي الإسلامي العام، وهناك من درس تاريخ الفترة العباسية بكاملها أو غطّى قسما كبيرا منها، ومن الباحثين من اهتم بالتراجم والسير العباسية، وهناك من درس المدن والأقاليم خلال العصر

العباسي، كما اهتم البعض الآخر بالنظم العباسية. لكن رغم توص الكثير من هؤلاء الباحثين إلى نتائج قيمة في هذا المجال، فإن بعض مناحي الحياة في الخلافة العباسية مازالت تحتاج إلى دراسة واعية ووافية وإلى مزيد من الاستقصاء والبحث.

وتعتبر دراسة سوردل أهم دراسة استشراقية في أواسط القرن العشرين، لازالت إلى حد الآن مرجعا هاما. وهي دراسة تهم أكثر بشخصية الوزير في العصر العباسي ومدى نفوذه وسلطته في الادارة والبلاط وطبيعة علاقته بالخليفة العباسي وظروف ارتقائه لهذا المنصب وأسباب عزله ومراسم توليته، أكثر من اهتمامها بتطور الوزارة كمؤسسة من مؤسسات الدولة العباسية.¹

ولا بدّ أن نضيف إليها دراسات المدرسة العراقية، لا سيما دراسات عبد العزيز الدوري وفاروق عمر، والتي تميّزت بطابعها النقدي. فقد كتب فاروق عمر كتابا عن " الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية"،² وصف فيه فترة الاضطرابات التي تسبب فيها العسكر الترك في سامراء بعد مقتل الخليفة المتوكل والتي امتدت قرابة خمسا وعشرين سنة انتهت بانتقال مركز الخلافة من سامراء إلى بغداد.

أما من الناحية الأثرية فإن أبرز ما كتب في هذا الميدان، ما ألفه كريزوال،³ فقد تضمن كتابه معلومات غنية عن معالم بغداد والرقّة وسامراء، مستمدة من المصادر ومن بعض الآثار. كما بحث أحمد سوسه في كتابه "ريّ سامراء"، موقع سامراء ومعالمها الأثرية.⁴

وقد عمّق أليستار نورثادج هذه الدراسات حول سامراء وطورها، معتمدا دراسة مقارنة بين النصوص والآثار، ومستعينا بصور جوية حديثة، وقد استطاع من خلالها الوصول إلى نتائج مغيرة لما ذهب إليه هرتزفلد وكريزوال، بخصوص معالم سامراء الأثرية. وقد اعتمدنا على نتائجه في دراستنا لقصور الرقة وذلك في محاولة للمقارنة بينها وبين قصور سامراء.

ولا بدّ أن لا تغفل الدراسات الفنية لا سيما دراسات ماريان باريكن والتي مثلت مرجعا أساسيا في تحديد مفهوم المدينة الملكية.⁵ كذلك أطروحة جرابار حول " المراسم والفن في البلاط الأموي " والتي أنجزها منذ خمسينات القرن الماضي،⁶ ورغم كونها لم تنشر، فإن أهميتها تكمن في أنها من أولى الدراسات التي اهتمت بالايكونوغرافيا الاسلامية في بداية ظهورها.

كذلك الدراسات التي اهتمت بموضوع البلاطات الملكية بشكل عام، والتي اعتمدناها كأداة عمل لاسيما على مستوى المنهج. وقد ظهر هذا النوع من الدراسات مؤخرا على يد عدد من الباحثين، وفي مقدمتهم

¹ - Sourdel. D, *Le Vizirat Abbasside de 749 à 936 (132 à 324 de l'Hégire)*, Damas, 1959.

² - عمر (فاروق)، *الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية*، بغداد، 1977.

³ - Creswell (K. A. C), *A Short Account of Early Muslim Architecture*, (révision J. W. Allan) Aldershot, 1989.

⁴ - سوسه (أحمد)، *ريّ سامراء في عهد الخلافة العباسية*، بغداد 1948.

⁵ - Barrucand. M, « L'Art de l'Islam », dans *Histoire de l'Art : Moyen Age. Chrétienté et Islam*, Paris 1996, pp. 436- 535.

⁶ - Grabar. O, *Ceremonial and art at the Umayyad court*, Princeton University, Ph.D., 1955.

نوربار إلياس الذي درس مجتمع البلاط في فرنسا في ظلّ النظام القديم،¹ ففتح بذلك الطريق أمام هذا النوع من الدراسات. كما درس تيركان بلاط الأباطرة الرومان من عهد الامبراطور أغسطس إلى عهد الامبراطور ديوكليتيان.²

أما البلاط العباسي، فإن الدراسات حوله تكاد تكون قليلة ونادرة رغم الفائدة التي قد تنشأ عن ذلك. فإلى حدّ علمنا لا توجد دراسة شاملة ومعمقة حول البلاط العباسي، وإنما فقط درس بصفة عرضية وخاطفة في دراسات شاملة للخلافة والدولة العباسية، أو في دراسات حول النظم والسير العباسية أين يقع التطرق إلى عنصر من عناصره.

وبالإضافة إلى كونه لم يدرس بوصفه موضوعا مستقلا، فإن اختيارنا لهذا الموضوع في إطار التاريخ العباسي، يرجع لأنه يعد من المواضيع التي تبحث في مسائل اعتبرت في فترة ما هامشية وثانوية وجزئية من قبل الباحثين بالمقارنة مع إشكاليات أخرى أهم سياسية، اجتماعية، اقتصادية، ودينية، وتتعلق هذه المسائل أساسا بالرموز، بالواقع المعيش وبالأفراد ودورهم.

ولذلك سعينا إلى أن يندرج هذا العمل ضمن هذا الاتجاه في البحث الذي يسعى إلى الإلمام بالواقع اليومي، للبشر ذلك لأنه بقدر ما يهمّ التعرف على الحياة الاقتصادية والدينية والسياسية للبشر فمن الضروري كذلك الإلمام بنمط عيشهم اليومي. لكن من خصوصيات هذا البحث أنه لا يبحث في حياة السواد الأعظم من الناس وإنما في حياة فئة خاصة وهي الفئة الحاكمة التي تمثل النواة الأساسية للبلاط، ونحن نعلم ما تمثله هذه الفئة في أذهان العامة على مرّ العصور من صور عجيبة وغريبة أحيانا.

وهكذا فإن دراستنا للبلاط العباسي تعدّ محاولة للوقوف عند بعض الجوانب التي خفيت في التاريخ العباسي ومحاولة لتعميق بعض المعارف حول هذا التاريخ.

تمحور موضوع هذا البحث حول البلاط العباسي، وقبل دراسة ظروف نشأة هذا البلاط، فإننا يجب أن نعرف بالبلاط بصفة عامة.

✓ مفهوم البلاط

إن كلمة بلاط هي كلمة ذات اشتقاق مزدوج أجنبي وعربي. أما الاشتقاق الأجنبي فينحدر من أصل لاتيني وتعني الكلمة " palatium "، وقد أطلقت في البداية على المنزل الذي شيّده أغسطس على جبل " palatin"، والذي أصبح فيما بعد مقرا تقام عليه المساكن الإمبراطورية. وعن كلمة palatium أخذت كلمة

¹ - Elias.N, *La Société de cour*, Paris 1974.

² - Turcan. R, *Vivre à la Cour de Césars, d' Auguste à Dioclétien (I- IIIe siècles ap. J. -C)*, Paris 1987.

palais قصر والتي تطورت وصارت تطلق على كل البنايات الواسعة والضخمة التي يقطنها الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة.¹

وبنفس هذا المعنى للبلاط أي القصر استخدمت الكلمة للدلالة على مقر إمبراطور الروم في القسطنطينية في عهد الخليفة هارون الرشيد. يذكر المسعودي إن ربي زوجه أليون ووالدة قسطنطين والملقبة بأغسطة خلعت وانتزع منها الملك سنة 187 هـ / 803 م، وهي " في بلاط بنتة بالقسطنطينية يعرف بالأبتار... " ويضيف " والبلاط القصر ".² لذلك يمكن القول بأن كلمة بلاط هي معربة عن كلمة palatium وقد استخدمت مثلها للتعبير عن القصر.³

كما عرّف نوربار إلياس البلاط الفرنسي في ظل النظام القديم، بأنه " منزل الملوك وعائلتهم وكل ما ينتمي إليهم من قريب أو من بعيد ".⁴ وبهذا المعنى يصبح البلاط ذلك المجال الخاص بأصحاب السلطة والنفوذ الملكي والذي يعرف بالقصر.

أما عن الأصل العربي للكلمة فهي مشتقة من " بلط "، وتعني " الأرض المستوية الملساء " كما تعني " الحجارة المفروشة في الدار " وهي " كل أرض فرشت بالحجارة والآجر ".⁵ وبالتالي يدّل هذا المعنى اللغوي للبلاط على أنه اسم وحدة تدل على الأرض المستوية الملساء. ويلتقي هنا المعنى العربي لكلمة بلاط مع المعنى اليوناني للكلمة والذي يمكن أن تكون قد تفرعت عنه وهو يعني الطريق المرصوف أو التبليط.⁶

إلا أن الاشتقاق العربي لكلمة بلاط قد تطور استخدامه فيما بعد وصار يطلق على المكان في حد ذاته وذلك في إطار تسمية الكل باسم الجزء، يذكر الزبيدي " وسمي المكان بلاطا اتساعا باسم ما يفرش به ".⁷ أي تسمية المكان باسم ما يفرش به. ثم صارت الكلمة تدل على المكان الواسع الذي يجتمع فيه الناس يذكر بن منظور " لولا رجاؤك ما زرنا البلاط ولا كان البلاط لنا أهلا ولا وطنا ".⁸ ثم خصت كلمة بلاط بقصر الملك ويتلاقى هنا الجذر العربي المتطور لكلمة بلاط بمعنى الجذر اللاتيني ليدل على القصر.⁹

وقد حاولنا البحث عما إذا كانت المصادر العربية جغرافية كانت أم تاريخية قد استعملت كلمة بلاط للدلالة على قصور الخلفاء العباسيين؟. فتبين لنا أن هذه الكلمة لم ترد في علاقة بالعباسيين وإنما للدلالة على قصور

¹ - Sourdel .D, sv, « Balat », *E.I*, v I, p. 1018; Dictionnaires des antiquités Grecques et Romaines, " Palatium", p. 1018.

² - المسعودي، التنبيه والإشراف، ليدن 1976، ص 142.

³ - ضناوي (سعدي)، موسوعة هارون الرشيد، بيروت 2001، ج 1، ص 20.

⁴ - ELIAS.N, *La Société de cour*, Paris 1974, p. 17.

⁵ - ابن منظور، لسان العرب، بيروت 1997، ج 1، ص 245؛ الزبيدي، تاج العروس، القاهرة 1306 هـ، ج 5، ص 110.

111.

⁶ - Sourdel .D, sv, « Balat », *E.I*, v I, p. 1018

⁷ - الزبيدي، تاج العروس، ج 5، ص 111.

⁸ - ابن منظور، لسان العرب، ج 1، ص 246.

⁹ - ضناوي (سعدي)، نفس المرجع، ج 1، ص 20.

الخلفاء العباسيين استعملت المصادر كلمة "قصر"، "دار الملك"، "دار الخلافة" أو "دار الخليفة"، "دار السلطان" أو الحضرة.¹

ولعل اقتران كلمة بلاط بمقرات الأباطرة الرومان ثم البيزنطيين بالإضافة إلى ما تحمله هذه الكلمة من دلالات سياسية واجتماعية ربما لا تتماشى وواقع المجتمع الإسلامي هي التي دفعت العباسيين إلى استبدال كلمة بلاط بكلمة دار، لاسيما وأن هذه الكلمة ترتبط بجذور عربية تعود إلى فترة ما قبل الإسلام: مثل دار الندوة التي بناها قصي قرب الكعبة وكان الملاء من قريش يجتمع فيها للتشاور في الأمور المهمة،² كذلك دار الإمارة في البصرة، في الكوفة، في الفسطاط وفي القيروان.

وقد تطورت كلمة دار الخلافة في العصر العباسي حيث كانت تطلق في البداية على الرحبة التي فيها القصر والمسجد في بغداد، ثم أصبحت تطلق على المركب الذي يضم دار العامة والجوسق الخاقاني في سامراء، ثم أصبحت فيما بعد تطلق على المركب الذي يضم مجموعة من القصور إثر عودة الخلافة من جديد إلى بغداد في الجانب الشرقي.³

وبهذا المعنى للدار، أي البلاط استخدمت الكلمة أيضا للحديث عن مقر إمبراطور الروم. يذكر ابن حوقل أن "للملك أربعة جبوس دون دار البلاط التي يحبس بها أسراء الملك في رساتيق لهم".⁴ وبذلك غدت كلمة دار موازية لكلمة بلاط.

لكن لا بدّ أن نشير إلى استعمالات أخرى لكلمة دار، فقد استخدمت في مصر للدلالة على قطعة الأرض وليس على المبنى، ثم عن طريق التوسع في الاستعمال صارت تطلق على الدار التي تبني على إثر منح القطيعة أو الأرض.⁵ أما في العهد العباسي فقد استخدمت كلمة دار لاسيما في المصادر العربية الإسلامية، بمعنى القصر أو البلاط.

ولم تظهر كلمة بلاط في علاقة مباشرة بالعباسيين حسب ما اطلعنا عليه من مصادر، إلا في مصدر سرياني متأخر وهو "تاريخ الزمان" لابن العبري (متوفى 685 هـ / 1286 م)، وقد استخدمت في عهد الخليفة المقتدر، يذكر "وأرسلوا إلى المقتدر وإلى أمه ومريته وحجّابه في مغادرة البلاط".⁶ ويذكر في موضع آخر "خافوا على أنفسهم فاتخذوا جميع حراس البلاط من رجالهم".⁷ وهي تدلّ على القصر أو المكان.

¹ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، بغداد 1931، ج 1، ص 99؛ اليعقوبي، البلدان، النجف 1957، ص 4-10-22-26؛ مسكويه، تجارب الأمم، القاهرة د-ت، ج 2، ص 3-16-23-30-47.

² - دغفوس (راضي)، محمد ونشأة الإسلام، تونس 2006، ص 34.

³ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 99؛ اليعقوبي، نفس المصدر، ص 10-26؛

- Northedge. A, Op. Cit , p.140.

⁴ - ابن حوقل، صورة الأرض، ص 178.

⁵ - Denoix. S, « Note sur une des significations du terme « Dar » », Annales Islamologiques, t XXV, 1991, p. 285.

⁶ - ابن العبري، تاريخ الزمان، بيروت 1986، ص 50.

⁷ - ابن العبري، نفس المصدر، ص 55.

لكى تبقى للجدر العربي لكلمة بلاط ميزة لازمتها في تطور الاشتقاق وهي ارتباط المعنى المكاني بمعنى آخر إنساني يدل على كيفية استعمال البهو أو الصحن المبلط لاجتماع الناس، ومن هنا صار مفهوم البلاط موازيا للكلمة الفرنسية " La cour " وأصبح لا يدل فقط على القصر وإنما يدل أيضا على المؤسسة الإنسانية المكونة من الملك على رأسها ورجال الحاشية و أصحاب الوظائف إلخ.¹

وهنا لا بد أن نشير إلى أصل كلمة « la cour » والتي تعود إلى العصر الوسيط الغربي، وهي مأخوذة عن الكلمة اللاتينية « cohortis », « cohors », وكانت تعني في البداية الحظيرة أو الزريبة، ثم توسعت وأصبحت تطلق على المعسكر وكذلك على الجيوش المقيمين فيه، كما تطلق أيضا على الحيوانات أو الأشخاص المحتشدين داخل الزريبة. ومنذ منتصف القرن التاسع خضت الكلمة وبدون غموض إما بقصر الملك أو بمجموعة الأشخاص المحيطين به.²

ولا توجد أي عبارة بيزنطية مفردة ماثلة تماما لكلمة « la cour », وعلى الأرجح فإن كلمة « palation » القصر، هي التي استخدمت للدلالة على البلاط البيزنطي في القرن 10م.³ وقد استعملت كلمة "قصر" في المصادر البيزنطية مثل كتاب Niketas Choniates في معظم الأحيان بمعنى البناية وفي حالات نادرة وعلى سبيل المجاز بمعنى البلاط « la cour ».⁴ كما استعملت في مصادر أخرى مثل كتاب Nicholas Mystikos للإشارة إلى أعوان وموظفي القصر، وقد تستعمل أيضا لتدل على المؤسسة الإنسانية المحيطة بالإمبراطور، وليس على القصر.⁵

كما وقع استعمال كلمة أخرى من طرف Choniates هي « aule », واستعمالها يعدّ مميزا، إذ هي تعني رجال البلاط « courtiers » أكثر مما تعني القصر، وهي تعادل الكلمة العربية « cour ».⁶ ونفس هذه الكلمة تقريبا « aula », استخدمتها مصادر العصر الكارولنجي، تحديدا إيجنهارد للدلالة على المؤسسة الإنسانية المكونة من الملك على رأسها ومن رجال البلاط « la cour », فقد ذكر في مقدمة كتابه "سيرة شلمان"، أنه من بين الأسباب التي دفعته إلى تأليفه هو " اعترافه بالجميل للرجل الذي ساهم في تكوينه، وكنتيجة للمحبة الدائمة التي نشأت سواء معه أو مع أبنائه منذ أن بدأ العيش في بلاطه".⁷

كما استخدمت كلمة أخرى هي « causis », لتدل أيضا على رجال الحاشية والبلاط، "فبعد وفاة الملك كرلمان، فرت زوجته صحبة أبنائها والبعض من كبار رجال بلاطها إلى إيطاليا للاحتفاء بملك اللمبارد".⁸

¹ - ضناوي (سعدي)، نفس المرجع، ج 1، ص 20.

² - McCormick (Michael) and Kazhdan. P (Alexander), « The Social World of the Byzantine Court » in *Byzantine Court Culture from 829 to 1204*, Washington 1997, p. 172-173.

³ - *Ibid*, p. 173.

⁴ - *Ibid*, p. 174.

⁵ - *Ibid*, p. 173.

⁶ - McCormick (Michael) and Kazhdan. P (Alexander), « The Social World of the Byzantine Court » *Op. Cit*, p. 174.

⁷ - Eginhard, *Vie de Charlemagne*, édité et traduite par Louis Halphen, Paris 1994, p.4- 106.

⁸ - Eginhard, *Ibid*, p.14.

أما كلمة قصر « palatium »، « palatii » فقد استخدمت كمبنى¹، أو مقترنة بأسماء أصحاب بعض الوظائف في القصر مثل كونت القصر « comes palatii »، أو محافظ القصر « praefecto palatii »². ومن هنا تكون كلمة « aula » هي المحددة للبلاط الكارولنجي في معناه المجازي وكلمة قصر هي المحددة له في معناه المادي، أما المصادر البيزنطية فإنها تتأرجح بين كلمتي « aula » و« قصر » للدلالة على هذا المعنى الإنساني للبلاط أي « la cour ».

وقد حاولنا البحث عن كلمة عربية قد تكون استعملتها المصادر للدلالة على البلاط العباسي في معناه الإنساني، وتكون موازية لكلمة « la cour » الفرنسية، فلاحظنا تعدد وتنوع التسميات التي استخدمتها المصادر للتعبير عن الوسط البشري الذي يحيط بالخليفة، والتي تتراوح عموماً بين الأتباع، والحاشية، والبطانة والحواشي، والحشم، والخاصة، والخواص، والأهل. وتشير كل تسمية من هذه التسميات في غالب الأحيان إلى فئة مغايرة للأخرى، فالأتباع ليسوا بالحاشية، والحشم ليسوا بالخدم، والحواشي ليسوا دائماً بالخواص. أما كلمة دار فلم تستخدمها المصادر للدلالة على هذا المعنى الإنساني للبلاط إلا في بداية القرن الرابع هجري حيث لا تبدي هذه المصادر في حديثها عن دار الخلافة العباسية فقط وصفا للإطار المادي الذي يعيش فيه الخليفة، بل كذلك للوسط البشري الذي يحيط به. ومن هنا نلاحظ ارتباط المعنى المكاني لكلمة دار بمعنى آخر إنساني.

نلاحظ أنه مهما اختلفت التسميات في المصادر العربية البيزنطية والكارولنجية فإنها تدل على أن البلاط ليس فقط ظاهرة مادية بمعنى القصر بل هو أيضاً ومثلما أشار إلى ذلك نوربار إلياس ظاهرة إنسانية أو اجتماعية متميزة³. ومن هذا المنطلق صار البلاط يحمل ثلاث معان أساسية فهو يطلق على المكان الذي يقيم فيه الملك وهو يعني كذلك الموظفين وكل المحيطين بالملك كما يطلق أيضاً على الحياة داخل البلاط.

« Cour lieu où habite un roicour signifie encore tous les officiers et la suite du princecour, se dit encore des manière de vivre à la cour ». Furetière.⁴

ولا بد أن نشير إلى أن البلاط العباسي، قد مثل موضوع بحثنا في نطاق شهادة الدراسات المعمقة وذلك خلال الفترة الممتدة من 132هـ/749م إلى 247هـ/861م أي من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المتوكل: أي فترة القوة والازدهار. وكانت إشكالية بحثي تتمثل في معرفة، إذا ما كان العباسيون الأوائل قد عرفوا البلاط أو حياة البلاط في إطار التطور التاريخي؟

¹ - Eginhard, *Ibid*, p.10- 98.

² - Eginhard, *Ibid*, p.14- 30.

³ - Elias. N, *La société de cour*, p. 13.

⁴ - Bluche. F, *La vie quotidienne au temps de Louis XIV*, France 1984, p. 19.

وقد توصلنا بعد الإحاطة بظروف وصول العباسيين إلى الحكم، ودراسة مميزات ومتغيرات نظام الحكم العباسي إلى الإقرار بأن الخلفاء العباسيين الأوائل قد تبنوا مبدأ البلاط بكل ما يحمله من مظاهر الرفعة والفخامة والأبهة وأن القصر العباسي أو دار الخلافة العباسية قد استجابت لمفهوم البلاط وذلك على جميع المستويات السياسية، الاجتماعية والتشريفية أو البرتوكولية.

وقد دفعنا الإقرار بوجود بلاط عباسي خلال العصر العباسي الأول إلى الإحاطة بظروف تطور هذا البلاط وهو ما اقترحت عليه كذلك لجنة المناقشة، وذلك من خلال دراسة البلاط العباسي على كامل الفترة الممتدة من (132هـ/749 م إلى 334هـ/945 م) أي من بداية تأسيس الدولة العباسية حتى زوال السيادة الفعلية في عهد الخليفة المستكفي الذي ملك بنو بويه في آخر عهده، والذين أسسوا إمارة وراثية في صلب الخلافة العباسية في بغداد، حيث لم يبق للخليفة إلا اسم الخلافة، أما السيادة الفعلية فقد أصبحت لأمة فارسية من الديلم يمثلها السلطان من بني بويه، وهو ما يلخصه لنا قول البيروني " إن الدولة والملك قد انتقل في آخر أيام المتقي وأول أيام المستكفي من آل العباس إلى آل بويه، والذي بقي في أيدي الدولة العباسية إنما هو أمر ديني اعتقادي لا ملك دنيوي".¹

فقد عرفت الخلافة العباسية خلال هذه الفترة الممتدة من (132هـ/749 م إلى 334هـ/945 م)، طورين مختلفين: الطور الأول يمتد من سنة (132هـ/749 م إلى سنة 247 هـ/861 م) ويمثل عصر القوة والازدهار، أما الطور الثاني فيمتد من سنة (247 هـ/749 م إلى سنة 334 هـ/945 م)، وقد اصطلح على تسميته بعصر الفوضى العسكرية.

وعلى هذا الأساس فإن إشكالية بحثنا لم تعد تتمثل في معرفة، إذا ما كان العباسيون قد عرفوا ظاهرة البلاط في إطار التطور التاريخي، لأن البلاط بالنسبة إلينا أصبح ظاهرة موجودة، وإنما أصبحت إشكالتنا تتمثل في قياس درجة التطور الذي حققته السلالة الحاكمة العباسية في ممارستها للبلاط والسلوك البلاطي عبر أكثر من قرنين من الزمن؟

وعلى هذا الأساس، إن موضوع هذا البحث يتمثل في دراسة البلاط العباسي من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المستكفي. وبناء على تعريف البلاط، وللإجابة عن الإشكالية المطروحة اتبعنا:

✓ التخطيط الموالي:

- باب أول يهتم بدراسة البلاط العباسي بوصفه فضاء مادي معماري، وقد أطلقنا عليه اسم " دار الخلافة" وذلك لأن كلمة دار هي الكلمة التي استخدمتها المصادر للدلالة على قصور الخلفاء العباسيين، وقد حاولنا فيه دراسة مختلف المدن والقصور العباسية. وذلك قصد التعرف إذا ما كانت دار الخلافة العباسية قد استجابت فعلاً لمفهوم المدينة الملكية. وقد اعتمدنا في دراسة هذا الباب على ما ورد في المصادر من إشارات لاسيما كتب

¹ - القزويني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، بيروت، دار صادر د- ت، ص 132.

الجغرافيا ، وكذلك على نتائج البحث الأثري وأيضا على ما توصلنا إليه من نتائج خلال زيارتنا للقصور والمدن العباسية في الرقة.

- باب ثاني أطلقنا عليه اسم " مجتمع البلاط أو مجتمع دار الخلافة العباسية " قمنا فيه بدراسة مختلف العناصر البشرية المكونة لدار الخلافة العباسية والتي وقع تقسيمها إلى مجموعتين: المجموعة الأولى تتمثل في رجال البلاط على اختلاف مراتبهم (تحديد انتماءاتهم العرقية، دورهم ، علاقتهم بالخليفة وضبط توزيعهم على الخارطة الطبوغرافية...)، والمجموعة الثانية تتمثل في الحرم (تحديد معنى الحرم عند العباسيين، ترتيب النساء داخل الحرم، ثم دراسة دور المرأة في البلاط). ونظرا لتعدد الأشخاص قمنا بتكوين قاعدة بيانات تعتمد على برمجة إعلامية ساعدنا على إنجازها مركز دراسة تاريخ النصوص في باريس: " Institut de recherche et d'histoire

des textes"، وقد قمنا بتحويلها فيما بعد إلى جداول ورسوم بيانية قمنا بتحليلها.

- أما الباب الثالث فيهتم بدراسة الحياة اليومية لهذه المجموعات البشرية داخل ذلك الفضاء المادي المعماري، سواء منها المتعلقة بمجالس الخلفاء العباسيين أو بالحياة داخل " الحرم"، وذلك باعتماد دراسة مقارنة بين النصوص التاريخية وبين مجموعة من الصور، فقد شهد العصر العباسي بروز أو نشأة فن البلاط.

الباب الأول

الحِيز المادي للبلاط العباسي:

دار الخلافة العباسية

تمهيد

إن كل نظام حكم مهما كانت طبيعته السياسية أو الدينية، له مرتكزات معنوية يستند عليها وتضفي عليه صفة الشرعية كالقراية والنسب وله كذلك رموز مرئية تجسده وتبرزه وتضفي عليه مزيدا من الشرعية، وأهمها المقرات الملكية والتي تتجسد خاصة في القصور والمدن.

ذلك أن الحكم السياسي لا يبرز فقط من خلال نصوص قانونية وحركات قوة أو عنف تصفه بالشرعية - شرعية يقدم لها القانون والحرب عبارة ثابتة - وإنما يعبر عنه كذلك عن طريق تجسيده في الفضاء وإظهار خيال من القوة والتخويف يتبلور في القصر خارج أو داخل المدينة.¹

ومن هذا المنطلق فقد مثلت القصور والمدن الملكية على مرّ العصور مطلبا أساسيا ووسيلة ضرورية بالنسبة للسلطة الحاكمة لإبراز ذاتها وتأكيد تفوقها إزاء الرعية وإزاء الشعوب الأخرى المجاورة، وذلك عن طريق الإيجار الذي تنتجه هذه القصور والذي يحمل في طياته فكرة الرهبة والخوف من السلطة الحاكمة كوسيلة لفرض النظام وحفظ الأمن. فالقصر هو " الإشارة المرئية والشكل المادي والنقش الفضائي للحكم ".²

ويبدو أن الخلفاء العباسيين لم يحدوا عن هذا الخيار فقاموا بتشييد العديد من القصور والمدن. ذلك أنه رغم اختيارهم للعراق كمقر للحكم فإن العباسيين، لم يستقروا في مكان واحد طيلة تاريخهم الطويل، وإنما كانوا يتنقلون من مكان إلى آخر وفي كل مرة كانوا يؤسسون مدن وقصور جديدة. وقد اعتنوا بهذه القصور والمدن من الناحية العمرانية والمعمارية والدفاعية حتى غدت رمزا للسلطة الحاكمة العباسية. وللدلالة على هذه القصور والمدن عادة ما استعملت المصادر كلمة "قصر"، "دار"، "دار الخلافة"، "دار السلطان"، إلخ...

وبالتالي فإن معرفة قصور الخلفاء العباسيين ودراسة خصائصها المعمارية والعمرانية يعدّ عملا أساسيا بالنسبة إلينا باعتبار أنهما تمثل من جهة الفضاء المادي الذي يعيش فيه الخليفة والمحيط البشري والميكل النظمي اللذان يحيطان به، ومن جهة ثانية تمكنا من التعرف على الاتجاهات السياسية والإيديولوجية للخلفاء العباسيين كما عبر عنها في القصور والمدن.

لكن لا بدّ أن نشير إلى أن القصر الملكي أو المدينة الملكية يستوجب توفر مجموعة من الشروط تلخص فيما أشارت إليه ماريان باريكن من تأسيس مجموعة معمارية شاسعة بأمر من الأمير، تتجاوز مساحتها وتعقيداتها القصر وحتى المجموعة البلاطية وتأخذ شكل مدينة حقيقية تحيط بها الأسوار وتأوي الحاكم وعائلته وحاشيته الكبيرة العدد والمتنوعة. كما تستوجب بالإضافة إلى المنشآت المخصصة لإدارة المملكة، أصناف مختلفة من المساكن تتراوح من القصور الضخمة إلى ثكنات العبيد ومعسكرات الجند، بالإضافة إلى مساحات للعب

¹ - AUZEPY (Marie-France), CORNETTE (Joël), «Lieux de pouvoir, pouvoir des lieux », dans *Palais et Pouvoir de Constantinople à Versailles*, Saint- Denis, 2003, p. 5.

² - AUZEPY (Marie-France), CORNETTE (Joël), *Ibidem*, p. 5.

والحدائق وأماكن للخزن ومصانع وأسواق.¹ وبالتالي فإن السؤال الذي يطرح هو إلى أي مدى ستستجيب دار الخلافة العباسية لمفهوم المدينة الملكية أو القصر الملكي؟.

للإجابة على هذا السؤال لا بدّ من التمييز بين ثلاثة مقرات حكم رئيسية: دار الخلافة في بغداد، دار الخلافة في الرقة، ثم دار الخلافة في سامراء وأخيرا عودة دار الخلافة من جديد إلى بغداد في الجانب الشرقي.

¹ - Barrucand. M, « L'art de l'islam », dans *Histoire de l'Art : Moyen Age, Chrétienté et Islam*, Paris 1996, p. 464 ; BARRUCAND.M, « L'Islam », dans *L'Art du Moyen Age*, Paris, 1995, p. 426.

الفصل الأول: دار الخلافة العباسية في بغداد

إن تأسيس مدن ملكية على أسس عمرانية جديدة، ذات طابع اجتماعي، اقتصادي، إداري، سياسي، عسكري، ترفيهي وإيديولوجي في نفس الوقت، وليس على أساس عسكري بالدرجة الأولى كما هو الشأن بالنسبة لتأسيس الكوفة، البصرة، الفسطاط والقيروان، يعدّ تحولا هاما في تاريخ فن العمارة الإسلامية، وقد عرف بداية ظهوره في العصر العباسي الأول مع تأسيس بغداد، الرقة ثم سامراء والتي تعدّ أولى المدن الملكية الإسلامية. وقد انتشرت هذه الظاهرة فيما بعد، واقتدى بها كل من الخلفاء الأمويين في قرطبة والفاطميين في المهديّة وخاصة في مصر وكذلك بعض الحكام في الولايات والأقاليم.¹

ولم تكن بغداد أولى المدن التي أسسها الخلفاء العباسيون، بل سبقها تأسيس عدة مدن أخرى قد تكون مهّدت أو ساعدت على نشأة أو ظهور المدينة الملكية في العصر العباسي.

I عواصم العباسيين قبل تأسيس مدينة بغداد

1- الحميمة:

من المعروف أن الأسرة العباسية قبل توليها الخلافة كانت تقيم بالحميمة، بلد من أرض الشراة من أعمال عمان في أطراف الشام، وهي تقع في سهل القويرة، جنوبي معان.² وتبعد حوالي 80 كلم شمال مدينة العقبة. وتشير المصادر إلى أن علي بن عبد الله بن العباس اشترى موضع الحميمة في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وشيّد فيه منزلا ومسجدا وغرس فيه خمسمائة شجرة زيتون.³

وقد وصف أخبار العباس وولده منزل الحميمة بأنه عبارة عن رحبة واسعة، تحيط بها منازل محمد بن علي وإخوته وولده ومواليهم، وفيها بيت للضيّفان، وكان الدعاة يأتون لزيارة محمد بن علي فيها بزيّ التجار.⁴

وقد أسفرت عمليات التنقيب الأثري التي قامت بها اللّجنة الكندية سنة 1991 عن الكشف عن المنزل والمسجد.⁵

¹ - Barrucand. M, « Les relations entre ville et ensemble palatial dans les villes impériales marocaines : Marrakech et Mekhnès », dans *Collection d'Histoire et d'Archéologie médiévales*, n 13, Lyon 2004, p.326.

² - ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت د- ت، ج 2، ص 188؛ هارندج (لانكستر)، آثار الأردن، تعريب سليمان موسى، الأردن 1965، ص 44.

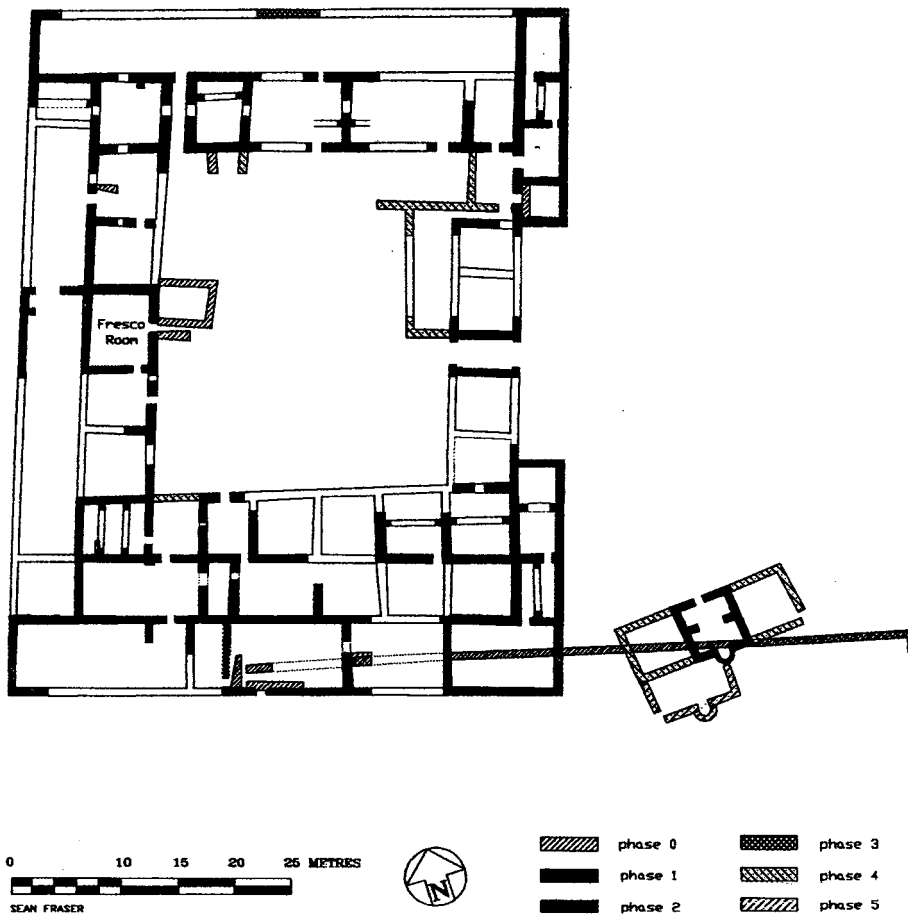
³ - مؤلف مجهول، أخبار العباس وولده، بيروت 1971، ص 155؛ البلاذري، أنساب الأشراف، بيروت 1996، ج 4، ص 115.

⁴ - مؤلف مجهول، نفس المصدر، ص 155.

⁵ - Northedge . A, *Entre Amman et Samarra : l'archéologie et les élites au début de l'Islam (VII e- IX e siècles* , synthèse de travaux soumise pour l'obtention de l'habilitation à diriger des recherches, Université de Paris I, octobre 2000, p.59 ; Zayadine. F, « al- Houmayma », dans *Les Omeyyades naissance de l'art islamique*, Aix en Provence 2000, p. 194.

ولا تزال آثارها قائمة إلى اليوم وهي تكاد تنطبق على الوصف الذي قدمه لنا أخبار العباس وولده. فقد شيد المنزل على أنقاض معالم قديمة تعود إلى العهد القبطي والروماني والبيزنطي، وهو مستطيل الشكل بلغت مقاييسه (64×50م) ويتألف من ساحة مركزية تحيط بها مجموعة من الغرف، و بالتالي نلاحظ انعدام التنظيم في شكل بيت (أي مجموعة من الوحدات المستقلة تنتظم كل واحدة منها حول ساحة صغيرة) والذي تميزت به القصور الأموية.¹ ويحيط بالقصر جدار خارجي لكنه غير معزز بأبراج، أما مدخل القصر فقد فتح في الجهة الشرقية.

1 تخطيط: قصر الحميمة.²

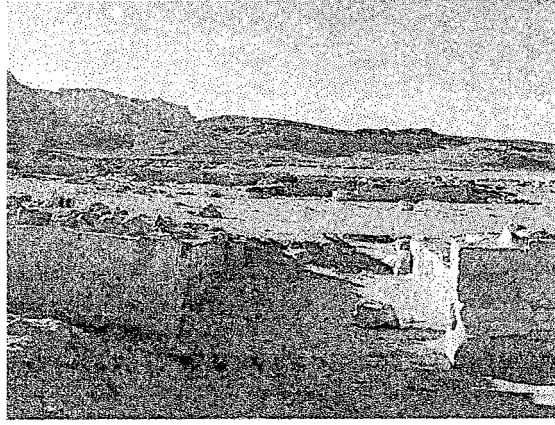


¹ - Zayadine. F, *Ibidem*, p. 194; Foote. R, « Frescoes and carved ivory from the Abbasid family homestead at Humeima », in *Journal of Roman Archaeology*, v 12, 1999, p. 423.

² - Foote. R, *Ibid*, p. 424.



صورة 1: قصر الحميمة



صورة 2: مدخل القصر



صورة 3 : الجدار الخارجي للقصر

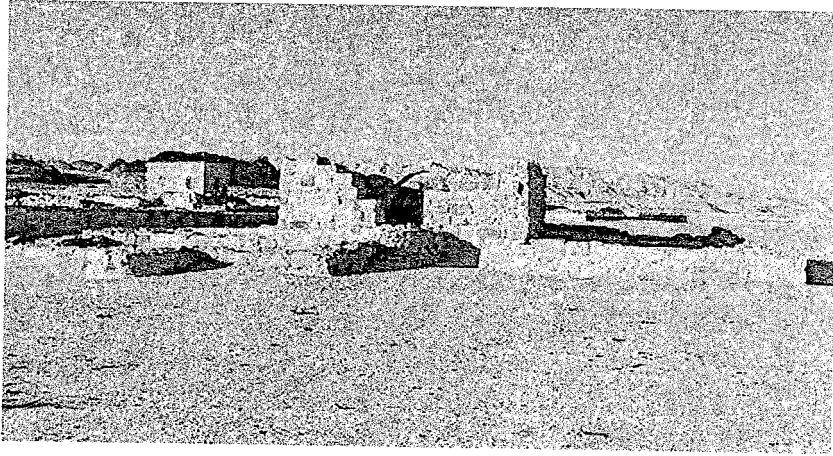
وقد بينت الأبحاث الأثرية أن خصائص هذا القصر نجد لها صدى في شبه الجزيرة العربية، لاسيما وأن علي بن عبد الله قد عاش مدة في مدينة الطائف في الحجاز قبل أن يستقر في الحميمة. وبالرغم من تعدد الغرف داخل هذا القصر، لم تتمكن الأبحاث الأثرية إلا من تحديد وظيفتي غرفتين اثنتين: الأولى تمثل فرنا، والثانية تقع في وسط الجهة الغربية وقد تم العثور فيها على عدد من الصور الجدارية، وهي تمثل قاعة الاستقبال.¹ أو بيت الضيوف.

¹ - Zayadine. F, *Ibid*, p. 195

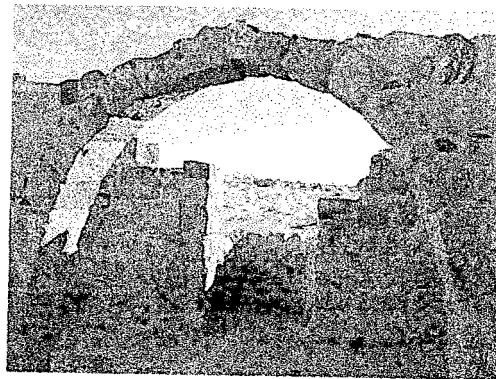


4 صورة: قاعة الاستقبال/ غرفة الرسوم

أما المسجد فقد شيد على بعد حوالي 10 م من الزاوية الجنوبية الشرقية للقصر، على شكل معين، يتراوح قياس أضلاعه بين 5.60 و 5.75 م.¹ وهو لا يحتوي على صحن وأروقة، وإنما فقط بيت صلاة، ويبدو أنه عندما أصبح غير قادر على احتضان عدد كبير من المصلين أضيف إليه بيت آخر إلى جانبه ويحتوي كل منهما على محراب لا تزال آثارهما واضحة من الخارج. ولذلك لم تكن قبلة المسجد جيّدة.



صورة 5: مسجد الحميمة



صورة 6: المحراب الرئيسي

¹ - Zayadine. F, « al- Houmayma », *Op. Cit*, p. 195 ; Foote. R, « Frescoes and carved ivory from the Abbasid family .. », *Op. Cit*, p. 423.

ففي قصر الحميمة إذن أوصى أبو هاشم إلى محمد بن علي بالإمامة وفيه نشطت الثورة العباسية التي أدت إلى سقوط الخلافة الأموية وإلى وصول العباسيين إلى الحكم. وفي الحميمة أيضا ولد أول خليفة عباسي أبا العباس السفاح، كما وُلد فيها كذلك أخوه الخليفة أبو جعفر المنصور،¹ وغيرهم من أبناء عمومتهما وإخوتهما. وقد ظلت الأسرة العباسية تقيم في هذا المنزل إلى أن قبض على إبراهيم الإمام من قبل الخليفة الأموي مروان بن محمد، فانتقلت الأسرة العباسية إلى الكوفة وذلك تبعا للوصية التي أوصى بها إبراهيم الإمام أخاه أبا العباس السفاح الذي أمره بضرورة ترك الحميمة والاتجاه فورا إلى الكوفة.² ويبدو أن الأسرة العباسية لم تغادر كلها الحميمة عندما أُنشئت الخلافة، وأن من عناصرها من ظلّ يقيم في الحميمة، إذ يذكر اليعقوبي أنه قدم من بني هاشم الكوفة 22 رجلا فقط بينما يذكر البلاذري 17 رجلا.³ فقصر الحميمة إذن يرمز إلى الثورة العباسية.

2- الهاشمية:

بعد نجاح الثورة العباسية، انتقلت الخلافة العباسية إلى العراق تبعا لوصية إبراهيم الإمام، و لعدة أسباب أخرى طبيعية، اقتصادية، سياسية، وكذلك حضارية، ذلك أن حظوة السلالة الساسانية قد تكون ساهمت في اختيار العباسيين الاستقرار بالقرب من مراكزهم القديمة.⁴ وقد قام كل من الخليفة أبي العباس السفاح و أبي جعفر المنصور بتأسيس أربع عواصم أطلقوا على كل منها اسم "الهاشمية". العاصمة الأولى كانت في الأصل قصرا ليزيد بن هبيرة عامل مروان بن محمد على العراق، استتم بناءه السفاح واتخذ منه مدينة سماها "الهاشمية"، وهو يقع على جسر سورا في منتصف الطريق بين الكوفة وبغداد. لكن استمرار الناس على تسميتها بقصر بن هبيرة جعله يتركها ويؤسس قبالتها مدينة ثانية أطلق عليها كذلك اسم "الهاشمية".⁵ لكنه لم يلبث أن تركها وانتقل إلى الأنبار فشيّد بها مدينة "لنفسه وجموعه، وقسمها خططا بين أصحابه من أهل خراسان، وبني لنفسه في وسطها قصرا عاليا منيعا فسكنه".⁶ وقد أطلق عليها كذلك اسم الهاشمية وهي تقع على الضفة اليسرى للفرات غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ.

1- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، القاهرة 1931، ج 10، ص 46-53.

2- مؤلف مجهول، نفس المصدر، ص 393-394.

3- اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 350؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 237.

4- للمزيد من المعلومات حول أسباب اختيار العباسيون الاستقرار في العراق انظر بحثنا الأول: أسماء عمارة، البلاط العباسي من (132هـ/749 م إلى 247هـ/861 م)، شهادة الدراسات المعمقة، جامعة تونس الأولى، 2003، ص 31-30.

5- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 365؛

- Lassner. J, sv « Kasr ibn Hubayra », E. I 2, t IV, p. 758; Lassner. J, sv « Al- Hashimiyya », E. I 2, t III, p. 273.

6- الدينوري، الأخبار الطوال، ص 375؛

- Streck. M, Duri. A, sv « Al- Anbar », E. I, t I, p. 499.

ثم لما استخلف المنصور لم يستقر بالأنبار وقرّر الانتقال إلى مدينة الهاشمية الواقعة قبالة مدينة هبيرة قرب الكوفة وليس الواقعة قبالة قصر ابن هبيرة الواقع بين الكوفة وبغداد والتي استقر فيها السفاح.¹

إن ما نلاحظه هو أن مدينة الهاشمية والتي مثلت دار الخلافة العباسية خلال فترتها التأسيسية الأولى عجزت عن تأدية وظيفتها كمدينة ملكية. فقصر ابن هبيرة ظلّ يرمز إلى الحكم السابق بالرغم من قيام السفاح باستكمالهِ وإعطائه اسماً جديداً. كما أن مدينة الأنبار كانت ذات صبغة عسكرية وقد بنيت تقريباً على المخطط نفسه الذي بنا به العرب البصرة والكوفة و واسط.² أما هاشمية المنصور فإن قربها من الكوفة يجعلها غير ملائمة كي تكون عاصمة خلافة جديدة، تقرر أن يكون العراق مقراً لها فهي مثلما أشار إلى ذلك هشام جعيط " مصطنعة الإنشاء لأنها تقابل الكوفة وتستقبل منها كل التأثيرات".³

لكن ولئن عجزت الهاشمية عن تأدية دورها الوظيفي كعاصمة ملكية لسلالة حاكمة جديدة، فقد نجحت في أداء دورها الإيديولوجي المتمثل في التأكيد على أحقية آل البيت بالخلافة، الشعار الأساسي للثورة العباسية. فالهاشمية هي نسبة إلى أبي هاشم الجد الأعلى للعباسيين والعلويين، وبالتالي فإن هذه التسمية تكسب العباسيين المزيد من الشرعية وتجنّبهم الاصطدام مع العلويين في هذه المرحلة الأولى التأسيسية.

ثم وفي إطار حرصهم على التأكيد على أحقيتهم في الخلافة كحق سابق للعلويين سيسعى العباسيون إلى تأسيس مدن ملكية تكون مقراً لهم ولحاشيتهم وأتباعهم وتعبّر عن تطلعاتهم السياسية والإيديولوجية وهو ما عرف بداية ظهوره مع تأسيس مدينة بغداد.

II بغداد: هل كانت مدينة ملكية حقيقة أم مجرد معسكر؟

يكاد يجمع كل الذين تعرضوا في بحوثهم لمدينة بغداد من مستشرقين وعرب أنما تمثل تطورا جديدا في فنّ بناء المدن الإسلامية. لكن في حين أكّدت الدراسات العربية على أهمية الطابع الإداري والعسكري لمدينة بغداد حيث يذكر فاروق عمر أن الواجب الأول لمدينة السلام هو أن تكون معسكراً للجند ومركزاً إدارياً للموظفين بعد أن كانت الأمصار الكوفة، البصرة، الفسطاط مدناً عسكرية بالدرجة الأولى.⁴ أكّدت الدراسات الاستشراقية على أهمية الطابع الملكي لمدينة بغداد، حيث تشير باركن إلى أن مدينة بغداد هي أول مثال للمدن

¹ - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، عمان، د. ت، ص 1547؛ أسماء عمارة، البلاط العباسي، ص 33-34؛ Lassner. J, sv « Kasr ibn Hubayra », E. I 2, t IV, p. 758; Lassner. J, sv « Al- Hashimiyya », E. I 2, t III, p. 273.

² - شاکر (مصطفى، في التاريخ العباسي، دمشق 1957، ج 1، ص 140.

³ - جعيط (هشام)، الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية، بيروت، 1993، ص 335.

⁴ - عمر (فاروق)، " العباسيون إنجازاتهم الحضريّة"، المدخل إلى تاريخ آل البيت منذ فجر الإسلام وحتى مطلع العصر الحديث، عمان 1989، ص 257-258.

الملكية التي عرفها الإسلام والتي انتشرت فيما بعد إلى وقتنا الحاضر.¹ فماهي أبرز معالم مدينة بغداد المعمارية؟ وهل كانت مركزا إداريا وعسكريا أم مدينة ملكية حقيقية؟

إن دراسة معالم بغداد الأثرية يعدّ أمرا صعبا فقد تضافرت العديد من العوامل التي ساهمت في اختفاء آثارها، ولم يبق لنا من معين على تحديد خصوصياتها سوى الأوصاف التي سجلها لنا الرحالة والبلدانيون العرب والأجانب والتي تضمنت معلومات مهمة عن خطط بغداد.

فكما هو معلوم لم يبق من معالم بغداد اليوم أي أثر يمكننا من تحديد موقعها ودراستها، بالرغم من أن عدد غير قليل من القصور الأموية الصحراوية لا يزال قائما بكل من سوريا والأردن. فقد ساهمت العديد من العوامل في زوال معالمها، أهمها مواد البناء، فقد أدت وفرة الصلصال وقلة الخشب والحجارة إلى اعتماد مواد بناء فقيرة متكونة من الآجر المشوي والتي أصبحت السمة المميزة للعمارة في العراق.²

كما أن نهر دجلة غير مجراد في بغداد عدة مرات في عدة أماكن، فأتى على العديد من المواقع التي يمكن الاستعانة بها على فهم خطط بغداد. كما أدى حصار بغداد من طرف جنود طاهر بن حسين في أثناء الحرب بين الأمين والمأمون إلى تخریب الجزء الأكبر من نصفها الشمالي المعروف بالحربية تحت ضربات المجانيق.³

لكن ولئن اندثرت معالم مدينة بغداد الأثرية فلا تزال بعض آثار مدينة الرافقة قائمة إلى يومنا هذا ويمكن الاستعانة بها لدراسة معالم مدينة بغداد الأثرية. ذلك أن المنصور حسب ما تشير إليه المصادر لم يكتف ببناء بغداد فحسب بل قرّر أن يبني بعدها مدينة الرافقة، وقد نفّذ مشروعه ببناء مدينة الرافقة سنة 155هـ / 772م، في جوار مدينة الرقة القديمة وأرسل لهذا الغرض ابنه المهدي، ويذكر الطبري أنه "شخص إليها فبناها على بناء مدينة بغداد في أبوابها وفصولها ورحابها وشوارعها وسورها وخندقها ثم انصرف إلى مدينته"،⁴ ويذكر البلاذري "ولم يكن للرافقة أثر قدم، إنما بناها أمير المؤمنين المنصور سنة 155 هـ على بناء مدين بغداد".⁵

نلاحظ من روايتي الطبري والبلاذري أن المنصور بنى مدينة الرافقة على شكل مدينة بغداد، وبالتالي فإن مدينة الرافقة تعدّ مرجعا أساسيا لا بدّ من الرجوع إليه في أي دراسة لمعالم مدينة بغداد المعمارية، لاسيما وأن عدد من معالم مدينة الرافقة لا يزال قائما إلى يومنا هذا، وقد مثلت موضع اهتمام من قبل عدد من الباحثين العرب والمستشرقين مثل كرزوال، قاسم طوير، ماينكه....

وبالتالي فإن دورنا لم يعد يتمثل في دراسة معالم مدينة بغداد المعمارية انطلاقا مما ورد ذكره في المصادر من إشارات بل كذلك مقارنتها مع ما تبقى من آثار مدينة الرافقة. حتى نتوصل في النهاية إلى معرفة مدى مطابقة

¹ - Barrucand.M, « Les relations entre ville et ensemble palatial..... », *Op.Cit*, p.326.

² - Barrucand.M, « L'art de l'islam », *Op.Cit*, p. 465.

³ - السوداني (عبد الرحيم)، "أسوار بغداد"، المورد، عدد 8، 1979، ص 39؛ الهيتي (فارس)، "تخطيط مدينة بغداد عبر العصور التاريخية"، المورد، عدد 8، 1979، ص 14.

⁴ - الطبري، تاريخ، ص 1582.

⁵ - البلاذري، فتوح البلدان، إعادة طبعة نسخة مدينة ليدن، جمهورية ألمانيا الاتحادية، ص 179.

مدينة الرافقة لمدينة بغداد ومعرفة إلى أي مدى يمكن اعتبار مدينة الرافقة مثالا حيًا يمكن أن يعوضنا عن مدينة بغداد المندثرة؟

* الموقع

أسست مدينة بغداد سنة 146 هـ / 763 م، من قبل الخليفة العباسي المنصور، في موضع تذكر المصادر أنه كان قرية من قرى الفرس.¹ وقد زالت كل معالمها مثلما ذكرنا ولم يبق لنا من معين على تحديد موضعها سوى نص لابن الطقطقي، ورد فيه أنها كانت قرية من مقابر قريش التي دفن فيها الإمامان موسى والحواد.² وقد كانت قبل بنائها مزرعة للبغداديين يقال لها المباركة فعوضهم عنها. وهي تقع على الضفة اليمنى من نهر دجلة في الزاوية المتكونة بين مجرى الصراة ومجرى دجلة شمالا. وقد لعبت العوامل الطبيعية والإستراتيجية والعسكرية والتجارية دورا مهما في اختيار موقع بغداد، ولا أود أن أطيل الحديث عن أهمية موقع مدينة بغداد والاعتبارات التي دفعت المنصور إلى اختياره، فالكلام عن ذلك كثير وقد سبقتني إليه العديد من المؤرخين وعلماء الآثار.³ أما مدينة الرافقة فهي تقع غرب مدينة الرقة على بعد 300 ذراع.⁴ ويبدو أن نفس العوامل التي دفعت المنصور لاختيار موقع بغداد هي التي دفعته لاختيار موقع مدينة الرافقة. فهي قرية من التخوم الشمالية، أين يوجد الخطر البيزنطي، كما أن موقعها في الضفة الشرقية وإمكان نصب جسر منها إلى الضفة الغربية، يجعل منها مركزا حصينا صالحا للدفاع والمجوم في آن واحد.⁵ أما من الناحية الاقتصادية، فإن مدينة الرقة هي النافذة التي تطل منها خيرات الجزيرة وبلاد الشام على أسواق العراق ولم تكن هذه الميزة خفية على المنصور حيث قال حينما خرج يبحث عن موضع بغداد "هذا موضع معسكر صالح، هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء، يأتينا فيها كل في البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك، وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك".⁶ ولعل ما أورده الطبري من اعتراض أهل الرقة على المنصور ومحاولتهم مهاجمته حينما أراد، بناء الرافقة قائلين له "إنك تدمر بذلك أسواقنا وتسلبنا وتضييق علينا سكننا"،⁷ يؤيد ذلك. وقد نفذ المنصور تصميمه ببناء مدينة الرافقة رغم معارضة أهلها، وتشير المصادر إلى أنه جعلها على شاكلة بغداد

¹ - اليعقوبي، البلدان، ص 5.
² - ابن الطقطقي، الفخري في الأدب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت 1966، ص 161؛ سوسه (أحمد) وجواد (مصطفى)، دليل خارطة بغداد قديما وحديثا، المجمع العلمي العراقي 1958، ص 44-45.
³ - انظر بحثنا الأول أسماء عمارة، البلاط العباسي، ص 37-38-39؛ سوسه (أحمد) وجواد (مصطفى)، نفس المرجع، ص 43؛ لسترنج، بغداد في عهد الخلافة العباسية، بغداد 1936، ص 14؛ جعيط (هشام)، الكوفة، ص 235؛ - Duri. A, sv « Baghdad », E.I2, t I, p. 921; Sourdél. D, " Bagdad capitale du nouvel empire abbasside", Arabica, 1962, v IX, P. 552.
⁴ - العش (أبو الفرج)، "الرقة من خلال التاريخ وكتب الرحالة"، الحوليات الأثرية السورية، المجلد السابع، 1957، ص 61.
⁵ - العش (أبو الفرج)، "الرقة من خلال التاريخ وكتب الرحالة"، نفس المرجع، ص 60.
⁶ - الطبري، نفس المصدر، ص 1547.
⁷ - الطبري، نفس المصدر، ص 1581.

تظهر الروايات التاريخية أن مدينة بغداد أنشأت بأمر من الخليفة المنصور كي تكون مقراً له ولأتباعه وحاشيته وأنه اختار تخطيطها بنفسه، يذكر اليعقوبي أن المنصور لم يتدبّر البناء إلا بعد أن اجتمع لديه عدد هائل من المهندسين والبنائين والعمال، فمثل لهم صفتها التي في نفسه، فاختاروا له الشكل الدائري.¹ وقد خطّت المدينة قبل بنائها بالرماد ثم وضعت على تلك الخطوط قطعاً من القطن المبللة بالنفط واشتعلت فيها فبدت للمنصور واضحة، فلما عرف أنه تحقق له فيها ما يريد، أقرّها وأمر بحفر أساساتها.²

إن ما نلاحظه هو أن مدينة بغداد كانت ذات تخطيط مسبق كان للخليفة المنصور دور كبير في اختياره، وذلك عكس مدينة البصرة التي نشأت بصفة عفوية وبلا تخطيط وذلك بأن استبدل العرب خيامهم التي ضربوها في موقعها أثناء الفتح بمنازل من اللبن والطين،³ كما أن مدينة الكوفة برزت إلى الوجود بصفة فوضوية وبدون تخطيط مسبق ثم جاء دور التخطيط والتمصير سريعاً جداً بإشراف سعد بن أبي وقاص.⁴ وهو ما يضمن على بغداد أحد صفات المدينة الملكية، فالمنصور مثلما يدل على ذلك موقع المدينة لم يجذب إلا إلى المنطقة التي جذب إليها من قبله الآشوريون والبابليون والبارثيون والأكاسرة أي إلى منطقة تمثل نواة تقليدية لدول الإمبراطورية.⁵ ومع أن اليعقوبي يذكر بأن بغداد هي أول مدينة خطّطت دائرياً فإن علماء الآثار قد أثبتوا العديد من المدن الدائرية التي بنيت قبل بغداد وقد اختلفوا في تحديد أي من هذه المدن تأثر بها المنصور في تصميم مدينة بغداد.⁶

لكن ما يمكن قوله هو أنه سواء استوحى المنصور تصميم مدينة بغداد من دار أيجرد، أو من مدينة طيسفون أو من مدينة الحضر، فإن انجذابه إلى المنطقة التي انجذب إليها من قبله الآشوريون والبارثيون والأكاسرة يجعله يتأثر بتخطيط مدنها. فالشكل المستدير ينسجم مع واقع المدن العراقية كما يتفق مع ما يتمثله المنصور في نفسه من صفة عاصمته المقبلة.⁷

أما قول اليعقوبي "أنه لا يعرف في جميع أقطار الدنيا مدينة مدورة غيرها"،⁸ فيمكن تفسيره بأن تخطيط المدينة على شكل دائري يعدّ اتجاهها جديداً في فن بناء المدن الإسلامية،⁹ أو لكون معظم المدن الدائرية قد اندثرت

1- اليعقوبي، البلدان، ص 7.

2- الطبري، تاريخ، ص 1549.

3- عبد الحق (سليم عادل)، "تشديد بغداد وأثره في فن العمارة والعمران العربي والعالمي"، الحوليات الأثرية السورية، المجلد 13، 1963، ص 6.

4- جعيط، الكوفة، ص 89-90-91.

5- عبد الحق (سليم عادل)، "تشديد بغداد"، نفس المرجع، ص 4.

6- Creswell.K.A.C, *Early Muslim Architecture*, New York, 1979, v II, p. 18-19-20-21; لسنز، خطط بغداد في العهود العباسية الأولى، المجمع العلمي العراقي، 1984، ص 238-239؛ سوسة (أحمد) وجواد (مصطفى)، نفس المرجع، ص 238-239.

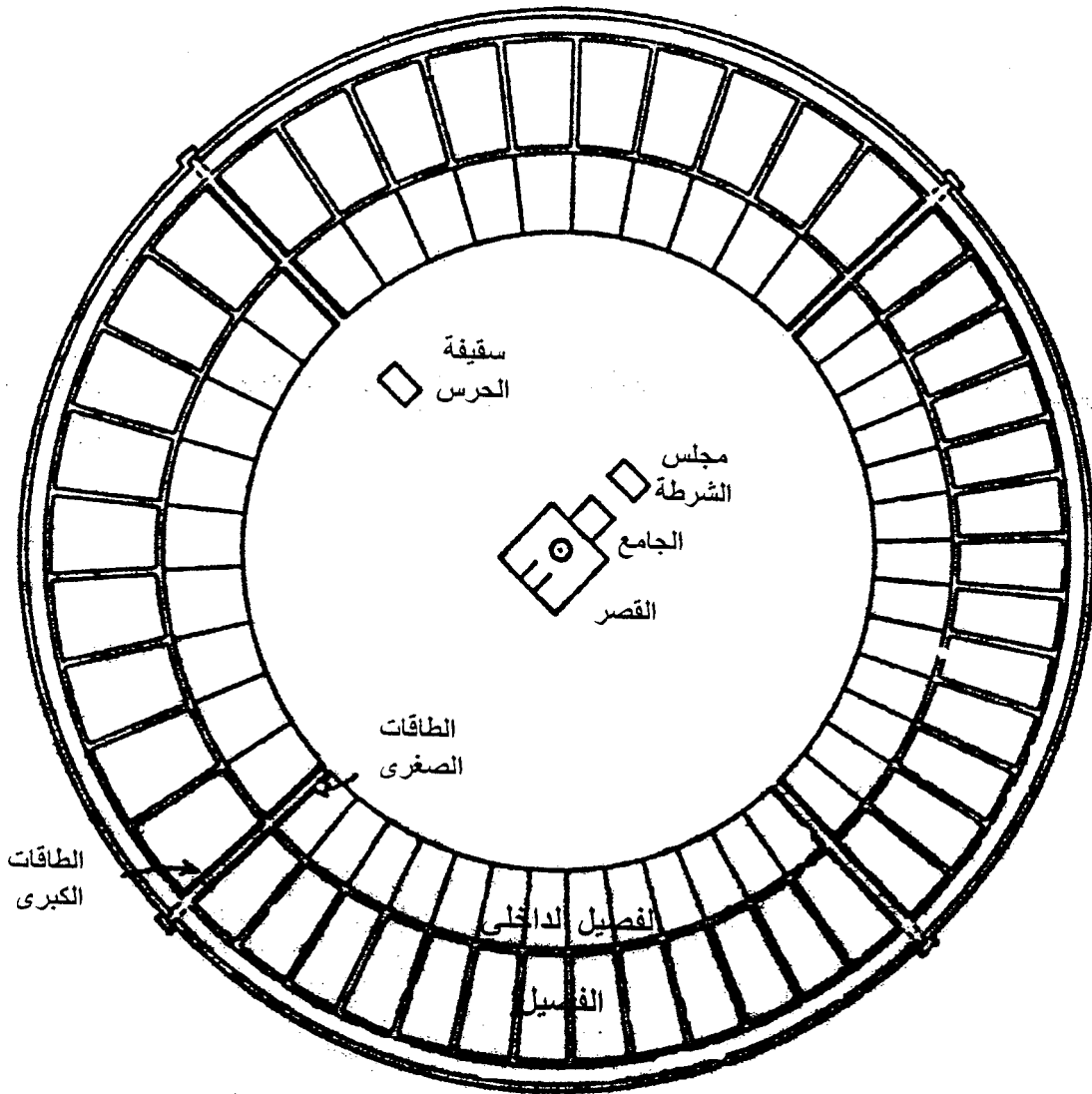
7- عبد الحق (سليم عادل)، "تشديد بغداد"، نفس المرجع، ص 7.

8- اليعقوبي، البلدان، ص 7.

9- الدوري (عبد العزيز)، العصر العباسي الأول دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي، بيروت 1988، ص 77.

زمن تأسيس بغداد أو أن استدارة الأسوار في المدن المدورة التي سبقت بغداد لم تكن تامة. وهو ما عبّر عنه الجاحظ " رأيت المدن العظام والمذكورة بالإتقان والإمكان، بالشامات وبلاد الروم، وفي غيرها من البلدان فلم أر مدينة قط أرفع سمكا ولا أجود استدارة ولا أنبل نبلا ولا أوسع أبوابا ولا أجود فصيلا من الزوراء وهي مدينة أبي جعفر المنصور".¹ وهو ما سوف نلاحظه في تخطيط مدينة الرافقة.

تخطيط 2: مدينة بغداد

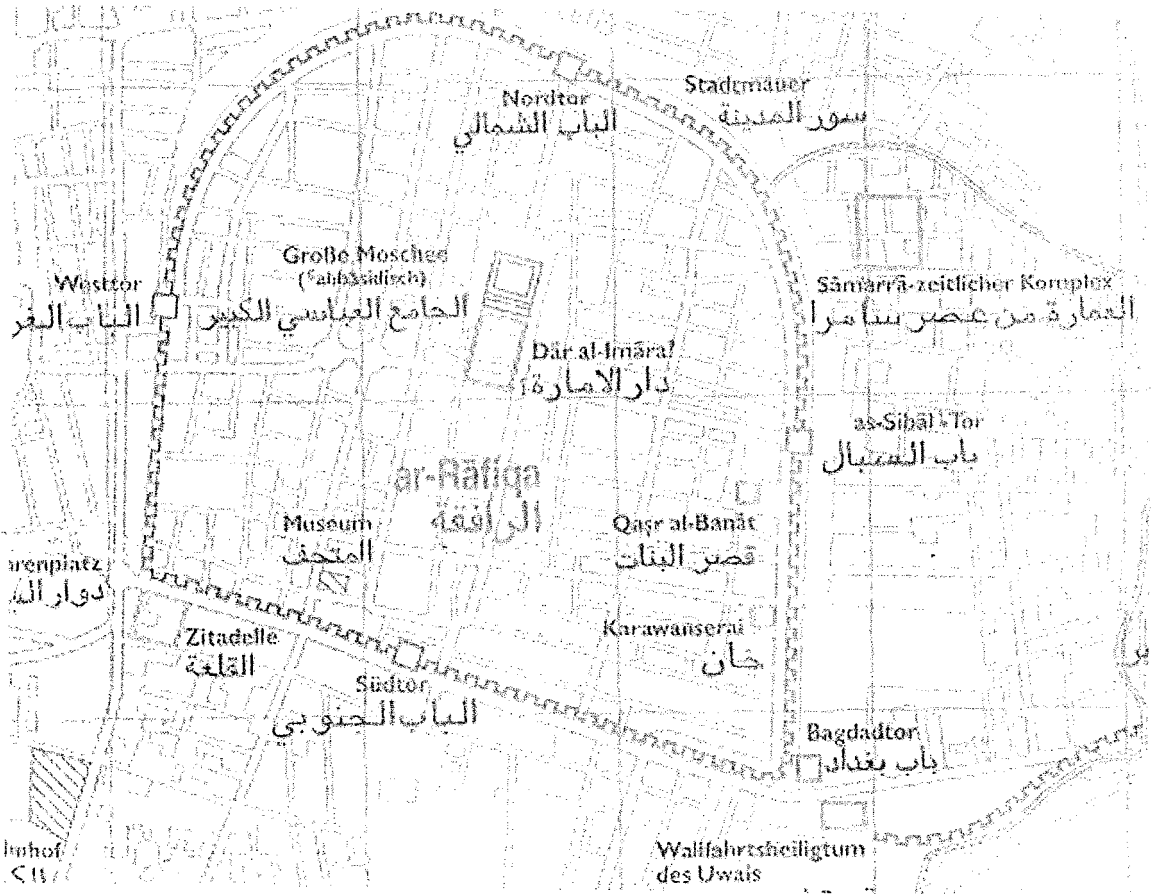


² - Northedge . A, *Entre Amman et Samarra*, fig 31.

¹ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 77.

فلما كانت غاية المنصور أن يبني مدينة الرافقة على بناء بغداد، فلا بدّ أن تكون دائرية الشكل. لكن ما تبقى من آثار سور مدينة الرافقة يبيّن أنّها لم تكن تامة الاستدارة، حيث تأخذ المدينة شكل دائري في الشمال أما في الجنوب فتمتد على خط مستقيم بطول شواطئ الفرات.

3 تخطيط مدينة الرافقة.¹



وقد فسّرت الأبحاث الأثرية ذلك بطبيعة الموقع التي فرضت على البنائين أن يجعلوا السور على شكل نعل الفرس وضلعه الشرقي أطول من ضلعه الغربي.² وهو أقرب الأشكال بصفة عامة للشكل الدائري لأنه يحافظ على الشكل العام لتوزيع المباني العمرانية كما هي تماماً ضمن سور مستدير.³ لكن بغداد شيّدت أيضاً على ضفة دجلة، ومع ذلك تذكر المصادر أنّها كانت تامة الاستدارة. فالرافقة إذن على مستوى الشكل غير بغداد، إذ نلاحظ نوعاً من التنوع والتجديد.

¹ - مقطع من الخريطة الطبوغرافية والأثرية لمدينة الرقة (إنجاز المعهد الأثري الألماني بدمشق).

² - العش (أبو الفرج)، "الرقة من خلال التاريخ وكتب الرحالة"، نفس المرجع، ص 62.

³ - الخلف (مرهف)، "سور مدينة الرافقة أثرياً وتاريخياً"، وقائع الندوة الدولية لتاريخ الرقة وآثارها، 24-28 تشرين الأول سنة 1981، ص 69.

وتتمثل أولاً في التحصينات الدفاعية، وهي تبدأ بالنسبة لمدينة بغداد بالخندق الذي يحيط بأسوار المدينة من الخارج، وقد بنيت حافته بالجص والآجر.¹ وأجري فيه الماء من القناة التي تأخذ من نهر كرخابا.² ويذكر الهمداني أن عرضه كان أربعين ذراعاً، لكن يرى كزيروال أن عرض الخندق لا يمكن أن يتجاوز في أقصى الحالات 12 ذراعاً أي ستة أمتار.³ وكانت تحده من الداخل مسناة بنيت " بالآجر والصروج متقنة محكمة عالية".⁴

يلي الخندق سور أول يعرف بالسور الخارجي وبسور الفصيل نسبة إلى الفصيل الذي يحيط به من الداخل، والذي يفصله عن السور الثاني الذي يعرف بالسور الداخل وبالسور الأعظم وهو أقل ارتفاعاً من السور الثاني الداخل وقد قدر كزيروال ارتفاعه بـ 24 ذراعاً.⁵ ولم يشر كل من الخطيب واليعقوبي إلى أنه كان لهذا السور أبراج تدعمه من الخارج، - أي مما يلي الخندق - ، كذلك التي في السور الأعظم، لكن هرتزفلد يعتقد أنه كان لهذا السور كذلك دعائم صغيرة مدورة شبيهة بالأبراج كذلك التي في أسوار سامراء وليس لها أي وظيفة عسكرية.⁶

يلي السور الخارجي فصيل وهو عبارة عن أرض خالية تدور بين السورين الأول والثاني أعدت لحركات الدفاع،⁷ وقد ذكر اليعقوبي عرضه مائة ذراعاً بينما ذكر الخطيب عرضه ستون ذراعاً، في حين يرى هرتزفلد أن العرض الحقيقي للفصيل يمكن تقديره بـ 75 ذراعاً.⁸ وينقسم الفصيل إلى أربعة أقسام متساوية ومتناظرة وصفها الخطيب بأنها "على نعت واحد وحكاية واحدة".⁹

وبعد الفصيل مباشرة يأتي السور الكبير وهو السور الداخل الذي يسميه اليعقوبي السور الأعظم،¹⁰ وهو أكثر ارتفاعاً من الجدار الخارجي وكذلك أكثر سمكاً، فقد ذكر اليعقوبي أن عرضه كان تسعين ذراعاً بالسوداء، ثم ينحط حتى يصير في أعلاه على خمس وعشرين ذراعاً. بينما ذكر الخطيب أن " عرض السور من أسفله نحو عشرين ذراعاً. أما ارتفاعه فقد قدره اليعقوبي بستين ذراعاً مع الشرفات بينما قدره الخطيب بخمسة وثلاثين ذراعاً".¹¹

¹ - ابن رسته، الأعلام الخطيرة، ص 108.

² - اليعقوبي، البلدان، ص 8؛ لسترنج (غي)، بغداد في عهد الخلافة العباسية، ص 29.

³ - الهمداني، البلدان، ص 286؛

Creswell.K.A.C, *Early Muslim Architecture*, v II, p. 11.

⁴ - اليعقوبي، البلدان، ص 8.

⁵ - Creswell.K.A.C, *Ibidem*, v II, p. 11.

⁶ - Creswell.K.A.C, *Ibidem*, v II, p. 11.

⁷ - السوداني (عبد الله)، " أسوار بغداد "، نفس المرجع، ص 44.

⁸ - Creswell.K.A.C, *Ibidem*, v II, p. 11.

⁹ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 74.

¹⁰ - اليعقوبي، البلدان، ص 8.

¹¹ - اليعقوبي، البلدان، ص 8؛ الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 74.

وقد كان هذا السور أكثر سماكة وارتفاعاً من السور الأول الخارجي وكذلك أشد دعامة. فقد كان عليه أبراج كبيرة، يذكر اليعقوبي أن "لفصيل أبرجة عظام وعليه الشرفات مدورة".¹ وكانت هذه الأبراج أعلى من السور بخمسة أذرع.² وكان عدد الأبراج بين كل باب وآخر 28 برجاً، عدا بين باب الكوفة وباب البصرة حيث يوجد 29 برجاً،³ أي يوجد برج إضافي. ولم تشر المصادر إلى شكل هذه الأبراج لكن يرى كريزوال أنها كانت نصف دائرية كتلك التي في هرقله والقادسية وسامراء والرافقة.⁴

وقد كان يحيط بالسور الأعظم من الخارج الفصيل، أما من الداخل فقد أمر المنصور "أن لا يسكن أحد ولا يبني منزلاً".⁵ ولهذا فقد كان يلي السور الأعظم من الداخل حلقة عرضها 25 ذراعاً جعلت لتكون طريقاً يفضي إلى أبواب المدينة.⁶

وقد جعل المنصور لكل من السور الأعظم والسور الخارجي، أربعة أبواب متقابلة وهي: باب الشام في الشمال الغربي، وباب الكوفة في الجنوب الغربي، وباب خراسان في الشمال الشرقي وباب البصرة في الجنوب الشرقي. وكانت المسافة بين كل باب وآخر متساوية.⁷ وكل باب نظير باب نظير للباب الآخر في تصميمه.

نلاحظ أنه يتحتم على كل من يدخل مدينة المنصور أن يعبر الخندق أولاً، ثم يجتاز بايين في السور الخارجي بينهما دهليز "أزج معقود بالآجر والجص عرضه عشرون ذراعاً وطوله ثلاثون ذراعاً".⁸ ثم يقطع رحبة "طولها ستون ذراعاً وعرضها أربعون ذراعاً"، مفروشة بالصخر،⁹ وفي كل من جانبي هذه الرحبة باب يؤدي إلى الفصيل الخارجي. بعد أن يخرج من هذه الرحبة يجتاز بايين آخرين في السور الأعظم بينهما دهليز كذلك "معقود بالآجر والجص" طوله عشرون ذراعاً وعرضه اثنا عشرة ذراعاً. ويفضي الدهليز كذلك إلى رحبة ثانية تتصل بجزئي الفصيل الثاني.¹⁰ والأبواب الأربعة كلها على نفس المنوال. وبالتالي نستنتج أن أبواب السور الخارجي كانت ثنائية وكذلك أبواب السور الأعظم. وقد كانت هذه الأبواب فخمة وكبيرة. يذكر اليعقوبي "لا يغلق الباب ولا يفتح إلا جماعة من الرجال".

ويذكر الخطيب وعلى "كل باب من أبواب المدينة الأوائل والثواني باب حديد عظيم جليل المقدار كل باب منها فردان"،¹¹ وكذلك مرتفعة "يدخل الفارس والرامي الطويل من غير أن يميل العلم".¹² وقد جيء بأبواب أسوار مدينة المنصور من أماكن مختلفة، فبالنسبة لأبواب السور الخارجي: باب خراسان جيء به من الشام من

¹ - اليعقوبي، البلدان، ص 8.

² - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 74.

³ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 72.

⁴ - Creswell.K.A.C, *Early Muslim Architecture*, v II, p. 12.

⁵ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 73.

⁶ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 76.

⁷ - اليعقوبي، البلدان، ص 8.

⁸ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 74.

⁹ - اليعقوبي، البلدان، ص 8؛ الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 74.

¹⁰ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 8.

¹¹ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 8؛ الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 75.

¹² - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 8.

عمل الفراغنة، باب الكوفة جيء به من الكوفة من عمل خالد بن عبد الله القسري، وصنع باب الشام ببغداد، أما باب البصرة فلم تشر المصادر من أي جهة أتى به.¹ أما أبواب السور الأعظم فتشير المصادر إلى أن المنصور، نقلها من مدينة الحجاج بواسطة.²

وكان فوق كل باب من أبواب السور الأعظم، مجلس عليه قبة مذهبة عرضها خمسون ذراعاً، وعلى رأسها تمثال كان الخليفة يجلس فيها إذا أحب النظر إلى من يقبل من أي ناحية من تلك النواحي: فإذا أحب النظر إلى الماء وإلى من يقبل من ناحية خراسان جلس في مجلس قبة باب خراسان، وإذا أحب النظر إلى الأرباض جلس في قبة باب الشام وإذا أحب النظر إلى الكرخ جلس في قبة باب البصرة وإذا أحب النظر إلى البساتين والضياع جلس في قبة باب الكوفة.³ وكان يصعد إلى كل قبة من هذه القباب سيرا أو ركوبا على الدواب بواسطة مصعد وضع فوق عقود "مبنية بعضها بالحصن والآجر وبعضها باللبن العظام قد عملت آرجاً بعضها أعلى من بعض" ويقسم في الأزج الرابطة والحرس وكانت على المصعد أبواب تغلق.⁴

نستنتج من خلال هذا الوصف الذي قدمه لنا كل من اليعقوبي والخطيب البغدادي، حول التحصينات الخارجية لمدينة المنصور المدورة، أن خطة بغداد الدفاعية كانت تتمثل في إدارة خندق وسورين يفصلهما فصيل حول المدينة ثم تقسيمها إلى أربعة أقسام متساوية الأبعاد وجعل على كل قسم منها باب. وقد جعلت هذه الترتيبات مدينة بغداد تعدّ نموذجاً، للمدن المحصنة في العالم الإسلامي والإفرنجي على حد السواء يذكر الجاحظ "رأيت المدن العظام، والمذكورة بالإتقان والإحكام، بالشامات وبلاد الروم وفي غيرها من البلدان، فلم أر مدينة قط أرفع سمكا ولا أجود استدارة ولا أنبل نبلا، ولا أوسع أبوابا ولا أجود فصيلا من الزوراء مدينة أبي جعفر المنصور".⁵

أما بالنسبة لمدينة الرافقة فلم نعثر في المصادر على وصف دقيق ومفصل لأسوارها وأبوابها كما هو الشأن بالنسبة لمدينة بغداد، فقد اكتفت المصادر بالإشارة إلى أنها قد بنيت على شاكلة بغداد، لكن لا تزال بعض أسوار مدينة الرافقة قائمة إلى يومنا هذا، ورغم ما طرأ عليها من خراب ودمار فهي تعطينا فكرة عن التحصينات الخارجية لمدينة الرافقة والتي يمكن مقارنتها مع ما سجله الرحالة والبلدانيون من معلومات تخص أسوار بغداد.

فهي تبدأ كما هو الشأن بالنسبة لمدينة بغداد بالخندق الذي يحيط بها (انظر الصورة). وقد قدر عرضه العلوي بـ 10.90 م والسفلي بـ 9.50 م، وهو مبلط في جانبه وقعره بأجر تبلغ أبعاده (5×40×40 صم) ويرجح البعض أنه كان يزود من مياه الفرات مباشرة لاسيما وأن الفرات كان ملاصقا للضلع الجنوبي

1- الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج1، ص 75.

2- الهمداني، كتاب البلدان، ص 291؛ الطبري، تاريخ، ص 1562.

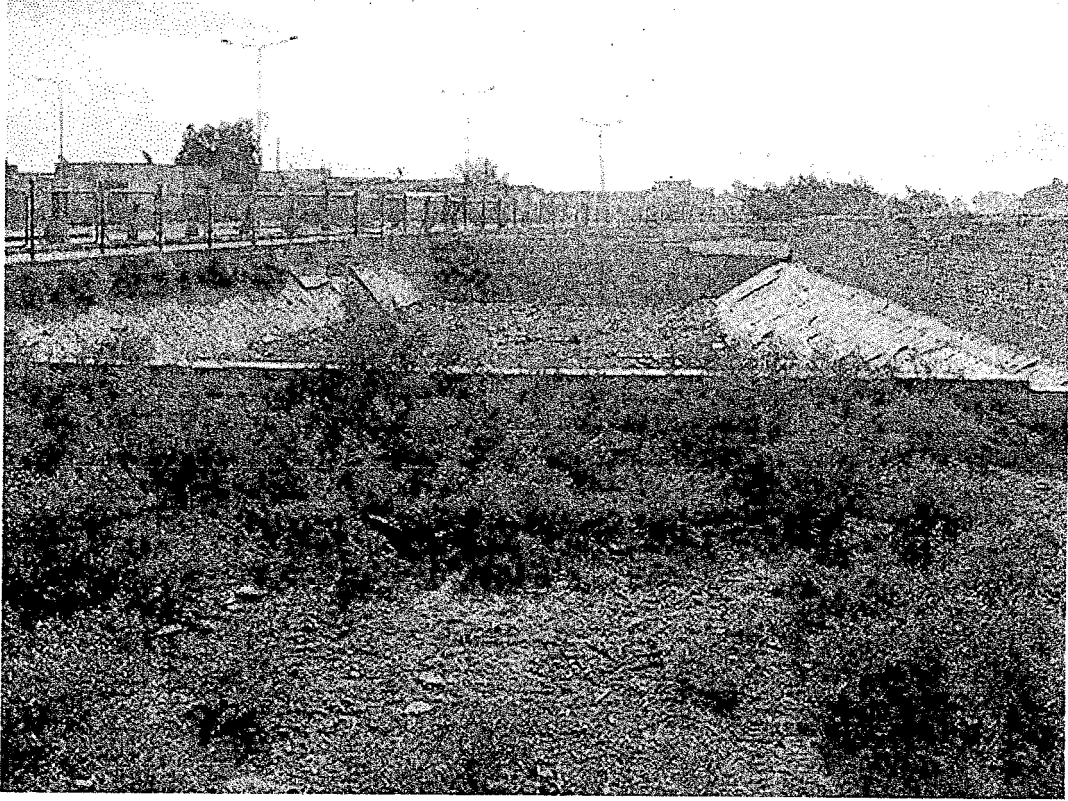
3- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص 75.

4- اليعقوبي، البلدان، ص9؛ لسترنج (غي)، نفس المرجع، ص 31.

5- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص 77.

من السور، ثم نتيجة الظروف الطبيعية كابتعاد مياه النهر أحيانا وانخفاض منسوبه، فقد اعتمد على تزويد هذا الخندق بالمياه من قناة النيل التي حفرها الرشيد كما يذكر ياقوت في معجم البلدان.¹

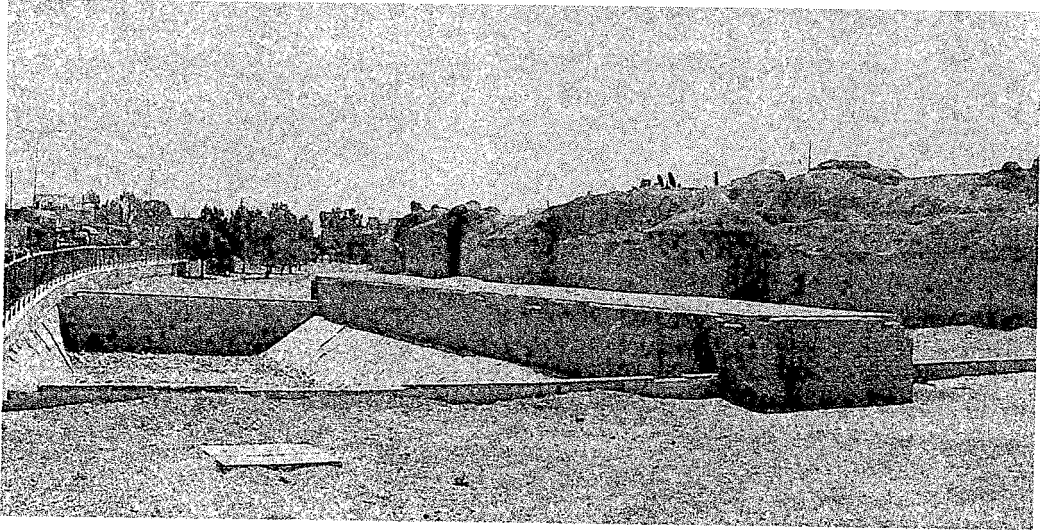
7صورة: خندق مدينة الرافقة



وبعد الخندق مباشرة يأتي السور الأول الخارجي، الذي يسميه الخطيب سور الفصيل في بغداد. وقد قدر سمكه بـ 4.50م، أما ارتفاعه فيظن أنه يبلغ 10م.²

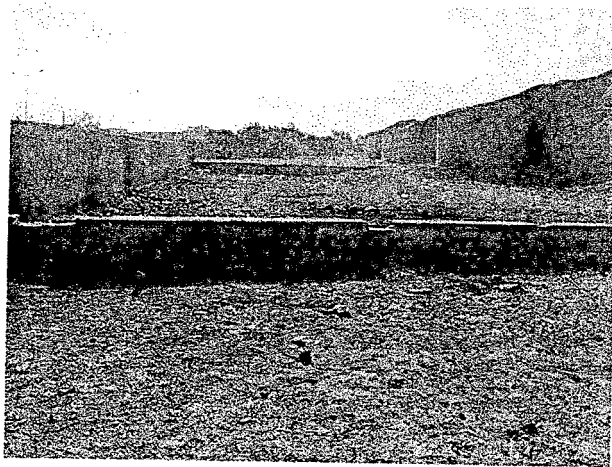
¹ - ياقوت (الحموي)، معجم البلدان، ج 5، ص 334؛ العش (أبو الفرج)، "الرقعة من خلال التاريخ وكتب الرحالة"، نفس المرجع، ص 62؛ الخلف (مرهف)، "سور مدينة الرافقة أثرها وتاريخها"، نفس المرجع، ص 69.
² - العش (أبو الفرج)، "الرقعة من خلال التاريخ وكتب الرحالة"، نفس المرجع، ص 62؛ عبد الحق (سليم عادل)، "تشييد بغداد"، نفس المرجع، ص 18.

8 صورة: السور الخارجي لمدينة الرافقة وهو يلي الخندق مباشرة



وهو أقل سمكا من السور الثاني كما هو الشأن بالنسبة لسور بغداد الخارجي. نلاحظ تطابق بين ما ورد ذكره في المصادر وما تبقى من سور مدينة الرافقة الخارجي. ولم تكن لهذا السور دعائم مدورة تدعّمه من الخارج مما يلي الخندق، ولعل هذا يتناق مع ما افترضه هرتفلد من وجود دعائم للسور الخارجي في بغداد تزيد من قوته وتدعّمه، لاسيما وان افترضنا أن مدينة الرافقة بنيت على شاكلة مدينة بغداد مثلما تشير إلى ذلك المصادر ومثلما تؤكد الآثار المتبقية من سور مدينة الرافقة. بعد السور الخارجي يأتي الفصيل وهو عبارة عن أرض خالية أو شارع يفصل بين السورين الأول والثاني كما هو الشأن بالنسبة لفصيل مدينة بغداد (انظر الصورة). وقد قدر عرضه 20.80 م،¹ أما في بغداد فقد قدر عرض الفصيل بـ 31.07 م.

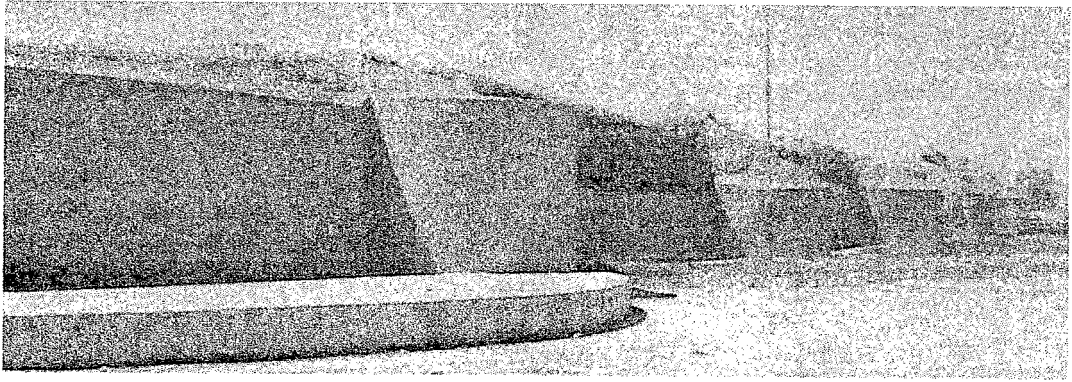
9 صورة: الفصيل وهو يلي السور الخارجي مباشرة



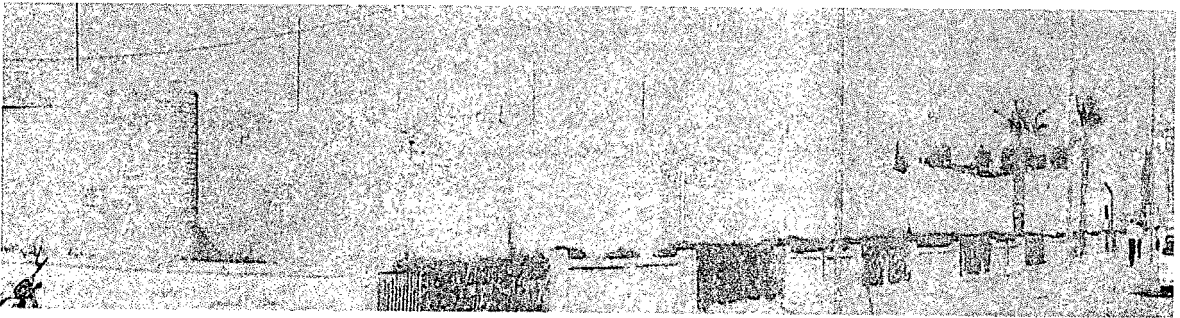
¹ - العش (أبو الفرج)، "الرقعة من خلال التاريخ وكتب الرحالة"، نفس المرجع، ص 62؛ الخلف (مرهف)، "سور مدينة الرافقة أثرها وتاريخها"، نفس المرجع، ص 69.

بعد الفصيل يأتي السور الداخلي، الذي يسميه اليعقوبي " السور الأعظم " في وصفه لأسوار بغداد. وهو أضخم من السور الأول الخارجي. قَدَّر سمكه بـ 5.80م.¹ وقد جاء هذا السور على شكل نعل الفرس لأن ضلعه الجنوبي مستقيم وهو ملامس لضفة الفرات، ولم يبق من ضلع هذا السور سوى ستة أبراج تتجه بشكل مستقيم من برج الزاوية وباب بغداد نحو الغرب، وقد قَدَّر الطول الإجمالي لهذا السور بـ 5000م.² وهو أشد إحكاما من السور الخارجي، فهو مدعم بأبراج نصف دائرية ضخمة تدعمه مما يلي الفصيل. وقد ذكر اليعقوبي في وصفه لاستحكامات بغداد "أن للفصيل أبرجة عظام وعليه الشرفات مدورة".³ وما زلنا إلى اليوم نشاهد عددا من هذه الأبراج موزعة بالتالي على كامل السور الأعظم لمدينة الرافقة، على أساس قيام برج كل 35 م، وهي نصف دائرية، وقد قَدَّر قطرها بـ 12م، ويقَدَّر عفيف البهنسي عدد هذه الأبراج بـ 132 برجا.⁴ أما بالنسبة لمدينة بغداد فقد قَدَّر الخطيب عدد هذه الأبراج بثمانية وعشرين برجا بين كل باين ما عدى بين باب الكوفة والبصرة حيث يوجد 29 برجا (أي 115 برجا). وإن لم تشر المصادر إلى هيئة الأبراج التي كانت على سور بغداد، لكن من المرجح أنها كانت على هيئة أبراج سور مدينة الرافقة.

10 صورة: توزع الأبراج على طول الطرف الجنوبي للسور الأعظم

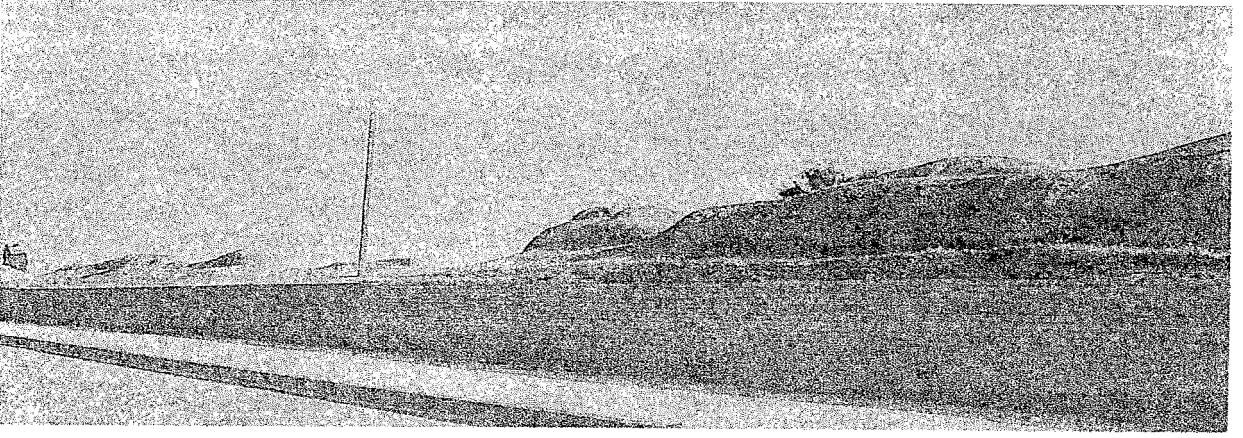


11 صورة : توزع الأبراج على الطرف الشمالي للسور الأعظم



1- العش (أبو الفرج)، "الرقعة من خلال التاريخ وكتب الرحالة"، نفس المرجع، ص 62.
2- الخلف (مرهف)، "سور مدينة الرافقة أثريا وتاريخيا"، نفس المرجع، ص 69-70.
3- اليعقوبي، البلدان، ص 8.
4- البهنسي (عفيف)، موسوعة التراث المعماري، دمشق 2004، ج 1، ص 246.

12 صورة : السور الأعظم من الداخل



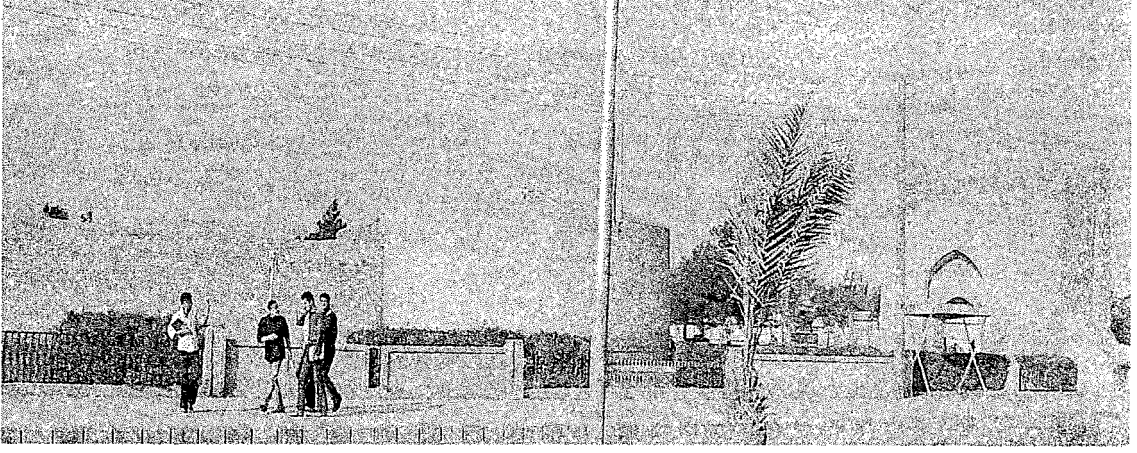
وقد أقيم كل من السور والأبراج على قاعدة من الحجر الكلسي هي التي منحته هذا الرسوخ وعدم التداعي على مرّ العصور،¹ أما مادة البناء فهي مثل بغداد الآجر غير المشوي والمشوي.

نلاحظ إذن أن لمدينة الرافقة سورين متوازيين سور داخلي وسور خارجي، بينهما فصيل ويحيط بالسور الخارجي خندق كما هو الشأن بالنسبة لمدينة بغداد. فقط الاختلاف هو أن أسوار بغداد كانت تامة الاستدارة حسب ما أشارت إليه المصادر، في حين أن أسوار مدينة الرافقة كان طرفها الجنوبي مستقيماً، أما طرفها الشمالي فكان دائرياً.

ولما كانت غاية أبي جعفر أن يبني مدينة الرافقة على شكل مدينة بغداد، فمن المفروض أن يجعل لها أربعة أبواب بحسب المناطق والبلدان التي ينفذ منها إليها. لكن لم يبق من أبواب الرافقة اليوم سوى الباب الشرقي والشمالي. ومع ذلك فإن أغلب الأثرين يرجحون أنه كان لمدينة الرافقة أربعة أبواب وهي: الباب الشرقي ويسير منه طريق إلى بغداد ولأجل هذا سمي بباب بغداد، والباب الجنوبي الغربي ويتجه منه الطريق السائر إلى مدينة مسكنة والباب الجنوبي وهو المطل على نهر الفرات، والباب الشمالي وكان يبدأ منه الطريق الذي يسير إلى حرّان لأجل ذلك هناك من أطلق عليه اسم باب حرّان. أي أن كل باب قد خصص لأهل مصر كما هو الشأن بالنسبة لأبواب مدينة بغداد. أما اليوم فلم يبق من هذه الأبواب سوى الباب الشرقي والباب الشمالي. بالنسبة للباب الشرقي، يعرف باسم "باب بغداد" وهو يقع في الزاوية الجنوبية الشرقية من السور الخارجي (انظر الصورة).

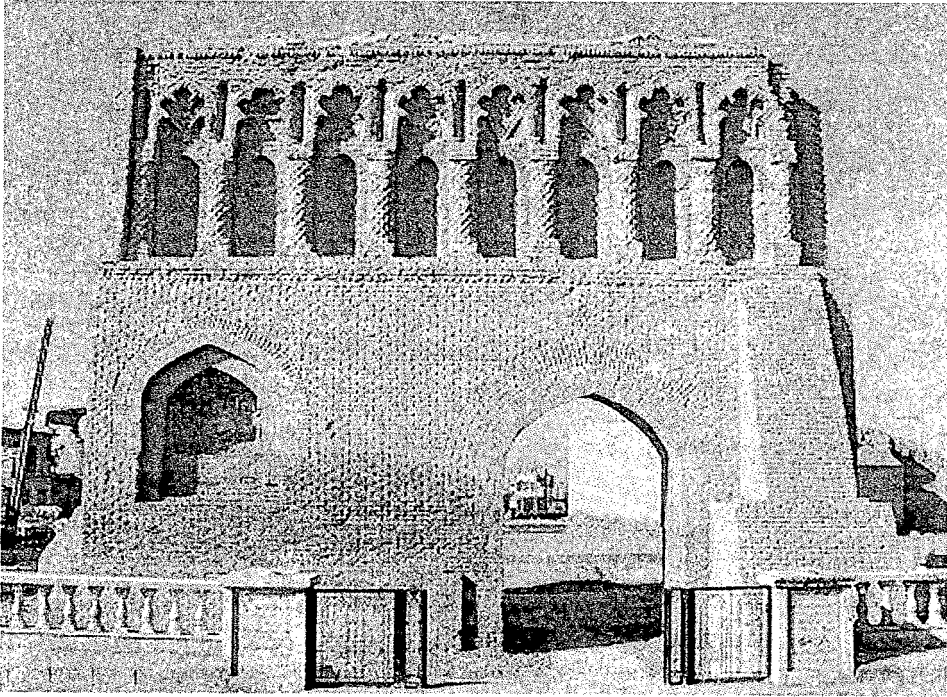
¹ - الخلف (مرهف)، "سور مدينة الرافقة أثرياً وتاريخياً"، نفس المرجع، ص 69-70.

13 صورة: موقع الباب الشرقي من السور الخارجي



وبالرغم من أن القسم الأكبر منه قد اختفى، فإنه يعدّ من أهم الآثار العباسية التي مازالت قائمة في سوريا إلى يومنا هذا، والتي يمكن أن تعطينا فكرة عن إحدى بوابات مدينة الرافقة ومن ورائها بوابات مدينة بغداد. ويمكن من خلال ما تبقى منها إعطاء الوصف التالي:

14 صورة : الباب الشرقي أو باب بغداد (الواجهة الأمامية)

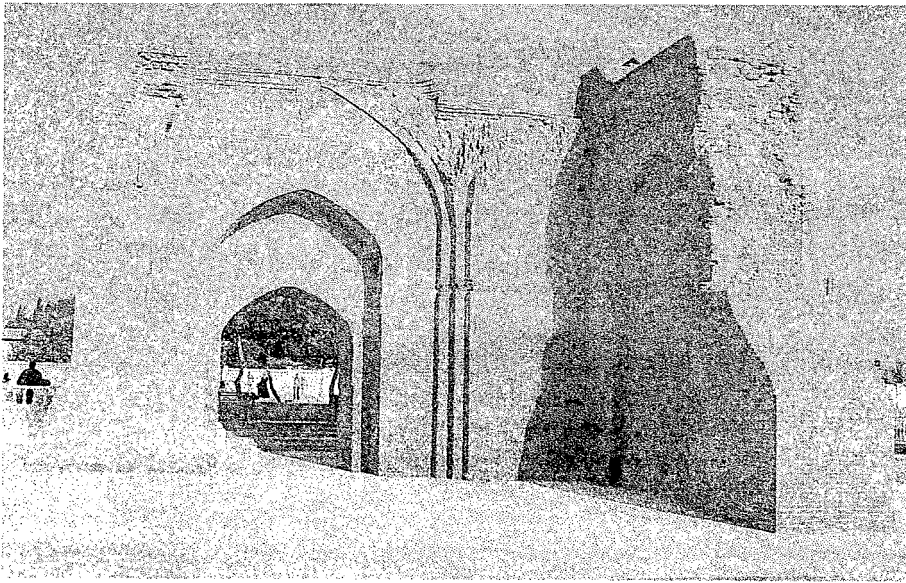


تمثل البوابة واجهة مستطيلة الشكل محاذية لبرج متصل بالسور الخارجي، وقد قسمت إلى قسمين:

- القسم الأسفل ويحتوي على مدخل قدر عرضه بـ 3.25 م وارتفاعه 11.3 م، ذا قوس مدبب وإلى جانبه يوجد شكل زخرفي على هيئة محراب ذا قوس مدبب أيضا. أطلق عليها كريسوال اسم حنية " niche " قليلة العمق.¹

- أما القسم الأعلى من الواجهة والذي قدر ارتفاعه بـ 4.4 م، فيحتوي على سلسلة مؤلفة من صفين من الحنيات، السفلى ذات أقواس نصف دائرية والعليا ذات أقواس أطلق عليها كريسوال اسم " ثلاثية الفصوص"، ويحتوي كل صف على ثمانية حنيات أو محاريب، وقد زخرفت بالآجر والجص. وقد أشار كريسوال إلى أنه في الأصل كانت توجد إحدى عشرة حنية، وقد استدل على ذلك بمحور الحنية السادسة الذي ينطبق مع محور مدخل البوابة.² ويحيط بكامل السلسلة إطار واضح. ويفتح الباب من الداخل إلى بقايا قاعة، مستطيلة الشكل يبلغ طولها 12.5 م وعرضها 8.5 م (انظر الصورة).

15 صورة: القاعة المستطيلة التي تفضي إليها البوابة الشرقية



واستنادا إلى التقاليد المتبعة في بناء بغداد، فإن هذه القاعة تمثل الدهليز، ذلك أن كل باب من أبواب السور الخارجي في بغداد كان يفضي إلى "دهليز أزج معقود بالآجر والجص"، وقد كانت هذه القاعة كذلك معقودة بالآجر والجص ولا تزال بقايا هذا العقد تشاهد إلى يومنا هذا، هذا ما لاحظناه وما أشار إليه كذلك مرهف الخلف. وفوق هذه القاعة تشاهد بقايا قاعة أخرى فوقها، ومن المفروض أنها كانت تعلوها قبة حسب التقاليد المتبعة في بناء بغداد. بعد الدهليز من المفروض أن تأتي الرحبة التي يدخل منها إلى الفصيل والتي يمكن تحديدها

¹ - Creswell.K.A, *A Short Account of Early Muslim Architecture*, (revision J. W. Allan), Aldershot 1989, p. 244.

الدهليزي (عفيف)، موسوعة التراث المعماري، ج1، ص 90.

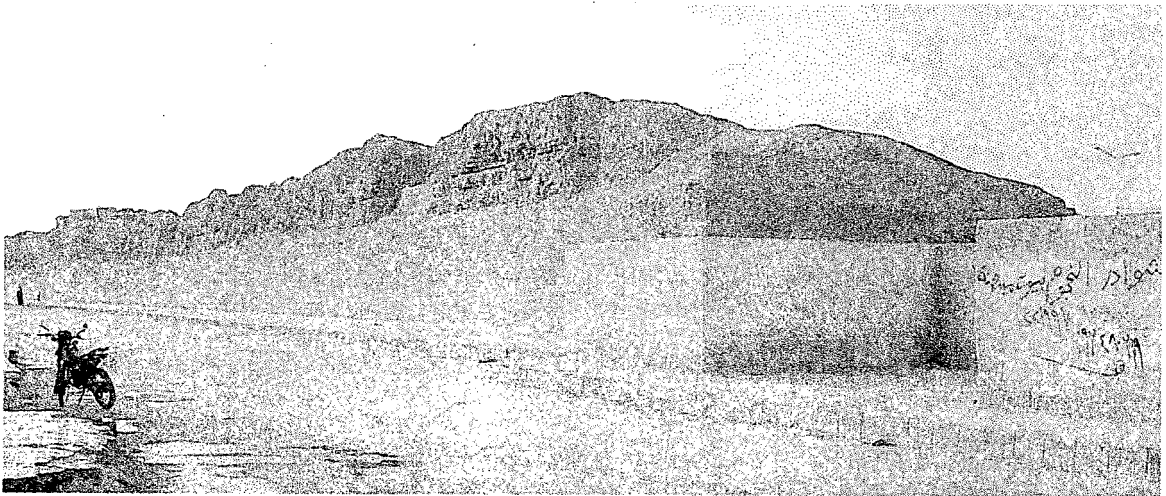
² - Creswell.K.A, *Op. Cit*, p. 246

في الحلقة الفاصلة بين هذه الغرفة والصور الأعظم. أما البوابة الداخلية التي كانت على السور الأعظم فلم يبق لها أي أثر، لكن من المحتمل أنها كانت في الزاوية الجنوبية الشرقية للسور الأعظم، وبصفة موازية لمدخل البوابة الخارجية كما هو الشأن في مخطط بغداد.

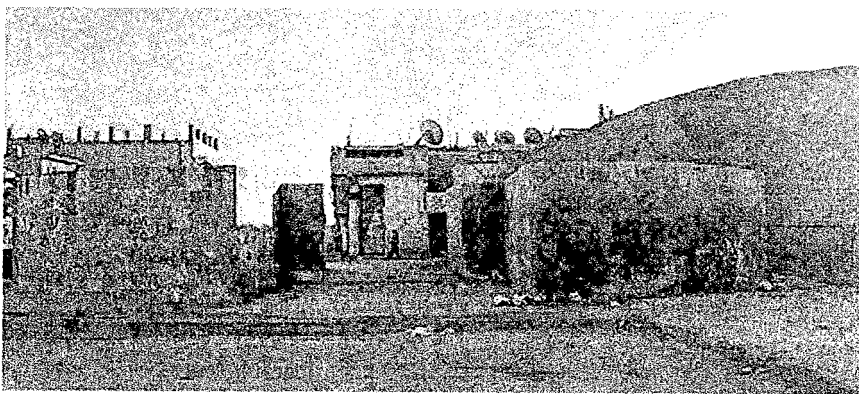
يعدّ إذن "باب بغداد" مثالا حيّا عن إحدى أبواب مدينة الرافقة، والذي من خلاله يمكن الإطلال على أبواب مدينة بغداد بحكم التماثل والتشابه بين المدينتين.

أما بالنسبة إلى الباب الشمالي فبالرغم من أن عمليات التنقيب الأثري، قد أسفرت عن الكشف عن مدخل البوابة الذي قدّر عرضه بـ 4 م. فلم يبق منه اليوم سوى جزء بسيط من قسمه السفلي الذي يتصل بالضلع الغربي للجدار الشمالي وبرج. وقد شيد على جدار السور الأعظم ويفضي كذلك إلى قاعة من المفروض أنها كانت تمثل الدهليز. ويعرف الباب الشمالي بباب حرّان لأنه يسير منه طريق يتجه إلى حرّان، ومن المفروض أنه شيد على شاكلة الباب الشرقي حسب التقاليد المتبعة في بناء بغداد حيث تشير المصادر إلى أن جميع الأبواب كانت متشابهة. أما بقية الأبواب الأخرى فقد اندثرت تماما.

16 صورة: الباب الشمالي من الداخل



17 صورة: الباب الشمالي من الخارج



هكذا بدت إذن كل من مدينتي الرافقة وبغداد مدينتين حصيتين، تجلت فيهما عظمة الدولة العباسية في طورها الأول التأسيسي، لكن هنا لا بدّ من الإشارة إلى أن تحصين المدن الإسلامية لم يبدأ مع بغداد والرافقة. فقد كانت واسط معسكرا منيعا، إذ عمل الحجاج كذلك على إحاطة مدينته بخندق وسورين بينهما فصيل يسكنه الجنود للدفاع عن المدينة لذلك لا لزوم إلى الرجوع إلى التقليد الفارسي مثلما يشير إلى ذلك جعيط.¹ لكن ما يميّز الرافقة وبغداد هو أن الأسوار وقع التخطيط لها منذ البداية أما في مدينة واسط فقد أنشأت في فترة لاحقة. كما أن ظاهرة تسوير المدن تعود إلى أصول عربية قديمة، فقد كانت مدينة الحضر مدورة ومحاطة بسورين الأول خارجي واطئ مشيد من اللبن والثاني داخلي يبعد عنه بمسافة 500 م وله أربعة أبواب ويحيط به خندق كما كانت أبواب مدينة الحضر تمتاز بقوة ومناعتها. وكانت مدينة معين في اليمن كذلك مسورة بسور عال.²

نلاحظ إذن تأثير المدن الملكية العربية القديمة السابقة للإسلام على بناء بغداد و الرافقة والذي تجلّى على مستوى اختيار الشكل الدائري وتشيد الأسوار والخندق، الخ...، نلاحظ كذلك تشابها بين مدينتي بغداد والرافقة على مستوى التحصينات الخارجية فكلاهما تحتوي على سور داخلي وسور خارجي، بينهما فصيل وأنشأ خندق حول السور الخارجي، وكذلك على مستوى الأبواب، فما تبقى من "باب بغداد"، يكاد ينطبق إلى حد بعيد مع ما سجله لنا كل من اليعقوبي والخطيب البغدادي بخصوص أبواب بغداد، لاسيما على مستوى وجود طابق علوي وبالتالي فإن باب بغداد يعد نموذجا حيا يمكن أن يعوضنا عن أبواب مدينة بغداد المندثرة. لكن الاختلاف بين المدينتين يكمن على مستوى المقاييس حيث يبدو من خلال الأرقام التي أخذنا البعض منها بأنفسنا والتي اعتمدنا في البعض الآخر على ما قدّمه لنا كريزوال، أن أسوار مدينة الرافقة كانت أقل سمكا وأقل ارتفاعا من أسوار مدينة بغداد، كما أن الخندق كان أقل اتساعا، لكن لا يمكننا الجزم في هذا الموضوع لا سيما وأن المصادر لا تتفق في الأرقام، كما أنه لم يبق أي أثر مادي من أسوار مدينة بغداد يمكننا من أخذ مقاييس دقيقة، لكن ما يمكن قوله هو أن أسوار مدينة الرافقة أتت صورة مماثلة ولكنها مصغرة لأسوار مدينة بغداد.

بعد التحصينات الخارجية تأتي المنطقة السكنية، فالتأمل في المصادر يلاحظ أن السكن داخل المدينة المدورة لم يكن مسموحا به إلا لنخبة معينة وأن محلات السكن الفعلية كانت خارج أسوار المدينة المدورة أي في الأرباض. أما داخل المدينة فقد "أقطعها القواد وأنزل فيها خاصته وأهل ثقته".³ وتقع هذه المنطقة السكنية في الفصل الثاني الواقع بين السور الأعظم وسور الرحبة المركزية التي فيها القصر والجامع.⁴ وقد قسّم هذا الفصل إلى أربعة أقسام متساوية اتخذت شكل ربع الدائرة بواسطة الطاقات المقنطرة،

¹ - جعيط، الكوفة، ص 334.

² - كمونة (حيدر عبد الرزاق)، تخطيط المدن عند العرب، المورد، ع 3، 2000.

³ - الهمذاني، كتاب البلدان، ص 279.

⁴ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 73؛ اليعقوبي، البلدان، ص 9.

التي امتدت من البوابات الرئيسية إلى بوابات منطقة القصر.¹ ولم يسمح المنصور لرجاله أن ينوا دورهم ملاصقة للسور الكبير أو سور الرحبة المركزية، ولهذا فقد كان يلي السور الأعظم من الداخل طريق يشكل حلقة عرضها 25 ذراعاً خالية من الأبنية تماماً، كما كان يلي سور الرحبة المركزية أرض خالية حوله لتكون طريقاً آخر وقد انفتحت منهما بوابات الأرباع.²

وكانت الساحة بين هذين الشارعين اللذين يدوران حول السورين الأعظم والداخلي مخصصة لدور المقرين من الخليفة الذين أجاز لهم الإقامة فيها، وهم عامة من القواد والموالي، و نظمت على شكل سكك أي أزقة، وكان كل زقاق يغلق بأواب وثيقة.³

وقد أشار جعيط إلى أن كل من درس وضع بغداد من بداية لاسترنج حتى لاسنر، مروراً بمرتفلد وكريزوال وعبد العزيز الدوري وصالح العلي، لم يهتموا بمصير هذا الحزام داخل أسوار المدينة. مبيناً أن المنصور لو أراد بناء قلعة فحسب أو " مقراً شخصياً " لما أقيمت هذه المنطقة السكنية وهذه السكك وعددها 41. كما أكد أن المساحة المخصصة للسكن داخل المدينة مهما صغرت، فإنها تؤيد التصور المدمج للحاضرة على النمط الكوفي، لأن المركز مهما كان متفوقاً، فإنه لا يتلغ المكان كله. وقد حملة وجود مثل هذا الحزام، زيادة على بنية المركز نفسه من جامع وقصر ورحبة على الاعتراض على تصور المدينة القصر، وطرح استمرارية أساسية مع الأمصار.⁴

أما نورثدج فقد بين أن كلمة " موالي " يمكن أن تعني خدم القصر، الذين احتلوا مكانة واسعة في سامراء، تحت اسم " الخدم "، أو قد تعني كذلك وظائف أخرى. كما بين أن المقصود بالقواد هم قادة الجيش الذين وقع تجميعهم في سامراء مع عساكرهم. ولذلك فهو يرى أن المدينة المدورة كانت ذات صبغة عسكرية واضحة.⁵ ولم يكن السكن داخل المدينة المدورة مقصوراً على السكك، بل شمل كذلك الطاقات والتي امتدت من البوابات الرئيسية إلى منطقة القصر.⁶ ذلك أن المرء إذا اجتاز دهليز السور الأعظم " سار في رحبة إلى طاقات معتودة بالآجر والجص فيها كوى رومية يدخل منها الشمس و الضوء ولا يدخل منها المطر ".⁷ وقد ذكر الخطيب أن عددها " ثلاثة وخمسون طاقاً سوى طاق المدخل إليها من هذه الرحبة " وعرضها خمس عشرة ذراعاً أما طولها فعرض المنطقة السكنية التي فيها السكك.⁸

¹ - Creswell.K.A, *A Short Account of Early Muslim Architecture*, p. 233.

² - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج1، ص 73-76؛ لسترنج (غي)، نفس المرجع، ص 33-34.
- Creswell.K.A, *Ibidem*, p. 233.

³ - اليعقوبي، البلدان، ص 10.

⁴ - جعيط، الكوفة، ص 336.

⁵ - Northedge. A, *Entre Amman et Samarra*, p.79

⁶ - Creswell.K.A, *A Short Account of Early Muslim Architecture*, p. 233.

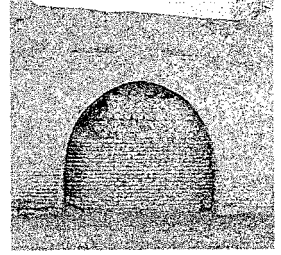
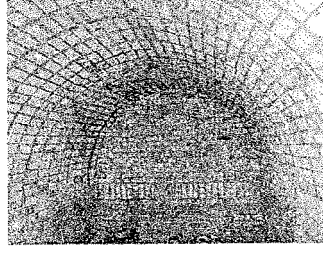
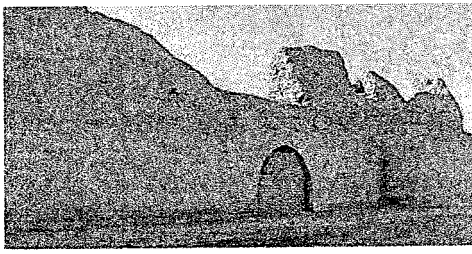
⁷ - اليعقوبي، البلدان، ص 8.

⁸ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص 76؛ جعيط، الكوفة، ص 336.

وقد حاول كريزوال إعادة تصميم هذه الطاقات فتصور رواقا طويلا عرضه 15 ذراعا يتفرع منه 35 قوسا متصاليا، وهناك غرفا جانبية للحرس على اليمين واليسار ولذلك فقد افترض أن هناك 54 غرفة في كل جانب لأن الأقواس الثلاثة والخمسين مستقلة عن جدران النهايات.¹

وقد احتوى سور الرافقة على عدد من الأقواس التي نفترض أنها كانت تمثل الطاقات على نموذج بغداد وهي معقودة ولا تحتوي على أي فتحة أو نافذة.

18 صورة : نماذج من طاقات مدينة الرافقة



واستنادا إلى قول الخطيب الذي يذكر أنه هناك 1000 حارس عند كل بوابة، فقد تصور كريزوال أنه يوجد 108 غرف لهؤلاء الحراس وضباطهم أي 100 غرفة للحراس بمعدل 10 حراس لكل غرفة و 8 غرف للضباط.² وبالتالي فقد كان يقيم في طاقات المدينة 4000 حارس بصرف النظر عن قادتهم. وهم من جند الحامية لا غير.³ كما كانت أسواق المدينة كذلك في الطاقات، لكن نقلها المنصور فيما بعد إلى الكرخ بعد زيارة وفد ملك الروم بغداد.⁴ وقد بين جعيط أن هذه النقطة المهمة فعلا قد تؤيد بخصوص بغداد المنصور صورة المدينة الملكية والإدارية.

عموما نستنتج أن القاطنين داخل أسوار المدينة هم أناس مختارون من ذوي الطابع العسكري بالدرجة الأولى، والموالي، فهم إذن أناس يرتبطون بالولاء للخليفة ويعتمدون في معاشهم على عطائه، لذلك فلا بدّ من بقائهم إلى جواره وتحت تصرفه لتلبية حاجاته وللتغلب على الأزمات التي قد تواجه الخلافة. أما أهل السوق فهم أناس يعتمدون في معاشهم على ما يحققونه من كسبهم، كما أنهم يفتقدون إلى الانضباط الذي يتحلى به الجيش، بالإضافة إلى كونهم يمكن أن يفسحوا المجال للتجسس وفضح أسرار الخليفة.⁵ لذلك لا بدّ من إقصائهم إلى خارج المدينة. وهكذا فقد كانت هذه المنطقة السكنية، بمثابة المنطقة الدفاعية لاحتوائها على الجند ولافتقادها

¹ - Creswell.K.A, *Ibidem*, p. 233.

² - Creswell.K.A, *A Short Account of Early Muslim Architecture*, p. 233.

³ - جعيط الكوفة، ص 339.

⁴ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص 80.

⁵ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج1، ص 78.

للإداريين والأنشطة الإدارية، ولكنها تضيء على بغداد صفة المدينة الملكية لأن السكن فيها لم يكن مسموحاً به للجميع.

يلي هذه المنطقة السكنية المجال المركزي، وهو وسط المدينة المدورة ويطلق عليه دار الخلافة، ويعرف كذلك بـ "الرحبة العظمى"، حيث القصر والمسجد الجامع في وسطها. يذكر اليعقوبي "وليس حول القصر بناء ولا دار ولا مسكن لأحد، إلا دار من ناحية الشام للحرس وسقيفة كبيرة ممتدة على عمد مبنية بالآجر والجص، يجلس في إحدهما صاحب الشرطة وفي الأخرى صاحب الحرس".¹ أما الخطيب البغدادي فقد أشار إلى الرحبة الدائرة حول القصر والمسجد ولم يشر إلى وجود أي مبنى حولهما.² ويضيف اليعقوبي "وحول الرحبة كما تدور منازل أولاد المنصور الأصغر ومن يقرب من خدمته من عبيده وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الجند وديوان الحوائج وديوان الأحشام ومطبخ العامة وديوان النفقات".³ وقد اختلفت الدراسات الحديثة في توزيع هذه البنايات. فقد أكد لسر أنهما لم تكن في الساحة بل كانت تحيط بها مكونة بذلك حلقة من الأبنية بين الفصيل الثالث الذي يحدد الحدود بين المنطقة السكنية والساحة المركزية ذاتها.⁴

أما لسترنج فقد وزع هذه البنايات بين القصر والحزام السكني تاركاً فسحات بينهما ومحترماً الطابع الواضح للرحبة.⁵ وقد اعتبر جعيط أن تصميمه يستجيب أكثر للمعلومات المتوفرة لدينا، مما تستجيب لذلك الحلقة الإضافية التي تصورهما لسر. فهو يرى أن المجال المركزي كان واسعاً فعلاً يتراوح قطره بين كيلومتر وكيلومترين، ولذا يمكن تصور القصر والمسجد منعزلين تماماً دون إضافة حلقة أخرى مفردة لا بد أن تكون المصادر قد أشارت إليها. فضلاً عن أن مقر المصالح الإدارية كان في كل زمن بالمركز العمومي سواء في الكوفة والبصرة أو واسط والأكثر أن يكون في القصر ذاته أو إلى جواره. لكن بخصوص المدينة المستديرة فإنه ينبغي إبعادهما كما أكد اليعقوبي لكن دون إقصائها من المركز الذي من وظائفه أن يتقبل وجود هذه المصالح.⁶ ونرجح بدورنا رأي جعيط لا سيما وأن الساحة المركزية كانت تنتهي بسور يحيط بالرحبة مثلما يشير إلى ذلك اليعقوبي، "ولا تتصل سكة من هذه السكك بسور الرحبة التي فيه دار الخلافة"،⁷ والذي هو بمثابة الحاجز الذي يفصل المنطقة السكنية عن الساحة المركزية.

يتشكل إذن المجال المركزي في المدينة المدورة، من جملة من المعالم الأساسية: القصر، المسجد، دواوين الحكومة، منازل أولاد الخليفة، سقيفة لصاحب الشرطة ودار لصاحب الحرس، وأهمها بالنسبة إلينا قصر الخليفة.

1- اليعقوبي، البلدان، ص 9.

2- الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 76.

3- اليعقوبي، نفس المصدر، ص 9.

4- لسر، خطط بغداد، ص 252.

5- لسترنج (غى)، نفس المرجع، ص 37.

6- جعيط، الكوفة، ص 37.

7- اليعقوبي، نفس المصدر، ص 9.

يُعرف هذا القصر في المصادر بـ "قصر المنصور" و "قصر الذهب"، كما سمي أيضا باسم "باب الذهب".¹ كما أطلق على هذا القصر كذلك اسم "دار". يذكر ياقوت "كان المنصور، بنى مدينته مدورة وجعل داره وجامعها في وسطها".²

لم يبق لهذا القصر اليوم أي أثر، لكن ترك لنا الخطيب البغدادي بعض الأوصاف التي تمكننا من أخذ فكرة شاملة عنه. فهو مربع الشكل، يبلغ قياس كل ضلع من أضلاعه أربعمئة ذراع، ويحتوي على إيوان عمقه 30 ذراعا، وعرضه 20 ذراعا.³ ويتصل الإيوان بقاعة أطلق عليها الخطيب اسم "مجلس" مربعة الشكل طول كل ضلع من أضلاعها 20 ذراعا وارتفاعها 20 ذراعا تعلوها قبة. وفوقها قاعة أخرى لها نفس المساحة ونفس الارتفاع، مغطاة بقبة أيضا وقد بلغ الارتفاع الإجمالي 80 ذراعا.⁴ وهي تمثل قاعة العرش أو الاستقبال. وبالتالي نستنتج من هذا الوصف أن قصر الذهب كان يتكون من طابقين ويحتوي على عنصرين أساسيين: قاعة العرش والإيوان.

بالنسبة للإيوان فهو عبارة عن قاعة مقببة مفتوحة من أحد الجوانب وهو واحد من العناصر المميزة للعمارة الإسلامية التقليدية مثل القبة والرواق والباحة، وأصله يعود إلى ما قبل الحضرتين الفارسية: البارثية والساسانية، وربما حتى إلى حضارات بلاد ما بين النهرين المتأخرة وإلى حضارة إيران الميديّة وعادة ما ترتبط كلمة "إيوان" بإيوان كسرى الذي كان قصرا رئيسيا للاستقبال في طيسفون.⁵ ويذكر الطبري أن المنصور أحب أن ينقض إيوان كسرى ويبنى بنقضه مدينة بغداد، وقد نفذ ذلك رغم محاولة خالد البرمكي صرفه عن ذلك، ثم عدل عن ذلك فيما بعد عندما بدا له أن كلفة الهدم أرفع من كلفة البناء من جديد. وكثيرا ما استخدم الإيوان في العمارة الساسانية كعنصر معماري أساسي في بناء القصور في كل من العراق وإيران الغربية.

ويمثل هذا النوع من القاعات المقر الرئيسي الذي كان الأباطرة الساسانيون يعتقدون فيه مجالسهم واحتفالاتهم. وقد استخدم الإيوان كذلك كعنصر أساسي في العمارة الإسلامية المدنية في العصر الأموي مع المحافظة على نفس الشكل.⁶ كدار الإمارة التي بناها زياد بن أبيه في الكوفة حوالي عام 45 هـ،⁷ والتي احتوت على أربعة أواوين من بينها إيوان مركزي. وكذلك قصر قلعة عمان بالأردن الذي يحتوي على أربعة أواوين متصالة.⁸

¹ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 73؛ اليعقوبي، نفس المصدر، ص 9؛ الطبري، نفس المصدر، ص 1564.

² - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص 459.

³ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 73؛

- Creswell.K.A, A Short Account of Early Muslim Architecture, p. 239.

⁴ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 73؛ العميد (طاهر مظفر)، بغداد مدينة المنصور المدورة، بغداد 1967، ص 264.

⁵ - الرباط (ناصر)، "الإيوان: معناه الفراغي ومدلوله التذكاري"، B. E. O، v XLIX، 1997، ص 249-250.

⁶ - الرباط (ناصر)، "الإيوان"، نفس المرجع، ص 249-250-251.

⁷ - Northedge . A, Entre Amman et Samarra, p.39

⁸ - الرباط (ناصر)، "الإيوان"، نفس المرجع، ص 255.

ومن القصور الإسلامية كذلك التي استخدم فيها الإيوان كعنصر أساسي والتي تعود إلى بداية العصر العباسي "دار الإمارة" التي بناها أبو مسلم في مرو عاصمة خراسان والتي أورد لنا الاصطخري وصفا مفصلا عنها. يذكر "دار الإمارة من بناء أبي مسلم، ودار الإمارة على ظهر هذا المسجد، وفي هذه الدار قبة بناها أبو مسلم كان يجلس فيها، وإلى هذه الغاية يجلس في هذه القبة أمراء مرو وهي قبة من آجر، وسعة هذه القبة خمسون ذراعا في خمسين ذراعا مسطحة الظهر،..... وللقبة أربعة أبواب كل باب إلى إيوان،..... وبين يدي كل إيوان صحن".¹

نلاحظ من خلال ما ذكره الاصطخري، أن مخطط دار الإمارة كان يتمثل في قبة في المركز تحيط بها من الجهات الأربعة أربعة أواوين، يفتح كل واحد منها على صحن مربع. وليس بعيد أن يكون أبا مسلم قد اعتمد في بنائه لهذه الدار نموذجا معروفا في تلك الفترة متأثرا في ذلك بالعمارة الساسانية التي مثل إيوان كسرى مثالها النموذجي الأساسي.² وقد قلّد المنصور بدوره قصر أبي مسلم، فقد أشار كريتزوال إلى التشابه الكبير بين القصرين.³

هكذا بدا لنا واضحا أثر العمارة الساسانية على العمارة الإسلامية خلال العصر الأموي وبداية العصر العباسي والذي تجلّى لنا على مستوى الإيوان وكذلك على مستوى قاعة العرش، كعنصر معماري أساسي يعود إلى العصر الساساني وهي تأتي مباشرة بعد الإيوان.

فقد أشار ستارن إلى احتواء أغلب القصور الساسانية على قاعة عرش مربعة الشكل يسبقها جناح مستطيل (nef oblongue)، وتعلوها قبة، أهمها قاعة عرش قصر فيروز آباد والتي تعود إلى بداية العصر الساساني وقاعة قصر دماغان والتي تنسب إلى القرن السادس وقاعة قصر إشرين والتي تعود إلى عصر كسرى،..... حيث تبرز لنا هذه الأمثلة بوضوح تطور تخطيط قاعة العرش في القصر الساساني.⁴

كما أن المتبقي من أثار القصور الأموية يدلّ على أن قاعة العرش قد لعبت كذلك دورا أساسيا في العمارة المدنية في العصر الأموي، وتأخذ في أغلب الأحيان شكل البازيليك المقسم إلى ثلاث أجنحة، أين ينتهي الجناح الأوسط بمحراب يعلوه قبة أو نصف قبة.⁵

ويتجلى ذلك في بعض الآثار الباقية كقصير عمرة الذي يحتوي على قاعة استقبال على شكل البازيليك مقسمة إلى ثلاث أقسام أو أجنحة متساوية العرض بواسطة عقدتين وكل قسم مسقوف بقبة برميلي، وتتصل قاعة

¹ - الاصطخري، المسالك والممالك، ص 147.

² - الرباط (ناصر)، "الإيوان"، نفس المرجع، ص 256.

³ - Creswell.K.A, A Short Account of Early Muslim Architecture, p. 231.

⁴ - Stern. H, « Notes sur l'architecture des châteaux omeyyades », Ars Islamica, v XI-XII, 1946, P. 91 .

⁵ - Barrucand.M, « Les audiences Umayyades et Abbasides : rituels et cadres spatiaux », Colloque international L'audience : rituels et cadres spatiaux de l'antiquité au haut moyen age, 6-8 novembre 2003, p. 4.

العرش في قصر عمرة بحمام على الطريقة الرومانية القديمة. كما تحتوي على حوض ماء بارد يذكرنا بفرجيداغريوم، frigidarium الحمة.¹

أما في القصور ذات طوابق، فإن قاعة الاستقبال كانت توجد في أعلى المدخل الرئيسي، كقصر خربة المفجر، الذي يقع على مقربة من أريجة وقد شيده هشام بن عبد الملك وقد كشفت الحفريات عن قصر وجامع وحمامات وفناء أمامي ذي أعمدة وبركة مزدانة بالزخارف.² وكان القصر مؤلفا من طابقين حيث يضم الطابق الأول مجموعة من الغرف، وقاعة الاستقبال كانت توجد في الطابق الثاني في أعلى المدخل الرئيسي للقصر. ويمثل الحمام العنصر البارز في هذه المجموعة، وهو يتألف من قاعة ضخمة مربعة الشكل يبلغ طول كل ضلع من أضلاعها 30م، تحتوي على محور رئيسي يمثل عرش الخليفة، وقاعة استقبال صغيرة في الزاوية الشمالية الغربية مزخرفة بأروع الفسيفساء والجص، وإلى جوارها غرف للحمامات الساخنة وغرف للحمامات الباردة،

وقد أطلق نورثادج على هذه القاعة اسم "قاعة استقبال الخاصة".³

ويبقى أحد أهم القصور الأموية التي استخدمت فيها قاعة العرش، كعنصر معماري رئيسي، قصر المشق، جنوب عمان الذي بناه الخليفة الوليد الثاني حوالي سنة 125-126 هـ / 743-744 م، والذي كشفت التنقيبات الأثرية عن احتوائه على قاعة عرش مربعة الشكل، تعلوها قبة وتتصل بقاعة أخرى مستطيلة الشكل، قسمت بواسطة صفين من الأعمدة إلى ثلاث أجنحة. حيث يمتد ممر طويل يصل بين المدخل والمحراب الذي يقع في صدر قاعة العرش، وقد أخذت قاعة العرش في قصر المشق كذلك شكل البازيليك المفتوح، وهي مكونة من ثلاث حنيات نصف دائرية التخطيط، كما هو الشأن في قاعات العرش الرومانية. وكذلك في الحمامات الرومانية في تلبته في تونس. وبالتالي تكون قاعة العرش في قصر المشق قد جمعت في تشكيلها بين التأثيرات الرومانية باعتمادها على المخطط ثلاثي الحنيات والساسانية من خلال اعتمادها الإيوان الذي يتصل بقاعة العرش، هذا التنظيم الذي سيقع اعتماده مع بعض التغيير في القصور العباسية، في القرن التاسع الميلادي.⁴ وحتى في القرن الثامن مثلما تدل على ذلك عمارة قصر الذهب الذي يتألف من قاعة عرش مربعة الشكل تتقدمها قاعة أخرى مستطيلة الشكل تتمثل في الإيوان.

¹ - Barrucand.M, « L'Islam », *Op. Cit*, p. 416; Northedge. A, *Entre Amman et Samarra*, p.42 ; - بيشه (غازي)، القصور الأموية في الأردن، الأردن 1974، ص 13.

² - البهنسي (عفيف)، القصور الشامية وزخارفها في عهد الأمويين، دمشق 1986، ص 94.

³ - Barrucand.M, « L'Islam », *Op. Cit*, p. 416; Northedge. A, *Ibidem*, p.42.

- البهنسي (عفيف)، نفس المرجع، 97.

⁴ - BARRUCAND.M, « L'art de l'islam », *op.cit*, p461 ; STERN. H, « Notes sur l'architecture des châteaux omeyyades », *op.cit*, P. 91 ;

- بيشه (غازي)، القصور الأموية في الأردن، الأردن 1974، ص 6.

وقد كانت قاعة العرش والإيوان في القصور الساسانية، منفصلين عن بعضهما البعض بواسطة جدار كما هو الشأن بالنسبة لقصر فيروز آباد أو قصر دمعان، أما في قصر المشتى فقد كانا متصلان ببعضهما البعض.¹ أما بالنسبة لقصر الذهب، فيبدو أن قاعة العرش كانت متصلة مباشرة بالإيوان، إذ لم يشر الخطيب لوجود إي حاجز بينهما.

وقد احتوى قصر الذهب بالإضافة إلى الإيوان وقاعة العرش، على قاعات أخرى كانت تستخدم لإقامة الخليفة. وقد أورد الطبري وصفا لغرفة نوم المنصور وهي "حجيرة صغيرة، وفيها بيت واحد ورواق بين يديه في عرض البيت وعرض الصحن، على اسطوانة ساج وقد سدل على وجه الرواق بوارى كما يصنع بالمساجد ليس فيه شيء غيره إلا فراشه ومرافقه ودثاره".² كما كانت له حجيرة أخرى، "فيها بيت وفسطاط وفرش ولحاف يخلو فيه".³ ولم يسمح المنصور لأحد بالإقامة معه في قصره سوى من كان يتولى خدمته.⁴

نستنتج إذن أن المنصور اتخذ من قصر الذهب، مقرا رسميا لعقد المجالس مثلما يدل على ذلك الإيوان وقاعة العرش، وسكننا خاصا له، ولم يجعل منه مقرا إداريا. أما القصر الذي شيّده المنصور وسط مدينة الرافقة على غرار مدينة بغداد فلم يبق له اليوم أي أثر.

وقد ابتنى المنصور إلى جانب القصر المسجد الجامع، يذكر اليعقوبي "وإلى جانب القصر المسجد الجامع". ويذكر الخطيب أن المنصور "جعل المسجد الجامع بالمدينة ملاصقا قصره المعروف بقصر الذهب".⁵ وبناء القصر إلى جانب الجامع هي عادة درج عليها المسلمون في بناء مدنهم والذي يكون عادة في الضلع القبلية من القصر، كما في الكوفة والفسطاط والبصرة والقيروان وواسط.⁶

لكن ما يعد تجديدا في بغداد هو أن المسجد شيّد بعد القصر، في حين أنه من المفروض أن يبدأ أولا ببناء الجامع في وسط المدينة وإلى جانبه القصر كما هو متبع في المدن السابقة لبغداد. وقد أدى ذلك إلى أن تكون قبلة جامع المنصور منحرفة.⁷ وبالتالي فإن التطور الذي حصل في بغداد يتمثل في أن القصر أصبح يحتل مركز المدينة بدلا من المسجد الجامع، ليكون نواة ما يمكن أن نسميه المدينة الملكية التي سعى المنصور إلى إنشائها. لكن مهما تغير موقع المسجد بالنسبة للقصر فإن المنصور لم يخرج عن مجموعة القصر والجامع التي ميّزت العمارة الإسلامية منذ عهد الفتوح، مع العلم أن هذا الترتيب لم يكن معروفا في العمارة الأموية ما عدا خضراء معاوية. نلاحظ أن الناس كانوا يدخلون كل يوم جمعة إلى المدينة المدورة لأداء صلاة الجمعة في المسجد الجامع، وكانوا يدخلون إليها من باب خراسان.⁸

¹ - STERN. H, « Notes sur l'architecture des châteaux omeyyades », *op.cit*, P. 91.

² - الطبري، نفس المصدر، ص 1595.

³ - الطبري، تاريخ، ص 1598.

⁴ - الطبري، نفس المصدر، ص 1598.

⁵ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 107؛ اليعقوبي، نفس المصدر، ص 9.

⁶ - العميد (ظاهر مظفر)، نفس المرجع، ص 262.

⁷ - الطبري، نفس المصدر، ص 1562.

⁸ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 49-47؛ Northedge. A, *Entre Amman et Samarra*, p.80.

ولعل هذا لا يتماشى وطبيعة المدينة الملكية، التي لا يجوز لأي كان الدخول إليها، وبالتالي فإن تأسيس المسجد داخل المدينة المدورة وإلى جانب القصر، سوف يفسح المجال إلى العامة لدخول المدينة المدورة كل يوم جمعة لأداء صلاة الجمعة.

وتحيط بالمسجد الرحبة المركزية، وتسمى كذلك رحبة المسجد، وهي موجودة خارج المسجد بعد الإيوان مباشرة، وقد ظهرت رحاب المسجد في الحواضر الإسلامية الكبرى خلال القرنين الأول والثاني للهجرة، مثل رحبة القضاء للتحكيم الذي تم بين عثمان وعلي سنة 23 هـ / 644 م، وكانت ملاصقة للمسجد، كما كانت الرحبة موجودة في المدن اليمنية والساسانية وهي تعرف بالميدان، وكذلك الرومانية "forum"، فهي مثلما أشار إلى ذلك جعيط ظاهرة عالمية مستمرة بصورة ملحوظة عبر الزمان.¹ ولم يكن مسموحا لأحد دخول الرحبة إلا مشيا على الأقدام.²

كما كانت تحيط بالرحبة منازل أولاد المنصور الأصغر، وخدمه وعبيده، لكن لا تذكر المصادر شيئا عن هذه المنازل. أما بالنسبة للدواوين التي كانت تحيط بالرحبة، فيمكن تقسيمها إلى صنفين: دواوين تتصل شخصا بالخليفة والبلاط: مثل ديوان الحوائج، ديوان الأحشام، مطبخ العامة.. ودواوين تتصل أعمالها بالناس كبيت المال، وديوان الجند.³ نستنتج إذن أن السكن داخل المدينة المدورة، اقتصر على إقامة الخليفة وإقامة أولاده والمقرين منه (القواد والموالي)، ودواوين الحكومة أما باقي الإقامات فقد جعلت خارج أسوار المدينة أي في الأرباض.

لكن ولئن أمكن للمنصور التخلص من أهل السوق عن طريق تحويلهم من طاقات المدينة إلى منطقة الكرخ، فلا يمكنه منع الناس من الدخول إلى المدينة المدورة لأداء صلاة الجمعة في المسجد الجامع. كذلك يبدو أن تأسيس مسجد جامع لأهل الكرخ لم يحل المشكل، لأنهم واصلوا دخولهم إلى المدينة المدورة لأداء صلاة الجمعة.⁴

وبالتالي فإن جعل المنصور القصر الأول في البناء والأكثر اتساعا لم يكن كاف لخلق تلك المدينة الملكية التي كثيرا ما سعى إليها والتي عبر عنها من خلال اختياره الشكل الدائري وحرصه على أن تكون مقرا له وللقائمين على خدمته ومركزا إداريا وعسكريا، وذلك لأن عامة الناس كانوا يدخلون المدينة كل يوم جمعة لأداء صلاة الجمعة في المسجد الجامع.

ويبدو أن المنصور فهم ما تمثله هذه النقطة من تهديد لسلامة أمنه، فقرر التخلي نهائيا عن الإقامة داخل المدينة المدورة والتحول إلى قصر آخر شيده سنة 158 هـ / 775 م وأطلق عليه اسم "الخلد" وهو يقع على شاطئ

¹ - جعيط، الكوفة، ص 107-110.

² - الطبري، نفس المصدر، ص 1563.

³ - اليعقوبي، البلدان، ص 9.

⁴ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 14؛ الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 80.

دجلة قرب الجسر وخارج المدينة المدورة.¹ وقد أكدت الدراسات الحديثة على أهمية موقع هذا القصر من الناحيتين الإستراتيجية والأمنية، فهو يهيمن على وسيلة الاتصال بين القوتين العسكريتين في بغداد (الرصافة وبغداد)،² وبالتالي يوفر للخليفة حماية أقوى من الأخطار المهددة الناجمة من أي انقلاب محتمل.³ فقد أصبح الخليفة على مقربة من قوة أمنية كبيرة وبعيدا عن العامة.

ولا تذكر المصادر إن كان الخليفة المنصور قد نقل دواوين الحكومة إلى قصر الخلد، لكن الواضح أنها ظلت في المدينة المدورة. وعلى هذا الأساس فإن الخليفة المنصور اتخذ من قصر الخلد مقرا خاصا، في حين حافظت المدينة المدورة على دورها كمدينة إدارية أو رسمية. وقد أقام المنصور في قصر الخلد في السنة الأخيرة من خلافته، كما أقام فيه كذلك الخليفة الرشيد خلال السنوات الأولى من خلافته،⁴ أما قصر الذهب فلم يقيم فيه من الخلفاء بعد المنصور غير الخليفة الأمين.⁵

وبناء على ما سبق يمكننا الخروج بالاستنتاجات التالية:

- أولا: نلاحظ أن أسوار مدينة الرافقة وأبوابها تعدّ نموذجا حيا ومصفرا، يمكن أن يعوضنا عن أسوار مدينة بغداد وأبوابها، ولا بدّ من العودة إليها في أي دراسة لمدينة بغداد طالما لم يقع الكشف عن آثار مدينة بغداد المندثرة. فهي تعطينا فكرة صريحة وواضحة عن كيفية تحصين المدن خلال العصر العباسي الأول⁶، سور داخلي وسور خارجي بينهما مساحة من الأرض اصطلاح على تسميتها بالفصيل وانشأ خندق يحيط بالسورين. وبالتالي فإن نص البلاذري يعدّ بالغ الأهمية، وكذلك نص الطبري، لأنهما يسلطان الضوء على مسألة هامة تتمثل في مطابقة مدينة بغداد لمدينة الرافقة على مستوى التحصينات الخارجية، وهو ما أكدته لنا الآثار المتبقية من أسوار مدينة الرافقة، كما أن وصف اليعقوبي والخطيب البغدادي لأسوار بغداد يكاد ينطبق إلى حد كبير مع ما تبقى من أسوار مدينة الرافقة وأبوابها، الأمر الذي يجعلنا نشق أكثر بنصي اليعقوبي والخطيب البغدادي في وصفهما لأسوار بغداد وأبوابها. وهكذا بدت مدينة الرافقة بأسوارها لاسيما السور الأعظم نموذجا حيا يمكن أن يعوضنا عن مدينة بغداد المندثرة والذي تجلّت لنا فيه عظمة مدينة بغداد لاسيما على مستوى السور الأعظم والخندق.

1- اليعقوبي، نفس المصدر، ص 16؛ الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 92؛ العلي (صالح أحمد)، " منازل أولاد الخلفاء وقصورهم في بغداد في العهود العباسية الأولى"، سمر، ج 1 و 2، المجلد 32، 1976، ص 170.

- Northedge. A, *Entre Amman et Samarra*, p. 80 ; Sourdel. D, " Bagdad capitale du nouvel empire abbasside", *Op. Cit*, P. 252.

2- العلي (صالح أحمد)، " منازل أولاد الخلفاء وقصورهم"، نفس المرجع، ص 171.

3- لسنر، نفس المرجع، ص 262- 264.

4- الجهشيار، الوزراء والكتاب، ص 189.

5- الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 98.

6- طوير (قاسم)، " المواقع الأثرية العربية الإسلامية في الجزيرة السورية " *Bulletin d' Etudes Orientales* ، t XLI- XLII ، 1989- 1990، p. 247.

- ثانيا: إن تقسيمات الأرض في المدينة المدورة تعكس بالنسبة لمدينة بغداد صفة المدينة الملكية والتي تجسدت من خلال تمتعها بحصانة دفاعية قوية واحتوائها لمقام الخليفة ومقام أولاده وقواده ومواليه والمقربين منه وكذلك دواوين الحكومة، لاسيما بعد أن قام المنصور بإخراج الأسواق إلى الكرخ. لذلك لم تكن " المدينة المدورة " مثلما أشار إلى ذلك لسر مدينة بالمعنى المتعارف عليه وإنما كانت مجموعة قصر عظيمة تجمع بين مقام الخليفة والدواوين الإدارية للحكومة.¹ لكن في نفس الوقت تظهر مدينة بغداد استمرارا ممتازا لتركيب الكوفة وذلك من خلال تقسيم المدينة إلى منطقتين مجاليتين - أي الساحة العمومية ومساحة للإقامة.² كما أن بناء القصر إلى جانب المسجد يمثل استمرارا لتخطيط مدن الأمصار الأولى الكوفة البصرة والفسطاط ولو أنه يمثل تطورا في نفس الوقت حيث أن الأولوية أعطيت للقصر على حساب المسجد.

ثالثا: عبّرت المظاهر العمرانية والخصائص الفنية لمدينة بغداد عن الفكر الكوفي أو السيادة الكونية للخليفة المنصور، والتي تجلّت على مستوى اختيار الشكل المستدير، هذا فضلا عن الرقم أربعة في عدد الأبواب الأربعة وفي الجهات الأربعة، فالكون مؤلف من أربع عناصر منتشرة في أربعة اتجاهات مكانية ومنظمة في أربعة فصول زمانية.³ والخليفة المنصور يرى أن الملك قوامه أربعة كما لا يقوم السرير إلا بقوائمه الأربعة.⁴

وكذلك الرقم اثنين في السورين والفصيلين والذي يشير إلى التناظر والازدواجية، فهذه كلها أرقام ترمز إلى الملك وإلى السيطرة الكونية. كما يرمز موقع هذه المدينة ومحل الخليفة منها كذلك إلى هذه السيطرة الكونية، إذ أن هذا الأخير يوجد في المركز فهو القطب وهناك فضاء خال حوله فاصل بينه وبين البقية يعبر عن التميز عن الآخرين الذين يوجدون على نفس المسافة منه. ولعل قول المنصور " أنا سلطان الله في أرضه " يؤيد ذلك.⁵ لكن عنصر واحد أفقد بغداد صفة المدينة الملكية هو المسجد الجامع، لأنه المجال الجامع للسلطة بالرعية ولذلك قرر المنصور التخلي عن الإقامة في المدينة المدورة والتحول إلى قصر الخلد، الذي سيصبح منذ ذلك التاريخ مقر الخليفة الخاص، في حين ستحافظ مدينة بغداد على دورها كمدينة رسمية، لذلك يمكن القول بأن مدينة بغداد كانت مدينة ملكية إلا أنها لم تكن تامة.

¹ - لسر، نفس المرجع، ص 286.

² - جعيط، الكوفة، ص 336.

³ - طوير (قاسم)، " لغة الأرقام في العمارة الإسلامية "، الحوليات الأثرية السورية، م 31، سنة 1981، ص 58.

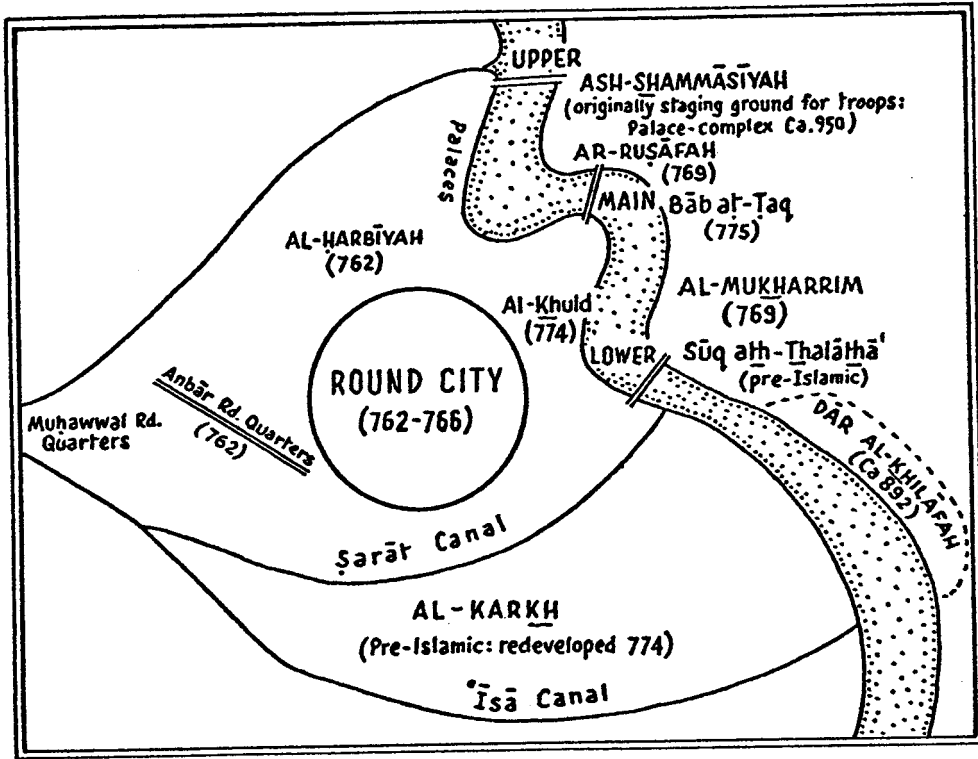
⁴ - ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ليدن 1973، ص 62.

⁵ - البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 360.

III الرصافة

لما تولى الخليفة المهدي الخلافة لم يتخذ مقره في بغداد وإنما في الرصافة. وقد أنشأت الرصافة سنة 151هـ/768 م من قبل الخليفة المنصور على الجانب الشرقي مقابل المدينة المدورة، وقد لعبت الدوافع العسكرية دورا كبيرا في تأسيسها، بالإضافة إلى عوامل أخرى تمثلت في رغبة الخليفة المنصور الرفع من شأن ابنه المهدي والتمهيد لتعيينه وليا للعهد.¹ وكان المهدي يقيم في قصر الرصافة وهو وليا للعهد، وكذلك عند توليه الخلافة.

1 خريطة: تبرز موقع قصر الخلد والرصافة.²



وقد أدى اتساع السكن والعمران في الرصافة إلى خوف المنصور من انتقال مركز الخلافة إليها،³ وهو ما حصل فعلا بعد وفاته، حيث تشير المصادر إلى بناء المهدي على إثر توليه الخلافة لجامع الرصافة وخذلها وسورها.⁴

¹ الطبري، تاريخ، ص 1577؛ لسر، خطط بغداد، ص 264-265؛ فاروق (عمر)، العباسيون الأوائل، ج 2، ص 26-27.

² Northedge . A, Entre Amman et Samarra, fig. 31.

³ الطبري، تاريخ، ص 1604.

⁴ الطبري، نفس المصدر، ص 1609.

وكما هو الشأن بالنسبة لبغداد لم يبق للرصافة أي أثر مادي، لكن يدل بناء القصر داخل الرصافة، وإحاطتها بالسور والخندق على رغبة الخليفة المهدي في جعلها مفصولة عن باقي أراضي الجانب الشرقي بحاجز مادي يحددها ويجعل الحياة فيها معزولة عن الحياة في أرباضها. وبذلك تكون مدينة الرصافة قد اكتسبت بدورها طابعا ملكيا.

ولم تشر المصادر إلى حجم أو شكل قصر الرصافة، وإنما اكتفت فقط بالإشارة إلى أن قبلة جامعها أصوب من قبلة جامع بغداد، وإلى أنه بني قبل القصر،¹ أي عكس ما حدث في بغداد. لكن وجود القصر في وسط الرصافة وإحاطتها بالسور والخندق، يجعلها قرية الشبه ببغداد من حيث أنها مدينة مسورة في وسطها جامع إلى جانبه قصر وحولها ربض فيه دور المقرين من الخليفة.

وعلى هذا الأساس فإن وجود المسجد داخل المدينة وبلصق القصر جعل الخليفة المهدي كذلك لا يطيل الإقامة في الرصافة، إذ انتقل في سنة 163 هـ / 780 م إلى قصر الطين وفي السنة الموالية إلى عيساباذ، وقد بني فيها قصر السلام الذي كان فيه مقامه ومقام ابنه موسى الهادي الذي تولى الخلافة من بعده.² وليس لنا من معين على تحديد موقع عيساباذ سوى نص الخطيب البغدادي الذي ذكر فيه " أن نهر المهدي منسوب إلى المهدي ومثله كان هناك وكان مستقره في عيساباذ "، أي أن عيساباذ تقع على ذلك النهر أو بالقرب منه.³ وبالتالي فقد أفقد المسجد الجامع مرة أخرى الرصافة صفة المدينة الملكية. ولم يبق من الخلفاء في الرصافة بعد المهدي سوى المأمون لما عاد إلى بغداد إلى أن بني له قصر خاص على شاطئ دجلة الشرقي.⁴ لكن ستشهد العمارة العباسية تطورا ملحوظا في عهد الخليفة الرشيد الذي نقل مقر البلاط إلى الرقة والتي ستشهد بروز أولى المدن الملكية في العصر العباسي وفي العالم الإسلامي عامة.

¹ - الطبري، نفس المصدر، ص 1562.

² - الطبري، نفس المصدر، ص 1624؛ عمارة (أسماء)، البلاط العباسي، ص 44-45.

³ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 96؛ العلي (صالح أحمد)، " منازل أولاد الخلفاء وقصورهم "، نفس المرجع، ص 184-185.

⁴ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 98؛ ابن طيفور، كتاب بغداد، 1949، ص 10.

الفصل الثاني: دار الخلافة العباسية في الرقة

كان الرشيد يقيم في قصر الخلد عندما كان ولياً للعهد وكذلك خلال السنوات الأولى من خلافته، وقد استمر يقيم فيه حتى سنة 180 هـ / 796 م حيث تتفق المصادر بشكل عام أن الرشيد نقل مقره في هذه السنة إلى الرقة. يذكر الطبري " وفيها مضى الرشيد إلى الرقة فترها واتخذها وطناً " وذكر ابن شداد " ولما كانت سنة ثمانين خرج الرشيد من بغداد وسار إلى الرقة، فاتخذها موطناً".¹ نلاحظ أن الرقة أصبحت منذ سنة 180 هـ / 796 م المقر الرسمي للبلاط العباسي. والرقة مدينة قديمة على شاطئ الفرات² وقد اكتسبت أهميتها في العهد العباسي منذ أيام الخليفة المنصور الذي ابني بالقرب منها مدينة الرافقة.

وقبل الحديث عن أهمية الرقة وعن سبب اختيارها كي تكون داراً للخلافة العباسية بدلاً من بغداد لا بد أن نشير إلى أن الخليفة الرشيد قد أظهر عزمه على نقل مقر البلاط عن بغداد، منذ سنة 172 هـ / 788 م، أي بعد سنتين من توليه الخلافة، وقد بحث بنفسه عن مقر عاصمته الجديدة إلى أن استقر رأيه في النهاية على مدينة الرقة. يذكر الطبري أن الرشيد شخص سنة 172 هـ / 788 م " إلى مرج القلعة مرتاداً بها متراً يترله " وذكر " أن الذي دعاه إلى الشخص إليها أنه استثقل مدينة السلام، فكان يسميها البخار، وسميت تلك السفرة، سفرة المرتاد".³ إن هذا النص يبرز بوضوح استياء الرشيد من بغداد وبخثه عن مقر جديد وقد فتنه عنه في مرج القلعة إلا أنه لم يوفق في ذلك.

ثم توجه سنة 174 هـ / 790 م " إلى باقردي وبازبدي، و بنى بباقردي قصراً، فقال الشاعر في ذلك:

بقردي و بازبدي مصيف و مربع و عذب يحاكي السلسيل برود
و بغداد، ما بغداد، أما ترابها فخرء، وأما حرها فشديد.⁴

ويدل بناء الرشيد لقصر بباقردي على تفكيره في جعلها مقراً له، ولعل ذم الشاعر لبغداد وتفضيله لبقردي يؤيد ذلك. ويذكر الطبري أيضاً أن الرشيد كان يتزدد كلما ضجر المقام ببغداد " بالقاطول، وقد كان بني هناك مدينة آثارها وسورها قائم، وقد كان يخاف من الجند ما خاف المعتصم، فلما وثب أهل الشام وعصوا، خرج إلى الرقة فأقام بها وبقيت مدينة القاطول لم تستم".⁵

ويشير الطبري كذلك إلى أنه قبل أن يقع اختيار الرشيد على الرقة صار في الحرم من نفس السنة أي سنة 180 هـ / 796 م إلى البصرة أثناء انصرافه من مكة " فزل المحدثه أياماً، ثم تحول منها إلى قصر عيسى بن جعفر بالحريية... ثم شخص عن البصرة لاثني عشرة ليلة بقيت من الحرم، فقدم مدينة السلام، ثم شخص إلى الحيرة، فسكنها وابتنى بها المنازل، وأقطع من معه الخطط، وأقام نحواً من أربعين يوماً فوثب به أهل الكوفة

¹ - الطبري، تاريخ، ص 1672؛ ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 3، القسم الأول، ص 70.

² - ابن شداد، نفس المصدر، ج 3، القسم الأول، ص 69-70؛ ياقوت، معجم البلدان، ج 3، ص 59.

³ - الطبري، نفس المصدر، ص 1658 ابن كثير، نفس المصدر، ج 2، ص 1539.

⁴ - الطبري، تاريخ، ص 1660.

⁵ - الطبري، نفس المصدر، ص 1836.

وأساءوا مجاورته، فارتحل إلى مدينة السلام".¹ ولا شك أن توجه الرشيد إلى القاطول يدل على ضجره من بغداد، كما أن بقاءه في البصرة يدل على تفكيره في إمكانية جعلها مقر إقامته، أما نزوله الحيرة وبنائه فيها وتوزيعه القطاعات فيدل على رغبته في اتخاذها دارا للخلافة العباسية بدلا من بغداد، وقد دفعه إلى ذلك قسوة مناخ بغداد فقد كان يسميها "مدينة البخار". لكن ذلك لم يكن بالطبع السبب الوحيد الذي جعله يفكر في ترك بغداد، فقد يكون لتعاظم دور البرامكة ومسكهم بزمام الأمور دورا كذلك لاسيما وأن لهم في بغداد أتباع كثيرين وخاصة "الجند الكرنبية" الذين أتى بهم الفضل بن يحيى من خراسان سنة 178 هـ / 794 م.² وعلى هذا الأساس فقد يكون الرشيد بنقله مقر الخلافة إلى الرقة، قد أراد أن يحرر حكمه من سلطان البرامكة لاسيما وأن القضاء عليهم قد تم من الرقة.³ هذا دون أن ننسى عامل آخر هام يتمثل في إرادة الرشيد اتخاذ عاصمة تكون رمزا لحكمه.

أما عن سبب اختيار الرشيد الرقة كي تكون عاصمة حكمه فتشير المصادر إلى اضطراب أهل الشام،⁴ لكن يرى أحمد صالح العلي أن معظم الحركات المناوئة للعباسيين، ومن ذلك حركات السفينيين، بالإضافة إلى حركات الخوارج أخذت قبل تولي الرشيد الخلافة وكان أهل الشام مفككين ولم يكونوا مصدر خطر على الدولة العباسية.⁵ لكن لا بد أن نشير إلى شيء مهم وهو أن الرقة كثيرا ما كانت تودع الرشيد لغزو الروم وتستقبله منتصرا حينما يعود أيام والده المهدي، وكذلك خلال السنة الأولى من خلافته.⁶ كما أن الرشيد كان يحب التزهة والتحول بين نمري الهنيء والمريء في الرقة حتى أنه فكر في التنحي عن ولاية العهد لفائدة ابن أخيه الهادي مقابل الحصول عليهما.⁷ وقد دفع به كل ذلك إلى الاستقرار بالرقة.

وقد ظلت الرقة المقر الرسمي للبلاط منذ سنة 180 هـ / 796 م، وإلى أن توفي الرشيد سنة 193 هـ / 809 م أي مدة 13 سنة ولم يكن الرشيد يغادرها إلا لغزو أو لحج. أما بغداد فقد عين عليها ابنه محمد الأمين،⁸ فأصبحت ولاية تابعة و ليست دارا متبوعة.⁹ ولم يكن الرشيد يدخل بغداد إلا مرورا بها في أسفاره وفي بعض الأحيان كان يتحاشى التزول فيها.¹⁰

¹ - الطبري، نفس المصدر، ص 1672.

² - الطبري، نفس المصدر ص 1668؛ الحسون (مصطفى)، "دار الرشيد وعاصمته الثانية"، وقائع الندوة الدولية لتاريخ الرقة وآثارها، 24 - 28 تشرين أول، 1981، ص 34؛ شتورم (يوتر)، "أهمية مدينة الرقة منذ الفتح العربي وحتى الآن"، وقائع الندوة الدولية لتاريخ الرقة، 24 - 28 تشرين أول، 1981، ص 139.

³ - الطبري، نفس المصدر، ص 1686.

⁴ - الطبري، نفس المصدر، ص 1836.

⁵ - العلي (صالح أحمد)، "منازل أولاد الخلفاء و قصورهم في بغداد"، نفس المرجع، ص 175.

⁶ - الطبري، نفس المصدر، ص 1621-1622-1625؛ الحسون (مصطفى)، "دار الرشيد"، نفس المرجع، ص 35.

⁷ - الجهشيار، الوزراء و الكتاب، ص 170.

⁸ - الطبري، نفس المصدر، ص 1678؛ العلي (صالح أحمد)، "منازل أولاد الخلفاء"، نفس المرجع، ص 173.

⁹ - الطبري، نفس المصدر، ص 1678-1695؛ الحسون (مصطفى)، "دار الرشيد"، نفس المرجع، ص 35؛ العلي (صالح أحمد)، "منازل الخلفاء و قصورهم في بغداد"، نفس المرجع، ص 174-175.

¹⁰ - الطبري، تاريخ، ص 1694 - 1676؛ العلي (صالح أحمد)، "منازل أولاد الخلفاء"، نفس المرجع، ص 174-175.

أصبحت إذن الرقة في عهد الخليفة الرشيد دار الملك.¹ وقد عدّها الرشيد من منازل الدنيا الأربعة، فكان يقول: الدنيا أربعة منازل، قد نزلت ثلاثة منها، أحدها الرقة، والآخر دمشق و الآخر الري و المنزل الرابع سمرقند".² ولعل ابتداءه بمدينة الرقة يدل على احتلالها لمركز الصدارة.

وقد كان الرشيد يقيم في البداية بقصر الإمارة في الرافقة.³ ثم بنى في الرقة القصور.⁴ وكان يقيم فيها هو وحرمة وقواده ووزرائه والمقرين منه وبها كانت خزائنه.⁵ كما أنشأ فيها ميادين لسباق الخيل.⁶

هذا ما أشارت إليه النصوص وما أكدته نتائج البحث الأثري التي أثبتت أن الخليفة هارون الرشيد وأفراد أسرته ورجال بلاطه قاموا بإنشاء العديد من القصور الضخمة والحداثق في المنطقة الواقعة إلى الشمال من سور مدينة الرافقة التي بناها الخليفة المنصور سنة 155 هـ / 772 م على يد ابنه المهدي والتي كنّا قد أشرنا إليها.⁷ وقد كشفت عنها الصور الجوية التي تم التقاطها منذ سنة 1920 والتي تبين من خلالها أن هذه المنطقة تصل من الشرق حتى تل البيعة وجور الرخم المطلّة على سرير نهر البليخ وتجاوزت حدودها من الغرب طريق أبيض متوسعة نحو الشمال حتى السهول وتقدر مساحتها بأكثر من خمسين كيلومتر مربع.⁸

¹ - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة 1930، ج 2، ص 99.

² - ابن شداد، الأعلام الخطيرة، دمشق 1956، ص 308.

³ - الأصفهاني، الأغاني، ج 13، ص 84.

⁴ - البلاذري، نفس المصدر، ص 184؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، المجلد 3، بيروت 1957، ص 15.

⁵ - الطبري، نفس المصدر، ص 1678.

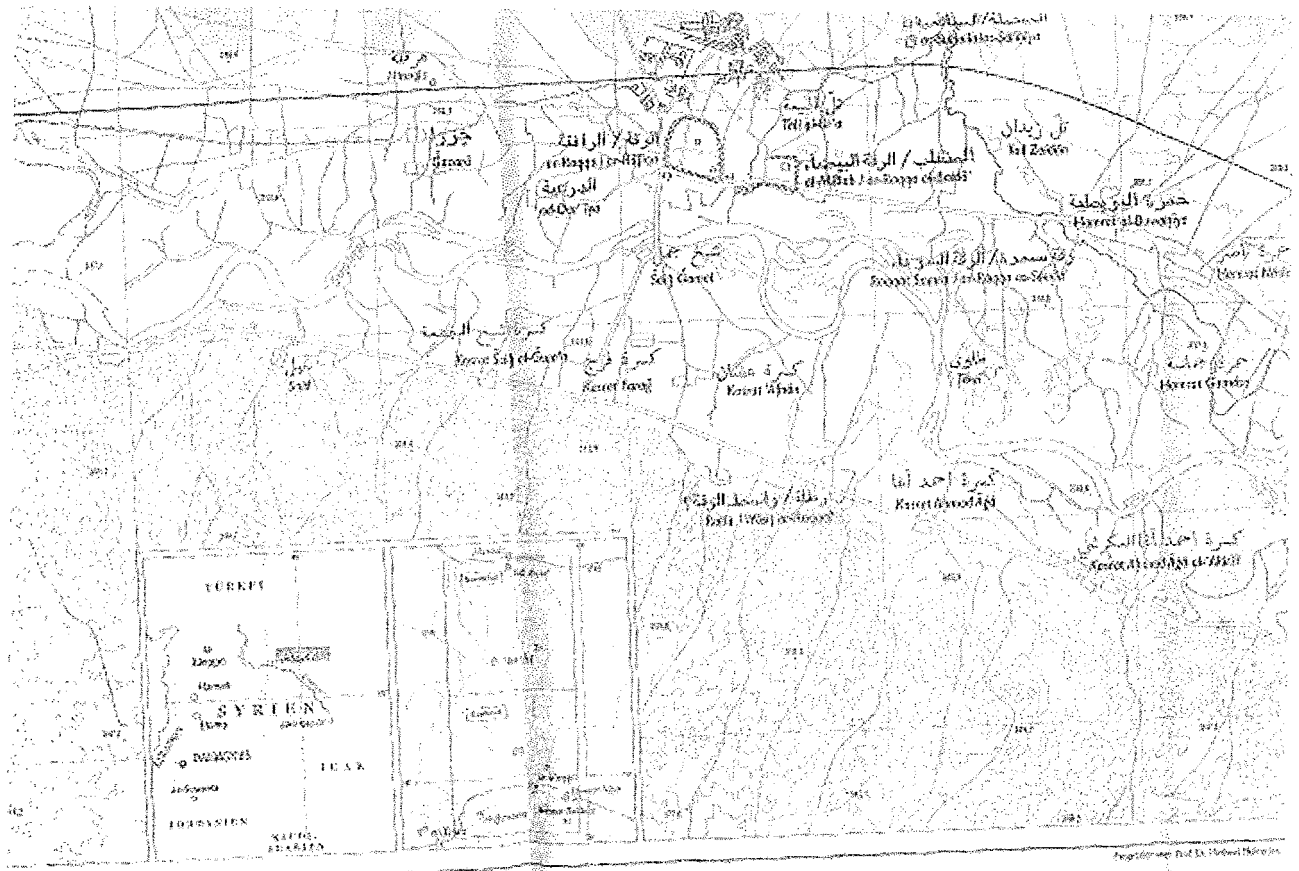
⁶ - الجعفي، الوزراء و الكتاب، ص 207.

⁷ - مانيكه (ميخائيل)، هوش (يان كريستوف)، قصر هارون الرشيد في الرقة، تعريب قاسم طوير، المعهد الأثري الألماني بدمشق، ص 1؛ صليبي (نسيب)، "ثلاثة قصور من الرقة القديمة"، وقائع الندوة الدولية لتاريخ الرقة، ص 44؛ Toueir (Kassem), « Raqqa », in Syrie mémoire et civilisation, Paris 1993, p. 378-380.

⁸ - صليبي (نسيب)، "ثلاثة قصور من الرقة القديمة"، نفس المرجع، ص 44؛

Toueir (Kassem), « Raqqa », Op. Cit, p. 380.

2 خريطة: مقطع من خريطة لأهم المواقع الأثرية في الرقة



وقد قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف من عام 1944 وحتى عام 1970 بالكشف عن عدد من تلك القصور، لكن التوسع العمراني الحديث عقب المشاريع الإنمائية الزراعية في منطقة الفرات في العقود الأخيرة قد غطى القسم الأعظم من منطقة القصور العباسية. لذلك قام المعهد الألماني بدمشق منذ سنة 1982 بالاشتراك مع المديرية العامة للآثار والمتاحف بعملية التنقيب الأثري في الأطراف الشمالية والشرقية من منطقة القصور العباسية والتي أسفرت عن الكشف عن معالم قصر أطلق عليه اسم "القصر الشرقي"¹. ولم يبق من معالم القصور العباسية اليوم بالرقة سواء القصر الشرقي ويعرف كذلك بقصر هارون الرشيد، وقد تمكنا من زيارته ودراسته، بالإضافة إلى مجموعة من الآكام والحدبات المختلفة الشكل والتي تقع غرب القصر المذكور وقد أطلق عليها اسم "القصر الغربي"². أما باقي القصور الأخرى والتي كشفت عنها عمليات التنقيب الأثري في مدينة الرقة فقد خربت وزالت معالمها عن الوجود. لكن لحسن حظنا فقد حفظت لنا مجلة الحوليات

¹ - مانيكه (ميخائيل) - هوش (يان كريستوف)، قصر هارون الرشيد في الرقة، تعريب قاسم طوير، دمشق 1989/

2000، ص 2.

² - محادثة بيني و بين مرهف الخلف مدير آثار الرقة و الذي شارك في مختلف الحفريات التي أجريت في مدينة الرقة.

الأثرية السورية تقارير عن مجمل الحفريات التي أجريت في مدينة الرقة، وقد صدرت أولى هذه التقارير سنة 1951 تحت عنوان:

¹. Meer « Les fouilles de la direction générale des antiquités à Rakka » وقد قام به
كما كتب نسيب صليبي المساعد الفني والذي أشرف على معظم عمليات التنقيب الأثري في الرقة، ابتداء من
سنة 1952، تقريراً أولياً عن الموسم الثاني لحفريات الرقة التي تمت في خريف 1952 وقد نشر هذا التقرير
في مجلة الحوليات الأثرية السورية لسنة 1954 - 1955.² كما قام بتقرير أولي ثان عن حفريات الرقة خلال
الموسم الثالث في خريف 1953 وقد نشر كذلك هذا التقرير في مجلة الحوليات الأثرية لسنة 1956.³ وقد
قام المعهد الألماني بإعادة نشر هذه التقارير ومجمل أعمال الحفريات الأثرية التي أجريت في مدينة الرقة خلال
السنوات 1950 - 1952 - 1953 - 1954 - 1958 في المجلة التي يصدرها المعهد سنة 2004.⁴
وسوف نعتمد على نتائج هذه الحفريات وعلى ما عايناه أثناء زيارتنا لما تبقى من القصور العباسية في الرقة،
بالإضافة إلى ما ورد في المصادر من إشارات لدراسة أهم الخصائص المعمارية لقصور الرقة العباسية.
وقد اكتفت المصادر بالإشارة إلى أن الرشيد بنى قصور الرقة دون تحديد موقعها أو ذكر أسمائها أو أسماء
أصحابها، لكن مكنتنا الصور الجوية الملتقطة لمدينة الرقة من التعرف على مجموعة من تلك القصور التي ترجع
إلى العصر العباسي وهي تقع إلى الشمال من سور مدينة الرافقة وقد كشفت عمليات التنقيب الأثري عن
البعض منها ورمز إليها بالحروف الهجائية وذلك لعدم الثبوت من أسماء بنائها. وتتمثل أهم تلك القصور في:

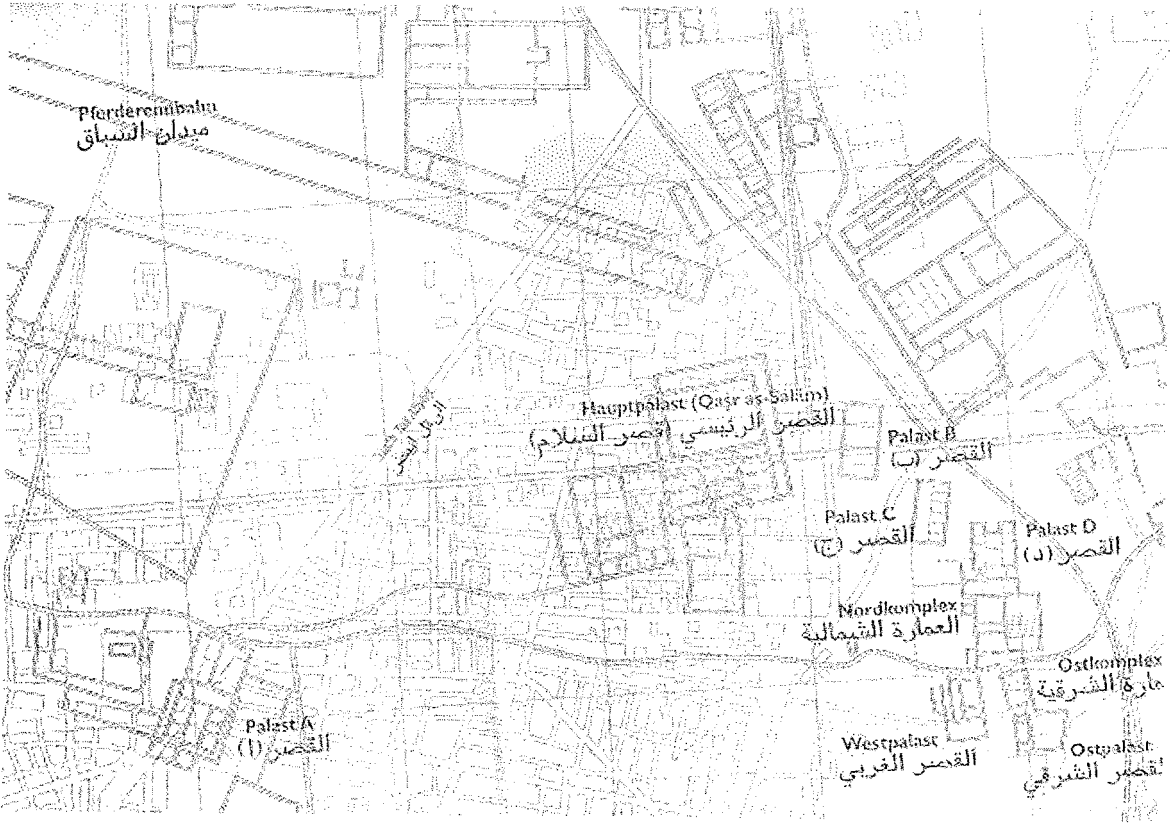
¹ - Meer. P.U.D, « Les fouilles de la direction générale des antiquités de Rakka », *Les annales archéologiques de Syrie*, T 1, 1951, pp. 107- 128.

² - صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة "، مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد 4- 5، 1954- 1955.

³ - صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة "، مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد 6، 1956.

⁴ - *Baudenkmaler und Palaste I*, Deutsches Archaeologisches Institut, 2004.

3 خريطة: القصور العباسية في الرقة



I- القصر "أ":

أسفرت أولى الحفريات الأثرية التي أجريت في مدينة الرقة بين سنتي 1944 و 1945 والتي قام بها كل من الفرنسيين Dunand و Duru عن الكشف عن القسم الشمالي الشرقي لمعالم قصر رمز إليه بالحرف "أ" وهو يقع على بعد حوالي 400 م شمال أسوار مدينة الرافقة.¹

وقد استؤنفت هذه الحفريات من جديد بين 1966 - 1970 من قبل قسم الآثار والمتاحف السورية وأسفرت عن الكشف عن أجزاء أخرى من القصر المذكور. وهو عبارة عن بناء مستطيل الشكل تبلغ مقاييسه 140 × 100 م، تدعمه أبراج في الزوايا وله دعائم. وهو مبني من الآجر المصنوع من الطين المجفف ومكسي بالملاط المتكون من الجير الأبيض.²

¹ - Toueir (Kassem), « Raqqa », *Op. Cit.*, p. 380 ; Meer. P.U.D, « Les fouilles de la direction générale des antiquités de Rakka », *Op. Cit.*, t 1, 1951, pp. 111.

² - Toueir (Kassem), « Raqqa », *Ibidem*, p. 380 .

وقد عثر فيه على بعض النقود التي تعود إلى عهد الخليفة هارون الرشيد والخليفة المأمون.¹ مما يساعدنا على القول أن هذا القصر كان أحد قصور الرشيد وقد أقام فيه كذلك المأمون. لاسيما وأن المصادر قد ذكرت لنا كذلك نزول الخليفة المأمون الرقة وكيف أنه كان يقوم فيها باختبار الفقهاء حول القول بخلق القرآن.² كما تم العثور كذلك في نفس القصر المذكور على عدد كبير من القطع المنحوتة وقطع صغيرة من الأعمدة المكسية بالحص، وقد دفعت هذه اللقى البعض إلى التفكير بأنها من الآثار المتبقية من قصر هارون الرشيد مثلما يدل على ذلك البناء بواسطة الآجر المشوي.³

قامت بعد ذلك المديرية العامة للآثار والمتاحف بين 1950-1954 بالكشف عن ثلاثة قصور أخرى تقع على بعد حوالي 1200 م إلى الشمال الشرقي من أسوار الرافقة، وتحمل نفس خصائص القصر "أ" وقد رمز إليها بالأحرف التالية "ب"، "ج"، "و" و"د".⁴ وهي:

II- القصر "ب":

أسفرت أولى أعمال التنقيب الأثري سنة 1950 على الكشف عن جزء من القصر "ب" والذي أصبح يعرف فيما بعد بـ "قصر المعتصم" وذلك بحكم العثور على نقيشة كوفية خلال أعمال التنقيب الثانية سنة 1952 في نفس القصر، كتبت على شكل مستدير على طريقة الكتابة على العملة، على جدران الإيوان عدد 33، وقد قرئ على الجزء الباقي منها على الجدار الشمالي اسم الخليفة المعتصم، لذلك أصبح هذا القصر يعرف بقصر المعتصم.⁵

وقد بني هذا القصر بصفة إجمالية على شكل مستطيل من اللبن والآجر، قدرت مقاييسه العامة بـ 168 م طولاً و 74 م عرضاً وله سور خارجي يبلغ سمكه 1.60 م ومدعوم بأبراج نصف اسطوانية يبلغ قطرها 3 م وتبعد عن بعضها البعض بمسافة تقدر بـ 3 م.⁶

¹ - Toueir (Kassem), « Raqqa », *Op. Cit*, p. 380.

² - الأزدي، تاريخ الموصل، ص 412-413.

³ - Saliby (Nassib), « Les fouilles du palais B 1950- 1952 », in *Baudenkmal und palaste I*, Deutsches Archaologisches Institut, 2004.

⁴ - Toueir (Kassem), « Raqqa », *Op. Cit*, p. 380.

صليبي (نسيب)، " ثلاثة قصور من الرقة القديمة"، *وقائع الندوة الدولية لتاريخ الرقة*، 24 - 28 تشرين أول، 1981، ص 45.

⁵ - صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة"، *نفس المرجع*، ص 76؛

Saliby (Nassib), « Les fouilles du palais B 1950- 1952 », *Ibid*, p. 85.

⁶ - صليبي (نسيب)، " ثلاثة قصور من الرقة القديمة"، *نفس المرجع*، ص 45؛

MEER. P.U.D, « Les fouilles de la direction générale », *Op. Cit*, t 1, p.113 ; Saliby (Nassib), *Ibid*, pp.77- 83.

وقد أسفرت أعمال الحملة الأثرية الأولى سنة 1950 على الكشف عن جزء كبير من القسم الجنوبي للقصر "ب" والمتمثل في " الرواق الكبير عدد 1"، " القاعة الكبرى عدد 2"، " القاعة الكبرى عدد 9"، " دورة المياه عدد 5" و " دار الضيافة عدد 13".¹ أما أعمال الحملة الأثرية الثانية في خريف سنة 1952 فقد ركزت اهتمامها خاصة على الكشف عن القسم الشمالي من القصر.

وكان Meer أول من أمّدنا بنتائج حفريات القسم الجنوبي للقصر "ب" سنة 1950 ثم قام نسيب صليبي بإعادة تقديمها بشكل أكثر دقة وأمّدنا في نفس الوقت بنتائج حفريات القسم الشمالي من القصر والتي جرت سنة 1952 وسوف نقوم بدورنا بإعادة ترتيب نتائج هذه الحفريات حسب التخطيط العام للقصر المذكور والذي وضعه نسيب صليبي وليس حسب سنة الاكتشاف كما فعل نصيبي وذلك قصد التعرف على التنظيم المعماري للقصر "ب".

بصفة عامة يشتمل القصر "ب" من الناحية المعمارية على أربعة أقسام رئيسية: الخدائق، قسم الشؤون العامة، دار الضيافة والدور الخاصة وقدّرت المساحة الجمالية بـ 8.95 م.²

1- الحديقة الشمالية:

مثلما نلاحظ ذلك من خلال التخطيط الذي وضعه نسيب صليبي، تمتد حديقة كبرى في الجهة الشمالية للقصر، أمام المدخل الرئيسي منه. وقد نظّمت على شكل مستطيل قدرت مقاييسه 68.50 م من الشرق إلى الغرب و 50 م من الشمال إلى الجنوب، أي بمساحة قدرها 34.25 م. ولا يمكن الوصول إلى القصر دون المرور بمدخلها. وقد شيّدت جدرانها من اللبن ولا يتجاوز سمكها 0.70 م، لذلك من المفروض أن تكون قليلة الارتفاع. وقد لصق طرفا جداريها الغربي والشرقي وسط كل من البرجين القائمين في زاويتي القصر. وقد دعمت كل زاوية من زواياها بـ برج مستدير مفرغ يختلف عن أبراج القصر، وقد يستغل للحراسة أو حتى كذلك للدفاع. وقد دَعَم كل من الجدار الشمالي، الشرقي والغربي للحديقة بثلاثة أبراج نصف دائرية مفرغة قدر قطر كل منها 4.60 م وموزعة بصفة غير منتظمة، ولها أبواب داخلية - أي الأبراج - قدر عرض كل منها 1.50 م وقد استخدمت ربما كغرف. وللحديقة ثلاثة أبواب فتح كل منها في الجدران التي تحيط بها وتشكل المداخل الأساسية لها والتي لا يمكن الوصول إلى القصر دون الدخول منها. ويرجح نسيب صليبي أن بناء هذه الحديقة قد تمّ بعد الفراغ من بناء القصر وأنها استخدمت لتربية الغزلان والحيوانات الأهلية، كالخيول وغيرها من الحيوانات التي يسعى إليها الخلفاء والملوك، وقد وجدت قناة متفرعة من نهر البليخ تمر من جانب

¹ - انظر التخطيط ؛ Saliby. N, « Les fouilles du palais B 1950- 1952 », *Op. Cit*, pp.77- 78-79-80.

² - صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة"، نفس المرجع، المجلد 4- 5، 1954- 1955، ص 69؛
- Saliby.N, *Ibid*, p. 83.

الحديقة و تغذي القصر بالماء.¹ ولعل اختلاف جدران الحديقة عن جدران القصر من حيث السماكة ومن حيث شكل الأبراج يدل على أنها ألحقت في فترة لاحقة. كذلك توجد بعض الإشارات في المصادر التي تدل على أن الرشيد كثيراً ما كان يجري الخيول في الرقة، فقد تكون هذه الحديقة استخدمت لترويض الخيول.² وبعد اجتياز الحديقة يصل الداخل إلى المدخل الرئيسي للقصر ويبلغ عرضه 17 م، أما بناؤه فكان من الآجر.³ ويرجح صليبي أنه ربما كان يتألف من عدة أبواب تعلوها أقواس مزينة بزخارف جصية جميلة، ويقع خلف جدار المدخل رواق متسع رصفت أرضه بمربعات الآجر على أشكال مستقيمة.⁴ و عن يمين المدخل توجد غرفتان متلاصقتان قد أعدتا ربما للحراسة.⁵ و من هذا المدخل الرئيسي نصل إلى القصر.

2- القصر:

حدّد القصر بسور رباعي الأضلاع تبلغ مقاييسه $115 \times 74,5$ م في اتجاه الجنوب و $69,70$ م في اتجاه الشمال، وكانت جدرانه قوية يتراوح سمكها بين 1.50 و 1.60 م، مما يمكنها من الارتفاع بشدة، عكس جدران الحديقة. وكان السور مدعوماً ومقوّىً بأبراج نصف دائرية ضخمة ناتئة منه، يبلغ عددها 5 في الجهة الجنوبية، 6 في الجهة الغربية، 7 في الجهة الشرقية، أما في الواجهة الشمالية فقد برزت اثنتان. وكانت كل زاوية من زوايا السور مدعمة ببرج زاوية ضخمة نصف دائري. ونلاحظ في واجهة القصر بروز برجين نصف دائريين في قسمها الشرقي. وينطبق هذا التقسيم للواجهة مع تقسيم القصر في مجموعه إلى قسمين اثنين عن طريق جدار جنوبي يشق السور الرباعي الأضلاع حيث نجد في النصف الشرقي الدور الخاصة، تليها دور الضيافة ثم حديقة. أما في النصف الغربي فتعترضنا ساحة، فقسم الشؤون العامة ثم حديقة ملاصقة للحديقة الأولى ومشابهة لها. وتوصل بين القسمين الشرقي والغربي ثلاثة أبواب يبلغ عرض كل منها 1.20 م.⁶

* القسم الجنوبي الغربي من القصر

يصل الداخل من باب المدخل الرئيسي للقصر إلى جناح الشؤون العامة الذي يتألف من :

- ساحة كبرى شبه مربعة تمّ الكشف عنها خلال حفريات 1952، وتبلغ مقاييسها 35×40 م وتحتل نصف عرض المساحة المسورة للقصر، وقد فرشت أرضها بمربعات الآجر من قياس 0.40 م. وتحيط بالساحة

¹ - صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة "، نفس المرجع، المجلد 4- 5، 1954- 1955، ص 69 - 70؛
SALIBY (Nassib), « Les fouilles du palais B 1950- 1952 », *op.cit*, p.84.

² - المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص 372.

³ - Saliby (Nassib), *Ibidem*, p.84 ;

صليبي (نسيب)، " ثلاثة قصور من الرقة القديمة "، نفس المرجع، ص 45.

⁴ - صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة "، نفس المرجع، المجلد 4- 5، 1954- 1955، ص 71.

⁵ - Saliby.N, *Ibid*, p. 85 .

⁶ - Saliby. N, *Ibidem*, p. 84 ; انظر تخطيط القصر

من الجهتين الشرقية والغربية أروقة مشيّدة على أعمدة مصنوعة من الآجر ومجموعة لحمل السقف، وقد جعلت تحت الأروقة مصطبات مسندة إلى الجدران.¹

وتتصل الساحة الكبرى برواق يمتد على طول قسم الشؤون العامة ومنه يقع الاتصال بـ:

- القاعة الكبرى عدد 9: وقد تم الكشف عنها خلال حفريات 1950 وهي تتوسط قسم الشؤون العامة وتبلغ مقاييسها 12.50 م طولا و 7.50 م عرضا. وقد فرشت أرضها بالآجر المشوي بمقياس 40×40×4 صم ثم طليت بالملاط الجصي الأبيض. وقد تم العثور فيها على ألواح زجاجية ذات ألوان مختلفة: عسلي، أزرق و أحضر بمقياس 11.6×16.4م وكانت آثارها في ذلك الوقت لا تزال مطبوعة على الملاط الذي على الأرض وعلى جانب الجدار الجنوبي للقاعة. لذلك يرى صليبي أن أرض القاعة عدد 9 وجدرانها كانت جميعها مغطاة بالألواح الزجاجية ويذكر أنه لم يسبق أن اكتشفت في أي مدينة أثرية ما يشبه هذا العمل النادر من نوعه حتى في أعظم القصور المكتشفة في سامراء و الحيرة و الفسطاط في مصر.²

تتوسط القاعة عدد 9 قسم الشؤون العامة، وهي أكبر قاعات هذا القسم، بالإضافة إلى القطع الزجاجية التي كانت تغطي أرضيتها كل هذا يجعلنا نفترض أنها كانت تمثل قاعة العرش. وتحيط بجانب القاعة عدد 9 غرف. وتليها من الجهة الجنوبية:

- القاعة الكبرى عدد 2:

وقع اكتشافها كذلك خلال حفريات 1950، وهي عبارة عن قاعة مستطيلة الشكل قدرت مقاييسها بـ 23.8 م طولا و 8.25 م عرضا. وتتصل عن طريق باب فتح في الجدار الغربي برواق طويل يستند إلى الجدار الخارجي للقصر (الرواق عدد 3)، و عن طريق باب فتح في الجدار الشرقي بالقاعة عدد 4.³ وقد اعتبر صليبي أنها بمثابة بيت حمام، وأنها كانت تحتوي على مراحيض لاسيما وأنه قد عثر فيها على فتحة لتصريف المياه كما أن جدرانها قد طليت بطبقة من الجص الرمادي والذي يختلف عن الملاط الأبيض الذي طليت به كافة جدران القصر، وهو طلاء سميك يوضع خصيصا لمنع تبلل الجدران المبنية من اللبن.⁴

وفي الزاوية الشمالية الشرقية من نفس الغرفة عدد 4 توجد بقايا سلم يصعد فوقه ربما خادما لصب الماء.⁵ صاحب الرضوء.

¹ - صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة"، نفس المرجع، المجلد 4- 5، 1954- 1955، ص 71؛ صليبي (نسيب)، "ثلاثة قصور من الرقة القديمة"، نفس المرجع، ص 45؛
- Saliby. N, « Les fouilles du palais B 1950- 1952 », *Op.Cit*, p. 84-85.

² - انظر التخطيط العام للقصر؛ صليبي، " حفريات الرقة"، نفس المرجع، ص 72؛
Saliby (Nassib), *Ibid*, p. 78- 79 ; Meer. P.U.D, « Les fouilles de la direction générale », *Op.Cit*, p.115.

³ - Meer. P.U.D, *Ibid*, p.114.

⁴ - Saliby (Nassib), *Ibidem*, p. 78.

⁵ - Meer. P.U.D, *Ibidem*, p.115; Saliby. (Nassib), *Ibidem*, p. 78.

أما المرحاض عدد 10 المجاور للغرفة عدد 4 فيرجح صليبي أنه قد وقع تخصيصه للعمامة الذين يزورون قصر الأمير أو الخليفة.¹

وتنفتح القاعة عدد 2 عن طريق ثلاثة أبواب شمالية على الغرفة عدد 9 التي سبقت الإشارة إليها، كما تتصل جنوبا بالرواق الكبير عدد 1: تم الكشف عنه خلال حفريات 1950، وهو يمتد شرقا- غربا، وينفتح جنوبا على حديقة داخل القصر، بواسطة خمسة أبواب جانبية فتحت في الجدار الجنوبي قَدْر عرض كل منها 2.40 م أما الوسطى فيبلغ عرضها 3.50 م.² ويتراوح طول جدرانها بين 0.80 و 1.50 م وذلك بحكم أن البناء باللبن يتقلص تدريجيا مع كل انقيار. وقد شوهد على أحد الجدران التي نقش عليها عددا من الرسوم الهندسية والمغطاة بالملاط الأبيض مداميك خشبية يبلغ طول الواحدة منها 1.50 م. وهذا الأسلوب في العمارة المتمثل في تقوية البناء بالخشب شوهد في قصر الحير الغربي والرصافة.³ وكذلك في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط في مصر.

وتبلغ مقاييس هذا الرواق 35.70 م طولاً و 4.40 م عرضاً، وترتفع أرضيته بـ 15 صم عن مستوى الأرضية الخارجية. وينفتح جنوباً على حديقة داخلية مثلما بينا ذلك، وشمالاً على ممر طويل مغطى يبلغ عرضه 4.16 م ، ويتم الاتصال عن طريق الطرف الغربي لهذا الممر برواق الساحة الرئيسية وقد غطيت أرضيته بطبقة من الجص.⁴ للرواق كذلك خمسة أبواب أخرى مطابقة للأولى فتحت في الجدار الشمالي، تتصل الثلاثة اللاحقة في الوسط منها بالقاعة عدد 2 و التي سبق الحديث عنها.⁵ و يؤدي الباب الشرقي للرواق إلى:

- المرحاض عدد 5: أسفرت كذلك الحفريات التي أجريت في القسم الشرقي من القصر سنة 1950، عن الكشف عن مرحاض صغير، تبلغ مقاييسه 8م طولاً و 2.5 م عرضاً، ويمكن الوصول إليه من الباب الشرقي للرواق عدد 1.⁶ وتكمن أهمية هذا المرحاض في كونه يمكن من الاتصال عن طريق باب جنوبي بالحديقة الداخلية عدد 64 وعن طريق باب شمالي بدار الضيافة.⁷ أي أنه يمكن من الربط بين قسمي القصر الغربي والشرقي، فهو إذن عبارة عن حلقة وصل بين القسمين.

* القسم الجنوبي الشرقي من القصر: يضم دار الضيافة و دور السكن الخاصة.

¹ - Saliby. N, « Les fouilles du palais B 1950- 1952 », *Op.Cit*, p. 78.

² - Meer. P.U.D, « Les fouilles de la direction générale », *Op.Cit*, T 1, p.114.

³ - Saliby. N, *Ibid*, p. 77.

⁴ - Saliby. N, *Ibid*, p. 78.

⁵ - Meer. P.U.D, *Ibidem*, p.114.

⁶ - Meer. P.U.D, *Ibid*, p.116.

⁷ - انظر تخطيط القصر ب؛

- Saliby .N, *Ibid*, p.79.

شيدت دار الضيافة في الجناح الشرقي من القصر ب¹، وقد تمّ الكشف عن معظم أجزائها خلال الحفريات التي تمت سنة 1950، وهي تتألف من أربع غرف (الغرفة عدد 6-7-8-11) ومرحاض (المرحاض عدد 12) لهما نفس اتجاه القاعة عدد 2 وساحة. وتتصل الثلاثة غرف الأولى منها ببعضها بواسطة أبواب داخلية وتفتح على الساحة عن طريق أبواب شمالية. ويبلغ طول كل منها 8 م أما العرض فيختلف من غرفة إلى أخرى. كما أن الغرفة عدد 11 تتصل بالمرحاض عدد 12 عن طريق باب داخلي، ولها باب آخر يطل على الساحة L وقد زينت جوانب الأبواب جميعها بأشرطة جصية، تمثل أشكال هندسية و نباتية مختلفة². و أمام هذه الغرف رواق رصفت أرضه بمربعات الآجر، له عتبة وأقواس و تمتد أمامه ساحة مكشوفة، يرجح نصبي أنها كانت تستخدم للترهة و الترفيه³. وعلى هذا الأساس فإن هذه الدار كانت تمثل قسم الاستقبالات الخاصة. و تتصل الساحة بدور السكن الخاصة.

— دور السكن الخاصة:

وقد وقع الكشف عنها خلال الحفريات التي تمت سنة 1952. وقد أطلق عليها نسيب صليبي في مقاله "ثلاثة قصور من الرقة القديمة" اسم " جناح الحرم". أي القسم من القصر المخصص للنساء⁴. ويتألف هذا الجناح في شكله العام من أربع دور يفصلها إلى قسمين ممر مكشوف (الممر رقم 51) رصفت وتقع جميعها ضمن حرم واحد. و لكل من هذه الدور ساحة تحيط بها مجموعة من الغرف⁵. و قد بنيت دارين على كل جانب و هي على التوالي:

— الدار عدد 46

وتتألف من ساحة تحيط بها أربع غرف كبرى (الغرفة عدد 14، 15، 16 و 17)، وأربع غرف جانبية صغرى (عدد 22-23 و 44-45) وأربع ممرات داخلية (عدد 21-24 و 42-45)⁶. وقد عثر في الزاوية الجنوبية للغرف عدد 16-17-22 و 23 على مصاطب مربعة الشكل وقليلة الارتفاع 11 صم، وقد زينت جوانبها الجنوبية بشريطين من الجص المزخرف ويرى صليبي أنها تمثل محاريب صغيرة صنعت خصيصا كي يصلّى عليها. ويتصل الممر عدد 21 بالغرفة عدد 14 والممر عدد 42 بالغرفة عدد 17. أما الممر عدد 45 فقد تم العثور فيه على تجهيزات مرحاض. و يفتح الممر عدد 24 على غرفة حمام طليت أرضها بالزفت ولها فوهة لتصريف المياه في وسطها. وقد قدرّت مقاييس أكبر غرفة في الدار بـ 3.30 ×

¹ - انظر التخطيط العام للقصر.

² - Meer. P.U.D, « Les fouilles de la direction générale », *Op.Cit*, p.116 ; Saliby. N, « Les fouilles du palais B 1950- 1952 », *Op.Cit*, p.79.

³ - صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة"، نفس المرجع، ص 73.

⁴ - ابن منظور، لسان العرب، ج 2، بيروت 1997، ص 66؛

- Sourdel. D et J, « Harem », in *Dictionnaire historique de l'Islam*, p. 337

⁵ انظر التخطيط العام للقصر

⁶ - انظر تخطيط القصر.

4.80 م ويتراوح سمك جدرانها بين 0.90 و 0.70 م، أي أن الجدران التي تفصل بين الغرف هي أقل سمكا من تلك الموجودة في الساحة. وقد أطلق نصيبي على هذه الدار اسم " دار الأميرات " ¹. ولعله استند في هذه التسمية لكونها أكبر دار من مجموع الدور. و إلى الغرب من هذه الدار توجد:

— الدار عدد 47

تبدو أقل حجما من الدار عدد 46، وقد أطلق عليها نصيبي كذلك " دار الأميرات " وتتألف بدورها من ساحة تحيط بها خمس غرف ثلاثة في الجهة الجنوبية (الغرفة عدد 20 - 48 - 49) واثنين في الجهة الغربية (الغرفة عدد 48 و 49) ومرحاض في الزاوية الشمالية الغربية (عدد 50)، يقع على جانب الغرفة عدد 49. وفي الغرفة عدد 19 تم العثور على مصطبة شبيهة بالمصاطب التي تم العثور عليها في الدار عدد 46. ² وقد بنيت كل من الدار عدد 47 وكذلك الدار 46 عدد على الجانب الجنوبي من الممر 51 الذي سبق ذكره. وتقابلهما داران وهما الدار عدد 58 و الدار عدد 26:

- الدار عدد 58

وهي تقابل الدار عدد 47 وتتألف من ساحة كبرى شيدت فيها ثلاثة غرف في الجهة الشمالية (الغرفة عدد 55-56 و 57) ومرحاض في الزاوية الشمالية الشرقية (المرحاض عدد 54). ³ وقد عثر أثناء عمليات التنقيب فيها على جزء من رصيف ساحتها، كما تمت مشاهدة موقد في وسط أرض الغرفة عدد 57 وكذلك في الزاوية الجنوبية الغربية لها. و في زاوية الغرفة عدد 56 المجاورة لها تمت مشاهدة مصطبة شبيهة بالمصاطب الآتفة الذكر في الدارين السابقتين. وقد أطلق نصيبي على هذه الدار اسم " دار الوصيفات " ⁴. ولعل الموقد الذي عثر عليه في إحدى غرف هذه الدار هو الذي دفعه إلى إطلاق هذه التسمية. وإلى جوارها توجد :

— الدار عدد 26 وهي تقابل الدار عدد 46 وتشبه في شكلها العام الدار عدد 58، فهي تتألف من ساحة بنيت فيها ثلاث غرف في الجانب الشمالي (الدار عدد 28 - 52 و 53) ومرحاض في الزاوية الشمالية الغربية (المرحاض عدد 27). ⁵ وقد رصفت أرضية الساحة بمربعات الآجر المشوي بمقياس 24 صم في كل طرف. وقد شوهد موقدان في الطرف الشرقي للغرفة عدد 28، الأول من صنف التور والثاني مستطيل الشكل وقد أعدا خصيصا لطهي الطعام. ⁶

¹ - صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة "، نفس المرجع، ص 74؛

- Saliby .N, « Les fouilles du palais B 1950- 1952 », *Op. Cit*, p.85.

² انظر تخطيط القصر؛ صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة "، نفس المرجع، ص 74؛

- SALIBY (Nassib), *Ibidem*, p.86.

³ انظر التخطيط العام للقصر

⁴ - Saliby .N, *Ibidem*, p.86.

⁵ انظر تخطيط القصر.

⁶ صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة "، نفس المرجع، ص 75؛

- Saliby .N, *Ibidem*, p.86.

ويرجح نصيب أن هذه الدار قد استخدمت كمطبخ لتزويد ساكني القصر بالأطعمة لاسيما وأنه قد تم العثور فيها على الكثير من عظام الطيور و الأرانب، وكذلك كسكن لوصيفات القصر.¹ وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن مجموع هذه الدور الأربعة المعدة لإقامة النساء حسب ما أكدته الأبحاث الأثرية كانت تشكل في مجملها مجموعة مستقلة بذاتها، و لا يمكن لأي أحد الوصول إليها، إلاّ عن طريق باب واحد يتصل بالرواق عدد 3. وفي صورة ما غلق هذا الباب لا يمكن لأي أحد الوصول إلى جناح الحرم.² فهي تبرز لنا ظهور الحرم كأحد الأقسام الرئيسية للقصر.

ويتصل جناح الحرم في القصر "ب" بالممر عدد 41: ويقع في الزاوية الشمالية الشرقية من القصر "ب"،³ ويبلغ عرضه 8 م من طرف و 7 م من الطرف الآخر، أما طوله فيبلغ 34 م. وقد بنيت على طول الجدار الشمالي من الممر المذكور ثمانية أواوين (الإيوان عدد 29، 30، 31، 32، 33، 34، 35، و 36)، ذات عمق موحد يساوي 2 م، أما عرضها فيتراوح بين 2 و 2.5 م وتفصل بينها أعمدة ضخمة يتراوح سمكها بين 1.80 و 1.6 م، وقد شيدت جميعها من الآجر غير المشوي و مقببة. وهي تستند على الجدار الخارجي للقصر. وقد عثر في الإيوان عدد 33 على النقيشة التي تحمل اسم الخليفة المعتصم. أما الإيوان رقم 29 فقد استخدم كمحاض.⁴ وعلى الجانب الجنوبي من الممر المذكور يوجد إيوانان يحتمل أنهما شيّدا ليحملا فوقهما درجا يؤدي إلى سطح القصر و إلى أعالي جدرانه المحيطة به.⁵

وفي منتهى الرواق، وفي الجهة الشرقية منه يوجد باب،⁶ يبلغ عرضه 2 م وقد شيدت ركيزتاه الجانبيتان بالآجر. وقد افترض صليبي أن هذا الممر الطويل قد يكون بمثابة القاعة المخصصة للحرس والتي من خلالها يتم بلوغ الشرفات مباشرة والإسراع إلى أي مكان داخل أو خارج القصر وذلك عن طريق الباب الذي فتح في الجهة الشرقية منه.⁷

فمثلما تدلّ على ذلك أدوات البناء المستخدمة والمتكونة في مجملها من اللبن والآجر المشوي فإن هذا القصر يرجع إلى العصر العباسي، وقد أشار صليبي إلى أنه تم العثور أثناء عمليات التنقيب الأثري على مجموعة من النقود التي تعود إلى عهد الخليفة الرشيد، كما بين أن اللقى الأثرية التي تم العثور عليها بين أنقاض هذا القصر والمتمثلة في أجزاء صغيرة من أعمدة مكسوة بالحصّ، وقطع منحوتة تجعلنا نفكر في كونها من بقايا قصر

¹ - صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة"، نفس المرجع، ص 75؛
- Saliby .N, « Les fouilles du palais B 1950- 1952 », Op.Cit, p.86.

² - انظر تخطيط القصر؛
- Saliby .N, Ibidem, p.86.

³ - انظر تخطيط القصر
⁴ - Saliby .N, Ibidem, p.85.

⁵ - صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة"، نفس المرجع، ص 76.

⁶ - انظر تخطيط القصر
⁷ - Saliby .N, Ibidem, p.85.

الرشيد.¹ ولعلنا لا نستبعد ذلك لاسيما وأن المصادر مثلما أشرنا إلى ذلك تذكر استقرار الرشيد بالرقعة وبناءه القصور فيها.

كما أشار مير في التقرير الذي أعده حول حفريات الرقة لسنة 1951 إلى أنه قد تم العثور بين أنقاض المدخل الكبير للقصر على قطعة نقدية برنزية ضربت في عهد الخليفة المأمون.² وعلى هذا الأساس فليس من الغريب أن يكون المأمون قد استقر في هذا القصر أيضا لأن المصادر تذكر شخوصه للرقعة سنة 218 هـ / 833 م هو وأتباعه وأنه " أمر بتفريغ الرافقة ليترلها حشمه، فضج من ذلك أهلها فأعفاهم ".³ وقد استقر المأمون في الرقة منذ ذلك التاريخ وحتى وفاته وعين صاحب شرطته إسحاق بن إبراهيم بن مصعب كي ينوبه على بغداد، وكان يأمره بامتحان العلماء في القول بخلق القرآن، وقد ظل يقيم في الرقة حتى خروجه لغزو الروم أين توفي بطرطوس.⁴ فلا نستبعد أن يكون قد استقر بهذا القصر، أو بأحد قصور الرشيد الأخرى في الرقة.

أما أن يكون صاحب هذا القصر الخليفة المعتصم مثلما تدل على ذلك النقيشة التي تم العثور عليها في الإيوان عدد 33 و التي تحمل اسمه، فإننا نستبعد ذلك لأن المصادر لا تشير إلى استقرار المعتصم بالرقعة أو بنائه القصور فيها، وإنما تتفق على نزوله بغداد أولا، ثم سامراء، فلعله كان يترل فيه خلال عمليات الصوافي التي كان يقوم بها ضد الروم لاسيما وهو فاتح عمورية.

وعلى هذا الأساس فإن اللقى الأثرية التي تم العثور عليها في هذا القصر، بالإضافة إلى ما ورد في المصادر من إشارات يجعلنا نرجح أن هذا القصر هو أحد قصور الرشيد بالرقعة، والذي يمكن من خلاله التعرف على أهم الخصائص المعمارية للقصور العباسية في تلك الفترة (أواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث للهجرة) وهي تتألف عموما من ثلاثة أقسام كبرى:

- أولا حديقة كبرى: تقع في القسم الشمالي من القصر المذكور ولها ثلاثة أبواب ولا يمكن الوصول إلى القصر دون المرور بأحد مدخلها.

- ثانيا قسم الشؤون العامة: وهو يقع في الجناح الغربي من القصر ويتألف من قسمين: ساحة كبرى، تحيط بها أروقة و ممرات جانبية وتفضي إلى قسم الاستقبال والذي يتألف في مجموعه من أربعة غرف وقاعة وسطى تعد من أهم القاعات التي وقع اكتشافها في القصر، والتي يمكن اعتبارها بمثابة قاعة العرش، يتقدمها رواق كبير له خمسة أبواب متقابلة، تطل الجنوبية منها على حديقة داخلية أما الشمالية فتتصل بثلاثة منها بقاعة مستطيلة الشكل، تتصل عن طريق باب بالقاعة الوسطى المذكورة.

- ثالثا قسم الشؤون الخاصة: شيد في الجناح الشرقي من القصر ويشتمل على دار الضيافة وهي تقع في القسم الجنوبي الشرقي منه وتتألف من ساحة وأربعة غرف يتقدمها رواق، وقد أشار الجهشيارى إلى دار الندماء في

¹ - Saliby .N, « Les fouilles du palais B 1950- 1952 », *Op.Cit*, p.77.

² - Meer. P.U.D, « Les fouilles de la direction générale », *Op.Cit*, T 1, p .114.

³ - الأزدي، تاريخ الموصل، ص 412.

⁴ - الأزدي، نفس المصدر، ص 412- 413.

عهد الرشيد.¹ كما يشتمل كذلك هذا القسم على جناح الحرم. والذي يتألف من أربعة دور لكل دار منها ساحة تحيط بها مجموعة من الغرف. وقد وردت العديد من الإشارات في المصادر التي تفيد بأن حريم الرشيد كان يقيم معه في الرقة، يذكر الطبري أن الرشيد حج سنة 186 هـ / 802 م " وخلف بالرقة إبراهيم بن عثمان بن نهيك العكي على الحرم والخزائن والأموال والعسكر ".² وبأن جناح الحرم كان يمثل قسما مستقلا بذاته، فقد كان خالد بن برمك يتفقد أمر حرم الرشيد وكان يأمر بقفل أبواب الحرم بالليل، ويمضي بالمفاتيح معه إلى منزله.³ كما وردت إشارات أخرى تدل على أن نساء الخليفة وجواريه كنّ يقمن في دار مخصصة للحرم وفي مقاصير تختلف في حجمها وتقيتها حسب مكانة المرأة ودورها في البلاط.⁴ ولعل هذا يكشف لنا عن حقيقة هامة تتمثل في كون " الحرم " كفضاء مادي مستقل بذاته عرف بداية ظهوره في العصر العباسي وفي قصور الرقة.

ويتم الدخول إلى قسم الشؤون العامة عن طريق المدخل الرئيسي للقصر، أما قسم الشؤون الخاصة فيتم الدخول إليه عن طريق باب فتح في الجهة الشرقية للرواق عدد 41 والذي ذكرنا أنه يتألف من مجموعة من الأواوين وقع تخصيصها للجنود أو الحرس ويمكن هذا الباب من الوصول إلى أي نقطة داخل أو خارج القصر. وقد تم الفصل بين قسم الشؤون العامة و الخاصة عن طريق جدار جنوبي يشق كامل القصر وكذلك عن طريق الرواق عدد 37. لكن تمكن العديد من الأروقة من الربط بين القسمين أهمها الرواق عدد 3، كما يمكن كذلك المرحاض عدد 5 من الربط بين القسمين.

وبالتالي فإن أهم ما يميز تخطيط القصر " ب " هو ظهور " الحرم " كفضاء مادي مستقل بذاته. وكذلك الفصل بين ما هو قسم الشؤون العامة و قسم الشؤون الخاصة، وذلك عن طريق ممر جعل لهذا الغرض، وستصبح هذه الخاصية السمة الأساسية للقصور العباسية في الرقة مثلما تدل على ذلك آثار قصر آخر وقع الكشف عنه وهو القصر " ج ".

¹ - الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص 250.

² الطبري، تاريخ، ص 1678.

³ - المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص 386.

⁴ - المسعودي، نفس المصدر، دار الأندلس، ج 3، ص 313 - 314 ؛ التتوخي، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 80.

III- القصر "ج":

أسفرت أعمال التنقيب الأثري التي أجريت في مدينة الرقة خلال خريف 1953، عن الكشف عن معالم قصر جديد رمز إليه بالحرف "ج"، لأنه لم يقع التعرف كذلك على اسم صاحبه. ولم يبق لهذا القصر أي أثر اليوم سوى التقرير الذي أعدّه نسيب صليبي عن نتائج الحفريات، والذي نشره في مجلّة الحوليات الأثرية السورية لسنة 1956.¹ وقد أعيد نشره من جديد مع مزيد من التنقيح في المجلّة التي يصدرها المعهد الأثري الألماني بدمشق سنة 2004.² وسوف نحاول من خلال هذين التقريرين دراسة أهم الخصائص المعمارية للقصر "ج" ومقارنتها مع مثيلاتها للقصر "ب" محاولين إبراز أوجه التوصل والاختلاف بينهما.

يقع القصر "ج" على بعد 98 م شرقي القصر "ب"، و الجدار الشمالي للقصر "ج" موازي للجدار الجنوبي للقصر "ب".³ و تشمل المسافة الفاصلة بينهما على مجموعة من الآكام الصغيرة بعضها متفرقة وأخرى متقاربة.⁴

وقد بني القصر "ج" على شكل مستطيل تبلغ مقاييسه العامة (117 × 160م)، أي بمساحة تقدّر بـ 18720 م².⁵ وبالتالي فإن مقاييسه تتجاوز مقاييس القصر "ب"، الذي قدّرت مساحته الجمالية بحوالي 12432 م². كما تتجاوز مقاييسه كذلك قصور الأمويين، كقصر الخير الغربي وخربة المنجر وقصر الحرّانة، أما ارتفاع جدرانه فيتراوح بين 2 م في الزاوية الشمالية الغربية و 1 م في باقي الزوايا الأخرى، ويشير صليبي إلى أنه عموماً أقل ارتفاعاً من القصر "ب".⁶

وقد أحيط القصر المذكور بجدار خارجي، شأنه في ذلك شأن القصر "ب"، مبني من اللبن، الذي تبلغ مقاييسه (36 × 36 × 12 صم)، أما سمكه فيبلغ 1.8 م. ومدعم بأبراج نصف دائرية يبلغ قطرها 9.15 م وتبعد عن بعضها البعض بمسافة تقدّر بـ 13 م، أما أبراج الزوايا فهي أكثر كثافة حيث يبلغ قطرها 4.60 م، وهي تشبه إلى حدّ كبير أبراج قصر الخير الغربي.⁷

نلاحظ إذن تشابهاً بين القصر "ب" و القصر "ج" على مستوى الشكل العام فكلاهما مستطيل، ومحاط بجدار خارجي تدعّمه أبراج نصف دائرية وأبراج أكثر كثافة في الزوايا.

¹- صليبي (نسيب)، "حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث خريف 1953 اكتشاف القصر (ج)"، *الحوليات الأثرية السورية*، المجلد 6، 1956، ص 24-40.

²- Saliby.N, « Les Fouilles du Palais C 1953 », in *Raqqa III*, Deutsches Archäologisches Institut, 2004, pp. 105- 120.

³- Saliby.N, *Ibid*, p. 105.

⁴- صليبي (نسيب)، "حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، *نفس المرجع*، ص 27.

⁵- صليبي (نسيب)، "حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، *نفس المرجع*، ص 28؛

- Saliby.N, *Ibidem*, p. 105.

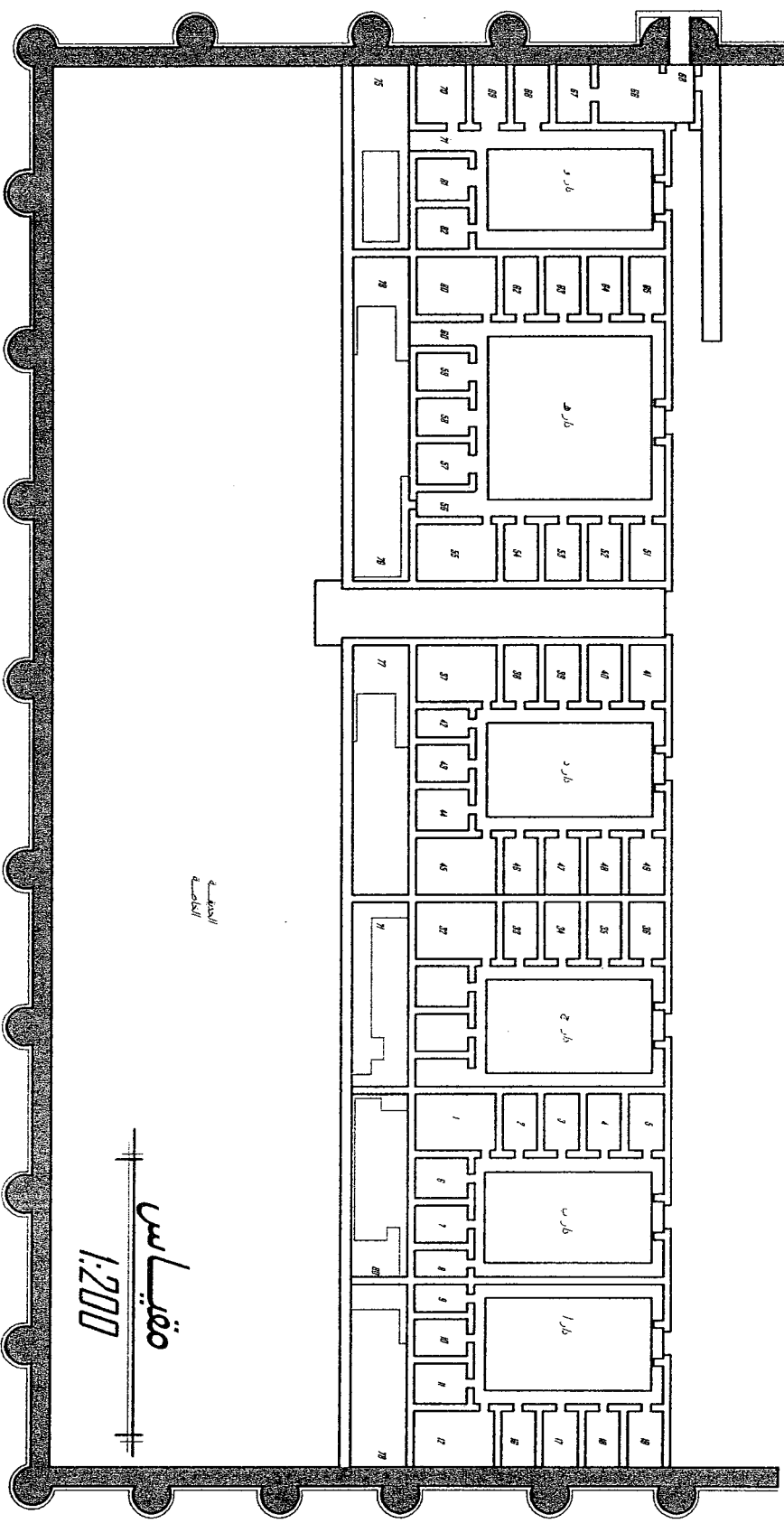
⁶- Saliby.N, *Ibidem*, p. 105-106.

⁷- صليبي (نسيب)، "حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، *نفس المرجع*، ص 28-29؛

- Saliby.N, *Ibidem*, p.106.

المساحة
الرئيسية

المساحة
الرئيسية



القصر "ج"

إعادة رسم وتصغير للتخطيط الذي وضعه
صليبي

وبصفة عامة يشتمل القصر "ج" من الناحية المعمارية على ثلاثة أقسام رئيسية وهي: قسم الشؤون العامة في الغرب، دور السكن الخاصة في الوسط، يفصل بينهما ممر مكشوف، وتليهما الحدائق في الشرق. هذا دون أن ننسى مدخلي القصر الرئيسين الشمالي والجنوبي.¹

1- مداخل القصر

يتم الوصول للقصر "ج" عن طريق باين رئيسين أحدهما في الشمال وهو الأكبر والآخر في الجنوب:

* الباب الشمالي: شيد عند الزاوية الشمالية الغربية للقصر، وينفتح مباشرة على الساحة الرئيسية للقصر.² ولم يبق من هذا الباب أثناء الحفريات سوى فتحة يبلغ عرضها 12.6 م وذلك لأن قسم كبير منه شيد بواسطة الآجر المشوي الذي وقع اقتلاعه. وكانت آثار الملاط لا تزال باقية على جوانب الركائز الجانبية المبنية بقطع من الآجر غير المشوي.³ ويرجح صليبي أن هذا المدخل كان يتألف من ثلاث فتحات أكبرها تلك التي في الوسط بالإضافة إلى فتحتين صغيرتين عند كل جانب. كما كانت تعلوا تلك الفتحات أقواس مزخرفة، إذ تم العثور بين الأنقاض على قطع كبيرة من إطارات الجص التي تفيد بأنها كانت من زخارف تلك الأقواس وهي ذات أشكال مختلفة أغلبها مستوحاة من ورقة الكرمة وعنقود العنب. وأخرى أكثر تعقيدا كانت تغطي الجهة الوسطى من أعمدة المدخل الرئيسي.⁴ ويمكن أن نعتبر الباب الشمالي بمثابة الباب الرئيسي لاتصاله المباشر بساحة القصر الكبرى.⁵ فهو يفضي إلى قسم الشؤون العامة. ولا يشكل الباب الشمالي المدخل الوحيد للقصر بل نجد كذلك باب آخر في الجهة الجنوبية.

* الباب الجنوبي: يقع في أول الشارع المستقيم الذي يخترق القصر "ج" من الجنوب إلى الشمال، وعلى جانبه في الجهة الشرقية غرفتان (عدد 66-67)، أفردتا من الدار "و"، يرجح صليبي أنهما استخدمتا على ما يبدو للانتظار، إذ عثر في زاوية القاعة عدد 67 على آثار مصطبة كانت معدة لجلوس الحراس. وقد قدر عرض الباب بمترين ونصف ودعم طرفاه في الخارج ببرجين بشكل ربع مستدير شبيهين ببرجي مدخل قصر الحرائة. ويؤدي هذا الباب إلى شارع داخلي عرضه 55 م يشكل محور الاتصال بين قسم الشؤون العامة ودور السكن الخاصة.⁶

وبالتالي فإن مداخل القصر الرئيسية تنحصر في الباب الجنوبي و بصفة خاصة في الباب الشمالي لأنه الأكبر ولا اتصاله المباشر بقسم الشؤون العامة.

¹ - انظر التخطيط العام للقصر "ج".

² - انظر تخطيط القصر.

³ - Saliby.N, « Les Fouilles du Palais C », *Op.Cit*, p. 106 ;

صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، نفس المرجع، ص 29.

⁴ - Saliby.N, *Ibidem*, p.106.

⁵ - صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، نفس المرجع، ص 29.

⁶ - صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، نفس المرجع، ص 29.

2- قسم الشؤون العامة:

يتألف من قسمين رئيسيين:

* أولا الساحة الكبرى: يؤدي المدخل الرئيسي للقصر مباشرة إلى ساحة كبرى قدّرت مقاييسها بـ 52 م طولاً و 37 م عرضاً بما في ذلك الأروقة الجانبية. وقد أجريت عدداً من السبور في وسط الساحة تبين على إثرها أنها غير مبلّطة وأن البلاط كان مقتصرًا على الأروقة الجانبية، ويتألف من مربعات الآجر المشوي، التي تبلغ مقاييسها 24 × 24 × 4 صم. ويرجح صليبي أن تلك الأروقة كانت مسقوفة ومحلات بأقواس على نمط الأقواس الفارسية مثلما تدل على ذلك الكسر الزخرفية التي تم العثور عليها بين الانقاض والتي قد تعود لتلك الأقواس.¹

و قد بينت الحفريات الأثرية أن تركيبة الرواق الغربي تختلف عن تركيبة باقي الأروقة التي نجدها في القصور الأخرى، فقد احتوى على اثني عشرة مصطبة تبلغ مقاييس كل منها 2.10 م طولاً و 0.32 م عرضاً ومحاطات بوسائد ربع مستديرة، أعدت للجلوس و تفصل بينها دعائم زينت واجهتها بأشرطة جصية مزخرفة بأشكال نباتية مختلفة الغالب فيها أوراق الكرمة و عناقيد العنب. وقد تم العثور على نقيشة كوفية على الجدار الغربي كتب عليها اسم "عابد" أو "عبيد" والذي يمكن أن يكون أحد بنائي القصر. كما تم العثور على نقيشة أخرى فهم منها " باسم الإله الرحيم، من جاهر بن خرمه". وقد طليت جدران هذا القسم بطبقتين من الملاط الرقيق الأولى رمادية و الثانية بيضاء.²

على هذا الأساس فإن هذا القسم من الساحة كان معداً لانتظار الوافدين على القصر من الناس قبل أن يقع الإذن لهم بالدخول على الخليفة. فقد ذكر الثعالبي أن الخليفة المنصور أول من اتخذ في قصره بيوتا للإذن، وقد اقتدى به الخلفاء من بعده.³ وتتصل الساحة الكبرى مباشرة بقسم الاستقبال.

* ثانياً: قسم الاستقبال: شيد جنوب الساحة ويرتبط مباشرة بالمدخل الجنوبي للقصر، وقد بينت الأبحاث الأثرية أن هذا القسم لم يبق منه سوى بعض الأساسات التي تدل على وجود ممرات وأروقة وقاعات ودورات مياه وأقسام عمرانية أخرى.⁴

وقد أسفرت عمليات السير الأثري التي أجريت في قسم الاستقبال عن الكشف على بقايا تبليط أرضي من الجص، كما بينت أن سمك أساسات بعض الجدران في هذا القسم يبلغ 1.60 م وهي تشبه بذلك الجدران المكتشفة في القصر "ب" وأن البعض الآخر لم يتجاوز 0.70 م، كما تم العثور على بقايا غرف رصفت أرضها بالملاط الجصّي ودورات مياه لها حفر معدة لتصريف المياه.⁵

¹ - صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، نفس المرجع، ص 30.

² - Saliby.N, « Les Fouilles du Palais C. », *Op.Cit*, p. 106.

³ - الثعالبي، لطائف المعارف، دمشق، 1960، ص 19.

⁴ - صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، نفس المرجع، ص 31.

⁵ - صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، نفس المرجع، م 6، 1956، ص 32؛

- Saliby.N, *Ibid*, p.107.

وفي وسط السور العربي للقصر تمت ملاحظة باب صغير يؤدي لعرفتین شیدتا خارج سور القصر، وقد جعلت أرضية هاتین العرفتین مائلة لتصريف الماء، كما رصفت بملاط عارل للماء. ويرجح صليبي أن هاتین العرفتین مجموعهما كانتا تؤلفان حتماً صغيراً تابعاً لقسم الاستقبال.¹

نلاحظ أن قسم الاستقبال في القصر "ح" كان يضم كما هو الشأن في القصر "ب"، عدداً من القاعات والأروقة كما احتوى كذلك على كل وسائل الراحة من حمام ودور مياه. وعلى هذا الأساس فقد حصص هذا القسم من القصر لتصريف شؤون الخلافة والحكم والاستقبال الوافدين من الناس، ويتم الوصول إليه عن طريق الباب الشمالي الرئيسي، أو عن طريق الباب الحوي، والذي يؤدي بدوره إلى ممر مكتشف يوصل إلى الدور الخاصة.

3- الدور الخاصة:

تقع الدور الخاصة وسط القصر ويفصل بينها وبين قسم الشؤون العامة ممر مكتشف، يتشكل محور الربط الأساسي بين قسم الشؤون العامة وقسم الشؤون الخاصة.² وهو يذكرنا بالرواق عدد 37 في القصر "ب"، والذي وضع كذلك للفصل بين قسمي الشؤون الخاصة والعامة وبواسطته يتم الاتصال بجميع أحرار القصر. وقد أطلق على هذا القسم من القصر اسم "الدور الخاصة" لكونه يتألف من مجموعة من الدور كل دار منها تتشكل منزلاً مستقلاً بذاته، يقع علقه بواسطة باب خارجي. وقد بطمت هذه الدور على شكل مستطيل يضم ستة دور تتألف كل واحدة منها من ساحة ومجموعة من العرف موزعة في بعض الأحيان على جهتين وفي أحيان أخرى على أربع جهات، مع ممر صيق يوصل إلى المطبخ ودور المياه، والتي جعلت دائماً شرقي العرف.³ وقد رمر إلى هذه الدور بالحروف الخجائية: "أ"، "ب"، "ح"، "د"، "هـ"، و"و".

* الدار "أ" تقع في الطرف الشمالي، وتشتمل على ساحة مستطيلة الشكل قدرت مقاييسها بـ 22.50 x 13.60م، شيدت على حائنها الشمالي خمس عرف متفاوتة المقاييس وعلى حائنها الشرقي عرفتین. ويوحد ممر صيق يربط بين العرف وبين المطبخ ودورة المياه. وأمام العرف الشرقية يوحد حدار أريل بكامله ويرجح صليبي أنه ربما كان يمثل حدار رواق بأقواس. وفي وسط الحدار العربي يوحد باب يبلغ عرصه 1.4م، يفتح على رواق وتدعمه من الداخل دعامتان مربعتا الشكل. وقد رصفت أرضية العرف بمربعات الآخر المستوي، تكسوها طبقة من الملاط الأبيض، أما الساحة فقد رصفت بالمربعات نفسها دون تعطيتها بالملاط،

¹ - Saliby N, « Les Fouilles du Palais C. », *Op Cit*, p. 107.

- Saliby N, *Ibidem*, p.107.

² - انظر تخطيط القصر؛

³ - انظر تخطيط القصر، صليبي (سيب)، "حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، نفس المرجع، ص 33؛

- Saliby.N, *Ibidem*, p.107.

بالنسبة لقسم المنافع العامة فقد شيد خلف الجناح الشرقي للدار وذلك على شكل مستطيل ضيق يضم دور المياه في الشمال والمطبخ في الجنوب.¹ وتحد الدار "أ"، في اتجاه الجنوب الدار "ب".

* الدار "ب": تشبه في أوضاعها العامة الدار "أ" وهي تتألف من ساحة قدرت مقاييسها العامة بـ 22.80 × 13.85 م وغرفتين في الجهة الشرقية قدر متوسط مساحة كل منها بـ 26.5 م² و تمر وأربع غرف في الجهة الجنوبية وغرفة كبيرة تقع في زاويتي الدار قدر متوسط مساحتها بـ 45 م². ولكل غرفة باب فتح في وسط الجدار المطل على الساحة يبلغ عرضه 1 م وزينت جوانبه بأشرطة جصية غير مزخرفة. كما تم العثور على بقايا من الرواق القائم أمام الغرف الشرقية من الدار، أما قسم المنافع العامة فيقع خلف الجناح الشرقي كما هو الشأن بالنسبة للدار "أ"، وتتألف من قاعة كبيرة للخدمات في الطرف الجنوبي ودورة مياه في الطرف الشمالي. ويتم الوصول إلى الدار المذكورة عن طريق باب فتح في وسط الجدار الغربي للدار، يبلغ عرضه 1.50 م ، وتدعمه دعامتان كثيفتان من كل جانب وله عتبة يبلغ ارتفاعها 6 صم وقد وضعت لمنع تسرب الماء لساحة الدار أثناء فصل المطر.² و تحلف الدار المذكورة توجد:

* الدار "ج": تتألف هذه الدار كسابقتها من ساحة، تحيط بها أربع غرف في الجانب الجنوبي، وغرفة كبرى في زاوية الدار، وغرفتين في الجانب الشرقي وتمر يوصل إلى قسم المنافع العامة الواقع خلف الجناح الشرقي، وقد رصفت أرضية الساحة بمربعات الآجر المشوي وبلغت المساحة الجمالية للدار بما في ذلك الغرف و قسم المنافع العامة بـ 768.75 م² وقد زخرفت جوانب مداخل الغرف المطلّة على الساحة كمثيلاتها في الدار "ب" بأشرطة جصية غير مزخرفة. وينفذ إلى الدار "ج" كغيرها من الدور السابقة عن طريق باب فتح في وسط الجدار الغربي.³ وإلى جوارها توجد:

* الدار "د" تتألف الدار "د" على غرار الدور السابقة من ساحة، التفت حولها اثنتا عشرة غرفة، موزعة على ثلاثة أجنحة بدلا من جناحين في الدور السابقة: خمس غرف في الجناح الجنوبي يقابلها خمس آخرين في الجناح الشمالي وغرفتان وتمر في الجناح الشرقي يصلها بقسم المنافع العامة الواقع خلفها والذي يضم دورة المياه في الطرف الجنوبي و قسم المطابخ في الطرف الشمالي.⁴

وقد قدرت المساحة الجمالية للدار بـ 37.50 × 27 م، وينفذ إليها كبقية الدور السابقة عن طريق باب فتح في وسط الجدار الغربي، ودعّمت جانباها بدعامتين من الآجر غير المشوي يبلغ سمك كل منها 0.80 م، وقد طليت جميع جدران الدار بملاط أبيض و رصفت أرضية الساحة بمربعات الآجر المشوي وكذلك أرضية الغرف،

¹ - انظر تخطيط القصر؛ صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، نفس المرجع، ص 33-34؛
Saliby.N, « Les Fouilles du Palais C. », *Op. Cit*, p. 107 - 108.

² - Saliby.N, *Ibidem*, p.108.

صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، نفس المرجع، ص 34.

³ - انظر التخطيط، صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، نفس المرجع، ص 35 ؛

- Saliby.N, *Ibidem*, p.108.

⁴ - انظر تخطيط القصر.

مع إضافة طبقة من الملاط، وفي زاوية الغرفة عدد 44 من هذه الدار تم العثور على آثار مصطبة، زخرفت جوانبها بشريطين من الجص، وموجهة في اتجاه الجنوب وقد تم العثور على مثيلاتها في بعض الغرف المكتشفة في القصر "ب"، ويعتقد صليبي أن هذه المصاطب قد استخدمت جميعها لإقامة الصلاة لأنها تتجه دوما نحو القبلة.¹ وبخلاف الدور السابقة فإنه يفصل بين هذه الدار والدار المجاورة لها أي الدار "هـ" رواق أو ممر وهو: (الرواق عدد 50)،² الذي قدر عرضه بـ 2.5 م وطوله بـ 37 م، وقد رصفت أرضه بمربعات الآجر المشوي. وتشير الأبحاث الأثرية إلى أنه كان مكشوفاً لخلو آجره من الكلس ولاخداره لتصريف الماء وله باب فتح في اتجاه الغرب له عتبة يبلغ ارتفاعها نحو 12 صم وقد وضعت لمنع تسرب مياه الأمطار إلى الداخل.³ ولا تشير الأبحاث الأثرية لوجود باب شرقي في هذا الشارع. وبصفة عامة فهو يمتد على طول الطرف الجنوبي للدار "د" و الطرف الشمالي للدار "هـ".

* الدار "هـ" تقع خلف الممر المذكور، وتتألف كذلك من ساحة شيدت حولها ثلاث عشرة غرفة، خمس غرف في كل من الجانبين الشمالي والجنوبي وثلاث غرف وممرين (الممر عدد 56 و 60) في الجانب الشرقي، استخدموا لإيصال المتساكنين إلى قسم المنافع العامة الواقع على طول الجانب الشرقي.⁴ وتختلف هذه الدار عن الدور السابقة:

- أولا من حيث المساحة حيث تشير الأبحاث الأثرية إلى أن هذه الدار تعدّ من أكبر الدور، فقد قدرّت مساحتها بـ 127 م².⁵

- ثانيا على مستوى المدخل الرئيسي للدار، والذي شيد على مقربة من الجناح الجنوبي وليس في وسط الجدار الغربي مثلما لاحظنا ذلك بالنسبة للدور السابقة.

ثالثا- على مستوى الغرف التي يتألف منها الجناح الشرقي والتي تختلف في تنظيمها عن بقية الغرف في الدور السابقة، وذلك لوجود أبواب داخلية على جوانب الجدران الفاصلة بينها، وعلى بعض هذه الأبواب أشرطة جصية يشير صليبي في التقرير الذي نشره سنة 1953 أنها كانت مزخرفة بأشكال نباتية وأكثرها مفتت.⁶

كما قدر عرض الباب الرئيسي للغرفة عدد 58 بـ 1.80 م ولم يعثر على شبيه له في كل غرف القصر. ويشير صليبي إلى أن تنظيم هذا القسم من الدار شبيه بالنموذج أو بالطراز الحيري الذي يتألف من الصدر وكمين. كما أرجع اختلاف هذه الدار عن بقية الدور من حيث المساحة والترتيب المعماري إلى احتمالين

¹ - Saliby.N, « Les Fouilles du Palais C. », *Op.Cit*, p. 108 ;

صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، نفس المرجع، ص 35 .

² - انظر التخطيط العام لقصر.

³ - Saliby.N, *Ibid*, p.109.

صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، نفس المرجع، ص 36.

⁴ - انظر تخطيط القصر

⁵ - Saliby.N, *Ibidem*, p.109.

⁶ - انظر تخطيط القصر؛ صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، نفس المرجع، ص 37 .

اثنين: الأول وهو أن الأمير صاحب هذا القصر كان يقيم في هذه الدار، والثاني أنها استخدمت كدار للضيافة لقرىها من الباب الجنوبي ولأن موقعها شبيه بموقع دار الضيافة المكتشفة في القصر "ب".¹

ولعلنا نرجح الاحتمال الثاني لأنه بالإضافة إلى ما أشار إليه صليبي، فإن هذه الدار تتشابه مع دار الضيافة في القصر "ب"، على مستوى التنظيم المعماري والذي يتجلى أساسا على مستوى الأبواب التي أقيمت على الجدران الداخلية للغرف الثلاثة التي يتألف منها الجناح الشرقي لهذه الدار، وهو ما لاحظناه في دار الضيافة في القصر "ب"، حيث تتصل ثلاث غرف منها بأبواب داخلية.²

وقد زينت جوانب هذه الأبواب الداخلية في الدار "هـ" بأشرطة جصية مزخرفة بأشكال نباتية متنوعة، كما زينت كذلك جوانب الأبواب في دار الضيافة في القصر "ب" بأشرطة جصية ذات أشكال هندسية متنوعة. كما أن سعة هذه الدار واختلافها عن الدور الأخرى من ناحية التنظيم يجعلنا نفترض كذلك أنها كانت معدة لاستقبال الضيوف، والذين يأتون إليها عن طريق الباب الجنوبي.

وعلى هذا الأساس واستنادا إلى القصر "ب" فإن الدور الأربعة السابقة، ("أ"، "ب"، "ج" و "د")، في القصر "ج" تمثل جناح الحرم، وذلك لاحتمالين اثنين: أولهما أنها تتشابه مع جناح الحرم في القصر "ب"، سواء من حيث العدد فكلاهما يتألف من أربعة دور، لكل واحدة منها ساحة تحيط بها مجموعة من الغرف، وكلاهما يحتوي على دار واحدة تكون أكبر من بقية الدور. أو كذلك من حيث الموقع، فكلاهما يقع شرقي الساحة الكبرى وعلى مقربة من "دار الضيافة".³

الاحتمال الثاني هو أن دور الحرم في القصر "ب" تشكل مجموعة مستقلة بذاتها ونفس الشيء بالنسبة للقصر "ج"، فإن الرواق عدد 50 الذي فصل هذه الدور الأربعة عن بقية الدور الأخرى قد جعل منها كذلك جزءا مستقلا بذاته، ورغم الاختلاف المتمثل في كون دور الحرم في القصر "ب" يفصل بينها ممر مكشوف (الممر عدد 51) فتحت فيه جميع الأبواب ولا يمكن الوصول إلى هذه الدور إلا عبر باب فتح فيه و يؤدي بدورده إلى الممر (رقم 37) الذي يربط بين قسم الشؤون العامة و الخاصة. فإن الدور في القصر "ج" تنفتح مباشرة عن طريق أبواب فتحت وسط جدرانها الغربية على الشارع المكشوف الذي سبق أن أشرنا إليه و الذي يربط كذلك بين قسم الشؤون العامة و الخاصة. هذا دون أن ننسى كذلك التشابه الكبير في الترتيب بين هذه الدور الأربعة واختلافها عن بقية الدور الأخرى ولاسيما الدار "هـ" والدار التي تليها أي:

* الدار "و": تقع في الطرف الجنوبي من المستطيل الذي يضم مجموع الدور الخاصة، وتنقسم إلى قسمين: قسم أول يتعلق بالدار المذكورة وقسم ثان يرتبط بالمدخل الجنوبي للقصر.⁴

¹ - صليبي (نسيب)، "حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، نفس المرجع، ص 37؛

- Saliby.N, « Les Fouilles du Palais C. », *Op.Cit*, p. 109.

² - انظر تخطيط القصر "ب".

³ - انظر تخطيط القصر "ب".

⁴ - صليبي (نسيب)، "حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، نفس المرجع، ص 38.

وتشتمل الدار على ساحة، شيد على طرفها الجنوبي ثلاث غرف وعلى طرفها الشرقي غرفتين وممر يوصل إلى قسم المنافع العامة الواقع خلفها إلى الشرق،¹ والذي هو على شكل مستطيل قدّرت مساحته الجمالية بـ 105 م²، يضم في طرفه الشمالي المطبخ وفي الجنوب دورة المياه، يفصل بينهما جدار صغير يبلغ سمكه 0.35 م، طلي بملاط رمادي اللون عازل للماء، أما ثخانة أغلب الجدران الفاصلة بين أقسام الدار فقد قدرت بـ 0.80 م، وبنيت جميعها بمربعات الآجر غير المشوي، وزيّنت جوانب أبواب الغرف بأشرطة جصية غير مزخرفة، بلغ سمكها 2 سم، كما أن جميع الأشرطة القائمة على جوانب أبواب الغرف الأخرى لم يتجاوز سمكها 2.5 سم.²

وينفذ إلى الدار المذكورة عن طريق باب فتح على مقربة من الجناح الجنوبي كما هو الشأن بالنسبة للدار "هـ" و ليس وسط الجدار الغربي كبقية الدور الأخرى.³ ودعّمت جانباها من الداخل بدعامتين مربعتي الشكل.⁴

أما القسم الثاني من الدار فيرتبط مباشرة بالمدخل الجنوبي للقصر ويشتمل على قاعة داخلها غرفة (الغرفة عدد 67)، عثر في زاويتها على آثار مصطبة كانت معدة لجلوس الحراس.⁵ كما لوحظ وجود هذه المصاطب في الرواق الغربي التابع للساحة الكبرى في قسم الشؤون العامة وقد أعدّت كذلك للجلوس. ويبدو أن هاتين الغرفتين قد استخدمتا لجلوس الحراس وكذلك لانتظار الزائرين، قبل أن يقع الإذن لهم بالدخول إلى مجلس الخليفة.

ويبدو كذلك أن الدار "و" ككل قد استخدمت كمقر لإيواء الحراس، وأنهم كانوا يباشرون عملهم في تينيك الغرفتين اللتين أفردتا من الدار وخصصتا للانتظار، لاسيما وأن هذه الدار تقع على مقربة من المدخل الجنوبي للقصر، الذي يؤدي إلى الشارع الداخلي الذي كما ذكرنا يشكل محور الربط بين قسمي الشؤون العامة والخاصة وعن طريقه يمكن بلوغ أي نقطة داخل أو خارج القصر.

ويذكرنا موقع هذه الدار في هذا القصر بموقع الرواق عدد 41 في القصر "ب"، الذي ذكرنا أنه يضم مجموعة من الأواوين التي وقع تخصيصها لإيواء الحراس، والذي يرتبط مباشرة بالمدخل الشرقي للقصر، وعن طريقه كذلك يمكن بلوغ أي نقطة داخل أو خارج القصر "ب".⁶ وقد مثل الشارع الرئيسي في القصر "ج" محور الربط بين قسمي الشؤون العامة والخاصة وكذلك دور الرابط بين أجزاء القصر و الحديقة.

¹ - انظر تخطيط القصر.

² - Saliby.N, « Les Fouilles du Palais C. », *Op.Cit*, p. 109 ;

³ - صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، نفس المرجع، ص 38.

⁴ - صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، نفس المرجع، ص 38.

⁵ - انظر تخطيط القصر.

⁶ - انظر تخطيط القصر "ب".

4- الحديقة:

تقع شرقي دور السكن الخاصة ولا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الممر المذكور الواقع، بين الدار " د " والدار " هـ " (رقم 50)، والذي يعدّ بمثابة همزة الوصل بين الحدائق الخاصة شرقا وقسم الشؤون العامة وبقية أجزاء القصر غربا، ويبدو أنه وضع لتسهيل عملية التجول بين أجزاء القصر المختلفة. وتمتدّ هذه الحديقة على شكل مستطيل تبلغ مساحته 8.085 م²، ومحاط بالجدار الخارجي للقصر.¹

ويختلف موقع الحديقة في القصر " ج " عن موقعها في القصر " ب "، والتي كما ذكرنا تقع عند المدخل الرئيسي في الجهة الشمالية ولها ثلاثة أبواب مدعومة بأبراج نصف دائرية مفرغة ولا يمكن الوصول إلى داخل القصر دون المرور منها.²

بالنسبة للقصر " ج " فإن الأبحاث الأثرية تشير إلى أن شدة تآكل الجدار الخارجي في هذا القسم حالت دون التعرف مما إذا كانت هناك أبواب مفتوحة تقوم بدور الرابط مع الخارج، ولو أنها تستبعد ذلك لشدة الرغبة في الدفاع والتحصن. كذلك لم تتوصل الأبحاث الأثرية إلى التعرف إذا ما كانت هناك أبواب في القسم الغربي تصل الحديقة بقسم المنافع العامة في دور السكن. ويشير صليبي إلى أن وجود هذه الحديقة داخل أسوار القصر عكس القصور الأخرى يفيد بأنها قد استخدمت لتسليّة وتجول سكان القصر، ولربما اقتطعت منها كذلك أجزاء لتكون مريضا للخيول لحاجة الخلفاء الأكيدة إليها للرحلات والحرب والتجول بصفة عامة.³ ولعلنا لا نستبعد ذلك لاسيما وأن المصادر تشير إلى اعتناء الرشيد بالخيول في الرقة وإجرائه لسباق الخيل فيها.⁴

وعلاوة على الحديقة فقد شيّد خارج القصر، يمين المدخل الرئيسي، عند الزاوية الشمالية الغربية منه، مسجد صغير ترتفع أرضيته عن أرضية القصر بـ 50 صم، وترجح الأبحاث الأثرية أنه شيّد في عهد غير عهد بناء القصر ولكنه لا يبعد عنه بكثير.⁵ وقد شيّد خارج القصر لتمكين المارة من أداء الصلاة دون الدخول إلى القصر،⁶ والذي كان من بين الأسباب الرئيسية التي جعلت الخليفة المنصور يترك المدينة المدورة. أو لتمكين الزائرين من أداء الصلاة، إذا ما طال وقوفهم أمام باب الخليفة، ويدلّ صغر حجمه على أن الصلاة فيه لم يكن مسموح بها للجميع، بل للزائرين أو للحراس فقط.

وبناء على ما سبق نلاحظ تشابها كبيرا بين القصر " ج " والقصر " ب "، وقد برز على العديد من المستويات أهمها:

¹ - انظر تخطيط القصر؛ صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، نفس/المرجع، ص 38-39؛
- Saliby.N, « Les Fouilles du Palais C. », Op.Cit, p. 109.

² - راجع تخطيط القصر " ب ".

³ - Saliby.N, Ibid, p.110.

صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، نفس/المرجع، ص 39.

⁴ - الجهشياري، الوزراء و الكتاب، ص 207.

⁵ - انظر التخطيط، صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث"، نفس/المرجع، ص 39.

⁶ - Saliby.N, Ibid, p.111.

- 1- على مستوى الشكل العام فكلاهما مستطيل الشكل ومبني من اللبن والآجر.
 - 2- على مستوى التحصينات الخارجية، فكلا القصرين محاط بجدار خارجي تدعمه أبراج نصف مستديرة.
 - 3- على مستوى التقسيم المعماري، فكلاهما يتألف من مجموعة من الأقسام تكاد تكون ثابتة وهي: قسم الشؤون العامة، الدور الخاصة والحدائق. وتتشابه هذه الأقسام الثلاثة في تركيبها إلى حد بعيد.
- فقد شيد قسم الشؤون العامة في الجناح الغربي من كل قصر ويتألف من ساحة تحيط بها مجموعة من الأروقة من الجهتين الشرقية والغربية، وتتصل جنوبا بقسم الاستقبال المتكون من مجموعة من الأروقة والممرات والقاعات ودورات المياه.

أما الدور الخاصة فقد شيدت شرقي قسم الشؤون العامة في كلا القصرين، وتتألف من قاعة فسيحة تشتمل على ساحة ومجموعة من الغرفة، تتصل ثلاثة أو اثنان منها ببعضها بواسطة أبواب داخلية، وقد أعدت للضيافة أو للمنادمة، وأربعة دور تتألف كل واحدة منها من ساحة ومجموعة من الغرف، ثلاثة منها متشابهة وواحدة أكبر وقد استخدمت ربما لإقامة حريم القصر، حيث تقع كلها ضمن حرم واحد وتشكل مجموعة مستقلة بذاتها.

وفصل بين كل من قسم الشؤون العامة وقسم الشؤون الخاصة في كلا القصرين شارع أو ممر مكشوف، (الممر رقم 37) في القصر "ب"، والشارع الطويل الممتد من الجنوب إلى الشمال في القصر "ج". ولكلا القصرين بابان: باب رئيسي يقع في الشمال و يتصل بالساحة الرئيسية للقصر التابعة لقسم الشؤون العامة، وباب آخر جانبي شيد في الجنوب بالنسبة للقصر "ج"، على مقربة من الدار "و"، التي كما ذكرنا اقتطعت منها غرفتان لانتظار الحراس و لإيواء الوافدين على القصر من الخاصة، ويفتح مباشرة على الشارع المستقيم الممتد من الجنوب إلى الشمال. وعند الزاوية الشمالية الشرقية بالنسبة للقصر "ب"، و يتصل بالرواق عدد 41، الذي يتألف كذلك من مجموعة من الأواوين استخدمت كغرف لإيواء الحراس.

لكن التشابه الكبير بين القصرين "ب" و "ج"، لا يجب أن يخفي علينا بعض أوجه الاختلاف والذي يتجلى بالأساس على مستوى موقع الباب الجانبي من كل قصر، وكذلك على مستوى ترتيب وتنظيم الحدائق، ففي حين شيدت الحديقة الرئيسية في القصر "ب" في الجهة الشمالية عند المدخل الرئيسي، الذي لا يمكن الوصول إليه دون المرور بإحدى أبوابها الثلاثة، بالإضافة إلى حديقتين ثانويتين شيدتا في الجهة الجنوبية، خلف قسم الشؤون العامة ودار الضيافة، فإن الحديقة في القصر "ج" شيدت شرقي دور السكن ولا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الممر عدد 50 الواقع بين دور السكن.

هذا الاختلاف يمكن تفسيره بكون الحديقة الرئيسية في القصر "ب" لم تكن في البداية جزءا من أجزاء القصر وإنما وقع تشييدها فيما بعد، والدليل على ذلك هو وجودها خارج أسوار القصر، حيث يبدو واضحا من خلال تخطيط القصر أن طرفي جداريها الشرقي والغربي قد ألصقتا وسط كل من البرجين القائمين في زاويتي القصر، وذلك عكس الحديقتين الداخليتين اللتين أقيمتا داخل أسوار القصر وقد دفع إلى إنشائها ربما صغر

حجم الحديقتين الداخليتين، وحاجة الخلفاء إلى مساحات شاسعة لتكون مكانا للترفيه ومريضا لترويض الخيول. أما بالنسبة للقصر "ج"، فإن شساعة حجم المساحة التي تم تخصيصها للحديقة ووجودها داخل أسوار القصر، يدلان على أنه تم التخطيط لها مسبقا وأنها تمثل جزءا من أجزاء القصر. هذا الاختلاف قد يدفعنا كذلك إلى افتراض إمكانية أن يكون القصر "ب" قد شُيد قبل القصر "ج"، ذلك أن الخليفة أو الأمير صاحب هذا القصر قد يكون تقطن إلى أهمية ودور الحديقة في توفير وسائل الراحة والتسلية فأولاها عناية فائقة وخصّتها بمساحة شاسعة أثناء تشييد القصر. وقد أدى هذا الاختلاف في توزيع الحدائق إلى اختلاف في ترتيب وتنظيم القصرين لكن مع المحافظة على نفس الأقسام المعمارية.

و لم تتوصل الأبحاث الأثرية إلى معرفة صاحب هذا القصر الذي رمز إليه بالحرف "ج"، لكن يبدو من خلال اللقى الأثرية التي تم العثور عليها أثناء عمليات التنقيب الأثري أنه يعود إلى القرن التاسع الميلادي/ الثاني الهجري¹، وبما أن أغلب المصادر تتفق أن هارون الرشيد اتخذ من الرقة مقرا له، انطلاقا من سنة 180 هـ/ 796 م وحتى وفاته سنة 193 هـ/ 809 م، فإن هذا يجعلنا نفترض أن هذا القصر هو كذلك أحد قصور هارون الرشيد في الرقة.

كما أن التشابه الكبير بين هذا القصر والقصر "ب" من الناحية المعمارية والذي تجلّى لنا بالأساس على مستوى اعتماد التقسيم الثلاثي المتمثل في تخصيص قسم للشؤون العامة، وقسم للشؤون الخاصة وقسم للحدائق، وخاصة اعتماد مبدأ الازدواجية المتمثل في الفصل بين ما هو قسم الشؤون العامة وقسم الشؤون الخاصة يجعلنا نرجح هذا الافتراض، لاسيما وأن هذه الازدواجية سوف تتطور وستصبح إحدى السمات الأساسية للعمارة العباسية في الرقة ومن بعدها سامراء.

بالإضافة إلى التشابه على مستوى مادة البناء (اللبن والآجر) وعلى مستوى الأطر الحصية التي كانت تزين جوانب الأبواب والتي سيقع اعتمادها في أحد قصور هارون الرشيد الأخرى وهو القصر الشرقي.

¹ - Saliby.N, « Les Fouilles du Palais C. », *Op.Cit*, p. 108.

علاوة على القصور السالف ذكرها والتي تمّ الكشف عنها خلال الخمسينات من القرن العشرين، والتي اندثرت كلّها نتيجة التوسع العمراني الحديث لمدينة الرقة والمشاريع الإنمائية الزراعية، قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية منذ سنة 1982 بالاشتراك مع المعهد الأثري الألماني بدمشق، بمتابعة أعمال التنقيب الأثري في الأطراف الشمالية والشرقية من منطقة القصور العباسية.¹

وقد أسفرت تلك الأعمال عن الكشف عن آثار ثلاث قصور أخرى أطلق عليها اسم: "القصر الشمالي"، "القصر الغربي" و"القصر الشرقي" لعدم التثبت من أسماء أصحابها، وهي تقع على بعد 800 م شمال أسوار مدينة الرافقة،² وإلى الجنوب من القصر "د" وتفصل القناة المتأتية من نهر البليخ بين القصر الشمالي والقصرين الشرقي والغربي.³ وترجح الأبحاث الأثرية انتماء هذه القصور الثلاث إلى عهد الخليفة الرشيد لأنها تحمل نفس الخصائص المعمارية للقصور السالف ذكرها.⁴

وقد زالت معظم معالم القصر الشمالي، أما القصر الغربي فلم يبق منه سوى مجموعة آكام. ولم تتم عملية التنقيب الأثري إلا في القصر الشرقي وقد استمرت حتى سنة 1985 حيث ظهرت جدران القصر السمكية وكانت قائمة حتى ارتفاع متر ونصف وهي مشيدة من اللبن.⁵ وهو القصر الوحيد من مجموع القصور العباسية الذي لا تزال آثاره قائمة إلى يومنا هذا. فماهي أهم الخصائص المعمارية لهذا القصر وما مدى تماثلها مع الخصائص المعمارية للقصور العباسية السابقة؟

VI- القصر الشرقي أو قصر هارون الرشيد في الرقة

يقع القصر المذكور اليوم إلى الشمال من باب بغداد، ويحدّه من الجهة الشرقية مجموعة من الهضاب قليلة الارتفاع، ومن الغرب كتلة معمارية أطلق عليها اسم " القصر الغربي "، أما جنوبا فكان يحده نهر الفرات وشمالا القناة المتأتية من نهر البليخ.⁶

وقد شيّد القصر على شكل مستطيل من اللبن ومكسو بملاط أبيض حصّي، وتبلغ مقاييسه (70 × 40م)، أي أنه أقل شساعة من القصور العباسية السابقة، ويتراوح ارتفاع جدرانه المتبقية اليوم بين مترين في القسم الجنوبي من القصر ومتر في أكثر أجزاء القصر (القسم الشمالي والغربي). وهو غير معزز بأبراج عدا برجا واحدا مستطيل لاحظناه في الزاوية الشمالية الغربية للقصر.

¹ - ماينكه (ميخائيل) و هوش (يان كريستوف)، قصر هارون الرشيد في الرقة، تعريب قاسم طوير، ص 1؛

- Meinecke. M, « Al- Raqqa », sv E.12, v III, p. 425.

² - Toueir (Kassem), « Raqqa », in Syrie, Mémoire et Civilisation, Paris 1993, p. 380.

³ - انظر خريطة مواقع القصور العباسية في الرقة.

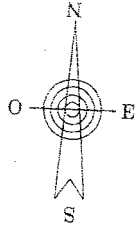
⁴ - Toueir (Kassem), « Raqqa », Ibid, p. 380.

⁵ - ماينكه (ميخائيل) و هوش (يان كريستوف)، نفس المرجع، ص 2.

⁶ - انظر خريطة مواقع القصور العباسية في الرقة.

القصر الشرقي أو قصر هارون الرشيد

المدخل الرئيسي



الحديقة المالقة

الشرفة المالقة

قاعة العرش

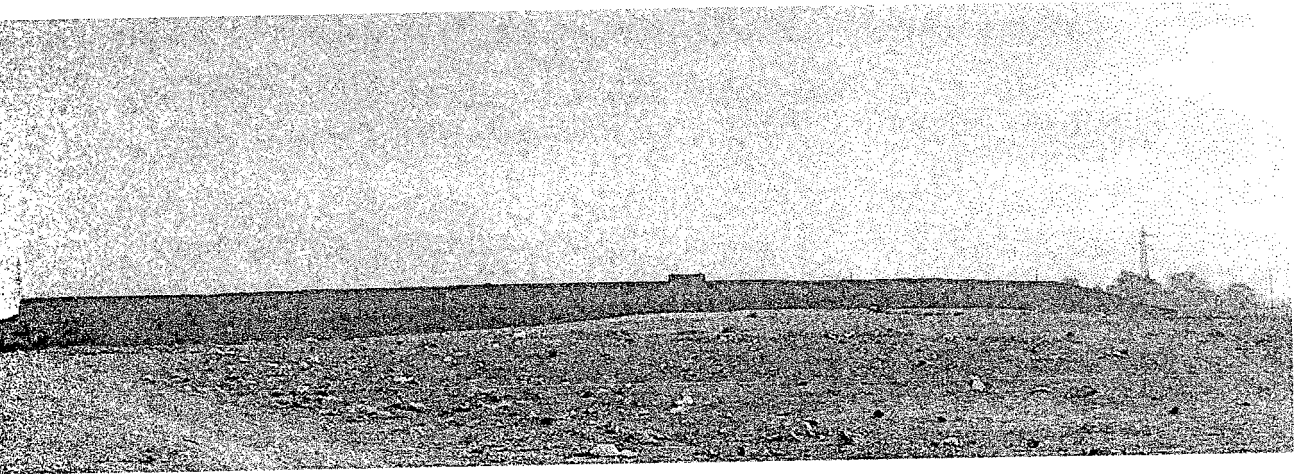
الشرفة الحورية

الحديقة الحورية

مقياس 1:100

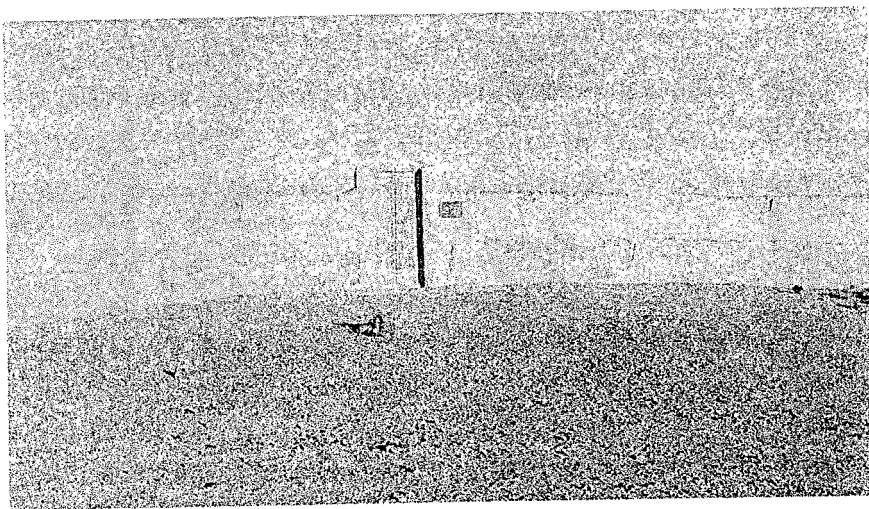
ولا بدّ أن نشير إلى أن جدران القصر الأصلية لا تتجاوز في الواقع المتر ونصف المتر، لكن قامت البعثة المشتركة السورية الألمانية بالتعاون مع دائرة آثار الرقة بالرفع منها إلى مقدار مترين في قسم الاستقبال والشرفات المتصلة به وإلى مقدار متر واحد في بقية أجزاء القصر كما قامت بطلائها بمادة الجصّ الأبيض، وقد استخدم لأجل ذلك مادة اللبن المصنوع وفق المواصفات القديمة ومادة الجصّ التقليدية.¹

19 صورة: قصر هارون الرشيد في الرقة



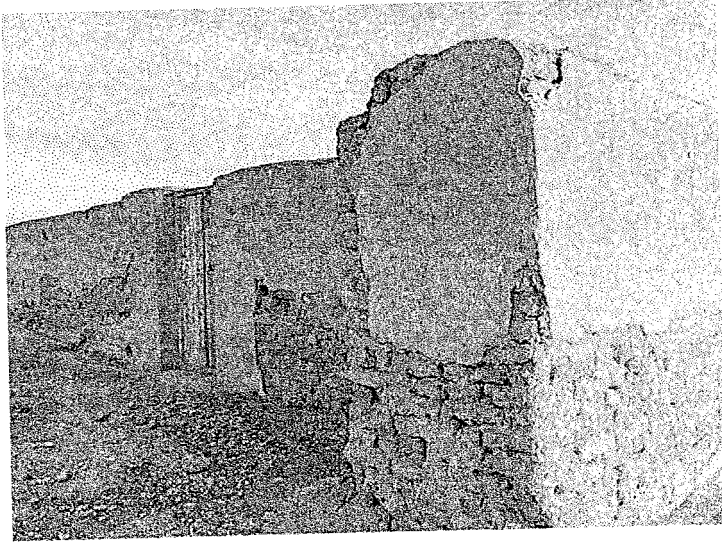
وللقصر مدخلان أحدهما فتح في منتصف الجدار الغربي، والآخر في الشمال قريبا من زاوية القصر الشمالية الغربية. ويعتبر الأول الرئيسي لاتصاله بساحة القصر الكبرى، ويبلغ عرض كل واحد منهما 1.25 م.

20 صورة: المدخل الرئيسي للقصر



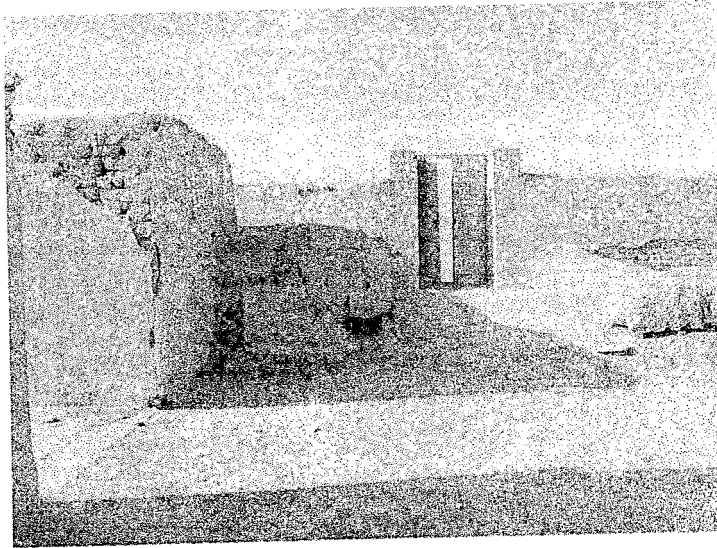
¹ - أخبرني بذلك السيّد مرهف الخلف مدير آثار الرقة الذي شارك في عملية الترميم؛ ماينكه (ميخائيل) و هوش (يان كريستوف)، نفس المرجع، ص 3.

21 صورة: الباب الشمالي للقصر مع برج الزاوية

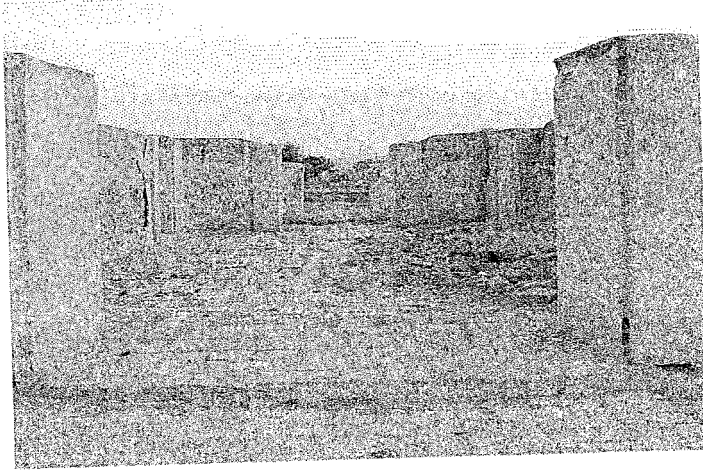


ينفتح الباب الرئيسي للقصر على دهليز تبلغ مقياسه (4.40×2.70) م، ربما أعدّ للانتظار، يتصل بساحة القصر والتي تبلغ مقياسها (25×30) م، ويقود إلى قسم الاستقبال (في اتجاه الجنوب)، والذي يتألف في مجموعه من قاعة متوسطة كبرى (7×15) م تتصل بها قاعتان جانبيتان (5×15) م عن طريق أبواب داخلية، ويبلغ سمك الجدران الفاصلة بينها 1م. وقد فتحت أبواب القاعات سواء منها الجانبية، أم الأمامية أو الخلفية بطريقة متناظرة، ويشبه هذا التنظيم الممثل في وجود قاعة كبرى تمثل الصدر وقاعتين جانبيتين تمثلان الكمين التنظيم الحيري الذي كنا قد لاحظناه في دار الضيافة في القصر " ج " و " ب ".

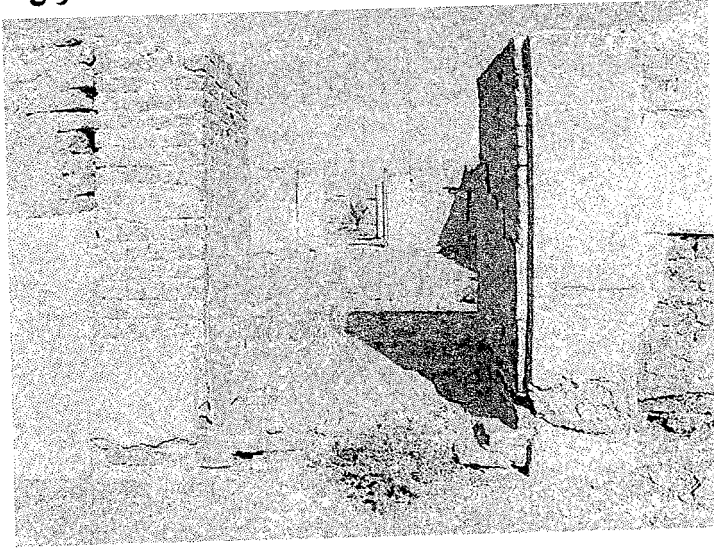
22 صورة: الدهليز



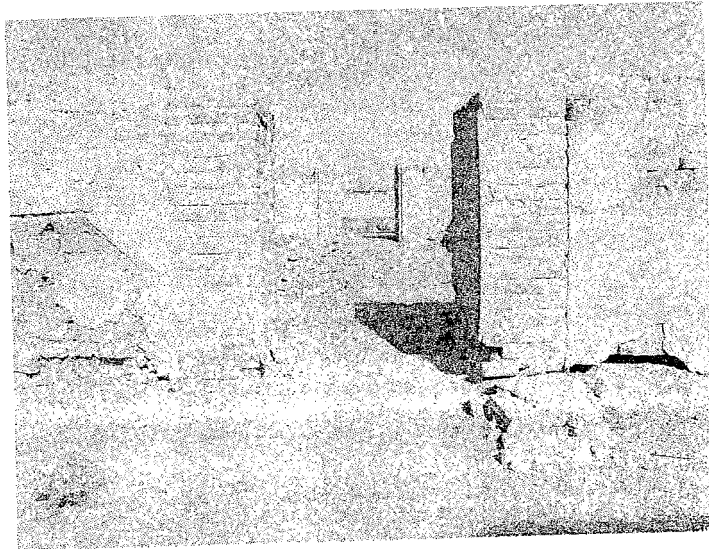
23 صورة: القاعة الوسطى الكبرى أو قاعة العرش



24 صورة : القاعة الجانبية عدد 1 المتصلة بقاعة العرش

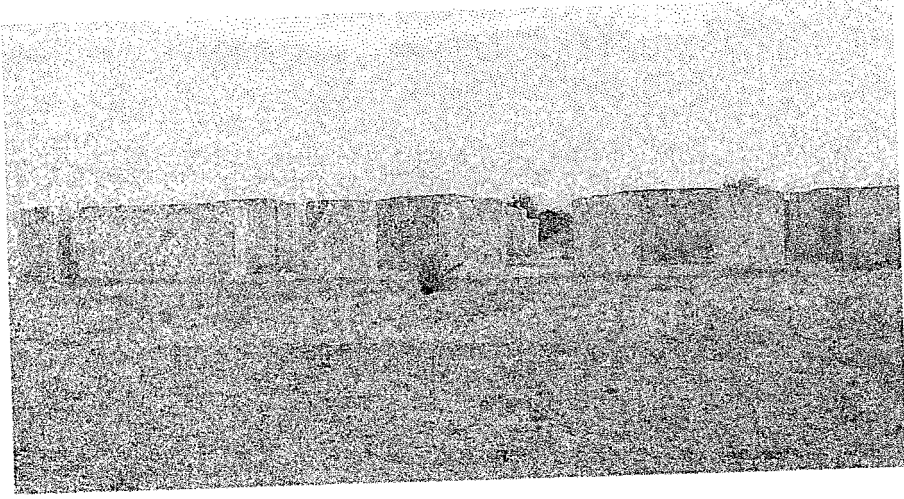


25 صورة: القاعة الجانبية عدد 2 المتصلة بقاعة العرش

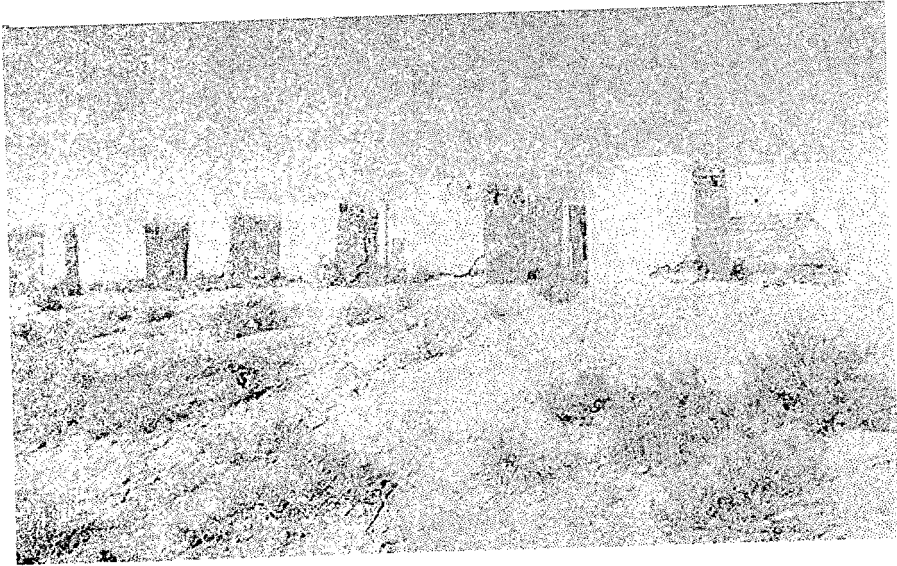


ويتقدم هذه المجموعة الثلاثية من القاعات في الشمال والجنوب شرفة أيضا ثلاثية الأقواس، وفي حين تطل الشرفة الشمالية على ساحة القصر، تطل الشرفة الجنوبية على حديقة تتصل بنهر الفرات. وهذه الشرفات لم تقع ملاحظتها في القصور السابقة.¹ وقد رصفت أرضية القاعات بمربعات الآجر المشوي، وترتفع أرضية القاعات عن أرضية الشرفات قليلا حوالي 6 صم، وذلك ربما لمنع تسرب الماء في حالة نزول المطر.

26 صورة: ساحة القصر والشرفة الشمالية



27 صورة: الشرفة الجنوبية المطلة على نهر الفرات

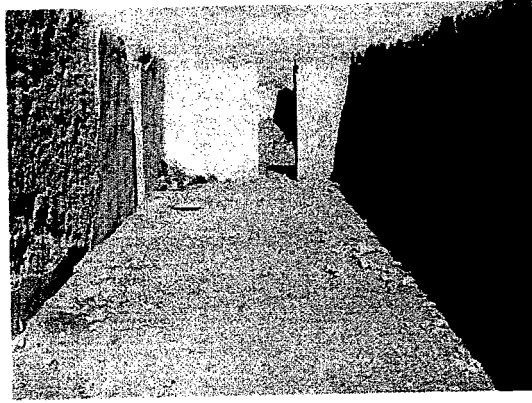


كما توجد غرفتان جانبيتان الأولى واقعة في الجهة الشرقية لقاعات الاستقبال والثانية في الجهة الغربية. وينفذ إلى الأولى من باين الأول مطل على الساحة الكبرى للقصر والثاني فتح في منتصف الجدار الشرقي للشرفة الشمالية، وداخلها غرفة أخرى توصل إلى باب فتح في منتصف الجدار الشرقي للشرفة الجنوبية المطلة على

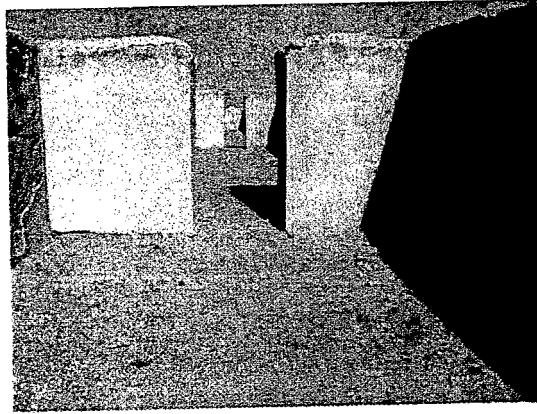
¹ - ماينكه (ميخائيل) و هوش (يان كريستوف)، نفس المرجع، ص 2.

الفرات. وغرفة جانبية أخرى في الجهة الغربية لا نصل إليها إلا عن طريق باب مطل على الحديقة الجنوبية الداخلية، أو باب آخر فتح في منتصف الجدار الغربي للشرفة الجنوبية. ويبدو أنهما قد استخدمتا للحراسة نظرا لحاجة الحراس إلى الاتصال والحركة فيما بينهم. وعلى هذا الأساس فإن هذا القسم من القصر لم يكن معدا للسكن، وإنما للاستقبال لاتصال القاعات ببعضها البعض وبالساحة الرئيسية للقصر ولارتباطها بغرف للحراسة.

28 صورة: الغرفة الجانبية الغربية



29 صورة: الغرفة الجانبية الشرقية



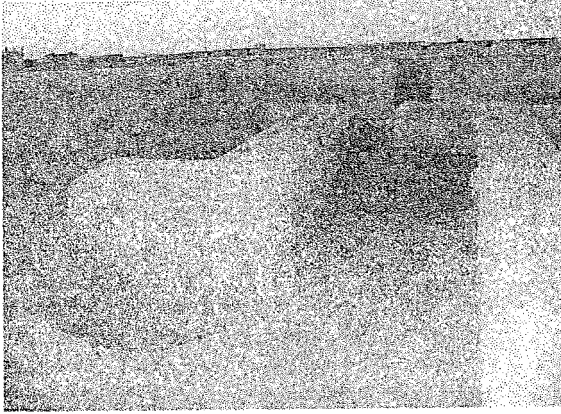
وتشير الأبحاث الأثرية إلى أن جميع مدخل وجدران هذا القسم قد زينت بأطر جصية مزخرفة مستمدة أشكالها من عناقيد وأوراق شجرة الكرمة وهي تستند على خلفية مشيدة من الآجر المشوي وليس من اللبن مثل بقية أجزاء القصر.¹ وقد انتزعت هذه الأشرطة من هذا القسم ووضعت في متحف الرقة وقد اطلعت عليها وهي تشبه الموصفات التي تم ذكرها.

أما قسم الخدمات والمطابخ فإنه يتصل بالضلع الغربي للساحة وقد لا حظنا وجود بقايا لبعض المواقد. في حين تقع محلات أو دور السكن في الجهة الشمالية للساحة. ولم تأت أعمال التنقيب إلا على جزء ضئيل من هذه

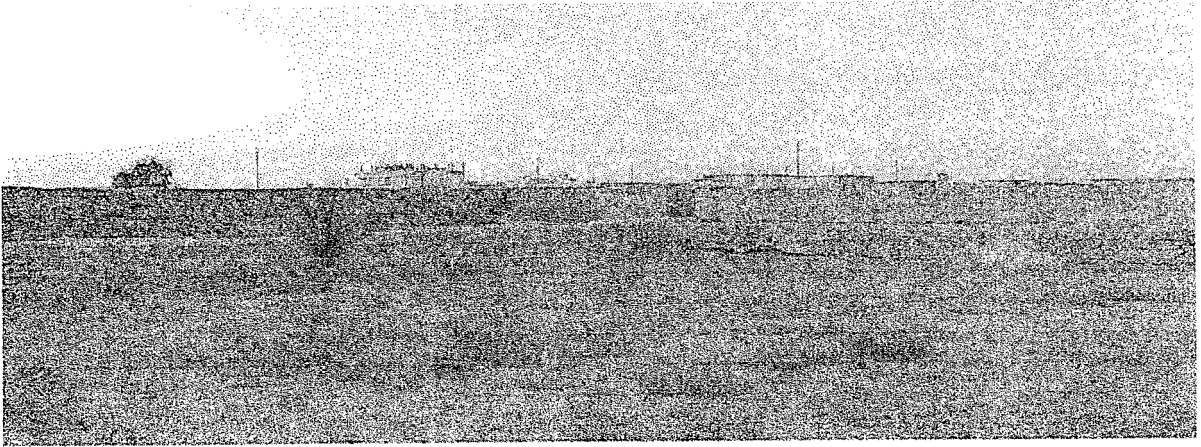
¹ - ماينكه (ميخائيل) و هوش (يان كريستوف)، نفس المرجع، ص 2.

الأقسام بحيث لم يتمكن من أخذ فكرة صريحة وواضحة عنها، ويتم النفاذ إليها بواسطة الباب الذي فتح في الزاوية الشمالية الغربية من القصر. وقد أشار ماينكه إلى صغر مساحة قسم السكن والمرافق بالقياس إلى المساحة التي يحتلها قسم الاستقبال.¹

30 صورة: قسم المطابخ



31 صورة: القسم الشمالي من القصر



ولم يقع العثور ضمن غرف القصر على أي نقيشة جدارية كتب عليها اسم صاحبها، لكن تشير الأبحاث الأثرية إلى أنه تم العثور أثناء عملية التنقيب على نقود مضروبة في الرقة بين أعوام 181 هـ / 797 م و 188 هـ / 804 م وهي الفترة التي كان هارون الرشيد يقيم فيها بالرقة، وبناء على ذلك فإن هذا القصر هو أحد قصور هارون الرشيد المطلّة على وادي الفرات، كما تدلّ كذلك المقارنة بين زخارف هذا القصر والزخارف الجصية المكتشفة في القصور الأخرى في الرقة أن هذا القصر يعود إلى أيام هارون الرشيد.² وتدلّ أيضا على أن القصور الأخرى هي كذلك قصور هارون الرشيد.

¹- نفس المرجع، ص 2.

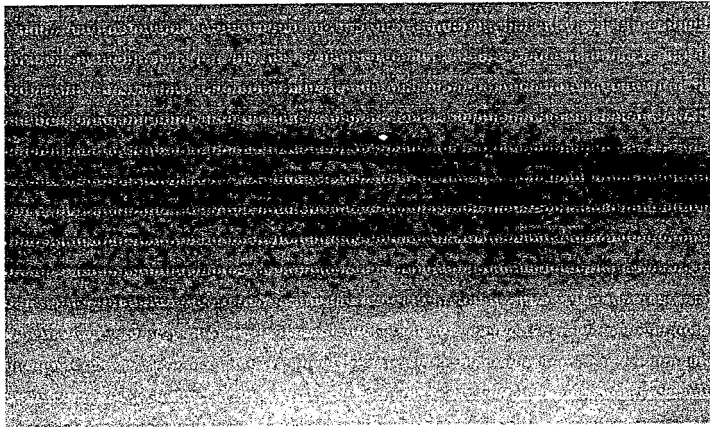
²- ماينكه (ميخائيل) و هوش (يان كريستوف)، نفس المرجع، ص 2-3.

بناء على ما سبق نستنتج أن هذا القصر يتألف في مجموعه من ثلاث أقسام رئيسية: قسم للاستقبال وتتصل به شرفتان واحدة في الشمال تطل على ساحة القصر، وأخرى في الجنوب وتطل على حديقة تتصل مباشرة بنهر الفرات، وقسم المطابخ في الجهة الغربية وقسم السكن في الشمال، ونصل إلى قسم الاستقبال بواسطة باب فتح في الجهة الغربية، في حين نصل إلى المطابخ وقسم السكن بواسطة باب فتح في الجهة الشمالية الغربية. وعلى هذا الأساس فإن هذا القصر يشبه في ترتيبه قسم الدور الخاصة في القصر "ج" و"ب" والتي تشتمل على دار للضيافة أو قاعات للاستقبال من الطراز الحيري الذي يتألف من الصدر والكمين تطل على ساحة وتفتح على حديقة داخلية. بالإضافة إلى دور للسكن وقسم للمطابخ والمنافع العامة.

لذلك يمكن القول أن هذا القصر هو أحد قصور الرشيد الخاصة التي كان يقيم فيها مع نسائه وجواريه ويستقبل فيها ضيوفه، أما تسيير شؤون الخلافة والحكم فكان يتم في قصر الرافقة، لاسيما وأن المصادر تشير إلى أن الرشيد كان يقيم خلال السنوات الأولى من قدومه الرقة بمدينة الرافقة التي بناها جدّه المنصور.¹ وهي الفترة التي ضربت فيها النقود 181 هـ - 797 م التي عثر عليها في هذا القصر، أي قبل أن يبني الرشيد قصور الرقة التي سيجمع فيها ما بين قسمي الشؤون العامة والخاصة مع الفصل بينهما عن طريق ممر وضع لهذا الغرض، وهو ما لاحظناه في القصر "ب" و"ج"، والتي ستصبح السمة الأساسية للقصور العباسية. يعدّ إذن القصر الشرقي نموذجاً حياً يشهد عما كانت عليه عمارة القصور العباسية في عهد الخليفة الرشيد، وذلك رغم ما طرأ عليه من تغيير بحكم أعمال الترميم.

أما القصر الغربي - كما ذكرنا ذلك سابقاً - فلم يبق منه سوى مجموعة آكام، وقد قدّرت مقاييسه الجمالية بحوالي 110×90 م، فهو إذن أكثر شساعة من القصر الشرقي، ويشتمل كذلك على ثلاث أقسام رئيسية: قسم للاستقبال، قسم للخدمات وقسم للسكن.² نلاحظ غياب قسم الشؤون العامة، فهو قصر خاص على نمط القصر الشرقي.

32 صورة: بعض آكام القصر الغربي



¹ - الأغاني، الأصفهاني، ج 13، ص 84.

² - Meinecke. M, « Al- Raqqa », *Op.Cit*, p. 425.

ومن معالم هارون الرشيد التي لا تزال آثارها قائمة في مدينة الرقة، إلى جانب القصر الشرقي، هرقله.

V- هرقله

تقع هرقله اليوم إلى الغرب من الرقة، على بعد حوالي 8 كيلومترات وتكتسي أهمية بالغة لأن المصادر التاريخية أشارت إليها، كما أن آثارها لا تزال قائمة.

فقد ذكر كل من الطبري وابن شداد في الأعلام الخطيرة أن الخليفة هارون الرشيد غزا هرقله ببلاد الروم سنة 190 هـ / 806 م، بعد أن نقض ملكها نقفور الصلح الذي كان بينه وبين المسلمين، ففتحها وسبى الكثير من أهلها، وكان من بين السبي جارية كانت مخطوبة لابن نقفور، فبعث إلى هارون يسأله بأن يعيدها إليه، فلبى الرشيد طلبه وأعادها إليه وأرسل معها المضرب الذي كان نازلا فيه بما فيه من المتاع والآنية.¹

لكن عكس ذلك يذكر ياقوت الحموي في كتابه "معجم البلدان" أن الفتاة كانت ابنة بطريق هرقله وكانت ذات حسن وجمال وأن الرشيد أعجب بها واحتفظ بها لنفسه ونقلها معه إلى الرقة، والأهم من ذلك هو أنه "بنى لها حصنا بين الرقة وبالس على الفرات وسماه هرقله يحكي بذلك هرقله التي ببلاد الروم وبقي الحصن عامرا مدة حتى حرب وآثاره إلى وقتنا هذا باقية وفيه آثار عمارة وأبنية عجيبة وهو قرب صفين من الجانب الغربي".²

وبالتالي فإن أهمية ما ورد ذكره في المصادر لا تكمن فيما أشار إليه كل من الطبري وابن شداد من فتح الرشيد لهرقله ببلاد الروم، بل فيما أورده ياقوت من بناء الرشيد لحصن عجيب بين الرقة وبالس أطلق عليه اسم "هرقله". وقد أجريت العديد من عمليات التنقيب الأثري في هذا الموقع وأسفرت عن الكشف عن أثر معلم بارز لا تزال آثاره قائمة إلى يومنا هذا. فماهي أهم الخصائص المعمارية لهذا المعلم، وهل يرقى فعلا إلى عهد الخليفة هارون الرشيد؟.

إن أول من وصف آثار هرقله هو الأثري الألماني زاخاو (Sachau) الذي زار المنطقة سنة 1883،³ وقد وصفها بأنها عبارة عن بنيان مربع ليس بالكبير، جدرانه عالية ومشيدة بقطع الحجارة من النوع الجصّي ويحيط بجدرانه من الجهات الأربعة شبكة من الحجيرات المعقودة التي كان عدد منها ظاهرا ومفتوحا. لكنه لم يتعرف على المدخل الذي يؤدي إلى هذا البنيان والذي افترض أنه موجود في الضلع الشمالي الغربي. وقد اعتبر أن بناء هرقله هو عبارة عن حصن شبيه بالحصون الرومانية لاسيما من ناحية المتانة المعمارية، وبناء على ذلك فهو يرى أنه لا يرقى إلى العهود العربية الوسيطة بل إلى العهود الإغريقية والرومانية.⁴

¹ - الطبري، تاريخ، ص 1695، ابن شداد، الأعلام الخطيرة، دمشق 1991، ص 254.

² - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 961-962.

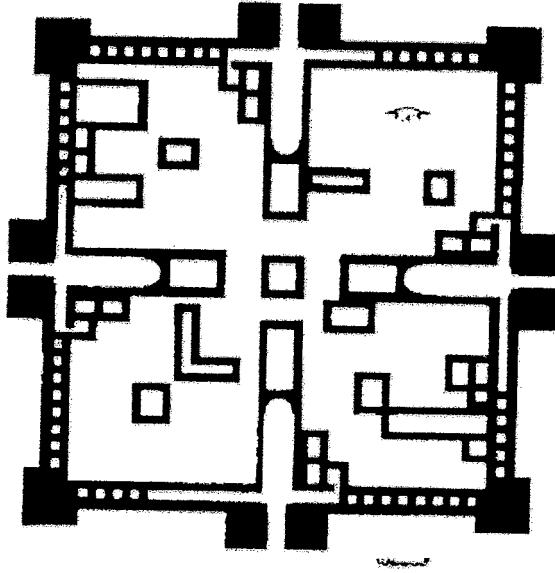
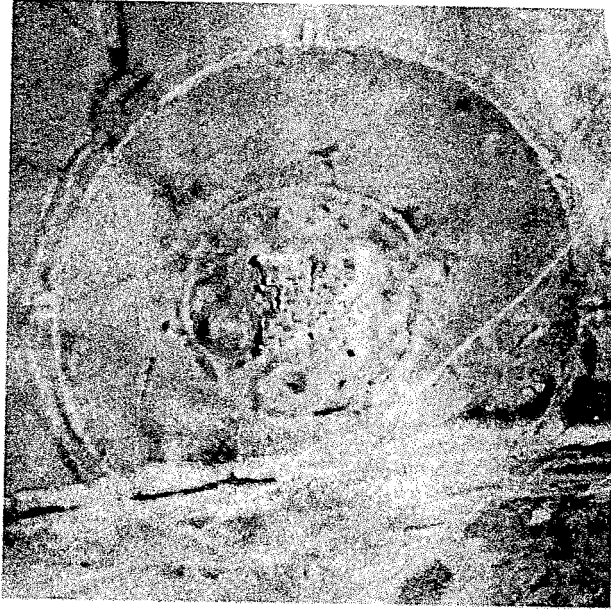
³ - Creswell, A Short Account of Early Muslim Architecture, p.275.

⁴ - طوير (قاسم)، "الموسم الأول والثاني للتنقيب في هرقله 1976-1977"، الحوليات الأثرية السورية، المجلد 27-28، 1977-1978، ص 113.

أما أول دراسة أثرية ومعمارية لهرقلة، فقد قام بها كل من الألمانيين هرتزفلد وسار، وقد اعتمدا فيها على الصور الجوية وعلى ملاحظتهما الخارجية للمعالم الظاهرة من البناء وقد وصافاها بأنها عبارة عن سور دائري، معزز بأبراج دائرية، وتحترقه أربعة أبواب موزعة على نقاط أساسية. وقد كان السور وبواباته مغطاة كلها بالتراب، ولا يمكن تمييزها على الصورة الجوية إلا من خلال لونها الأبيض الذي يختلف عن لون سطح الأرض. وتشق هذا السور من الجهة الجنوبية قناة تتجه نحو الشرق قادمة من الفرات، وقد افترضنا أن هذه القناة هي التي أنشأها هارون الرشيد وأطلق عليها " اسم نهر النيل". ويتوسط هذا السور بناء مركزي، مستطيل الشكل، عززت زواياه الأربعة بأبراج دائرية، كما يتخلل منتصف كل ضلع من أضلاعه الأربعة إيوان. ويتألف هذا البنيان من مجموعة من الحجيرات والممرات الصغيرة، وغير المتساوية، والتي تشبه في انتظامها هيئة "خلايا النحل"، "CASEMATTE"، ولكنها تخلو من أي نافذة أو مدخل ومغطاة بعقود. كما تظهر من داخل البنيان غرف كبيرة. وقد شيد البنيان في مجموعه من الحجارة الجصية، عدا العقود التي شيدت من الآجر ويصل ارتفاعه إلى ستة أمتار. وقد بين كل من سار وهرتزفلد أن الشكل المستدير للسور يذكر بأمثلة قديمة مثل المعسكرات الآشورية وسور مدينة سنجري وكذلك سور مدينة الحضر، ولكن أقرب مثال لسور هرقل هو سور قلعة دراب الساسانية. وعكس ما ذهب إليه زاحاو من أن هذا المعلم يعود إلى عهود رومانية قديمة، فقد نسباه إلى عهد هارون الرشيد واستندا في ذلك إلى ما أورده كل من الطبري وياقوت الحموي، كما أكدّا التشابه بينه وبين قصر الموقر الأموي. كما بينّا في الأخير أن البنيان لم يتم بناؤه حتى النهاية وإلا لبقى أثر من العمارة التي كانت ستقوم فوقه.¹

¹ - طوير (قاسم)، "الموسم الأول والثاني للتنقيب في هرقله 1976-1977"، نفس المرجع، ص 113-114-115؛
Tweir.Q , « L'Hiraqla de Harun al-Rashid à Raqqa », dans *La Syrie de Byzance à l'Islam VII-VIII Siècles*, Actes de colloque international, Lyon- Maison de l'Orient Méditerranéen Paris-
Institut du Monde Arabe, 11- 15 septembre 1990, Publiés par Pierre Canivet et Jean- Paul
Rey- Coquais, Damas 1990, p.179.

7 تخطيط تخطيط هرقله¹



وبما أن السور وبواباته قد زالت عن العيان ولم يبق من هذا الأثر البارز سوى بعض المعالم التي اعتمد عليها هرتزفلد في وصفه لهذا المعلم، بالإضافة إلى الصورة الجوية التي تم التقاطها، قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية سنة 1969 بتشكيل بعثة للتنقيب في هذا المعلم وقد تمكنت من الكشف عن معالم النصف الغربي للبوابة الشمالية وعن جزء من سورها وعن أحد أبراجه، كما تمكنت من الكشف عن البوابة الغربية، ولم تتمكن من الكشف إلا على النصف الشرقي من البوابة الجنوبية، أما أعمال التنقيب الأثري خلال موسم

¹ - Northedge . A, *Entre Amman et Samarra*, fig .37

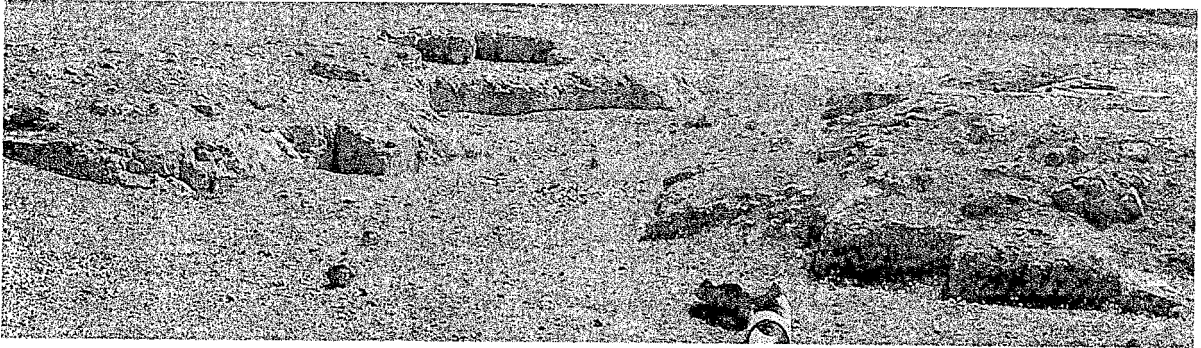
1977 فقد كشفت عن كامل البوابة الشرقية وعن أول برج يليها في الجنوب وعن السور الواصل بينهما، كما كشفت عن القاعدة التي يقوم البناء الأصلي فوقها.¹ ولا تزال آثار هذه البوابات التي وقع الكشف عنها قائمة إلى اليوم. وبصفة عامة يتألف هذا المعلم من قسمين رئيسيين: السور الخارجي والبناء المركزي في الوسط.

33 صورة: منظر عام لهرقلة



* السور الخارجي: شيد السور الخارجي لهرقلة على شكل مستدير (قدر قطره بـ 510م و سماكته بـ 250 و 270صم)،² ويتألف من أربعة أبواب رئيسية: باب غربي، باب شرقي، باب شمالي وباب جنوبي، ولا يزال أثر الاستدارة وأثر هذه الأبواب واضحا إلى اليوم.

34 صورة: الباب الغربي

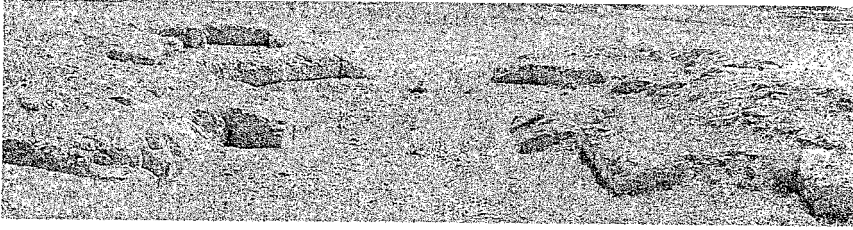


¹ - طوير (قاسم)، "الموسم الأول والثاني للتنقيب في هرقة 1976-1977"، نفس المرجع، ص 116-119-120.
² - طوير (قاسم)، "نتائج التنقيب في هرقة 1976-1981"، الحوليات الأثرية السورية، المجلد 33، ج 1، سنة 1983، ص 102.

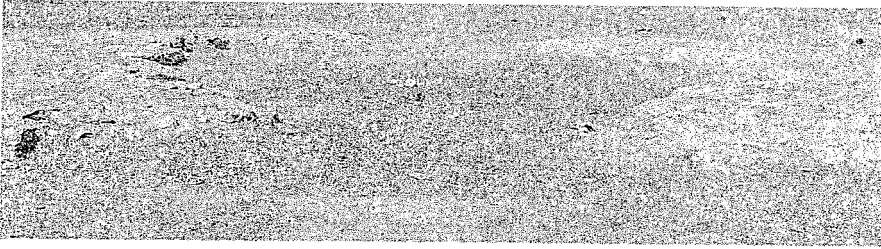
35 صورة : الباب الشرقي



36 صورة: الباب الشمالي



37 صورة: الباب الجنوبي



وقد ذهب كل من هرتزفلد وسار إلى أن سور قلعة دراب الساسانية هو أقرب مثال لسور هرقله.¹ لكن لا بدّ أن سور مدينة بغداد المدورة ، هو الذي أوحى للرشيدي بأن يتخذ لهرقله هذا الشكل المستدير، هذا ما لاحظناه أثناء زيارتنا للموقع، وما أكدّه كذلك قاسم طوير الذي أشار إلى أننا لسنا في حاجة إلى أمثلة ساسانية لمقارنتها مع سور هرقله المستدير، إذ لا بدّ أن بغداد هي المثال الذي اقتدى به هارون في تصميمه لسور هرقله.²

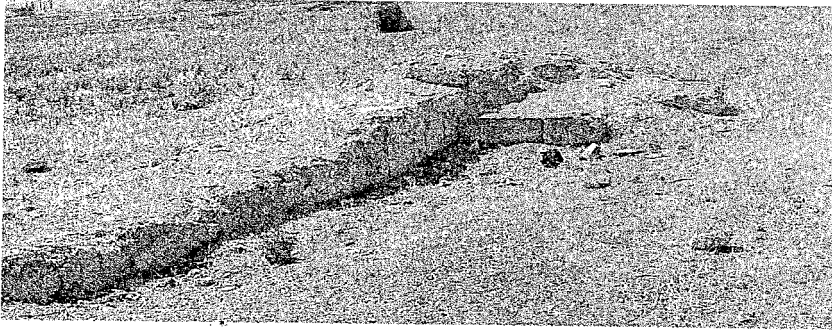
لكن خلافا لسور بغداد والرافقة، لم يكن يحيط بسور هرقله أي خندق من الخارج، أو فصيل من الداخل، كذلك يتألف من سور واحد، بدلا من اثنين في بغداد (أي السور الخارجي و السور الأعظم)، هذا ما لاحظناه وما تبرزه كذلك الصورة الجوية لهرتزفلد.

¹ - طوير (قاسم)، "الموسم الأول والثاني للتنقيب في هرقله 1976-1977"، نفس المرجع، ص 114.

² طوير (قاسم)، "الموسم الأول والثاني للتنقيب في هرقله 1976-1977"، نفس المرجع، ص 125؛
-Tweir.Q, « L'Hiraqla de Harun al-Rashid à Raqqa », *Op. Cit*, p.185.

وقد بني من الحجارة الحصية المنحوتة (بقياس 70×90×60 صم)¹، وليس من اللبن، و معزز بأبراج كما هو الشأن بالنسبة لسور مدينتي بغداد والرافقة، لكنها ليست مستديرة، فهي مربعة، وذلك عكس ما ذهب إليه هرتزفلد الذي افترض أنها دائرية الشكل، فقد أظهر التنقيب في الحدبة التي تلي البوابة الغربية من جهة الجنوب جزءا من السور كامل البرج وتبين أنه مربع الشكل وليس مستديرا وهو يبرز عن السور بمسافة 2.5م ويشكل مع جسم السور مربعا تاما يبلغ عرضه 5م.² ولا تزال آثار هذا البرج قائمة.

38 صورة: الجدار الجنوبي للبوابة الغربية والبرج



وقدّرت المسافة الفاصلة بين هذه الأبراج بين 18 و19م.³ ولم يبق من هذه الأبراج اليوم سوى البرج الواقع في الطرف الجنوبي للبوابة الغربية.

ويتألف سور هرقله شأنه شأن سور بغداد والرافقة من أربعة أبواب متقابلة تتوزع على أربعة محاور أساسية (شمال جنوب وغرب شرق)، وقد تمكنت عمليات التنقيب الأثري من الكشف عن أغلبها، لكن لم يبق اليوم من آثارها سوى القليل البارز ورغم ذلك فهي تبدو ظاهرة للعيان وقد رمز إليها حسب اتجاهاتها الشمالية، الجنوبية، الشرقية والغربية وذلك لعدم التعرف على أسمائها.

وتبرز هذه الأبواب عن السور بحوالي 18 م، وقدّر عرض كل منها بأكثر من 20 م، وتتقعر في داخل كل منها فسحة أو ممر يتوسع في الوسط ثم يضيق في المؤخرة حيث يفضي إلى داخل السور، ويؤخذ في كل مرة شكلا هندسيا مختلفا، فهو مستدير في البوابة الشمالية ومربع في البوابة الجنوبية ومثلث في البوابة الشرقية وسداسي في البوابة الغربية.⁴ ولا يزال أثر هذه الممرات ماثلا إلى اليوم وهي تذكرنا بالدهليز الذي يفضي إليه كل باب من أبواب السور الخارجي في بغداد.

وقد تم العثور على زخارف منحوتة على الحجرة الأولى والأخيرة من ضلع المدخل الواقع في النصف الشمالي للبوابة الغربية ويتألف النحت الأول من شكل نجمة سداسية لم يبق إلا نصفها وهي تقع ضمن إطار مربع يبلغ

¹ - طوير (قاسم)، " نتائج التنقيب في هرقله 1976-1981"، نفس المرجع، ص 102.

² - طوير (قاسم)، " الموسم الأول والثاني للتنقيب في هرقله 1976-1977"، نفس المرجع، ص 119.

³ - طوير (قاسم)، " نتائج التنقيب في هرقله 1976-1981"، نفس المرجع، ص 102.

⁴ - انظر الصور؛ طوير (قاسم)، " نتائج التنقيب في هرقله 1976-1981"، نفس المرجع، ص 102؛

Tweir.Q, « L'Hiraqla de Harun al-Rashid à Raqqa », Op.Cit, p.181.

ضلعه 50 صم وهي متكونة من مثلثين متداخلين. أما النحت الثاني فيتألف من نجمة مثمانية، تتألف من تشابك مربعين وتقع كذلك ضمن إطار مربع يبلغ ضلعه 50 صم.¹

39 صورة: النجمة المسدسة



40 صورة النجمة المثمانية



نلاحظ إذن أنه رغم الاختلاف على مستوى شكل الأبراج وعلى مستوى مادة البناء فإن سور هرقله يشبه سور بغداد على مستوى الشكل المستدير وكذلك على مستوى الأبواب الأربعة المتقابلة. فهو إذن يمكن أن يعوضنا عن سور مدينة بغداد المندثرة. ويفضي كل باب من الأبواب الأربعة إلى:

* البناء المركزي

يحتل البناء المركزي وسط الدائرة ويذكرنا بموقع قصر الذهب في بغداد. وقد شيد تقريبا على شكل مربع، قدر ضلعه بحوالي 103 م.² ومعزّز بأبراج زوايا، وقد أسفرت أعمال التنقيب في برج الزاوية الشمالية الغربية عن الكشف عن جسم البرج وتبين أنه مربع الشكل وليس مستديرا مثلما ذهب إلى ذلك هرتزفلد، وأنها أبراج صماء.³ ويتوسط كل ضلع من أضلاع البناء المركزي الأربعة إيوان، يفتح مباشرة نحو الخارج قبالة

¹ - طوير (قاسم)، "الموسم الأول والثاني للتنقيب في هرقله 1976-1977"، نفس المرجع، ص 118.

² - انظر الصور؛ طوير (قاسم)، "نتائج التنقيب في هرقله 1976-1981"، نفس المرجع، ص 102؛

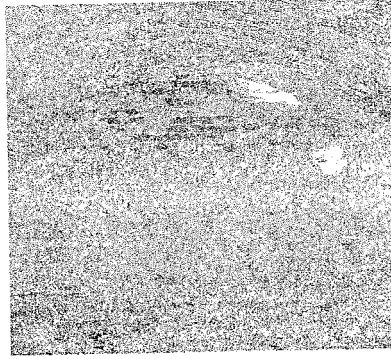
CRESWELL, *Op.Cit*, p.275.

³ - طوير (قاسم)، "الموسم الأول والثاني للتنقيب في هرقله 1976-1977"، نفس المرجع، ص 122؛

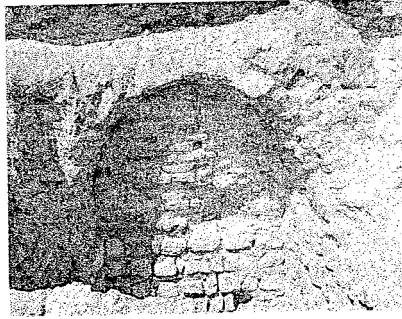
- Tweir.Q, « L'Hiraqla de Harun al-Rashid à Raqqa », *Op.Cit*, p.182.

الباب الرئيسي الذي على السور الخارجي الموجه نحوه،¹ وينتهي في مؤخرته بحنية تأخذ شكل قوس نصف مستدير، وقد قلّرت أبعاده بـ18.6م طولا و6م عرضا.²

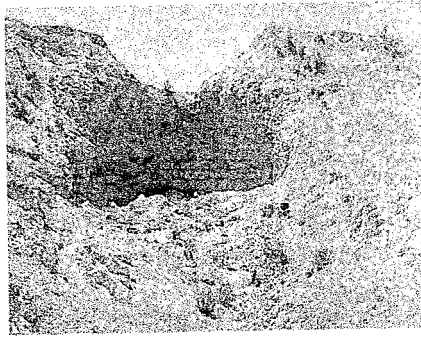
41 صورة: الإيوان الغربي



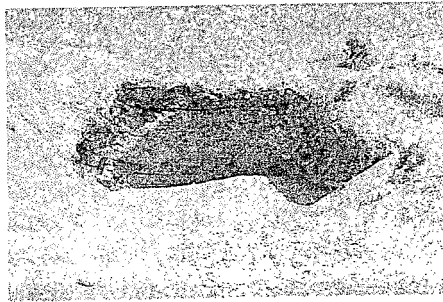
42 صورة: الإيوان الشرقي



43 صورة: الإيوان الشمالي



44 صورة: الإيوان الجنوبي



¹ - انظر الصور.

² - TWEIR.Q, *Ibidem*, p.182.

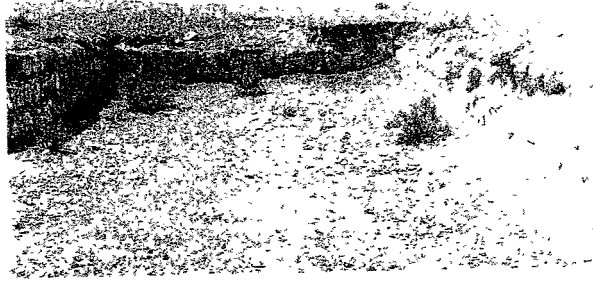
كما يتقدم كل إيوان برحان جاسيان (8,20 × 7,40م)، يفصل بينهما ممر قدر طولُه بـ 9,40 م وعرضه بـ 2,20 م في المقدمة و3,80 م في المؤخرة.¹ ولم يبق من هذه الأبراج اليوم سوى القليل البارز. وتشير الأبحاث الأثرية إلى أنه عن يمين كل إيوان كان يفتح باب لم يبق له اليوم أي أثر، يفضي إلى عتبة يليها درج يصعد ممحاذاة الضلع الخارجي وينتهي عند برج الزاوية ويؤدي إلى سطح البناء، ويتألف من 28 درجة لا تزال بعض آثارها ماثلة إلى اليوم.

45 صورة: بقايا آثار الدرج الشمالي



كما تشير إلى أنه عن يسار كل إيوان يفتح كذلك باب آخر، مقابل لباب الدرج، لم يبق له أي أثر أيضاً، ويفضي إلى دهليز طويل يفتح في مؤخرة حداره الأوسط باب يؤدي إلى غرفة مستطيلة. وترجح الأبحاث الأثرية أن هذه الغرف قد استخدمت للحراسة.²

46 صورة: أحد الغرف المستطيلة



وفي حين شيدت الأبراج من الحجارة والملاط شيّدت أقواس الحنيات من الآجر والملاط الجصّي الأبيض، أما جدران هذا الساء فيصل سمكها إلى المترين، ومشيّدة من الحجارة الصغيرة والملونة الحصىة المختلطة بالحصى ومكسوة من الخارج بقطع الحجارة الكلسية المهتة الضاربة إلى الأصفر ونفس الشيء بالنسبة للإيوانات والدرج والغرف.³

¹ - انظر الصور؛ طوير (قاسم)، "نتائج التنقيب في هرقلّة 1976-1981"، نفس المرجع، ص 103.
² - Tweir.Q, « L'Hiraqla de Harun al-Rashid à Raqqa », *Op. Cit*, p.182 ; طوير (قاسم)، "نتائج التنقيب في هرقلّة 1976-1981"، نفس المرجع، ص 103-104.
³ - طوير (قاسم)، "الموسم الأول والثاني للتنقيب في هرقلّة 1976-1977"، نفس المرجع، ص 122؛ طوير (قاسم)، "نتائج التنقيب في هرقلّة 1976-1981"، نفس المرجع، ص 103؛
- Tweir.Q, *Ibidem*, p.182.

وقدّر ارتفاع هذا البناء بحوالي عشرة أمتار، وهو لا يشكل كتلة صماء وإنما يتألف من مجموعة من الفراغات، تختلف من حيث الشكل والاتجاه والمساحة، وتفصل بينها جدران مشيّدة من الحجارة الجصية قدر سمكها بـ 1,50م.¹ وقد وزعت تلك الفراغات أو الغرف وفق نظام يعتمد على مبدأ التصالب: ففي الوسط توجد غرفة مربعة الشكل (5,11×5,83 م) ويقابلها من الجهات الأربعة أربع غرف مستطيلة (5×12 م) تنتهي عند مؤخرة الإيوانات وموجهة نحو الجهات الرئيسية الأربعة، أي أن جميع الأواوين والغرف المحورية كلّها موجهة نحو الأبواب الرئيسية للصور المستدير وتنتشر في المساحة الواقعة بين تلك الغرف الأربعة المحورية، غرف أخرى مختلفة الأشكال والمقاييس (مربعة، مستطيلة أو على شكل الحرف اللاتيني L).²

وقد أكّدت نتائج التنقيب الأثري أن جميع تلك الغرف كانت مملوءة بالأتربة والحصى النهري ومغطاة بأقنية من الآجر وليس فيها نوافذ وأبواب. وقد تم تفريغ ثلاثة منها والكشف عن الحدود العلوية للبقية.³ كما بيّنت أنه عدا الدرج والإيوان وغرفة الحراسة التي كانت ذات وظيفة استعمالية، فإن كافة الغرف كانت ذات وظيفة إنشائية، وبناء على ذلك فإن البنيان بكامله باستثناء الإيوانات وغرف الحراسة والدرج كان قاعدة أو مصطبة، وأن الهدف من تلك الغرف هو من جهة تخفيف الضغط على الجدران الخارجية ولذلك تم تصميم الغرف الداخلية لاستيعاب الأتربة والحصى، ومن جهة ثانية فإن هارون الرشيد أراد أن يقيم بنيانا فوق هذه المصطبة فاستغل المهندس تلك الفراغات وجعلها تتوزع وتأخذ أشكالاً وفق التصميم المسبق لهيكل البنيان المنشود إقامته، واستناداً إلى ذلك فإن لتلك الفراغات دوراً مزدوجاً: من جهة امتصاص الضغط الجانبي ومن جهة أخرى تحديد هيكل البنيان العلوي واستقبال ثقله.⁴ ويؤيد قاسم طوير ما ذهب إليه هرتزفلد من أن البنيان لم يتم بناءه حتى النهاية، ولعل هذا ينطبق مع ما أورده ياقوت من أن الحصن بقي عامراً مدة ثم خرب وأن آثاره لا تزال باقية إلى وقته.⁵

ومن هنا نتبين التطابق بين ماورد ذكره في المصادر وما أسفرت عنه نتائج التنقيب الأثري. ولعل هذا التطابق يؤكد لنا كذلك صحة انتساب هذا المعلم لهارون الرشيد والذي تؤيده تلك الكتابة العربية التي أسفرت عنها عمليات الكشف الأثري والتي تم العثور عليها في البوابة الجنوبية ولم يبق لها اليوم أي أثر وقد قرأ عليها " ما

¹ - Tweir.Q, *Ibidem*, p.182;

طوير (قاسم)، "نتائج التنقيب في هرقلّة 1976-1981"، نفس المرجع، ص 103 .

² - Creswell, *A Short Account of Early Muslim Architecture*, p.275; Tweir.Q, *Ibidem*, p.182 ;
- طوير (قاسم)، "نتائج التنقيب في هرقلّة 1976-1981"، نفس المرجع، ص 103 .

³ - طوير (قاسم)، "الموسم الأول والثاني للتنقيب في هرقلّة 1976-1977"، نفس المرجع، ص 121؛ طوير (قاسم)، "نتائج التنقيب في هرقلّة 1976-1981"، نفس المرجع، ص 103؛

- Tweir.Q, « L'Hiraqla de Harun al-Rashid à Raqqa », *Op. Cit*, p.182 .

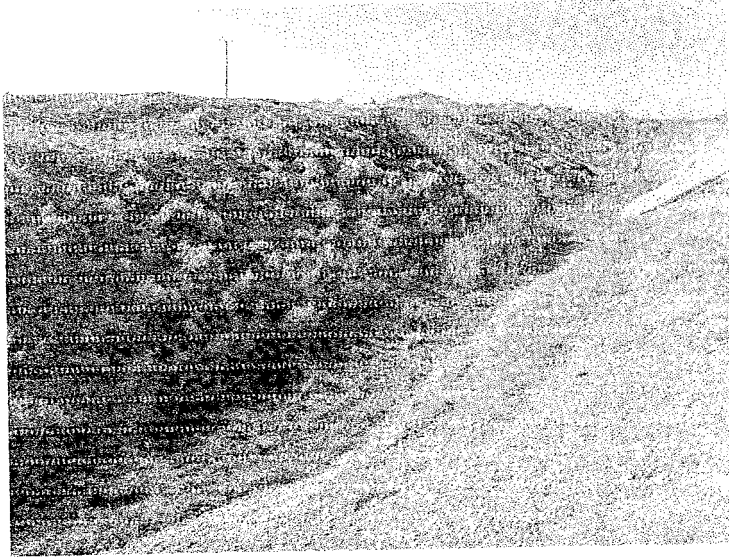
⁴ - طوير (قاسم)، "نتائج التنقيب في هرقلّة 1976-1981"، نفس المرجع، ص 104 .

⁵ - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 962.

عمل هذا هذيل"، مما يؤيد أن هرقل بنيت بأيدي عربية ومن بينهم "هذيل" المذكور وكذلك الكسر الخزفية العباسية التي تم العثور عليها.¹

كما تؤكد أيضا القناة التي تخترق السور من الجهة الجنوبية والتي افترض هرتزفلد أنها نهر النيل الذي شقه هارون الرشيد لإرواء الأراضي الواقعة إلى شمال الرقة استنادا لما أورده ياقوت الحموي من أن النيل هو أحد أنهار الرشيد في الرقة،² انتساب هرقل إلى الرشيد.

47 صورة: آثار قناة النيل



وبالتالي فإن هرقل لا ترقى إلى عهود رومانية أو إغريقية مثلما ذهب إلى ذلك زاخاو وإنما إلى عهود عباسية وبالتحديد إلى عهد الخليفة الرشيد، هذا ما أشارت إليه المصادر وما أكدته نتائج البحث الأثري.

أما عن الهدف أو الغاية من إنشائها، فيذكر ياقوت الحموي أن هارون بناها من أجل ابنة بطريق هرقل، التي حظيت عنده والتي كانت من بين الأسرى، ويذكر أيضا أن هارون أراد أن يحاكي بها مدينة هرقل ببلاد الروم.³ بالنسبة للتفسير الأول لا يمكننا القبول به لأن هرقل مثلما يبرز ذلك معلمها الأثري أضخم بكثير من أن تكون مجرد منزل أو قصر لأسيرة حرب،⁴ أما التفسير الثاني فيبدو أنه أقرب إلى الواقع، ذلك أن الرشيد أراد أن يخلد انتصاره على نقفور، فقام بتأسيس قصر أو حصن أطلق عليه اسم "هرقل" والذي هو اسم الحصن أو لقصر لنقفور في بلاد الروم. هذا ما أشار إليه ياقوت الحموي وما أكدته الأبحاث الأثرية، التي بينت

¹ - طوير (قاسم)، "الموسم الأول والثاني للتنقيب في هرقل 1976-1977"، نفس المرجع، ص 119-124؛ طوير (قاسم)، "نتائج التنقيب في هرقل 1976-1981"، نفس المرجع، ص 104؛

- Tweir.Q, Ibid, p.181.

² - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص 334؛ طوير (قاسم)، "الموسم الأول والثاني للتنقيب في هرقل 1976-1977"، نفس المرجع، ص 114.

³ - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 962.

⁴ - طوير (قاسم)، "نتائج التنقيب في هرقل 1976-1981"، نفس المرجع، ص 107.

أن هرقله هي "صرحا تذكاريًا خالداً" ولذلك استخدم في بنائها الحجاره بدلا من اللبن،¹ والذي استخدم في بناء قصور الرشيد في الرقة. فهرقله ترمز لانتصار الرشيد على نقفور.

لكن لا بدّ أن نشير إلى شيء مهم وهو إرادة الرشيد التعبير عن ملكيته للعالم. وهو ما فهمه الشاعر أشجع السلمي الذي أنشد الرشيد قائلا عقب انتصاره على نقفور قائلا:

ملكته وقتلت الناكثين بما بنصر ما يملك الدنيا وما فيها.

فأمر الرشيد بأن لا ينشده أحدا بعده.²

وقد تجلت ملكية هارون الرشيد للعالم في هرقله على عديد المستويات:

- أولا على مستوى اختياره الشكل الدائري ووضعه للبناء المركزي في وسط الدائرة، والذي يدلّ على أن الخليفة الرشيد هو القطب أو المركز.

- ثانيا على مستوى الأبواب الأربعة المتقابلة، والأواوين الأربعة المتجهة نحوها، واعتماد مبدأ التصلب، والذي قوامه غرفة مربعة الشكل في الوسط، يحيط بها من الجهات الأربعة، أربع غرف مستطيلة الشكل، تنتهي عند مؤخرة الأواوين الأربعة وموجهة نحو الأبواب الرئيسية الأربعة، ويدلّ هذا التنظيم على أن الخليفة الرشيد هو ملك الجهات الأربعة. ونفس هذا التنظيم كان قد سعى إليه من قبله جدّه المنصور عند تأسيسه لبغداد واختياره لها الشكل الدائري ووضعه لقصر الذهب في وسطها، فضلا عن الأبواب الأربعة في الاتجاهات الرئيسية الأربعة.

- ثالثا يدلّ الشكل المثلث والمسدس في فراغات الأبواب والنجمة أيضا على ملكية هارون الرشيد للعالم، فالرقم ثمانية هو ضعف الرقم أربعة، وهو يرمز إلى الحياة الأبدية، كما يرمز الرقم ستة إلى الخلق، فالله خلق الكون في ستة أيام.³ فقد أراد الرشيد أن يبرز لنقفور وللعالم أنه "سيد الكون". وهنا لا بدّ أن نشير إلى براعة الفنانين والمهندسين في التعبير عن ملكية هارون الرشيد.

لكن ولئن عبّرت هرقله عن ملكية هارون الرشيد للعالم، فقد عبّرت كذلك عن اختيار ملكه ومنازله في الرقة، فقد حاولت إحدى الدراسات الحديثة إيجاد تفسير فلكي للسنة التي أنجزت فيها هرقله وهي سنة 190 هـ/ 806 م، فتبين أنها سنة حدث فيها أن تساوى شروق الشمس وغروبها على نفس الخط، وهو حدث يحصل كل مائة سنة وينبئ بحدوث كارثة،⁴ وفعلا لم تكد تمض ثلاث سنين وتوفي هارون الرشيد وهجرت الرقة وفقدت دورها كعاصمة ملكية. ويبدو أن الرشيد قد تفتّن إلى ذلك لاسيما وأن الخلفاء العباسيين قد قربوا إلى

¹ - طوير (قاسم)، "نتائج التنقيب في هرقله 1976-1981"، نفس المرجع، ص 107.

² - ياقوت الحموي، نفس المصدر، ج 4، ص 962.

³ - طوير (قاسم)، "لغة الأرقام في العمارة الإسلامية"، نفس المرجع، ص 58-65.

⁴ - Becker. Udo, « Überlegungen zur anlage von Hiraqla bei Raqqa », in *Raqqa III*, Deutsches Archäologisches Institut, 2004, pp. 149- 156.

بلاطهم المنحمن وعلماء الفلك، فأراد أن يخلّد ملكه وذلك بتأسيسه لحصن هرقله الذي عبّر فيه عن ملكيته للعنة ولذللك استبدل في بنائه اللبن بالحجارة، ولا تزال آثاره قائمة إلى يومنا هذا في مدينة الرقة. ولو أردنا أن نبحت عن سور كامل الاستدارة يعود إلى العصر العباسي كنموذج لسور مدينة بغداد فلا بدّ من العودة إلى إليه وليس إلى سور مدينة الرافقة. لاسيما بعد أن ثبت لدينا من خلال النصوص والآثار أن هرقله هي من أعمال هارون الرشيد في الرقة. ولم يكتف الرشيد بإقامة القصور في الرقة بل قام كذلك بإنشاء ميدان لسباق الخيل.

IV- ميدان سباق الخيل

توجد في المصادر بعض الإشارات القليلة التي تدلّ على اهتمام الخليفة الرشيد بسباق الخيل. يذكر الجهشياري أن الرشيد كان يأمر جعفر البرمكي باتخاذ خيلا يجريها في الحلبة.¹ ويذكر المسعودي " أن الرشيد أجرى يوما الخيل بالرقة، فلما أرسلت صار إلى مجلسه في صدر الميدان حيث توافى إليه الخيل ".² يفهم من هذه الإشارات ليس فقط اهتمام وولع الرشيد بسباق الخيل بل كذلك إنشائه ميدان لسباق الخيل بالرقة، وهو ما أثبتته الصور الجوية الملتقطة لمدينة الرقة والخريطة الأثرية لمواقع القصور العباسية. ويشير نورثادج إلى أنه لأول مرة في الإسلام يقع إنشاء ميدان لسباق الخيل، كما أكّد عدم وجوده في رصافة هشام رغم ولعه الشديد بهذا النشاط وممارسته له.³ وقد استخدم الجهشياري كلمة "حلبة" للتعبير عن هذا الميدان في حين استخدم اليعقوبي كلمة "ميدان".

ويبدو هذا الميدان واضحا على مخطط القصور العباسية الذي وضعه المعهد الأثري الألماني بدمشق، وهو يحمل رقم 21، ولم تتم فيه أي عملية تنقيب أثري، لكن وقع تحديده استنادا إلى الصور الجوية المأخوذة لمدينة الرقة، وهو يقع إلى الشمال من القصور العباسية السالف ذكرها ويأخذ شكل مستطيل يمتد شرقا غربا ويبدو أن مجلس الخليفة كان يقع في الطرف الشرقي عند صدر الميدان.⁴ وعلى نفس الموضع أقيم اليوم في الرقة نادي للفروسية.

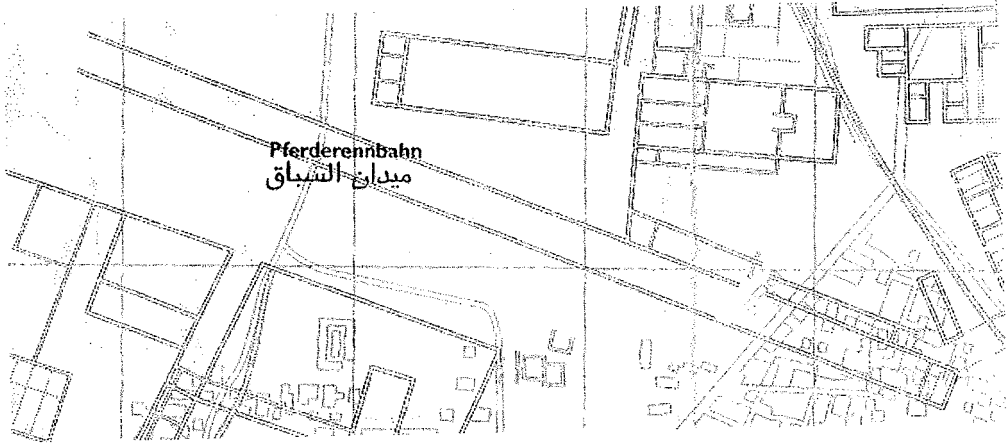
¹- الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص 206.

²- المسعودي، مزوج الذهب، ج4، ص 372.

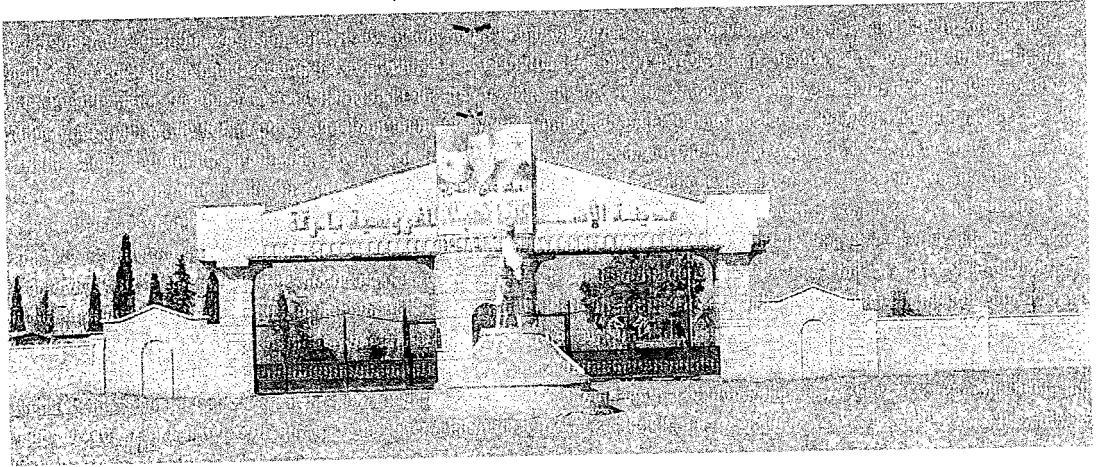
³- Northedge.A, *Entre Amman et Samarra*, p.85.

⁴- انظر خريطة القصور العباسية ص 67.

8 تخطيط ميدان السباق



48 صورة: نادي الفروسية الذي أقيم فوق ميدان الرشيد



نستنتج أن الرشيد لم يعتن فقط ببناء القصور في الرقة بل اهتم كذلك بإنشاء كل ما يلزم من وسائل الترف والراحة والتسلية كميدان سباق الخيل، هذا ما أشارت إليه المصادر وما بدا اضحا من خلال الصور الجوية الملتقطة لمنطقة القصور العباسية، فاكسبت الرقة بذلك كل ما يلزم من شروط المدينة الملكية. ولو أن نورثادج يشير إلى انعدام عنصر هام في مدينة الرقة، يتمثل ملاعب الصولجان، العنصر البارز في سامراء، كما أشار كذلك إلى اختلاف ميدان سباق الخيل في الرقة عن ميادين سامراء.¹ لكن رغم ذلك فإن ميدان سباق الخيل قد ظهر لأول مرة في العالم الإسلامي في الرقة وقبل سامراء.

¹ - Northedge.A, *Ibidem*, p.85.

بناء على ما سبق يمكن أن نسوق الاستنتاجات التالية:

- أصبحت الرقة انطلاقا من سنة 180 هـ / 796 م " دار الملك العباسي " ¹ وقد كان الرشيد يقيم خلال هذه الفترة في مدينة الرافقة، ثم بنى بعد ذلك قصور الرقة في المساحة الواقعة إلى الشمال من أسوار مدينة الرافقة. ويبدو أنه قد احتفظ في البداية بالرافقة كمدينة رسمية إدارية يحكم فيها بين الناس، في حين اتخذ سكنه وسكن نسائه والقائمين على خدمته في قصور خاصة خارج أسوار الرافقة، مثلما تدل على ذلك النقود التي عثر عليها في القصر الشرقي، والذي يعرف كذلك بقصر هارون الرشيد، وقبل أن يبني قصور الرقة الضخمة التي سيجتمع فيها بين إقامته وبين حكمه كما هو الشأن بالنسبة للقصر " ب " و " ج "، ولم يكتف الرشيد بذلك بل أقام في الرقة ميادين سباق الخيل، مما أكسب الرقة صفة " المدينة الملكية "، التي كثيرا ما سعى إليها الخليفة المنصور.

- ثانيا: لا حظنا من خلال دراستنا لمخططات قصور الرقة (بالتحديد القصر ب و ج) أن هذه القصور تتميز بخصائص معمارية تكاد تكون ثابتة رغم الاختلاف بينها على مستوى التنظيم، فقد شيدت على شكل مستدير من اللبن والآجر ومكسو بملاط أبيض حصي، ويحيط بها جدار خارجي معزز بأبراج نصف مستديرة، كما تتألف من ثلاثة أقسام رئيسية: قسم للشؤون العامة يشتمل على ساحة شاسعة في الشمال وقسم للاستقبال في الجنوب، ويتصل المدخل الرئيسي للقصر بهذا القسم، وقسم ثان للشؤون الخاصة يشتمل على مجموعة من الدور تمثل جناح الحرم، بالإضافة إلى قسم الخدمات وقاعة للضيافة، وعادة ما يرتبط بهذا القسم باب آخر ثانوي. أما القسم الثالث فيتمثل في الحدائق.

كما تميزت تلك القصور بخاصية عامة وهامة وهي الفصل بين قسمي الشؤون العامة والخاصة عن طريق ممر وضع لهذه الغاية، وكذلك ظهور الحرم كقسم مستقل بذاته لأول مرة في تاريخ العمارة الإسلامية والذي تمثل في مجموعة من الدور قوام كل دار منها ساحة تحيط بها مجموعة من الغرف. فبدت تلك القصور وكأنها "متصلة ومنفصلة" في نفس الوقت.

- ثالثا رغم عدم التعرف على أسماء بناء تلك القصور، فإن النقود التي عثر عليها في تلك القصور، والتي تحمل اسم الخليفة هارون الرشيد والمحفوظة اليوم في متحف الرقة الدولي، بالإضافة إلى مواد البناء المتمثلة أساسا في اللبن والآجر علاوة على الأطر الزخرفية الجصية التي كانت تزين أبواب ومداخل تلك القصور والمستمدة أساسا من ورقة الكرمة وعنقود العنب، هذا فضلا عما ورد في المصادر من إشارات تدل على استقرار الرشيد في الرقة وبنائه القصور بها. كل هذا يجعلنا نرجح أن قصورنا تعود كلها إلى عصر هارون الرشيد. أما الخليفة المأمون فلم يستقر في الرقة إلا في السنة الأخيرة من خلافته وهي سنة 218 هـ / 833 م، ثم لم يلبث أن توفي على إثرها، وتلك المدة غير كافية لإقامة القصور.

¹ - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 2، ص 99.

- رابعا عبرت عمارة القصور العباسية في الرقة عن " ملكية الرشيد " والتي تقوم على مبدأ السيادة الكونية مثلما يشير إلى ذلك سور هرقله وموقع البناء المركزي منه، وتعتمد مبدأ الازدواجية أو الثنائية وذلك من خلال الفصل بين ما هو عام وما هو خاص، وبين ما هو رجل وما هو امرأة، وترتكز على أربع ركائز تتغير بتغير الظروف والأحوال، ولعل اختيار الرشيد كـي يكون في قصوره أربعة دور وفي هرقله أربعة أبواب فضلا عن أربعة أو اثنين فلأنه يرى أن الدنيا أربعة منازل: دمشق، والرقة، والري، وسمرقند.¹ كما عبرت عمارة الرقة لاسيما هرقله عن نهاية حكم الرشيد وسقوط ملكه في الرقة وهو ما حصل مع انتقال دار الخلافة إلى سامراء.

فقد استمرت الرقة مقرا للبلاد العباسي، حتى سنة 193 هـ / 809 م تاريخ وفاة الرشيد. ثم لما تولى ابنه الأمين عادت الخلافة من جديد إلى بغداد، وتذكر المصادر أن أم جعفر شخصت من الرقة بجميع ما كان معها هناك من الخزائن والجواهر والسلاح والآنية....² وقد كان الأمين يقيم في قصر الخلد عندما كان وليا للعهد، فلما أتمته الخلافة تحول إلى " قصر الذهب".³

أما الخليفة المأمون فقد أقام مدة في مرو ربما في قصر الإمارة الذي أسسه أبو مسلم الخراساني هناك والذي اقتدى به أبو جعفر المنصور في تأسيسه لقصر الذهب، ثم عاد إلى بغداد وأقام في قصره الذي على شاطئ دجلة،⁴ ولا نجد في المصادر أي وصف لهذا القصر كذلك لم يبق له أي أثر مادي. وفي السنة الأخيرة من خلافته استقر المأمون في الرقة وتذكر المصادر أنه أمر بتفريغ مدينة الرافقة ليرتلها حشمه فلما ضج أهلها عدل عن ذلك وأقام بالرقة وعين إسحاق بن إبراهيم صاحب الشرطة كي ينوبه على بغداد وكان يأمره بامتحان العلماء حول القول بخلق القرآن وتدوين إجاباتهم وإرسالها إليه إلى الرقة، ومن الرقة كان يباشر ولاية الأقاليم.⁵ ثم لم يلبث أن توفي واستخلف المعتصم فأقام مدة في بغداد في قصره الذي على شاطئ دجلة،⁶ ثم فكر بعد ذلك في إنشاء مدينة جديدة تنتقل إليها الخلافة العباسية فأسس سامراء التي تعد أعظم مدينة ملكية عرفها العالم الإسلامي.

¹ ابن شذاد، الأعلام الخطيرة، دمشق 1956، ص 308.

² الطبري، تاريخ، ص 1715؛ الأزدي، تاريخ الموصل، ص 318.

³ الطبري، نفس المصدر، ص 1712.

⁴ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 98.

⁵ الأزدي، نفس المصدر، ص 218.

⁶ الخطيب نفس المصدر، تاريخ بغداد، ج 1، ص 98؛ عمارة (أسماء)، البلاط العباسي، ص 47-48.

الفصل الثالث: دار الخلافة في سامراء

أسست مدينة سامراء سنة 221هـ / 836م على يد الخليفة المعتصم بالله كي تكون مقرا للبلاط العباسي بدلا من بغداد، ثم قام ابنه الخليفة الواثق بزيادة توسيعها ووصلت إلى أوجها في عهد الخليفة المتوكل على الله. وقد تداول على الحكم فيها ثمانية خلفاء من عهد الخليفة المعتصم بالله إلى عهد الخليفة المعتمد، الذي أعاد مقر الخلافة من جديد إلى بغداد.

وتكاد تجمع كل المصادر تقريبا على أن العامل الرئيسي لتأسيس سامراء هو معاملة الجند الأتراك السيئة لأهل بغداد حيث كان المعتصم قد أكثر من شراء هؤلاء الجند منذ خلافة أخيه المأمون، وقد أثار هؤلاء الشغب في بغداد مما أثار غضب أهلها وخشي المعتصم قيام ثورة عارمة ضده وضد هؤلاء الأتراك، فعزم على الخروج من بغداد وقام بعدة محاولات لاختيار موقع لمدينته الجديدة حتى استقر رأيه في النهاية على موضع "سامراء".¹ ومما يجدر ذكره في هذا الصدد هو أن المعتصم قبل أن ينتهي إلى موضع سامراء فكّر في إنشاء مدينته الجديدة في منطقة القاطول.

I القادسية

ذكر البلاذري أن المعتصم نزل مدينة السلام ثم شخص عنها إلى القاطول، فترل قصرا كان الرشيد قد ابتناه حين حفر قاطوله الذي دعاه أبا الجند، ثم بنى بالقاطول بناء نزله ثم دفع ذلك البناء إلى أشناس التركي مولاه.² وذكر اليعقوبي أن المعتصم لما خرج يبحث عن موضع يقيم عليه مدينته "مدّ إلى القاطول فقال هذا أصلح المواضع، فصير النهر المعروف بالقاطول وسط المدينة ويكون البناء على دجلة وعلى القاطول، فابتدأ البناء وأقطع القواد والكتاب والناس فبنوا حتى ارتفع البناء واختطت الأسواق على القاطول وعلى دجلة وسكن هو في بعض ما بني له وسكن بعض الناس أيضا..."³.

أما ياقوت الحموي فيذكر أن الرشيد حفر نورا عند سامراء سماه القاطول وأبي الجند وبني عنده قصرا ثم بني المعتصم أيضا هناك قصر ووهبه لمولاه أشناس فلما ضاقت بغداد عن عساكره وأراد استحداث مدينة كان هذا الموضع على خاطره فحاذاه وبني عنده سامراء.⁴

يبدو إذن من روايتي البلاذري وياقوت أن الرشيد كان أول من حفر نهر القاطول وبني عليه قصرا سماه أبا الجند، وقد نزله كذلك المعتصم قبل أن ينتقل إلى سامراء .

1- اليعقوبي، البلدان، ص 22؛ الطبري، تاريخ، ص 1836؛ الأزدي، تاريخ الموصل، ص 416.

2- البلاذري، فتوح البلدان، ص 297.

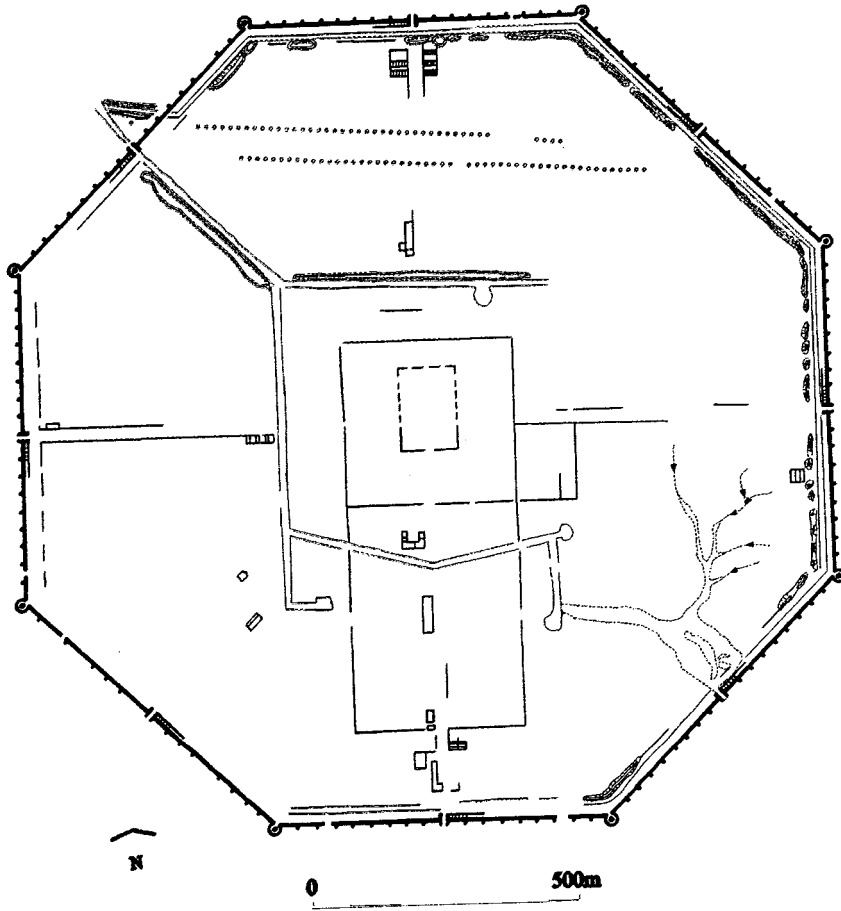
3- اليعقوبي، نفس المصدر، ص 23.

4- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 16.

لكن يذكر الطبري أن الرشيد لم يشيّد في هذا الموضع قصراً فحسب وإنما بنى مدينة، فقد روى رواية منسوبة إلى مسرور الخادم مفادها " سألني المعتصم أين كان الرشيد يتّره إذا ضجر من المقام ببغداد، قال قلت له بالقاطول، وقد بنى هناك مدينة آثارها وسورها قائم.... فلما وثب أهل الشام بالشام وعصوا خرج الرشيد إلى الرقة، فأقام بها، وبقيت مدينة القاطول لم تستم".¹ فأين تقع هذه المدينة التي شرع الرشيد في بنائها ولم يتمها وأين موقع قصر المعتصم منها؟

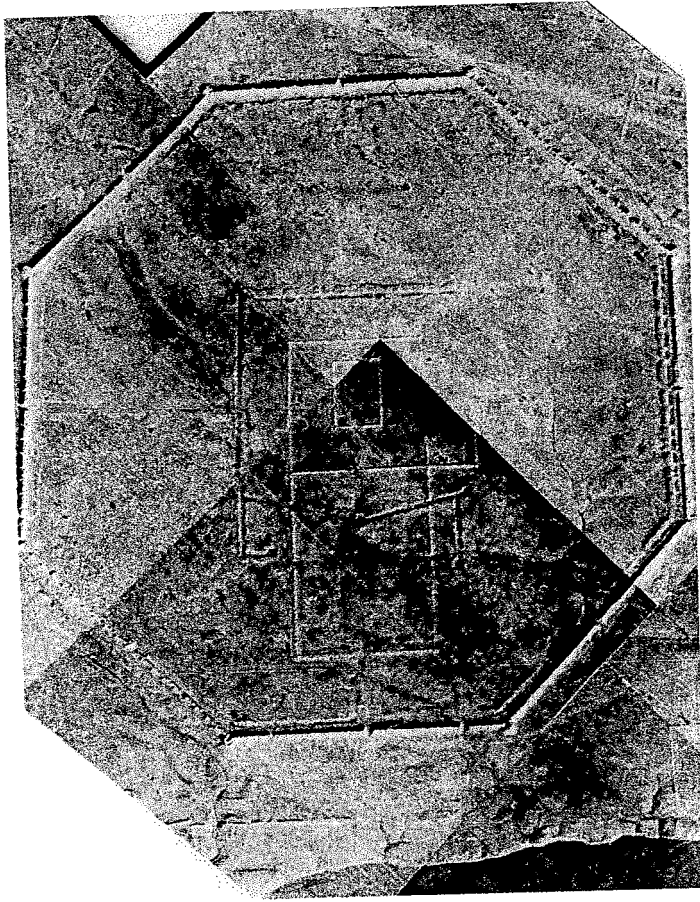
لقد اختلفت الدراسات الحديثة في تحديد إذا ما كان بناء القادسية، يمثل قصر أو مدينة الرشيد التي أشارت المصادر بأنه شرع في تشييدها ولكنه لم يتمها على القاطول، كما اختلفت كذلك في نسبة هذا البناء إلى الرشيد أم المعتصم؟

9 تخطيط حصن القادسية.²



¹ - الطبري، تاريخ، ص 1836.

² - Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, p.88.



فقد ذهب هرتزفلد في البداية إلى اعتبار أن البناء المثلث الكبير، والمقصود به سور القادسية هو المدينة التي أقامها الرشيد على القاطول، إلا أنه عدل عن ذلك فيما بعد واعتبر أن هذه البناية غير الكاملة هي من منشآت المعتصم المهجورة، فهو يرى أن قاطول أبي الجند قد نخر كليا.²

أما أحمد سوسة فهو يرى أن القصر الذي أنشأه الرشيد على القاطول والمدينة التي شرع في إنشائها هناك ولم تتم يقعان في المكان المعروف باسم "المشراحات" الواقع شمال شرقي سور القادسية على الضفة الشرقية لمجرى نهر القائم، ذلك أن المؤرخين عينوا موضع القصر أو المدينة على القاطول أو نهر أبي الجند المسمى حالياً نهر القائم ولا توجد أطلال على مجرى القائم في الموضع المشار إليه يصح أن تمثل بقايا قصر مهم كالقصر المذكور غير "أطلال المشراحات".³

¹ - Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, plate 23.

² - اطلعت على رأي هرتزفلد حول حصن القادسية لدى كل من: سوسة (أحمد)، ري سامراء في عهد الخلافة العباسية، بغداد 1948، ص 261؛ و

- Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, p.81.

³ - سوسة (أحمد)، ري سامراء، ص 240.

كما يَبين أنه في المنطقة التي حول سور القادسية بقايا مبان كثيرة تمتد على أطراف السور المذكور من الغرب والشرق والجنوب بين مجرى القائم ومجرى الصنم ومن أهمها بقايا القصر الذي يقع في الجهة الجنوبية الشرقية من السور على الضفة الشرقية لنهر الصنم وهي الأطلال المسماة بـ "الأصبيعين" وهو يرى أن أطلال هذا القصر من بقايا القصر الذي بناه المعتصم في هذه المنطقة قبل أن ينتهي إلى سامراء.¹ أما حصن القادسية فهو يرى أنه من عمل الأكاسرة.²

لكن عكس ذلك فقد أكد نورثدج انتساب حصن القادسية إلى العهود الإسلامية الأولى وبالتحديد إلى عهد الخليفة الرشيد، ودليله على ذلك هو أن المحاور الأساسية للحصن موجهة نحو القبلة.³ وقد افترض أن البناء المستطيل الذي يقع داخل المساحة المربعة وسط الحصن يمثل المسجد الجامع وقد قَدّرت مقياسه بـ 104x156 م وهي تقريبا تساوي مقياس صحن مسجد أبي دولا في سامراء التي تبلغ (103.9x155.8م)، أما المستطيل الشاسع الذي يقع على الطرف الجنوبي للمربع المركزي فقد افترض أنه يمثل القصر، وقد شيد خلف جدار قبلة المسجد دون أن يكون ملاصقا له.⁴

وقد اعتبر أن هذا التنظيم المتمثل في بناء المسجد الجامع وإلى جانبه القصر يعدّ امتدادا لما هو معمول به في تشييد المدن الإسلامية الأولى مثل الكوفة والبصرة وبغداد، لكن الجديد هو أن القصر لم يكن ملاصقا للمسجد، لذلك فهو يرى أن هذا البناء يمثل مرحلة وسط بين ما هو معمول به من قبل في تخطيط المدن الإسلامية وبين ما سيتبع فيما بعد في سامراء حيث سيقع فصل المسجد الجامع كلياً عن القصر.⁵ وتوجد ثلاثة طرق رئيسية تؤدي إلى الرحبة الكبرى أين يوجد المسجد الجامع الذي شيد عند نقطة التقاء المحاور الأساسية، وذلك عكس ما هو معمول به في مدينة الرافقة وبغداد حيث شيد القصر عند نقطة التقاء المحاور الأساسية للمدينة.⁶

وقد شيد حصن القادسية على شكل مثنى من اللبن يتراوح طول كل ضلع من أضلاعه بين 612 و 623 م، كما تتراوح المسافة الفاصلة بين أضلاعه الثمانية من 1467 إلى 1508 م.⁷ ومحاط بجدار واحد معزز بأبراج نصف دائرية (18 دعامة)، وقد قَدّرت المسافة الفاصلة بين كل دعامة وأخرى بـ 29.5 م، وقدّر سمك السور بنحو 4 م وارتفاعه بحوالي 5 م، كما أشار أحمد سوسة إلى وجود نهر يخترق السور في الضلع الشمالية

¹ - سوسة (أحمد)، نفس المرجع، ص 249.

² - سوسة (أحمد)، نفس المرجع، ص 257.

³ - Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, p.89.

⁴ - انظر تخطيط الحصن.

⁵ - Northedge.A, *Ibid*, p.89- 90.

⁶ - Northedge . A, *Entre Amman et Samarra*, p. 83.

⁷ - Northedge. A, *The Historical Topography of Samarra*, p.82.

الغربية، وخندق يدور بمحاذاة أضلاع السور ويأخذ ماءه من النهر نفسه لا تزال آثاره ظاهرة.¹ وقد أشار كذلك إلى وجود أبنية طينية داخل الحصن افترض أنها أنشئت لسكنى قواد الجيش وعائلاتهم.² وبالتالي فلا داعي لنسب سور القادسية لليهود الساسانية مثلما ذهب إلى ذلك أحمد سوسة، وإنما إلى عهد الخليفة الرشيد مثلما أكد ذلك نورثادج، ولا بد أن بغداد المدورة كانت المثال الحي الذي اقتدى به الرشيد في تصميم سور القادسية، إذ يحيط به خندق كما هو الشأن بالنسبة لسور بغداد ومعزز بأبراج نصف مستديرة، كما يحتل القصر مركز المثلث كما هو الشأن بالنسبة لقصر الذهب الذي يحتل مركز الدائرة في المدينة المدورة، كما تذكرنا الأبنية الطينية داخل الحصن والتي افترض أحمد سوسة بأنها أنشئت لقواد الجيش، بسكك مدينة بغداد والتي كان يسكنها قواد الخليفة ومواليه.

ومن هنا نتبين مثلما أشار إلى ذلك نورثادج كيف تم استغلال تخطيط مدينة بغداد لغايتين مختلفتين الأولى كمقر للخليفة والثانية كمعسكر للجيش.³ وبالتالي فإن حصن القادسية هو نموذج آخر يمكن أن يعوضنا عن بغداد المندثرة.

وقد استغل الرشيد هذه المعطيات من جديد في تشييده لحصن هرقله وأهمها اختياره للشكل المثلث الذي لاحظناه في البوابة الشرقية، والبناء المربع الذي يحتل مركز الدائرة، فالمهم ليس التدوير أو التوزيع أو التثمين ولكن المهم هو محل الخليفة من الدائرة أو المثلث أو المربع، إذ أن هذا الأخير يوجد في المركز وهناك فضاء خال حوله فاصل بينه وبين البقية يعبر عن التميز عن الآخرين الذين يوجدون على نفس المسافة منه والذي لا يتحقق إلا مع الشكل المدور أو المربع أو المثلث.

وبالتالي يضاف سور القادسية إلى سور هرقله والرافقة كي يشهد على تحصين المدن خلال العصر العباسي الأول، ذلك أن اختيار الشكل المثلث أو المستدير أو المربع ما هو إلا شكلا من أشكال التنويع لأن الغاية تبقى واحدة وهي التعبير عن سيادة الخليفة للكون.

ويؤيد نورثادج ما ذهب إليه أحمد سوسة من أن بناء "الأصبيين"، يمثل بقايا قصر المعتصم الذي أنشأه إلى جوار حصن القادسية، وقد استند في ذلك إلى رواية يعقوبي وإلى الآثار المتبقية في المنطقة والتي تبرز وجود شارع يمتد على نهر القيم وآخر على نهر دجلة، ويوجد بينهما بقايا جدار وبنائات صغيرة، كما تم العثور على قطع خزفية شبيهة بتلك الموجودة في سامراء، وكذلك على بناء صغير على نهر دجلة يحمل رقم (P 16) على الخريطة،⁴ وهو بناء "الأصبيين"، يحتوي على قاعة مقبية وأربعة أواوين تفتح مباشرة على الخارج، وهو النموذج الذي سيصبح أكثر تداولاً في سامراء. ويرجح نورثادج أن هذا القصر هو قصر المعتصم، وذلك

¹ - سوسة (أحمد)، ري سامراء، ص 240.

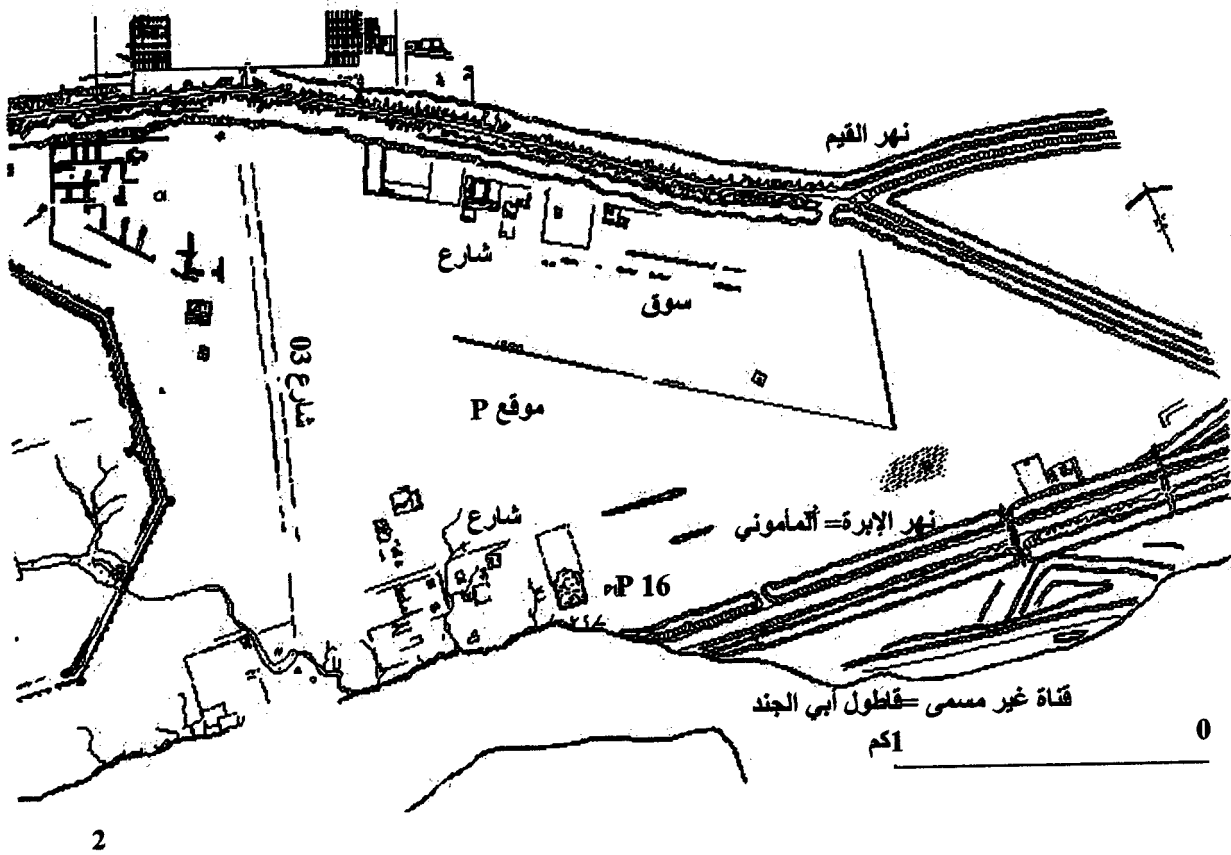
² - سوسة (أحمد)، نفس المرجع، ص 265.

³ - Northedge . A, *Entre Amman et Samarra*, p. 83 - 84.

⁴ - انظر الخريطة في الصفحة الموالية.

استنادا إلى رواية اليعقوبي التي يذكر فيها أن المعتصم صيّر البناء على دجلة وعلى القاطول وهو ما ينطبق على هذا القصر، والذي منحه فيما بعد إلى الإفشين.¹
وبالتالي نستنتج أن حصن القادسية هو من أبنية الرشيد وأن بناء "الأصيعين" هو من منشآت المعتصم التي على القاطول. رمز إلى قصر المعتصم على الخريطة بـ (P 16).

خريطة 4 تحدد موضع قصر هارون الرشيد والمعتصم في القادسية.



وخلاصة القول أن المعتصم لم يلبث مدة طويلة في القاطول وقرّر الارتحال حتى أتى موضع مدينة "سامراء" فاستقر فيه وأسس دار الخلافة العباسية.

¹ - Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, p.93 - 94.

² - Northedge.A, *Ibid*, fig 33.

1- تخطيط المدينة

تقع مدينة سامراء على الضفة الشرقية لنهر دجلة، في منتصف الطريق بين المدخل الشمالي والجنوبي للقاطول.¹ وعن سبب اختيار المعتصم لهذا الموضع تشير الدراسات الحديثة إلى أهمية المنطقة من الناحية الإستراتيجية والعسكرية.² لكن يبدو أن العامل الأساسي كان يتمثل في ثراء المنطقة من ناحية الصيد، وأن المعتصم كان يبحث عن موضع كان قد زاره في إطار رحلة صيد صحبة والده الرشيد، ونحن لا نستبعد اعتماد المعتصم في اختيار هذا الموضع على التنبؤ مثلما يشير إلى ذلك اليعقوبي.³

كذلك نفهم سؤال المعتصم لمسرور الخادم أين كان يتزهر الرشيد إذا ضجر المقام ببغداد؟ فلما أجابه بالقاطول سار إليه،⁴ فوجد أن أرضه لا تصلح للصيد فقرّر التخلي عن الإقامة فيه، وارتحل حتى أتى موضع سامراء، "فأقام في الموضع ثلاثة أيام يتصيد في كل يوم فوجد نفسه تتوق إلى الغذاء وتطلب الزيادة على العادة الجارية فعلم ذلك لتأثير الهواء والتربة والماء فلما استطاب الموضع دعا بأهل الدير واشترى منهم أرضهم بأربعة آلاف دينار".⁵ وبالتالي فإن اختيار المعتصم لموضع سامراء كان في إطار رحلة صيد وكان استجابة لأغراض شخصية تتمثل في ولع المعتصم بالصيد وتعاطيه لهذا النشاط، وهذا ما أكدته الدراسات الأثرية التي بيّنت ثراء المنطقة من ناحية الصيد وأنها كانت ذات تقاليد عريقة في الصيد إذ تم العثور فيها على احتياطي للصيد يرجع إلى العهد الساساني.⁶ ويبدو من خلال ما أورده كل من اليعقوبي والمسعودي، بأن العمل في سامراء بدأ سنة 221هـ/ 836 م.⁷ ومرت مدينة سامراء بمرحلتين في تأسيسها:

— المرحلة الأولى وتمثل في الانجازات العمرانية التي قام بها كل من المعتصم والواثق.

— المرحلة الثانية وتمثل في التوسيعات التي أضافها المتوكل.

استهدف المعتصم من بناء سامراء، أن تكون مركزاً له ولجندته والمتصلين به، وأن تتوفر فيها كل الأحوال التي تمكنها من أن تصبح مركزاً حضرياً متسعاً، وهو ما سعى إليه المنصور من قبله عند تأسيسه لمدينة بغداد. وقد جاء تخطيط المدينة شبه مستطيل، ويبدو أن طبيعة الموقع المختار قد تحكمت في تحديد شكلها. وقد شيدت أغلب البناءات على الضفة الشرقية لدجلة.

¹ - Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, p.97.

² - سوسة (أحمد)، ريّ سامراء، ص 54-55-56.

³ - اليعقوبي، البلدان، ص 23.

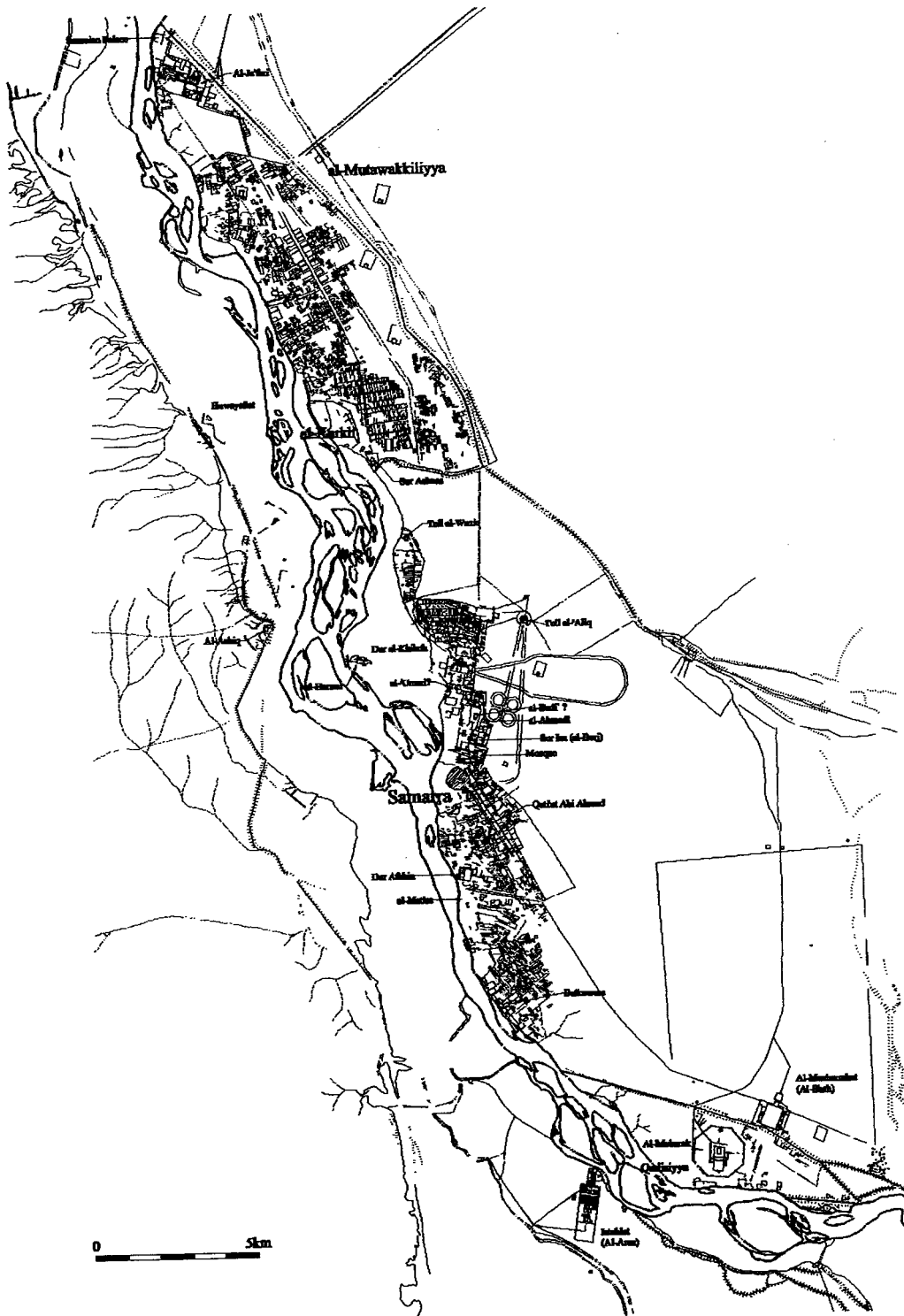
⁴ - الطبري، تاريخ، ص 1836.

⁵ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 54.

⁶ - Northedge.A, *Ibid*, p98.

⁷ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 23؛ المسعودي، نفس المصدر، ج 4، ص 55؛ العميد (طاهر مظفر)، العمارة العباسية في سامراء، بغداد 1987، ص 51.

5 خريطة سامراء.¹



¹ - Northedge. A, *Entre Amman et Samarra*, fig. 39.

لقد ذكر اليعقوبي الذي قدّم لنا أوسع المعلومات عن بناء سامراء، أن المعتصم بعد أن استقر رأيه على اختيار موقع سامراء واشترى الأرض من مالكيها، احضر المهندسين وقال لهم " اختاروا أصلح هذه المواضع، فاختاروا عدة مواضع للقصور، وصير إلى كل رجل من أصحابه بناء قصر، فصير إلى خاقان عرطوج أبي الفتح بن خاقان بناء الجوسق الخاقاني وإلى عمر بن فرج بناء القصر المعروف بالعمرى، وإلى أبي الوزير بناء القصر المعروف بالوزيرى".¹

طبقا لهذا الوصف الذي قدّمه اليعقوبي يظهر أن المعتصم قام باختطاط قصور الخلافة قبل المسجد الجامع، وهذا التصميم هو استمرار لتخطيط مدينة بغداد، فالمكان الأفضل خصص لقصور الخلافة، لكن عكس ما هو معمول به في تأسيس المدن الإسلامية الأولى مثل الكوفة البصرة حيث يقع اختطاط المسجد الجامع أولا وإلى جانبه القصر.

بعد ذلك خطّ المعتصم " القطائع للقواد والكتاب والناس واختط الأسواق حول المسجد الجامع".² وبذلك يكون المعتصم قد استفاد من تجربة المنصور وذلك بجعله الأسواق بعيدا عن قصر الخليفة، حيث كانت الأسواق في بغداد قد بنيت في الأصل داخل المدينة المدورة ثم لم تمض سنتان وأمر المنصور بتحويلها خارج أسوار المدينة. نلاحظ إذن أن تخطيط سامراء، هو استمرار متطور لتخطيط بغداد، فالمكان الأفضل خصص للقصر، يليه المسجد الجامع ثم الأسواق التي تحيط بالمسجد.

لكن ما يميّز مدينة سامراء عن بغداد، هو وضع المسجد الجامع بعيدا عن القصر، والذي عدّه بعض الباحثين تجديدا في تخطيط المدن الإسلامية،³ لكن كنا قد بينّا أن فصل المسجد عن القصر، قد ابتدأ في القادسية عندما أسس الرشيد قصر المبارك وجعله مفصّولا عن المسجد لكن دون أن يقع إقصاء المسجد عن المركز، أما في سامراء فإن المسجد الجامع جعل منذ البداية بعيدا عن القصر، ويمكن تفسير ذلك بحرص المعتصم على تجنب اقتراب العامة من قصر الخليفة عند قدومهم لأداء صلاة الجمعة في الجامع، وقد استفاد في ذلك من تجربة المنصور، الذي اضطره دخول العامة إلى المدينة المدورة لأداء صلاة الجمعة إلى تركها والتحول إلى قصر الخلد. وقد أكّد نورثادج عدم وجود أي جدار يحيط بالقصر أو بالمسجد.⁴

ولم يبق من مسجد المعتصم اليوم أي أثر، فقد اندثر تحت أنقاض المدينة الحديثة،⁵ أما دار الخلافة فلا تزال بعض آثارها قائمة إلى اليوم وهي تعدّ من أهم المعالم الأساسية التي تعود إلى عهد الخليفة المعتصم.

¹ - اليعقوبي، البلدان، ص 24.

² - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 24.

³ - العميد (ظاهر مظفر)، نفس المرجع، ص 72.

⁴ - NORTHEDGE.A, *op.cit*, p.121.

⁵ - NORTHEDGE.A, *The Historical Topography of Samarra*, p.122.

2- دار الخليفة أو قصر الخليفة المعتصم في سامراء

احتلت دار الخلافة قلب المدينة وهي تنقسم إلى وحدتين أساسيتين: دار العامة وهي التي يجلس فيها الخليفة يوم الاثنين،¹ والجوسق الخاقاني وهو قصر الخليفة الخاص.²

شُيّد قصر الخليفة المعتصم سنة 221هـ/ 836 م، عند تأسيسه لمدينة سامراء، وتعدّ آثاره اليوم من أهم بقايا العمارة المدنية في مدينة سامراء. ولا بدّ من الإشارة إلى أهمية هذا القصر، كقصر ملكي حقيقي لا وجود لمثيل له اليوم سوى بعض الآثار المتبقية في مدينة روما وبيزنطة وطيسفون.³

وقد لفت هذا القصر انتباه الباحثين وعلماء الآثار الأجانب منذ منتصف القرن 19، غير أن التنقيب فيه لم يبدأ إلاّ في السنوات العشرة الأولى من القرن العشرين، عندما قام الفرنسي فيولي، ببعض التحريات والتنقيبات الاستكشافية فيه لفترات متقطعة بين 1907 و 1911 ووضع رسماً تخيلياً للقصر.⁴

بعد ذلك قامت البعثة الألمانية برئاسة هرتزفولد بين 1911 و 1913. بمواصلة التنقيب في هذا القصر، وتمكنت من الكشف عن مساحة قدرت بـ 18000 م² ومن وضع رسم تخطيطي للقصر ونشرت نتائج أعمالها في سامراء في مقالات ومجلّدات عديدة.⁵ ولم تول دائرة الآثار العراقية اهتماماً بآثار هذا القصر إلاّ في الستينات من القرن العشرين حيث قامت بترميم "باب العامة"، ولم تستأنف عملها إلاّ في 1981 وذلك في إطار مشروع "إحياء مدينة سامراء والمتوكلية الأثريتين"، حيث تمّ ترميم السرداب الصغير سنة 1983 والكشف عن السرداب الكبير وإعادة ترميمه بين 1986 و 1990.⁶

ومن أحدث من اعتنى بدراسة قصر الخليفة المعتصم في سامراء الأثري الانكليزي نورثادج، وقد اعتمد في دراسته على تخطيط هرتزفولد وعلى ما ورد في المصادر من إشارات حول هذا القصر، وقد أصدر نتائج أعماله في عدد من المقالات التي نشرها باللغتين الإنكليزية والفرنسية.⁷

أما المصادر التاريخية فقد اكتفت فقط بالإشارة إلى هذا القصر وذكر الأحداث التاريخية المتعلقة به، دون التعرض إلى وصف هذا القصر بشكل مفصل وواضح، وقد أدّى ذلك إلى خلط بين الأثرين العرب والمستشرقين حول تسمية هذا القصر.

¹ - اليعقوبي، البلدان، ص 26.

² - Northedge . A, *Entre Amman et Samarra*, p. 92.

³ - Northedge.A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim à Samarra », dans *Textes Arabes et Etudes Islamiques*, Institut Français d'archéologie Orientale, le Caire 1998, p.149.

⁴ - العميد (طاهر مظفر)، نفس المرجع، ص 79.

⁵ - Northedge.A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim », *Ibid*, p.150.

⁶ - Northedge.A, *Ibid*, p.151.

⁷ - Northedge. A, « An interpretation of the palace of the caliph at Samarra (Dar al- khilafa or Jawsaq al- Khaqani », in *Ars Orientalis*, 1993, pp. 143- 170; Northedge. A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim », *Ibid*, p.149- 179; Northedge. A, "The Palaces of the Abbasids at Samarra", in *A Medieval Islamic City Reconsidered, An Interdisciplinary Approach to Samarra*, Oxford 2001, pp. 29- 67.

ففي فترة ما قبل القرن العشرين كان يعرف باسم " بيت الخليفة "، وقد تواصلت نفس هذه التسمية في العراق إلى حدّ اليوم، إذ يعرف باسم " قصر الخليفة "، أما هرتزفلد فقد أطلق على هذا القصر في تقريره الأولي الذي أعده عام 1914 اسم " الجوسق الخاقاني " ¹. ونفس هذه التسمية أطلقها عليه كل من كريزوال وسوردال وطاهر مظفر العميد ².

والجوسق الخاقاني هو أحد قصور " دار الخلافة " في سامراء، إلى جانب دار العامة، وهو ما أشار إليه أحمد سوسه ³، وما أكدّه نورثادج الذي توصل من خلال مقارنة التخطيط الذي وضعه هرتزفلد لهذا القصر، مع ما ورد في المصادر من إشارات إلى أن " الجوسق الخاقاني " و " دار العامة " لا يمثلان قصرًا واحدًا وإنما ينتميان إلى نفس المركب، الذي أطلق عليه اسم " دار الخلافة "، وهي التسمية التي ستصبح أكثر تواترًا، إثر عودة دار الخلافة من جديد إلى بغداد، وبروز مركب " دار الخلافة " الذي سيضم مجموعة من القصور ⁴. وهو ما حاولنا التأكيد عليه بدورنا، من خلال مزيد البحث عن الدور الوظيفي لكلا القصرين: أي الجوسق الخاقاني ودار العامة، في المصادر ومقارنتهما مع قصور الرقة. فماهي إذن أهم الأقسام العمرانية لدار الخلافة العباسية في سامراء وما مدى تماثلها مع قصور بغداد والرقة؟.

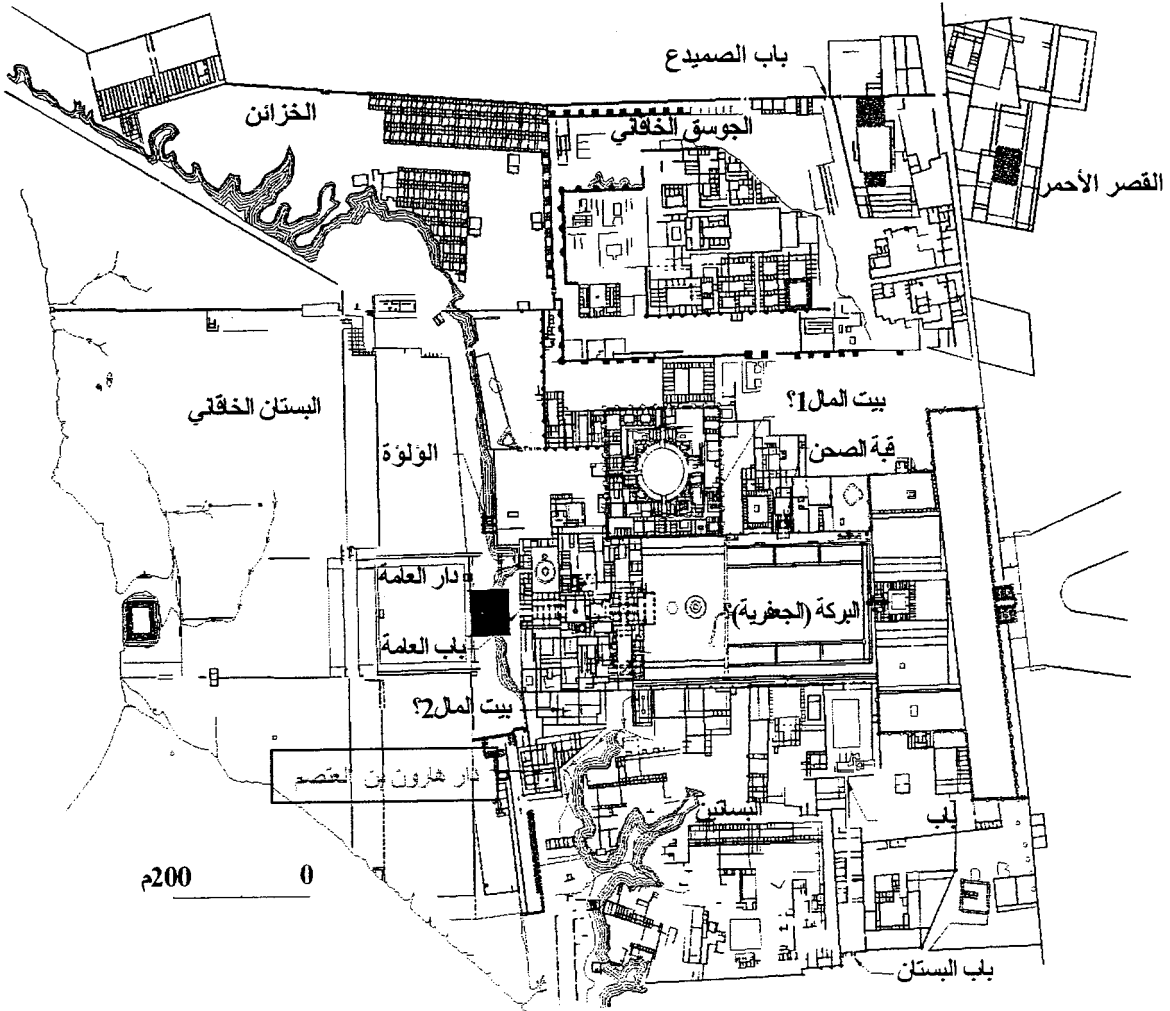
¹ - Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, p.135.

² - Creswell. K.A.C, *Early Muslim Architecture*, v II, p. 232; Sourdel. D, *La civilisation de l'Islam classique*, p. 311; Sourdel. D, " Questions de cérémonial abbasside", *R.E.I*, t 28, 1960, p. 126- 127 ;

- العميد (طاهر مظفر)، *العمارة العباسية في سامراء*، ص 79.

³ - سوسه (أحمد)، *ري سامراء*، ص 74.

⁴ - Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, p.139- 140.



1

تنقسم دار الخلافة في سامراء إلى وحدتين رئيسيتين: الأولى تقع في الجهة الجنوبية وتتألف من بناء مربع الشكل (180×200م)، يشتمل على "باب العامة"، "قاعة العرش"، "الحرم" وساحة شرفية كبرى تقع في الجهة الشرقية.² وهي دار العامة التي يجلس فيها الخليفة يومي الاثنين والخميس،³ وتعرف في المصادر بدار العامة ودار الخليفة ودار السلطان.⁴ أما الوحدة الثانية فتقع في الشمال وتتألف من ساحة مسورة مستطيلة الشكل، تحتوي على بناء مربع يشتمل على مجموعة من القاعات أعدت للاستقبال، ويستند إلى بناء آخر مربع الشكل يشتمل

على مجموعة من الدور.⁵

¹ -Northedge. A, *Entre Amman et Samarra*, fig. 40.

² -Northedge.A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim », *Op.Cit*, p.151.

³ - اليعقوبي، البلدان، ص 26؛ الطبري، تاريخ، ص 1851.

⁴ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 22- 26.

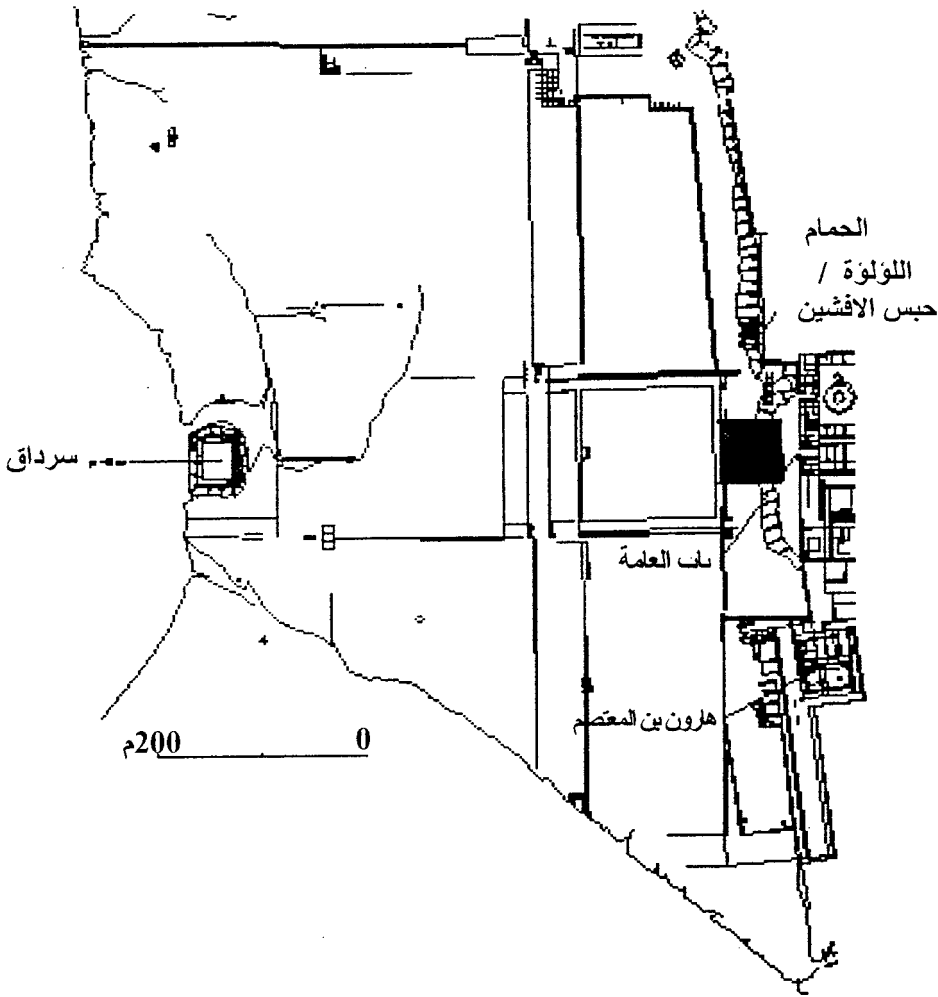
⁵ - Northedge.A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim », *op.cit*, p.151.

و تمثل هذه الوحدة الثانية مقر الخليفة الخاص " الجوسق الخاقاني " ويعرف في المصادر كذلك بدار أمير المؤمنين ودار المعتصم.¹ وبالإضافة إلى هاتين الوحدتين تشتمل دار الخلافة في سامراء على حديقتين، واحدة في الجهة الغربية وأخرى في الجهة الجنوبية، وسردابين (سرداب صغير وسرداب كبير) وملعب صولجان، وحلبة سباق وثكنة للجيش.² وبالتالي يمكن تقسيم دار الخلافة في سامراء إلى:

* الحديقة الغربية

تمتد أمام دار العامة نحو الغرب ساحة شاسعة، أشار أحمد سوسة إلى أنها تمثل سهلا واسعا، أما نورثادج فقد ذهب إلى أنها تمثل الحديقة الغربية للقصر، وقد استند في ذلك إلى هرتزفلد. ويبدو أنها كانت تتصل بنهر دجلة، ولم يبق لها اليوم أي أثر، سوى بعض الصور الجوية القديمة وتخطيط هرتزفلد.

تخطيط 11 الحديقة.



¹ - الطبري، تاريخ، ص 1872.

² - Northedge.A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim», Ibid, p.152.

³ - Northedge.A, The Historical Topography of Samarra, fig 55.

وهي مستطيلة الشكل (360×186)، وتحتوي على درج شاسع يبلغ عرضه 16 م، يصل الحديقة بأرضية دار العامة لا تزال معالمه واضحة. كما تحتوي في الجهة الغربية منها، على حوض مربع الشكل (118×130 م)، يمتد انطلاقاً منه حائطان متوازيان تبلغ المسافة الفاصلة بينهما 220م، ويصلان إلى آخر الحديقة. وفي الحدّ الغربي من الحوض توجد شرفة مربعة الشكل (48×40 م) يرجح نورثادج أنها كانت تمثل سرداق الحديقة. كما يمتد جداران آخران متوازيان في الجهة الغربية من الحوض، تقدر المسافة الفاصلة بينهما بـ 47 م، ويشكلان بذلك محورا شماليا، جنوبيا، يعتقد نورثادج أنه يمثل المسلك الذي يشق الحديقة من الشارع الأعظم.¹

وتؤدي الحديقة بواسطة الدرج المذكور إلى:

* دار العامة

دار العامة أو دار الخليفة هي من أبرز قصور الخلافة في سامراء، وقد ذكر اليعقوبي أنها تقع في الشارع الأعظم (المعروف بالسريجة)، الذي فيه ديوان الخراج والقطائع، عند دار هارون بن المعتصم وهو الوثائق.² وهي تعرف كذلك بدار السلطان، وقد أقيمت في الموضع الذي كان فيه دير النصارى، وصار الدير بيت المال.³

ولا تزال آثارها شاخصة إلى اليوم، وهي تقع شمال مدينة سامراء الحالية بقليل، فتمتد في الأراضي المرتفعة على طول ضفة نهر دجلة اليسرى إلى مسافة سبعمائة متر تقريبا.⁴ وتقع بناية الدار على ارتفاع 17 م تقريبا من مستوى السهل،⁵ أو الحديقة المذكورة وتتألف من مجموعة قاعات استقبال رئيسية، وقد أخذت تقريبا شكل المربع (180×200).⁶

¹ - Northedge.A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim », *Op. Cit*, p. 152 ;
Northedge. A, « An interpretation of the palace of the caliph at Samarra (Dar al- khilafa or Jawsaq al- Khaqani », *Op.Cit*, p.146.

- سوسه (أحمد)، نفس المرجع، ص 66.

² - اليعقوبي، البلدان، ص 26.

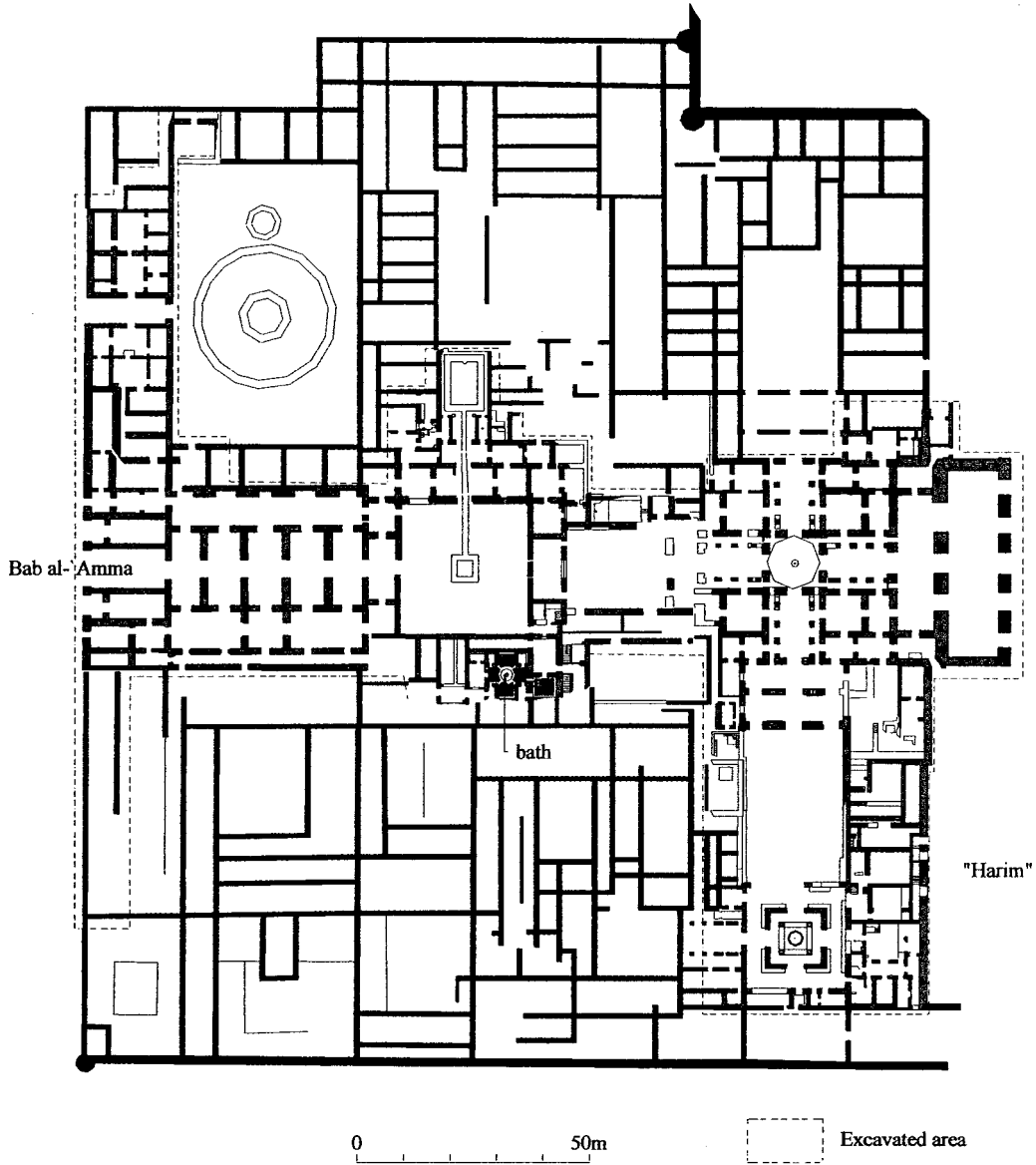
³ - نفس المصدر، ص 22.

⁴ - سوسه (أحمد)، ربي سامراء، ص 66.

⁵ - نفس المرجع، ص 66.

⁶ - Northedge.A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim », *Op.Cit*, p.153.

12 تخطيط تخطيط دار العامة.¹



وأهم ما يلفت النظر في هذه الدار، هو الثلاثة أواوين التي لا تزال آثارها قائمة والمطلّة على الحديقة الغربية التي تتصل بنهر دجلة، وتشير الأبحاث الأثرية بأن هذه الأواوين كانت بمثابة مدخل الدار، وكانت تسمى: باب العامة.²

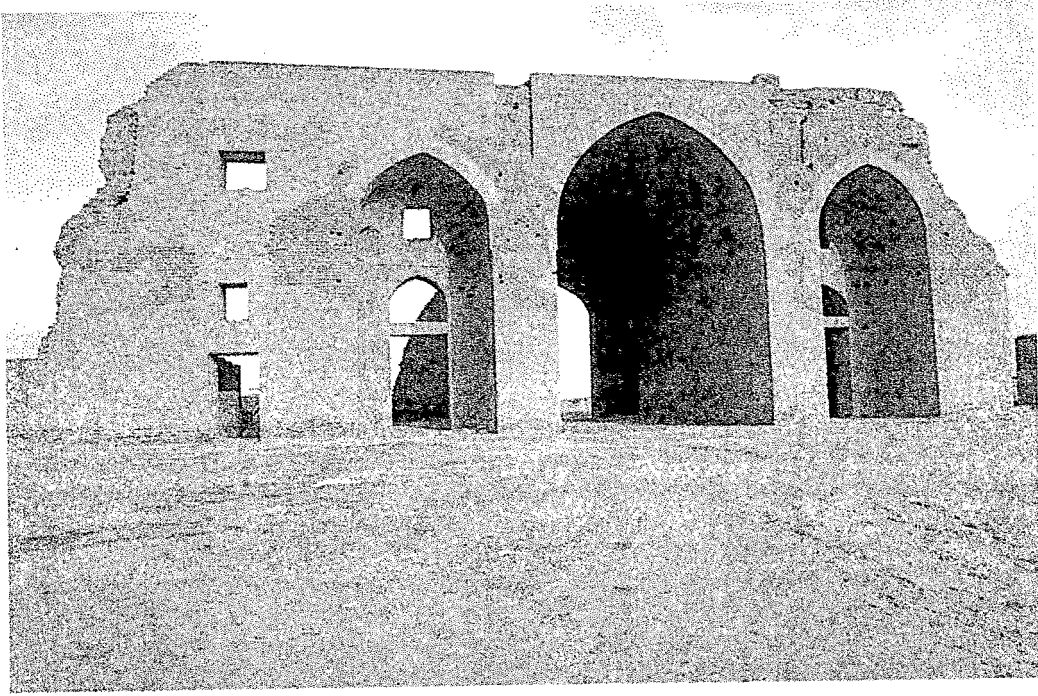
¹ - Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, fig 57.

² - سوسه (أحمد)، نفس المرجع، ص 67؛

- Northedge.A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim », *Ibid*, p.153.

- باب العامة: الذي أشارت إليه المصادر، والذي تدل تسميته على صلته بدار العامة ولعله سمي بذلك اختصاراً. يذكر اليعقوبي "ثم باب العامة ودار الخليفة وهي دار العامة التي يجلس فيها يوم الاثنين".¹ فقد كان هذا المدخل في وسط الواجهة الغربية للدار التي تطل على نهر دجلة، وما ورد في المصادر من إشارات يدل كذلك على أن باب العامة كان في الجهة الغربية من الدار ويواجه دجلة. فلما حدث الشغب على المستعين يذكر الطبري أنه خرج "من باب العامة منصرفاً إلى الهاروني فبات هناك".² والهاروني هو القصر الذي شيده الخليفة الواثق على شط دجلة.³ ولذلك فإن التسمية التقليدية للأواوين الثلاثة بباب العامة هي مثلما أشار إلى ذلك نورثادج صحيحة، والبناء المربع الذي يمثل الوحدة الجنوبية التي تتألف منها دار الخلافة، هو فعلاً دار العامة التي أشارت إليها المصادر.⁴ ويتألف باب العامة مثلما أشرنا إلى ذلك من ثلاثة أواوين، ذات عقود مدببة أكبرها الإيوان الأوسط، الذي قدر عرضه بـ 7.86 م وارتفاعه بـ 11.10 م وعمقه بـ 17.5 م، ويشير كريزوال إلى أن القوس الذي يوجد على هذا الإيوان يشبه قوس باب بغداد في الرقة، وهو ما لاحظناه بدورنا.⁵

50 صورة باب العامة.⁶



¹ - اليعقوبي، البلدان، ص 26.

² - الطبري، تاريخ، ص 1934.

³ - اليعقوبي، البلدان، ص 29.

⁴ - Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, p.140-141.

⁵ - حمودي (خالد خليل)، " قصر الخليفة المعتصم في سامراء"، سومر، ج 38، 1982، ص 169؛

- Creswell, *A Short Account of Early Muslim Architecture*, p.333.

⁶ - Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, plate 43.

أما الإيوانان الجانبيان فهما أقل عرضاً وطولاً من الإيوان الأوسط، وليساً على اتصال به، ولا يمكن الدخول إليهما إلا من الأمام، وقد ذهب هرتزفولد إلى أنهما قد خصصا للحرس أثناء الاستقبالات الرسمية في الإيوان الكبير.¹ أو ربما كغرف للانتظار قبل أن يقع الإذن بالدخول على الخليفة، الذي كان يجلس في دار العامة كل يوم اثنين.²

وقد استنتج نورثادج من الصور الجوية لكل من سار Sarre وفيولي Viollet، بروز كتلة بنائية فوق باب العامة، لذلك افترض إمكانية وجود طابق أعلى، من المحتمل أن يكون مجلساً، والذي لا بد من مقارنته مع مجالس أبواب مدينة بغداد المدورة، وكذلك مع قاعات الاستقبال التي أقيمت فوق أبواب القصور الأموية الصحراوية.³ ويمكن أن نضيف إليها المجلس الذي لاحظنا وجوده فوق باب بغداد في مدينة الرافقة.

وينفتح هذا الإيوان الكبير في الجهة الغربية على الحديقة التي تتصل بدجلة، أما في الجهة الشرقية فينفتح، على باب آخر قدر عرضه بـ 4 م وارتفاعه بـ 7.1 م، فوقه نافذة، ويفضي إلى منطقة مستطيلة تمتد من الشرق إلى الغرب، تحتوي على سلسلة قاعات، خمسة حسب نورثادج وستة حسب كريزوال، الذي يرجح أنها كانت تمثل قاعات للانتظار.⁴

وتفضي هذه القاعات بدورها إلى ساحة مربعة الشكل، يوجد في وسطها حوض أو نافورة وعلى جانبها الجنوبي "حمام"، وفي الجانب الشمالي بناء دائري افترض نورثادج أنه يمثل كذلك حوضاً آخر.⁵ وتنفذ هذه الساحة على منطقة مستطيلة صغيرة، تحتوي على حجرات تؤدي إلى قاعة العرش.

- قاعة العرش :

تعتبر هذه القاعة من أعظم القاعات المكتشفة ضمن هذه الدار، وتشتمل على قاعة وسطى مربعة عليها قبة، تحيط بها أربع قاعات بازيليكية تشكل هيئة الحرف " T "، مفصولة عن بعضها البعض بواسطة أربعة أروقة تمتد بصفة عمودية على أضلاع القاعة المربعة.⁶

وقد أشار هرتزفولد بأن هذه القاعة تشبه نوعاً ما قاعة العرش في المشتى ولكنها هنا مكررة أربع مرات، وسبب ذلك هو الحاجة لتجهيز القسم العلوي بشيء يسمح بدخول الضوء.⁷

¹ - Creswell, *A Short Account of Early Muslim Architecture*, p.333.

² - اليعقوبي، *البلدان*، ص 26.

³ - Northedge.A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim », *Op.Cit*, p.153 ; Northedge. A, « An interpretation of the palace of the caliph at Samarra », *Op.Cit*, p. 146.

⁴ - Creswell, *Ibidem*, p.333; Northedge.A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim », *Ibidem*, p.153.

⁵ - Northedge.A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim », *Ibidem*, p.153.

⁶ - العميد (طاهر مظفر)، *العمارة العباسية في سامراء*، ص 92؛ حمودي (خالد خليل)، "قصر الخليفة المعتصم في سامراء"، *نفس المرجع*، ص 169؛

- Northedge.A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim », *Ibidem*, p.153.

⁷ - العميد (طاهر مظفر)، *نفس المرجع*، ص 92- 94.

كما لاحظنا كذلك أنها تشبه إلى حدّ ما القاعة عدد 9 في " القصر ب " بالرقّة، والتي تتوسط قسم الشؤون العامة وتعدّ من أعظم القاعات المكتشفة في القصر، وتشتمل كذلك على قاعة وسطى مستطيلة، تحيط بها أربع غرف من جانبيها الشرقي والغربي ولها ثلاثة أبواب متقابلة.¹

وتحيط بمجموعة قاعة العرش في دار العامة، من الجهات الثلاثة الغربية، الشمالية والجنوبية، ساحات مستطيلة، كما يمتد محور مستعرض إلى الشمال والجنوب، واستمراره يبدو متماثلاً، وقد نقّب فقط في القسم الجنوبي وهو الحرم.²

يقع الحرم في الجهة الجنوبية لقاعة العرش، وهو عبارة عن ساحة تحيط بها مجموعة قاعات، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن الباب الواقع في جنوب إيوان المدخل الرئيسي كان مخصصاً للدخول إلى الحرم.³ وهنا لا بدّ أن نشير إلى أن هرتزفولد هو من أطلق هذه التسمية على هذا القسم من القصر، وقد استند في ذلك على الصور الآدمية التي كانت تزين جدران ذلك الجناح من القصر، والتي يمكن مقارنتها مع الصور التي تم العثور عليها في القصور الأموية.⁴

وقد شكك بعض الباحثين فيما إذا كان القسم الجنوبي يمثل فعلاً الجناح المخصص لحريم القصر، ومن بينهم سوردال الذي اعتبر أن هذا القسم هو مفتوح كثيراً على الباب الرئيسي أي باب العامة، ويمكن عن طريقه الوصول إليه مباشرة، في حين أن القسم المخصص لسكن الخليفة الخاص عادة ما يكون معزولاً عن الخارج.⁵ وقد أيده في ذلك نورثادج الذي رجّح أن يكون هذا القسم مخصصاً لمجلس الخليفة الخاص.⁶ ونؤيدهما بدورنا لأنه بالمقارنة مع قصور الرقة، فإن الحرم يكون دائماً في القسم المخصص للشؤون الخاصة، وليس في قسم الاستقبال وعلى مقربة من الباب الرئيسي.

وفي الجهة المتقابلة لقاعة العرش، وعند الجانب الجنوبي لقسم الحرم، قاعة مربعة تعلوها قبة، ولها أربعة أعمدة رخامية، وأربعة أبواب على المحاور، وفي وسطها حوض من الجرانيت المصري من صنع الفراعنة.⁷ والراجح أن هذه القاعة كانت تمثل مثلما ذهب إلى ذلك نورثادج، القبة التي ذكر المسعودي أن المهدي بناها وجعل لها أربعة أبواب، وسماها قبة المظالم.⁸

¹ - انظر تخطيط القصر ب.

² - Northedge. A, « An interpretation of the palace of the caliph at Samarra », *Op. Cit*, p. 146; Creswell, *A Short Account of Early Muslim Architecture*, p.334.

- العميد (طاهر مظفر)، *نفس المرجع*، ص 94.

³ - حمودي (خالد خليل)، " قصر الخليفة المعتصم في سامراء"، *نفس المرجع*، ص 170.

⁴ - Northedge. A, « An interpretation of the palace of the caliph at Samarra », *Ibidem*, p. 146; Northedge. A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim », *Op. Cit*, p.154.

⁵ - Sourdel. D, « Questions de cérémonial abbasside », *Op. Cit*, p.127.

⁶ - Northedge. A, « The Palaces of the Abbasids at Samarra », *Op. Cit*, p.36.

⁷ - العميد (طاهر مظفر)، *نفس المرجع*، ص 94-95؛

- Northedge. A, « An interpretation of the palace of the caliph at Samarra », *Op. Cit*, p. 146.

⁸ - المسعودي، *مروج الذهب*، ج 4، ص 183؛

- Northedge. A, *The Historical Topography of Samarra*, p.140.

هذا إذن بالنسبة للقسم الجنوبي (أي الحرم)، أما أمام القسم الشرقي لقاعة العرش، فتمتد قاعة أخرى كبرى مستعرضة، تنفتح مباشرة بواسطة خمسة أبواب على الساحة الكبرى.¹

- الساحة الكبرى :

نظمت هذه الساحة على شكل مستطيل تبلغ مقياسه (350 × 180م) حسب كريزوال، أو (360 × 186م) حسب نورثادج، وهي محاطة بجدار مدعم بأبراج نصف مستديرة. وقد قسّمت بواسطة قناة إلى قسمين: قسم غربي وقد عثر فيه على نافورتين، إحداهما مسددة الزوايا والأضلاع، وقسم شرقي وقد عثر فيه على أفنية صغيرة.²

51 صورة: الساحة الكبرى.



3

¹- Creswell, *A Short Account of Early Muslim Architecture*, p.337 ;

- العميد (طاهر مظفر) ، نفس المرجع ، ص 95.

²- العميد (طاهر مظفر) ، نفس المرجع ، ص 94؛

- Creswell, *Ibidem*, p.337 ; Northedge.A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim», *Op. Cit*, p.154.

³ - Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, plate 44.

إذن هذه أبرز المعالم العمرانية لدار العامة بسامراء، وهي تتألف عموما من باب ضخم سمي باب العامة، يفضي إلى سلسلة قاعات، تفضي بدورها إلى ساحة توصل إلى قاعة العرش التي تعتبر من أهم القاعات المكتشفة في القصر، وإلى جوارها وفي القسم الجنوبي منها يوجد الحرم، أما في القسم الشرقي فتوجد قاعة مستطيلة تفضي إلى ساحة أخرى كبرى.

وهي تشبه قسم الشؤون العامة في القصور العباسية بالرقّة وخاصة " القصر ب "، الذي يتألف بدوره من باب رئيسي يتصل بساحة كبرى، تحيط بها أروقة، وتفضي بدورها إلى قاعة وسطى تحيط بها أربعة غرف، والتي افترضنا أنها تمثل قاعة العرش، وتتقدم القاعة الوسطى كما هو الشأن في دار العامة، قاعة أخرى مستطيلة، تتصل بعمر مكشوف يفتح بواسطة خمسة أبواب على ساحة أخرى داخلية.¹

كما يشبه باب العامة أبواب مدينة بغداد وأبواب مدينة الرافقة، والتي تتألف بدورها من أربعة أبواب، لكل باب منهما باين: باب خارجي على السور الأعظم وباب داخلي على السور الداخلي، الذي يطل على الرحبة الكبرى، وفوق كل باب من أبواب السور الخارجي قبة أو مجلس. ويتألف باب دار العامة بدوره مثلما أشرنا إلى ذلك من باب خارجي يطل على الحديقة التي تتصل بدجلة، وآخر داخلي يفضي إلى سلسلة من القاعات، وقد لاحظ نورثادج كذلك وجود قبة فوقه.

وهكذا تبين أهمية العمارة العباسية في الرقة كحلقة وصل بين عمارة بغداد انطلاقا من مدينتي الرافقة وهرقلة، وبين عمارة سامراء، من خلال قصور الرشيد حيث يبدو التواصل واضحا بينهما.

لكن ما يميّز سامراء عن الرقة وبغداد هو تفرداها ببناء يحمل مثل هذا الاسم " دار العامة "، ولعل تسمية البناء بمثل هذا الاسم، تدلّ على أنه لم يكن مخصصا لسكنى الخليفة ونسائه وجواريه، وإنما ترتبط تسميته بالأعمال التي كانت تتم فيه، والتي تتصل بعمامة الناس، فقد كانت دار العامة المركز الذي يجلس فيه الخليفة للناس كل يوم اثنين وخميس.² ولعل هذا ما يكشف لنا العناية التي أولاهها الخلفاء العباسيون للعامة.

لكن الأعمال في دار العامة لم تكن منحصرة بعمامة الناس، وإنما امتدت أيضا إلى تصريف شؤون الخلافة، ففي هذه الدار كان الخلفاء يباشرون حكمهم. ذكر الطبري أن الافشين لما قدم بياك، أدخل دار العامة إلى أمير المؤمنين، وأحضر جزارا ليقطع يديه ورجليه.³ وذكر أيضا أن المازيار لما قدم سامراء، جلس المعتصم في دار العامة وأمر فجمع بينه وبين الافشين.⁴

وكانت دار العامة مركزا لتسيير شؤون الحكم، وكانت تجري فيها أيضا الرسوم والتشريفات. ففيها بويع المعتمد البيعة العامة.⁵ وفيها أيضا جلس المعتمد وولّى ابنه جعفر العهد وسمّاه المفوض.⁶ ويذكر الطبري أنه في

¹ - انظر تخطيط القصر "ب".

² - اليعقوبي، البلدان، 26؛ الطبري، تاريخ، ص 1850-1886.

³ - الطبري، نفس المصدر، ص 1851.

⁴ - الطبري، نفس المصدر، ص 1871.

⁵ - نفس المصدر، ص 2015.

⁶ - مؤلف مجهول، كتاب العيون والحدائق، ج 4، القسم الأول، دمشق 1972، ص 30.

سنة 250 هـ / 864 م " أسقطت مرتبة من كانت له مرتبة في دار العامة من بني أمية كابن الشوارب والعثمانيين".¹

ولم تكن الأعمال في دار العامة حكرا على الخلفاء، بل شملت أيضا أعمال الوزراء والقضاة. ففي دار العامة استدعى أحمد بن أبي داود الافشين لاستجوابه قبل موته.² وفيها قابل محمد بن عبد الملك الزيات أهل طرطوس عندما قدموا لشكوى صاحب المظالم الذي كان عليهم، فجمع فيها بينه وبينهم.³ وفيها نزل يحيى بن أكنم، في أيام المتوكل لما ولّاه قضاء القضاة.⁴

كما كان " باب العامة " الذي تدلّ تسميته على صلته بدار العامة، مظهرا من مظاهر الحكم والسلطان.⁵ فعنده صلب الافشين في سنة 226 هـ / 841 م، حيث بقي معلقا ليراه الناس، ثم طرح مع خشبته فأحرق وحمل الرماد وطرح في دجلة.⁶ وعنده قتل صاحب الصنارية في سنة 239 هـ / 853 م،⁷ وكذلك نصب رأس يحيى بن عمر الطالبي في سنة 250 هـ / 864 م،⁸ ونصب أيضا رأس صالح بن وصيف ساعة ثم نحي، وفعل به ذلك ثلاث مرات على التوالي.⁹ وأمام الباب نفسه ضرب رجل يعرف بأبي فقعس ألفا وعشرين سوطا، وكان أقم بشتن السلف،¹⁰ وكذلك ضرب كاتب كنجور ألف سوط فمات.¹¹

كان باب العامة إذن مسرحا لتنفيذ بعض الأحكام الخطيرة كالصلب والقتل والضرب، والتي ترتبط ببعض الحوادث التاريخية الهامة التي عرفتها الخلافة العباسية، كصلب الافشين مثلا.

ويبدو أن عمليات التنفيذ كانت تتم عند الباب نفسه أو في الساحة الغربية المتصلة به، وبحضور جماهير غفيرة من الناس. فهو إذن يرمز إلى السلطة والملك.

نستنتج إذن أن دار العامة كانت مركزا للإدارة والحكم وكانت تجري فيها مقابلات الرعية وتتم فيها الأعمال الرسمية مثل البيعة وولاية العهد وما يتبعهما من رسوم وتشريفات. وبالتالي يمكن اعتبار دار العامة في سامراء تطورا لقسم الشؤون العامة في الرقة، والتي لا تختلف عنه إلا من حيث تخصيصها ببناء مستقل وخاصة من حيث التسمية، التي ظهرت لأول مرة في العمارة الإسلامية في سامراء، ثم ستردد ذكرها في المصادر فيما

1- الطبري، نفس المصدر، ص 1941.

2- الطبري، نفس المصدر، ص 1874.

3- الطبري، المصدر السابق، ص 1886.

4- اليعقوبي، البلدان، ص 26.

5- سوسة (أحمد)، ري سامراء، ص 68.

6- الطبري، تاريخ، ص 1875.

7- الطبري، نفس المصدر، ص 1909.

8- الطبري، المصدر نفسه، ص 1939.

9- الطبري، المصدر نفسه، ص 2010.

10- الطبري، نفس المصدر، ص 2028.

11- الطبري، نفس المصدر، ص 2030؛ سوسة (أحمد)، نفس المرجع، ص 68؛

- Northedge.A, The Historical Topography of Samarra, p.140.

بعد، خاصة عند تأسيس الخليفة المتوكل لمدينة الجعفرية، وكذلك في مدينة القطائع في مصر التي أسسها ابن طولون والتي أراد أن يحاكي بها ما رآه في مدينة سامراء.¹ وأيضاً أتر عودة الخلافة من حديد إلى بغداد في الحلب الشرقي.

ولعل الوظائف التي كانت تؤديها دار العامة بالإضافة إلى طرار سائها، يجعلان من الصعب اعتبار القسم الحوي من قاعة العرش مسكناً للحريم، متلما ذهب إلى ذلك هرتفولد، والأرجح أنه كان يمثل مجلساً للخليفة متلما ذهب إلى ذلك بورتادج، ويدل على ذلك حسب رأينا التتريفات والمقابلات التي كانت تحري في دار العامة. أما سكن الخليفة الخاص فكان في قصر الحوسق الحاقاني.

* الحوسق الحاقاني

يقع في الجهة الشمالية الغربية من مركب دار العامة، وهو محاط بسور مستطيل الشكل يتحه من الشرق نحو الغرب، وفي حيز يلع عرصه في الجهة الشرقية 330 م، يصل في الجهة الغربية إلى 462 م، وهو معرر بأبراح نصف دائرية يلع قطرها 11 م.

ويوجد في الجهة الغربية للقصر ساء مربع (120 × 130 م)، يحمل رقم (H 352) يحتوي على عدة قاعات للاستقبال، وقد شيد فوق سطح ترفة، ويرجح بورتادج أنه من الساعات المربعة ذات القبة المركزية. أما في الجهة الشرقية من القصر فيوجد ساء رئيسي (H 297)، يلع عرصه 220 م، ويصل في اتحاد الشرق إلى 285 م، وفي حيز شيدت فيه القاعات الرئيسية بالآخر، شيدت العرف باللس. ويشير بورتادج إلى أن التخطيط الأصلي لهذا البناء كان عبارة عن ساحة قذرت أعادها بـ 80 × 50 م، ويتصل بها من الجهتين الشمالية والحيوية طريقين، وقد شيد على كل جانب من هذين الطريقين مجموعة من الدور ذات ساحة مركزية. أما في الجهة الغربية من الساحة المذكورة، فتمتد قاعة طويلة تتصل بقاعة محورية وتفصي إلى ساحة أخرى مربعة. أما بالنسبة للجهة الشرقية من الساحة فإن التخطيط غير واضح²

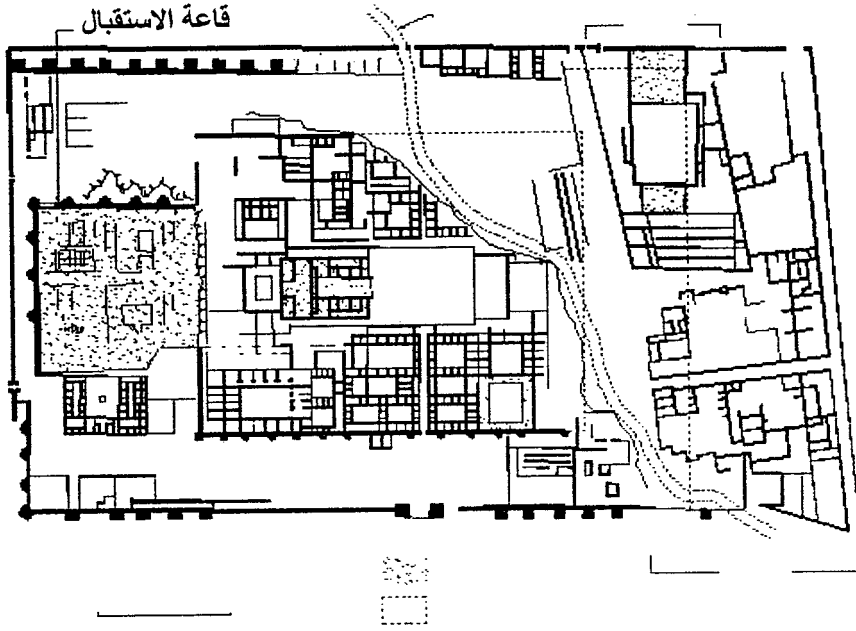
وبلاحظ هما تشاكما بين هذا القسم من القصر وقسم الدور الخاصة في القصر " س " في الرقة، لاسيما على مستوى دور السكن فكلاهما يتألف من مجموعة من الدور يفصل بينها ممر أو طريق، ولكل من هذه الدور ساحة تحيط بها عرف السكن، وتقع جميعها ضمن حرم واحد.

وعلى امتداد الجهة الشرقية للحدار الخارجي لاحظ هرتفولد وجود مسير لكنه لم يضع لهما تخطيطاً، كما أن آثارهما لا تبدو واضحة بصفة حلية في الصور الحوية. أما في الراوية الشمالية من الحدار الخارجي فيبرر تخطيط صغير كان هرتفولد قد تجاهله وهو يأخذ شكلاً متساوي الأضلاع ويشتمل على مجموعة قاعات استقبال (H 296).³ إذن توحد كل هذه المباني داخل الحدار الخارجي للقصر.

¹ - الطبري، تاريخ، ص 2083؛ سافعي (فريد)، العمارة العربية في مصر الإسلامية، القاهرة 1970، ص 423.

² - Northedge.A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim », Op Cit, p.162.

³ - Northedge.A, Ibidem, p.162.



1

لم يقع التنقيب في هذا المبنى، ويعتقد نورثادج أنه يمثل قصر الجوسق الخاقاني الذي ذكر اليعقوبي أن المعتصم أوكل بناءه لـخاقان عرطوج أبي الفتح بن خاقان، ويعتقد أنه يمثل قصر الخليفة الخاص الذي يعيش فيه ويموت فيه ويدفن فيه ويقيم فيه مع نسائه.²

أما هرترفلد فقد اعتبر أن هذا القصر يمثل الحد الشمالي لمركب دار العامة وأطلق عليه اسم "بيت المال" المشهور في هذا القصر.³

وقد ورد ذكر قصر الجوسق الخاقاني في المصادر، لكنها لم تذكر أبعاده أو تفاصيل عن أقسامه المعمارية، وإنما اكتفت بذكر أنه على دجلة.⁴ وذكر الطبري أنه كان يعرف بدار المعتصم.⁵ وذكر أيضا أنه كانت في الجوسق خزائن فيها من الأموال والجواهر وفاخر الثياب.⁶

وفي الجوسق حبس المعتصم الافشين ثم بنى له حيسا مرتفعا وسمّاه لؤلؤة داخل الجوسق وهو يعرف إلى الآن بالافشين،⁷ وفي الجوسق دفن الخليفة المعتصم.⁸ وفي الجوسق زحفت الأتراك والفراغنة إلى أوتامش وهو مع المستعين.⁹

¹ - Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, fig p. 60.

² - Northedge. A, « The Palaces of the Abbasids at Samarra », *Op. Cit*, p.36.

³ - Northedge.A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim », *Op.Cit*, p.162.

⁴ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 63.

⁵ - الطبري، تاريخ، ص 1872.

⁶ - الطبري، نفس المصدر، ص 1987.

⁷ - الطبري، نفس المصدر، ص 1872.

⁸ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 46- 63.

⁹ - الطبري، نفس المصدر، ص 1937.

ويذكر الطبري أن قبيحة كانت لها حجرة خاصة في قصر الجوسق الخاقاني وفيها حفرت سربا للفرار من مصادرة الأتراك،¹ وذكر الأصفهاني أن المعتصم أنزل متيم الهاشمية داخل الجوسق في دار تسمى الدمشقي.² نلاحظ من خلال هذه الإشارات المتفرقة التي ورد ذكرها في المصادر أن الخليفة كان يقيم في قصر الجوسق الخاقاني هو ونساؤه، وفيه كانت خزائن الخلافة وكل ما يحتاج إليه الخلفاء في حياتهم اليومية، وفيه يدفن أيضا. فهو مقر الخليفة الخاص، وفيه دور الحرم أيضا وليس في دار العامة. ولعل هذا ينطبق على القصر الشمالي الذي أشار إليه نورثادج.

ومن هذه الناحية فهو يمثل تطورا لقسم الدور الخاصة في قصور الرقة، لكن الفرق هو أنه في سامراء وقع تخصيص الدور الخاصة بقصر خاص.

وعلى هذا الأساس فإن الجوسق الخاقاني ودار العامة لا يمثلان قصر واحد مثلما ذهب إلى ذلك هرتزفيلد وكريزوال، وإنما يشيران إلى قصرين مختلفين مثلما أكد ذلك نورثادج، وهو ما توصلنا إليه بدورنا من خلال المقارنة بين النصوص والآثار، ولكل واحد منهما وظيفة الخاصة بدار العامة هو قصر الخليفة العام الذي يجلس فيه كل يوم اثنين وخميس للناس ويقوم فيه بمباشرة شؤون الخلافة والحكم. أما الجوسق الخاقاني فهو قصر الخليفة الخاص الذي يقيم فيه، وفيه أيضا جناح الحرم مثلما يدل على ذلك نص الطبري والأصفهاني. وكنا قد لاحظنا أن هذا الفصل بين قسمي الشؤون الخاصة والعامة قد انطلق في الرقة ثم تطور في سامراء حيث خصص كل قسم بقصر خاص به. وكلا القصرين الجوسق الخاقاني ودار العامة يكونان دار الخلافة.

ويوجد بين القصرين وشمال الساحة الكبرى، السرداب الكبير، وهو ليس سرداب بآتم معنى الكلمة، وإنما عبارة عن حفرة منقورة في الصخر ومكشوفة، ويحيط به عند مستوى سطح الأرض جدار خارجي مربع الشكل، وتتوزع داخله عدة بنايات ذات ساحة مركزية. ويوجد في وسط هذه الحفرة حوض دائري يبلغ قطره 65 م، ويحتوي على سلمين في الجهة الشمالية والجنوبية ويزود الحوض بالماء بواسطة حفرة متأتية من الشرق، وتوجد قناة أخرى تصرف الماء نحو الغرب أي في اتجاه دجلة. وفي حين ذهب أحمد سوسة إلى أن هذه الحفرة ترجع إلى عهد المتوكل وقد استند في ذلك على أن القناة التي كانت تزودها بالماء هي تلك التي كانت تبدأ من نهر دجلة من فوق الدور وقد أنشأت في عهد المتوكل، لكن عكس ذلك يذهب نورثادج إلى أن هذه الحفرة تعود إلى الطور التأسيسي الأول أي عهد المعتصم، وقد استند في ذلك على القطع الحصية ذات الزخارف المستمدة من ورقة العنب والتي كانت تزين الأقسام الرئيسية لهذا المبنى، صنف " أ "، حسب كريزوال، وهي نفسها كانت تزين باب العامة.³

¹ - الطبري، نفس المصدر، ص 1987.

² - الأصفهاني، الأغاني، ج 7، ص 222.

³ - Northedge.A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim », Op. Cit, p.156 ;

سوسة (أحمد)، نفس المرجع، ص 70.

ولم يرد في المصادر ذكر للسرداب الكبير، ولا كذلك للسرداب الصغير، إذ يوجد علاوة على ذلك السرداب سرداب آخر صغير في الجهة الشرقية الخلفية لساحة القصر الكبرى يعرف بهاوية السباع، يقع مدخله في وسط السور الشرقي للحديقة، ويتألف هذا السرداب من حفرة مربعة منقورة في الصخر يبلغ طول كل ضلع من أضلاعها 21 م وعمقها 8 م، وقد نقرت في كل ضلع من أضلاعها الأربعة ثلاثة أو اثنين وقد زخرفت جدرانها بزخارف جصية ملونة.¹ ويرجح أحمد سوسة أن هذه البركة سميت بهاوية السباع لوجود عدد من السباع بالقرب منها، ولاسيما وأن الطبري يذكر في حوادث 255 هـ / 869 م أن المهدي أمر بقتل السباع التي كانت في دار العامة.² لكن من الباحثين من يرى أن تسمية المنطقة بالهاوية لا ينطبق من الناحية اللغوية ويرجح اتخاذ هذا المكان سردابا للراحة وربما للتسلية.³ ويتصل السرداب بمجموعة الاصطبلات وميدان الصولجان.

أما الاصطبلات فتمتد على جانبي السرداب الصغير في شكل ستة أروقة. ثلاثة منها في الجهة الشمالية وثلاثة في الجهة الجنوبية، أربعة منها تبلغ قياساتها (106 × 11 م)، واثنان (96 × 11 م)، وقد اعتبر هرتزفلد أن هذه الأروقة تمثل اصطبلات ميدان الصولجان، لأنها جعلت بالقرب منه. وتحيط بكل ثلاثة أروقة ساحة مركزية، وتشبه في تخطيطها الاصطبلات الإيرانية، ورغم أن اليعقوبي يذكر أن الاصطبلات العامة والخاصة كانت وسط المدينة في الشارع الأعظم، لكن لم يبق لها أي أثر على الخارطة الأثرية. ويرجح نورثادج أن الاصطبلات الواقعة خارج المدينة كانت قد جعلت لتربية الخيول وتمويل القصر بها والجنود، وليس للإقامة اليومية لدواب القصر، وخاصة التي تستعمل في لعب البول والسباق.⁴ أما في الرقة فإن تربية وإقامة الخيول كانت تقع في الحدائق المتصلة بالقصر والتي خصصت لها مساحات شاسعة. ويمتد علم طول الجهة الشرقية للسرداب الصغير والاصطبلات الميدان.

- الميدان ومبنى المشاهدين:

يوجد ممر في الجهة الشرقية للسرداب يقود إلى ساحة مربعة تفضى بدورها إلى ميدان طويل، يمتد من الشمال إلى الجنوب. أما الباب الذي يفتح على الميدان فقد كشف عنه هرتزفلد. وقدرت مقاييس الميدان بـ 525 م طولاً و 66 م عرضاً، ويحيط به سور تدعمه أبراج وهو مشيد من الآجر المشوي.

¹ - Northedge.A, *Ibid*, p.158 ;

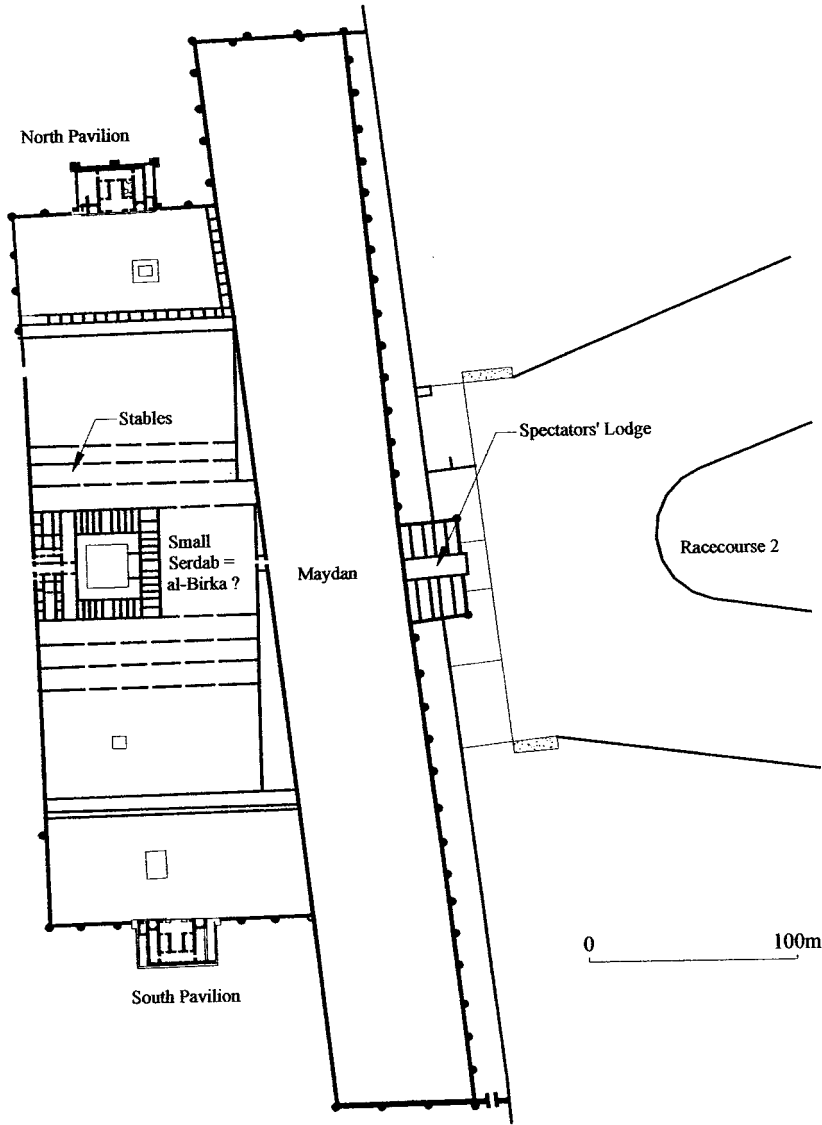
² - الطبري، تاريخ، ص 1991؛ سوسة (أحمد)، نفس المرجع، ص 70.

³ - حمودي (خالد خليل)، " قصر الخليفة المنصور في سامراء "، نفس المرجع، ص 170.

- اليعقوبي، البلدان، ص 26.

⁴ - Northedge.A, *Ibid*, p.158 – 159.

14 تخطيط السرداب الصغير، الاصطبلات، الميدان ومبنى المتفرجين.¹



أما في الجهة الأخرى للميدان فتوجد بناية وقد وقع تخصيصها للمتفرجين تبلغ مقاييسها 45 × 28 م، وقد شيدت من الآجر المشوي. ويشق هذه البناية ممر يلتصق بكل جانب منه خمسة أجزاء، ويرجح نورثادج أنه يمثل دعامة لبناء أعلى ثقيل، والذي كان يمثل شرفة للمتفرجين. وقد اعتبر هرتزفلد أنه كان مخصصا للعبة الصولجان وأيده في ذلك نورثادج، وذلك لوجود شبه بينه وبين ميدان شاه في أصفهان، كما وردت إشارة لدى بن قتيبة تفيد بأن ساحات الصولجان في العصر العباسي تشبه ميادين سامراء.² وهو العنصر الذي تفتقده مدينة الرقة.

¹ - Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, fig p. 58.

² - Northedge.A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim », *Op. Cit*, p.159 – 160.

وخلف الميدان وساحة المتفرجين توجد حلبة السباق.

وهي الثانية ضمن ثلاث حلبات أخريات وتوجد في منتهى قصر الخليفة من الجهة الشرقية. وهي الوحيدة التي ترتبط مباشرة بالقصر ويمكن اعتبارها متصلة بمركب دار الخلافة. ويدور السباق فيها ضمن حركة ذهاب وإياب وذلك انطلاقاً من خط انطلاق يقع عند أساس بناية المتفرجين. وتأخذ الحلبة شكل مماثل للقاورة فيبدأ داخلها ضيق من عند القصر ثم يتوسع تدريجياً على طول الحلقة حتى يبلغ أقصى سعته في الرأس الثاني شرقاً. وتمتد هذه الحلقة على مسافة 1020 م طولاً و 80 م عرضاً.¹ فالمبدأ يتمثل في أن يجلس الخليفة عند نقطة البداية ومن عنده تنطلق الخيول ثم تعود إليه فيؤكد بذلك مركزته.

وتشكل هذه الوحدات الواقعة في الجهة الشرقية لدار الخلافة مجموعة شبه متناسقة، ويرجح نورثادج أنه تم تشييدها في وقت لاحق عن القصر، وذلك كمجال للفروسية والتسليّة، وقد استند في ذلك إلى أن هذه المجموعة لم تكن موازية تماماً لساحة القصر الكبرى.²

تدل هذه المنشآت على الأهمية التي أولاهها الخلفاء العباسيون للفروسية والصيد لاسيما في عهد الخليفة المتوكل الذي ذكرنا أن المدينة شهدت توسعاً كبيراً في عهده، وكان من جملة مشاريعه إنشاءؤه للمشهرات على الضفة الغربية لدجلة نحو الجنوب والاصطبلات على الضفة الشرقية وقد خصصا للصيد، وتميزا باحتوائهما على قصر للصيد وثكنات للتجهيزات ولطاقم الصيد.³

وكذلك إنشاءؤه لحلبات سباق أخريات في الحير، أهمها الحلبة الواقعة جنوب شرقي دار الخلافة والمتكونة من أربعة حلقات كبيرة مجتمعة حول صليب مركزي فيه بناء من اللبن يرجح نورثادج أنه سرادق أو فسطاط صغير أما أحمد سوسة فقد اعتبره دكة مرتفعة معدة لجلوس الخليفة، ويبلغ طول الدورة الكاملة حوالي خمس كيلومترات، أما المسافة من البناء المركزي وعلى طول هذه الحلقات فتقل عن 600 م، أي أن المتسابقين يقطعون في هذه المساحة مسافة طويلة دون أن يتعدوا عن الدكة المركزية أكثر من ستمائة متر.⁴

ولم يكن من قبيل المraz الفني أن يختار المصمم لهذه الحلبة الشكل المستدير للحلقات، فضلاً عن الرقم أربعة في عدد الحلقات، فلعله أراد أن يعبر عن ملكية الخليفة المتوكل، كما يدل على ذلك موقع الدكة من الحلبة فضلاً عن المحور المتصالب في الاتجاهات الأربعة. فالخليفة يجلس في الوسط ومن حوله تدور الفرسان، فتأكد بذلك مركزته.

¹ - Northedge.A, « The racecourses at Samarra », in *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, v LIII, part 1, 1990, pp. 37- 38.

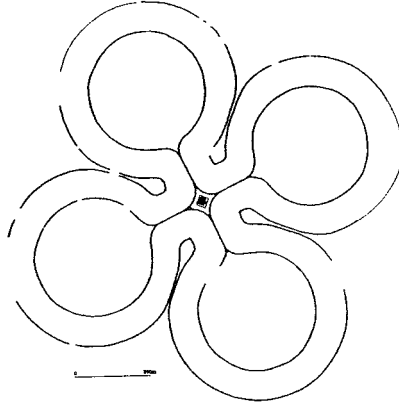
² - Northedge.A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim », *Op.Cit*, p. 160.

³ - Northedge. A, *Entre Amman et Samarra*, p. 94.

⁴ - Northedge.A, « The racecourses at Samarra », *Ibid*, p.38- 39 ;

- سوسة (أحمد)، نفس المرجع، ص 116.

15 تخطيط حلبة الأربع حلقات.¹



أما الحلبة الأخرى فتتكون من حلقة واحدة مستطيلة يبدأ داخلها ضيق من أحد رأسي الحلقة ثم يتوسع تدريجياً على طول الحلقة حتى يبلغ أقصى سعته في الرأس الثاني، أي أنها تشبه حلبة درا الخلافة لكنها تختلف عنها في كونها تبدأ عند تل اصطناعي يقع في الشمال. ويرتفع هذا التل بحيث يشرف على جميع سامراء وهو مخروطي الشكل ويعرف بتل العليق، وتبدأ الحلبة عند التل المذكور في الرأس الضيق لحلقة الحلبة ثم تمتد جنوباً مخترقة الرأس الغربي لحلقة حلبة دار الخلافة حتى تصل إلى قرب المسجد الجامع، وهي تعرف بحلبة تل العليق.² وتعد حلبة دار الخلافة أقدم الحلبات تليها حلبة تل العليق، ثم الحلبة ذات الأربع حلقات. ويرجح أن حلبة دار الخلافة يرجع تاريخها إلى عهد المعتصم لكنها أنشأت في فترة لاحقة عن بناء القصر، أما الحلبتان الأخريان فهما من إنجاز المتوكل.³

¹ - Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, fig p. 69.

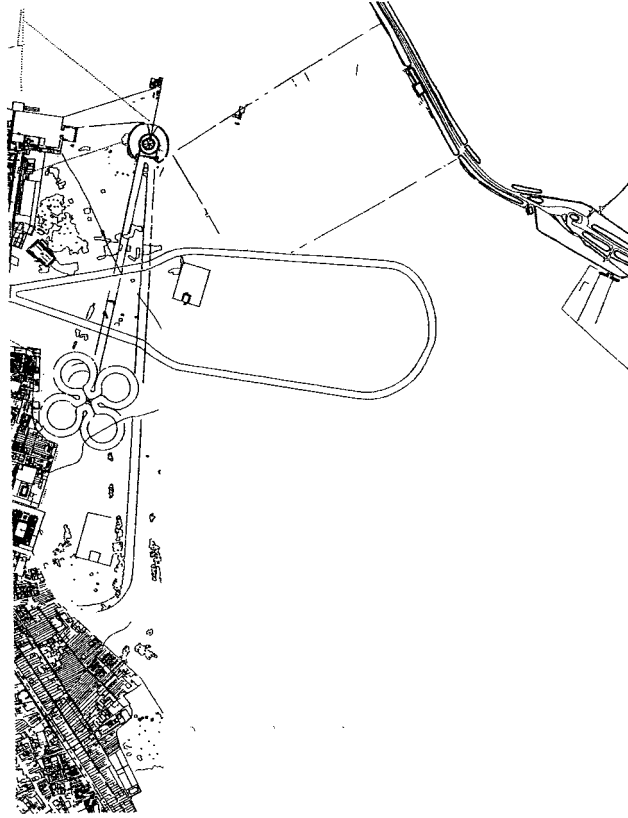
² - Northedge.A, « The racecourses at Samarra », *Ibid*, p.33;

- سوسه (أحمد)، نفس المرجع، ص 117.

³ - سوسه (أحمد)، نفس المرجع، ص 120؛

- dge.A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim », *Op.Cit*, p. 160.

6 خريطة توزع حلبات السباق.¹



نلاحظ من خلال هذه الحلقات تطور مفهوم الملك لدى الخلفاء العباسيين، فبعد أن كان الخليفة يجلس في رأس الحلقة والفرسان تنطلق من عنده ثم تعود إليه، أي أنه يمثل نقطة البداية والنهاية، صار يجلس في المركز وتدور حوله الفرسان مؤكداً بذلك محوريته بالنسبة للاتجاهات الأربعة ومركزيته بالنسبة للكل، فهو المحو وهو القطب. وعلى هذا الأساس فقد سعى العباسيون لإبراز ملكيتهم ليس فقط عن طريق عمارة القصور بل كذلك عن طريق حلبات سباق الخيل.

نلاحظ أن مدينة سامراء كانت فيها قصور للاستقبال وللأسكن الخاص واصطبلات وميادين للعب وحلبات سباق، فقد أضحت مدينة ملكية حقيقية على شاكلة المدن الملكية الساسانية والرومانية والبيزنطية، وقد أضاف إليها المتوكل، مدينة الجعفرية.

- الجعفرية: بالإضافة إلى هذه الحلقات فإن أهم مشروع للخليفة المتوكل هو كذلك تأسيسه لمدينة الجعفرية وتعرف كذلك بالمتوكلية والماحوزة، شمال مدينة سامراء على بعد ثلاثة فراسخ عند مدخل القاطول الكسروي.² ويذكر اليعقوبي أنه اختط فيها موضع قصوره ومنازله وأقطع ولاية عهوده وسائر أولاده وقواده

¹ - Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, fig p. 64.

² - اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 492؛ الطبري، تاريخ، ص 1917.

- Northedge. A, « The Palaces of the Abbasids at Samarra », *Op. Cit.*, p.39.

وكتابه وجنده والناس كافة، وانتقل إلى قصور هذه المدينة سنة 247 هـ / 861 م وقال الآن علمت أني ملك إذ بنيت مدينة سكنتها.¹

وأعظم قصور المتوكل هو القصر الجعفري الذي عوض دار الخلافة، ولم تذكر المصادر مساحته وأبعاده وتفاصيل معالمه العمرانية، كذلك لم تقع فيه أي عملية تنقيب أثري، وقد درسه نورثادج معتمداً في ذلك على مخطط كان قد وضعه هرتزفولد للقصر، وقد لاحظ فيه أنه يشتمل على مجلس استقبال رئيسي والذي هو عبارة عن بناء مربع الشكل تبلغ أبعاده 115 م يطل على دجلة، ويرجح أنه يمثل المجلس الذي قتل فيه المتوكل. وخلف هذا المجلس توجد مساحة مستطيلة مسورة قدرت أبعادها 838 × 1060 م وتمثل قلب القصر، وتشتمل على ساحة صغيرة تمتد على نفس محور مجلس الاستقبال الرئيسي وقاعة استقبال أخرى. وخلف قاعة الاستقبال الثانية توجد سبع ممرات تشتمل على مجموعة من الدور ذات ساحة مركزية. وشرق هذه الممرات يوجد مركب يشتمل على قاعة ذات قبة مركزية تتصل في الجهة الغربية منها بساحة كبرى تشبه الساحة الكبرى بدار الخلافة في سامراء. أما في الجهة الشمالية فتوجد المخازن المخصصة لوضع احتياطي القصر. وخارج جدار الساحة المسورة ونحو الشمال فيوجد ميدان البولو ومبنى المتفرجين كما هو الشأن بالنسبة لدار الخلافة.²

وقد أشار نورثادج إلى التشابه بين دار الخلافة والجعفري فكلاهما يشتمل على قسم للاستقبالات العامة وقسم لدور السكن الخاصة، لكن الفرق هو أنه في سامراء خص كل قسم بقصر خاص، أما في الجعفري فإن القسمين وقع جمعهما في قصر واحد.³ ولا بد أن نشير هنا إلى التشابه بين القصر الجعفري وبين قصور الرقة "ب" و"ج" حيث وقع الجمع كذلك بين قسمي الشؤون العامة والدور الخاصة في قصر واحد. لكن الاختلاف بين الجعفري ودار الخلافة يكمن في أن القصر الجعفري وقع فيه إعطاء أهمية أكبر لدور السكن الخاصة.⁴ وقد أشارت المصادر كذلك إلى باب العامة في القصر الجعفري، يذكر الطبري أنه لما شاع الخبر بقتل المتوكل "توافى الجند والشاكرية بباب العامة بالجعفري".⁵ وقد حدّد نورثادج في تخطيط القصر في المركب الواقع خلف دور السكن. نلاحظ إذن تطابقاً بين النصوص والآثار.

¹ - اليعقوبي، البلدان، ص 31.

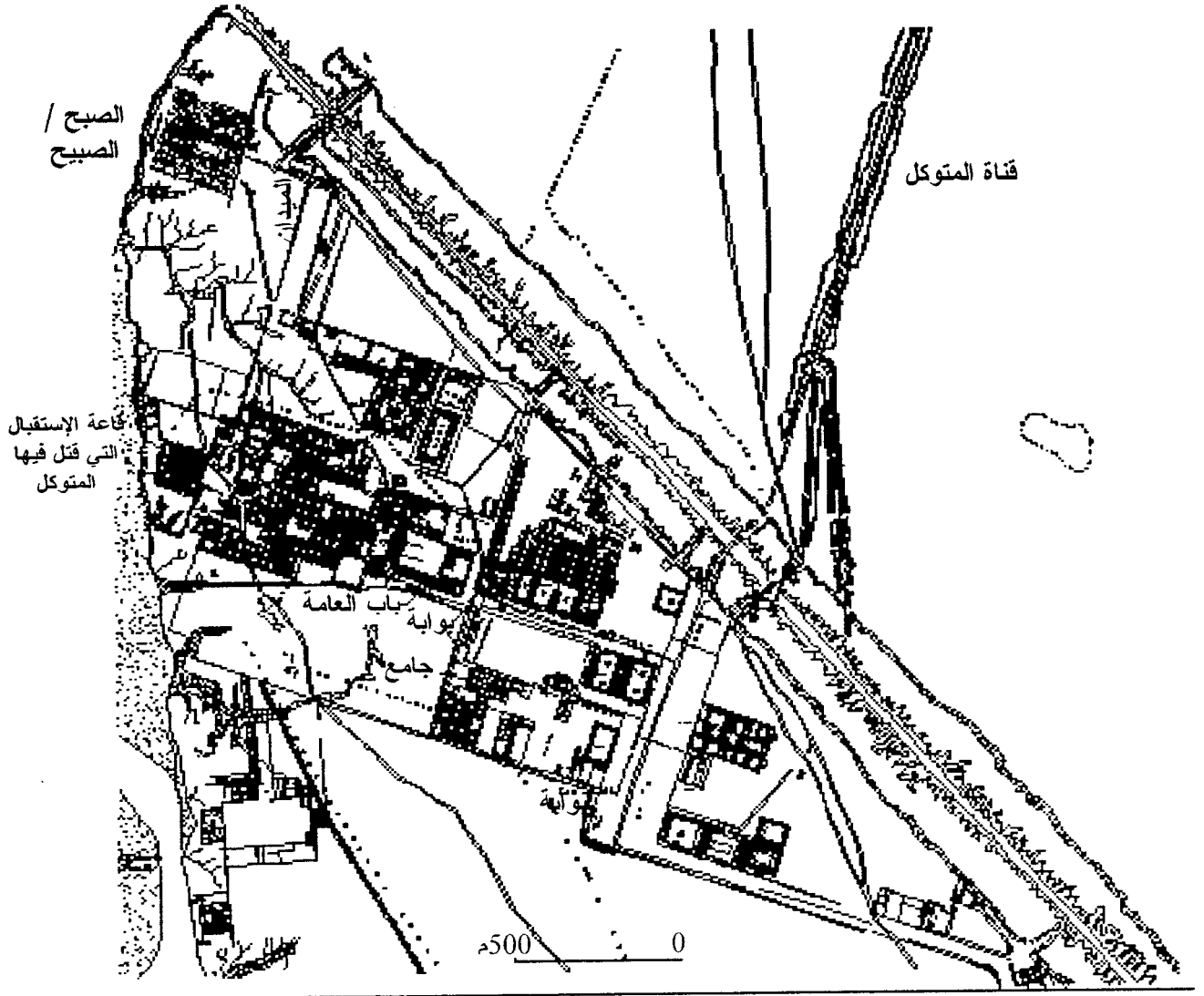
² - Northedge. A, "The Ja'fari Palace of al- Mutawakkil", in *Damaszener Mitteilungen*, Band 11, 1999, pp. 353- 354; Northedge. A, « The Palaces of the Abbasids at Samarra », *Op. Cit*, p.39- 40; Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, p. 213;

³ - Northedge. A, "The Ja'fari Palace of al- Mutawakkil", *Ibid*, p. 362.

⁴ -Northedge. A, *Ibidem*, p. 362.

⁵ - الطبري، تاريخ، ص 1927.

تخطيط 16 قصر الجعفري.



1

وقد استمر المتوكل يقيم في الجعفري تسعة أشهر، وقتل سنة 247 هـ / 861 م وولي ابنه المنتصر فعاد إلى دار الخلافة التي أسسها المعتصم وهاجر القصر الجعفري، وقد استمر الخلفاء يقيمون في دار الخلافة في سامراء إلى آخر سنة من خلافة المعتمد الذي قرر العودة من جديد إلى بغداد.

¹ - Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, fig p. 94.

III عودة دار الخلافة إلى بغداد وبروز مركب دار الخلافة

استمرت سامراء مقرا للبلاط العباسي إلى عهد الخليفة المعتمد على الله الذي ذكرت المصادر أنه " أول خليفة انتقل من سامراء إلى بغداد بعد ما بنيت سامراء ثم لم يعد إليها أحد من الخلفاء بل جعلوا دار إقامتهم ببغداد ".¹ فأين استقرت الخلافة العباسية بعد عودتها إلى بغداد؟.

1- الحسنی: نواة دار الخلافة العباسية

يبدو من خلال المصادر المتوفرة لدينا أن الخلافة العباسية بعد عودتها إلى بغداد لم تستقر في أحد قصور الخلافة السابقة كقصر الذهب أو قصر الخلد أو قصر الرصافة، وإنما استقرت في " الحسني ".

وهو القصر الذي شيّده جعفر البرمكي في الجانب الشرقي ليكون مقرا للهود ولعبه وشربه وأنسه وكان يعرف أولا بالقصر " الجعفري"، ثم بعد نكبة البرامكة ومقتل جعفر انتقل هذا القصر إلى المأمون وأصبح يعرف بـ"المأموني"، وتذكر المصادر أنه كان من أحب المواضع إليه لإطلاله على دجلة وأنه أضاف إليه ميدانا للعب بالكرة والصولجان وحيرا لجمع الوحوش، وقد ظلّ يقيم فيه إلى أن عيّن واليا على خراسان من قبل والده الرشيد. وبعد انقضاء الفتنة بينه وبين أخيه الأمين، ظلّ المأمون يقيم في خراسان وعيّن الحسن بن سهل خليفة له على العراق، فوردها في سنة 198 هـ/ 814 م، واستقر في القصر المأموني المذكور.

ثم لما عاد المأمون إلى بغداد في سنة 204 هـ/ 819 م نزل في قصر الخلد وظلّ الحسن بن سهل يقيم في القصر المأموني إلى أن عمل عرس ابنته بوران على المأمون في فمّ الصلح، فطلبه من المأمون فوهبه له وصار يعرف منذ ذلك الوقت بالقصر "الحسني" نسبة إلى الحسن بن سهل.²

وقد ورثته عنه ابنته بوران زوج المأمون، ثم استرلها عنه الخليفة المعتضد، فأعطته إياه. لكن الخطيب البغدادي يشكّ في هذا الخبر، إذ يذكر أن بوران توفيت سنة 271 هـ/ 884 م ولم تعيش إلى عهد المعتضد، فلعلها سلمته إلى المعتمد.³ وهو ما أشار إليه كذلك ياقوت الحموي الذي يذكر أن بوران سلمت القصر إلى المعتمد وليس إلى المعتضد.⁴ وقد أعطته إياه بعد أن رمّمته وبوّضته وزيّنته وفرشته بأحسن الفرش والستائر وقامت بتعميره بالخدم والجواري.⁵

¹ ابن كثير، البداية والنهاية، ج 2، ص 1659.

² ابن الساعي، نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء، القاهرة دت، ص 71-78؛ ياقوت الحموي، كتاب البلدان، ج 2، ص 3-4؛ لسترنج، نفس المرجع، ص 208-210.

³ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 99.

⁴ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 4.

⁵ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 99.

ويبدو أن المعتمد لم يتخذ منه مقرا دائما فقد كان يتردد فيما بينه وبين سامراء، فيقيم هناك تارة وهناك تارة أخرى، وعندما توفي نقلت جثته إلى سامراء ودفن هناك.¹ أما الخليفة المعتضد فقد اتخذ منه مقرا دائما وتجمع المصادر على أن وفاته كانت في القصر الحسيني ببغداد.²

وهكذا فإن الخلافة العباسية بعد عودتها إلى بغداد لم تستقر إلا في أحد قصور البرامكة، في حين لم تصلح كل القصور والدور التي كانت للخلفاء في بغداد "دارا" لأحفادهم.³ وقد تطورت تسمية هذا القصر، تبعا لتحول ملكيته، من القصر الجعفري إلى القصر المأموني، وصولا إلى القصر الحسيني، الذي مثل في النهاية النواة الأولى لدار الخلافة العباسية، التي ستشهد اتساعا كبيرا في عهد الخليفة المعتضد ومن أتى بعده من الخلفاء.

2- بروز مركب دار الخلافة العباسية

لقد زالت معالم "دار الخلافة العباسية" ولم يبق لنا من معين على تحديدها غير المعطيات التي ورد ذكرها في النصوص التاريخية والتي تبدي وصفا للإطار المادي الذي يعيش فيه الخليفة والهيكل التنظيمي والوسط البشري الذي يحيطان به، وسبب إيراد هذه المعطيات هو الحديث عن دار الخلافة العباسية بمناسبة استقبال الخليفة المقتدر بالله (295 - 320 هـ / 908 - 932 م) لرسول ملك الروم سنة 305 هـ / 917 م والحديث عن هذه السفارة: الطريق الذي سلكه هذا الرسول وما قد يكون رآه قبل لقاء الخليفة وبعد. ومكونات هذه الدار، حسب هذه النصوص هي نواة تاريخية تتمثل في القصر الحسيني، أو قصر الحسن بن سهل الذي ورثته ابنته بوران ثم استرلها عنه بعض الخلفاء فأعطته إتياء بعد أن رُمته وأثنته مثلما أشرنا إلى ذلك، وهو يقع على شاطئ دجلة تحت نهر معلى.⁴ وعلى مقربة من المدرسة المستنصرية من جهة الجنوب.⁵ وقد انضافت تدريجيا وحدات أخرى إلى هذه النواة الأولى من قصور ودور وغيرها. فلم يكتف المعتضد بتوسيع القصر الحسيني، بل شيد إلى جواره قصرا آخر أطلق عليه اسم "الفردوس" في موضع يقع فوقه حيث يصب نهر المعلى في دجلة.⁶

¹ - ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 2، ص 4.

² - الطبري، تاريخ، ص 2111؛ ابن كثير، نفس المصدر، ج 2، ص 1659.

³ - الشيباني (محمد سعد)، نفس المصدر، ص 245.

⁴ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 99.

⁵ - مصطفى (جواد)، "دار الخلافة العباسية تعيين موضعها وأشهر مبانيها"، مجلة المجمع العلمي العراقي، 1965، المجلد 12، ص 102.

⁶ - لسترنج، بغداد في عهد الخلافة العباسية، ص 213.

كما بنى المعتضد قصر " الثريا " إلى وراء على ضفة دجلة وعلى بعد ميلين من القصر الحسيني، ووصل بناء الثريا بالقصر الحسيني.¹ وقد قدّر المسعودي طول قصر الثريا بثلاثة فراسخ وذكر أن المعتضد أنفق عليه أربعمئة ألف دينار.²

كما قام باستحداث ميدان جديد لسباق الخيل واللعب بالصولجان وذلك بالإضافة إلى الميدان الذي كان موجودا منذ عهد الخليفة المأمون.³ كما قام بإنشاء مطامير في القصر الحسيني للسجناء، والتي كانت في الأصل للصناع الذين اشتغلوا في تشييد القصر.⁴

وأخيرا وضع الخليفة المعتضد أسس القصر الذي سيصبح مقرا للخلفاء من بعده، وهو قصر " التاج "، والذي استكماله الخليفة المكتفي الذي تولى الخلافة من بعده. وهو يقع على ضفة دجلة تحت القصر الحسيني، وقد اعتمد في بنائه على أنقاض القصر الكامل والقصر الأبيض الكسروي الواقع في المدائن، وفي حين استخدمت شرفات قصر كسرى وجدرانه في بناء أساسات قصر التاج، استخدمت أساساته في بناء الشرفات وأعالى قصر التاج، وكنا قد لاحظنا كيف أن الخليفة المنصور حاول كذلك هدم إيوان كسرى واستخدام نقضه في بناء مدينة بغداد المدورة، وقد أقيم وجه قصر التاج على خمسة عقود.⁵

ولم يكتف المكتفي باستكمال قصر " التاج "، بل شيد إلى جواره عددا من الدور والأبنية من أشهرها " قبة الحمار "، وهي عالية مثل نصف الدائرة، وقد سميت بذلك لأنه كان يصعد إليها في مدرج حولها على حمار.⁶ كما كان المتوكل يصعد إلى منارة سرّ من رأى على حمار.

كما شيد مسجدا جامعاً لأداء صلاة الجمعة داخل دار الخلافة، في موضع المطامير التي جعلها المعتضد للسجناء والتي كانت في الأصل للصناع الذين اشتغلوا في تشييد القصر الحسيني، و" صار الناس ييكونون إلى المسجد في الدار يوم الجمعة فلا يمنعون من دخوله ويقيمون فيه إلى آخر النهار ".⁷

ويبدو أن دار الخلافة قد شهدت أوجه توسعها في عهد الخليفة المقتدر، إذ يذكر أنه قد تمّ الطواف بـ 23 قصرا إبان زيارة رسول ملك الروم،⁸ والتي نذكر منها إلى جانب الدور والقصور التي ورد ذكرها: " الجوسق المحدث " وهو عبارة عن دار وسط بساتين من النخيل، و" خان الخيل " وهي دار تحتوي على صحن كبير

¹ - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 4؛ لسترنج، نفس المرجع، ص 214؛

- Canard. M, « Bagdad au IV siècle de l'hégire (X siècle de l'ère chrétienne) », *Arabica*, t IX, 1962, p. 271.

² - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 233.

³ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 99؛ ياقوت الحموي، نفس المصدر، ج 2، ص 4؛

- Canard. M, *Ibidem*, p. 271.

⁴ - الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج 1، ص 109.

⁵ - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 5؛ لسترنج، نفس المرجع، ص 216-217.

⁶ - ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 2، ص 5.

⁷ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 109.

⁸ - الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج 1، ص 104.

(100×100 ذراعا) وعلى عدد كبير من الأروقة والأساطين من الرخام ويوجد فيها ألف فرس، إلى جانب "حير للوحوش" كما هو الشأن بالنسبة إلى سامراء، والذي احتوى على وحوش عديدة ومتنوعة أخرجت بمناسبة زيارة ملك الروم إلى دار ذات دهاليز وممرات متصلة به.¹ وقد شيد حير الوحوش في الأراضي التي بين قصر التاج والثريا على نهر موسى.²

هذا دون أن ننسى "دار الشجرة"، وقد سميت بذلك لشجرة من الذهب والفضة كانت موجودة فيها في وسط بركة كبيرة، عليها الطيور والعصافير وحولها تماثيل الفرسان.³ والتي هي في الحقيقة تقليد لنموذج بيزنطي.⁴ كما بنى الخلفاء بعد الخليفة المقتدر بالله، قصورا أخرى في دار الخلافة، مثل "الدار المثمنة" و"الدار المربعة" وهما من أبنية المطيع لله.⁵

ويحيط بجميع هذه القصور والدور سور، يجمعها ويفصلها عن منازل الرعية وفيه عدة أبواب ذكر منها "باب الدوامات"، "باب عليان" و"باب الحرم".⁶ ويبدو أنه شرع في بناء هذا السور في عهد الخليفة المعتضد. يذكر الخطيب البغدادي أن المعتضد "استضاف إلى الدار تما جاورها كل ما وسعها به وكبرها وعمل عليها سورا جمعها وحصنها".⁷ فقصور دار الخلافة إذن وبساتينها ودورها وميادينها تقع بين هذا السور من جهة الشرق ونهر دجلة من جهة الغرب.

كما يحيط بدار الخلافة سور آخر يضم إلى جانب قصور الخلفاء، محال وأسواقا ودورا كثيرة للرعية، وخاص دار الخلافة، تطلق عليها المصادر اسم "حريم دار الخلافة"، وتصف المصادر سور الحريم هذا بالهلل ونصف دائرة، وتذكر أن "ابتدأه من دجلة وانتهاه إلى دجلة" وهو بمقدار ثلث بغداد.⁸

ويذهب مصطفى جواد إلى أن سور دار الخلافة يبدأ من آخر شارع السموال المقضي إلى شط دجلة ويمتد شرقا على خط نصف دائرة حتى ينتهي في الجنوب عند شط دجلة أيضا.⁹

ولا تشير المصادر إلى تاريخ إنشاء سور دار الخلافة هذا، لكن يرجح أحمد سوسة بأنه شرع في إنشائه على عهد المعتضد وأتمه الخلفاء المتأخرون.¹⁰

¹ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 102-103.

² - لسترنج، نفس المرجع، ص 217.

³ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 103.

⁴ - Canard. M, « Bagdad au IV siècle de l'hégire », *Op.Cit*, p. 271.

⁵ - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 423.

⁶ - ياقوت الحموي، كتاب المشترك، بغداد 1846، ص 130.

⁷ - الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج 1، ص 99.

⁸ - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 251؛ ياقوت الحموي، المشترك، ص 130.

⁹ - مصطفى (جواد)، "دار الخلافة العباسية"، نفس المرجع، ص 104-105.

¹⁰ - سوسة (أحمد)، "الفيضان وغرق بغداد في العصر العباسي"، مجلة المجمع العلمي العراقي، 1962، المجلد 10، ص 40.

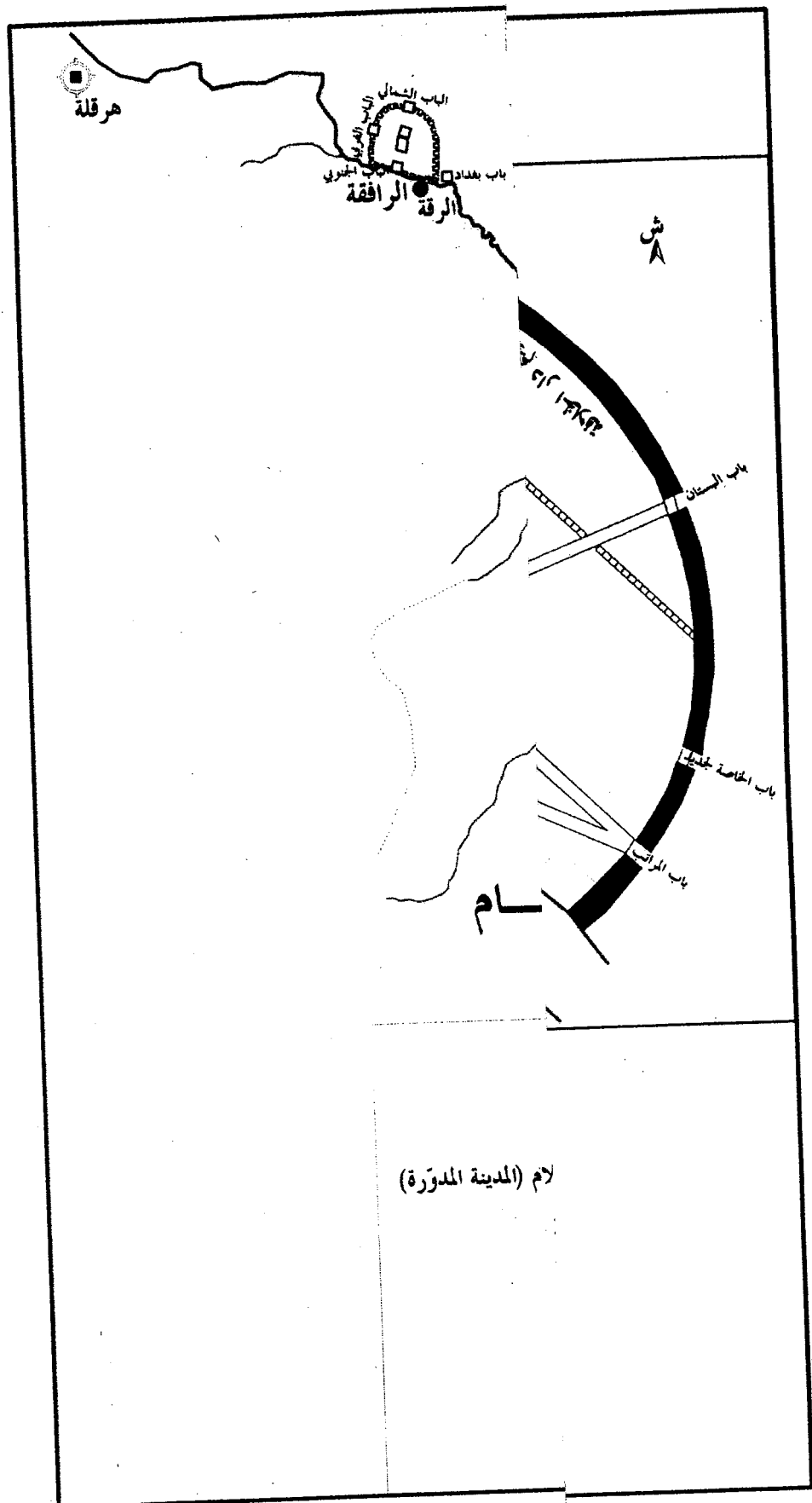
فدار الخلافة إذن تشتمل على سورين: سور داخلي يفصلها عن منازل الرعية والخاصة والأسواق، وسور آخر خارجي يعزلها عن مدينة بغداد الكبرى، ويحتوي على تسعة أبواب وهي على التوالي: من الشمال " باب الغربية " على دجلة، " باب سوق التمر "، (ويعرف كذلك بالباب القائي)، " باب البدرية " (ويعرف كذلك بباب بدر وباب "الخاصة")، " باب النوي " (ويعرف أيضا بباب العتبة نسبة إلى العتبة التي تقبلها الرسل والملوك إذا قدموا بغداد)، " باب العامة " (ويعرف كذلك بباب عمورية الذي نقله المعتصم من عمورية)، " باب النصر "، " باب الخاصة " (أحدثه الطائع لله، تجاه دار الفيل وباب كلواذا، عوض باب الخاصة القديم الذي كان يطلق على باب بدر)، " باب البستان " وأخيرا " باب المراتب " ¹.

نتبين إذن من خلال هذه المعطيات بروز ما يمكن أن نسميه " مركب دار الخلافة العباسية "، الذي مثل القصر الحسيني نواته الأصلية، ثم أضيفت إليه عدّة قصور ودور وبساتين وميادين وحير وغيرها. نتبين كذلك اتساع دار الخلافة العباسية، فهي "دار" بالاسم ولكنها مدينة في الحقيقة ².

مدينة توجد داخل مدينة بغداد الكبرى في القسم الشرقي منها على الضفة اليسرى لنهر دجلة، ولكنها متميزة عنها بأسوارها وأبوابها. فهي إذن مدينة داخل مدينة. فماهي أهم الخصائص المعمارية لهذه المدينة أو الدار، وما مدى تواصلها مع عمارة كل من بغداد والرقّة وسامراء؟

¹ - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 250-251؛ ج 1، ص 307؛ ياقوت الحموي، كتاب المشترك، ص 129-130؛ القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص 315-316؛ سوسه (أحمد)، "الفيضان وغرق بغداد"، نفس المرجع، ص 39.

² - مصطفى (جواد)، "دار الخلافة العباسية"، نفس المرجع، ص 98.



3- الخصائص المعمارية لدار الخلافة العباسية

أما العناصر المعمارية المذكورة في المصادر فهي الأبواب، الأروقة، الأساطين، الممرات، الدهاليز، الآزج، البرك، المداخل، المجالس، العقود، الصحن، الشرفات، والقباب. وتمثل مواد البناء المستعملة في الآجر، الجصّ والرّخام.¹

أما الأقسام الرئيسية لتلك القصور، فضلاً عن شكلها المعماري وترتيبها الداخلي وزخرفتها، فتبقى غير معروفة نظراً لعدم توفر المعطيات الأثرية، بالإضافة إلى أن النصوص التاريخية ركّزت اهتمامها خاصة بالحديث عن محتويات تلك القصور، من أثاث وجواهر وتحف وأسلحة وحيوانات دون الاهتمام بالجانب المعماري. كما أن الاعتماد على النصوص التاريخية وحدها، ومثلما أشار إلى ذلك جربار يبق غير كاف، لأنها غير قادرة على أن تعطينا وصفاً دقيقاً وواضحاً يمكن ترجمته إلى واقع أثري.²

ويشير جربار كذلك إلى أنه باستثناء "باب العام"، الذي حافظ على وظيفته المرتبطة دائماً بعقد المجالس العامة أو الرسمية، فإن كل الأجزاء الأخرى من القصر وقعت تهيئتها لأجل هذه المناسبة والمتمثلة في استقبال الخليفة لرسول ملك الروم. فهو يرى أن كل الوظائف الأخرى في القصر لا ترتبط بأشكال معمارية محدّدة، وإنّ ما تمّ إنجازه وتهيئته، هو الذي أعطى لكل فضاء وظيفته الخاصة به.³

لكن لا بدّ أن نشير إلى عنصر آخر مهم ذكره النص هو "باب الخاصة"، والذي يرتبط وجوده بكل ماهو شؤون خاصة، فبعد المرور بعدّة دور وقصور يصل السفير في النهاية إلى حضرة الخليفة، الذي كان في قصر التاج مما يلي دجلة، وبعد أداء رسالته أخرج من باب الخاصة، الأمر الذي يجعلنا نفترض بأن قصر التاج هو المقر الخاص الذي كان يعقد فيه الخليفة المقنن مجالسه الخاصة وربما كان يقيم فيه كذلك هو وزوجاته وجواريه.

لا بدّ أن نلاحظ كذلك طول المسافة التي قطعها السفير ومرافقيه للوصول من باب العامة إلى حضرة الخليفة. يشير الخطيب إلى أنه لطول المشي بهم جلسوا واستراحوا في سبعة مواضع واستسقوا الماء فسقوا.⁴ ومن ثمة نتبين طول المسافة الفاصلة بين ما هو قسم الشؤون العامة وقسم الشؤون الخاصة في دار الخلافة العباسية.

لكن لا بدّ أن نشير إلى شيء آخر مهم، هو أن الفصل بين ما هو قسم الشؤون العامة وقسم الشؤون الخاصة في مثل هذه المناسبة ينحل ويذوب، إذ يؤدي باب العامة إلى التنازل إلى بعض الأجزاء الأخرى من القصر.⁵ أما

¹ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 99-105؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 4-5.

² - Grabar.O, *La formation de l'art islamique*, Paris 2000, p. 239.

³ - Grabar.O, *Op.Cit*, p.243.

⁴ - Milwright. M, « Fixtures and Fittings. The role of decoration in abased palace design », in *A Medieval Islamic City Reconsidered, An Interdisciplinary Approach to Samarra*, Oxford 2001, p. 107.

⁵ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 104.

في المناسبات الأخرى كيوم الموكب مثلاً، فإن باب العامة هو الحدّ الأقصى الذي لا يمكن تجاوزه، كما أنه يمثل نقطة اللقاء بين الخاصة والعامة.¹

كذلك يوم الجمعة فإن دخول الناس إلى دار الخلافة، لأداء صلاة الجمعة في المسجد الجامع، يكون من باب العامة، فلا يمنعون من دخوله ويقيمون في المسجد إلى آخر النهار، ثم ينصرفون.²

نلاحظ إذن هذه الثنائية أو الازدواجية بين ماهو ما هو قسم الشؤون العامة وقسم الشؤون الخاصة التي ميّزت دار الخلافة العباسية ببغداد، كما هو الشأن بالنسبة لسامراء.

فقد بيّنا في دراستنا لدار الخلافة بسامراء، أنه يشتمل على وحدتين: " دار العامة " التي يجلس فيها الخليفة مرتين في الأسبوع، والتي تحتوي أيضاً في جهتها الجنوبية على قاعة أخرى ذات قبة مزخرفة يرجّح نورثادج أنها كانت مخصصة لعقد المجالس الخاصة.³ وقصر الجوسق الخاقاني الذي يمثل مقر الخليفة الخاص، الذي كان يقيم فيه هو وزوجاته وجواريه ويدفن فيه كذلك.

لكن نلاحظ بخصوص الحديث عن هذه السفارة، غياب المعطيات عن النساء من حرائر و إماء وجواري، واللاقي تشكّلن "الحريم" وعددهن كبير. لكن يبدو من خلال بعض الإشارات المتفرقة التي عثرنا عليها في بعض المصادر الأدبية، أنهن كن يقمن داخل "الحرم" أي الفضاء المخصص من القصر للنساء، ويعرف في دار الخلافة بـ " دار السر " التي لا يجوز لأحد طرقها غير الخلفاء.⁴

ويشير ياقوت الحموي كذلك إلى طريق معقود أزج ابتداء الخليفة المعتضد تحت الأرض، يربط بين القصر الحسيني وقصر الثريا، تمشي فيه جواريه وحرمة وسراريه.⁵

كما نجد لدى التنوخي في بعض روايات كتابه " نشوار المحاضرة "، وصفا لبعض أقسام دار الخلافة العباسية من الداخل وخاصة قسم الحريم منها. وقد برز هذا الوصف بمناسبة زواج تاجر بغدادي من قهرمانة السيّدة أم المقتدر، والتي كانت قد اشترطت عليها أن لا تزوجها إياه إلا بعد أن تراه، فاحتالت على إدخاله إلى الدار بحيلة، حيث وضعت في صندوق من جملة مجموعة صناديق فيها ثياب وحاجيات للسيّدة وطلبت من الخدم حملها إلى الدار.

وتذكر الرواية أنها كانت في كل مرة تختار بطبقة من الخدم والبوايين، فيطلبون منها تفتيش ما في الصناديق من متاع، فتمنع بحيلة إلى أن وصلت في النهاية إلى "دار الحريم"، وأخرجت التاجر من الصندوق ووضعت في حجرة، حيث لم يتمكن من مقابلة السيّدة إلا في اليوم الموالي، فلما رآته أعجبت به، وأذنت لهما في الزواج، فأخرج من الدار في الغد بنفس الطريقة التي أدخل بها.

¹ - Milwright. M, *Ibid*, p. 108.

² - الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج 1، ص 109.

³ - Northedge.A, « The Palaces of the Abbasids at Samarra », *Op. Cit*, p. 36.

⁴ - الصائبي (أبو الحسين هلال)، رسوم دار الخلافة بيروت 1986، ص 87.

⁵ - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 4.

وبعد أيام أتاه خادم القهرمانة وطلب منه القدوم يوم الموكب والوقوف أمام باب العامة حتى يؤذن له في الدخول على الخليفة. فلما جاء يوم الموكب أتى ووقف أمام باب العامة إلى أن استدعي إلى حضرة الخليفة فوجده جالس والقضاة والقواد والهاشميون محيطون به، فسلم عليه ووقف، فتقدم الخليفة إلى بعض القضاة الحاضرين فخطب له وزوجه ثم أخرج من حضرته، ولما صار في بعض الدهاليز القريبة من باب العامة، عدل به إلى دار أخرى عظيمة ومفروشة بأنواع الفرش الفاخرة، فضل فيها والخدم يدخلون ويخرجون عليه بالأطعمة الفاخرة إلى أن زفت إليه صاحبتة.¹

يتبين لنا من خلال هذه المعطيات أن "الحرم" هو أحد الأقسام الرئيسية التي تتألف منها دار الخلافة العباسية ببغداد، يقيم فيه الخليفة مع نسائه وجواريه وبناته والقائمات على خدمتهن، وهو يخضع لحراسة مشددة، ولا يمكن الوصول إليه إلا بعد المرور بعدد الدور والأروقة والممرات والأبواب. ومن ثمة نلاحظ طول المسافة التي تفصل قسم "الحرم" عن قسم الشؤون العامة في دار الخلافة العباسية ببغداد، وهي تقريبا نفس المسافة التي قضاها رسول ملك الروم للوصول من دار العامة إلى مقر الخليفة الخاص في قصر التاج.

فـ "الحرم" إذن هو واحد من ثلاثة أقسام رئيسية تتكون منها دار الخلافة العباسية ببغداد وهذه الأقسام هي: قسم الشؤون العامة، قسم الشؤون الخاصة والحرم. هذه الأقسام كنا قد لاحظناها في الرقة، ولو أنه وقع جمعها في قصر واحد وفصل بينها عن طريق ممر جعل لهذا الغرض.

وكذلك في دار الخلافة بسامراء، والتي تشتمل أيضا على "دار العامة" وهي قصر الخليفة العام، وقصر الجوسق الخاقاني الذي يمثل مقر الخليفة الخاص وكذلك مقر النساء. أي الحرم. وبالتالي نستنتج أن سامراء هي التي أوحى بمخطط دار الخلافة ببغداد.

أما على مستوى النظم فنلاحظ غياب المعطيات عن الدواوين والكتاب، لكن يشير نص الخطيب إلى أنه قبل الوصول إلى الخليفة، تم المرور بدار الحاجب نصر القشوري الذي رافق السفير فيما بعد ومن معه إلى حضرة الخليفة، ثم المرور بالدار التي كانت برسم الوزير " وفيها مجلس أبي الحسن علي بن محمد الفرات يومئذ".²

والمهم هنا حسب ما رواه الخطيب، أن ما رآه السفير في الدار الأولى من منظر وخاصة في الدار الثانية من فرش وستور ودسوت وخدم محيطة بالوزير بالأعمدة والسيوف، جعله يظن أنه قد وصل إلى حضرة الخليفة، وفي ذلك دلالة على الفخامة والأبهة، وكذلك دلالة على التمايز بين هذه المواضع الثلاثة والتدرج بينها: دار الحاجب، دار الوزير، ثم قصر الخليفة الذي يمثل القطب.

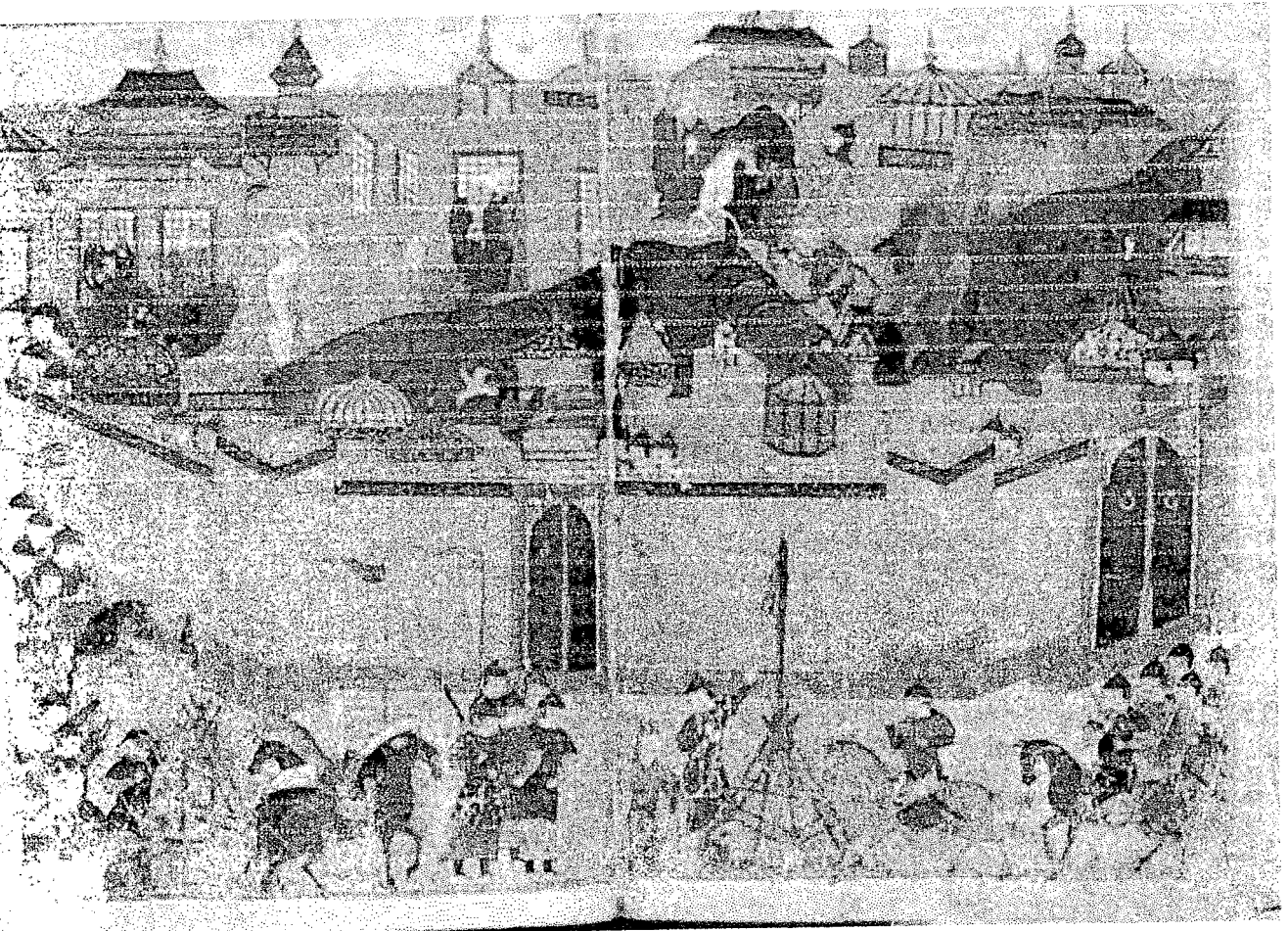
¹- التتوخي، نشوار المحاضرة، ج 4، ص 177-189.

²- الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 100-101.

تظهر هكذا دار الخلافة العباسية بمثابة المدينة الكبيرة التي أخذت شكل هلال أو نصف دائرة، وليس دائرة كما هو الشأن بالنسبة لمدينة أبي جعفر المنصور، والتي تحتوي على عديد الدور والقصور التي يوجد ضمنها الخليفة والحريم والدواوين والخزائن والفرش، والمجالس وهي تختلف حسب وظيفتها العامة أو الخاصة.

مدينة تحتوي كذلك على كل وسائل الترفيه والتسلية من ميادين وبرك وبساتين، ويحيط بها سور يجمعها ويحصنها فيه تسعة أبواب، موزعة حسب ترتيب وظيفي أو تراتبي وليس حسب الأقاليم الأساسية للخلافة العباسية كما هو الشأن بالنسبة لمدينة المنصور. مدينة نواها الأصلية قصر لا مدينة كما أراد أبو جعفر، ولكنها تطورت وأخذت شكل مدينة، لا مجموعة قصر كبيرة كمدينة أبا جعفر. ومن ثمة نلاحظ التحول من مجموعة - المدينة القصر - التي ميزت مدينة بغداد المدورة إلى مجموعة - القصر المدينة - التي ميزت دار الخلافة بالجانب الشرقي.

52 صورة تمثل سقوط بغداد على يد المغول.



فدار الخلافة إذن هي دار بالاسم ولكنها، مدينة ملكية حقيقية، يقارنها البعض بمدينة شيراز.¹ كما يمكننا أن نقارنها بمدينة أخرى معاصرة لها ولكنها أقدم منها وهي مدينة " القسطنطينية"، التي بناها قسطنطين الأعظم، سنة 324 م في موضع البيزنطيوم المدينة اليونانية القديمة، وأتمّ بناءها بعد ستة سنوات.² وقد مثلت في القرن الثامن ميلادي المدينة الإمبراطورية الوحيدة التي لا نظير لها والتي نجت من السقوط الذي شمل مدن العصر القديم.³

وعندما قرّر قسطنطين أن تصبح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية، شيّد القصر الكبير " Le grand palais"، الذي أصبح منذ ذلك التاريخ وحتى أواخر القرن 11 م، المقر الرسمي للأباطرة البيزنطيين.⁴ والقصر الكبير لا يمثل معلما ثابتا ومتناسقا، وإنما هو تراكما لمجموعة من الأبنية تعود إلى فترات وعهود مختلفة.⁵

وقد مثلت المجموعة الأولى من الأبنية شكل مستطيل طويل، محوره الأساسي متجه نحو الشمال والشرق، ويضم هذا الجزء من القصر الكبير: أولا الشالسي « la Chalcé » والتي هي بمثابة الرواق، وتوجد بالقرب من الأغسطيون « l'Augustéon » وتحيط بها العديد من الأبنية كثكنات الحرس البلاطي والسجون. وإلى الجنوب الغربي من الشالسي توجد ساحة واسعة تحيط بها عدّة أبواب، وقد شيّدت فيها قاعة كبرى للاستقبال ولتنظيم دعوات الأكل. وتمثل هذه الساحة حدّا ما يسمى بالدفان « le Daphné » الذي يضم عدّة قاعات موزعة في اتجاه الشرق والغرب. وفي الجهة الشرقية يوجد القصر الذي يسمى بالمماغور « la Magnaure ».⁶

وقد عمل كل الأباطرة الذين سكنوا القسطنطينية على توسيع القصر الكبير وتمييزه. فقد قامت السلالات القسطنطينية « constantiniennes » والتودرية « théodosiennes » ببناء مجموعة منشآت الشالسي والدفان. وقامت السلالة الجستينية « justinienne » بإنشاء قاعة العرش الكبرى التي تعرف بكريستوتريكليينوس "Chrysotriclinos" وكذلك قاعة اللوسياكوس « Lausiakos » والجستيانوس « Justinianos »، وقام تيوفيل « Théophile » ببناء التريكونك ومنازل للسكن الخاص أوسع من الموجودة من قبل، كما قام بازيل الأول « Basile 1^{er} » (877-888) ببناء العديد من المنشآت الأخرى مثل كنيسة النيا « la Nea »....⁷

¹ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 100.

² - Runciman.S, « Baghdad and Constantinople, two centres of medieval civilization », *Sumer*, v XII, 1956, p.44.

³ - Herrin.J, « Byzance : le palais et la ville », *Byzantion*, t LXI, fasc. 1, Bruxelles 1991, p.213.

⁴ - Miranda.S, *Les palais des empereurs byzantins*, Mexico 1965, p.19- 23.

⁵ - Labarte.J, *Le palais impérial de Constantinople et ses abords, Sainte- Sophie, le Forum Augustéon et l'Hippodrome tels qu'ils existaient au 10 siècles*, Paris, s-d, p.59.

⁶ - Miranda.S, *Op.Cit*, p.23.

⁷ - *Ibid*, p. 23.

فالقصر الكبير هو إذن عبارة عن كتلة ضخمة من الأبنية تجمع في نفس الوقت بين الوظائف الحكومية، وقاعات الاستقبال الإمبراطورية، ومنازل السكن الخاصة، والحدائق، وثكنات الجيش، والمجمع الديني....، وقد ربط بينها عن طريق ممرات وأروقة سرية.¹

وهو يمتد على مساحة شاسعة، إذ قدّر طول القسم الأعظم منه بسبعمئة متر وعرضه بمائتين وخمسين متر، وتحده من الجهة لشمالية كنيسة سان سوفي « Sainte Sophie » وموضع الأغوستيون، ومن الجهة الجنوبية الشرقية قصر الماغنور، وشرقاً ثكنات الحرس البلاطي، ومن الجهة الجنوبية الغربية التريكونك « le Triconque » وماجاوره وشرفة الكريسوتريكيلينوس والفار « Phare »، ومن الجهة الشمالية الغربية الميدان « l'hippodrome »، وجنوباً البحر ومرفأه الأساسي الذي كان يعرف بالبوكليون « le Boucoléon ».²

وتحيط بالقصر الكبير أسوار عديدة تحتوي على أبواب كثيرة، تختلف حسب وظيفتها، مثال باب الشالكي « la Chalké » وباب الدار البرنزية « la maison de bronze »، اللذان خصصا لاستقبال أعضاء مجلس الشيوخ، والحرس الإمبراطوري، يختلفان عن الأبواب الخاصة الأخرى، التي جعلت لمرور أشخاص معينين من البلاط إلى المدينة، أو كذلك إلى مرور أشخاص آخرين لا يجوز لهم الدخول إلى القصر، لكن أتيحت لهم فرصة ذلك بواسطة الخدم الإمبراطوري.³

نلاحظ إذن أن القصر الكبير في القسطنطينية، هو كما هو الشأن بالنسبة لدار الخلافة العباسية ببغداد، قصر بالاسم. ولكن في الحقيقة هو مدينة محصنة، تشبه القصور الملكية في العصور الوسطى، أكثر مما تشبه قصور الإمبراطورية الرومانية القديمة.⁴

لذلك يمكن القول بأن الخلفاء العباسيين عندما قرروا العودة إلى بغداد، كانت لديهم نية تأسيس مدينة ملكية على شكلة القصر الأعظم بالقسطنطينية، فلم يجدوا من قصور الخلافة، من يصلح لذلك سوى القصر الحسيني، الذي برهن في النهاية على قدرة فائقة في التحول إلى دار أخذت شكل المدينة الملكية، والتي أصبحت فيما بعد تضاهي أو حتى تفوق مدينة القسطنطينية، حيث توجد بعض الإشارات التي تفيد بأن الإمبراطور البيزنطي تيوفيل عندما قرر تحديد قصره الملكي في القسطنطينية أرسل إلى بغداد يطلب التصاميم والتفاصيل.⁵ لذلك يمكننا القول بأنه لو كانت مدينة طيسفون الساسانية هي التي أوحى إلى الخليفة المنصور بتخطيط مدينة بغداد المدورة، فإن مدينة القسطنطينية هي التي أوحى بعمارة دار الخلافة العباسية في بغداد الشرقية.

¹ - Herrin.J, « Byzance : le palais et la ville », *Op.Cit*, p.217.

² - Miranda.S, *Op.Cit*, p.23.

³ - Herrin.J, « Byzance : le palais et la ville », *Ibid*, p.217- 218.

⁴ - Labarte.J, *Op.Cit*, p.59.

⁵ - Runciman.S, « Baghdad and Constantinople..... », *Op.Cit* p.46.

لكن رغم ذلك التأثير أو التأثير فقد حافظت دار الخلافة العباسية بالجانب الشرقي على أهم خصائص العمارة العباسية والتي من أبرز سماتها الفصل بين كل ما هو شؤون خاصة وشؤون عامة، وكذلك الفصل بين كل ما هو داخلي وخارجي وخاصة الفصل بين الرجال والنساء.

خاتمة

إن دراستنا لدار الخلافة العباسية تمكنا من إبداء الملاحظات التالية:

- أولاً: نلاحظ أن كلمة " دار " هي الكلمة المحددة للبلاط العباسي في شكله المادي وقد تطورت الكلمة فقد استخدمت في بغداد المدورة للدلالة على الرحبة التي فيها دار الخلافة، وأطلقت في الرقة على عاصمة الخلافة، بينما استخدمت في سامراء للدلالة على المركب الذي يضم دار العامة وقصر الجوسق الخاقاني، ثم أصبحت تستعمل في بغداد إثر عودة الخلافة إليها في الجانب الشرقي للدلالة على المركب الذي يضم مجموعة من القصور. وهكذا غدت كلمة دار عند العباسيين موازية لكلمة بلاط.

- ثانياً: لقد استجابت دار الخلافة العباسية لمفهوم المدينة الملكية على مراحل وبصفة تدريجية يمكن تتبعها على النحو التالي: فقد أراد المنصور أن تكون مدينة بغداد مدينة ملكية مثلما يدل على ذلك اختياره الشكل المستدير للمدينة ووضعه للقصر في وسطها، لكن هناك عنصراً أفقداً بغداد صفة المدينة الملكية، أولاً الأسواق وقد نبّه سفير ملك الروم الخليفة المنصور إلى ذلك فقام بإخراجها إلى منطقة الكرخ. لكن هناك عنصر ثانٍ أفقد بغداد صفة المدينة الملكية وهو تأسيس المسجد إلى جانب القصر، لأنه سيفسح المجال للرعية للدخول إلى المدينة لأداء صلاة الجمعة، في حين أن الدخول إلى المدينة الملكية لا يكون إلا عبر ما يمكن أن نسميه " تذكرة عبور"، وقد جعل ذلك الخليفة المنصور يترك بغداد وينتقل إلى قصر الخلد، الذي اتخذ مقرّاً خاصاً، وحافظت بغداد على دورها كمجمع لدوائر حكومية، أي كمدينة رسمية خليفية أكثر مما هي مدينة ملكية.

ثم انطلاقاً من عهد الرشيد وتأسيسه لحصن القادسية بدأت المحاولات الأولى لإبعاد المسجد عن القصر، لكن دون إقصائه من المجال المركزي. لكن الرشيد لم يستقر في القادسية وآثر الاستقرار في الرقة. وقد استقر في البداية في قصر مدينة الرافقة التي بناها جده المنصور على شاكلة بغداد ثم أسس إلى الشمال من أسوار الرافقة قصوراً لإقامته هو ونسائه ولأستقبالاته الخاصة، وذلك قبل أن يبني قصور الرقة التي جمع فيها بين قسمي الشؤون العامة والخاصة، مع الفصل بينهما عن طريق ممر جعل لهذا الغرض، حيث بدت تلك القصور مثلما أشرنا إلى ذلك وكأنها متصلة ومنفصلة في نفس الوقت، والتي غدت السمة الأساسية للقصور العباسية. كما شهدت تلك القصور بروز الحرم كقسم أساسي من أقسام القصر العباسي بالإضافة إلى إنشاءه لميادين سباق الخيل. وعلى هذا الأساس مثلت الرقة أولى المدن الملكية العباسية، والتي تواصلت مع تأسيس المعتصم لمدينة سامراء التي فصلت فيها الأسواق والمسجد الجامع عن قصر الخليفة منذ البداية، وظهر مركب دار الخلافة الذي أصبح يضم دار العامة التي يجلس فيها الخليفة للعامة كل يوم اثنين وخميس، وقصر الجوسق الخاقاني الذي يمثل مقر الخليفة الخاص. ويمثل مركب دار الخلافة في سامراء تطوراً لقسمي الشؤون العامة والخاصة في الرقة،

لكن ما يميز الرقة عن سامراء هو أن كل قسم قد خص بقصر خاص، وكذلك بروز ميادين البولو. وغدت سامراء مدينة ملكية حقيقية على شاكلة مدينة الرقة والمدن الساسانية (طيسفون) والرمانية. ومن هنا نتبين أهمية العمارة العباسية في الرقة كحلقة ربط بين عمارة بغداد المدورة انطلاقاً من الرفقة وعمارة سامراء انطلاقاً من قصور الرقة.

ولما عادت الخلافة من جديد إلى بغداد وظهر مركب دار الخلافة حافظ على نفس خصائص سامراء، حيث تشير المصادر إلى دار العامة وباب العامة، وأصبح الناس يدخلون إلى المسجد الجامع لأداء صلاة الجمعة من باب العامة فلا يمنعون من ذلك وليس كما هو الشأن بالنسبة لمدينة بغداد المدورة. كما حافظت دار الخلافة في بغداد على الحرم كقسم مستقل بذاته. وبرز "باب الخاص"، وهو العنصر الذي يميز دار الخلافة في بغداد عن سامراء. نلاحظ أن دار الخلافة في بغداد تمثل تطوراً لدار الخلافة في سامراء.

- ثالثاً: عبّرت دار الخلافة العباسية عن الايديولوجيا العباسية، فقد أدّت مدينة الهاشمية دورها الإيديولوجي، المتمثل في التأكيد على أحقية أهل البيت بالخلافة، وعبّرت بغداد عن السيطرة الكونية للخليفة المنصور والتي تجلّت من خلال شكل المدينة ومحل الخليفة منها، كما عبّرت هرقلّة عن ملكية الرشيد عن طريق الأبواب الأربعة والأواوين الأربعة والمخاور الأربعة، فهو ملك الجهات الأربعة. ورمز حصن القادسية أو البناء المثلث إلى الملك اللامعاني للرشيد، كما تجلّت النظرة الكونية أو فكرة السيادة في عهد الخليفة المتوكل في حلبة السباق المكونة من أربعة حلقات حول بناية مركزية على شكل صليبي محوري موجه في الاتجاهات الأربعة. كما يشير الفصل بين ما هو شؤون خاصة وعامة وبين الحرم والرجال إلى مبدأ التزاوج والتناظر لدى الخلفاء العباسيين. كما عبّرت هرقلّة عن نهاية حكم الرشيد وسقوط منازلها في الرقة، وعبّرت أبواب بغداد، مثل "باب الغربية"، "باب النصر" عن ضعف الخلافة العباسية.

- أخيراً إن دار الخلافة العباسية انطلقت ساسانية من خلال مدينة بغداد المدورة طبعاً دون أن تنفي دور التأثيرات الإسلامية الأولى، لتنتهي ببيزنطية من خلال مركب دار الخلافة الذي أوحى به القصر الأعظم ببيزنطة، لكن مع المحافظة على أهم خصائص العمارة العباسية والتي من أهم سماتها الفصل بين ما هو داخلي وخارجي أي داخل الأسوار وخارجها «extra - muros» et «intra- muros» كذلك الفصل بين ما هو شؤون عامة وشؤون خاصة عن طريق بروز دار العامة وباب العامة كفضاء معماري لأول مرة في العمارة الإسلامية، وأيضاً الفصل بين النساء والرجال عن طريق بروز الحرم كذلك كفضاء معماري لأول مرة في العمارة الإسلامية "حرمك" و"سلمك"، والذي يكشف لنا أن البلاط ليس فقط ظاهرة مادية بمعنى الدار أو القصر بل هو كذلك ظاهرة إنسانية، أو اجتماعية.

الباب الثاني

مجتمع البلاط
أو مجتمع دار الخلافة العباسية

تمهيد

يرأس الخليفة مجتمع البلاط العباسي، ويستند في هذا الدور إلى قرابته من الرسول محمد. ويحيط به أناس كثيرون بعضهم يرتبط به عن طريق القرابة وبعضهم عن طريق الخدمة أو الولاء. وقد تميزت في البلاط طبقة أهل الخليفة من أولاده وأقاربه وكان يطلق على أفرادها اسم بنو هاشم أو العباسيين.

أما الخدمة في البلاط العباسي فقد كانت موكولة إلى عدد كبير من الموظفين موزعين في قصر الخليفة على وظائف وأعمال مختلفة، ولهم في ذلك ألقاب ينتحلونها، ومراتب ينتمون إليها، فكانت فئة منهم تهم بتصريف شؤون الخلافة والحكم بصفة عامة (مثل الوزراء، والكتاب، والشرطة ..)، وفئة أخرى تختص بخدمة الخليفة مباشرة مثل الخدم، وأخرى تهم بالإشراف على القصر وتنظيم مجالسه وحفلاته ومواكبه واستقبالاته مثل الحجاب.

ولا بد أن نشير إلى أن الوظائف في البلاط العباسي، لم تخلق دفعة واحدة، وإنما البعض منها ورثه العباسيون عن الأمويين، والبعض الآخر أخذوه عن الفرس والبيزنطيين. كما أن البعض منها استحدثت بحكم التطور خلال العصر العباسي الأول والثاني. كما أن الوظائف في البلاط العباسي لم تبق على حالها، فقد تغير بعضها، وأدخلت على البعض الآخر بعض التعديلات والتحسينات الجديدة، وذلك بحكم دخول عناصر جديدة إلى البلاط العباسي، حملت معها البعض من نظمها وعاداتها وتقاليدها.

وقد كانت الخدمة في البلاط العباسي في بداية الأمر محدودة الآفاق ومناطة بعدد قليل من الموظفين ثم أخذت بعد ذلك في التوسع والتطور، وذلك بحكم توسع العباسيين في عيشهم، وانتشار مظاهر الترف والبدخ، مما تطلب إلحاق آلاف الأشخاص الآخرين بوظائف عديدة في البلاط.

كما كان البلاط العباسي يعجّ بأعداد كبيرة من النساء الحرائر والجواري والإماء، واللاقي تشكّلن "الحريم". فالناس الذين يظهرون في دار الخلافة العباسية هم كثيرون، وينتمون إلى أصناف عديدة مختلفة، حسب العرق، والعبودية، والحرية والخصاء، والجنس، والوظيفة.

وهنا لا بد أن نشير إلى تعدّد التسميات التي استخدمتها المصادر للدلالة على الوسط البشري الذي يحيط بالخليفة، أي « la cour »، والتي شهدت تطورا من العصر العباسي الأول إلى الثاني، فقد ظهرت في بداية العهد العباسي بعض التسميات مثل "جموع". ذكر الدينوري أن أبا العباس السفاح " سار من الحيرة في جموعه حتى أتى الأنبار فاستطابها فابتنى بها مدينة بأعلى المدينة عظيمة لنفسه وجموعه".¹ كذلك "حاشية" و"أتباع"، ذكر الاصطخري أن المنصور ابنتى مدينة بغداد في الجانب الغربي "وجعل حوالها قطائع لحاشيته ومواليه وأتباعه".² ويبدو هنا أن الحاشية والأتباع يمثلان فئتان متميزتان.

¹ - الدينوري، الأخبار الطوال، القاهرة دس، ص 375.
² - الاصطخري، المسالك والممالك، الجمهورية العربية المتحدة، 1961، ص 58.

وقد استخدمت كلمة حاشية أيضا في عهد الخليفة المأمون، ذكر ابن الساعي "وكان في حاشية المأمون أناس كرهوا ذلك".¹ أي تعيينه لعلي الرضا وليا للعهد وخليفة من بعده. ولا يذكر لنا من يمثلون هؤلاء الحاشية. وتواصل استخدام كلمة حاشية في العهد العباسي الثاني. فقد جاء في تجارب الأمم لابن مسكويه أن الوزير علي بن عيسى "أسقط الزيادة التي لحقت القواد وسائر أصناف الجند ولحقت الخدم والحاشية وجميع الكتاب والمتصرفين".² وصارت كلمة حاشية تستخدم كذلك في صيغة الجمع، فقد ذكر الخطيب البغدادي في وصفه لاستقبال الخليفة المقتدر "ورُتّب الحجاب وخلفاؤهم والحواشي على طبقاتهم، على أبوابها ودهاليزها وممراتها ومخترقاتها وصحونها ومجالسها...".³ ولم يحدّد لنا تركيبة هؤلاء الحواشي. كما نجد كلمة أخرى موازية لكلمة "حاشية" وهي "بطانة" وقد برزت بصفة خاصة في كتب الأدب السلطانية، مثال "خاصة الملك وبطانته"، "بطانة الملك وقرابته"، "بطانته وخاصته".⁴ كما ظهرت في العصر العباسي الثاني تسمية أخرى وهي "الحشم"، فقد ذكر مسكويه أن الوزير عيسى بن علي أطلق ما وصله من الأموال من فارس وأصبهان ونواحي المشرق "في الفرسان والحشم والخدم".⁵ ويضيف أيضا أن الحسين بن حمدان لما عاد إلى دار الخلافة بعد تحية الخليفة المقتدر قاتله من فيها من الخدم والعلماء والحشم.⁶ ورغم أن ابن منظور يشير إلى أن الحشم هم الخدم،⁷ فإنه يبدو من خلال ما أورده مسكويه بأنهم يمثلون فئة مغايرة للخدم، وأنهم يقيمون داخل دار الخلافة. ويبدو أيضا أن الحشم كانوا يمثلون فرعا من فروع الحاشية، لأن مسكويه يضيف بأنه لم يبق مع المقتدر بعد عزله سوى مؤنس الخازن وغريب الخال والحاشية.⁸ وقد ذكر الحشم أيضا ضمن أولئك الذين حضروا خطبة أحد التجار على قهرمانة السيدة أم المقتدر، والذي أدخل على الخليفة "وهو على السرير والقضاة والهاشميون والحشم قيام".⁹ كما استخدمت المصادر كلمة أخرى لتسمية الأشخاص المقربين من الخليفة وهي "الخاصة"، فبعد أن أتت على أبي جعفر في خلافته عشرون سنة دعا بوجود بني هاشم ووجود قواده وخاصته، وأخذ عليهم البيعة لابنه محمد المهدي.¹⁰ وكان الخليفة المعتصم شديد الحجاب لا يصل إليه أحد من غير الخاصة.¹¹

¹ - ابن الساعي، تاريخ الخلفاء العباسيين، ص 51.

² - مسكويه، تجارب الأمم، ج 1، ص 29-58.

³ - الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج 1، ص 100.

⁴ - الثعلبي، أخلاق الملوك، بيروت 2003، ص 45-70-153.

⁵ - مسكويه، نفس المصدر، ج 1، ص 43.

⁶ - مسكويه، نفس المصدر، ج 1، ص 6.

⁷ - ابن منظور، لسان العرب، ج 1، ص 646.

⁸ - مسكويه، نفس المصدر، ج 1، ص 6.

⁹ - التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 366.

¹⁰ - ابن أعثم الكوفي، كتاب الفتوح، ج 8، ص

¹¹ - الاتليدي، إعلام الناس، ص 184.

وقد تستخدم كذلك كلمة خاصة في صيغة الجمع، أي "خووص"، فقد أمر المأمون بجميع خواوص الأولياء وأخبرهم أنه نظر في ولد العباس وولد علي فلم يجد أحد أحق من علي الرضا أن يوليه العهد من بعده.¹ كما ورد ذكر خواوص المقتدر ضمن الذين رفضوا المشاركة في تنحيته، وتنصيب عبد الله بن المعتز.²

ورغم أن ابن منظور يشير إلى الحاشية على أنها أهل الرجل وخاصته.³ فإن بعض الإشارات الواردة في المصادر تفيد بأن الخاصة تمثل فئة مغايرة للحاشية. فقد كان الوزير علي بن عيسى يتقدم إلى الخلق من الخاصة والعامّة والحاشية.⁴ وفي حين ورد ذكر الحواشي، داخل الدار في الممرات والصحون والمجالس، بمناسبة استقبال الخليفة المقتدر لرسول ملك الروم، ورد ذكر الخواوص خارج الدار بين أبواب المدينة ذكر الخطيب البغدادي "ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة... فكانوا من أعلى باب الشماسية وإلى قريب من دار الخلافة وبعدهم الغلمان الحجرية والخدم الخواوص الدارية والبرانية إلى حضرة الخليفة".⁵ وبالتالي يمكن التمييز بين الصنفين الخواوص والحواشي وذلك من خلال موقعهما في المكان (داخل وخارج الدار).

لكن وردت إشارة أخرى لدى مسكويه قد تدل على أن الحاشية والخاصة يمثلان فئة واحدة. فقد ذكر أنه لم يواطئ على إزالة المقتدر وتنصيب عبد الله بن المعتز سوى ابن الفرات وخواوص المقتدر. وأضاف في نفس الوقت أنه لم يبق مع المقتدر من رؤساء القواد غير مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال والحاشية.⁶ أيضا من بين التسميات الأخرى التي استخدمتها المصادر للدلالة على العناصر البشرية المكونة لدار الخلافة العباسية هي كلمة "أهل"، وقد ظهرت بصفة خاصة في القرن الرابع هجري، فقد ذكر أبو هلال الصائبي أنه أحصى في دار الخلافة في عهد الخليفة المقتدر "أربعمائة حمام لمن تحويه من أهلها وحواشيها".⁷ ونلاحظ هنا نوعا من الفصل بين الأهل والحواشي.

ويبدو أن الكلمة قد تطور استعمالها وأصبحت تطلق فيما بعد على كافة أهل الدار، يذكر مسكويه "وغلّب القنوط على الكافة من أهل الحضرة".⁸

نلاحظ إذن تطورا وتنوعا في التسميات التي استخدمتها المصادر للدلالة على الوسط البشري الذي يحيط بالخليفة، وهي تتراوح عموما بين الأتباع، والحاشية، والحواشي، والحشم، والخاصة، والخواوص، والأهل. وتشير كل تسمية من هذه التسميات في غالب الأحيان إلى فئة مغايرة للأخرى، فالأتباع ليسوا بالحاشية، والحشم ليسوا بالخدم، والحواشي ليسوا دائما بالخواوص. فأي التسميات إذن أقرب إلى كلمة « cour » أو « courtisans » الغربية، هل هي كلمة حاشية أم هي كلمة خاصة أم الاثنان معا، أم هي كلمة أهل؟.

1- المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 28.

2- مسكويه، المصدر السابق، ج 1، ص 5.

3- ابن منظور، لسان العرب، ج 1، ص 647.

4- مسكويه، المصدر السابق، ج 1، ص 32.

5- الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج 1، ص 100.

6- مسكويه، المصدر السابق، ج 1، ص 5-6.

7- الصائبي، رسوم دار الخلافة، ص 8.

8- مسكويه، نفس المصدر، ج 2، ص 241.

إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضي منا تحديد تركيبة كل فئة من هذه الفئات وهو عمل يصعب القيام به، لقلة المعلومات المتوفرة لدينا في المصادر، لكن يبدو من خلال بعض الإشارات المتفرقة أن الخاصة يمكن أن يكونوا من بين أفراد أسرة الخليفة، فمن بين خواص الخليفة المأمون مثلاً أخاه المعتصم وابنه العباس.¹

أو كذلك من بين الكتاب، فقد كان عبد الملك بن حميد من خاصة الخليفة المنصور. أو من بين الوزراء أيضاً مثل عبد الملك بن زيات الذي كان من خواص الخليفة المعتصم ومن أتباعه.² في حين لم يذكر الوزير الحسن بن الفرات من ضمن خواص الخليفة المقتدر. كما يمكن أن يكون الخواص أيضاً من بين الندماء،³ أو من بين الخدم، فمن جملة خواص الخليفة المأمون الخدم، كذلك الخدم الخواص الدارية والبرانية، في عهد الخليفة المقتدر. كما تشمل فئة الخاصة أيضاً الغلمان الذين أعتقهم الناصر.⁴

ويبدو أن فئة الخواص قد شهدت اتساعاً في عهد الخليفة المعتضد، إذ بلغت حسب ما أورده أبو هلال الصائبي حوالي خمسين ألف إنسان، وشملت في نفس الوقت الوزراء والكتاب والخواشي والأصحاب والأمراء والقواد والأشراف والقصة والشهود والتناء والتجار وأولي المروات والأحوال الوافرات.⁵ أي تقريباً شملت كل المحيطين بالخليفة، وصارت تمثل ما يمكن أن نطلق عليه بالفرنسية «la cour».

ولا تذكر لنا المصادر المتوفرة لدينا المقاييس التي على أساسها يتم اختيار هؤلاء الخاصة، فقد اكتفت في الكثير من الأحيان بالإشارة إلى الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها، فقد كان للخاصة بيت مال خاص يعرف ببيت مال الخاصة، وكان لهم أيضاً باب خاص يدخلون منه في سامراء وبغداد يعرف بباب الخاصة، وهو يختلف عن باب العامة، الذي كنا قد أشرنا إليه وكذلك خزائن خاصة، ولهم أيضاً مجلس خاص يعرف بمجلس الخاصة.⁶ عموماً يمكن القول بأن الخاصة عكس العامة، هم أناس يختصهم الخليفة لنفسه، ويكونون إما من أهل بيته، أو من أصحاب الوظائف في البلاط، وهم يتغيرون بتغير الخليفة. فهم إذن لا يمثلون طبقة معينة أي نخبة "les élites" بمفهومنا الحالي. وإنما هو امتياز ذو طابع إنساني يمنحه الخليفة لمن يريد حسب اختياره، بقطع النظر عن الدور الذي يلعبه صاحبه في البلاط، ولا يتمتع أفرادها بأي وضع قانوني أو رسمي.⁷ ولعل محاولة ترجمة الخاصة بـ «les courtisans» أو «cour»،⁸ فيه إقصاء لعناصر أخرى كان لها دور

1- الاتليدي، المصدر السابق، ص 164.

2- الجهشيار، الوزراء والكتاب، ص 97؛ ابن الطقطقي، الفخري في الأدب السلطانية، بيروت 1966 ص 233.

3- المسعودي، المصدر السابق، ج 4، ص 14.

4- المسعودي، نفس المصدر، ج 4، ص 14؛ الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج 1، ص 100؛ الصائبي، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، دار إحياء الكتب العربية 1958، ص 21.

5- الصائبي، رسوم دار الخلافة، ص 21.

6- مسكويه، المصدر السابق، ج 1، ص 241، اليعقوبي، نفس المصدر، ص 26؛ الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج 1، ص 105؛

7- Beg. M. A. G, sv "Al-khassa wa-l-'amma", *Op.Cit*, t IV, p. 1129.

8- Beg. M. A. G, sv "Al-khassa wa-l-'amma", *Op.Cit*, t IV, p. 1129.

في البلاط، فلم يعدّ القواد والكتاب مثلاً من بين خواص الخليفة المقتدر.¹ كما أن مدى اتساع فئة الخاصة يختلف من خليفة إلى آخر.

كما مثلت الحاشية في غالب الأحيان فئة مغايرة للخاصة. وهي بدورها تثير إشكالا في تحديد تركيبها. ففي بعض الأحيان لا يذكر الوزير من ضمن حاشية الخليفة.² ولم نعث في المصادر التي اطلعنا عليها على أي ذكر لشخص ما على أساس أنه كان في حاشية فلان، كما هو الشأن بالنسبة لفئة الخاصة. كذلك لم نجد في الموسوعة الإسلامية تعريفا للحاشية. لكن وردت إشارة لدى مسكويه قد تمكنا إلى حد ما من تحديد تركيبة الحاشية. ففي مناظرة ابن الفرات لعللي بن عيسى قال له " أنت قد أسقطت من أرزاق الحرم والولد والحشم والفرسان الذي كنت أوفيتهم أرزاقهم على الإدرار في أيامي الأولى والثانية". فأجابه " أنت كنت تعول في النفقات على ما كنت تحوله من بيت مال الخاصة إلى بيت مال العامة فترضي به الحاشية وتخرب بيت المال".³ يبدو إذن من خلال هذا المقطع أن الحاشية في عهد الخليفة المقتدر كانت تضم في نفس الوقت الحرم، الولد، الحشم والفرسان.

لكن مرة أخرى لا يمكننا ترجمة كلمة « les courtisans » بالحاشية، لأنها لا تمثل إلا فئة محدودة، وحتى وإن أضفنا إليها فئة الخاصة، فإنهما لا يؤديان المعنى، نظرا لما تتميز به كلمة « COUR » من شمولية واسعة، ونظرا كذلك لما تحتويه دار الخلافة من فئات أخرى لا يمكن تحاشيها، وفي التقرير الذي أعدّه الوزير علي بن عيسى حول الخرج والنفقات لسنة 306 هـ / 918 م - والذي أورده لنا أبو هلال الصائبي - ذكر لأهمها، وهي تتألف عموما من الأتراك في المطابخ الخاصة والعامة، السيدة شغب (أم ولده المقتدر)، الأمراء، الحرم، الخدم، الموكلون بالحيوانات في الاصطبلات، الجلساء، صاحب الشرطة، الغلمان الحجرية والموكبية، الصنائع في خزائن الكسوة والسلاح الفرش.⁴

كما أورد كذلك مسكويه في عرضه للتدابير التي اتخذها علي بن عيسى في وزارته الثانية سنة 315 هـ / 927 م، والتي تتمثل في التخفيض من الأرزاق ذكر لأهم الفئات المكونة لدار الخلافة وهي تتمثل في الخدم والحشم والندماء والمغنيين والتجار وأصحاب الشفاعات والغلمان وأصحاب الدواوين.⁵

وبصفة عامة يمكن تمييز الفئات الرئيسية التالية في دار الخلافة: الخدم، الحشم، الطباخون، الغلمان، الندماء، المغنيين، الجلساء، الإداريون، الشرطة، الأمراء، الحرم، وهي تشبه إلى حد ما الفئات المكونة للبلاط البيزنطي، والتي تتألف من " أصدقاء الإمبراطور، وأصحاب المراتب البيروقراطيون، والطباخون، والبوابون والخدم،

¹ - مسكويه، المصدر السابق، ج 1، ص 6.

² - التتوخي، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 311.

³ - مسكويه، نفس المصدر، ج 1، ص 108.

⁴ - الصائبي، رسوم دار الخلافة، ص 21-22-23-24-25.

⁵ - مسكويه، نفس المصدر، ج 1، ص 152.

والموكلون برفع الستارة أثناء المجالس، والمهتمون بتسخين الحمامات في القصر، وصائغي الذهب الإمبراطوري، والموكلون بالإضاءة وبالساعة، بالإضافة إلى الخدم المهتمون بطاولة الإمبراطور والإمبراطورة....¹ .

لذلك يمكن القول بأن أقرب تسمية يمكن أن نطلقها على هذه الفئات المختلفة، وترجم بها كلمة « les courtisans » أو « la cour »، هي " أهل " لأنها ربما أكثر شمولاً، ويمكن أن تؤدي المعنى نفسه.

وهنا لا بدّ أن نشير إلى أن كلمة أهل ترتبط بتقاليد عربية قديمة، فقد كانت تطلق في البداية على " أهل البيت " وتعني سدة بيت الأوثان والمسؤولين عن وظائف السيادة في مكة قبل الإسلام، وترتبط بمفهوم آخر رفيع هو مفهوم الشرف، ثم أصبحت ترمز في الإسلام إلى أهل بيت الرسول محمد.²

وقد استخدم الأمويون هذا اللفظ -أهل البيت- ووظفوه لصالحهم لكن بالمعنى الجاهلي للكلمة، أي أصحاب الشرف والعزة، وذلك لإكساب أنفسهم شرعية تاريخية.³ أما العباسيون فقد استخدموه بالمعنى الإسلامي للكلمة، أي بحكم قرابتهم من الرسول محمد، وذلك في إطار صراعهم ضدّ بني أمية، للتأكيد على أحقيتهم بالخلافة، ولكسب مزيد من الشرعية.

ويبدو أن كلمة أهل قد تطور استخدامها وصارت تطلق في القرن الرابع هجري على أهل دار الخلافة أو أهل الحضرة، أي بما في ذلك أهل البيت من العباسيين والحواشي والخدم والغلمان، إلخ.... وبالتالي من هذا المنطلق تصبح كلمة دار هي المحددة للبلاط العباسي في معناه المادي، وكلمة أهل هي المحددة له في معناه الإنساني. لكن لا يمكن أخذ ذلك بصفة مطلقة لاسيما وأن هذه التسمية أي -أهل- لم يرد ذكرها في المصادر إلا مرتين، كما أنه قد وقع في مرة الفصل بينها وبين الحواشي.

إذن بعد هذا العرض الموجز لمختلف التسميات التي استخدمتها المصادر للدلالة على الوسط البشري الذي يحيط بالخليفة العباسي يمكن الخروج بالملاحظات التالية:

- أولاً نلاحظ غموضاً وعدم وضوح في المعنى الذي تحمله مختلف هذه التسميات: حاشية، حواشي، حشم، خاصة، خواص والتي تختلف طبقاً للإطار الذي ذكرت فيه، إلى درجة يصعب معها إيجاد تسمية دقيقة وواضحة يمكن أن تنطبق على البلاط العباسي في معناه الإنساني وتكون موازية لكلمة « la cour ». لكن على الأقل فقد توصلنا إلى طرح ما تمثله هذه القضية -أي قضية التسمية- من إشكالية.

¹ - McCormick (Michael) and Kazhdan. P (Alexander), « The Social World of the Byzantine Court » *Op. Cit*, p. 176- 185.

² - فاروق عمر " مصطلح أهل البيت "، المدخل إلى تاريخ آل البيت منذ فجر الإسلام وحتى مطلع العصر الحديث، عمان 1998، ص 1-17؛

- Sharon. M, « Ahl al- bayt _ people of the house », *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, 8, 1986, pp.169- 184.

³ - بن حسين بئينة، الدولة الأموية ومقوماتها الإيديولوجية والاجتماعية، رادس 2008، ص 341- 343.

- ثانيا نلاحظ أن هذا الغموض في المصادر أبرز لنا أن البلاط ليس مؤسسة بالمعنى الرسمي للكلمة، وإنما هو عبارة عن تجمع بشري غير ثابت ودائما في تغير مستمر. فالعنصر البشري إذن هو الأصل، ومن هنا يمكن أن نتحدث ومثلما أشار إلى ذلك ضناوي عن بلاط متنقل يرحل برحيل الخليفة ويحل بحلوله.¹

- ثالثا نلاحظ أن مجموعات عديدة (خدم، غلمان، كتاب، وزراء، جلساء، مغنيين، ندماء، حريم...) أقحمت في دار الخلافة العباسية، إلى درجة يصعب معها تحديد أي منها يمثل الخاصة وأي منها يمثل الحاشية أو الحشم، لكن يبدو واضحا من المصادر أن الناس في دار الخلافة العباسية ينقسمون إلى عالمين اثنين: عالم ذكوري أو رجالي كبير العدد ومتنوع الأعراق والوظائف، وله اتصال بالدار ومع الخارج، يمثل أولاد الخلفاء وأقاربهم والموظفون على اختلاف مراتبهم. وعالم أنثوي مغلق تمثله نساء الخليفة وجواريه وجواريهن أي الحرم وعددهن كبير أيضا، ويمكن أن نضيف إليهن أولاد الخلفاء حديثي العهد، والرابط بين هذين العالمين هو الخليفة، وكلا العالمين يخضع في تنظيمه إلى توزيع تراتبي هام.

ولذلك فإن العمل لا يجب أن يقف عند هذا المستوى بل لا بدّ من الغوص أكثر ومحاولة التعرف على مختلف هذه الشخصيات والفئات التي كانت تشكل "مجتمع دار الخلافة"، والفصل بينها ووضعها في إطارها الزماني والمكاني العام.

وبما أن هؤلاء الناس الذين يظهرون في دار الخلافة العباسية هم كثيرون ونحن مضطرون والحالة هذه إلى الحديث عنهم فقد دفعتنا هذه الكثرة وهذا العدد إلى تكوين قاعدة بيانات، "une base de données"، وذلك باعتماد برمجية إعلامية "acces"، ساعدنا على إنجازها مركز دراسة تاريخ النصوص في باريس. وقد قمنا فيها بحصر جميع الأشخاص الذين كانت تربطهم بالخليفة العباسي علاقة خدمة، أو قرابة أو ولاء وذلك من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المستكفي.

فقد جعلنا لكل شخص كان له دور في البلاط جذاذة خاصة به تحتوي على معلومات ذاتية (des informations biographiques)، وفرقنا لنا المصادر، وخاصة كتب الطبقات والتراجم. وقد جعلنا لكل مصدر رمز خاص به، وقع الاتفاق عليه مع المعهد الفرنسي المشار إليه، مثال: (TB: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد)، (MN: ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم)، (AG: أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني)، (YA: ياقوت، معجم الأدباء)، إلخ....

وتحتوي كل جذاذة على عدّة حقول "champs" يحتوي كل حقل منها على معلومات خاصة بالشخص، تتوزع على النحو الآتي: الحقل الأول يضم معلومات تخص سلسلة نسب الشخص، الاسم، اسم الأب، اسم الجد... الحقل الثاني يضم معلومات تخص أسماءه الاستبدالية وألقابه، مثل الشهرة اللقب الكنية، الحقل الثالث يضم معلومات تخص انتماءه المذهبي، الدين، الحقل الرابع يضم معلومات تخص صفاته الخلقية والخلقية، الحقل الخامس يضم معلومات تخص وظيفته في البلاط ونشاطاته المختلفة، الحقل السابع يبحث في كيفية اتصال

¹ - ضناوي (سعدي)، المرجع السابق، ج 1، ص 21.

الشخص بالبلاط: بواسطة رشوة أو كفاءته أو عن طريق التوريث، الحقل الثامن يتعلق بسبب وفات الشخص.

أما إذا كان الأمر يتعلق بامرأة فلا بدّ أن نشير إلى ذلك ونضع: جنس GNS: أي امرأة، كذلك إذا تكرّر ذكر اسم شخص في أكثر من مصدر نشير إلى ذلك بـ EGL

وقد تمكنا من الحصول على خمسمائة جذادة تحتوي على ترجمة ذاتية، لخمسمائة شخص كان لهم دور في البلاط العباسي، من أفراد الأسرة العباسية ومن الكتاب والوزراء والشعراء والقضاة والمؤدّين، والمغنيين، والندماء، وبعض النساء، وتحتوي كل جذادة على رقم خاص بها، يبدأ بـ 260000 وينتهي بـ 260400، وقد حدّده لنا المعهد الفرنسي المذكور أعلاه.

أما الآلاف المذكورة في ثنايا الأخبار المتفرقة من الخدم والحواشي والغلمان، والسراري... إلخ،¹ فلم نتمكن من ضبطها، أي أننا في النهاية لم نتوصل، إلى تحديد إلّا نسبة فقط من فئات وعناصر أهل دار الخلافة العباسية، كما أن العديد من الأسماء التي نذكرها وردت في أكثر من مصدر، فاحتوت تبعاً لذلك على أكثر من جذادة. وقد قمنا بعد ذلك بإخضاع، هذه القاعدة البيانية، لمجموعة من الأسئلة، تهدف إلى تحديد التركيبة العرقية، والوظيفية، لأهل دار الخلافة العباسية، والبحث عن مقاييس الانتخاب فيها، فهل هي تخضع لعامل مذهبي أم عرقي أم تخضع إلى الكفاءة العالية؟.

وهذه الأسئلة يقع طرحها إما بطريقة بسيطة وسهلة أو بطريقة مركبة: وكأمثلة من الأسئلة، البحث مثلاً عن كل شخص شغل خطة وزير أو صاحب شرطة أو أو خادماً أو حاجب أو ندم، حتى نتبين التوزيع الوظيفي في البلاط، أيضاً البحث عن سبب الوفاة (مرض، قتل، وفاة) لمعرفة سياسة الإنهاء الوظيفي لصاحب كل خطة. كما يمكن القيام ببحث بواسطة الأسماء، أو الألقاب... وفي الحقيقة فإن الأسئلة عديدة ومتنوعة وهي تختلف باختلاف الغايات والأهداف المرجو تحقيقها.

كما أننا لم نتوقف عند مستوى طرح الأسئلة ومحاولة الإجابة عنها، بل قمنا بتحويل النتائج التي تحصلنا عليها إلى جداول ورسوم بيانية وقد اعتمدنا في ذلك على برمجية إعلامية أخرى تتمثل في الاكسال (Excel). وذلك قبل الشروع في أي عملية تحليلية لفئات دار الخلافة العباسية. وسوف نقدم أمثلة من الجذادات التي قمنا بها والنتائج التي تحصلنا عليها، في الفهارس. وبصفة عامة يمكن تمييز الفئات الاجتماعية التالية في دار الخلافة العباسية: رجال البلاط والحريم أو الحرم.

¹ - الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص 8؛ الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج 1، ص 100.

الفصل الأول: رجال البلاط العباسي

يتكون رجال البلاط من الخليفة العباسي الحاكم وأولاده وأقاربه، أي من العائلة العباسية، باعتبارها صاحبة السلطة العليا في البلاط متمثلة في شخص الخليفة، ومن الموظفين سواء كانوا وزراء أم كتاب أم حجاب أم أصحاب حرس أو شرطة، لمشاركتهم الخليفة في تسيير شؤون الخلافة والحكم، هذا فضلا عن الخدم المتصلة أعمالهم بالخليفة. وهذه الفئات تمثل أهل بيت الخليفة وحواشيه وخواصه وأتباعه وخدمه وحشمه الذين تحدثنا عنهم، وهي التي اعتمد عليها الخلفاء العباسيون في تأكيد الملك العباسي.

وتربط بين الخليفة العباسي وهذه الفئات علاقات متنوعة سياسية، عسكرية، اجتماعية، مادية، علاقات ولاء وتبعية، إلخ. فكيف تفاعل الخلفاء العباسيون مع كل فئة من هذه الفئات وما مدى حضورها في البلاط العباسي؟

I العائلة العباسية

تعتبر العائلة العباسية من أول العناصر المكونة لرجال البلاط العباسي. فهي تمثل الأسرة المالكة والحاكمة. وتضم الخليفة، ولي العهد، أولاده وأقاربه.

1- الخليفة

يرأس الخليفة البلاط العباسي. أي أنه يقوم على رأس التنظيم التراتبي لمجتمع البلاط. ومنصب الخليفة أحدث إثر وفاة الرسول، وهو أكثر المناصب تميزا للتاريخ الإسلامي، فمثلا يقال قيصر الروم وكسرى الفرس يقال خليفة المسلمين. ولقب "خليفة" هو لقب جديد ولد مع ولادة المنصب أو الوظيفة التي تسميه، لكن الكلمة كانت موجودة في اللغة العربية، ومن ذلك القرآن. "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة"، "يادادو إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق...".¹

وقد أطلق لقب خليفة لأول مرة في الإسلام على أبي بكر الصديق وكان يحمل في ذلك الوقت معنى خلافة الرسول على حكم المسلمين، ويقال له خليفة رسول الله.²

وقد ابتدع الأمويون لقبا جديدا وظفوا فيه القدرة الإلهية، هو لقب "خليفة الله"، وهو اللقب الرسمي للخلفاء الأمويين.³ وقد اهتم الدارسون للدولة الأموية بهذا اللقب وأولهم غولدزيهر الذي توصل إلى أن معنى اللقب:

¹ - القرآن، سورة البقرة، الآية 30؛ رضوان السيد، "السلطة في الإسلام: دراسة في نشوء الخلافة"، بلاد الشام في صدر الإسلام، عمان 1987، ص 405-406.

- Goldziher. I, « Du sens propre des expressions ombre de dieu, khalife de dieu, pour designer les chefs dans l'islam », *Revue de l'Histoire des Religions*, Paris 1897, p.6 ;

² - ابن خلدون، المقدمة، ص 223؛ رضوان السيد، "السلطة في الإسلام"، نفس المرجع، ص 405.

³ - بن حسين بثنينة، الدولة الأموية ومقوماتها الإيديولوجية والاجتماعية، رادس 2008، ص 319-320.

خليفة رسول الله الميثب من الله؁ لكن الدارسون من بعده توصلوا إلى أن معنى اللقب: المستخلف من الله أو المعين من الله.¹ وقد رفض الخليفة أبو بكر تسمية "خليفة الله" ورضي أن يكون خليفة رسول الله. وكان للخليفة عمر بن الخطاب لقب شرفي " خليفة خليفة رسول الله " فاتخذ لقباً جديداً وهو أمير المؤمنين.²

وهناك ما يشير إلى أن لقي أمير المؤمنين وخليفة رسول الله قديمان أيضاً. بل يبدو أنهما أقدم من لقب خليفة الله لأنهما بقيا إلى جانبه.³ وقد انتحل العباسيون لقب " خليفة الله " من الأمويين؁ وسموا أنفسهم "خلفاء الله"، بل أضافوا إليه ألقاباً أخرى؁ أكثر توظيفاً للمقدرة الإلهية؁ فماهي تجليات ذلك؟.

صار الخليفة في العصر العباسي يجمع بين سلطتي الدين والدنيا. وقد سعى الخلفاء العباسيون إلى إبراز البعد الديني لسلطتهم؁ ليس فقط عن طريق ما تمثله خلافة الرسول وإمرة المؤمنين؁ والإمامة من دور؁ بل من خلال إبراز انتمائهم إلى الرسول محمد وذلك بحثاً عن التمييز وكسباً لمزيد الشرعية؁ وطلباً للطاعة.

وقد حرص العباسيون على إبراز هذا الانتماء؁ سواء بواسطة الخطب الشفوية أو المراسلات المكتوبة. فقد ذكر السفاح في أول خطبة ألقاها على منبر الكوفة " وجعلنا أحق بها وأهلها (أي الخلافة)؁ وخصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته وأنشأنا من آبائه وأنبأنا من شجرته". وخطب داود بن علي " الحمد لله شكراً...الذي أهلك عدونا وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد ورجع الحق إلى نصابه في أهل بيت نبيكم".

فالعباسيون هم إذن أولى الناس بالخلافة؁ لكونهم أصحاب الحق في وراثة النبوة.⁴ ولكونهم ينتمون إلى أسرة " مقدسة"؁ فمغفور لهم أيضاً كل ما يقومون به من أعمال. ففي الخطبة التي ألقاها إسماعيل بن علي في أهل الموصل؁ بعد أن عزل السفاح أخاه يحيى بن محمد لما ارتكبه فيها من مذبحة كبيرة؁ في يوم الجمعة وفي مسجد (قدر عدد القتلى بثلاثين ألف)؁ قال: " لولا أنا أهل البيت مغفور لنا؁ لحقت على يحيى بن محمد؁ النار لما صنع بكم؁ ولكني سأرد المظالم عنكم؁ وأحسن السيرة فيكم".⁵

وللتأكيد على استمرار الخلافة فيهم؁ تبني العباسيون نظرية المهدي المنتظر. يذكر داود بن علي " اعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج عنا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم ". أي استمرار الخلافة العباسية حتى نهاية الدهر.⁶

ولإثبات حقهم في وراثة النبوة؁ أكد العباسيون كذلك أهمية الوراثة عن طريق الرجال؁ وثانويتها عن طريق النساء؁ عكس العلويين الذي أكدوا على شمولية الوراثة عن طريق الرجال والنساء. ويبدو أن التقاليد العربية

¹ -Goldziher. I, *Ibid*, 7 ;

- رضوان السيد؁ " الخلافة والملك: دراسة في الرؤية الأموية للسلطة"؁ المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام في العهد الأموي؁ عمان 1989؁ ص 130.

² - ابن خلدون؁ المصدر السابق؁ ص 223؛ بن حسين بئينة؁ المرجع السابق؁ ص 320- 321.

³ - رضوان السيد؁ " الخلافة والملك "؁ نفس المرجع؁ ص 130.

⁴ - الطبري؁ تاريخ؁ ص 1473؛ البلاذري؁ أنساب الأشراف؁ ج 4؁ ص 187؛ أسماء عمارة؁ البلاط العباسي؁ ص 59.

- Abel. Armand, « Le khalife, présence sacrée », *Studia Islamica*, 1957, v II, p. 35.

⁵ - الأزدي؁ تاريخ الموصل؁ ص 156.

⁶ - الطبري؁ نفس المصدر؁ ص 1473؛ الأزدي؁ نفس المصدر؁ ص 124.

كانت تخدم صالح العباسيين، لأنها وحتى تلك الفترة لم تكن تعطى أهمية كبرى للوراثة عن طريق النساء.¹ كما حاول العباسيون الدخول أيضا بمفهوم آخر هو امتياز العباس لذاته كفرد من أفراد آل البيت أي بصفة مستقلة. ويتراءى لنا ذلك من خلال المراسلات المتبادلة بين محمد النفس الزكية والخليفة المنصور، الذي أكد على أن العباس هو وارث الرسول الشرعي، لأنه كان المسؤول عن سقاية الحجيج في الجاهلية والإسلام، وبالتالي فهو يرفض الدخول في أي حوار على مستوى الشرعية التي يتمتع بها العباسيون في الحكم.² ولم يكتف العباسيون بإثبات حقهم في وراثة الرسول بالخطب والمراسلات، بل أيضا بأشياء مادية تتمثل خاصة في ظهور الخليفة على الناس في بعض المناسبات (مثل تولي الخلافة، المواكب أو المناسبات الدينية) ببردة الرسول وقضيه.³ باعتباره نائبا عن الرسول في حكم المسلمين، وفي ذلك رمز للانتماء، والوراثة والخلافة، والاستمرار والمواصلة...

ولم يكن إثبات الانتماء إلى الرسول محمد كاف لإبراز البعد الديني للحكم العباسي، بل أصبح الخليفة يحكم بتفويض من الله لا من الأمة. ففي نص كلام خطب به أبا جعفر المنصور الناس ببغداد، في يوم عرفة أو أيام منى جاء فيه "إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وإرشاده وخازنه على بيت ماله وفيئه أعمل فيه بمشيئته وأقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه وقد جعلني الله قفلا، فإذا شاء أن يفتحني فتحي".⁴ يتضمن هذا الخطاب تعريفا للخليفة، فهو "سلطان الله في أرضه"، وهو يختلف عن لقب "السلطان ظل الله في أرضه" والذي يطلق على المؤسسة الخليفة أو الحكومية بصفة عامة وليس على شخص الخليفة.⁵ كما يتضمن أيضا ذكرا لعلاقة الخليفة بالله وبالناس ولدوره، فهو يستمد سلطته من الله لا من الشعب، ومن ثم فهو يسيطر على كل شيء حتى على السياسة المالية للدولة. فسلطة الخليفة إذن أصبحت مقدسة لأنها مستمدة من الله، وهذا يخالف ما كانت عليه الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين، الذين استمدوا سلطتهم من الشعب.⁶ كذلك ولئن وظّف الأمويون المقدرة الإلهية بتلقيب أنفسهم "خلفاء الله"، فإنهم لم يصلوا إلى درجة تقديس الحكم. بل بالعكس كان الخليفة الأموي أشبه ما يكون برئيس قبيلة يستمد سلطانه من رضى رؤساء القبائل ويستشيرهم في الأمور ويحاول استرضاءهم.⁷

¹ - الطبري، المصدر السابق، ص 1530 - 1531؛ أسماء عمارة، البلاط العباسي، ص 62؛ Sharon. M, « Notes on the question of the legitimacy of government in Islam », *Israel Oriental Studies*, 1980, p. 122.

² - الطبري، نفس المصدر، ص 1531؛ أسماء عمارة، البلاط العباسي، ص 63.

³ - القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج 3، ص 289-290؛ ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص 104.

- Abel. Armand, « Le khalife, présence sacrée », *Op. Cit*, p. 35.

⁴ - البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 360.

⁵ - Goldziher. I, « Du sens propre des expressions ombre de dieu ... », *Op. Cit*, p. 4.

⁶ - عبد الرازق (علي)، الإسلام وأصول الحكم بحث في نشأة الخلافة والحكومة في الإسلام، القاهرة 1925، ص 63.

⁷ - الدوري، العصر العباسي الأول، ص 38.

وقد ذهب الخلفاء العباسيون في ذلك مذهب الأكاسرة الذين يقولون بنظرية الحكم الملكي المقدس " the divine right of king"، بمعنى أن كل رجل لا ينتسب إلى البيت المالِك ويتولى الملك يعتبر مغتصبا لحقه.¹ وكذلك مذهب الأباطرة البيزنطيين الذين كانوا يحكمون أيضا بنظرية التفويض الإلهي، فالقانون والدين هما في خدمة الإمبراطور، لأنه معينا ومسمى من طرف المسيح، لتنفيذ إرادة الإله الذي منحه الهيبة ومراقبة الدولة.²

إذن فقد وضع الخليفة المنصور، أساس النظام السياسي، الذي اتبعه الخلفاء من بعده، وقد اقتبسه عن الفرس والبيزنطيين، ويتمثل في نظرية الحق الإلهي المقدس. فقد لُقّب الخليفة المهدي نفسه " بخليفة الله في أرضه والقائم مقام رسوله النائب عنه في أمته ". وكان الخليفة المعتضد يقول " إني ابن عم رسول الله وقائم في مقامه وخليفة الله في أرضه ".³ ولا يتضمن هذا القول فقط توظيفا للمقدرة الإلهية، بل يساوي بين الخليفة والرسول. ولم يقتصر الخلفاء العباسيون على لقب " خليفة الله " بل استعملوا ألقابا أخرى أكثر توظيفا للمقدرة الإلهية، فالمنصور نفسه أول من تسمّى بأسماء منسوبة إلى الله، " المنصور بالله ". ثم ازداد اسم الله لاسم الخليفة خاصة ابتداء من عهد الخليفة المعتصم، حيث أصبحنا نجد المعتصم بالله، والواثق بالله، والمتوكل على الله، والطائع بالله، والقائم بأمر الله، والناصر لدين الله وما أشبه ذلك. كما حمل العباسيون ألقابا أخرى ذات أبعاد مهدية ونشورية مثل المنصور، والمهدي، والمهدي، والرشيد.... إلخ.⁴ وهكذا فقد أكدت ألقاب الخلفاء العباسيين على فكرة الحق الإلهي المقدس. وبالتالي فإن كان الخلفاء الأمويون هم باعثي إيديولوجيا الجبرية،⁵ فإن الخلفاء العباسيين، هم محي نظرية الحق الإلهي المقدس في الإسلام.

ولشيت نظرية الحق الإلهي المقدس هذه، قَرَّب الخلفاء العباسيون إلى بلاطهم العلماء والفتهاء، وحاولوا كسب قلوبهم بمختلف الوسائل، ذكر أن أبا جعفر المنصور قال لأصحابه " ألقينا الحب إلى العلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا فرارا "،⁶ كما وقف أبا حنيفة أيضا من خلافة المنصور موقف المعارضة، ورفض تولي القضاء وأصر الخليفة على استعماله في خطة ما، فكان أن ساهم في الإشراف على بعض الأشغال أثناء بناء بغداد.⁷

¹ - عبد الرازق (علي)، نفس الرجوع، ص 63.

² - Ahrweiler. H, *L'idéologie politique de l'empire byzantin*, Presses Universitaires de France, 1975, p.20.

³ - ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص 133-145.

⁴ - القلقشندي، مآثر الأنافة في معالم الخلافة، ج 1، ص 22-23؛ أيوب (إبراهيم)، التاريخ العباسي السياسي والحضاري، بيروت 1989، ص 212؛- رضوان السيد، " الخلافة والملك..."، نفس المرجع، ص 131.

- Abel. Armand, « Le khalife, présence sacrée », *Op. Cit.*, p. 40.

⁵ - فاروق عمر، النظم الإسلامية، ص 24.

⁶ - ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج 3، ص 165؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 218.

⁷ - الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج 1، ص 70؛ الطبري، تاريخ، ص 1549.

وبما أن سلطة الخليفة هي مقدسة فإنها لا تحتل أية معارضة أو مخالفة، وقد أفصح المنصور عن ذلك بقوله: "الملك يحتمل كل شيء إلا ثلاثة: إفشاء السر، والتعرض للحرم، والقدهح في الملك".¹

ولأجل ذلك فقد عرف الخلفاء العباسيين بعدم التسامح تجاه مخالفاتهم ومعارضتهم، وكانوا لا يترددون في البحث عنهم والوصول إليهم، ولو كانوا في أقصى الأماكن، ولا يفرقون في ذلك بين الأقارب والأباعد، وكانوا يسرفون في أشكال التقتيل والتعذيب، والأمثلة على ذلك كثيرة، مثال سماح السفاح لولائه بتقتيل بني أمية، وقتله لوزيره أبي سلمة الخلال لأنه حاول صرف الخلافة لأولاد علي بن أبي طالب. قتل المنصور لعمه عبد الله بن علي، بعد أن ثار عليه وطالبه بحقه في الخلافة، وقتله لأبي مسلم الخراساني، لأشياء أنكره عليها، على الرغم من الدور الكبير الذي لعبه في نجاح الثورة العباسية، فقد عينه إبراهيم الإمام قائدا للجيش الخراسانية. تنكر الرشيد للبرامكة بعد أن قوي سلطانهم، وصلبه لجنة جعفر بعد أن أمر بقطع رأسه. صلب المعتصم لبابك قائد الثورة الخرمية، وقد اتخذ موقعا رسميا لصلبه في سامراء، صار يعرف بخشبة بابك. قتل المتوكل لوزيره عبد الملك بن الزيات، بنفس الآلة التي ابتدعها هو للمعارضين والمغضوب عليهم، والمتمثلة في تنوير من الحديد رؤوس مساميره إلى الداخل. حكم المعتضد على أحد رؤساء القرامطة الذي مسك بالكوفة بقطع أضراره ثم خلعت يده ورجلاه وقتل...² ويتنزل هذا القتل في إطار تأكيد الملك.

وبما أن الخليفة العباسي صار يتمتع بصيغة دينية إضافية ذات صفة قدسية، فقد أصبح من هذا المنطلق أمين العقيدة وحارسها، ومن ثمة يحق له مقاومة البدع، فالمهدي يقوم بتتبع الزنادقة والتنكيل بهم، وقد تبعه في ذلك ابنه الهادي. كما اهتم بالأماكن المقدسة في الحجاز. وكان يروي الأحاديث النبوية.³

والخليفة هو أيضا الداعي إلى آراء دينية سياسية (المأمون والاعتزال، المتوكل والسنة)، فقد حاول كل من المأمون والمعتصم والواثق فرض المذهب الاعتزالي، كمذهب خاص للدولة، عن طريق القول بخلق القرآن، أما المتوكل، فقد أبطل القول بخلق القرآن وأمر بإظهار السنة.⁴

والخليفة هو إمام المسلمين في الصلاة، وهو قائد موكب الحج إما بنفسه أو يعين من ينوبه، وقد تولى الخلفاء العباسيون هذه القيادة من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المعتصم. ولم يحج بعد ذلك من

¹ - السيوطي، نفس المصدر، ص 213-214.

² - حول القتل انظر، الطبري، المصدر السابق، ص 1482-1686-1687؛ المسعودي، المصدر السابق، ج 4، ص 58؛ ابن ساعي، تاريخ الخلفاء، ص 13-16؛ ابن الطقطقي، الفخري، ص 234-235؛ إدريس (محمد مسعود)، "السلطة والعنف والمشاهد العامة في العصر العباسي الأول 132 هـ - 332 هـ"، مجلة الفنون والتقاليد الشعبية، ج 10، 1990، ص 5-27.

³ - السيوطي، نفس المصدر، ص 216-217-221-222؛ ابن الساعي، تاريخ الخلفاء العباسيين، ص 29؛ Holt. P. M, s v «Khalifa», E.I, t IV, p. 973.

⁴ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 86، الدوري (عبد العزيز)، "المؤسسات العامة في المدينة الإسلامية نظرة تاريخية إلى بغداد"، أبحاث، ج 27، 1978، ص 12؛

- Holt. P. M, Ibidem, p. 973; Mottahedeh. Roy. P, "Some attitudes towards monarchy and absolutism in the eastern Islamic world of the eleventh and twelfth centuries A. D", Israel Oriental Studies, t X, 1980, p. 87.

الخلفاء إلا المعتضد.¹ كما يتحتم على الخليفة العباسي أيضا قادة الجيش الإسلامي، وقد مارس هذه القيادة الكثير من الخلفاء، الرشيد وفتح هرقله، وكان أيضا يحج سنة ويغزو سنة، ويصلي في كل يوم مائة ركعة.² المأمون وغزو الروم، المعتصم وفتح عمورية، كما كان المعتضد يخرج بنفسه لقمع الثورات لاسيما وأن عهده كان "عهد فتوق وخوارج كثيرين"، أيضا خروج الخليفة المقتدر لمحاربة مؤنس المظفر.³

والخليفة هو الذي يضع أصول الحكم في الأمصار والحاضرة، وهو الذي يعين ولي العهد (على الأقل خلال العصر العباسي الأول)، ويعين الولاة ويعزلهم، وكذلك الوزراء وأصحاب الخراج والبريد...⁴ وهو الذي ينظر في المظالم، فقد كان الخليفة المهدي يجلس للمظالم ويقول "ادخلوا علي القضاة فلو لم يكن ردّي للمظالم الا حياء منهم لكفى". وقد أحدث لهذا الغرض ديوانا، سماه "ديوان المظالم"، مهمته النظر في شكاوي الأهالي ضد أعوان الدولة وموظفيها، وقد وضع هذا الديوان تحت رقابته الخاصة مع إشراك بعض القضاة، وذلك لتحقيق أكبر قدر ممكن من العدالة عن طريقهم.⁵ وكان المأمون يجلس للمظالم في كل يوم جمعة مرتين لا يمتنع منه أحد.⁶ وبني المهدي قبة جعل لها أربعة أبواب، سماها قبة المظالم، وجلس فيها للعام والخاص للمظالم.⁷ كما يتحتم على الخليفة أيضا تقصي أحوال الرعية، وخاصة في يوم الموكب.⁸

ومن هنا نلاحظ سعي الخلفاء العباسيين، إلى السيطرة السياسية عن طريق الدين، والتي لم تكن لتتحقق لولا إضفاء صفة القدسية على شخص الخليفة. وكنا قد بينّا أن فكرة القداسة هذه والمساواة بين الملك والله هي من الأفكار الشائعة في الثقافات الشرقية خاصة الفارسية والبيزنطية، وقد ساعد على نجاحها وبلورتها في العصر العباسي عاملان اثنان: أولا بعض المفكرين والأدباء، سيما الذين اهتموا بأداب الملوك، مثل الثعلبي الذي ذكر في مقدمة كتابه "أخلاق الملوك" أن الذي دفعه إلى تأليفه، هو ما خصّ به الله الملوك من تعظيم وتقدير وما أوجبه من طاعتهم والخضوع والخشوع لهم.⁹ وأبو هلال الصائبي الذي يرى أن الخليفة إنما هو "خليفة الله".¹⁰ وكذلك بعض الشعراء مثل علي بن الجهم الذي اعتبر أن الخلافة إنما هي لبني العباس فحسب، لأن الله أراد ذلك، فقد قال في مدحه للوائح: "يا بني العباس يأبى الله * - إلا أن تسوسوا".¹¹

¹ ابن حبيب، المحبر، ص 34-38؛ ذو النسيين (دحية والحسين)، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص 90.
² الأزدي، نفس المصدر، ص 308-309؛ المقرئ، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، القاهرة، 1955، ص 48.

³ السيوطي، نفس المصدر، ص 243؛ الطبري، نفس المصدر، ص 1852-1853؛ ابن الطقطقي، الفخري، ص 256؛ مسكويه، تجارب الأمم، ج 1، ص 235-236.

⁴ يوسف العش، تاريخ عصر الخلافة العباسية، ص 43.

⁵ ابن الساعي، المصدر السابق، ص 29؛ السيوطي، نفس المصدر، ص 216؛ العبيدي (عبد الجبار)، "الإدارة في مطلع العصر العباسي الأول"، مجلة العلوم الاجتماعية، 1988، ص 272؛ فاروق عمر، النظم الإسلامية، ص 85.

⁶ ابن طيفور، كتاب بغداد، ص 36.

⁷ المسعودي، نفس المصدر، ج 4، ص 184.

⁸ الشاشتي، الديارات، ص 38؛ التتوخي، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 366.

⁹ الثعلبي، أخلاق الملوك، ص 32.

¹⁰ الصائبي، رسوم دار الخلافة، ص 4-5.

¹¹ الطبري، المصدر نفسه، ص 1890.

ثانيا ساعد على إضفاء صفة القدسية على الخلفاء العباسيين أيضا، إحاطتهم بالأسوار والحنادق، واحتجاجهم عن الناس وعدم الظهور إليهم إلا في مناسبات معينة. يذكر أن الخليفة المقتدر تولى الخلافة سنة 295 هـ / 908 م، ولم يظهر للناس إلا سنة 301 هـ / 913 م، وهي "أول ركبة ظهر فيها للعامة".¹

إذن لقد نجح الخلفاء العباسيون إلى حد كبير في بثّ نظرية الحق الإلهي المقدس في المجتمع الإسلامي، وقد ساعدتهم على ذلك الشعراء والأدباء، بالإضافة إلى المحيطين بهم أي الخاصة والحاشية، وكذلك احتجاجهم عن الناس. ورغم تراجع دور الخليفة في العصر العباسي الثاني فإنه لم يفقد صفة القدسية، التي ستظل تحيط به وتحصره حتى سقوط الخلافة العباسية ببغداد.

وبما أن الطابع الوظيفي للخلافة يسلبها كل قداسة،² فإنه يمكن القول بأن حكم الخلفاء العباسيين كان أقرب إلى الملك منه إلى الخلافة. وقد أورد ابن الطقطقي تحليلا لطبيعة الحكم العباسي جاء فيه "واعلم أن هذه الدولة من كبار الدول ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك، فكان أخيار الناس وصلحائهم يطيعونها تدنوا والباقيون يطيعونها رهبة أو رغبة ثم مكثت فيها الخلافة والملك حتى حدود ستمائة سنة".³ يتضح من كلامه أن الخلفاء العباسيين قد اتبعوا سياسية الخلافة الممزوجة بالملك. ورغم أن الظاهرة الملكية قديمة ولم تكن غريبة عن العرب، الذين عرفوا النظام الملكي عدة قرون قبل الإسلام وبخاصة في اليمن، إذ كانوا يعرفون "دولة طبيعية دنيوية دهرية هدفها في ذاتها. معنى أنها كانت تتوخى الشهرة والمال والقهر".⁴ فإن الخلفاء العباسيين قد تأثروا في ذلك بالأمويين، الذين أسسوا فلسفة في الحكم لم تكن موجودة في عهد الرسول وفي عهد الخلفاء الأوائل وترتكز هذه الفلسفة على الملك.⁵ وهي فلسفة ذات طابع دنيوي وجدت لدى الساسانيين والبيزنطيين وملوك الحيرة والغساسنة وملوك اليمن قبل الإسلام.⁶ ولما انقضى حكم بني أمية تسلمت الدولة العباسية الملك من الدولة الأموية.⁷

ورغم أن عدد من الباحثين يطلقون على الأمويين لقب ملوك لأنهم كان لديهم نظام مختلف اختلافا طفيفا عن نظام الحكم الإسلامي، وعلى العباسيين لقب خلفاء لأنهم كانوا يستندون في شرعيتهم إلى قرابتهم من الرسول محمد ويحكمون بتفويض من الله، مثل Goldziher، الذي يشير إلى أن السيطرة العباسية تختلف عن السيطرة الأموية بطابعها الديني الصرف،⁸ فإن هذا لا ينفي الصفة الدنيوية عن الخلافة العباسية، وهو ما أكدت عليه

¹ - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 3، ص 182.

² - رضوان السيد، "السلطة في الإسلام: دراسة في نشوء الخلافة"، بلاد الشام في صدر الإسلام، عمان 1987، ص 415.

³ - ابن الطقطقي، الفخري، ص 140.

⁴ - العروي (عبد الله)، مفهوم الدولة، بيروت 1988، ص 91.

⁵ - بن حسين بئينة، نفس المرجع، ص 292.

⁶ - المرجع السابق، ص 294.

⁷ - ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 140.

⁸ - Elad (Amikam) et Arazi (Albert), « Al- inafa fi rutbat al- xilafa de Galal al- Din al- Suyuti » *Israel Oriental Studies*, VIII, 1978, p. 234.

بعض الأحاديث التي وضعت في العصر العباسي، فقد جاء في كتاب "الانافة في رتبة الخلافة"، عن أبي هريرة أن الرسول قال للعباس "فيكم النبوة والمملكة".¹

وتواصل تأكيد هذه الصفة الدنيوية من طرف الخلفاء العباسيين حيث يذكر ابن الطقطقي أن أول خليفة ملك منهم السفاح.² ولما أصبح المنصور خليفة كان يقول "الخلفاء أربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان وعلي، والملوك أربعة: معاوية، وعبد الملك، وهشام، وأنا".³ أي أنه لم يركّز فكرة القداسة فحسب، بل أسس الدنيوية في الحكم، إلى درجة أنه نفى عن نفسه صفة الخلافة وأكد صفة الملك.

وقد ذكر ابن الساعي في نفس السياق أن المنصور كان "ملكا جليلا مهيبا"، و المهدي "ملكا كريما عادلا" والمهدي "ملكا جليلا مهيبا كريما".⁴ وكان المأمون أيضا "أحد ملوك الأرض وكان يجب له هذا الاسم على الحقيقة".⁵ ومدح علي بن الجهم الخليفة الواثق بوصفه ملك: "وثقت بالملك الوا * ثق بالله النفوس"، "ملك يشقى به الوا * ل ولا يشقى الجليس". كما أشار كذلك إلى إرسائه لقواعد دولة الملك والدين. "قد فاز ذو الدنيا والدين * بدولة الواثق هارون"، "أفاض من عدل ومن نائل * ما أحسن الدنيا مع الدين".⁶ وعندما أسس الخليفة المتوكل مدينة الجعفرية قال "الآن علمت أي ملك إذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها".⁷ أي بين أنه قد مسك بزمام الدنيوي أي الملك. وكان الخليفة المتقي كثير العدل بين الملوك.⁸ فليس كل ملك ظالما، بدليل أن القرآن الذي يذكر بعض الملوك بشكل سلبي يثني على الملكية العادلة في مناسبات أخرى.⁹

وقد تعرّض الملك العباسي لضربة قاسية في عهد الخليفة المهتدي الذي اتبع فلسفة إسلامية في الحكم تتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والابتعاد عن مجالس الغناء والشراب والجواري إلخ....¹⁰ وقد اقتدى في ذلك بعمر بن عبد العزيز في بني أمية، ولذلك فبعد أن كان الفقهاء يقولون بأن الخلفاء الراشدين خمسة ويعتدون فيهم عمر بن عبد العزيز، أجمعوا في أيام المهتدي على أنهم أصبحوا ستة أي بما فيهم المهتدي.¹¹

ثم استأنف الخلفاء العباسيون من بعده إتباع الدنيوية في الحكم، إلى آخر أيام المتقي وأول أيام المستكفي حيث انتقل الملك والدولة من آل العباس إلى آل بويه ولم يبق في أيدي الدولة العباسية إلا "ملك ديني اعتقادي لا ملك دنيوي".¹² وفقد الخليفة هيئته وذهب الأمر من بين يديه، وتحول إلى شبه موظف يفعل ما يؤمر به وينفذ

¹ - Ibid, p. 254.

² - ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 150.

³ - السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 210.

⁴ - ابن الساعي، تاريخ الخلفاء العباسيين، ص 14 - 29 - 30.

⁵ - السيوطي، نفس المصدر، ص 251.

⁶ - الطبري، تاريخ، ص 1890.

⁷ - اليعقوبي، البلدان، ص 31.

⁸ - الأرب لي، خلاصة الذهب المسبوك، ص 253.

⁹ - رضوان السيد، "السلطة في الإسلام: دراسة في نشوء الخلافة"، نفس المرجع، ص 407.

¹⁰ - المسعودي، المصدر السابق، ج 4، ص 183.

¹¹ - ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص 133.

¹² - البيروني، الآثار الباقية، ص 132.

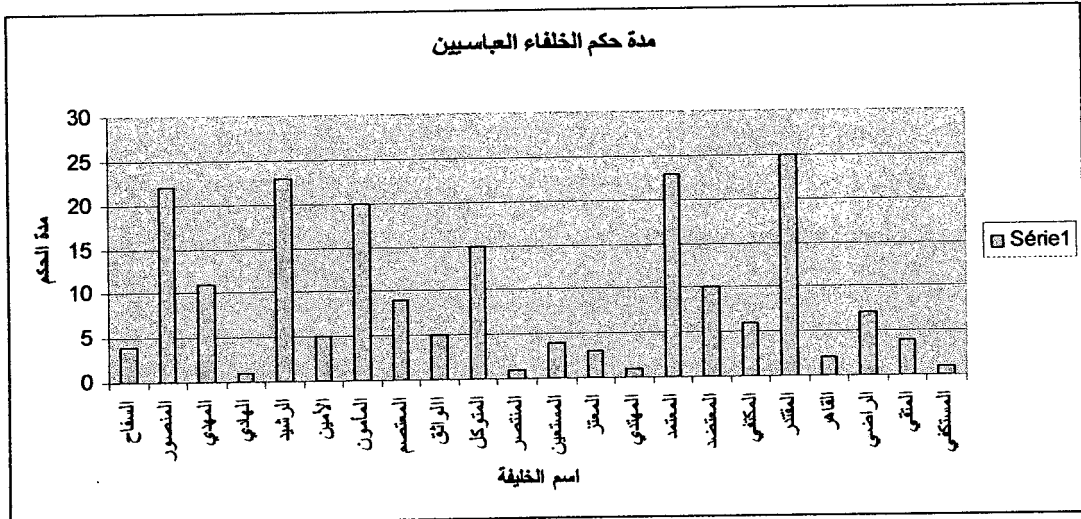
ما يطلب منه، فكانوا " يدينون بطاعته تبركا والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شيء".¹ أي فقد الخليفة سلطته الدنيوية، ولم يبق له من السلطة إلا سلطة دينية وهمية. و"ذهبت معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها وصار الأمر ملكا بحتا".² أي لم يبق للخليفة إلا اسم الخلافة والسلطان الفعلي لني بويه.

ومن هنا نلاحظ تحول الخلافة إلى ملك وقد تم ذلك بصفة تدريجية وعلى مراحل، حيث كانت الخلافة قائمة دون ملك، ثم قامت بالاشتراك معه إلى أن انفصلت عصبية الملك عن عصبية الخلافة.³

لكن ولئن أسس الأمويون الدنيوية في الحكم أي الملك، - إذ كان معاوية أول من أطلق هذه التسمية على نفسه عندما قال " أنا أول الملوك " - فإنهم لم يحدثوا قطيعة كبيرة مع الماضي، بل إن معاوية نفسه كان حريصا على الانتظام في سلك الخلفاء الثلاثة الأوائل، ومن المستبعد مثلما أشار إلى ذلك رضوان السيد، أن يكون هو نفسه قد سمى نظامه ملكيا.⁴ أما الخلفاء العباسيون فقد اتبعوا نظاما ملكيا تجاوز من حيث فلسفته ومن مبادئه وأهدافه الملكية الأموية: فهو نظام ملكي مقدس، أي على شاكلة النظام الملكي الساساني والبيزنطي.

ذلك أن الأمويين ولئن لقبوا أنفسهم بخلفاء الله، فإنهم لم يقولوا بنظرية الحق الإلهي المقدس. وبالتالي فإن كان العهد الأموي " عهد الملك والجبرية " فإن العهد العباسي هو " عهد الملك والقدسية ". هذا الملك الذي قضى عليه بنو بويه، الذين أسسوا مملكة وراثية في قلب الخلافة العباسية، لكن مع المحافظة على الخليفة كواجهة قدسية لا غير. أي في النهاية ذهب الملك وبقيت القدسية، لكن بصفة صورية وليس فعلية.

ولأجل ذلك فإن مركز الخليفة في البلاط لم يكن واحدا، وإنما كان يتأرجح بين القوة والضعف، تبعا للظروف والأحداث السياسية والاجتماعية التي مرت بها الخلافة العباسية. فهناك تباين في ممارسة السلطة من عهد إلى عهد إلى عهد، وأحيانا ضمن فترات العهد الواحد. وبصفة عامة يمكن التمييز بين ثلاثة فترات رئيسية في تاريخ حكم الخلفاء العباسيين:



¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 240.

² - ابن خلدون، نفس المصدر، ص 240.

³ - المصدر السابق، ص 240؛ العظمة (عزيز)، ابن خلدون وتاريخيته، بيروت 1987، ص 128-129، العروي (عبد الله)، نفس المرجع، ص 96-97.

⁴ - رضوان السيد، " الخلافة والملك... "، نفس المرجع، ص 139؛ بن حسين بثينة، نفس المرجع، ص 292 - 294.

- الفترة الأولى التي كانت فيها (الهاشمية، بغداد، والرقّة) مقرا للبلاط، وقد توالى على الحكم فيها سبعة خلفاء، وهم أبو العباس السفاح، وأخوه أبو جعفر المنصور، ثم ابنه المهدي، ثم أبناء المهدي، موسى الهادي وهارون الرشيد، ثم أبناء الرشيد الأمين والمأمون، وقد امتدت هذه الفترة على حوالي 86 عاما (من سنة 132 هـ / 749 م حتى سنة 218 هـ / 833 م) أي متوسط عهد الخليفة في هذه الفترة حوالي 12 سنة، ومن بين هؤلاء الخلفاء السبعة نجد ثلاثة تفوق فترة حكمهم أو تساوي عشرين سنة وهم (الرشيد 23 سنة، المنصور 22 سنة، والمأمون 20 سنة)، أما بالنسبة للخلفاء الباقين فقد حكم المهدي 11 سنة، والأمين 5 سنوات والسفاح 4 سنوات والهادي سنة واحدة).

خلفاء الهاشمية، بغداد والرقّة

/	الخليفة	سنة توليه الخلافة	مدة خلافته	نهاية الخلافة
1	السفاح	132 هـ	4 سنوات	توفي
2	المنصور	136 هـ	22 سنة	توفي
3	المهدي	158 هـ	11 سنة	توفي / قتل
4	الهادي	169 هـ	1 سنة	قتل
5	الرشيد	170 هـ	23 سنة	توفي
6	الأمين	193 هـ	5 سنوات	قتل
7	المأمون	198 هـ	20 سنة	توفي

وفي حين كانت الفترات الطوال فترات تغييرات جوهرية في الخلافة العباسية، كانت الفترات القصار، إما فترات تحول (السفاح)، أو استمرار (الهادي)، أو اضطراب (الأمين).¹

وبصفة عامة فقد كان مركز الخليفة قويا في هذه الفترة، ويمتلك السلطان الدينية والدنيوية، وقد أتت نكبة البرامكة في عهد الرشيد ونكبة بني سهل في عهد المأمون كي تؤكدان على قوة الخلافة هذه. فهي إذن الفترة التي كان فيها الخليفة يمثل "سلطان الله في الأرض"، ويتمتع بقدسية فعلية، ويمثل مصدر الشرعية، وهي أيضا فترة الخلافة الممزوجة بالملك.

¹ - البيلي (عثمان سيد أحمد إسماعيل)، ثلاثية الحكم في العصور العباسية الخلافة والسلطة والدولة، بيروت 2004، ص 64-65.

- الفترة الثانية هي التي كانت فيها سامراء مقرا للبلاط، وقد امتدت على حوالي 57 سنة أي من بداية تأسيس المعتصم لمدينة سامراء وانتقاله إليها عام 221 هـ / 836 م، حتى عهد الخليفة المعتمد سنة 278 هـ / 891 م، (علما بأنه ختم خلافته سنة 279 هـ / 892 مفي بغداد)، وقد حكم فيها ثمانية خلفاء وهم: المعتصم، ثم أبنائوه الواثق فالتوكل، ثم المنتصر ابن التوكل، ثم المستعين ابن محمد ابن المعتصم، ثم المعتز ابن التوكل، ثم المهدي ابن الواثق، فالعتمد ابن التوكل. متوسط الفترة لكل خليفة 7.12 سنة. ومن بين هؤلاء الخلفاء الثمانية نجد خليفة واحدا حكم لفترة طولها 23 سنة وهو المعتمد، والباقون حكم التوكل مدة 15 سنة، والمعتصم 8 سنوات (خمسة منها بسامراء)، أي استغرقت مدة حكم هذين الخلفيتين 23 سنة وهي تساوي مدة حكم المعتمد. أما الواثق فقد حكم لمدة 5 سنوات والمستعين 4 سنوات والمعتز 3 سنوات، وحكم المنتصر والمهدي كل منهما أقل من عام (المنتصر ستة أشهر).

خلفاء سامراء

/	الخليفة	سنة توليه الخلافة	مدة خلافته	نهاية الخلافة
8	المعتصم	218 هـ	8 سنوات و 8 أشهر	توفي
9	الواثق	227 هـ	5 سنوات	توفي
10	التوكل	232 هـ	15 سنة	قتل
11	المنتصر	247 هـ	سنة 6 أشهر	قتل / سم
12	المستعين	248 هـ	1 سنة	خلع / قتل
13	المعتز	252 هـ	4 سنوات	خلع / قتل
14	المهدي	255 هـ	3 سنوات	توفي
15	المعتمد	256 هـ	23 سنة	توفي

مثلت هذه الفترة نهاية عهد الوزراء والكتاب، وبداية عهد القادة الأتراك، الذين بدأوا في التغلغل في الجيش العباسي منذ عهد المأمون،¹ وما نتج عن ذلك من صراعات عنيفة حول الخلافة والملك. فقد بدأ مركز الخليفة خلال هذه الفترة يميل إلى الضعف وتتناهب عوامل التفكك والانحلال، وذلك منذ أن قرّب الخلفاء الترك إليهم، وجعلوهم في خدمتهم وانتقلهم إلى سامراء. فعدا الخليفة المعتصم الذي استطاع بفضل قدراته العسكرية السيطرة على الجند، وكذلك الخليفة الواثق، فإن الخليفة في سامراء صار ألعبوبة بيد القائد التركي يقتله أو يعزله أو يفعل به ما يريد. فقد تأمر المنتصر مع القادة الأتراك على أبيه التوكل وقتلوه.² ومات

¹ - البيلي، ثلاثية الحكم في العصور العباسية، ص 61.

² - ابن العمراني، المصدر السابق، ص 119، ذو النسيبين (دحية والحسين)، كتاب النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص 84؛ الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص 226.

المنتصر في نفس السنة التي تولى فيها. وخلف المنتصر المستعين الذي حاول إضعاف شأن الأتراك واسترجاع سلطة الخليفة، وعندما فشل في ذلك وخاف تفاقم خطر الأتراك هرب إلى بغداد، ودخلت سامراء في مواجهة مع بغداد وحوصر المستعين، ثم نفى إلى واسط، أين قتل هناك بتدبير من قادة سامراء وأحمد بن طولون، الذي وعدوه بولاية واسط.¹

وخلف المستعين ابن عمه المعتز، الذي أبدى بدوره عداً للأتراك وحاول التخلص من استبدادهم وذلك بأن اصطنع المغاربة والفراغنة.² ولكنه لم ينجح، وأجبر على خلع نفسه وكانت نهايته مؤلمة حيث جرّ من رجله وضرب بالدبابيس وأوقف في الشمس، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحرّ ثم تنازل عن الخلافة وأدخل إلى حمام وسدّوا عليه أبوابه حتى مات.³

ولم يقبل المهدي بالله أن يتسلم منصب الخلافة إلا بعد أن يتنازل عنها المعتز علناً، وكانت هذه مبادرة من الخليفة لإعادة هبة الخلافة وشرعية السلطة.⁴ بوصفها مستمدة من الله. فقد ذكر أنه أنذر الأتراك قائلاً "والله لئن سقط من شعري شعرة ليهلكن بدلها منكم أو ليذهبن بما أكثركم. أما دين ! أما حياء ! أما رعة ! كم يكون هذا الخلاف على الخلفاء والإقدام والجراءة على الله!".⁵ فهو لا يزال يرى أن الخليفة هو خليفة الله، وأن التعدي على الخليفة هو بمثابة التعدي على الله. لكنه في النهاية لم يتمكن من التصدي للقادة الأتراك بل كان مصرعه على أيديهم، وبطريقة فضيحة أيضاً فقد أخذ أحدهم خصاد في يده وجعل يمرسها ساعة فمات.⁶ وسوف تتحقق مبادرة المهدي في استعادة هبة الخلافة، في عهد الخليفة المعتمد، لكن على يد أخيه وولي عهده الموفق طلحة، الذي استطاع بفضل قدراته العسكرية أن يسيطر على قيادة الجيش وأن يعيد للخلافة العباسية هيبتها، ولم يكن للمعتمد معه إلا اسم الخلافة. وعاد الأتراك مواليين من جديد كما كانوا في عهد المعتمد والوائق.⁷ وانتهت فترة خلافة سامراء بعودة العاصمة إلى بغداد.

- الفترة الثالثة فتمثل خلافة بغداد الثانية، وتبتدئ من سنة 279 هـ / 892 م (أي السنة الأخيرة من خلافة المعتمد) وتتواصل حتى سنة 656 هـ / 1258 م، وهو تاريخ سقوط بغداد على يد المغول، لكننا سوف نتوقف عند سنة 334 هـ / 945 م، التي تمثل زوال السيادة الفعلية للخلافة العباسية على يد البويهيين، الذين أسسوا مثلما ذكرنا إمارة وراثية في قلب الخلافة العباسية، ولم يبق للخليفة إلا الاسم. وتمتد هذه الفترة على 56 سنة، حكم خلالها سبع خلفاء وهم: المعتضد ابن الأمير الموفق ثم أبنائه المكتفي فالمقتدر فالقاهر، ثم أبناء المقتدر الرازي والمتقي، فالمستكفي بن المكتفي وهو الذي خلعه البويهيون. متوسط الفترة لكل خليفة ثماني

¹- ذو النسبين (دحية والحسين)، نفس المصدر، ص 87؛ ابن العمراني، المصدر السابق، ص 125-126؛ فاروق عمر، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، بغداد، 1977، ص 71؛
- Sourdel. D, *L'Etat impérial des califes abbassides, VIII- X siècle*, Paris 1999, p. 120.

²- المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 178.

³- ابن العمراني، المصدر السابق، ص 131 - 132؛ الطبري، نفس المصدر، ص 1985.

⁴- فاروق عمر، نفس المرجع، ص 73.

⁵- الطبري، نفس المصدر، ص 2005.

⁶- ابن العمراني، نفس المصدر، ص 136.

⁷- المصدر السابق، ص 139؛ فاروق عمر، نفس المرجع، ص 73.

سنوات، لكن بالتدقيق نجد من بين هؤلاء الخلفاء خليفة واحدا حكم لفترة طولها 25 سنة، وهو المقتدر، بينما حكم كل من المعتضد 10 سنوات والراضي 9 سنوات، والمكتفي 6 سنوات والراضي 5 سنوات وحكم المستكفي أقل من سنة. نلاحظ أن عدد الخلفاء مع طول الفترة ومتوسط العهد لم يكن مناسباً.

خلفاء بغداد (الجانب الشرقي)

/	الخليفة	سنة توليه الخلافة	مدة خلافته	نهاية الخلافة
16	المعتضد	279 هـ	10 سنوات	توفي
17	المكتفي	289 هـ	6 سنوات	توفي
18	المقتدر	295 هـ	25 سنة	قتل
19	القاهر	320 هـ	سنتان	خلع/ سمل
20	الراضي	322 هـ	9 سنوات	توفي
21	المتقي	329 هـ	5 سنوات	خلع/ سمل
22	المستكفي	334 هـ	1 سنة	سمل

رغم أن هذه الفترة انتهت بزوال السيادة الفعلية للخلافة العباسية، فإنها شهدت بعض الخلفاء الأقوياء، مثل المعتضد، الذي عرف بشدته وسفكه للدماء، مما جعله مهاباً من قبل القادة، فكان إذا غضب على النبيل منهم أمر أن تحفر له حفرة ثم يدلى برأسه فيها وي طرح عليه التراب، وكان يسمى السفاح الثاني لأنه جدّد ملك بني العباس.¹ وقد تمكن بفضل قدراته العسكرية وسيطرته على الجند من أن يحافظ على هيبة الخلافة، التي كان قد استعادها أبوه الأمير الموفق، كما تمكن من القضاء على عديد الثورات.

وخلف المعتضد بعد وفاته المكتفي، ورغم كونه اتصف بضعف الشخصية والاستسلام للدسائس والمؤامرات، بين الوزراء والكتاب والقادة العسكريين.² فقد تمكن من السيطرة على السلطة، وقد مثلت خلافته مثلما أشار إلى ذلك فاروق عمر " فترة انتقال من عصر الصحوة المؤقتة للخلافة العباسية سيطر فيها الخليفة على الأمور واسترجع فيه الوزير تأثيره، ولم يخرج الجيش عن مهامه العسكرية إلى عصر جديد عاد فيه الخليفة أضعف مما كان عليه في بداية نفوذ القادة العسكريين".³

فلما مات المكتفي وخلفه المقتدر، عمّت الفوضى بسبب صغره (استخلف وعمره 13 سنة)، واشتد الصراع من جديد على السلطة بين القادة العسكريين، والحاشية، والحريم، فقد شهد عهده بروز نفوذ النساء في دار

¹ - المسعودي، نفس المصدر، ج 4، ص 233؛ ابن الطقطقي، الفخري، ص 256؛ فاروق عمر، المرجع السابق، ص 82.

² - المسعودي، نفس المصدر، ج 4، ص 276.

³ - فاروق عمر، المرجع السابق، ص 86.

الخلافة العباسية بصفة فعلية ومباشرة. وقد جرت محاولتان لخلعه من الخلافة مرة بابن المعتز ومرة بالقاهر لكنهما فشلتا.¹

وبعد مقتل المقتدر نصّب القاهر خليفة، وقد شهد عهده الكثير من الصراعات حول السلطة بين القادة العسكريين والوزراء، الذين استعمل معهم سياسة التقتيل والتنكيل، وذلك في محاولة لاستعادة هيبة الخلافة، إلا أنهم تأمروا عليه وتمكنوا من إلقاء القبض عليه، كما استعملوا معه أسلوب جديد تمثل في سمل عينيه بواسطة مسمار محمي، وذلك بعد تنازله عن الخلافة، وكان أول خليفة تسمل عيناه من الخلفاء.² وذلك لكي لا يكون له أمل في المستقبل للعودة إليها، إذ من شروط الخلافة سلامة الحواس والأعضاء من النقص كالجنون والعمى والصمم.³ وكانت نهايته مؤلة فقد شوهد بعد ذلك يستجدي الناس في جامع المنصور.⁴

وخلف القاهر الرازي وقد مثل عهده فترة " إمرة الأمراء " الذين لم يسلبوا الخليفة العباسي سلطانه فحسب، بل شاركوه الذكر في " الخطبة " و " السكة " و " الطراز ".⁵ ويندو أن الخلافة العباسية انتهت بصفة فعلية مع عهد الرازي، إذ كان آخر خليفة له شعر يدون وآخر خليفة خطب على المنبر وآخر خليفة جالس المجلس وآخر خليفة كانت نفقاته وجراياته ومطالبه على ترتيب الخلفاء، ثم تبهذلت الخلافة بعد ذلك.⁶ واستمرت في التزعزع مع المتقي الذي سملت عيناه أيضا، ثم مع المستكفي الذي خلعه البويهيون، وبطريقة شنيعة حيث دخل عليه جنديان من الديلم في مجلسه وجذباه وطرحاه أرضا ووضعاه عمامته في عنقه.⁷ ومن ثمة انتقل الملك إلى بني بويه ولم يعد الاعتراف بالخليفة إلا لكسب الشرعية.

نلاحظ إذن أن الخليفة هو على رأس التركيب الهيكلي للموظفين، أو بالأحرى فإن كل موظفي البلاط يدورون في فلكه. ومنصب الخليفة أحدث مباشرة بعد وفاة الرسول. وقد شهد تطورا في العصر العباسي، إذ أصبح للخلفاء العباسيين صبغة دينية إضافية بالمقارنة مع الأمويين، تتمثل في الانتماء للرسول محمد، والتي سعا إلى إبرازها بواسطة الخطب والمراسلات، وبواسطة أشياء مادية. كما أصبح الخليفة العباسي يحكم بتفويض من الله، فهو " سلطان الله في أرضه " ، أي أن سلطته مستمدة من الله وبالتالي فهي مقدسة. ولذلك فقد كانت مسؤوليته ضخمة تتمثل في السهر على شؤون المسلمين ومقاومة البدع والغزو والحج، إلخ. وقد أكدت ألقاب الخلفاء العباسيين على صفة القدسية هذه.

ولم يكتف العباسيون بإبراز البعد الديني لحكمهم بل وكذلك الديني والذي يتمثل في الملك. إذ أطلقوا على أنفسهم لقب ملوك. وبما أن مركز الخليفة كان يتأرجح بين القوة والضعف تبعا للظروف والأحداث السياسية

¹ - الأربلي، المصدر السابق، ص 239؛ ذو النسيين (دحية والحسين)، نفس المصدر، ص 108-109.

² - ابن العبراني، نفس المصدر، ص 162؛ المسعودي، نفس المصدر، ج 4، ص 313؛ ذو النسيين (دحية والحسين)، نفس المصدر، ص 113.

³ - ابن خلدون، المقدمة، ص 225؛ فاروق عمر، المرجع السابق، ص 95.

⁴ - ذو النسيين (دحية والحسين)، نفس المصدر، ص 113.

⁵ - ابن الطقطقي، الفخري، ص 282؛ الببلي، ثلاثية الحكم في العصور العباسية، ص 61.

⁶ - ابن الساعي، المصدر السابق، ص 101؛ ذو النسيين (دحية والحسين)، نفس المصدر، ص 114.

⁷ - ابن الساعي، المصدر السابق، ص 103.

التي كانت تمر بها الخلافة العباسية، فإن صفة القداسة والملكية كانت تختلف من عهد إلى عهد وأحيانا ضمن فترات العهد الواحد. وفي حين انتهت الملكية مع دخول البويهيين، استمرت القدسية لكن كواجهة فقط لكسب الشرعية. ولم يكتف العباسيون بأن أخذوا عن الأمويين، فكرة توظيف المقدرة الإلهية في الحكم وطوروا فيها، وفكرة الملك وطوروا فيه، بل اقتدوا بهم أيضا في مبدأ توريث الحكم، والذي نتج عنه ظهور منصب رسمي ثان في البلاط بعد منصب الخليفة وهو منصب ولي العهد.

2- ولي العهد

للمحافظة على الحكم في الفرع العباسي أكد العباسيون على فكرة العائلة المختارة، كما اتبعوا مبدأ الوراثة في الحكم، والذي نتج عنه نشأة نظام رسمي في البلاط وهو نظام " ولاية العهد"، وظهر منصب رسمي ثان أو شخصية رسمية ثانية في أعلى هرم السلطة بعد الخليفة هي شخصية ولي العهد، وقد جرت العادة أن يتولى هذا المنصب أحد من أولاد الخليفة أو من إخوته، أو من أقاربه . فكيف كان يتم توريث الحكم في العصر العباسي وماهي المهام التي أوكلت لولي العهد؟.

كما هو معلوم فإن وصول العباسيين إلى الحكم، جاء على إثر انتصار حركة معارضة انطلقت سرية ثم أصبحت ثورية، دعت إلى " الرضا من أهل محمد".¹ ويبدو واضحا أن هذا الشعار لا يسمي شخصا يرشحه للخلافة، لكنه يشرع في تحديد هوية هذا الشخص والذي يجب أن يكون منتميا إلى عائلة الرسول محمد.

وبالبيعة لأبي العباس السفاح ولمن جاء بعده من الخلفاء العباسيين وصل آل البيت فعلا إلى الخلافة. لكن في ذلك تطبيق إلا لجزء فقط من الشعار المذكور، لأن بيعة أبي العباس لم تكن محل رضا من قبل آل البيت، أي لم تسبقها عملية شورى بين آل البيت، بل تمت بصفة مباشرة من قبل أحد قادة الثورة، بل أكثر من ذلك تذكر المصادر محاولة أبي سلمة الخلال صرف الخلافة إلى أولاد علي بن أبي طالب.²

وبالتالي نلاحظ فشل فكرة "الرضا" أو فكرة الشورى التي نادى بها الثورة العباسية، واستئثار العباسيين بالخلافة، وتحول شعار الرضا من آل البيت إلى " الرضا من آل العباس". وقد برز ذلك بصفة أكثر وضوحا، إثر تعيين أبي العباس السفاح لأخيه أبي جعفر المنصور وليا للعهد من بعده، ولابن أخيه عيسى بن موسى ولي عهد ثان.³ أي مركزا بذلك مبدأ الوراثة في الحكم. وقد اقتدى في ذلك بالأمويين، ذلك أن معاوية بن أبي سفيان

¹ - مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص 194-200.

² - المسعودي، مروج الذهب، ج 3، 254-255؛ اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 341-342؛ أسماء عمارة، البلاط العباسي، ص 29.

³ - البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 238.

هو أول من أدخل نظام الوراثة في الإسلام.¹ ويرجع هذا التوريث للخلافة إلى عدة عوامل منها التأثير بالفرس، فقد كان الملك الفارسي هو من يعين ولي عهده والذي عادة ما يكون ابنه الأكبر.² كما أن البيزنطيين كانوا يورثون أحد أبنائهم أو أحد أقاربهم من الذكور أو شخص لا ينتمي للأسرة الحاكمة، وعندها يكون الإمبراطور مجبراً على إلحاق هذا الشخص بنسبه فيصبح ابنه بالتبني.³ بالإضافة إلى " أن الفكرة الأسروية هي أمر طبيعي عندما يستتب الحكم".⁴ كما أن فكرة العائلة المختارة وفكرة القداسة التي أكد عليها العباسيون تحتم إتباع مبدأ الوراثة في الحكم، وكنا قد بينا أن تلك الفكرة كانت تتماشى وتطور المجتمع العباسي في ذلك العهد، والذي من المفروض أن يرضى أيضاً بمبدأ الوراثة في الحكم. إذن لقد حافظ العباسيون على تصور الأمويين للحكم، أي على فكرة الحكم الأسروي، لكن ما يميز العباسيين عن الأمويين رغم انحدارهما من نفس الجد المؤسس عبد مناف، هو انتسابهم للرسول محمد، مما أضفى عليهم نوعاً من القدسية. وبالتالي فإن السؤال الذي يطرح هو إلى أي مدى نجح العباسيون في إيجاد آلية وراثية واضحة، وهل أن الوراثة كانت تؤدي دائماً إلى تولي الأفضل أو الأحسن.؟

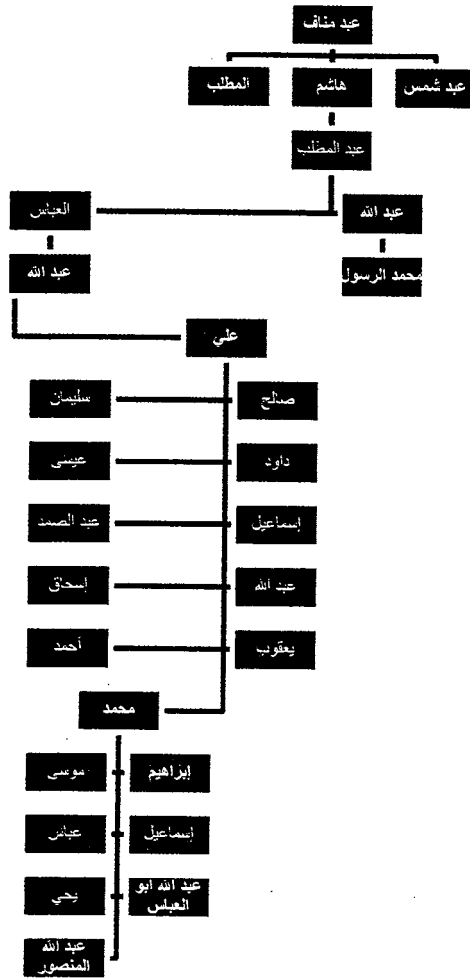
¹ - الثعالبي، لطائف المعارف، ص 16؛ الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، 67، فاروق عمر، العباسيون الأوائل، ج 2، ص 201.

² - Huyse (Philip), *La perse antique*, Paris 2005, p. 75.

³ - Bréhier. L, *Les institutions de l'empire byzantin*, Paris, 1970, t 1, 22- 23.

⁴ - بئينة بن حسين، الدولة الأموية....، ص 294.

شجرة نسب العباسيين.¹



لقد كان الخليفة العباسي هو الذي يتولى تعيين ولي العهد وذلك من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المعتصم بالله. وقد اتبع العباسيون خلال تلك الفترة مبدأ الوراثة المباشرة أي من الأب إلى الابن الذي وضعه الخليفة المنصور والذي كان في كل مرة يقضي فروع جانبية من الأسرة العباسية نفسها. لكن نظام الوراثة المباشرة لم يمنع من وجود نظام الخلافة غير المباشرة أي من الأخ إلى الأخ، أو من الأخ إلى ابن الأخ، إلخ.. كما كانوا يضطرون في بعض الأحيان إلى تعيين أكثر من ولي عهد اثنان أو حتى ثلاثة إن اقتضى الأمر. وهو أسلوب سار عليه كذلك الأمويون.² ويمكن أن نتبين كل ذلك من خلال تتبع تداول الخلفاء العباسيين على الحكم.

¹ - السدوسي، كتاب حذف من نسب قریش، القاهرة 1960، ص 3- 11.

² - الفضل شلق، الأمة والدولة، ص 24.

فعملاً بنظام تولية العهد لأكثر من واحد، عهد أول الخلفاء العباسيين أبو العباس السفاح بالخلافة إلى أخيه أبي جعفر المنصور ثم إلى ابن أخيه عيسى بن موسى، وهناك إشارة وردت لدى البلاذري تفيد بأنه كان قد وعد عمه عبد الله بن علي بالخلافة حين انتدبه لقتال مروان بن محمد.¹

ولما ولي المنصور الخلافة أختّر عيسى بن موسى من ولاية العهد وقدم عليه ابنه المهدي.² ثم لما تولى المهدي الخلافة أسقط نهائياً عيسى بن موسى من ولاية العهد وولى ولديه موسى الهادي ثم هارون الرشيد.³ ونقض الخليفة الهادي العهد الذي قطعه على نفسه ووعد به أباه في البيعة لأخيه هارون من بعده ليبيع ابنه جعفر بولاية العهد، لكنه مات قبل أن ينفذ ذلك.⁴

ولما ولي هارون الرشيد الخلافة أوصى بالعهد لأبنائه الثلاثة حيث رتب الخلافة فيهم: الأمين، ثم المأمون، فالموثق.⁵ وقد تقنن الحكم الأسروي في عهد الخليفة الرشيد فقد ترك قراراً مكتوباً يسمى العهد مدعم بإمضاء شهد ثقة، وعلقه في الكعبة، والذي أصبح القرار الأساسي للتعين بالإضافة إلى حفل البيعة.⁶

لكن رغم هذا التقنين فقد حاول الخليفة الأمين خلع أخيه المأمون والتوصية بولاية العهد لابنه الطفل موسى مما أدى إلى الصراع بين الأمين والمأمون، والذي انتهى بمقتل الأمين.⁷

وقد أراد الخليفة المأمون أن يهدم قاعدة الحكم الأسروي العباسي، فباع لعلي الرضا بن موسى الكاظم،⁸ وتحولت الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي، ولا شك أن تصرف المأمون فيه محاولة لتطبيق مبدأ الرضا من آل البيت، أي لتشمل الخلافة في نفس الوقت الفرع العلوي والعباسي. لكن الأسرة العباسية وأهل بغداد عارضوا ذلك وبايعوا لإبراهيم بن المهدي.⁹ فاضطر المأمون إلى العدول عن هذا المبدأ، بل دبر مؤامرة انتهت بمقتل علي الرضا.¹⁰ نلاحظ أن الأسرة العباسية تمثل قوة ضغط كبيرة وتضرب على يد كل من أراد أن يخترق القوانين السلالية التي وضعها الخليفة المنصور.

تولى الخليفة الثامن المعتصم بعهد من أخيه المأمون، الذي عدل عن تولية ابنه العباس رغم إرادة الجيش له، وذلك لما رأى فيه من قوة ومقدرة على تولي شؤون الخلافة من بعده، وكذلك على مواصلة مسيرته في القول

1- البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 238-250.

2- المصدر السابق، ج 4، ص 343-344.

3- اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 395.

4- المصدر السابق، ج 2، ص 405-406.

5- السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 229.

6- الطبري، تاريخ، ص 1678-1679؛

- Holt. P. M, s v « Khalifa », E.I, t IV, p. 972.

7- السيوطي، نفس المصدر، ص 235؛ اليعقوبي، نفس المصدر، ج 2، ص 436.

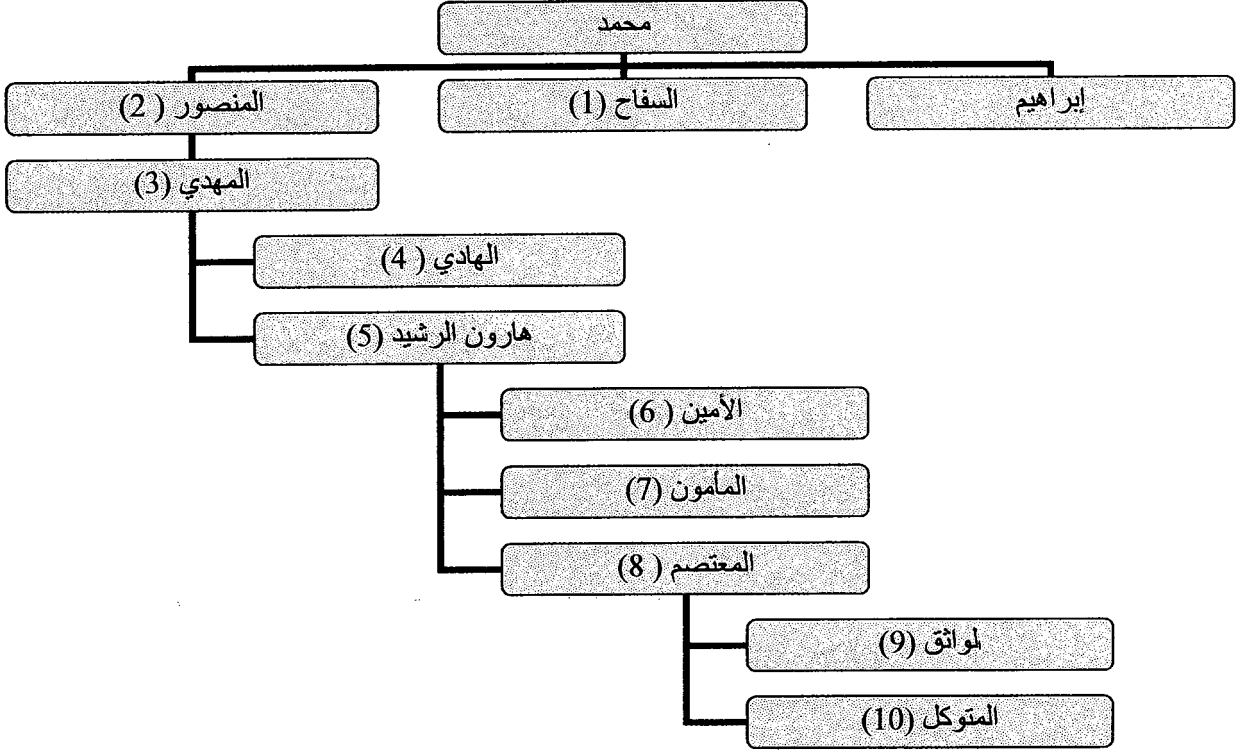
8- الطبري، نفس المصدر، ص 1784.

9- الطبري، تاريخ، ص 1786.

10- المصدر السابق، ص 1790.

بخلق القرآن.¹ كما عهد المعتصم لابنه الواثق.² والذي مثلت وفاته منعرجا حاسما في تاريخ الخلافة العباسية، فقد توفي دون أن يعالج مشكلة العهد

خلفاء العصر العباسي الأول



إذن تدعمت قاعدة الحكم الأسروي من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المعتصم، وهو ما تبرزه لنا شجرة النسب، وقد بلغت أوجها في عهد الخليفة المنصور، فجميع خلفاء الفترة ما عدا السفاح هم أحفاده. وترجع قوة الفكرة الأسروية طيلة هذه الفترة لاحترام الخلفاء العباسيين لقاعدة الحكم الأسروي رغم أنهم حاولوا حصر الخلافة في أبنائهم ونزعها عن إخوتهم، بالإضافة إلى محاولة المأمون نقل الخلافة إلى الفرع العلوي.

وعندما تخلّى الخليفة الواثق على قاعدة الحكم الأسروي برفضه تعيين أحد أبنائه العهد، يحدث تراجع عن الفكرة الأسروية، أدى إلى تدخل القادة والإداريين في اختيار الخليفة ومبايعته. ويمكن أن نتبين ذلك من خلال تداول الخلفاء على الحكم من عهد الخليفة المتوكل إلى عهد الخليفة المستكفي.

فقد تولى الخليفة المتوكل باختيار من رجال البلاط، وخاصة القادة الأتراك، ولا بعهد من سلفه الواثق. وقد فضله وصيف التركي على أحمد بن الواثق، الذي حاولوا توليته في البداية لكنهم عدلوا عن ذلك لأنه "غلام

¹ - الطبري، نفس المصدر، ص 1825-1826-1832.

² - السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 266.

أمرد". بل إن الوزير محمد بن عبد الملك الزيات أراد أن يلقب الخليفة الجديد المنتصر بالله لكنه اختار لنفسه لقب المتوكل على الله.¹

وقد حاول الخليفة المتوكل الحفاظ على الفكرة الأسروية من التلاشي، ووضع حدًا لتدخل القادة الأتراك في اختيار الخليفة، فبايع لأبنائه الثلاثة: المنتصر، فالمعتز، فالمؤيد.² أي مقتديا بما فعله جدّه هارون الرشيد، رغم ما نتج عن ذلك من فتنة بين الأمين والمأمون. ثم حاول المتوكل في مرحلة لاحقة تقديم المعتز على المنتصر لمحبة لأمه، فكان أن تأمر المنتصر مع الأتراك على أبيه وقتلوه.³

وتولّى الخليفة المنتصر فحرّضه الأتراك على خلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد، إذ كانوا يحشون على أنفسهم منهما، وكتب كل واحد منهما رقعة بخطه أنه خلع نفسه من البيعة.⁴

وقتل المنتصر دون أن يوصي بولاية العهد، فاجتمع القادة الأتراك من جديد، واختاروا أحمد بن المعتصم، ولقبوه المستعين بالله. وقد رفضوا تولية أحد أبناء المتوكل قائلين "متى وليتم أحدا من أولاد المتوكل لا يبقى منا باقية... مالها إلا أحمد بن المعتصم ولد أستاذنا فبايعوه".⁵ وهكذا فقد أصبح الخليفة المتوكل بالنسبة للأتراك شبحا يهابونه، إلى درجة أنهم رفضوا أن يولوا أحدا من أبنائه بعد المنتصر. إلا أنهم عدلوا عن رأيهم بعد ذلك وقرروا خلع المستعين وولوا المعتز بالله بن المتوكل الخلافة.⁶ ثم خلعوه ونصبوا محمد بن الواثق خليفة ولقبوه المهتدي بالله، ثم يخلع بدوره ويباع للمعتد.⁷

نلاحظ إذن غياب منصب ولي العهد في البلاط، من عهد الخليفة المنتصر إلى عهد الخليفة المهتدي، ولا بدّ أن نضيف إلى ذلك عهد الخليفة الواثق. وأصبح تولي الخليفة يخضع إلى عملية اختيار يقوم بها القادة الأتراك من بين أبناء الخلفاء، حسب ما يناسبهم. وقد أحدث ذلك خللا في قاعدة الحكم الأسروي، فقد تولّى الخليفة المهتدي بعد أبيه بأربعة خلفاء.⁸ وتولّى الخليفة المستعين ولم يكن أبوه خليفة.

وقد حاول الخليفة المعتمد من جديد إحياء القوانين الأسروية أو السلالية التي وصغها الخلفاء العباسيون الأوائل، فبايع لابنه جعفر ولقبه المفوض إلى الله، ولأخيه الموفق من بعده، على أن يكون الأمر لأخيه إذا حدث له مكروه ولم يكن ابنه قد بلغ بعد، وكتب عهدا بذلك وأنفذه مع قاضي القضاة كي يعلقه في الكعبة.⁹ أي أنه قام بتقنين الحكم الأسروي كما فعل ذلك هارون الرشيد.

¹- الطبري، تاريخ، ص 1891.

²- المصدر السابق، ص 1899-1900.

³- السيوطي، نفس المصدر، ص 273.

⁴- الطبري، نفس المصدر، ص 1929-1930.

⁵- السيوطي، نفس المصدر، ص 280؛ ابن العمراني، نفس المصدر، ص 123.

⁶- ابن العمراني، نفس المصدر، ص 126.

⁷- المصدر السابق، ص 131-136.

⁸- الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص 233.

⁹- السيوطي، نفس المصدر، ص 286؛ ابن العمراني، نفس المصدر، ص 138؛

- Holt. P. M, s v « Khalifa », E.I, t IV, p. 972.

لكن الموفق مات ولم يحصل له الأمر، كما اضطر المعتمد في السنة الأخيرة من خلافته أن يغير العهد، فخلع ابنه المفوض وبايع لابن أخيه الموفق ولقبه المعتضد، وذلك لما رآه من حب الجيش له.¹ وكى لا يدع لهم فرصة نقض بيعته لابنه.

وتولى الخليفة المعتضد، وهو ثاني خليفة بعد المستعين لم يكن أبوه خليفة.² وتخلّى على قاعدة الحكم الأسروي برفضه أن يرشح أحدا للخلافة قائلا، "والله ما أسمى لها أحدا ولقد كفاني ما تقلدت منها فبايعوا من شئتم".³ لكن نصب ولده المكتفي، والذي هدم بدوره قاعدة الحكم الأسروي العباسي لأنه توفي دون أن يوصي لأحد بالخلافة، أي وقع في نفس خطأ الخليفة الراحل، مما أتاح الفرصة من جديد للعسكريين والمدنيين على السواء، الذين أحسوا بأن السلطة ستبقى خارج أيديهم إذا استمر تعاقب الأمراء والخلفاء الأقوياء من أمثال الموفق والمعتمد فعادوا إلى سيرتهم الأولى في اختيار الخلفاء الضعفاء.⁴ ووقع اختيارهم على جعفر المقتدر بن الخليفة المعتضد، رغم أن هذا الأخير لم تتوفر فيه أهم صفة تقليدية لتولي الحكم وهي السن، فقد كان عمره 13 سنة.⁵ وقتل المقتدر فاجتمعوا من جديد وولوا ابنا آخر للمعتضد وهو القاهر، وقد فضله مؤنس على محمد بن الخليفة المكتفي، ليضع حدا لشغب الجند ومطالبتهم بالأرزاق سيما وأن خزائن الدولة كانت فارغة.⁶ وسمل القاهر وخلع، فدخلوا على محمد بن المقتدر، وكان محبوسا فأخرجوه وأجلسوه على سرير الخلافة وبايعوه، واتخذ لقب الراضي لله.⁷ وهو من أحدث منصب إمرة الأمراء، الذي سيصبح منذ ذلك الوقت يتدخل في اختيار الخليفة ومبايعته. فقد توفي الراضي ومشكلة ولاية العهد لم تعالج بعد، وكان أمير الأمراء يحكم الديلمي في ذلك الوقت في واسط، فطلب من كاتبه أحمد الكوفي في بغداد أن يجمع وزير الخليفة السابق أي الراضي وكل من تقلد الوزارة وأصحاب الدواوين والقضاة والعدول والفقهاء والعلماء والعباسيين، ووجوه البلد ليتشاوروا في أمر اختيار الخليفة، فوقع اختيارهم على إبراهيم بن المقتدر، ثم أقرّ بحكم هذا الاختيار، واختار الخليفة الجديد لنفسه لقب المتقي لله.⁸ ثم خلع المتقي وسمل على يد أمير الأمراء توزون، الذي بايع من بعده لعبد الله بن المكتفي ولقبه بالمستكفي بالله.⁹ وهو الذي ملك بنو بويه في عهده.

¹ - السيوطي، نفس المصدر، ص 287.

² - Sourdel. D, *L'Etat impérial des califes abbassides*, p. 121.

³ - ذو النسيين (دحية والحسين)، نفس المصدر، ص 94.

⁴ - ابن العمراني، نفس المصدر، ص 150.

⁵ - فاروق عمر، *الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية*، ص 85.

⁶ - ابن العمراني، نفس المصدر، ص 153.

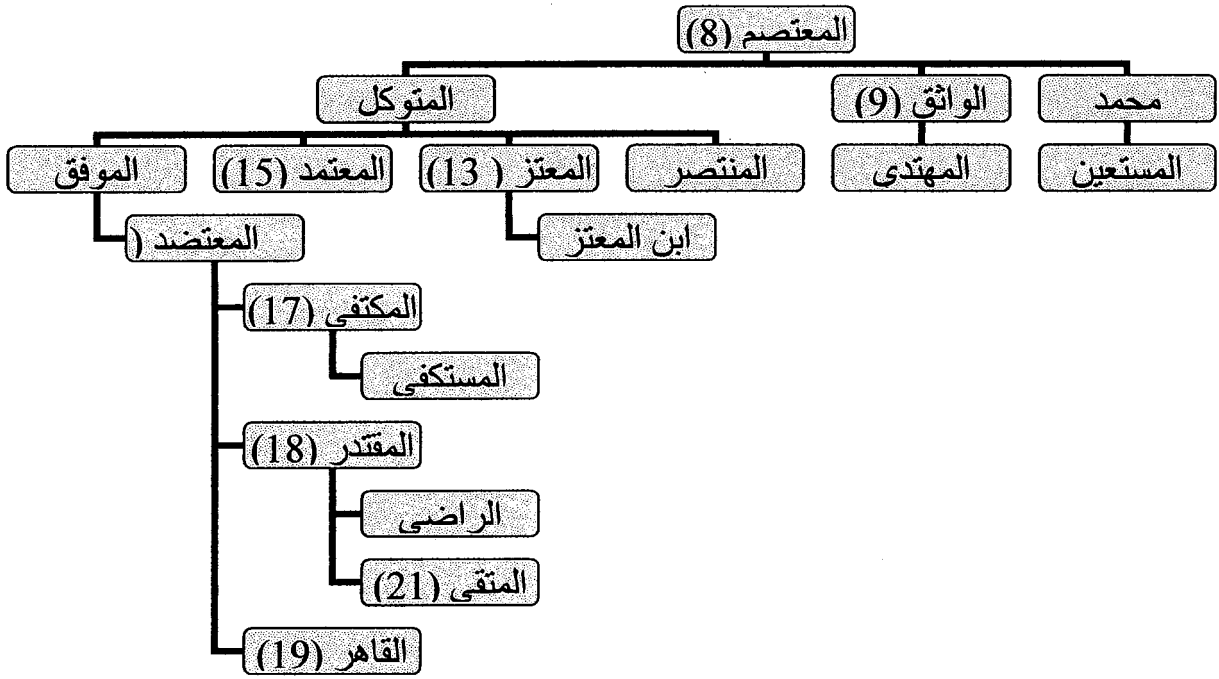
⁷ - المصدر السابق، ص 161.

⁸ - المصدر السابق، ص 162.

⁹ - مسكويه، *تجارب الأمم*، ج 2، ص 2؛ الصولي، *أخبار الراضي لله والمتقي لله*، بيروت، ص 186-187-188؛ فاروق عمر، *نفس المرجع*، ص 101.

⁹ - ابن الساعي، *تاريخ الخلفاء العباسيين*، ص 103.

خلفاء العصر العباسي الثاني



انحصر إذن الحكم الأسروي خلال هذه الفترة أي من عهد الخليفة المتوكل إلى عهد الخليفة المستكفي في أبناء الخليفة المعتصم، ورغم تداول ثلاثة خلفاء من أولاد المعتضد على الخلافة من بعده، وهم المكتفي، المقتدر والقاهر، وهو ما نلاحظه من خلال شجرة النسب، فإن ذلك لا يعني احتراماً للقوانين الأسروية، وإنما عملية الاختيار هي التي أفرزت ذلك، ولعل من يولي بهذه الطريقة لا بد أن تكون وظيفته تتناسب وشروط اختياره. لذلك فقد أحدث ضعف الخلفاء، وتدخل العسكريين والمدنيين بالإضافة إلى أمير الأمراء في اختيار الخليفة، واختراقهم للقوانين السلالية، انهياراً للفكرة الأسروية وانشقاقاً داخل الأسرة العباسية، أدّى إضافة إلى عوامل أخرى لزوال السيادة الفعلية للخلافة العباسية.

ومن ثمة فإن ظهور منصب ولي العهد في البلاط هو مرتبط بمدى قوة الخلافة أو ضعفها. ففي عهد الخلفاء العباسيين الأقوياء، كان ولي العهد يمثل الشخصية العليا الثانية في البلاط بعد الخليفة، وتتمثل مهامه في القيام مقام الخليفة أثناء غيابه أو سفره، من تصريف شؤون الخلافة ورعاية مصالح المسلمين وإجراء الأعطيات إلخ.... فلما حجّ الخليفة المهدي سنة 160هـ / 776م تذكر المصادر أنه استخلف على بغداد ابنه موسى الهادي، كما استخلفه سنة 163هـ / 779م حين خرج مشيعاً هارون لغزو الروم.¹ ولما شخص الرشيد إلى الرقة

¹ - ابن كثير، البداية والنهاية، ج 10، ص 132-146.

استخلف على بغداد محمدا الأمين وجعل معه يحيى بن خالد وأسكنه معه قصر الخلد وضم إليه أعماله ودواوينه.¹

أيضا من مهام ولي العهد النيابة عن الخليفة في الحج، فقد أقام الخليفة الهادي الحج عوض أبيه سنة 161 هـ / 777 م.² وكذلك في الغزو، فقد وجه المهدي سنة 163 هـ / 779 م الرشيد لغزو الروم مصحوبا بمجموعة من القادة المشهورين والصحابة الحسين بن قحطبة والربيع الحاجب وخالد بن برمك.³ كما تمكن الموفق ولي عهد الخليفة المعتمد من الانتصار على الزنج والصفاريين والتغلب على مؤامرات أحمد بن طولون والي مصر القوي، كما تمكن من السيطرة على الجند، ولم تكن السلطة للخليفة بقدر ما كانت له، فقد أصبح في أواخر أيامه من النفوذ بأن كان يذكر اسمه إلى جانب اسم الخليفة في الخطبة والسكة، والتسمي بإمرة المؤمنين.⁴ كما كان ولي العهد ينوب عن الخليفة في صلاة الجمعة. فقد صلى المعتز بالناس عوض أبيه الخليفة المتوكل، في آخر جمعة من شهر رمضان سنة 240 هـ / 854 م.⁵

كما سعى بعض الخلفاء العباسيين إلى تعيين ولاية عهودهم على الأقاليم وكانوا يلحقون بهم عددا من الصحابة والأتباع والجند. فقد عين الخليفة المنصور ولي عهده المهدي واليا على الري وأشخص معه وجوه الجند والصحابة أمثال أبو عبيد الله معاوية وخازم بن خزيمة قائد الجيش.⁶ ولما تولّى المهدي الخلافة عين ولي عهده الرشيد على الأقاليم الغربية وأذربيجان وأرمينية يساعده في ذلك ثابت بن موسى على كتابة الخراج ويحيى بن خالد بن برمك على كتابة الرسائل.⁷ ولعل الهدف من ذلك بالإضافة إلى حماية حدود الدولة، إعداد ولي العهد لممارسة السلطة وتسيير شؤون الحكم، و من هنا تتكون حوله الحاشية والأتباع.

ولم تكن تسند لولي العهد المهام والصلاحيات فقط بل يعطى كذلك الأملاك والقصور، فقد أعد المنصور للمهدي الشرقية كي يقيم فيها قبل أن يعينه واليا على خراسان، ثم الرصافة إثر قدومه من الري.⁸ وكان الرشيد يقيم في قصر الخلد وهو ولي عهد وفيه أعرس على زبيدة.⁹ كما كان الأمين يقيم فيه عندما كان ولي عهد. أما المأمون فقد امتلك في بغداد القصر المأموني الذي شيّده جعفر البرمكي ووهبه له، كما كان له قصر آخر في بغداد على شاطئ دجلة.¹⁰ كما أنزل المتوكل ولاية عهوده في قصور خاصة بهم، فقد أنزل المنتصر في

¹ - الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص 193.

² - ابن حبيب، المحبر، ص 37.

³ - الطبري، تاريخ، 1621-1622.

⁴ - السيوطي، نفس المصدر، ص 285-286-287؛ ابن الطقطقي، مصدر سابق، ص 250؛ البيلي، مرجع سابق، ص

71-72؛ فاروق عمر، نفس المرجع، ص 81.

⁵ - الطبري، نفس المصدر، 1921.

⁶ - الجهشيارى، نفس المصدر، ص 126.

⁷ - الطبري، نفس المصدر، 1622.

⁸ - اليعقوبي، البلدان، ص 13؛ الأزدي، نفس المصدر، سنة 214.

⁹ - الشاشتي، الديارات، ص 156-157، أحمد صالح العلي، " قصور ومنازل أولاد الخلفاء....."، نفس المرجع، ص

171.

¹⁰ - الطبري، نفس المصدر، 1793؛ ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص 75-76؛ أحمد صالح العلي، " قصور ومنازل أولاد

الخلفاء....."، نفس المرجع، ص 163-187.

قصر المعتصم المعروف بالجوسق الخاقاني والمؤيد بالمطيرة والمعتز بقصر بلكورا.¹ وكان ولي العهد أول من يؤذن له للدخول على الخليفة في يوم الموكب،² وكان يجلس إلى يمين الخليفة في المجلس، وتوضع له مرفقة فوق البساط، أما الوزير فتوضع له مرفقة تحت البساط تقصيرا له عن مترلة ولي العهد.³

وهكذا فقد كان ولي العهد مكونا لنواة جديدة ضمن الوسط السياسي الأعلى الحاكم في البلاط، متجهة نحو المستقبل، ويعطي بعدا جديدا للحياة السياسية في أعلى مستوى أو يوفر ضمنها مكونا آخر. لكن يبقى حضوره في البلاط مقترنا بمدى قوة الخلافة، فقد لا حظنا غيابه تقريبا طيلة العهد العباسي الثاني عدا عهد الخليفة المعتمد. ويعود ذلك إلى عجز العباسيين عن إيجاد ميكانيكية ثابتة لتوريث الحكم، كما في أوروبا الإقطاعية مثلا حيث كانت الثروات العقارية وغيرها بالإضافة إلى ولاية الحكم تورث حسب مبدأ *primogéniture*، الذي يعطي كل شيء للابن الأكبر حيث كان لكل فرد موقعه في النظام الاجتماعي بحكم ولادته، لكن هذا الأمر لم يكن ممكنا في الإسلام بسبب المساواة النابعة عن مبدأ الأخوة.⁴

كذلك لم يكن ممكنا اعتماد نسب الخليفة في توريث الحكم، - أي أن يكون من أبوين عربيين حرين كما كان في العهد الأموي، ذلك أن العباسيين وإن كانوا متساوين مع العلويين في مواجهتهم لبني أمية على مستوى النسب، فإن ما يميز العلويين، هو أنهم لا ينتمون فقط لعائلة الرسول، بل يبدوون كذلك وفي صورة الوارث للرسول محمد بواسطة فاطمة، ويبدو أن العباسيين قد فهموا هذه النقطة، فأكدوا على ثانوية الوراثة عن طريق النساء، وهو ما كشفت لنا عنه الرسائل المتبادلة بين الخليفة المنصور ومحمد النفس الزكية. ولذلك فعدا السفاح والمهدي والأمين، لم يكن يعرف في الخلفاء العباسيين من أمه عربية.⁵ كما أن العهد الذي يكتبه الخليفة، لم يكن يحترم وينفذ رغم محاولة بعض الخلفاء تقنينه، بواسطة إمضاء شهود وثقات وتعليقه في الكعبة، كما فعل الرشيد والمعتمد.

وأخيرا تسبب عدم إيجاد ميكانيكية ثابتة لتوريث الحكم، في انهيار الفكرة الأسروية العباسية، ومنح الفرصة للأتراك للتدخل في اختيار الخليفة وتنصيبه ثم خلعه وقتله، وقد انعكس ذلك على منصب ولي العهد، الذي أبطل لفترات طويلة في البلاط العباسي. فماذا عن دور باقي أولاد الخلفاء؟

3- أولاد الخلفاء من غير ولاية العهد

يمكن القول بأنه لم يكن لسائر أولاد الخلفاء من الشأن في البلاط ما كان لولاية العهد. كما أن المصادر لم تولهم عناية كبيرة فلم تفرد لهم فصولا خاصة وإنما اقتصررت في الكثير من الأحيان على ذكر أسمائهم وذكر

¹ - اليعقوبي، البلدان، ص 30.

² - الصائبي، رسوم دار الخلافة، ص 79.

³ - الجهشاري، مصدر سابق، ص 125.

⁴ - الفضل شلق، الأمة والدولة، ص 23.

⁵ - أسماء عمارة، البلاط العباسي، ص 75.

بعض المهام التي كلفوا بها، وذكر بعض أملاكهم. ونقصد بأبناء الخلفاء القراية الأفقية التي تجمع بين الإخوة والأخوات وأبناء العمومة.¹ وتشمل هنا أبناء المنصور وأحفاده فكل خلفاء الفترة هم من نسله. وقد أمدتنا المصادر بأسماء أولاد الخلفاء العباسيين من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المستكفي.

أسماء أولاد الخلفاء العباسيين من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المستكفي

اسم الخليفة	أولاده	أمهاتهم	المصادر
أبو العباس السفاح	محمد	أم سلمة بنت يعقوب المخزومية	البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، 239.
	العباس		
	علي		
	إبراهيم		
	إسماعيل		

اسم الخليفة	أولاده	أمهاتهم	المصادر
أبو جعفر المنصور	محمد المهدي/ أبو عبد الله	أم موسى بنت منصور الحميرية	البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، 369-370- 371-372، ابن الساعي، تاريخ الخلفاء العباسيين، ص 28.
	جعفر الأكبر/ أبو الفضل		
	إبراهيم	فاطمة من ولد طلحة بن عبيد الله التميمي	
	سليمان		
	عيسى		
	صالح المسكين		
	القاسم	أم ولد	
	عبد العزيز	أم ولد	
	العباس	أم علي من أهل وادي القرى صغيرة/ كردية	
	علي		
	جعفر الأصغر		

اسم الخليفة	أولاده	أمهاتهم	المصادر
المهدي	موسى / الهادي / أبو محمد	الخيزران	البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 372.
	هارون / الرشيد / أبو جعفر		
	عيسى		
	علي	ربطة بنت أبي العباس السفاح	
	عبيد الله		
	منصور	البخترية بنت الأصهب صاحب طبرستان	
	يعقوب	أم ولد	
	إسحاق	شكلة أم ولد	
	إبراهيم		

¹ - سويليه (جاكولين)، حصن الاسم، ترجمة سليم محمد بركات، دمشق 1999، ص 147.

المصادر	أمهاتهم	أولاده	اسم الخليفة
ابن الجوزي، المتتظم، ج 8، ص 306-307.	أم ولد	جعفر	الهادي
	أم ولد	العباس	
	أم ولد	عبد الله	
	أم ولد	إسحاق	
	أم ولد	إسماعيل	
	أم ولد	سليمان	
	أم ولد	موسى	

المصادر	أمهاتهم	أولاده	اسم الخليفة
الطبري، تاريخ، ص 1711؛ الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص 107-113.	زبيدة	محمد الأكبر	هارون الرشيد
	مراحل أم ولد	عبد الله/ المأمون	
	قصف أم ولد	القاسم/ المؤمن	
	ماردة أم ولد	محمد/ أبو إسحاق/ المعتصم	
	أمة العزيز أم ولد	علي	
	رثم أم ولد	صالح	
	عراية أم ولد	محمد/ أبو عيسى	
	شذرة أم ولد	محمد/ أبو يعقوب	
	خبث/ أم ولد	محمد/ أبو العباس	
	رواح أم ولد	محمد/ أبو سليمان	
	دواج/ أم ولد	محمد/ أبو علي	
	كتمان/ أم ولد	محمد/ أبو أحمد	

المصادر	أمهاتهم	أولاده	اسم الخليفة
ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، 24؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج 5، 119.	أم ولد	موسى/ الناطق بالحق	الأمين
		عبد الله	
		إبراهيم	

المصادر	أمهاتهم	أولاده	اسم الخليفة
ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، 24؛ الأربلي، نفس المصدر، ص 194.	أم ولد	محمد الأكبر	المأمون
	أم ولد	العباس	
	أم ولد	أحمد	
	أم ولد	هارون الأكبر	
	أم ولد	عيسى	
	أم ولد	هارون الأصغر	
	أم ولد	إبراهيم	
	أم ولد	إسماعيل	
	أم ولد	إسحاق	
	أم ولد	يعقوب	
	أم ولد	علي	
	أم ولد	الحسن	
	أم ولد	الحسين	
	أم ولد	جعفر	
	أم عيسى بنت الهادي	محمد الأصغر	
		عبد الله	

اسم الخليفة	أولاده	أمهاتهم	المصادر
المعتصم	هارون/ الواثق	قراطيس/ أم ولد	ابن حزم، نفس المصدر، ص 25؛ ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص 141.
	جعفر/ المتوكل	شجاع/ تركية	
	محمد الأكبر والد المستعين		
	أحمد		
	علي		
	إبراهيم	أمه بنت بابك الخرمي	
	العباس الأعرج		
	محمد الأعور الأصغر		
	عبد الله		

اسم الخليفة	أولاده	أمهاتهم	المصادر
الواثق	محمد / المهتدي		ابن حزم، نفس المصدر، ص 25؛ ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص 144.
	محمد/ أبو القاسم/ عبد الله		
	إبراهيم		
	علي		
	محمد الأصغر أبو إسحاق		

اسم الخليفة	أولاده	أمهاتهم	المصادر
المتوكل	محمد/ المنتصر	حبشية أم ولد/ رومية	ابن حزم، نفس المصدر، ص 27؛ ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص 147-148.
	موسى الأحذب		
	محمد أبو عبد الله/ المعتز	قيحة/ صقلية	
	إسماعيل		
	أبو العباس/ أحمد/ المعتمد	فتيان	
	إبراهيم المؤيد	سحق	
	أبو أحمد/ محمد الموفق		
	محمد/ أبو عيسى	خزر	
	محمد/ أبو العباس		
	محمد أبو حفص		
	محمد/ أبو محمد		
	محمد/ أبو بكر		
	محمد/ أبو موسى		
	محمد/ أبو الحسن		
	عبد الله/ أبو القاسم		
	المؤمل		
	الفضل		
	الغيداق/ أبو شبة		
	عبد الله		
	عبد الرحمان		
	يعقوب الأحذب		
	جعفر/ إسحاق		

اسم الخليفة	أولاده	أمهاتهم	المصادر
المنتصر	عبد الله		ابن حزم، نفس المصدر، ص 27-28؛ ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص 151.
	هارون		
	عيسى		
	الفضل		
	العباس		
	علي		
	عبد الله		
	عبد الصمد		
	محمد/ أبو عبد الله		
	أحمد		
	جعفر		

اسم الخليفة	أولاده	أمهاتهم	المصادر
المستعين	العباس		ابن الكازروني، نفس المصدر، ص 153.
	أبو القاسم		

اسم الخليفة	أولاده	أمهاتهم	المصادر
المعتز	عبد الله/ الشاعر/ أبو العباس		ابن حزم، نفس المصدر، ص 28؛ ابن الكازروني، نفس المصدر، ص 156.
	حمزة		
	إبراهيم		

اسم الخليفة	أولاده	أمهاتهم	المصادر
المهتدي	عبد الصمد		ابن الكازروني، نفس المصدر، ص 160.
	جعفر عبد الله		
	خلف 17 ابنا		

اسم الخليفة	أولاده	أمهاتهم	المصادر
المعتمد	جعفر/ المفوض		ابن حزم، نفس المصدر، ص 28؛ ابن الكازروني، نفس المصدر، ص 162.
	إسحاق/ جليس الخلفاء		
	محمد/ أبو عبد الله		
	عبد العزيز		
	إبراهيم		
	يعقوب		
	علي		
	العباس		

اسم الخليفة	أولاده	أمهاتهم	المصادر
المعتضد	علي/ أبو محمد المكفي		ابن حزم، نفس المصدر، ص 29؛ ابن الكازروني، نفس المصدر، ص 167.
	جعفر المقتدر		
	محمد/ أبو منصور/ القاهر		
	هارون		

اسم الخليفة	أولاده	أمهاتهم	المصادر
المكتفي	عبد الله / المستكفي		ابن حزم، نفس المصدر، ص 29؛ ابن الكازروني، نفس المصدر، ص 170 - 171.
	محمد / أبو أحمد		
	العباس		
	الفضل		
	جعفر		
	عبد الصمد		
	عبد الملك		
	موسى		
	عيسى		

اسم الخليفة	أولاده	أمهاتهم	المصادر
المقتدر	محمد / الراضي		ابن حزم، نفس المصدر، ص 30؛ ابن الكازروني، نفس المصدر، ص 173 - 174.
	إبراهيم / المتقي		
	المطيع لله		
	الفضل		
	الفضل		
	أبو العباس / أحمد		
	أبو الحسن / علي		
	موسى		
	أبو عبد الله / هارون		
	أبو علي / عبد الواحد		
	أبو موسى		
	أبو أحمد / العباس		
	أبو محمد / اسحق		
	إسماعيل		
	أبو إسماعيل		
	أبو عيسى		

اسم الخليفة	أولاده	أمهاتهم	المصادر
القاهر	عبد الصمد		ابن الكازروني، نفس المصدر، ص 177.
	أبو الفضل محمد		
اسم الخليفة	أولاده	أمهاتهم	المصادر
الراضي	أبو الفضل / العباس		ابن الكازروني، نفس المصدر، ص 180 - 181.
	أبو جعفر / أحمد		
	عبد الله		
	أبو الفضل / عبد الله		

اسم الخليفة	أولاده	أمهاتهم	المصادر
المتقي	أبو منصور / اسحق		ابن الكازروني، نفس المصدر، ص 185.

اسم الخليفة	أولاده	أمهاتهم	المصادر
المستكفي	علي		ابن حزم، نفس المصدر، ص 29.
	الحسن		
	محمد		

نلاحظ من خلال هذه الجداول التي تحصلنا عليها عن طريق قاعدة البيانات، أن أغلب أولاد الخلفاء كانوا أبناء جوارري، فمن بين 165 ولدا قمنا بإحصائهم، 15 فقط كانت أمهاتهم عربيات، أما الباقي فهم من أبناء الجوارري، ويرجع ذلك مثلما أشرنا إلى ذلك سابقا إلى سعي الخلفاء العباسيين للتقليل من أهمية الوراثة عن طريق النساء وذلك لكسبهم مزيدا من الشرعية في إطار صراعهم الإيديولوجي ضد العلويين.

كما لاحظنا كذلك سعي الخلفاء العباسيين إلى تسمية أبنائهم، أسماء أنبياء سواء الأنبياء الأوائل مثل إبراهيم (جدّ العرب وبني الكعبة) وأبنائه إسحق وإسماعيل، كذلك يعقوب وابنه يوسف، أيضا موسى، صالح، وسليمان، هارون وذلك لما يحيط بهذه الأسماء من نعمة لدنية وقدرة دفاعية.¹

كما سُمّي الكثير من الخلفاء أبنائهم اسم "محمد" وذلك للأيمان القوي لديهم بقدرة الرسول محمد، ولو أن المسلمين ظلوا محترزين في استعمال هذا الاسم خوفاً ألاّ يدنس في حالات الغيظ ولا يتعرض للسب بوجه من الوجوه.² وقد أطلقه الخلفاء العباسيون على أكثر من ولد واحد، وللتفرقة تستخدم المصادر كلمة محمد الأكبر ومحمد الأصغر. ومن أبناء الخلفاء من حمل أسماء شهداء مثل جعفر، وعبد الله والذي هو من أحب الأسماء عند الله حسب حديث نبوي،³ كما نجد أسماء أخرى تبدأ "بعبد" مثل عبد الصمد وعبد الملك.

ومن أسماء الخلفاء الراشدين، لم يطلق الخلفاء العباسيون على أبنائهم إلاّ اسم علي، وكذلك أسماء أبنائه الحسن والحسين، مما يدلّ على أن هذه الأسماء لم تكن فقط دارجة في الأوساط الشيعية بل وكذلك السنية.⁴ كما حمل الكثير من أولاد الخلفاء اسم العباس، عم الرسول والجد الأعلى للعباسيين.

ويحمل الكثير من أبناء الخلفاء كنية مسبقة بلفظ أب، حتى وكأنها أصبحت عنصراً من عناصر الاسم، لكن لا تشير المصادر إن كانت الكنية التي يحملونها تشير دائماً إلى اسم الابن الأكبر. فالولد الذي يؤخذ اسمه لصوغ كنية الأب ليس دائماً الابن الأكبر.⁵ أو قد يحمل الأب كنيتين مثل هارون الرشيد فقد كانت له كنيتين أبا جعفر وأبا محمد.⁶ أو قد يحمل الرجل كنية دون أن يكون له ولد.⁷

ولتمييز أسمائهم عن أسماء أولادهم، استحدث الخلفاء العباسيون حجاباً لأسمائهم الأعلام، فلقبوا بالسفاح، والمنصور والمهدي والمهادي والرشيد إلى آخر الدولة، هذا بالإضافة إلى حرصهم عن امتهاها -أي أسمائهم- في أسنة السوق وصونا لها عن الابتذال مثلما يشير إلى ذلك ابن خلدون.⁸

أما في علاقتهم بأولادهم فقد اتبع الخلفاء العباسيون سياسة محددة تتمثل في تعيينهم في مناصب سياسية معينة، مثال ولاية على الأقاليم. فقد عيّن الخليفة المنصور ابن أخيه محمد واليا على البصرة ومحمد هذا هو الذي أراد

¹ - Schimmel. A, *Noms de Personne en Islam*, Paris 1998, p. 48.

² - Schimmel. *Ibid*, p. 49 ;

سويليه (جاكلين)، نفس المرجع، ص 29.

³ - Schimmel. *Ibid*, p. 45.

⁴ - Schimmel. *Ibid*, p. 56.

⁵ - سويليه (جاكلين)، نفس المرجع، ص 40.

⁶ - الثعالبي، لطائف المعارف، ص 88.

⁷ - Schimmel. *Ibid*, p. 14.

⁸ - ابن خلدون، المقدمة، ص 259؛ سويليه (جاكلين)، نفس المرجع، ص 149-150.

أبوه السفاح أن يعينه وليا للعهد من بعده إلا أنه عدل عن رأيه لصغر سنه.¹ وعيّن المنصور ابنه جعفر الأكبر واليا على الموصل والجزيرة سنة 145 هـ / 762 م.² وكان قد جعل له الفضل بن عمران مرييا،³ كما اتخذ له الشاعر مطيع بن إياس لتأديبه ومرافقته ثم أبعده عنه لما تبين له أنه زنديق.⁴ وتوفي جعفر هذا في حياة أبيه سنة 150 هـ / 767 م،⁵ وترك من الأولاد عيسى بن جعفر ولآه الرشيد البصرة وكور دجلة والأهواز واليمامة والبحرين، وجعفر بن جعفر ولي للرشيد أيضا البصرة.⁶

كما عيّن المهدي ابنه علي واليا على البصرة، وعبيد الله ولآه أرمينية والجزيرة ومنصور ولآه فلسطين والبصرة.⁷ وعيّن المأمون ابنه العباس واليا على الجزيرة والثغور والعواصم، وأخوه أبو إسحاق المعتصم ولآه الشام ومصر.⁸

وقد تواصل تعيين الخلفاء لأولادهم وأخواتهم ولاية على الأقاليم في العصر العباسي الثاني لكن بصفة أقل، فقد عيّن المعتز أخاه إسماعيل واليا على الحجاز ومصر وإفريقية والإسكندرية.⁹ وعيّن المستعين ابنه العباس على الحرمين،¹⁰ ووليّ المقتدر ابنه أبا عبد الله هارون فارس وكرمان سنة 318 هـ / 930 م.¹¹

كما حرص كذلك الخلفاء العباسيون على تولية أبنائهم الحج، فقد ولي جعفر بن المنصور الحج لأبيه سنة 148 هـ / 765 م،¹² كما أقام صالح المسكين بن أبي جعفر المنصور الحج للمهدي سنة 165 هـ / 782 م، وأقام سليمان ابن المنصور الحج للهادي سنة 196 هـ / 812 م، وأقام يعقوب بن جعفر المنصور الحج للرشيد سنة 172 هـ / 788 م. كما وليّ المهدي ابنه علي الحج سنة 168 هـ / 784 م،¹³ أما في العصر العباسي الثاني فلا تذكر المصادر أي من أولاد الخلفاء حجّ بالناس.

¹ - البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 238.

² - البلاذري، نفس المصدر، ج 4، ص 369.

³ - الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص 129.

⁴ - Dietrich. A, « Quelques aspects de l'éducation princière à la cour abbaside », R.E.I, v 44, 1976, p. 94.

⁵ - الأزدي، تاريخ الموصل، ص 211.

⁶ - البلاذري، نفس المصدر، ج 4، ص 370.

⁷ - البلاذري، نفس المصدر، ج 4، ص 373.

⁸ - الطبري، تاريخ، ص 1814.

⁹ - ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص 147.

¹⁰ - ابن الكازروني، نفس المصدر، ص 153.

¹¹ - ابن الكازروني، نفس المصدر، ص 174.

¹² - الأزدي، نفس المصدر، ص 210؛ ابن حبيب، المحبر، ص 35.

¹³ - البلاذري، نفس المصدر، ج 4، ص 370 - 371 - 373؛ ابن حبيب، نفس المصدر، ص 37 - 38.

لكن من الوظائف التي أسندها الخلفاء العباسيون لأبنائهم في العصر العباسي الثاني الصلاة بالولايات وقد قلدها المقتدر ابنه أبا الحسن علي بكور الري والمعاون وقزوين وزنجان وأبهر سنة 301هـ / 913 م وأنفذ معه نوابه.¹ مما يدل على أنها أصبحت وظيفة رسمية.

كما منح الخلفاء العباسيون القطائع والقصور لأولادهم. فقد أقطع المنصور ابنه جعفر قطيعة على شاطئ دجلة صارت فيما بعد لابنته أم جعفر وهي زبيدة زوجة هارون الرشيد،² كما كان لابنه عيسى بن جعفر قطيعة في الجانب الغربي من بغداد بعد الشرقية.³ وأقطع المنصور ابنه سليمان قطيعة في الشارع الأعظم على دجلة وفي درب يعرف بدرب سليمان.⁴ وأقطع ابنه عيسى على شاطئ دجلة قرب قصر عيسى بن علي.⁵ كما أقطع الصالحية لابنه صالح المسكين.⁶ وينسب لعلي بن ربيعة قصر قرب سوق يحيى لكن لا يذكر البلاذري من الخلفاء أقطعه ذلك القصر.⁷ وكان للمعتصم قصر بعد منازل الهاشمين وقرب قصر المأمون،⁸ وذكر اليعقوبي دار للوائق عند دار العامة،⁹ ولما بنى المتوكل المتوكلية أقطعها ولاية عهوده وسائر أولاده.¹⁰

فلم يكن الخلفاء يسمحون لأولادهم بالإقامة معهم في قصورهم، إلاّ الأولاد الصغار فكانوا يجعلون لهم منازل خاصة، كما فعل المنصور عندما شيد بغداد، فقد جعل لهم منازل حول الرحبة داخل المدينة المدورة،¹¹ أو يقيمون مع أمهم في قصرها، فقد ظلّ ولدا المأمون محمد الأصغر وعبد الله يقيمان مع أمهما أم عيسى في قصره الأول ببغداد أثناء إقامته هو في خراسان.¹² كما كان المقتدر يقيم مع أمه السيّد شغب في دار من دور الحرم وهو طفل في الخامسة من عمره.¹³

ولم يقتصر الخلفاء على منح أولادهم القصور والقطائع بل كذلك الأموال. فقد خصص الخليفة المستعين لأولاد المتوكل (المؤيد، إبراهيم، المعتز والزبير) جار قدر بنحو ثلاثة وعشرين ألف دينار.¹⁴ أما في عهد الخليفة المعتضد فقد أصبح جاري أولاد الخلفاء على النحو التالي: أولاد المتوكل وأولادهم 33 دينار وثلاث شهرية، وجاري أولاد كل من الواثق والمهتدي بالله والمستعين وسائر أولاد الخلفاء 16 دينار وثلاث لكل مجموعة منهم، ونفس الشيء بالنسبة لجاري أولاد الناصر (الموفق طلحة) 16 دينار وثلاث

1- ابن الكازروني، نفس المصدر، ص 174.

2- اليعقوبي، البلدان، ص 17.

3- اليعقوبي، نفس المصدر، ص 13.

4- اليعقوبي، نفس المصدر، ص 30؛ الخطيب البغدادي، تاريخ، ج 1، ص 89.

5- الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 92.

6- الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 97؛ اليعقوبي، البلدان، ص 17.

7- البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 373.

8- الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 98.

9- اليعقوبي، نفس المصدر، ص 30.

10- اليعقوبي، نفس المصدر، ص 31.

11- اليعقوبي، نفس المصدر، ص 9.

12- الجهشيار، نفس المصدر، ص 290.

13- ابن الجوزي، المنتظم، ج 13، ص 65.

14- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 2، ص 327.

شهريا.¹ وقد تحسن جاري أولاد الخلفاء في عهد الخليفة المقتدر، فقد خصص لولديه أبي العباس وهارون جاريا يوميا قدر مائة وست وستون دينار وثلث.² كان أولاد الخلفاء يملكون ثروات متنوعة تتمثل في الأموال والقطائع والقصور.

كما شهر البعض من أولاد الخلفاء العباسيين بالشعر والغناء، نذكر من بينهم خاصة إبراهيم بن المهدي، حتى قيل أنه لم ير في جاهلية ولا إسلام أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدي وأخته عليّة.³ وقد غنى للرشد والأمين والمأمون والمعتصم.⁴ كذلك أبو عيسى بن الرشد وقد مدحت عريب حسنه وغنائها قائلة " ما سمعت قط أحسن غناء منه، ولا رأيت أحسن وجهها منه ".⁵ وعبد الله بن موسى الهادي وقد شهر بضرب العود والغناء.⁶ وأبو عيسى بن المتوكل فقد أحصى له أكثر من ثلاثمائة صوت.⁷ أما من أولاد الخلفاء في العصر العباسي الثاني فقد اشتهر عبد الله بن المعتز بالعلم والأدب؛ وله من المؤلفات فصول التماثيل في تبشير السرور.⁸

وقد اختار الخلفاء العباسيون البعض من أولاد الخلفاء لمجالستهم ومنادمتهم ومسائرتهم، فقد كان عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور، عدل أي زميل الرشد في الموكب.⁹ وكان إبراهيم بن المهدي ينادم عمه المأمون، وقد انتقل من طبقة أولاد الخلفاء إلى طبقة الندماء.¹⁰ وكان عبد الله بن محمد ينادم الواق ثم نادم بعده سائر الخلفاء إلى المعتد.¹¹ وكان محمد بن المعتد جليس المكتفي.¹² ويحتل أولاد الخلفاء في نظام المراسم المرتبة الثانية بعد ولي العهد.¹³

كما كان أولاد الخلفاء يتخاصمون، ويكفي أن نذكر هنا النزاع بين الأمين والمأمون، الذي تحول إلى حرب أظهرت أن التماسك الذي كان يسود الأسرة العباسية أصبح شيئا من الماضي.¹⁴ أما الحادثة الثانية التي استخدمت فيها القوة فهي النزاع بين المعتز والمستعين حول الخلافة.¹⁵

¹ - الصابني، الوزراء، ص 25.

² - مسكويه، تجارب الأمم، ج 1، ص 42.

³ - الأغاني، الأصفهاني، ج 10، ص 79.

⁴ - الأغاني، نفس المصدر، ج 10، ص 113؛ الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص 22.

⁵ - الصولي، نفس المصدر، ص 92.

⁶ - الأغاني، نفس المصدر، ج 10، ص 154.

⁷ - الأغاني، نفس المصدر، ج 10، ص 161.

⁸ - ابن الكازروني، نفس المصدر، ص 156؛ عبد الله بن المعتز، فصول التماثيل في تبشير السرور، القاهرة 1925.

⁹ - البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 370.

¹⁰ - الأغاني، نفس المصدر، ج 10، ص 95؛ الثعالبي، لطائف المعارف، ص 134.

¹¹ - الأغاني، نفس المصدر، ج 10، ص 159.

¹² - ابن الكازروني، نفس المصدر، ص 162.

¹³ - الصابني (أبو هلال)، رسوم دار الخلافة، ص 78.

¹⁴ - Bosworth. C.E, *The Arabs, Byzantium and Iran, Studies in Early Islamic History and Culture*, Great Britain, 1996, p. 277.

¹⁵ - ابن العمراني، المصدر السابق، ص 126؛ الطبري، نفس المصدر، ص 1964-1965؛ العلي (صالح أحمد)، "الأسرة العباسية في بغداد"، سومر، ج 1 و 2، المجلد 31، 1975، ص 239.

فقد أخذت هذه الصراعات شكلا خطيرا في العصر العباسي الثاني وفقدت الفئة العباسية الحاكمة أحد ركائزها الاجتماعية لتنافسها على الحكم بصفة جدية ولتدخل الأتراك والقادة العسكريين في عزل الخلفاء، وسياساهم هذا الانشقاق في زوال السيادة الفعلية للخلافة العباسية مع دخول البويهيين.

نستنتج أن الخلفاء العباسيين كانوا يعينون أولادهم على الأقاليم، أو في مناصب رمزية مثل الحج والصلاة ليس لها وزن مالي أو حربي، فلم يشركوهم فعليا في السلطة، فقد كانوا يتحاشون التزاع فيما بينهم على الحكم. لذلك فقد اقتصر دورهم في البلاط فقط على المنادمة. لكن لم يمنع هذا الإقصاء من منحهم امتيازات مادية مثل القصور والقطائع والأموال. فهل أن علاقة الخلفاء العباسيين بأقاربهم اكتسبت نفس الطابع؟.

4- الأقارب: بنو هاشم

إن المقصود ببني هاشم هم العباسيون دون العلويين الذين أصبح يطلق عليهم في العصر العباسي اسم الطالبين.¹ وقد اقتصر من بني هاشم على فرع محمد بن علي وعبد الله العباسي لأنهم آزرُوا الثورة العباسية وكانوا مع أبي العباس السفاح لما أتته الخلافة.

يذكر البلاذري أن أبا العباس السفاح جاءته الخلافة ومعه "داود بن علي، وموسى بن داود والمنصور وعيسى بن موسى ومحمد وعبد الوهاب ابنا إبراهيم الإمام والعباس بن محمد ويحيى بن محمد وسليمان وصالح وعبد الله وعبد الصمد وإسماعيل وعيسى بنو علي بن عبد الله ويحيى بن جعفر بن تمام، ومحمد بن جعفر بن عبيد الله بن العباس ورجل من بني معبد بن العباس".² ويذكر اليعقوبي أنه قدم الكوفة من بني هاشم مع أبي العباس السفاح اثنان وعشرون رجلا منهم "داود وسليمان وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد بنو علي بن عبد الله بن عباس وموسى بن داود وجعفر ومحمد ابنا سليمان والفضل وعبد الله ابنا صالح وأبو العباس ومحمد ابنه وجعفر ومحمد ابنا المنصور وعيسى بن موسى بن محمد وعبد الوهاب ومحمد ابنا إبراهيم ويحيى بن محمد والعباس بن محمد".³

فحسب البلاذري أبو العباس السفاح أنه الخلافة ومعه 17 فردا من بني هاشم، وحسب اليعقوبي أنه الخلافة ومعه 22 فردا، لكن رغم هذا الاختلاف في العدد فإن المهم هو أن بني هاشم عندما أتتهم الخلافة لم يكونوا كثيري العدد فهم يتكونون، من الخليفة وابنه محمد وإخوته المنصور ويحيى والعباس وعمومته داود وسليمان وصالح وعبد الله وعبد الصمد وإسماعيل وعيسى وأبناء إخوته محمد وعبد الوهاب ابنا إبراهيم الإمام وجعفر ومحمد ابنا سليمان والفضل وعبد الله ابنا صالح ويضيف البلاذري إليهم محمد بن جعفر بن عبيد الله بن العباس ورجل من بني معبد.

¹ - عمر (فاروق)، التاريخ السياسي وفكر القرن العشرين، بيروت دت، ص 73.

² - البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 237.

³ - اليعقوبي، تاريخ، ج 2 ص 350.

ويمكن تفسير هذا الضعف بأن الكثير من بني هاشم قد انقرض عقبهم. فخمسة مثلاً من أبناء العباس بن عبد المطلب كانوا لا عقب لهم وهم الفضل وقثم ومعبد وكثير وتّمّام كان هلاك آخر أبنائه في عهد أبي جعفر.¹ كذلك انقرض عقب عبد الله بن عبيد الله بن العباس فلم يبق منهم أحد.² بل أن ستة كذلك من أبناء علي بن عبد الله كانوا لا عقب لهم وهم أحمد وبشرا ومبشرا وعبد الله الأكبر وعبد الله الأوسط.³

وبالإضافة إلى انقراض عقبهم فمن بني هاشم من ظلّ يقيم في المدينة، يذكر الطبري أن المهدي في سنة 168 هـ/ 784 م نقل ديوان أهل بيته من دمشق وردّه إلى المدينة.⁴ ويبدو أن من قدم من بني هاشم مع أبي العباس هم من كانوا يقيمون في الحميّة.

وقد تضاعف عدد العباسيين فيما بعد، فقد أحصوا سنة 200 هـ/ 815 م أي في عهد الخليفة المأمون فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألف ما بين ذكر وأنثى.⁵ ومن الهاشمين من عمّر طويلاً، فقد ذكر بن حبيب أن الرشيد لما أفضت إليه الخلافة سلّم عليه عمّه سليمان بن المنصور، وعمّ أبيه العباس بن محمد، وعمّ جدّه عبد الصمد بن علي، فبعد الصمد عمّ العباس، والعباس عمّ سليمان، وسليمان عمّ هارون.⁶

وبالإضافة إلى أقارب الخلفاء ستضم فئة بني هاشم مع مرور الزمن أولاد الخلفاء اللذين سيتقلون من طبقة أولاد الخلفاء إلى مشيخة بني هاشم.⁷ فكيف كانت علاقة الخلفاء العباسيين بأقاربهم وكيف تطورت هذه العلاقة من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المستكفي؟.

لقد قرّب الخلفاء العباسيون أقاربهم، ومنحوهم العديد من الامتيازات كتوليّتهم المناصب السياسية ومنحهم امتيازات مادية.

* تولية العباسيين المناصب

كان الخلفاء العباسيون يعيّنون أقاربهم في مناصب سياسية معيّنة. فقد كان الخليفة أبو العباس السفاح يعيّن أقاربه ولادة بالأقاليم، فقد عيّن أعمامه: عبد الله بن علي على الشام، والشام هي أصعب ولاية في هذه المرحلة الأولى التأسيسية، كما عيّن كذلك على حمص وقنسرين وكور دمشق والأردن. وعيّن داود بن علي على المدينة ومكة واليمن. والمدينة أيضاً طابع رمزي هام. وعيّن إسماعيل بن علي على فارس ثم على الأهواز، ثم على الموصل بعد أن عزل عنها أخيه يحيى بن محمد لقتله أهلها، وصالح بن علي عيّن على فلسطين، وسليمان بن علي على البصرة، كما عيّن العباس بن عبد الله بن معبد بن عباس على مكة، وعيسى بن موسى على الكوفة، ويحيى بن محمد على فارس.⁸

1- ابن الكلبي، جمهرة النسب، ج 1، ص 19؛ الزبيري، نسب قريش، ص 38-25-27.

2- الزبيري، نفس المصدر، ص 34.

3- الزبيري، نفس المصدر، ص 26.

4- الطبري، تاريخ، ص 1631.

5- الطبري، نفس المصدر، ص 1780.

6- ابن حبيب، المختبر، ص 243-244.

7- الثعالبي، لطائف المعارف، ص 134.

8- الأزدي، تاريخ الموصل، ص 140-145-156-157-163؛ أسماء عمارة، البلاط العباسي، ص 116-117.

واتبع المنصور نفس سياسة أخيه، فقد عيّن على الموصل إسماعيل بن علي، وعلى مكة العباس بن عبد الله بن معبد، كما عيّن عليها العباس بن محمد بن علي، والسري بن عبد الله بن الحارث بن العباس، وعبد الصمد بن علي، ومحمد بن إبراهيم بن محمد بن علي، وإبراهيم بن يحيى بن محمد، وعيّن على البصرة سليمان بن علي، وعلى الكوفة عيسى بن موسى، كما عيّن عليها محمد بن سليمان بن علي، وعلى المدينة جعفر بن سليمان، كما عيّن عليها عبد الصمد بن علي، وعلى مصر صالح بن علي كما عيّنه أيضا على قنسرين وحمص ودمشق، وعلى الجزيرة والثغور والعواصم العباس بن محمد، وعلى اليمامة قثم بن العباس بن عبد الله¹. أما المهدي فقد وليّ على الموصل عبد الصمد بن علي، ووليّ عليها أيضا محمد بن الفضل، وأحمد بن إسماعيل بن علي بن عبد الله، ووليّ على الجزيرة الفضل بن صالح، ووليّ عليها أيضا عبد الصمد بن علي، وعبد الله بن صالح، ووليّ اليمامة والمدينة ومكة والطائف جعفر بن سليمان، ووليّ المدينة أيضا إبراهيم بن يحيى بن محمد، ومكة والطائف عبيد الله بن قثم، ووليّ البصرة وكور ودجلة والبحرين وعمان وكور الأهواز وفارس محمد بن سليمان ثم صالح بن داود².

وعيّن الهادي مثيل أبيه على مكة والطائف عبيد الله بن قثم، وعلى البصرة محمد بن سليمان، أما الكوفة فقد عيّن عليها موسى بن عيسى، وعيّن على الموصل عبد الملك بن صالح الهاشمي³. أما الرشيد فقد عيّن على المدينة إسحاق بن سليمان بن علي، وعلى مكة عبيد الله بن قثم، وعيّن عليها أيضا محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي، والفضل بن سليمان بن محمد، وداود بن عيسى، وعيّن على الموصل إسحاق بن محمد، والحكم بن سليمان ومحمد بن العباس وقيل عبد الملك بن صالح، ومحمد بن الفضل بن سليمان، وعيّن على مصر موسى بن عيسى، وعلى البصرة والبحرين وعمان واليمامة وكور الأهواز وفارس محمد بن سليمان⁴.

وعيّن الأمين على مكة والمدينة داود بن عيسى، وعلى الشام عبد الملك بن صالح، وعلى الموصل إبراهيم بن العباس، وعلى أرمينية إسحاق بن سليمان الهاشمي، وعلى الجزيرة وجند قنسرين والعواصم والثغور عبد الملك بن صالح⁵. كما عيّن المأمون على مكة صالح بن العباس وعلى مصر العباس بن موسى بن عيسى، وعلى اليمن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد⁶.

أما المعتصم فقد عيّن على مكة محمد بن داود بن عيسى بن موسى، وعلى الكوفة محمد بن عبد الرحمان بن عيسى بن موسى، وعلى المدينة محمد بن أيوب بن جعفر بن سليمان⁷. وعيّن الواثق على المدينة محمد بن صالح

¹ - الأزدي، تاريخ الموصل، ص 166-170-171-173-177؛ الطبري، تاريخ، ص 1571-1573؛ أسماء عمارة، البلاط العباسي، ص 117-118-119.

² - الأزدي، نفس المصدر، ص 239-240-244-245-246؛ أسماء عمارة، نفس المرجع، ص 119-120.

³ - الأزدي، نفس المصدر، ص 257؛ أسماء عمارة، البلاط العباسي، ص 120.

⁴ - الأزدي، تاريخ الموصل، ص 262-263-267-275-277-280-281-283-313-316؛ أسماء عمارة، نفس المرجع، ص 121-122.

⁵ - الأزدي، تاريخ الموصل، ص 319؛ أسماء عمارة، البلاط العباسي، ص 122.

⁶ - الطبري، نفس المصدر، ص 1805-1810-1812-1817؛ أسماء عمارة، نفس المرجع، ص 122.

⁷ - الطبري، نفس المصدر، ص 1841-1875؛ أسماء عمارة، نفس المرجع، ص 123.

بن العباس.¹ أما المتوكل فقد عيّن على مكة عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى، ثم عيّن عليها عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الامام، ثم محمد بن سليمان بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الامام.² لكن تراجع الخلفاء العباسيون عن تعيين أقاربهم ولاية على الأقاليم في العصر العباسي الثاني، نظرا لضعف الخلفاء وتدخل الأتراك والقادة العسكريين في شؤون الحكم.

كان الخلفاء العباسيون من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المتوكل يعينون أقاربهم على ولاية الأقاليم الرئيسية، كالحجاز والشام والجزيرة والبصرة والكوفة ومكة، وأرمينية. لكن هذا الاستعمال المكثف لأبناء البيت العباسي على إدارة أهم الولايات والأقاليم الرئيسية لا يجب أن يخفي عنا وجود عدد من الولاة لدى الخلفاء العباسيين لم يكونوا من الأسرة العباسية،³ لكن الواضح من القوائم التي قدمتها لنا المصادر أن العباسيين لم يولوا من أي أسرة العدد الكبير الذي ولوه من أقاربهم.

ويعود ذلك إلى إدراك الفرع العباسي الحاكم أن بقاءه في الخلافة وصرف وجهة نظر الفرع الثاني عنها المكون من أبناء علي بن عبد الله وأبناء ابنه محمد لا يكون إلا عن طريق تشريكهم في الحكم، لكن بعيدا عن مقر الخلافة أي البلاط، فقط واحد منهم عيّن في منصب قاضي القضاة وهو جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان بن علي، في عهد الخليفة المتوكل، ثم عزل في عهد الخليفة المستعين.⁴ فقد أراد الخلفاء القضاء على طموحاتهم السياسية فقاموا بتعيينهم على إدارة الولايات الرئيسية للخلافة العباسية.

كما كانوا يحدّون من طموحاتهم السياسية أيضا بعدم إبقائهم وقتا طويلا على هذه الولايات، فقد عيّن السفاح أخاه يحيى بن محمد على الموصل ثم عزله لقتله أهلها وسوء تصرفه فيهم.⁵ كما كان الخليفة المنصور يعين عبد الصمد بن علي على المدينة ثم يعزله ويعين مكانه صالح بن داود.⁶ وعيّن الخليفة المهدي على اليمن عبد الله بن سليمان ثم عزله لاستحواذه على أموال الخراج.⁷

كان الخلفاء العباسيون متخوفين من احتفاظ أقاربهم بأموال الخراج ومنافستهم على السلطة لذلك عملوا على إبقائهم على هذه الولايات لمدة قصيرة. لكن لم يمنع هذا الإقصاء لأقاربهم من بني هاشم، الخلفاء العباسيين من تشريكهم في اتخاذ بعض القرارات السياسية الهامة.

* أهمية الحضور العباسي على مستوى القرار السياسي

-
- ¹ - الطبري، نفس المصدر، ص 1881؛ أسماء عمارة، نفس المرجع، ص 123.
 - ² - الطبري، نفس المصدر، ص 1909 - 1914 - 1915 - 1919؛ أسماء عمارة، نفس المرجع، ص 123.
 - ³ - العلي (صالح أحمد)، "الأسرة العباسية في بغداد"، نفس المرجع، ص 239.
 - ⁴ - الطبري، نفس المصدر، ص 1910 - 1937.
 - ⁵ - الأزدي، نفس المصدر، ص 156.
 - ⁶ - الطبري، نفس المصدر، ص 1573.
 - ⁷ - الطبري، نفس المصدر، ص 1624.

لقد ذكرت لنا المصادر مشاركة بني هاشم في اتخاذ العديد من القرارات السياسية الهامة، فداود بن علي هو الذي أشار على الخليفة المنصور ضرورة مشاوره أبي مسلم في قتل الوزير أبي سلمة الخلال.¹ وداود بن علي هو الذي اقترح على المنصور أيضا بناء الرصافة كخطة دفاعية لحماية المدينة المدورة.²

كما لعب بنو هاشم دورا كبيرا في تولية ولي عهد وتنحية آخر، فقد كانوا وراء خلع عيسى بن موسى وتولية موسى بن المهدي.³ كما لعبوا دورا كبيرا في تولية الأمين العهد رغم ميل الرشيد إلى المأمون، وهو ما عبّر عنه قائلا "لولا أم جعفر وميل بني هاشم لقدمت عبد الله عليه".⁴

كما ورد ذكر لفظ "بنو هاشم" في العديد من الأحداث والمناسبات السياسية الهامة. فكتاب تنازل عيسى بن موسى عن ولاية العهد لفائدة الهادي شهد بإقراره أربعمئة وثلاثون شخصا من بني هاشم والصحابه والموالي.⁵ كما أن الشرط أو العهد الذي كتبه الرشيد على كل من الأمين والمأمون عندما ولّاهما العهد شهد عليه كل من سليمان بن المنصور، وعيسى بن جعفر وجعفر بن جعفر وعبيد الله بن المهدي وجعفر بن موسى الهادي وإسحاق بن عيسى بن علي وعيسى بن موسى الهادي وإسحاق بن موسى وأحمد بن إسماعيل بن علي وسليمان بن جعفر بن سليمان وعيسى بن صالح بن علي وداود بن عيسى بن موسى وداود بن سليمان بن جعفر ويحيى بن عيسى بن موسى.⁶ ولما أراد الرشيد قراءته عليهما أحضر أيضا وجود بني هاشم والقواد والفقهاء وأدخلوا إلى الكعبة.⁷

كما كان بنو هاشم يتحدون أمام الأزمات السياسية التي كانت تهدد الخلافة العباسية، كما حدث لما ولّى المأمون علي الرضا بن موسى الكاظم العهد من بعده. فقد لاقى هذا الإجراء معارضة شديدة من قبل بني العباس وأهل بغداد وكرّد فعل على تصرف المأمون بايع بنو العباس إبراهيم بن المهدي بالخلافة وكان أول من بايعه، "عبيد الله بن العباس بن محمد الهاشمي ثم منصور بن المهدي ثم سائر بني هاشم والقواد".⁸ ثم بايع سائر بني هاشم وكان المتولي لأخذ البيعة المطلب بن عبد الله بن مالك.⁹ وكان المأمون قد ترك لباس السواد شعار بني العباس ولبس الخضرة، فكان أول من كلمه في ترك الخضرة والعودة إلى السواد، لما عاد إلى بغداد هم بنو هاشم.¹⁰ نلاحظ تدخل بني هاشم في قرار إيديولوجي للخليفة المأمون.

ولم يقتصر دور بني هاشم على المشاركة أو التدخل في بعض القرارات السياسية الهامة للخلفاء العباسيين، بل كان لهم كذلك حضور في بعض الخطابات السياسية الهامة.

¹ - الجهشباري، الوزراء والكتاب، ص 90.

² - الطبري، تاريخ، ص 1577.

³ - الطبري، نفس المصدر، ص 1611.

⁴ - السيوطي، تاريخ، ص 242.

⁵ - الطبري، نفس المصدر، ص 1613.

⁶ - اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 419.

⁷ - الطبري، نفس المصدر، ص 1679.

⁸ - الطبري، نفس المصدر، ص 1786.

⁹ - ابن الساعي، تاريخ الخلفاء العباسيين، ص 50.

¹⁰ - الطبري، نفس المصدر، ص 1793.

* المشاركة في الخطاب السياسي

فقد ذكرت لنا المصادر بعض الخطب السياسية الهامة التي ألقاها أفراد من بني هاشم. مثال خطبة داود بن علي التي ألقاها إثر تسلم أبي العباس السفاح الخلافة والتي أكد فيها على عودة الخلافة إلى مستحقيها من آل بيت النبي أي العباسيين، وعبر فيها عن جور الأمويين واغتصابهم للحكم، كما أكد على الدور الذي لعبه أهل خراسان في وصول العباسيين إلى الحكم.¹ ويمكن أن نضيف إلى هذه الخطبة الخطبة التي ألقاها إسحاق بن عيسى بن علي إثر تسلم الأمين الخلافة، والتي ذكر فيها بالبيعة للأمين.²

ولم يكتف الخلفاء بمنح أقاربهم المناصب وتشريكهم في الخطاب والقرار السياسي، بل عينوهم كذلك على ولاية الحج. فقد كانت ولاية الحج محصورة بأيدي رجال من الأسرة العباسية طيلة العهد العباسي الأول والثاني.³ فقد كان الخليفة إما يباشرها بنفسه أو يكلف بها ولي العهد أو أحد أبنائه أو أقاربه.

كذلك إمامة الصلاة والتي كانوا يقومون بها نيابة عن الخليفة، فقد كان إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي خليفة المنصور على الصلاة بالمسجد الجامع بالمدينة المدورة.⁴ ولم تذكر المصادر اسم من كان يؤم الناس في العهود الأولى وخاصة في الجمععات في المساجد الرئيسية ببغداد، كما أنها لم تشر إلى أن إمامة الجمعة كانت ولاية، لكن منذ أواخر القرن الثالث هجري ستستقر إمامة صلاة الجمعة في جامع المنصور في رجال من نسل عيسى بن أبي جعفر.⁵ وبالإضافة إلى هذه الامتيازات الدينية، فقد منحوهم كذلك امتيازات مادية.

* ثراء العباسيين

منح الخلفاء العباسيون الأموال والقطائع لأقاربهم. فأول من أقطع المنصور خارج المدينة المدورة من أهل بيته ابن أخيه عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام، بإزاء باب الكوفة على الصراط السفلى التي تأخذ من الفرات، فربضه يعرف بسوق عبد الوهاب وقصره هناك.⁶ كما أقطع أخوه العباس بن محمد الجزيرة التي بين الصراطين فجعلها العباس بستانا وهي العباسية المذكورة والمشهورة والتي لا تنقطع غلتها صيفا وشتاء.⁷ وأقطع ابن عمه إسحاق بن عيسى بن علي قطعة على الصراط العظمى من الجانب الشرقي فدوره وقصوره هناك.⁸ كما منح لأبيه عيسى بن علي قطعة على شاطئ دجلة وإليه ينسب نهر عيسى وقصر عيسى.⁹

فقد بدأت سياسة توزيع القطائع في الجانب الغربي ثم تواصلت في الجانب الشرقي. فقد ذكر اليعقوبي أن أول القطائع على رأس الجسر كانت لحزيمة بن حازم، ثم قطعة إسماعيل بن علي بن عبد الله، ثم قطعة العباس بن محمد بن علي، لأنه جعل قطيعته في الجانب الغربي بستانا ثم قطعة السري بن عبد الله بن الحارث، ثم قطعة قثم

¹ - البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 186؛ الطبري، تاريخ، ص 1473.

² - اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 433.

³ - أسماء عمارة، البلاط العباسي، انظر القوائم من ص 129 - 133.

⁴ - الطبري، تاريخ، ص 1588.

⁵ - العلي (صالح أحمد)، " الأسرة العباسية في بغداد "، نفس المرجع، ص 256 - 257.

⁶ - اليعقوبي، البلدان، ص 11.

⁷ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 11.

⁸ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 12.

⁹ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 92 - 93.

بن العباس عامل أبي جعفر على اليمامة.¹ وذكر الخطيب البغدادي منازل الهاشمين، على شاطئ دجلة من الجانب الشرقي بعد بناء الحسن بن سهل (القصر الحسيني)، ودار دينار ودار رجاء بن أبي الضحاك.² كما ردّ الخليفة المهدي على أقاربه أيضا قطائعهم التي كانت مقبوضة عنهم زمن الأمويين والتي من المرجح أنها كانت في الحجاز.³ لاسيما وأن المهدي حجّ في نفس السنة.

كما منح الخليفة المعتصم أقاربه قطائع بسامراء، فقد ذكر اليعقوبي قطيعة العباس بن علي بن المهدي، وقطيعة أخيه عبد الوهاب بن علي بن المهدي ودار صالح العباسي التي على رأس الوادي.⁴ ولما ولي المتوكل أقطع جماعته من الكتاب والقواد والهاشمين وغيرهم.⁵

وقد كانت قطائع الهاشمين في سامراء أقل بكثير من قطائعهم في بغداد، ولا يذكر اليعقوبي أن المتوكل قد أقطع أحد من أقاربه في المتوكلية، فقط أقطعها ولاية عهوده وسائر أولاده وقواده وكتابه وجنده.⁶ وقد أضعف انتقال الخلافة العباسية إلى سامراء مكانة الأسرة العباسية في بغداد لبعدها الخليفة الذي كان يسندهم،⁷ ولسيطرة الأتراك والقادة العسكريين في سامراء، ولا بدّ أن الذين انتقلوا من الهاشمين إلى سامراء عادوا عند عودة الخلافة إلى بغداد.

وبما أن أغلب أقارب الخلفاء العباسيين قد عيّنوا ولاية على الأقاليم، فيبدو أنهم كانوا يتركون هذه القطائع ثم يعودون إليها بعد انتهاء مهامهم لاسيما وأن الخلفاء العباسيين كانوا لا يبقونهم وقتا طويلا على الولايات.

ولم يقتصر منح الثروات على الممتلكات العقارية بل شمل كذلك الأموال، فقد فرّق الخليفة المنصور في يوم واحد على عشرة من أعمامه عشرة آلاف درهم كل واحد ألف درهم. كما أمر لأربعة من عمومته وهم: سليمان وعيسى وصالح وإسماعيل بن علي بن عبد الله لكل واحد منهم بألف درهم صلة تصرف من بيت المال، فكانت تجري في الدواوين.⁸ أما في عهد الخليفة المهدي فقد خصصت لهم جرايات سنوية، وبلغت جراية كل هاشمي في السنة ستة آلاف درهم أي بحساب 500 درهم في الشهر.⁹

أما في عهد الخليفة الرشيد فقد أصبح لبني هاشم سهم معلوم في بيت المال يدعى " سهم ذوي القربى "، وكان يقسمه بينهم بالسوية.¹⁰ وليس المهم هنا القيمة المادية لقرار الرشيد ولكن القيمة المعنوية والمتمثلة في القسمة بالسوية.¹¹ ووصل المأمون علي بن صالح بن علي بن عبد الله العباسي بمبلغ مليون درهم.¹²

¹ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 12.

² - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 98.

³ - الطبري، تاريخ، ص 1616؛ العلي (صالح أحمد)، " الأسرة العباسية في بغداد "، نفس المرجع، ص 240.

⁴ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 26-28.

⁵ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 30.

⁶ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 31.

⁷ - العلي (صالح أحمد)، " الأسرة العباسية في بغداد "، نفس المرجع، ص 250.

⁸ - الطبري، تاريخ، ص 1597.

⁹ - الأربلي، المصدر السابق، ص 91.

¹⁰ - الطبري، تاريخ، ص 1656.

¹¹ - العلي (صالح أحمد)، " الأسرة العباسية في بغداد "، نفس المرجع، ص 242.

¹² - البيهقي، المحاسن والمساوي، ص 556.

أما في عهد الخليفة المعتضد فقد حصل تطور فيما يخص الإنفاق على بني هاشم، فقد قسموا إلى فئتين: مشايخ الهاشميين، وقد خصص لهم 600 دينار في الشهر، وجمهور بني هاشم والذي أصبح يضم في نفس الوقت العباسيين والطلبين، فقد خصص لهم 33 دينار وثلث في الشهر.¹ وحين استقر المكتفي في الخلافة دفع أرزاق بني هاشم ووصلهم وأكرمهم.² ولما بويغ المقتدر بالخلافة أصدر أوامره بإجراء الأرزاق لبني هاشم وزيادة الجاري لهم.³

إلا أن أرزاق بني هاشم لم تبق على هذه الحالة فقد تأثرت بالأزمة التي عرفتتها الخلافة في أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع هجري، نتيجة ضعف الخلفاء وتدخل الأتراك في شؤون الحكم. يذكر ابن الجوزي أنه في سنة 313 هـ/925 م ضج بنو هاشم وملئوا الطرقات لتأخر أرزاقهم.⁴

كان العباسيون يملكون ثروات متنوعة تتمثل في الأموال والقطائع والقصور والبساتين. وقد منح الخلفاء العباسيون أقاربهم هذه الثروات من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المقتدر. ويهدف الخلفاء العباسيون بمنح هذه الثروات لأقاربهم إلى ربط علاقات وطيدة مع أحد الدعائم الاجتماعية للخلافة العباسية. وقد أصبح العباسيون يظاهون في ثرائهم الخليفة نفسه، مثل محمد بن سليمان الذي قدرت أمواله بستين مليون درهم، دون الكسوة والفرش والطيب والجوهر والخيول والإبل، إلخ....⁵ إلا أن ضعف الخلفاء فيما بعد أثر على الإنفاق على الهاشميين إلى درجة أصبحوا غير قادرين على أن يسددوا لهم أرزاقهم. ولم يتوقف الخلفاء العباسيون على منح أقاربهم مناصب سياسية وثروات بل صاهروهم.

* علاقات التصاهر بين الخلفاء وأقاربهم

وجد الخلفاء العباسيون وسيلة أخرى لتدعيم علاقتهم ببني هاشم. فقد زوّج الخليفة المنصور ابنته العالية إسحاق بن عيسى بن علي، وفاطمة زوّجها يحيى بن جعفر بن تمام بن العباس بن عبد المطلب.⁶ فأحدث بذلك تواصلاً بين فرعي عبد الله وتمام ابني العباس بن عبد المطلب.

وتزوج موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي من عليّة بنت المهدي فولدت له عيسى وأسماء.⁷ وتزوج محمد بن سليمان بن علي من العباسيّة بنت المهدي فأحدث بذلك تواصلاً بين فرعي سليمان ومحمد بني علي بن عبد الله بن العباس.⁸ فلما توفي تزوجها إبراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس.⁹

¹- الصابئ، الوزراء، ص 25.

²- ابن العمراني، المصدر السابق، ص 150.

³- مسكويه، تجارب الأمم، ج 1، ص 13.

⁴- ابن الجوزي، المنتظم، ج 13، ص 247.

⁵- الطبري، نفس المصدر، ص 1659.

⁶- ابن حبيب، المحبر، ص 60؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 372.

⁷- ابن حبيب، نفس المصدر، ص 61؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 22؛ الأصفهاني، الأغاني، ج 10، ص 147.

⁸- ابن حبيب، نفس المصدر، ص 61؛ ابن حزم، نفس المصدر، ص 22؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج 8، ص 343؛ لكن

يذكر البلاذري في كتاب أنساب الأشراف، ج 4، 374، أن العباسيّة زوجها الرشيد من محمد بن هارون بن محمد بن سليمان.

⁹- ابن حبيب، نفس المصدر، ص 61؛ البلاذري في كتاب أنساب الأشراف، ج 4، 374.

وعدا ذلك لا تذكر المصادر مصاهرات أخرى تمت بين الفرع العباسي الحاكم وأقاربهم من بني هاشم أي (فرع محمد بن علي وعبد الله العباسي). وتنتزل هذه المصاهرة في إطار ربط علاقة نسب بالخلفاء العباسيين. تصاهر الخلفاء العباسيون مع أقاربهم لإحساسهم بالاشتراك في المصالح، ولم يقتصر الخلفاء على مصاهرتهم بل أكسبوهم حظوة مميزة في البلاط.

* الحظوة

كان لبني هاشم مرتبة مميزة في البلاط العباسي، فكانوا إذا دخلوا إلى مجلس الخليفة جلسوا على الكراسي، بينما يجلس بنو أمية على الوسائد.¹ وكان يؤذن لهم للدخول إلى مجلس الخليفة على تسلسل أسنانهم.² ولهم في مجلس الخليفة مرتبة خاصة، فقد أراد المأمون أن ينحي إبراهيم بن المهدي عن مرتبة بني هاشم ويجلسه مع الحرس فقال له علي بن صالح "ليس لك أن تعدل عن فعل آبائك غضب المنصور على فلان فلم يزل عن مرتبة أهل بيته وغضب المهدي على عبد الصمد بن علي فلم يزل وغضب المهدي على عبد بن علي فلم يزل عن ذلك، وليس لك إلا ما فعلوه".³ فأجابه إلى ذلك وجلس إبراهيم مع بني العباس. كما اتخذهم بعض الخلفاء لمنادمتهم. فقد كان العباس بن محمد نسب الرشيد وهو عم أبيه.⁴

وقد تراجعت مرتبة بني هاشم في القرن الرابع هجري، فقد أصبح يؤذن لهم في المرتبة القبل الأخيرة، قبل القضاة،⁵ مثلما تراجعت أرزاقهم. ورغم أن العباسيين ربطوا علاقات وطيدة مع أقاربهم فإنهم كانوا يتخاصمون.

* الصراعات بين العباسيين

تركزت الصراعات بين العباسيين على المستوى السياسي وشملت أساسا الصراع على السلطة. وقد وصلت في بعض الأحيان إلى حد استخدام القوة.

فقد ثار عبد الله بن علي والي الشام على الخليفة المنصور، مدعيا أنه أحق منه بالخلافة لأن أبا العباس السفاح لما انتدبه لقتال مروان بن محمد عهد له بولاية العهد من بعده.⁶ فانتدب أبو جعفر المنصور لقتاله أبا مسلم الخراساني وانتهت المعركة بهزيمة عبد الله الذي هرب واختفى عند أخيه سليمان والي البصرة.⁷

ولا تذكر المصادر أن أحدا من رجال الأسرة العباسية قد انضم إليه عدا عبد الصمد بن علي وقد صرفه المنصور إلى عيسى بن موسى فآمنه وحباه وكساه.⁸

1- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 4، ص 241.

2- الطبري، نفس المصدر، ص 1588.

3- ابن طيفور، كتاب بغداد، ص 110.

4- السيوطي، تاريخ، ص 227.

5- الصابئي، رسوم، ص 79.

6- البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 250؛ الطبري، نفس المصدر، ص 1494.

7- المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص 289-290.

8- الطبري، نفس المصدر، ص 1496.

أما عبد الله بن علي فقد ظل محتفياً عند أخويه سليمان وعيسى اللذان كاتب المنصور في أن يؤمنه، فأمنه وكان الذي تولى كتابة عهد الأمان عبد الله بن المقفع ويقال أنه احتاط في كتابته إلى درجة أفلقت المنصور، فكان ذلك سبب تغير المنصور على ابن المقفع.¹

وقد ظل المنصور متخوفاً من طموحات عبد الله بن علي للخلافة، فبعد أن أعطاه الأمان أمر بسجنه، ولم يغلب الرحم والقربة في النهاية، فقد توفي عبد الله بن علي في سجن المنصور وفي ظروف غامضة تحت أنقاض بيت.² ولم يثر قتله أي تحرك من بني هاشم، ولم يؤثر حتى في علاقة الخليفة المنصور ببني هاشم.

وقد حاول المنصور التخلص من عبد الله بن علي وعيسى بن موسى معاً. فقد أمر عيسى بن موسى بعد أن قدّم عليه ابنه المهدي في ولاية العهد وقبل مسيره إلى الحج، بقتل عبد الله بن علي. لكن فطن عيسى بن موسى إلى نوايا المنصور فخبّأ عبد الله ولم يقتله. ولما عاد المنصور وسأله بنو علي عن أخيهم أخبرهم أنه سلمه إلى عيسى بن موسى وأمره بسجنه إلا أنه قتله. فلما بادروا إلى قتل عيسى بن موسى أخرج إليهم عبد الله وسلمه للمنصور قائلاً له "إنما أردت بقتله أن تقتلني".³ تكشف هذه الرواية عن الصراع على السلطة بين الخليفة والعباسيين. وهو صراع خفي يظهر أحياناً ويخفت أحياناً أخرى.⁴

وقد برز هذا الصراع من جديد عندما حبس الرشيد عبد الملك بن صالح بن علي، لما بلغه أنه يؤهل نفسه للخلافة. وقد ظلّ في سجن الرشيد إلى أن أطلق سراحه محمد الأمين، وردّ له أعماله وأمواله وضياعه. وقد كان الرشيد يحسد عبد الملك لأنه لم يطالب بالخلافة، وإنما الخلافة هي التي كانت تسير إليه، وذلك لما كان يتمتع به من خصال تؤهله إليها.⁵ وقد تطور هذا الحسد إلى غضب الخليفة فحقد على عبد الملك بن صالح وحبسه ولم يحترم القربة والرحم. ولم تذكر المصادر الأخرى طموحات عبد الملك للخلافة في عهد الرشيد. ويمكن أن نضيف إلى هذا الصراع ثورة إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام الملقب بابن عائشة على الخليفة المأمون، وقد بايعه قوم من بغداد وبعد أن حبسه المأمون أمر بقتله وصلبه لمحاولة استمالة أهل المطبق. وقد قتل والمأمون واقف.⁶ ولم يول القربة والرحم حقهما.

أما في العصر العباسي الثاني فقد تحول الصراع على السلطة إلى صراع عليّ انحصر أساساً بين أولاد الخلفاء وأعمامهم وأخواتهم، ويعود ذلك إلى تطور نظام الوراثة الذي كان يؤدي في كل مرة إلى إقصاء فروع جانبية ضمن الأسرة العباسية ذاتها.

¹ - الجهشيارى، نفس المصدر، ص 103-104.

² - الطبري، نفس المصدر، ص 1565؛ المسعودي، نفس المصدر، ج 3، ص 305-306.

³ - الطبري، نفس المصدر، ص 1565.

⁴ - فاروق عمر، العباسيون الأوائل، ج 2، ص 32.

⁵ - اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 434-435.

⁶ - البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 170-171؛ اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 457-459.

نلاحظ أن الخلفاء العباسيين كانت لهم علاقات متوترة مع العباسيين (أي الهاشمين). وهذا التوتر يرجع للتنافس على الحكم والسلطة ولأسباب أخرى مثل الحسد. لكن هذه الصراعات لم تتخذ شكلا خطيرا إلا في العصر العباسي الثاني عندما انحصر الصراع بين الفرع العباسي الحاكم.

إن علاقة الخلفاء العباسيين بأقاربهم متميزة بما أن الخلفاء أشركوهم نسبيا في السلطة ومنحوهم الثروات وصاهروهم. لكنهم بقوا حذرين في التعامل معهم. وقد اعتمد الخلفاء العباسيون على أقاربهم في تسير شؤون الحكم أكثر من اعتمادهم على أولادهم ويعود ذلك لنضجهم. كما اعتمدوا أيضا على عدد كبير من الموظفين موزعين في البلاط على أعمال ومراتب مختلفة.

II موظفو البلاط

تتصل بالخليفة في البلاط العباسي سلسلة من الموظفين يتدرجون حسب توزيع تراتبي يبدأ من القمة بالوزير وينتهي بصغار الموظفين من الخدم والخصيان. وتجدد الإشارة هنا إلى أنه لا بدّ من التفريق بين صنفين اثنين من الموظفين: أولاً الموظفون الموكولة أعمالهم بتصريف شؤون الخلافة والحكم، والموظفون المهتمون بتدبير شؤون القصر وأمور الخليفة الخاصة أي الخدم، ولو أن هناك تداخل في بعض الأحيان بين الأعمال التي يقوم بها كل صنف من هؤلاء الموظفين. وقد ذكرت لنا المصادر قائمة الموظفين لدى الخلفاء العباسيين من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المستكفي.

قائمة الموظفين لدى الخلفاء العباسيين من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المستكفي

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
أبو العباس السفاح	أبو سلمة الخلال	مولى لبني الحارث بن كعب	وزير	جديدة	قتل	ابن الطقطقي، الفخري، ص 153-156؛
	أبو الجهم بن عطية	مولى باهلة	وزير	جديدة	قتل	ابن حبيب، المحبر، ص 259-260؛
	خالد بن برمك	من مجوس بلخ	وزير	جديدة	-	374-260؛
	أبو غسان/ صالح بن الهيثم	مولى	حاجب	جديدة	-	المسعودي، التنبيه 340؛
	أبو بكر بن أسد بن عبد الله	خزاعة	صاحب حرس	جديدة		الأربلي، خلاصة الذهب، ص 59؛
	أسد بن عبد الله بن مالك	خزاعة	صاحب حرس	جديدة		اليقوي، تاريخ، ج 2، ص 361؛
	عبد الجبار بن عبد الرحمن	الأرد	صاحب شرطة	جديدة		خليفة بن خياط، تاريخ، ص 415.
	سابق	خوارزم	خادم			

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
أبو جعفر المنصور	خالد بن برمك	-	وزير	قديمة		ابن الطقطقي، الفخري، ص 158-157-177؛
	أبو أيوب المورياني	مولى بني سليم من قرى الأهواز	وزير	جديدة		الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص 97-125؛
	الربيع بن يونس	مولى الحارث الحفار مولى عثمان بن عفان	وزير	جديدة		البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 282؛
	عيسى بن روضة	-	حاجب	جديدة	-	ابن حبيب، المحبر، ص 260-374؛
	أبو الخصيب/ مرزوق	مولى	حاجب	جديدة	توفي	المسعودي، التنبيه 374-260؛
	الربيع	مولى	حاجب	جديدة	ترقية	
	الفضل بن	مولى	حاجب	جديدة	-	

والإشراف، ص 343؛ الأربلي، خلاصة الذهب، ص 61؛ الكازروني، مختصر التاريخ، ص 117؛ اليعقوبي، نفس المصدر، ج 2، ص 382؛ خليفة بن خياط، تاريخ، ص 436؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج 1، ص 37-41؛ ابن العربي، تاريخ الزمان، ص 11؛ ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص 124-125؛ القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص 109-165-266؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 7، ص 318.				الربيع	
	جديدة	صاحب حرس		كعب بن عبد الملك	
	جديدة	صاحب حرس	عك	عثمان بن هنيك	
	جديدة	صاحب حرس	عك	عيسى بن هنيك	
	جديدة	صاحب حرس	طوس	أبو العباس الطوسي	
ترقية	قديمة	صاحب شرطة	الأزد	عبد الجبار بن عبد الرحمان	
عزل	جديدة	صاحب شرطة	الأزد	عمر بن عبد الرحمان (أخوه)	
توفي	جديدة	صاحب شرطة	تميم	موسى بن كعب	
	جديدة	صاحب شرطة (على العدوى)	-	المسيب بن زهير الضبي	
	جديدة	صاحب شرطة (وإليه الحربة)	خزاعة	حمزة بن مالك	
		خادم	تركي	حماد	
		خادم	-	سلمة	
		خادم	-	سلامة الأبرش	
		خادم	-	ياسر	
		خادم	-	الربيع	
		خادم	-	أبو العنبر	
	جديدة	طبيب	جند يسابور نصراني	جور جيس بن جبرائيل	
	جديدة	منجم	فارسي	النوبخت	
	جديدة	منجم	ابن النوبخت	أبو سهل	
	جديدة	منجم	محموسي	أبو منصور	

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
المهدي	أبو عبيد الله معاوية بن يسار	مولى الأشعرين من أهل فلسطين	وزير	جديدة	عزل	ابن الطقطقي، الفخري، ص 181-187؛ الجهنياري، نفس المصدر، ص 141-155؛ ابن حبيب، الخبر، ص 259-375؛ المسعودي، التنبيه والإشراف، ص 340؛ الأربلي، خلاصة الذهب، ص 59؛ الكازروني، نفس المصدر، ص 120؛ اليعقوبي، نفس المصدر، ج 2، ص 401؛ خليفة بن خياط، تاريخ، ص 443؛ ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 79-
	يعقوب بن داود بن طهمان	مولى بني سليم	وزير	جديدة	عزل	
	الفيض بن أبي صالح	نصراني من أهل تيسابور	وزير	جديدة		
	الربيع	مولى	حاجب	قديمة	-	
	الخضر بن سليمان	-	حاجب	جديدة	-	
	الفضل بن الربيع	مولى	حاجب	قديمة	-	
	الربيع بن حصين	-	حاجب	جديدة	-	
	الحصين بن سليمان	-	حاجب	جديدة		
	محرز بن القاسم		صاحب حرس	جديدة		
	محمد بن إبراهيم		صاحب حرس	جديدة		
	أبو العباس الطوسي	طوس	صاحب حرس	قديمة		
	عبد الله بن أبي العباس الطوسي	طوس	صاحب حرس	جديدة		
	نصر بن مالك	خزاعة	صاحب شرطة	جديدة	توفي	
	حمزة بن مالك	خزاعة	صاحب شرطة	قديمة	عزل	

80؛ ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص 127-128؛ القبطي، نفس المصدر، ص 280-281.	جديدة	جديدة	صاحب شرطة	خزاعة	عبد الله بن مالك
			خادم	-	حمويه
			خادم	-	علاء
		قديمة	طبيب		جورجيس بن جرانيل
		جديدة	طبيب		عيسى المشهور بأبي قريش
		جديدة	منجم	نصراني من الرها	توفيل بن توما

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
موسى الهادي	الربيع بن يونس	-	وزير	قديمة	قتل	ابن الطقطقي، الفخري، ص 192؛ الجهشياري، نفس المصدر، ص 167؛ ابن حبيب، المخبر، ص 260؛ المسعودي، نفس المصدر، ص 345؛ الأربلي، نفس المصدر، ص 105؛ اليعقوبي، نفس المصدر، ج 2، ص 406؛ خليفة بن خياط، تاريخ، ص 443.
	إبراهيم بن ذكوان	حران	وزير	جديدة	-	
	الفضل بن الربيع	مولى	حاجب	قديمة	-	
	علي بن عيسى بن ماهان		صاحب حرس	جديدة		
	عبد الله بن مالك	خزاعة	صاحب شرطة	قديمة		

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
هارون الرشيد	يحيى بن خالد بن برمك وولديه جعفر والفضل	من مجوس بلخ	وزير	جديدة	قتل	الجهشياري، نفس المصدر، ص 177؛ ابن الطقطقي، الفخري، ص 210؛ ابن حبيب، المخبر، ص 260-375؛ المسعودي، نفس المصدر، ص 346؛ الأربلي، نفس المصدر، ص 113-171؛ اليعقوبي، نفس المصدر، ج 2، ص 429؛ خليفة بن خياط، تاريخ، ص 465؛ ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 41-44؛ 124؛ ابن العبري، تاريخ
	الفضل بن الربيع	ابن الربيع بن يونس	وزير	جديدة	-	
	بشر بن ميمون	مولى	حاجب	جديدة	-	
	محمد بن خالد بن برمك	فارس	حاجب	جديدة		
	الفضل بن الربيع	مولى	حاجب	قديمة		
	جعفر بن محمد بن الأشعث		صاحب حرس	جديدة		
	عبد الله بن مالك	خزاعة	صاحب حرس	جديدة		
	علي بن عيسى بن ماهان		صاحب حرس	قديمة		
	جعفر بن يحيى فولى مكانه صالح بن شيخ بن عميرة، ثم ولى جعفر مكانه هرثة بن	فارس	صاحب حرس	جديدة		

الزمان، ص 17-18؛ ابن العري، مختصر تاريخ الدول، ص 131-132؛ القفطي، أخبار الحكماء، ص 71-93.					أعين فأقره الرشيد.
	عزل	جديدة	صاحب شرطة	خزاعة	القاسم بن نصر
	عزل		صاحب شرطة	تميم	خزيمة بن خازم
	عزل	قديمة	صاحب شرطة	-	المسيب بن زهير
	عزل	قديمة	صاحب شرطة	تميم	خزيمة بن خازم
	عزل	قديمة	صاحب شرطة	-	عبد الله بن مالك
	عزل	جديدة	صاحب شرطة	تميم	عبد الله بن خازم
	عزل	قديمة	صاحب شرطة	تميم	خزيمة بن خازم
	عزل	قديمة	صاحب شرطة	-	عبد الله بن مالك
	عزل	قديمة	صاحب شرطة	تميم	عبد الله بن خازم
	عزل	جديدة	صاحب شرطة	-	علي بن الحجاج
	قتل	جديدة	صاحب شرطة	عك	إبراهيم بن عثمان بن تميم
	عزل	جديدة	صاحب شرطة	-	وهب بن إبراهيم
		جديدة	صاحب شرطة	-	ابن الشخير
			خادم	-	مسرور
			خادم	-	رجاء
			خادم	-	حسين
			خادم	-	رشيد
			خادم	-	ثابت
			خادم	-	سلام
			خادم	-	سعيد الخفثاني
			خادم	-	طل
		جديدة	طبيب	جند يسابور	يختيشوع بن جورجيس
		جديدة	طبيب	جند يسابور	جبرائيل بن يختيشوع
		جديدة	طبيب	نصراني سرياني	يوحنا بن ماسويه
		جديدة	طبيب	هندي	صالح بن بكلة

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
محمد الأمين	الفضل بن الربيع	-	وزير	قديمة		ابن الطقطقي، الفخري، ص 210؛ حبيب، المختار، ص 260-375؛ المسعودي، نفس المصدر، ص 349؛ الكازروني، نفس المصدر، ص 133؛ اليعقوبي، نفس المصدر، ج 2، ص 442؛ ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 45-
	العباس بن الفضل بن الربيع	مولى	حاجب	جديدة	-	
	عصمة بن أبي عصمة	-	صاحب حرس	جديدة		
	محمد بن المسيب بن زهير	-	صاحب شرطة	جديدة	ترقية	
	محمد بن حمزة بن مالك	خزاعة	صاحب شرطة	جديدة	عزل	
	عبد الله بن خازم	تميم	صاحب شرطة	قديمة	عزل	
	كوثر	-	خادم			
	جبرائيل بن	جند يسابور	طبيب	قديمة		

124؛ القفطي، نفس المصدر، ص 98.				نصراني	يوحنا بن ماسويه	بختيشوع
		قديمة	طبيب			

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
المأمون	الفضل بن سهل	من أولاد ملوك الفرس المجوس	وزير	جديدة	قتل	ابن الطقطقي، الفخري، ص 221-224
	الحسن بن سهل	أخو الفضل	وزير	جديدة	مرض	225-22
	أحمد بن أبي خالد الأحول	مولى بني عامر بن لؤي	وزير	جديدة	-	227؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 4، ص 529، ج 3، ص 475-476؛ ابن طيفور، كتاب بغداد، ص 118؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 2، ص 560؛ ابن حبيب، المحبر، ص 260-375؛ 376
	أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح	مولى بني عجل من أهل الكوفة	وزير	جديدة	-	المسعودي، نفس المصدر، ص 352؛ الأربلي، نفس المصدر، ص 194؛ يعقوبي، نفس المصدر، ج 2، ص 470. ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 116- 117-124؛ 137؛ القفطي، نفس المصدر، ص 106-187؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 4، ص 41- 42؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج 5، ص 208- 217.
	أبو عباد ثابت بن يحيى بن يسار الرازي	-	وزير	جديدة	-	
	أبو عبد الله محمد بن يزداد بن سويد	خراساني	وزير	جديدة	-	
	عمرو بن مسعدة	أبو مولى خالد بن عبد الله القسري	وزير	جديدة	توفي	
	عبد الحميد بن شبيب بن حميد بن قحطبة	طيء	حاجب	جديدة	-	
	محمد بن صالح	مولى	حاجب	جديدة		
	علي بن صالح	مولى	حاجب	جديدة		
	إسماعيل بن محمد بن صالح	-	حاجب	جديدة		
	محمد بن حماد بن دنقش		حاجب	جديدة		
	الحسن بن أبي سعد	-	الحجابة العامة	جديدة		
	شبيب بن حميد بن قحطبة		صاحب حرس	جديدة		
	هرثة بن عبد الواحد بن سلامة		صاحب حرس	جديدة		
	علي بن هشام عجيف بن عنيسة		صاحب حرس	جديدة		
	العباس بن المسيب	-	صاحب شرطة	جديدة	توفي	
	أبو خالد البازيار	-	صاحب شرطة	جديدة	-	
	طاهر بن الحسين	مولى خزاعة	صاحب شرطة	جديدة	ترقية	
	عبد الله بن طاهر	مولى خزاعة	صاحب شرطة	جديدة	ترقية	
	إسحاق بن إبراهيم بن مصعب	-	صاحب شرطة (خليفة عبد الله)	جديدة		
	محمد بن إبراهيم بن مصعب	-	صاحب شرطة	جديدة		
	يوحنا بن	نصراني	طبيب	قديمة		

	ماسويه				
	جيريل الكحال	-	طبيب	جديدة	
	ميخائيل بن ماسويه	أخو يوحنا بن ماسويه وصهر جيرائيل بن بختيشوع	طبيب	جديدة	
	محمد بن موسى	خوارزم	منجم	جديدة	
	الفضل بن سهل	فارس	منجم	جديدة	
	علي بن يحيى	بن أبي منصور	منجم	جديدة	

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
المعتصم بالله	الفضل بن مروان	نصراني من البردان	وزير	جديدة	عزل	ابن الطقطقي، الفخري، ص 232-233
	أحمد بن عمار بن شادي	من أهل المذار	وزير	جديدة	عزل	234-235؛
	محمد بن عبد الملك الزيات	جدّه من أهل جبل	وزير	جديدة	-	ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 4، ص 45، ج 5، ص 94، الخطيب
	محمد بن حماد بن دنقش	-	حاجب	قديمة	-	البغدادي، ج 13، ص 342-344
	بغا الكبير		حاجب	جديدة		344؛ ابن حبيب، المحرر، ص 260-376
	وصيف عجيف بن عنيسة الافشين	مولى تركي	حاجب	جديدة		المسعودي، نفس المصدر، ص 356؛ الأربلي، نفس المصدر، ص 223
	إسحاق بن يحيى بن معاذ	تركي	صاحب حرس	قديمة		نفس المصدر، ج 2، ص 478
	إسحاق بن إبراهيم		صاحب حرس	جديدة		ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 105-106
	محمد بن إبراهيم	-	صاحب شرطة (خليفة عبدالله)	قديمة		106-124؛ ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص 140
	مسرور سمانة	-	صاحب شرطة	جديدة		
	فرقاس	-	صاحب شرطة	قديمة		
	ثابت	-	صاحب شرطة	جديدة		
	أبو الجعفاء	-	صاحب شرطة	جديدة		
	الفتح بن خاقان	-	صاحب شرطة	جديدة		
	سلمويه بن بنان	نصراني	طبيب	جديدة		
	يوحنا بن ماسويه	نصراني	طبيب	جديدة		

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
الواثق بالله	محمد بن عبد الملك الزيات	من جبل	وزير	قديمة		ابن الطقطقي، الفخري، ص 236؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 5، ص 94؛ ابن حبيب، المحرر، ص 260-376
	محمد بن حماد بن دنقش	-	حاجب	قديمة	توفي	المسعودي، نفس المصدر، ص 329؛ الأربلي، نفس المصدر، ص 225
	إيتاخ	تركي	حاجب	جديدة	-	الكازروني، نفس
	وصيف	تركي	حاجب	قديمة	-	
	محمد بن عاصم	-	حاجب	جديدة	-	
	إسحاق بن يحيى بن سليمان بن معاذ		صاحب حرس	جديدة		
	محمد بن إبراهيم	-	صاحب شرطة (خليفة إسحاق)	قديمة	عزل	
	محمد بن	-	صاحب شرطة	جديدة		

المصدر، ص 145؛ اليعقوبي، نفس المصدر، ج 2، ص 483؛ ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 124.				إسحاق بن إبراهيم الفتح بن خاقان يوحنا بن ماسويه	
	قديمة	خادم	تركي		
	قديمة	طبيب	نصراني		

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
المتوكل	محمد بن عبد الملك الزيات	حبل	وزير	جديدة	قتل	ابن الطقطقي، الفخري، ص 238-239؛ التنوخي، نشوار المحاضرة، ج 8، ص 12-13-14؛ السعودي، نفس المصدر، ص 330؛ حبيب، المحرر، ص 260-376؛ 377؛ الأربلي، نفس المصدر، ص 227؛ الكانزروني، نفس المصدر، ص 148؛ اليعقوبي، نفس المصدر، ج 2، ص 492؛ خليفة بن خياط، تاريخ، ص 443؛ أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 62-63-139؛ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص 39؛ القفطي، نفس المصدر، ص 72؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج 5، ص 208-217.
	محمد بن الفضل الجرجاني	-	وزير	جديدة		
	عبيد الله بن يحيى بن خاقان	تركي	وزير	جديدة		
	وصيف	تركي	حاجب	قديمة	-	
	يغا	تركي	حاجب	قديمة		
	زرافة	-	حاجب	جديدة		
	محمد بن عاصم	-	حاجب	قديمة	توفي	
	يعقوب قوصرة	-	حاجب	جديدة	توفي	
	ابن إبراهيم	-	حاجب	جديدة	توفي	
	المرزيان بن الفيرزان	-	حاجب	جديدة	توفي	
	إبراهيم بن الحسن بن سهل	-	حاجب	جديدة	توفي	
	الحسين بن إسماعيل بن مصعب	-	حاجب	جديدة	-	
	عتاب بن عتاب	-	حاجب	جديدة	-	
	إسحاق بن يحيى بن معاذ	-	صاحب حرس	قديمة		
	رجاء بن أيوب	-	صاحب حرس	جديدة		
	سليمان بن يحيى بن معاذ	-	صاحب حرس	جديدة		
	إسحاق بن إبراهيم	-	صاحب شرطة (خليفة طاهر بن عبد الله)	قديمة	توفي	
	محمد بن إسحاق	-	صاحب شرطة	قديمة	توفي	
	عبد الله بن إسحاق	-	صاحب شرطة مدينة السلام	جديدة		
	إبراهيم بن إسحاق	-	صاحب شرطة سامراء	جديدة		
	محمد بن عبد الله بن طاهر	-	صاحب شرطة (خليفة أخيه طاهر بن عبد الله)	جديدة		
	إبراهيم بن إسحاق	-	صاحب شرطة العسكر (خليفة محمد بن عبد الله بن طاهر)	قديمة		
	الفتح بن خاقان	تركي	خادم	قديمة		
	مسرة	-	تركي			
	شاهك	-	خادم			
	حنين بن اسحق	عباد (قبائل)	طبيب	جديدة		

				شقي من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية)		
		قديمة	طبيب	نصراني	يوحنا بن ماسويه	
		جديدة	طبيب	جند يسابور	بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع	
		قديمة	منجم	بن أبي منصور	علي بن يحيى	

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
المنتصر بالله	أحمد بن الخصب	-	وزير	جديدة	-	ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 239؛ الروحي، بلغة الظرفاء، ص 234؛
	وصيف	تركي	حاجب	قديمة	-	المسعودي، نفس المصدر، ص 330؛ الأربلي، نفس المصدر، ص 228؛
	بغا	تركي	حاجب	قديمة	-	الكازروني، نفس المصدر، ص 151؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج 5، ص 208-217.
	علي بن يحيى	-	منجم			

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
المستعين بالله	أحمد بن الخصب	-	وزير	قديمة		ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 242؛
	أبو صالح محمد بن يزداد	-	وزير	جديدة	هرب	المسعودي، نفس المصدر، ص 332؛ الأربلي، نفس المصدر، ص 229؛
	أوتامش	تركي	حاجب	جديدة	-	الكازروني، نفس المصدر، ص 153؛ ياقوت الحموي، نفس المصدر، ج 5، ص 208-217.
	بغا	تركي	حاجب	قديمة	-	
	موسى بن بغا	تركي	حاجب	جديدة	-	
	وصيف	تركي	حاجب	قديمة	-	
	علي بن يحيى	-	منجم	قديمة		

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
المعتز بالله	جعفر بن محمود الاسكافي	-	وزير	جديدة		ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 244-245؛
	عيسى بن فرخان شاه	-	وزير	جديدة	-	الأربلي، نفس المصدر، ص 233؛
	أحمد بن إسرائيل	الأنبار	وزير	جديدة		الكازروني، نفس المصدر، ص 233؛
	جعفر بن محمود	-	وزير	قديمة		

المصدر، ص 156؛ ياقوت الحموي، نفس المصدر، ج 5، ص 208-217.					الاسكافي
	-	جديدة	حاجب	تركي	صالح بن وصيف
	-	قديمة	حاجب	تركي	موسى بن بغا
		جديدة	حاجب	-	بايكباك
		قديمة	منجم	-	علي بن يحيى

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
المهتدي بالله	جعفر بن محمود الاسكافي	-	وزير	قديمة		ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 247؛
	سليمان بن وهب بن سعيد		وزير	جديدة	-	المسعودي، نفس المصدر، ص 334؛ الأربلي، نفس المصدر، ص 233؛
	وصيف	تركي	حاجب	قديمة	-	المصدر، ص 160.
	محمد بن عتاب	-	حاجب	جديدة	-	
	صالح بن وصيف	تركي	حاجب	قديمة		
	موسى بن بغا	تركي	حاجب	قديمة		
	عبد الله بن دكين	-	حاجب	جديدة		

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
المعتمد على الله	عبيد الله بن يحيى بن خاقان	تركي	وزير	قديمة	توفي	ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 251-255؛
	الحسن بن مخلد	-	وزير	جديدة	عزل	المسعودي، نفس المصدر، ص 336؛ الأربلي، نفس المصدر، ص 235؛
	سليمان بن وهب	-	وزير	قديمة	قتل	المصدر، ص 163؛ ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 2، ص 169؛ ياقوت الحموي، نفس المصدر، ج 5، ص 208-217.
	أحمد بن صالح بن شيرزاد	قطر بل	وزير	جديدة	مرض ومات	
	عبيد الله بن سليمان بن وهب	-	وزير	جديدة	-	
	يوسف بن بغا	تركي	حاجب	جديدة	-	
	ابن بكنم	-	حاجب	جديدة	-	
	يارجوخ	تركي	حاجب	جديدة	-	
	كغلف	-	حاجب	جديدة	-	
	حسن	-	حاجب	جديدة	-	
	عيسى بن علي	-	طبيب	جديدة	-	
	علي بن يحيى	-	منجم	قديمة	-	

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
المعتضد بالله	عبيد الله بن سليمان بن وهب	-	وزير	قديمة	توفي	ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 257-256؛
	القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب	-	وزير	جديدة	-	المسعودي، نفس المصدر، ص 337؛ الأربلي، نفس المصدر، ص 237؛
	بدر	مولى	حاجب	جديدة	-	المصدر، ص 167؛ الطبري، نفس المصدر، ص 2111؛ ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ص 167؛
	صالح الأمين	-	حاجب	جديدة	-	
	خفيف	سمرقند	حاجب	جديدة	-	
	محمد بن الشاد بن ميكال		صاحب حرس	جديدة	-	
	بدر	غلام	صاحب شرطة	جديدة	-	
	غريب	-	خادم	-	-	

المصدر، ج 2؛ 225-218.				المعتضدي	
		خادم	-	صافي الحرمي	
	جديدة	طبيب	-	غالب	
	جديدة	طبيب	سمرقند	خفيف	
	جديدة	طبيب	الرصافة	بنان	
	جديدة	طبيب	بغداد	داود بن ديام	

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
المكتفي بالله	القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب	-	وزير	قديمة	توفي	ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 259-258؛
	العباس بن الحسن	-	وزير	جديدة	-	الروحي، بلغة الظرفاء، ص 245؛ الأربلي، نفس المصدر، ص 239؛
	خفيف	سمرقند	حاجب	قديمة	-	الكازروني، نفس المصدر، ص 171.
			عشرة آلاف خادم (سود + صقالبة)			

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
المقتدر بالله	العباس بن الحسن	-	وزير	قديمة	قتل	ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 273-265؛
	أبو الحسن علي بن الفرات	-	وزير	جديدة (ثلاث دفعات)		الروحي، بلغة الظرفاء، ص 250-249؛
	محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان	-	وزير	جديدة	عزل وفيض عليه	المسعودي، نفس المصدر، ص 346؛ الأربلي، نفس المصدر، ص 241؛
	علي بن عيسى بن الجراح	-	وزير	جديدة		الكازروني، نفس المصدر، ص 175؛ الخطيب البغدادى، تاريخ، ج 1، ص 100-101؛
	حامد بن العباس	-	وزير	جديدة	عزل ثم قتل	مسكويه، تجارب الأمم، ج 1، ص 83-7؛
	عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان	-	وزير	جديدة	عزل	الصولي، لموزراء، ص 28؛ ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 2، ص 201؛
	أحمد بن عبيد الله بن أحمد بن الحصيب	-	وزير	جديدة	عزل ثم أعيد قطعت يده	العبري، تاريخ الزمان، ص 54؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج 13، ص 62.
	أبو علي محمد بن مقله	بغداد	وزير	جديدة	عزل ثم أعيد قطعت يده	
	سليمان بن الحسن بن مخلد	-	وزير	جديدة	قبض	
	عبيد الله بن محمد الكلواذي	-	وزير	جديدة	انقطع	
	الحسين بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب	-	وزير	جديدة	قتل	
	أبو الفضل جعفر بن الفرات	-	وزير	جديدة		
	سوسن	مولى	حاجب	جديدة	-	
	نصر القشوري	-	حاجب	جديدة	-	
	ياقوت	-	حاجب	جديدة	-	

	-	جديدة	حاجب	-	محمد بن رائق
	-	جديدة	حاجب	-	إبراهيم بن رائق
			حرس		الغلمان السودان 4000
					الغلمان الحجرية (ألف)
			صاحب شرطة	-	ابن عمرويه
	جديدة		الشرطة بالحضرة	-	مونس الخادم
	-		صاحب شرطة بغداد	تركي	نازوك
			خادم	-	صافي الحرمي
			11 خادم نحصى		
			11 ألف خادم (رومي صقلي وأسود)		
	جديدة		طبيب	حران	سنان بن ثابت بن قرّة
	جديدة		طبيب	جند يسابور	جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع
	جديدة		طبيب	جند يسابور	بختيشوع بن يحيى

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
القاهر بالله	ابن مقلّة	بغداد	وزير	قديمة	-	ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 276؛
	محمد بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب	-	وزير	جديدة		المسعودي، نفس المصدر، ص 352؛ الأربلي، نفس المصدر، ص 242؛
	بدر الخرشني	-	حاجب	جديدة	-	
	فارس بن الزندق	-	حاجب	جديدة	-	
	علي بن يلبق	-	حاجب	جديدة	قتل	الكازروني، نفس المصدر، ص 178؛ ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 2، ص 201.
	سلامة	طولوني	حاجب	جديدة	-	
	محمد بن ياقوت	-	حاجب	جديدة	-	
	سنان بن ثابت	حران	طبيب	قديمة		

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
الراضي بالله	ابن مقلّة	-	وزير	قديمة	عزل	ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 280-283؛
	عبد الرحمان بن عيسى بن الجراح	ابن ابن مقلّة	وزير	جديدة	استعف	الروحي، بلغّة الظرفاء، ص 257-258؛
	أبو جعفر محمد بن القاسم	كرخ	وزير	جديدة	استتر	المسعودي، نفس المصدر، ص 353؛ الأربلي، نفس المصدر، ص 253؛
	سليمان بن الحسن بن مخلد					الكازروني، نفس
	أبو الفضل جعفر بن الفرات	-	وزير	قديمة		
	محمد بن ياقوت	-	حاجب	قديمة	-	

المصدر، ص 181؛ الحمداني، تكملة تاريخ الطبري، ص 83؛ ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 2، ص 201.	-	جديدة	حاجب	مولى	ذكاء	
			صاحب شرطة بغداد	-	بدر الخرشني	
		قديمة	طبيب	حران	سنان بن ثابت	

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
المتقي لله	سليمان بن الحسن بن مخلد	-	وزير	قديمة		ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 284-286؛
	أحمد بن محمد بن ميمون	-	وزير	جديدة	عزل	المسعودي، نفس المصدر، ص 360؛ الأربلي، نفس المصدر، ص 253؛
	أبو عبد الله البريدي	-	وزير	جديدة		الكازروني، نفس المصدر، ص 185؛ ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 2، ص 207-208؛
	محمد بن إبراهيم الإسكافي المعروف بالقراريطي	-	وزير			النفطقي، نفس المصدر، ص 73.
	الكرخي	-	وزير	قديمة		
	البريدي	-	وزير	قديمة		
	أبو العباس أحمد بن عبيد الله الأصفهاني	-	وزير	جديدة		
	أبو الحسين علي بن أبي علي محمد بن مقلة	-	وزير	جديدة		
	سلامة	طولوني	حاجب	قديمة	-	
	بدر الخرشني	-	حاجب	قديمة	-	
	أحمد بن خاقان	-	حاجب	جديدة		
	محمد بن خوز	-	حاجب	جديدة		
	ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة	حران	طبيب	جديدة		
	عبيد الله بن بختيشوع	جند يسابور	طبيب	جديدة		

اسم الخليفة	أسماء الموظفين	الانتماء القبلي أو الجغرافي	الوظيفة	نوع الوظيفة	إنهاء الوظيفة	المصادر
المستكفي بالله	السامري أبو الفرج محمد بن علي	-	وزير	جديدة		ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 287؛
	أحمد بن خاقان	-	حاجب	قديمة	-	المسعودي، نفس المصدر، ص 361؛ الأربلي، نفس المصدر، ص 257؛
	ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة	حران	طبيب	قديمة		الكازروني، نفس المصدر، ص 188؛ ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 2، ص 208.

نلاحظ من خلال هذه القوائم أن البلاط العباسي اشتمل بالإضافة إلى أقارب الخلفاء وأولادهم، على موظفين في مؤسسات الدولة العباسية، وهؤلاء الموظفين هم الوزراء والكتاب والحجاب وأصحاب الحرس والشرطة وبعض قادة الجيش، وذلك لقرّبهم من الخلفاء العباسيين وحضورهم قصورهم ومجالسهم ومشاركتهم في اتخاذ القرارات وممارسة الحكم، ويأتي على رأسهم.

1- الوزراء

يحتل الوزير المرتبة الأولى في نظام المراتب، أي أنه يمثل المنصب الذي لا تتم بعده ترقية، وقد استمر الوضع على ذلك الحال من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة الراضي الذي أحدث في عهده منصب أمير الأمراء سنة 324 هـ / 936 م فصارت مرتبته فوق مرتبة الوزير.¹

وقد استحدث منصب الوزير مباشرة إثر انتصار جيوش العباسيين على الأمويين وقبل مبايعة أول خليفة عباسي أبي العباس السفاح، وقد تمّ ذلك بتدبير من القادة الخراسانيين،² وبذلك يكون العباسيون قد قلّدوا بهذا المنصب الفرس.³ وهو يمثل تطوراً لوظيفة الكاتب في العهد الأموي، فقد مهّد سالم أبو العلاء وعبد الحميد لنشأة وظيفة الوزير التي تبلورت في العهد العباسي،⁴ حيث سمي الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً.⁵

ولا بدّ أن نشير إلى أن الوزارة العباسية وقع الاهتمام بها من قبل العديد من المؤرخين المحدثين المستشرقين والعرب، مثل سوردال، وفاروق عمر والكروي، وسوف نركز خاصة على شروط تعيين الوزير والصفات الواجب توفرها فيه وتنوع اختصاصاته وتطورها ومراسم تعيينه.

كان أول من تقلّد هذا المنصب في البلاط العباسي أبا سلمة الخلال ثم تواصل بعد ذلك تعيين الوزراء من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المستكفي. وقد بلغ عدد كبير منهم مرتبة هامة في تسيير شؤون الحكم، لاسيما في العصر العباسي الأول، ثم بدأ دورهم في التراجع خاصة مع دخول الأتراك الحكم واستعانة الخلفاء بهم. وعلى هذا الأساس فقد ظهرت شريحة إدارية من الوزراء تكرّس سيطرة الخليفة العباسي على دواليب الدولة.

عيّن الخلفاء العباسيون الوزراء اعتماداً على الصفات التي يتمتعون بها كالأخلاق والعقل وأن يكون الوزير كتماً وديعاً، وبالإضافة إلى الصفات يجب أن يتفقه في الدين،⁶ ثم لا بدّ من حذق فنّ الكتابة، فقد جرت

1- الهمداني، *تكملة تاريخ الطبري*، بيروت 1961، ج 1، ص 99.

2- الجهشيار، *نفس المصدر*، ص 84؛ البلاذري، *أنساب الأشراف*، ج 4، ص 205.

3- كريستنسن (أرثر)، *إيران في عهد الساسانيين*، ص 101.

4- بن حسين (بثينة)، *مرجع مذكور*، ص 21.

5- ابن الطقطقي، *نفس المصدر*، ص 153.

6- ابن أبي الربيع، *سلوك المالك في تدبير الممالك*، (جاء في كتاب الفلسفة السياسية عند ابن أبي الربيع لناجي التكريتي)، العراق 1987، ص 193-194.

العادة في العصر العباسي أن يختار الوزير من الكتاب أو من أبناء الكتاب. فاكسب الكاتب لكفاءات وصفات معينة تمكنه من تبوء منصب الوزارة. فقد كان أبو أيوب المورياني وزير المنصور يتمتع بمقدرة كتابية فائقة جعلت المنصور يستوزره، وقد كان قبل ذلك كاتباً لسليمان بن حبيب بن المهلب عامل مروان بن محمد على البصرة، وقد قلّده الدواوين مع الوزارة.¹ كما استوزر المهدي كاتبه ونائبه قبل الخلافة أبا عبيد الله معاوية بن يسار، وقد قلّده الوزارة وفوض إليه تدبير المملكة وإدارة الدواوين، كما كان يشغل خطة كاتب خاص للخليفة.²

كما استوزر المعتصم عبد الملك الزيات لمقدرته الكتابية والأدبية والشعرية،³ وقد جعل هذا التكوين إضافة لمعرفته بقواعد الملك الخليفة الوثائق يبقى عليه رغم العداوة التي بينهما في حياة المعتصم، فقد قال له "إني أجد عن المال عوضاً ولا أجد عن مثلك عوض".⁴ كما كان الحسن بن مخلد بن الجراح "أحد كتاب الدنيا"، مما مكّنه من تبوء منصب وزير لدى الخليفة المعتمد وكاتب لدى أخيه الموفق في نفس الوقت.⁵

وقد وصل الأمر في العصر العباسي إلى أن أصبحت أسر كبيرة من الكتاب تتولى منصب الوزارة وقد انطلق ذلك مع البرامكة، الذين وصلوا إلى هذه الخطة في عهد الرشيد وهيمنوا على الدولة. فكانوا من أبرز مميزات البلاط العباسي في عهد الرشيد. والبرامكة هم من مجوس بلخ، وكانوا سدة معبد النوبهار فيها وهم ينتسبون إلى جدّهم برمك وهو ليس اسم لشخص وإنما هو لقب لكبير سدة النوبهار.⁶ وأول من اتصل بالعباسيين من البرامكة خالد بن برمك في أثناء الدعوة العباسية، وهو كذلك أول من تولى الوزارة من آل برمك في خلافة السفاح لكن دون أن يسمّى وزيراً، فقد كان يترأس ديواني الخراج والهند.⁷ ثم تولى ابنه يحيى الوزارة في خلافة الرشيد بمساعدة ولديه الفضل وجعفر. ونجح البرامكة في توارث الوزارة حتى كونوا إمبراطورية داخل الدولة العباسية.⁸ واستمروا في الوزارة بين سنة 170 هـ / 786 م - 182 هـ / 798 م.

ومساراً يشبه مسار البرامكة عرفه بنو سهل، وهما الحسن والفضل، وقد كانا من الكتاب الفرس المجوس، وكانا على اتصال بالبرامكة فقد كان والدهما سهل قهرماناً ليحيى بن خالد.⁹ وقد ضمّ يحيى الحسن والفضل إلى ولديه الفضل وجعفر فقدّم جعفر الفضل إلى المأمون وهو وليّ عهد فأسلم على يديه،¹⁰ وكان له دور أساسي في إيصاله إلى الحكم.

¹ - الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص 97-98.

² - ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت 1966، ص 181؛ الجهشيارى، نفس المصدر، ص 141-143.

³ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 5، ص 94-95؛ ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 234.

⁴ - ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 234.

⁵ - ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 251.

⁶ - ابن خلكان، نفس المصدر، ج 7، ص 219؛ عمر (فاروق)، جذور الوزارة العباسية، بغداد، 1986، ص 100.

⁷ - الجهشيارى، نفس المصدر، ص 89؛ ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 156.

⁸ - Sourdel. D, *Le Vizirat Abbasside de 749 à 936 (132 à 324 de l'Hégire)*, Damas, 1959, t I, p. 174.

⁹ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 12، ص 339؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج 8، ص 110.

¹⁰ - الجهشيارى، نفس المصدر، ص 231.

وفي نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع هجري ظهرت أسرا جديدة تتوارث منصب الوزارة وقد كانوا في الأصل كتابا، مثل عائلة آل خاقان، وهم ثلاثة حسب الجداول، عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزر للمتوكل، والمعتمد، وابنه محمد بن عبيد الله وزر للمقتدر، كما ولي أيضا ابن ابنه عبيد الله بن محمد بن عبيد الله الوزارة للمقتدر بعد أبيه.

كذلك بنو وهب، وقد عثرنا في القائمة على خمسة وهم: سليمان بن وهب الذي وزر للمهتدي والمعتمد، وابنه عبيد الله بن سليمان وزر أيضا للمعتمد وللمعتضد، وحفيده القاسم بن عبيد الله ولي الوزارة للمعتضد بعد أبيه وكذلك للمكتفي، كما وزر ابنه: الحسين بن القاسم للمقتدر، ومحمد بن القاسم للقاهر. نلاحظ أن أبناء الوزراء والكتاب قد ورثوا مناصبهم عن آبائهم وأجدادهم.

كما يتم في بعض الأحيان استخدام الوزير لأكثر من مرة في عهد الخليفة الواحد، وقد اشتهر في العصر العباسي الثاني أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات الذي ولي الوزارة للمقتدر ثلاث دفعات.¹ أو قد يتولى الوزير في أكثر من عهد من عهود الخلفاء، مثل محمد بن عبد الملك الزيات الذي كان وزيرا لثلاث خلفاء المعتصم والواثق والمتوكل، لكن بعد أن أقره المتوكل قتله واستصفى أمواله.² كذلك عبيد الله بن سليمان استوزره المعتمد وأقره المعتضد.

لكن هذا لم يمنع من تعيين وزراء عديدي الكفاءة، مثل أحمد بن عمار وزير المعتصم الذي كان جاهلا بآداب الوزارة لكنه كان موسرا.³ كذلك حامد بن العباس وزير المقتدر الذي على خلاف الوزراء الآخرين لم يكن من فئة الكتاب وإنما كان يتولى دائما أعمال السواد، ولم يكن له خبرة بأعمال الحضرة.⁴ لكن هذه الأمثلة تبقى استثنائية، وهي تكشف لنا عن اتصال البورجوازية التجارية بالبلاط.

إن اكتساب الوزراء لكفاءات معينة وتكوين صلب من العوامل التي دفعت الخلفاء العباسيين لجمع العديد من الوظائف لهم. فقد كان أبو أيوب المورياني وزيرا وكاتب ديوان الخاتم وكاتب ديوان الرسائل والسرّ وكان مسؤولا عن ديوان خراج البصرة والكوفة كما اهتم بالإدارة المالية للدولة.⁵ كما كان مستشار الخليفة المنصور، فهو من كلفه المنصور مشاورة سلم بن قتيبة في قتل أبي مسلم،⁶ وهو الذي حمل الخليفة على العفو عن سفيان بن معاوية قاتل بن المقفع.⁷ لكن رغم السلطات الواسعة التي كان يتمتع بها أبو أيوب المورياني في بلاط المنصور فإنه كان يخشاه ويرتعد منه إذا دعاه إليه، كما أن دوره لم يتجاوز دور الكاتب للخليفة ومدبر أمور الدولة أي المساعد الأول للخليفة.⁸

1- ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 265؛ الروحي، بلغة الظرفاء في تاريخ الخلفاء، القاهرة 2003، ص 249.

2- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 10، ص 99-100.

3- ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 233.

4- ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 268.

5- الجهشيار، نفس المصدر، ص 117؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 326؛

- Sourdel. D, *Le Vizirat Abbasside*, t I, p. 82.

6- الجهشيار، نفس المصدر، ص 111.

7- الجهشيار، نفس المصدر، ص 108.

8 - Sourdel. D, *Op. Cit*, t I, p. 87.

كما كان أبو أيوب المورياني، وزير المهدي وقد فوّض إليه تدبير المملكة وإدارة الدواوين،¹ وفوّض إليه مناظرة عيسى بن موسى كي يتخلّى عن ولاية العهد لفائدة ابنه الهادي، كما أمره بأخذ البيعة بولاية العهد لهارون بعد موسى واستحلاف الناس عليها.² فقام بدور المستشار. كما أعطاه المهدي كذلك صلاحيات النظر في الشؤون المالية والاقتصادية للدولة.³

وكان يعقوب بن داود وزير المهدي وفوّض إليه أمر الخلافة وتدبير الأمور كلّها.⁴ وهو أول من حمل لقب الوزارة في الدولة العباسية.⁵

لقد تطورت متزلة الوزير في البلاط العباسي مع وصول البرامكة إلى الحكم. فقد قلّد الرشيد يحيى البرمكي وزارته وفوّض إليه أمور الخلافة كلّها لاسيما وأنه قد لعب دورا كبيرا في وصوله إلى الحكم.⁶ فكانت هذه أول وزارة تفويض في العصر العباسي بعد أن كانت الوزارة كلّها وزارة تنفيذ.⁷ فقد كانت كل الدواوين إلى يحيى بن خالد مع الوزارة سوى ديوان الخاتم فإنه كان إلى أبي العباس الطوسي إلا أن الرشيد أخذ منه سنة 171 هـ/ 787 م ودفعه إلى يحيى فاجتمعت له الوزارتان.⁸

وكان يحيى بن خالد أول من أمّر من الوزراء، فقد أصبحت الكتب التي تنفذ من الديوان تؤرخ باسمه ولم تكن تنفذ إلا عن طريق الخليفة، كما تولى مهمة تعيين الكتاب على الدواوين.⁹

وكان يحيى قد استعان بولديه الفضل وجعفر في تسيير شؤون الرعية، وكان لقب وزير يطلق عليه وعلى ولديه.¹⁰ ولم يقتصر دور جعفر على المساعدة فقد قلّد الرشيد مهمة الإشراف على البريد ودور الضرب والطرز. وقد عدّها الدوري بدعة وامتيازاً جديداً.¹¹ كما ولّى الرشيد كذلك جعفر حرسه الخاص.¹² وعهد إليه بتربية ابنه المأمون، وهو من أشار عليه بالبيعة للمأمون بعد الأمين.¹³

وهكذا تبين الدور الهام الذي لعبه البرامكة فقد منحهم الرشيد العديد من الامتيازات التي هي من اختصاصات الخليفة، كالنظر في المظالم والتوقيعات والإشراف على دور الضرب.

¹ - ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 141؛ الجهشيار، نفس المصدر، ص 181.

² - الجهشيار، نفس المصدر، ص 145-150.

³ - ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 181؛ فاروق عمر، النظم الإسلامية، ص 50.

⁴ - ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 184؛ الجهشيار، نفس المصدر، ص 157؛ مؤلف مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ج 3، ص 276.

⁵ - Sourdel. D, *Op. Cit*, t I, p. 107.

⁶ - الجهشيار، نفس المصدر، ص 177؛ فاروق عمر، العباسيون الأوائل ج 2، ص 227.

⁷ - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 61؛ الكروي، نظام الوزارة في العصر العباسي الأول، الاسكندرية، 1989، ص 95.

⁸ - الجهشيار، نفس المصدر، ص 177؛ الكروي، نفس المرجع، ص 95؛ الدوري، العصر العباسي الأول، ص 123.

⁹ - الجهشيار، نفس المصدر، ص 177-178.

¹⁰ - Sourdel. D, *Ibid*, t I, p. 135-136.

¹¹ - الجهشيار، نفس المصدر، ص 204؛ الدوري، العصر العباسي الأول، ص 126.

¹² - الجهشيار، نفس المصدر، ص 207.

¹³ - الجهشيار، نفس المصدر، ص 211.

وكان الفضل بن سهل وزير المأمون وكان له دور أساسي في تدعيم صفّه وإيصاله إلى الحكم، وقاد المعركة السياسية والحرب ضدّ الأمين حتى سميّ بذي الرياستين، (السيف والقلم).¹ وكانت وزارته وزارة تفويض.² وقد نقش اسم الفضل على العملة في الشرق والغرب إلى جانب اسم الخليفة. فقد ضاهت سلطاته سلطة البرامكة، كما كان يشغل مهمة رئيس حرس قصر المأمون.³ وكان وراء بيعه المأمون لعلي الرضا ونقل الخلافة من الفرع العباسي إلى العلوي، فقد أبدى تحمسا للموضوع.⁴ كما أدخل التقاليد والماراسم الساسانية إلى البلاط العباسي.⁵ وكان عبد الملك بن الزيات وزير المعتصم وهو الذي يشرف على أعمال البناء في سامراء،⁶ ويهتم بنفقات المعتصم، ويتدخل حتى في نفقات أولاده ويشرف على تأديهم.⁷

كما كان ابن الفرات وزير الخليفة المقتدر، وقد لعب دورا كبيرا في تهدئة البلاد بعد فترة الاضطرابات التي سادت عقب فتنة ابن المعتز وتغلب المقتدر عليه وعودته إلى الخلافة من جديد، فقد قام بتدبير أمور الدولة في يوم واحد.⁸ واستأثر بالسلطة، فقد أعطى الأمان لكل من والى بن المعتز.⁹ وصار يقرب من يشاء ويبعد من يشاء من رجال البلاط فقد تطف في أمر الحسين بن حمدان وإبراهيم بن كيغلف حتى رضي عنهما المقتدر وولاهما الأعمال.¹⁰ كما أشار على الخليفة المقتدر في وزارته الثانية إبعاد القائد مؤنس المظفر إلى الرقة فأبعده المقتدر.¹¹ ومن المهام التي اضطلع بها بن الفرات كذلك النظر في المظالم وكان يجلس لها كل يومي اثنين وأحد ويساعده صاحب المظالم الذي يقدّم له الرقاع دون أن ينظر فيها، وكان يترك قسما منها لمعاونه ابن مقلّة.¹² وكان علي بن عيسى وزير المقتدر أيضا، وكان يشرف على تجهيز الجيش الإسلامي وتوجيهه ضدّ الخارجين عن طاعة السلطان.¹³ كما كان يجلس للمظالم كل يوم ثلاثاء لا يشاركه فيها أحد.¹⁴ فقد شارك الوزراء الخليفة في أحد مهامه الأساسية وهي النظر في المظالم.

ولم يقتصر دور الوزير على لعب دور سياسي أو إداري أو مالي، بل تجاوزه إلى أكثر من ذلك، فقد كانت تربط بين الخلفاء العباسيين ووزرائهم، علاقات ذات صبغة اجتماعية كالمؤاخاة، فقبل أن يستوزر المهدي وزيره

¹ - الجهشيارى، نفس المصدر، ص 305.

² - الجهشيارى، نفس المصدر، ص 306؛ الدوري، العصر العباسي الأول، ص 164.

³ - Sourdel. D, *Op. Cit*, t I, pp. 202- 203.

⁴ - الجهشيارى، نفس المصدر، ص 312- 313.

⁵ - الجهشيارى، نفس المصدر، ص 316.

⁶ - الجهشيارى، الوزراء والكتاب، (نصوص ضائعة جمعها من مصادر مخطوطة ومطبوعة وعلق عليها ميخائيل عواد)، بيروت 1964، ص 88.

⁷ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 47؛ ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 234؛ التتوخي، نشوار المحاضرة، ج 8، ص 19.

⁸ - ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 265.

⁹ - مسكويه، تجارب الأمم، ج 1، ص 13؛

- Sourdel. D, *Le Vizirat Abbasside*, p. 648.

¹⁰ - مسكويه، تجارب الأمم، ج 1، ص 14.

¹¹ - مسكويه، تجارب الأمم، ج 1، ص 116؛ الصائبي، الوزراء، ص 53.

¹² - Sourdel. D, *Op. Cit*, p. 644.

¹³ - مسكويه، تجارب الأمم، ج 1، ص 36.

¹⁴ - Sourdel. D, *Op. Cit*, p. 644.

يعقوب بن داود كتب كتابا بأنه " أخوه في الله "، ثم استوزره،¹ والأخوة سلوك متجذر في الثقافة العربية الإسلامية وتتجلى فيما عقده الرسول بين المهاجرين والأنصار من مؤاخاة، وقد عوضت هذه المؤاخاة الحلف في الجاهلية.² كما كان الرشيد يسمي جعفرًا " أخي ".³ ولا تؤدي المؤاخاة إلى حق الميراث.

وإلى جانب هذه المؤاخاة القائمة على العقود كانت تربط بين العباسيين والبرامكة علاقة أخوة متأية من الرضاة،⁴ فقد أرضعت الخيزران الفضل بن يحي وأرضعت أم الفضل الرشيد.⁵ فصارت أم الفضل بمثابة الأم بالنسبة لهارون، تقصده فلا يردّها خائبة، وصار يحي بمثابة الأب يناديه " يا أبت ".⁶

وتوطدت العلاقة الخاصة بالبرامكة بالخصوص في الصلة الحميمة التي كانت بين الخليفة الرشيد وجعفر البرمكي، فكان يدخله معه في ثوبه،⁷ وكان يلزمه في مجالسه الخاصة ويناديه ولا يفارقه، فقد أنزله بالخلد بالقرب من قصره.⁸ وقد توجس أبوه يحي من تلك العلاقة خيفة، وحذّره مرّات عديدة منها.⁹

وقد دفعت تلك العلاقة وموقف المؤرخين المعاصرين والقدامى منها، جوسلين دخلية إلى القول بوجود علاقة جنسية حقيقية بين جعفر وهارون الرشيد. وهو ما جعلها تطرح كذلك إشكالية اللواط في المجتمعات الإسلامية في تلك الفترة وحتى قبل ذلك التاريخ بكثير، على شاكلة الأمراء والأوساط الأرستقراطية في المجتمع الغربي المسيحي.¹⁰

ولم يتوقف الخلفاء العباسيون على مؤاخاة وزرائهم، بل صاهروهم كذلك. فقد تزوج المأمون من بوران بنت وزيره الحسن بن سهل.¹¹ وهو أول زواج سياسي في البلاط العباسي وهو يختلف عن الزواج القرابي الأكثر شيوعا بين العباسيين. كما ألح المأمون على أخيه الفضل بن سهل وكان وزيره أيضا كي يزوجه إحدى بناته لكنه رفض.¹²

وكان تعيين الوزير في البلاط العباسي يتم بمرسوم رسمي، وقد ابتدأ العمل به في عهد الخليفة المنصور عند استيزاره للربيع بن يونس، فقد طلب منه البقاء في داره، ثم أتاه رسول المنصور بخلع الوزارة وهي درّاعة وطيلسان وشاشية، فركب معه، ثم لما وصل إلى مجلس المنصور طرحت له مرفقة تحت البساط في حين طرحت

¹ - ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 184؛ الجهشيار، نفس المصدر، ص 155.

² - Conte. E, « Alliance et parenté élective en Arabie ancienne. Eléments d'une problématique », dans *L'Homme*, n 102, avril juin 1987, p. 130.

³ - الجهشيار، نفس المصدر، ص 204.

⁴ - Conte. E, « Alliance et parenté élective », *Ibid*, p. 128.

⁵ - الجهشيار، نفس المصدر، ص 151.

⁶ - الجهشيار، نفس المصدر، ص 177.

⁷ - الجهشيار، نفس المصدر، ص 204؛ الدوري، نفس المرجع، ص 125.

⁸ - الجهشيار، نفس المصدر، ص 189.

⁹ - الجهشيار، نفس المصدر، ص 224-225.

¹⁰ - Dakhliia. J, *L'empire des passions*, Flammarion 2005, p. 27.

¹¹ - الشابشتي، الديارات، ص 157-158.

¹² - الجهشيار، نفس المصدر، ص 307.

للمهدي وعيسى بن موسى مرفقتين ظاهرتين وذلك تقصيرا به عن منزلتهما.¹ فالوزير يحتل المرتبة الثانية في نظام المراسم بعد ولي العهد.

وقد تواصل ذلك المرسوم في العصر العباسي الثاني لكن مع بعض التغيير على مستوى الترتيب والتنظيم حيث أصبح أكثر أبهة، فكان إذا وقع اختيار الخليفة على شخص كي يوليه منصب الوزارة أرسل له أحد الأمراء كي يجبره بذلك كما جرى مع ابن الفرات، فقد أرسل له المقتدر في وزارته الأولى مع مؤنس الخادم، فركب معه الوزير إلى دار السلطان، ويمثل بين يدي الخليفة، الذي يعلمه بانتدابه لخطبة الوزارة، ثم في الغد يخلع عليه الخليفة خلع الوزارة، ويخرج الوزير في موكب وبين يديه الحجاب والأمراء والقواد والغلمان، ويتوجه إلى " دار الوزارة " في المخرم والتي كانت لسليمان بن وهب.² فقد أصبح للوزير في العصر العباسي الثاني مقرا يمارس في عمله. ثم ترد عليه الهدايا من الخليفة والسيدة وتمثل في المال والثياب والطيب والطعام والأشربة والثلج.³ وكان للوزير حراسا يقفون أمام دار الوزارة.⁴ وكان الوزير، يذهب إلى دار الوزارة كل صباح ويعمل فيها إلى آخر صلاة العشاء ثم يذهب إلى داره.⁵

وكان الرسم أن يحضر الوزير، مجلس الخليفة ومعه دواة لطيفة بسلسلة ودرج ومطينة فيها أساحي وطين، فإن أمره الخليفة بكتابة شيء في حضرته علق الدواة في يده اليسرى، وكتب بيده اليمنى؛ وقد ظل الرسم على ذلك إلى عهد الخليفة المقتدر، الذي لاحظ مشقة ذلك على الوزير علي بن عيسى وهو يكتب بين يديه، فأمر أن يقف بعض الخدم فيمسك الدواة إلى أن يفرغ الوزير من الكتابة، وكان علي بن عيسى أول من كرم بذلك ثم صار رسما للوزراء من بعده.⁶

ولم يكن الوزير يذهب إلى دار الخلافة إلا يوم الأربعاء وكان له موضع يجلس فيه قبل وصوله إلى الخليفة.⁷ أو كذلك في المواكب، وكان يلبس السواد، ويؤذن له للدخول على الخليفة بعد ولي العهد، ويقف على يمين سرير الخليفة.⁸

نلاحظ أن منصب الوزير يأتي في المرتبة الثانية بعد منصب ولي العهد، وذلك حتى سنة 324 هـ / 936 م وإحداث الراضي لمنصب أمير الأمراء، الذي علت مرتبته مرتبة الوزير.⁹ وأصبح ينظر في الدواوين والأعمال

1- الجهشباري، نفس المصدر، ص 125؛ الكروي، نفس المرجع، ص 239.

2- الصابي، الوزراء، ص 28؛ المخرم، تقع في بغداد على شاطئ دجلة كانت لسليمان بن وهب وزير المهدي. انظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 105-106.

3- الصابي، الوزراء، ص 36.

4- Sourdel. D, *Op.Cit*, p. 688.

5- مسكويه، تجارب الأمم، ج 1، ص 27.

6- الصابي، رسوم، ص 66-68.

7- الصابي، الوزراء، ص 34.

8- مسكويه، نفس المصدر، ج 1، ص 59؛ الصابي، رسوم، ص 79.

9- مسكويه، نفس المصدر، ج 1، ص 351.

ولم يبق للوزير غير اسم الوزارة، وأول من تقلدها ابن رائق الذي لم يسلب الوزير فقط سلطانه بل شارك الخليفة في بعض امتيازاته كالخطبة والسكة والطرز.¹

وكان الخلفاء العباسيون يجرون على وزرائهم الأرزاق، ولم نثر في المصادر على راتب الوزراء في العهد العباسي الأول، أما في عهد الخليفة المعتضد فيذكر الصائبي أن جاري الوزير عبيد الله بن سليمان كان ألف دينار في الشهر.² وقد ارتفع دخل الوزير في عهد الخليفة المقتدر، فكان جاري بن الفرات خمسة آلاف دينار شهريا.³ ولم يقتصر دخل الوزراء على الراتب الشهري بل منحهم كذلك الضياع، وكانت تدر عليهم ربحا سنويا قدر سنة 306 هـ / 918 م بـ (1.100.000 دينار)،⁴ إلى درجة أن ابن الفرات في وزارته الثانية تنازل عن راتب الوزارة ولم يأخذه.⁵

وعموما كان منصب الوزير يدر على صاحبه أموالا طائلة، سواء في العصر العباسي الأول أو الثاني لذلك كثيرا ما تقع مصادرهم عند إنهاء مهامهم. ويذكر أن ما أخذ من ابن الفرات في نكته الأولى لم يؤخذ من أحد من الوزراء قبله ولا بعده وقد قدر بـ (1.600.000 دينار) عينا سوى الأثاث والرحل والكراع والجمال.⁶ نلاحظ أنه رغم اتساع السلطات التي تمتع بها بعض الوزراء، فإن الخليفة يستطيع سحبها منهم متى أراد، ويرتبط ذلك بمدى الانفراد بالسلطة وممارستها بصفة شخصية من قبل الخليفة ووجود هيئات أخرى ودورها، في التأثير على الخليفة أي دور الوشاية والسعائيات.

كذلك ولئن تعددت مهام الوزير فإنه يبقى كاتباً بالدرجة الأولى، ورغم أن سلطاتهم كانت عامة على الدواوين فإن هذا لم يمنع من وجود كتاب من غير الوزراء، لكن عددهم يبقى محدودا، مثال بنو فحيك اللذين كانوا على ديوان الخاتم في عهد المنصور.⁷ فقد عوضت وظيفة الوزير وظيفه الكاتب في عهد بني أمية. وكان الخلفاء العباسيون يختارون وزراءهم من فئة الكتاب أو في حالات نادرة من الحجاب.

1- مسكويه، نفس المصدر، ج 1، ص 352.

2- الصائبي، الوزراء، ص 25.

3- الصائبي، الوزراء، ص 285.

4- مسكويه، نفس المصدر، ج 1، ص 64.

5- الصائبي، الوزراء، ص 37.

6- الصائبي، الوزراء، ص 34-35.

7- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 89؛ أسماء عمارة، البلاط العباسي، ص 192.

اتخذ الخلفاء العباسيون الحجاب، وقد تأثروا في ذلك بالأمويين، اللذين قلّدوا بدورهم الفرس والبيزنطيين، فمعلوم أن معاوية بن أبي سفيان هو أول من اتخذ الحجاب في الإسلام.¹ فلم يتخذ الرسول والخلفاء الراشدون الحجاب حيث كان عمر بن الخطاب يشترط على عمّاله إذا عيّنهم أن لا يتخذوا الحجاب.² وقد أحصينا 77 حاجبا لدى الخلفاء العباسيين من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المستكفي، من اللذين تتعلق أعمالهم بخدمة الخليفة. هذا فضلا عن الحجاب الآخرين الموزعين في أروقة ودور دار الخلافة واللذين بلغ عددهم في عهد الخليفة المقتدر سبعمئة حاجب.³ ونستنتج من خلال هذه القائمة أن جميع حجاب الخلفاء العباسيين هم من الموالي، عدا حاجبا عربيا واحدا اتخذته الخليفة المأمون وهو عبد الحميد بن شبيب بن حميد بن قحطبة الطائي، وابتداء من عهد الخليفة المعتصم فإن أغلب الحجاب هم من الترك. وكان الحاجب يعين من موالي الخليفة الأكثر اكتمالا وتعقلا ورصانة وحسن أداء، لذلك فيكون إما كهلا أحكمته الأمور وحنكته حسب تعبير الصابي، أو شيخا متماسكا قد عجمته الدّمور وعركته.⁴ ولم تقتصر شروط اختيار الحاجب على الأمور السابقة، بل يجب كذلك أن يكون طويلا وجسيما ليكون ذا هيبة.⁵ وكان الحاجب من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المستكفي مسؤولا عن الرسوم المتبعة في دار الخلافة، فكان يدخل على الخليفة الزائرين وأفراد حاشيته حسب مراتبهم، وله في هذا السياق نفوذ عظيم فكان يمنع حتى على أولاد الخليفة الدخول على آبائهم في أوقات غير مسموح فيها الدخول عليهم. مثال حاجب المأمون الذي منع بعض أولاده من الدخول عليه بلا استئذان، وإيتاخ حاجب المعتصم الذي نهر أحد أولاده عندما رآه واقفا في مكان غير مسموح الوقوف عنده.⁶

¹ - Lambton. A. K.S, sv « Hadjib », *E.I 2*, t III, p. 47 ; Bréhier. L, *Les institutions de l'empire byzantin*, Paris 1970, t I, p. 85 ;

- بن حسين (بثينة)، الدولة الأموية، ص 231؛ كريستنسن (أرثر)، إيران في عهد الساسانيين، القاهرة 1998، ص 125-337.

² - الجاحظ، رسائل الجاحظ، القاهرة 1979، ج 2، ص 30-31.

³ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 101.

⁴ - الصابي، رسوم، ص 71.

⁵ - ابن أبي الربيع، سلوك المالك، ص 198.

⁶ - الثعلبي، أخلاق الملوك، ص 140.

كما يحجب عن الخليفة العامة فيغلق الباب دونهم أو يفتح لهم.¹ لاسيما وأن الخليفة في العصر العباسي صارت له داران دار الخاصة ودار العامة.

كذلك هو مسؤول عن ترتيب أفراد الحاشية فيما يتولونه من أعمال، فلا يُجاوز كل منهم حدّه ولا يُحمّله ما لا طاقة له، ويراعيهام مراعاة تدعوهم إلى التحرز في أفعالهم والتحفظ في أعمالهم ومداومة الخدمة بدون إخلال وملازمة الحشمة بدون استرسال.²

وقد تطورت وظيفة الحجابة في البلاط العباسي فقد ابتدأت مراتبها بالحاجب، والذي أصبح يمثل في بداية القرن الرابع هجري مرتبة وسط بين مرتبة خلفاء الحجاب، ومرتبة حاجب الحجاب التي أحدثها الخليفة المتقي في سنة 329 هـ / 941 م عندما خلع على بدر الخرشني الحجابة وجعله حاجب الحجاب أي كبير الحجاب، ومهمته ترتيب الناس يوم الموكب حيث يقفون في صفين متناظرين ويبقى الوسط فارغا حتى يقع الإذن العام.³ ولم يكن دور الحاجب في البلاط العباسي يقتصر فقط على الحجب وترتيب الزائرين، بل كان يؤدي أدوارا أخرى أكثر أهمية، فالربيع الحاجب هو الذي أخذ البيعة للمهدي إثر وفاة المنصور وقد عيّنه حاجبا دون أن يستوزره.⁴ كما عيّنه نائبا عنه في البلاط عندما خرج إلى ماسبذان.⁵ فالحاجب ينوب عن الخليفة في عاصمة الخلافة.

كذلك من مهام الحاجب حماية شخص الخليفة ولذلك فهو كان يحمل السلاح.⁶ وهذه المهمة تشبه مهمة الشرطة والحرس. فقد كان الحاجب يؤدي أحيانا أدوارا أخرى في البلاط تدخل في الاختصاص الوظيفي لصاحب الشرطة، وتتمثل في تنفيذ العقوبات، فقد اشترك أبو الخصيب الحاجب في قتل أبي مسلم بأمر الخليفة المنصور.⁷ كما حبس الخليفة المهدي عبد الله بن سليمان والي اليمن لما عزله وأراد مصادرته لدى الربيع الحاجب.⁸ أما الخليفة المعتصم فقد استخدم وصيف في قتل وسجن بعض الأشخاص مثل المأمون بن سندس وصالح بن عجيف.⁹ كان الحاجب في البلاط العباسي يقوم بتنفيذ بعض العقوبات كالحبس والقتل. كما استبد الحاجب محمد بن ياقوت في عهدي الخليفة القاهر والراضي بعمل الوزراء، وصار يلزم أصحاب الدواوين بالرجوع إليه في كل الأمور بما في ذلك جباية الأموال.¹⁰

1- ابن خلدون، المقدمة، ص 273.

2- الصابئي، رسوم، ص 71.

3- الصابئي، نفس المصدر، ص 78؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 3، ص 272.

4- ابن الطقطقي، الفخري، ص 174.

5- ابن تغري بردي، نفس المصدر، ج 2، ص 58.

6- ابن الساعي، تاريخ الخلفاء العباسيين، ص 21.

7- الكوفي، الفتوح، ج 8، ص 227.

8- الطبري، تاريخ، ص 1624.

9- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 5، ص 282.

10- مسكويه، تجارب الأمم، ج 1، ص 318.

كما صار الحجاب يؤثر في العلاقة بين الخلفاء العباسيين والحاوية. فقد عمل الربيع على نكبة الوزير أبي عبيد الله معاوية بن يسار.¹ ولعب في المقابل دورا كبيرا في استئثار المهدي ليعقوب بن داود.² كما لعب ابنه الفضل بن الربيع في عهد الرشيد الدور الأكبر في نكبة البرامكة.³ كان الحجاب مقربا من الخليفة العباسي. ولم يكن الخليفة العباسي يتخذ حجابا واحدا بل عديد الحجاب وهو ما يبرزه لنا الجدول والرسمين التاليين. فقد أحصينا تسعة حجاب بالنسبة للخليفة المتوكل وستة بالنسبة للخليفة المأمون، وخمسة بالنسبة لكل من الخليفة المهدي والمهتدي والمعتمد والمقتدر والقاهر، واتخذ كل من الواثق والمستعين والمتقي أربعة حجاب، أما الرشيد والمعتز والمعتض فقد اتخذوا ثلاثة حجاب. لكن من الخلفاء من اكتفى بحجاب واحد أو اثنين مثل السفاح والأمين والمستكفي ويرتبط ذلك بقصر مدة حكمهم.

أما خلفاء الحجاب فكانوا في البلاط بأعداد كبيرة. فقد بلغ عددهم في عهد الخليفة المعتضد 25 رجلا يتناوبون في خدمته، خمسة بصفة قارة وعشرون مقسمون على نوبات محددة.⁴ أما في عهد الخليفة المقتدر قد بلغ عددهم سبعمائة حجاب.⁵

* تولية الحجاب لدى الخلفاء العباسيين

الخليفة	السفاح	النصور	المهدي	الهادي	الرشيد	الأمين	المأمون	المعتصم	الواثق	المتوكل	المنتصر
عدد الحجاب	1	4	5	1	3	1	6	3	4	9	2
النسبة المئوية	1.29 %	5.19 %	6.49 %	1.29 %	3.89 %	1.29 %	7.79 %	3.89 %	5.19 %	11.68 %	2.59 %

المستعين	المعتز	المهتدي	المعتمد	المعتضد	المكتفي	المقتدر	القاهر	الراضي	المتقي	المستكفي	المجموع
4	3	5	5	3	1	5	5	2	4	1	77
5.19 %	3.89 %	6.49 %	6.49 %	3.89 %	1.29 %	6.49 %	6.49 %	2.59 %	5.19 %	1.29 %	100 %

¹ - ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 181-182؛ الجهشيري، المصدر السابق، ص 154.

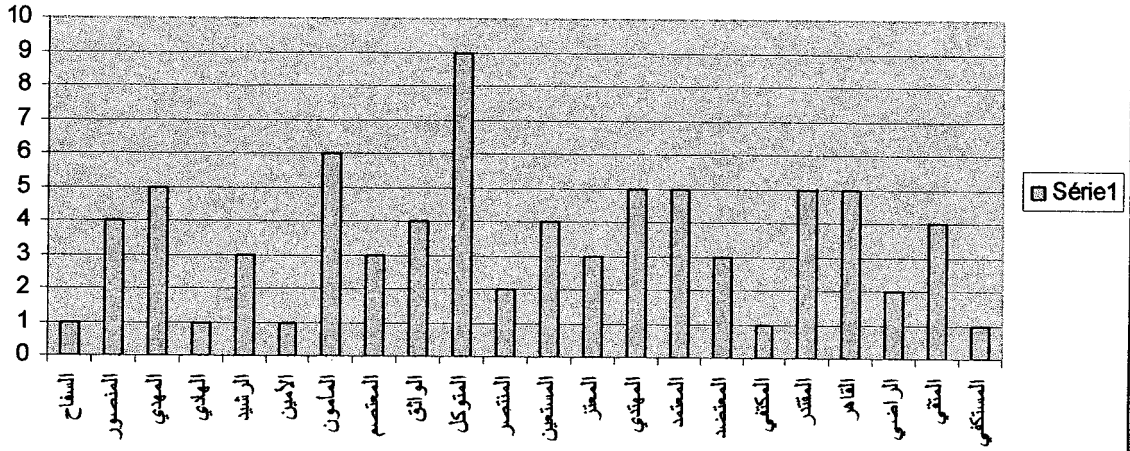
² - ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 184.

³ - ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 209؛ ابن خلكان، وفیات الأعيان، ج 2، ص 235.

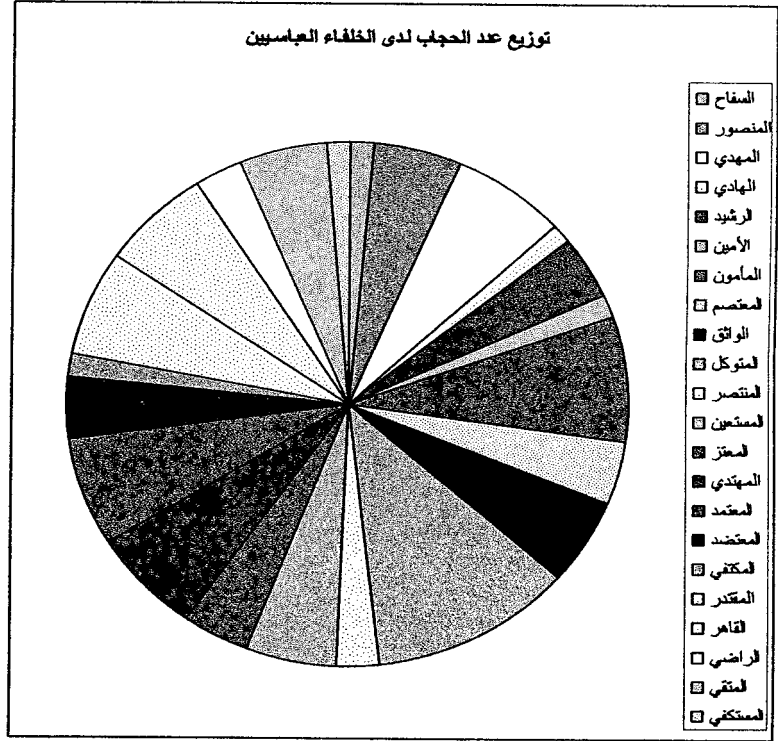
⁴ - الصابي، الوزراء، ص 16.

⁵ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 101.

توزيع عدد الحجاب لدى الخلفاء العباسيين



توزيع عدد الحجاب لدى الخلفاء العباسيين

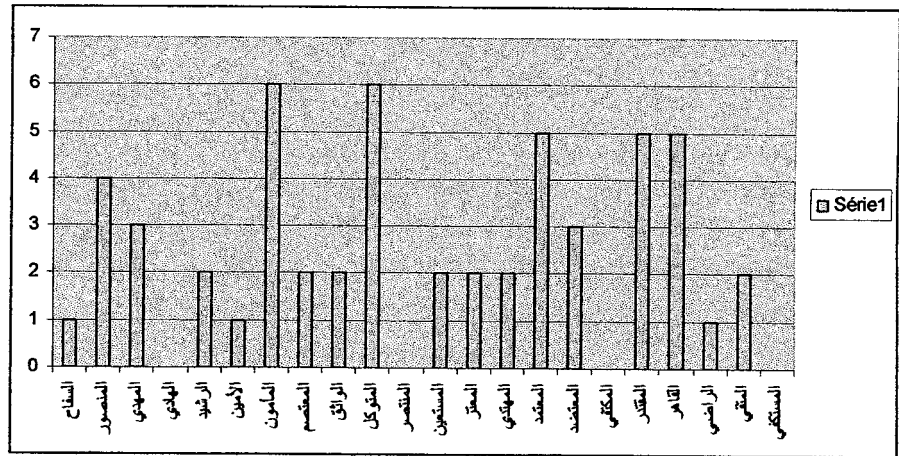


وقد اتخذ الخلفاء العباسيون أكثر من حاجب، كما استخدموا سياسة التجديد في تولية الحجاب (أي تعيين حجاب جدد لم يتولوا من قبل)، وهو ما نلاحظه من خلال استقراء الجداول والرسوم الخاصة بالتجديد. وقد تم استخدامها في عهود كل الخلفاء العباسيين باستثناء عهد الخليفة الهادي والمكتفي والمستكفي، وقد بلغ تطبيق هذه السياسة أوجه في عهد الخليفة المأمون والمتوكل، فقد كان كل من قام بتعيينه المأمون يتقلد الحجابة لأول مرة وهو ما نلاحظه من خلال جداول الموظفين ويرتبط ذلك بالظروف الأمنية فقد وصل المأمون للخلافة بعد التراع بينه وبين أخيه الأمين، فكان من الطبيعي أن يقتصر التعيين على أشخاص جدد ينتمون بالولاء للخليفة المأمون .

* سياسة تجديد الحجاب لدى الخلفاء العباسيين

الخليفة	السفاح	النصور	المهدي	الهادي	الرشيد	الأمين	المأمون	المعتصم	الواثق	المتوكل	المنتصر
عدد الحجاب الجدد	1	4	3	0	2	1	6	2	2	6	0
النسبة المئوية	1.85 %	7.40 %	5.55 %	-	3.70 %	1.85 %	11.11 %	3.70 %	3.70 %	11.11 %	-

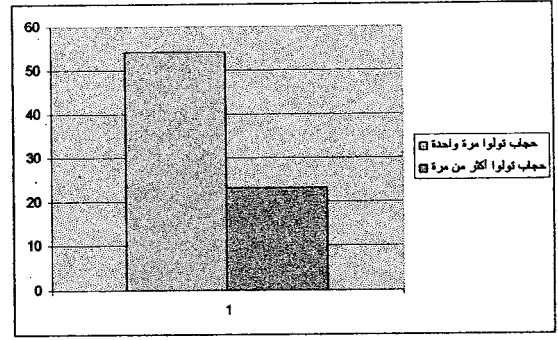
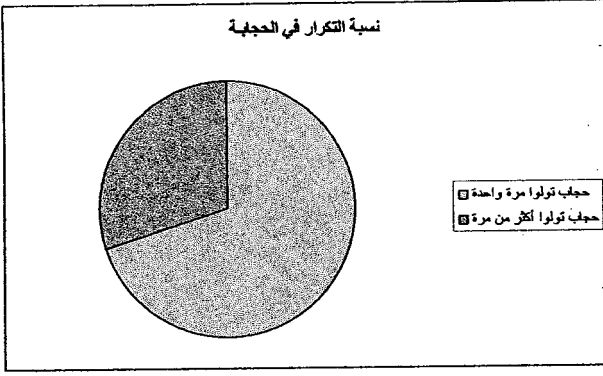
المستعين	المعتز	المهتدي	المعتد	المعتضد	المكتفي	المقتدر	القاهر	الراضي	المتقي	المستكفي	المجموع
2	2	2	5	3	0	5	5	1	2	0	54
3.70 %	3.70 %	3.70 %	9.25 %	5.55 %		9.25 %	9.25 %	1.85 %	3.70 %	-	100 %



وهذا التطبيق الواسع لسياسة التجديد في تولية الحجاب يتضح أكثر، إذا ما تمت مقارنته بسياسة استخدام أشخاص تولوا منصب حاجب قبل ذلك، حيث نجد أن سياسة التجديد قد طبقت بمعدل يفوق النصف وهو ما نلاحظه في الجدول والرسمين التاليين .

* نسبة التكرار في خطة الحجابة في البلاط العباسي

النوع	حجاب تولوا مرة واحدة	حجاب تولوا أكثر من مرة	المجموع
عدد الحجاب	54	23	77
النسبة المئوية	70.12 %	29.87 %	100 %



وهذا المعدل الكبير، إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على غلبة استخدام سياسة تحديد الحجاب لدى الخلفاء العباسيين، مما يدلّ بالتالي على أن الخلفاء العباسيين كانوا يقومون بإتاحة الفرصة لعناصر جديدة لتولي خطة الحجابة.

لكن ذلك لا يمنع من استخدام حجاب قدامى عينوا من قبل لدى خلفاء آخرين، مثل الربيع عيّن لدى المنصور والمهدي، كما عيّن ابنه الفضل بن الربيع أيضاً لدى المنصور والمهدي والهادي والرشيد، وعيّن وصيف لدى المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمهتدي، ومحمد بن ياقوت عيّن لدى القاهر والراضي. أو قد يبقى الحجاب في وظيفته رغم تبدل الخليفة. ويعود ذلك إلى خبرة وكفاءة هؤلاء الحجاب وهو ما يفسر استخدامهم أكثر من مرة.

ويمكن تفسير ذلك أيضاً بإرادة أولئك الخلفاء تطبيق ما يمكن أن نسميه بنظام "التجربة الوظيفية" فيما يتعلق بالحجابة، كما هو الشأن بالنسبة للوزارة والكتابة، لا سيما وإن أثبت أولئك الحجاب كفاءة كبيرة مما يسمح ببقائهم في منصبهم لمدة أطول.

كما استخدم الخلفاء العباسيون أيضاً سياسة التوريث الوظيفي لخطة الحجابة، حيث نلاحظ وجود عائلات توالى على الحجابة في البلاط العباسي، مثل عائلة الربيع بن يونس، فقد أهدي إلى المنصور في جملة خمسين غلاماً، فاتخذ في البداية صاحب وضوءه ثم قرر تقليده حجابته، فجعله في البداية مع أبي الخصب حاجبه ثم لما توفي أبو الخصب صيّره مكانه.¹ فحجب للمنصور ثم للمهدي، وحجب ابنه الفضل للمنصور والمهدي أيضاً وكذلك للهادي والرشيد، وحجب العباس ابن ابنه الفضل للأمين، فالعباس هو حاجب بن حاجب بن حاجب، وقيل أنه لم ير في الحجابة أعرق من الربيع وعائلته.² كما حجب وصيف مثلما أشرنا للمعتصم، والواثق والمتوكل والمنتصر والمهتدي، وحجب ابنه صالح بن وصيف للمعتز والمهتدي. وحجب بغا للمتوكل والمنتصر والمستعين، وحجب ابنه موسى للمستعين والمعتز والمهتدي، وحجب ابنه يوسف بن بغا للمعتد.

أما سياسة إثناء صاحب وظيفة الحجابة في البلاط العباسي فتتمثل في إما الوفاة حيث يقع تعويضه بغيره، فلما توفي أبا الخصب جعل المنصور مكانه الربيع، ولما توفي محمد بن عاصم جعل المتوكل مكانه يعقوب قوصرة بن

¹ - البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 283-284.

² - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 8، ص 414.

إبراهيم، فلما مات جعل مكانه المرزبان.¹ أو القتل ولم يكن منتشرًا بكثرة في صفوف الحجاب فقد ذكرت لنا المصادر حاجب واحد وقع قتله وهو علي بن يلق في عهد الخليفة القاهر. أو العزل عن المنصب والسجن وقد طبق مع محمد بن ياقوت في عهد الخليفة الراضي وذلك لاستبداده بالأمر وسوء استخدامه للسلطة الممنوحة له.² أو الصرف عن الوظيفة لتولي خليفة جديد وبداية عهد جديد، فيقوم الخليفة بصرف الحاجب عن منصبه باعتباره من رجال سلفه، وبالنظر إلى جداول الموظفين يتضح وجود عديد الحالات من هذا النوع.

وبالإضافة إلى هذه الطرق التي تمثل إنهاء سلبيا لوظيفة الحجابة، هناك طريقة أخرى تمثل إنهاء إيجابيا وتمثل في الترقية. فقد جعل المنصور الربيع وزيرا له بعد أن عزل وزيره أبا أيوب المورياني.³ كما عين الرشيد ابنه الفضل بن الربيع وزيرا بعد أن كان حاجبا له بعد أن نكب البرامكة.⁴ ومن ذلك أيضا أن بغا أصبح واليا على حلوان وماسبذان ومهران في عهد الخليفة المستعين.⁵

وبالإضافة إلى الترقية، فقد منح الخلفاء العباسيون القطائع والأموال لحجابه. فقد أقطع المنصور حاجبه عيسى بن روضة قطيعة مع غلمان الحجابة في الأطراف الشمالية خارج المدينة المدورة.⁶ وأقطع المعتصم وصيفا وأصحابه مما يلي الحير، كما كان لإيتاخ قطيعة تعرف بقطيعة إيتاخ في سامراء.⁷ وكان أيضا لنصر القشوري حاجب المقتدر دار تنسب إليه، وقد مرّ بها رسول ملك الروم قبل وصوله إلى الخليفة المقتدر، والملاحظ أن ما رآه الرسول في هذه الدار جعله يظن أنه وصل إلى حضرة الخليفة.⁸

كما استغل الحجاب قريهم من الخلفاء للإثراء عن طريق أخذ الرشاوي، فقد ضمن الربيع الوزارة ليعقوب بن داود مقابل مبلغ من المال قدره مائة ألف دينار.⁹ ومنح الخليفة المستعين وصيف صلة قدرت بمليون درهم، ومثلها لبغا وأوتامش.¹⁰ أما في عهد الخليفة المعتضد فقد خصص للحجاب راتبا شهريا قدر بستين ألف دينار شهريا مع العلم أن شهرهم مدته ستون يوما، أي في كل يوم ألف دينار.¹¹

نستنتج أن الخلفاء العباسيين اتخذوا الحجاب على شاكلة الملوك الفرس والأباطرة البيزنطيين من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المستكفي. وقد مكّنهم الأمويون من تبني هذا المظهر من مظاهر الملك وتطويره فأحدثوا مرتبة جديدة في الحجابة وهي حاجب الحجاب. ولم يعد دور الحاجب في البلاط العباسي يقتصر فقط على إدخال الزائرين على الخليفة بل أصبح يتدخل في شؤون الخلافة ويقوم بتنفيذ بعض العقوبات

¹ - ابن حبيب، المحبر، ص 260.

² - مسكويه، نفس المصدر، ج 1، ص 318.

³ - الأربلي، خلاصة الذهب، ص 61.

⁴ - ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 210.

⁵ - ابن الجوزي، المنتظم، ج 12، ص 8.

⁶ - اليعقوبي، البلدان، ص 17؛ العلي (صالح أحمد)، بغداد مدينة السلام، ج 1، ص 198.

⁷ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 24-27.

⁸ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 100.

⁹ - ابن الطقطقي، نفس المصدر، ص 184.

¹⁰ - ابن الجوزي، نفس المصدر، ج 12، ص 8.

¹¹ - الصابئ، الوزراء، ص 16.

كالقتل والسجن، وقد استطاع البعض منهم الوصول إلى رتبة الوزارة. وقد اتخذ العباسيون الحجاب كي يأذنوا للناس حتى يدخلوا مجلسهم وكي يحرسوهم أيضا، فصار دورهم يشبه دور الحرس.

3- الحرس

إن الحرس هم المسؤولون عن حراسة الخليفة، في مجالسه وقصوره وفي تنقلاته المختلفة. ومعلوم أن أول من اتخذ الحرس في الإسلام معاوية بن أبي سفيان. وقد تشبه في ذلك بالملوك الساسانيين والأباطرة البيزنطيين.¹ وقد اقتدت الخلفاء به من بعده.

وكان صاحب الحرس في العصر العباسي يعدّ من خاصة الخليفة وثقاته، ويُبين ذلك أنه لم يكن حول قصر المنصور في بغداد بناء ولا دار ولا مسكن لأحد، إلّا دارا من ناحية الشام للحرس وسقيفة كبيرة ممتدة على عمد مبنية بالآجر والجص يجلس في إحدهما صاحب الشرطة وفي الأخرى صاحب الحرس.² فدار الحرس هي واحدة من اثنتين كانتا حول قصر المنصور والأخرى سقيفة لصاحب الشرطة. كما ذكر اليعقوبي في وصفه لسكك بغداد سكة للحرس بين باب البصرة وباب خراسان.³ أي أن الحرس كانوا يحرسون الخليفة في تنقلاته داخل قصره أو في المناطق القريبة منه داخل المدينة المدورة.

كما كان الحرس يقومون بحراسة الخليفة الرشيد عندما كان يجلس في مجالسه، وكانوا يقفون بين يديه سمطين وأعمدتهم بأيديهم،⁴ جامدين لا يحركهم شيء فقط مخارق المغني كان إذا غنّى فإنه يستطيع إخراجهم من جمودهم.⁵ لذلك فقد شبههم البعض بالحرس الملكي بأثينا أو اسطنبول.⁶ فدور الحرس مرتبط بحراسة شخص الخليفة بمجلسه، وكذلك في بعض تنقلاته. فقد كان الخليفة الرشيد مرافقا بالحرس عند ذهابه لجنّازة العباس بن محمد بن خالد بن برمك، وتمثلت أسلحتهم في الحراب.⁷ نستنتج أن الحرس كانوا يحرسون الخلفاء العباسيين في القصر أو البلاط الملكي وكذلك في الموكب، فكانوا من المقربين من الخلفاء العباسيين.

كما كانوا يقومون بتنفيذ بعض العقوبات، مثال فقد قتل أبي مسلم الخراساني على يد أربعة رجال من الحرس وبقيادة صاحب الحرس عثمان بن هنيك وذلك بتدبير من الخليفة المنصور.⁸ فدورهم هنا يشبه دور صاحب

1- اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص 26؛ الثعلبي، نفس المصدر، ص 87؛ بن حسين (بثينة)، الدولة الأموية، ص 87.

2- اليعقوبي، نفس المصدر، ص 9.

3- اليعقوبي، نفس المصدر، ص 9.

4- الأصفهاني، الأغاني، ج 18، ص 154.

5- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 18، ص 250.

6- ضناوي، موسوعة هارون الرشيد، ج 1، ص 97.

7- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 16، ص 165.

8- الأربلي، نفس المصدر، ص 65-66.

الشرطة. لكن تختص الشرطة بضمان الأمن، في حين ينحصر دور الحرس في حماية الخليفة أو الأمير.¹ كما أن أسلحتهم بسيطة تتمثل في الحراب والأعمدة.

وقد وفرت لنا المصادر معلومات حول أصحاب حرس الخلفاء العباسيين ونستنتج من خلال هذه القائمة الخاصة بالموظفين، أن الخلفاء العباسيين اتخذوا حرسهم من جميع الأجناس: فمن أصحاب حرس الخلفاء العباسيين من كان ينتمي إلى قبائل عربية لاسيما في العصر العباسي الأول، مثل أسد بن عبد الله بن مالك الخزاعي صاحب حرس أبي العباس السفاح، وعبد الله بن مالك الخزاعي صاحب حرس الرشيد، وشبيب بن حميد بن قحطبة الطائي صاحب حرس المأمون. ومنهم من ينتمي إلى الفرس، مثل جعفر بن يحيى صاحب حرس الرشيد أيضا، بالإضافة إلى المماليك الترك واللذين تكاثروا في البلاط منذ عهد الخليفة المعتصم ومن جاء بعده من الخلفاء لاسيما الخليفة المعتضد الذي عمل على اقتناء الكثير منهم،² ونذكر من بينهم الافشين في عهد الخليفة المعتصم، ومحمد بن الشاد بن ميكال في عهد الخليفة المعتضد.³ هذا دون أن ننسى كذلك الموالي. ويعود استخدام الموالي لأمانتهم وإخلاصهم للخليفة.

ولم تذكر لنا المصادر على أي أساس تم تعيين هؤلاء الأشخاص على قيادة الحرس لدى الخلفاء العباسيين لكن وردت إشارات إلى بعض الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها فقد ذكرت لنا أن أبا العباس الطوسي خدم لدى الخليفة المنصور والمهدي (انظر الجدول) وأن أسد بن عبد الله بن مالك الخزاعي كان على الحرس والخاتم لدى الخليفة أبي العباس السفاح، وكذلك عثمان بن نهيك وأبا العباس الطوسي فقد كانا على الحرس والخاتم لدى الخليفة المنصور، وعلى هذا الأساس نستنتج أن هؤلاء الأشخاص ربما كانوا ذوي مقدرة إدارية وسياسية وعسكرية دفعت الخلفاء إلى جمع وتكليفهم بمهمتين. كما يعود الاستخدام المكثف للموالي والفرس والترك في حرس الخلفاء العباسيين إلى اكتساب هؤلاء العجم لتجربة طويلة في البرتوكول والمواكب.

وبالإضافة إلى هؤلاء الأشخاص الذين تولوا قيادة الحرس لدى الخلفاء العباسيين، هناك الحراس الغلمان الذين يقفون في السماط من وراء حبل في المجالس.⁴ بالإضافة إلى حراس آخرين موزعين ومرتبين ترتيبا دقيقا على مختلف الدور والأبواب في دار الخلافة، وقد بلغ عددهم في عهد الخليفة المقتدر أربعمئة حارس. لكن الصابي لم يذكر هل ارتفع عدد الحراس من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المقتدر. أم إن عددهم بقي على حاله منذ عهد الخليفة السفاح. وكانوا مرسومين بحفظ الدار على نوبات وفترات محددة.⁵ وهؤلاء هم حرس النوبة.

¹ - الدوري (عبد العزيز)، " المؤسسات العامة في المدينة الإسلامية نظرة تاريخية إلى بغداد"، أبحاث، ج 27، ص

1978، ص 6.

² - الصابي، الوزراء، ص 21.

³ - الطبري، تاريخ، ص 2111.

⁴ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 18، ص 250.

⁵ - الصابي، رسوم، ص 8.

كما ورد في المصادر إشارة إلى صنف آخر من الحرس وهم الغلمان الحجرية، وهم من المماليك اشتراهم الخليفة المعتضد، وسمّوا بذلك لأنهم مرتبون على الإقامة في القصر والحجر، وتحت مراعاة خدم يعرفون بالأستاذين ومنعهم من الخروج والركوب إلا مع خلفاء الأستاذين.¹ فاستمهم نابع من سكناهم في حجرات خاصة في قصر الخليفة المعتضد وكانت مهمتهم في البداية حراسة الخليفة وحمايته والركوب معه.² فعملهم مرتبط في البداية بحراسة شخص الخليفة، لكن سيتحولون فيما بعد إلى فرقة كبرى من الفرسان سيكون لها شأن كبير في الجيش العباسي، وسيكون أول ظهور لها في حملة سنة 287/900.³

وقد ورد ذكرهم في مناسبة استقبال الخليفة المقتدر لسفير ملك الروم وهم ألوف كثيرة ويميزون في مرة أولى عن الخدم الخصيان، ثم يذكرون في مرة ثانية بعد الجند المصطفين خارج دار الخلافة، وقبل الخدم الخواص الدارية والبرّانية المتصل وجودهم بحضرة الخليفة. ثم يذكرون في مرة ثالثة في "الصحن التسعيني"، الذي تم الوصول إليه بعد الطواف بـ 23 قصرا، وقبل الدخول إلى دار السلام وهم يحملون السلاح، وتمثلت أسلحتهم في الشيوخ والطبرزيات والأعمدة.⁴

كذلك الغلمان السودان وأكثرهم ممالك الموفق اشتراهم من مكة ومصر ومنهم الزنج، وهم منفردون لا يختلطون بالبيض وكان رسمهم أن يصطفوا بين مصاف باب الخاصة وحوالي القصر،⁵ أما في المناسبات الخاصة مثل مناسبة استقبال الخليفة المقتدر لسفير ملك الروم فقد جعلوا على سطوح الدار و في العلامي وعددهم أربعة آلاف.⁶

والغلمان الخاصة الذين أعتقهم الموفق، وقد نقلهم المعتضد إلى جملة الأحرار. وكانوا يحرصونه في تنقلاته البعيدة أو القرية، أي في الموكب.⁷ هذا فضلا عن الحرس المختارين الذين ظهرُوا في عهد الخليفة المعتضد وهم من مجموعة المماليك انتخبهم من كل قيادة من المماليك الناصرية والبغائية والمسروورية والبكجورية واليانسية والمفلحية. وقد عرفوا بالشهامة والشجاعة، واختصهم لمواكبه وبجالسهم. ولم يرد ذكرهم داخل الدار في مناسبة استقبال الخليفة المقتدر لرسول ملك الروم. فهم مرتبطون بحراسة شخص الخليفة بيلاطه أو في الموكب، وليس لهم أي رسم في الدار، على غرار الغلمان الحجرية والسودان.

وكان الخلفاء العباسيون يجرّون على هؤلاء الحراس أرزاق. ولم تذكر المصادر ماهي قيمة هذه الأرزاق في العصر العباسي الأول، أما في عهد الخليفة المعتضد فقد خصص للغلمان الخاصة جاريا يوميا قدره ألف دينار،

¹ - الصابئي، الوزراء، ص 17.

² - فاروق عمر، النظم الإسلامية، ص 183.

³ - Kennedy. H, *The armies of the caliphs, military and society in the early islamic state*, London and New York 2001, p. 157.

⁴ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 100-102-104.

⁵ - الصابئي، الوزراء، ص 16.

⁶ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 101.

⁷ - الصابئي، الوزراء، ص 16.

وللحرس المختارين جاريا يوميا قدر يبلغ 600 دينار، أما الغلمان السودان فقد خصص لهم جاريا بـ 300 دينار في اليوم.¹ نلاحظ تراتبية في توزيع أرزاق الحراس.

نستنتج أن الخلفاء العباسيين كانوا على شاكلة الأباطرة البيزنطيين والخلفاء الأمويين لديهم حراس. وقد عرف نظام الحراسة في البلاط العباسي تطورا عن طريق انتخاب فرق جديدة من الترك والزنج والسودان إلخ، تم توزيعها على أدوار ونوبات محددة في درا الخلافة وخارجها، في حين اختصت فرق أخرى بحراسة شخص الخليفة مباشرة ببلاطه وفي تنقلاته مما يدل على تطور البرتوكول ومظاهر الملك لدى العباسيين.

لكن رغم هذا الاستخدام المكثف للحراس في دار الخلافة العباسية، فإن دورهم يبقى محدودا بما أنهم مرتبطون بحراسة شخص الخليفة أو الدار، وهم ليسوا بقوة عسكرية يمكن أن تحمي الخليفة أو الناس من حركة تمرد كبرى أو ثورة مثل هجمات القرامطة.² كما أن أسلحتهم بسيطة. فدورهم يكتسي أساسا صبغة بروتوكولية في إطار الموكب أو المجلس وهو ما يفسر استخدام العباسيين للشرطة والجند في البلاط.

4- الشرطة والجيش

اتخذ العباسيون الشرطة بالبلاط، وقد تأثروا في ذلك بالأمويين والبيزنطيين والساسانيين. ويذكر اليعقوبي أن معاوية أول من اتخذ الشرطة في الإسلام،³ لكن يجب أن نحتز من هذه المعلومة، فعمر ابن الخطاب هو أول من أدخل نظام العسس في الليل، وفي عهد علي بن أبي طالب نظمت الشرطة وأطلق على رئيسها صاحب الشرطة.⁴ لكن معاوية بلور مؤسسة الشرطة من باب تطوير الملكية.⁵ وقد اقتدى به الخلفاء من بعده لاسيما العباسيون الذين طوروا أكثر من وظيفة صاحب الشرطة وذلك في إطار تحول الخلافة إلى ملك.

ففي حين كان الحراس يقومون أساسا بمهمة محددة وهي حراسة الخليفة لشخصه في قصره وفي تنقلاته المختلفة، أوقد تتسع مهامهم وفقا لأوامر الخليفة، فإن الشرطة مهامها متنوعة تجمعها صفة حفظ الأمن وتتبع مثري الشعب وأصحاب الجنايات والنظر في قضاياهم والإشراف على السجون.⁶ لكن بالإضافة إلى ذلك فقد تولى أصحاب الشرطة لدى الخلفاء العباسيين مهام أخرى، اكتسبوا من الصفات التي تحملوها.

فقد راعى الخلفاء العباسيون في اختيار صاحب الشرطة مجموعة من الشروط لخصها ابن أبي الربيع في النقاط التالية، فينبغي أن يكون حليما مهيبا دائم الصمت طويل الفكر بعيد الغور، وأن يكون غليظا على أهل الريب

¹ - الصابني، الوزراء، ص 16-17.

² - Kennedy. H, *Op.Cit*, p. 156.

³ - اليعقوبي، مشاكل الناس لزمانهم، ص 26.

⁴ - حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، القاهرة 1939، ص 260.

⁵ - بن حسين (بثينة)، الدولة الأموية، ص 58.

⁶ - العلي (أحمد صالح)، "إدارة بغداد ومراكزها في العهود العباسية الأولى"، سومر، مجلد 31، عدد 1، 1975، ص

في تصارييف الحيل شديد اليقظة، وأن يكون حفيظا ظاهر التزاهة عارفا بمنازل العقوبة غير عجول، وينبغي أن يكون نظره شزرا قليل التبسم غير ملتفت إلى الشفاعات.¹

وقد جعلت هذه الشروط الأمنية والأخلاقية صاحب الشرطة، من أقرب موظفي الدولة للخلفاء العباسيين، فقد رفض الخليفة المأمون النظر في رقعة تقدم بها أحد الأشخاص يتظلم فيها من صاحب الشرطة إسحاق بن إبراهيم، فقد كتب عليها " اسحق غرسي بيدي، ومن غرسته أنجب ولم يخلف، لا أعدي عليه أحدا".² كما تجاوزت علاقة الخليفة المعتصم بصاحب شرطته إسحاق بن إبراهيم حدود العلاقة الرسمية إلى علاقة شخصية، فقد دعاه إلى أن يلبس لباسا مثله ويضرب معه بالصوالة.³

وعلى هذا الأساس فقد منح الخلفاء العباسيون أصحاب الشرطة عديد المهام في البلاط، إلى جانب دورهم الرئيسي المتمثل في حفظ الأمن. فقد كان صاحب الشرطة يساهم في أخذ البيعة للخليفة الجديد، ففي البداية كان يبايع بنو هاشم ثم يأتي دور القواد الكبار وعلى رأسهم صاحب الشرطة فيبايعون، وهو ما فعله المسيب بن زهير صاحب شرطة المنصور عندما بايع للخليفة المهدي سنة 158 هـ / 775 م.⁴ وبعدها كان الخليفة العباسي يصدر أمره إلى صاحب الشرطة ليأخذ البيعة على الناس.⁵

كما كان صاحب الشرطة يحضر مجالس الخلفاء. فقد كان المأمون جالسا على سرير الخلافة وبين يديه إسحاق بن إبراهيم المصعبي صاحب الشرطة وجلة القواد.⁶ ولعل حضور صاحب الشرطة مجالس الخلفاء كان لضمان أمن هذه المجالس. ولم يقتصر حضور صاحب الشرطة على المجالس العامة بل شمل كذلك المجالس الخاصة، فقد دخل طاهر بن الحسين صاحب شرطة المأمون عليه في مجلس خاص فأمره بالجلوس، فقال " ليس لصاحب الشرطة أن يجلس بين يدي سيده "، فقال له المأمون " ذاك في مجلس العامة فأما مجلس الخاصة فطلق ".⁷

كما كان صاحب الشرطة يرافق الخليفة في أسفاره وفي الموكب. فقد صاحب المسيب بن زهير الخليفة المنصور في حجه سنة 144 هـ / 761 م.⁸ وكان الخليفة المهدي يسير في موكب وعبد الله بن مالك يسير أمامه.⁹ وكان صاحب الشرطة يحمل أثناء تنقله مع الخليفة في الموكب الحربة، مثلما فعل عبد الله بن مالك.¹ وفي عهد الخليفة المتوكل صار صاحب الشرطة يسير بين يدي الخليفة بحربة الرسول، أما حربته فيسير بها خليفة صاحب الشرطة،² صار دوره في الموكب يكتسب صبغة بروتوكولية.

¹ - ابن أبي الربيع، سلوك المالك، ص 200.

² - الشاشتي، الديارات، ص 37.

³ - الطبري، تاريخ، ص 1878.

⁴ - الطبري، نفس المصدر، ص 1588.

⁵ - ابن العمراني، المصدر السابق، ص 111.

⁶ - التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج 3، ص 348.

⁷ - ابن طيفور، كتاب بغداد، ص 23؛ الشاشتي، نفس المصدر، ص 145.

⁸ - الطبري، نفس المصدر، ص 1514.

⁹ - الطبري، نفس المصدر، ص 1638.

¹ - ابن طيفور، نفس المصدر، ص 16-20؛ الطبري، نفس المصدر، ص 1638.

² - الطبري، نفس المصدر، ص 1916.

كما كان الخلفاء العباسيون يشركون صاحب الشرطة في الحكم. فقد استشار الخليفة الرشيد عبد الله بن مالك صاحب الشرطة، في حبس عبد الملك بن صالح الهاشمي. فأشار عليه بحبسه حبسا كريما ففعل الرشيد ذلك.¹ وقبل المأمون شفاعة طاهر بن الحسين في محمد بن أبي العباس الطوسي وعفا عنه وأمر له بصلة.²

كما كانوا يشركوهم أيضا في القيام ببعض الأعمال، فقد تولّى المسيب بن زهير المحاسبة المالية على بناء قصر المنصور ببغداد سنة 146 هـ / 763 م بأمر من الخليفة المنصور.³ كما عيّن الخليفة المأمون صاحب الشرطة إسحاق بن إبراهيم بن مصعب نائبا عنه ببغداد سنة 215 هـ / 830 م عندما خرج لحرب الروم.⁴ وقد توسعت مهام صاحب الشرطة في العصر العباسي الثاني، فقد أصبح يتولى دعوة من يرشحه الخليفة لمنصب الوزارة.⁵ وصار يسير في موكب الوزير الجديد مع مجموعة من القواد والغلمان.⁶ وقد وصل صاحب الشرطة في العصر العباسي الثاني من النفوذ والقوة إلى درجة أنه أصبح يتدخل في خلع ومبايعة الخلفاء، فقد استطاع نازوك الذي تولى منصب الشرطة ببغداد سنة 310 هـ / 922 م أن يؤلب الجيش للهجوم به على دار الخلافة سنة 317 هـ / 929 م وخلع الخليفة المقتدر ونصب القاهر، ليتقلد بعد ذلك إضافة إلى منصبه كصاحب للشرطة في بغداد منصب الحجابة أيضا.⁷ وبلغ بدر صاحب شرطة المعتضد من النفوذ أن جلس في داره ونظر في الأمور الخاصة والعامة والخراج والضيايع والمعاون.⁸

نستنتج أنه أنيطت بعهدة صاحب الشرطة في البلاط العباسي عدّة مهام استثنائية وفي ظروف استثنائية إلى جانب دوره الأصلي المتمثل في حماية الخليفة. ولا شك أن الخلفاء العباسيين بلوروا مهام صاحب الشرطة من باب تطوير الملكية.

وقد تواصل استعمال الشرطة لدى الخلفاء العباسيين، ونلاحظ من خلال القائمة التي أمدتنا بها المصادر (انظر الجداول) أن أغلب الخلفاء العباسيين استخدموا سياسة التجديد الشرطي، باستثناء الخليفة المعتصم. وقد بلغ تطبيق هذه السياسة أوجه في عهد الخليفة السفاح والمأمون، فكل من قام بتعيينهم من أصحاب الشرطة يتولون الخطة لأول مرة. فالسفاح هو أول خليفة عباسي ومن الطبيعي أن يقوم بتعيين أصحاب شرطة جدد، أما المأمون فقد عاد إلى بغداد بعد فترة من الفوضى والاضطرابات تلت النزاع بينه وبين أخيه الأمين فمن الطبيعي أن يقلد أصحاب شرطة جدد، ونفس هذه السياسة كان قد طبقها مع الحجابة. كما اعتمد الخليفة الرشيد بدوره على عناصر جديدة في الشرطة، ويعود ذلك إلى طول مدة خلافته.

¹ - الطبري، نفس المصدر، ص 1689.

² - الشافعي، نفس المصدر، ص 144-145.

³ - الطبري، نفس المصدر، ص 1563-1564.

⁴ - الطبري، نفس المصدر، ص 1816.

⁵ - مسكويه، تجارب الأمم، ج 1، ص 7؛ الصابئ، الوزراء، ص 28.

⁶ - الصابئ، نفس المصدر، ص 336.

⁷ - الهمداني، تكملة تاريخ الطبري، ص 59.

⁸ - الطبري، نفس المصدر، ص 2130.

هذا بالإضافة إلى إبقاء بعض الخلفاء على أصحاب الشرطة القدامى الذين كان منهم من تولى في عهد الخليفة الواحد أكثر من مرة. فقد قام الخليفة الرشيد بتولية خزيمة بن خازم على شرطته ثلاث مرات تخللها أصحاب شرطة آخرين.¹ ويعود ذلك إلى خبرة وكفاءة أصحاب الشرطة هؤلاء مما يفسر استخدامهم أكثر من مرة من قبل الخلفاء العباسيين.

أو قد يبقى صاحب الشرطة في منصبه رغم تبدل الخليفة، مثال عبد الجبار بن عبد الرحمان الأزدي الذي تولى الشرطة في آخر عهد السفاح وبداية عهد المنصور.² كما ظلّ إسحاق بن إبراهيم بن مصعب صاحب شرطة لأربع خلفاء وهم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل.³ ولعل ذلك وإن دلّ على شيء فإنما يدلّ على الكفاءة الشرطية التي تمتع بها هؤلاء الأشخاص.

كما نستنتج من خلال القائمة أن الخلفاء العباسيين اتبعوا سياسة التوريث الشرطي، فقد ولي كل من خزيمة بن خازم وأخوه عبد الله بن خازم شرطة الرشيد، وولي المسيب بن زهير شرطة المنصور والرشيد، وولي ابنه العباس بن المسيب شرطة المأمون، كما ولي المأمون شرطته، طاهر بن الحسين، وابنه عبد الله بن طاهر، وولي ولدي إسحاق بن إبراهيم عبد الله ومحمد شرطة المتوكل.⁴

كما لا حظنا من خلال القائمة أن أصحاب شرطة الخلفاء العباسيين وحتى عهد الأمين كانوا ينتمون إلى أسياد وأشرف القبائل العربية، مثل أزد تميم وخزاعة. كما حصلنا في هذه القائمة على أصحاب شرطة ينتمون بالولاء إلى قبائل عربية، مثل طاهر بن الحسين وابنه عبد الله. بينما ينتمي أغلب أصحاب الشرطة في العصر العباسي الثاني إلى الترك، مثل نازوك التركي، مؤنس الخادم أو الغلمان مثل بدر غلام المعتضد.

وقد اتبع الخلفاء العباسيون سياسة عدم إبقاء أصحاب الشرطة طويلاً في مناصبهم فقد عين الرشيد على شرطته القاسم بن نصر ثم عزله وجعل خزيمة بن خازم ثم عزله وجعل المسيب بن زهير ثم عزله وأعاد خزيمة بن خازم ثم عزله وجعل عبد الله بن مالك، ثم عزله وجعل عبد الله بن خازم ثم عزله وأعاد خزيمة بن خازم ثم عزله وأعاد عبد الله بن مالك ثم عزله وأعاد عبد الله بن خازم، ثم عزله وجعل علي بن الحجاج.⁵ وذلك ربما للحدّ من تطلعاتهم العسكرية والتي قد يكون لها الأثر السيئ على الأوضاع الأمنية في البلاد.

أما سياسة الخلفاء العباسيين في إنهاء وظيفة صاحب الشرطة فتتمثل، في القتل لكن في حالات نادرة وقد طبقها الرشيد مع إبراهيم بن عثمان بن هيك (انظر القائمة). أو العزل، ومن بين أسباب العزل سوء استخدام صاحب الشرطة للسلطة الممنوحة له، فقد عزل المنصور صاحب شرطته المسيب بن زهير الضبي لأنه ضرب

¹ - ابن حبيب، المحرّ، ص 375.

² - ابن حبيب، نفس المصدر، ص 374.

³ - ابن حبيب، نفس المصدر، ص 376.

⁴ - ابن حبيب، نفس المصدر، ص 374-375-376.

⁵ - ابن حبيب، نفس المصدر، ص 375.

أبان بن بشير الكتاب بالسياط.¹ أو الترقية حيث يترك صاحب الشرطة منصبه ليتولى منصب أكبر مثال والي. فقد عيّن المنصور عبد الجبار بن عبد الرحمان الأزدي واليا على خراسان بعد أن كان صاحب شرطته.² كما تحصلنا في هذه القائمة على شخص تولى قيادة الحرس لدى الخليفة الرشيد، كما تولى كذلك قيادة الشرطة وهو عبد الله بن مالك، مما يدل على الصلة الوظيفية بين منصب الشرطة ومنصب الحرس ويدفعنا إلى التساؤل، فهل إن توليه الحرس كان لمدة معينة ثم حصلت له ترقية بتوليته قيادة الشرطة أو العكس؟ ربما الافتراض الأول كان أصح خاصة وأن أغلب أصحاب الشرطة كانوا في الأصل قادة عسكريين في الجيش العباسي، وهم يقودون الجيش عندما يهب للقضاء على ثورة ما أو لفرض الأمن. فقد وجه السفاح موسى بن كعب سنة 134 هـ / 751 م لقتال منصور بن جمهور.³ كما وجه في نفس السنة خزيمه بن خازم لقتال بسام بن إبراهيم.⁴ ووجه المأمون عبد الله بن طاهر إلى الرقة سنة 206 هـ / 821 م على رأس جيش لمحاربة نصر بن شبث والقضاء على ثورته فهزمه وظفر به.⁵ كذلك قيام إسحاق المصعبي سنة 223 هـ / 838 م بقتال الحمرة الذين خرجوا بالجبال فاضطروهم إلى الالتحاق بالروم.⁶ كذلك مشاركة محمد بن إبراهيم خليفة صاحب شرطة بغداد في الجيش الذي وجهه المعتصم لمحاربة المزيار سنة 224 هـ / 839 م.⁷ ومشاركة مؤنس الخادم صاحب شرطة الحضرة لدى الخليفة المقتدر، سنة 315 هـ / 927 م في الدفاع عن عاصمة الخلافة ضد هجمات القرامطة، ولو أن دوره كان محدوداً.⁸ كما كان بعض أصحاب الشرطة مسئولين عن الجيش ، فقد كان بدر غلام المعتضد صاحب الشرطة والجيش والمستولي على أمره.⁹ نلاحظ الطابع العسكري للشرطة، كما نلاحظ تداخلاً بين وظيفتي الشرطة والجيش، كما هو الشأن بالنسبة لوظيفتي للوزارة والكتابة. لكن هذا لا يعني أن كل قادة الجيش في العصر العباسي كانوا من أصحاب الشرطة. فقد كان لبعض الأتراك شأن مع صاحب الشرطة، مثل إيتاخ فقد تولى معونة سامراء مناصفة مع إسحاق بن مصعب.¹⁰ كما استطاع البعض منهم الوصول إلى مراكز قيادية في الجيش لاسيما الافشين وهو الذي وجهه المعتصم لمحاربة بابك

¹ - الطبري، نفس المصدر، ص 1587.

² - ابن حبيب، نفس المصدر، ص 374.

³ - الطبري، نفس المصدر، ص 1489.

⁴ - الطبري، نفس المصدر، ص 1488؛ حول دور خازم بن خزيمه في قيادة الجيش العباسي، انظر - Kennedy. H, *The armies of the caliphs*, p.100- 103.

⁵ - ابن طيفور، نفس المصدر، ص 25- 26؛ ابن الساعي، تاريخ الخلفاء العباسيين، ص 52- 53.

⁶ - الطبري، نفس المصدر، ص 1852.

⁷ - الطبري، نفس المصدر، ص 1864.

⁸ - Kennedy. H, *Ibid*, p.160.

⁹ - ابن الجوزي، المنتظم، ج 13، ص 9.

¹⁰ - الطبري، نفس المصدر، ص 1896.

الخرمي، وإيتاخ الذي وجهه مدادا له.¹ كما شهد العصر العباسي بروز قادة في الجيش من الخدم الخصيان، وأشهرهم مؤنس الخادم في عهد الخليفة المقتدر،² الذي تولى قيادة الشرطة والجيش. وكان الخلفاء العباسيون يجرون على هؤلاء القواد الأرزاق، فقد منح الخليفة الرشيد صاحب الشرطة صلة قدرت بـ 500 درهم في السنة، بينما قدرت منحة صاحب الحرس بمليون درهم في السنة،³ أي الضعف مما يدل على خصوصية وظيفة صاحب الحرس وارتباطها المباشر بشخص الخليفة. أما في عهد الخليفة المعتضد فقد خصص للشرطة مبلغ 50 دينار في اليوم، لكن لا يذكر لنا الصابئي القادة أو أصحاب الشرطة الذين شملهم هذا المبلغ.⁴

ولم تقتصر الاستفادة من الجيش في القضاء على الثورات في الولايات وكذلك في الجهاد، بل كان عناصر الجيش مستقرين في عاصمة الخلافة، فحين بنى المنصور بغداد لم يسمح بالإقامة فيها إلا لقواده ومواليه، يذكر اليعقوبي "وفي كل سكة من هذه السكك جلة القواد الموثوق بهم في التزول معه وجلة مواليه ومن يحتاج إليه في الأمر المهم".⁵ ولذلك كانت مدينة السلام في بدايتها وكأنها قلعة دائرية يسهل الدفاع عنها.⁶ ثم لما بنى المنصور الرصافة على الجانب الشرقي لدجلة مقابل المدينة المدور وضع فيها أيضا حامية عسكرية تحت قيادة ولي عهده المهدي، وكان لهذا التدبير خطة سياسية وعسكرية وهي ضرب أحد المعسكرين في حالة تمرد المعسكر الآخر.⁷ كما استهدف المعتصم من تأسيس سامراء أن تكون مقرا له ومعسكرا يضم الجند الترك.⁸ وقد مكنت هذه المدن من تقوية السلطة العسكرية والسياسية للعباسيين.

أما أصحاب الشرطة فقد جعل لهم المنصور داخل المدينة المدورة سكة خاصة بهم تعرف بـ "سكة الشرطة"، وهي قرية من الحبس الأعظم، كما كان لصاحب الشرطة سقيفة يجلس فيها في الجهة الشمالية الغربية من قصر الذهب.⁹ مما يدل على مدى أهمية الشرطة وارتباطها بالخليفة ودورها في حمايته.¹⁰ كما ذكر اليعقوبي مجلسا آخر للشرطة، على مقربة من الجسر وبإزاء قصر الخلد الذي اتخذ المنصور مقرا له في السنة الأخيرة من خلافته، كما أقام فيه الرشيد والأمين إبان خلافتهما، وعلى مقربة أيضا من قصور أولاد الخليفة المنصور، والذي قد يكون اتخذ صاحب الشرطة بعد أن ترك مجلسه الأول قرب القصر.¹¹ كما كان للشرطة أيضا مجلس في سامراء في الشارع الأعظم وعلى مقربة من الحبس الكبير.¹²

¹ - الطبري، نفس المصدر، ص 1842.

² - Kennedy. H, *Ibid*, p.158.

³ - التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 220.

⁴ - الصابئي، الوزراء، ص 20.

⁵ - اليعقوبي، البلدان، ص 9-10.

⁶ - فاروق عمر، النظم الإسلامية، ص 166.

⁷ - الطبري، نفس المصدر، ص 1577؛ فاروق عمر، نفس المرجع، ص 166.

⁸ - الدينوري، الأخبار الطوال، ص 204.

⁹ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 9.

¹⁰ - العلي (أحمد صالح)، "إدارة بغداد ومراكزها في العهود العباسية الأولى"، نفس المرجع، ص 137.

¹¹ - اليعقوبي، البلدان، ص 16؛ العلي (أحمد صالح)، "إدارة بغداد ومراكزها..."، نفس المرجع، ص 137.

¹² - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 26.

نستنتج تشابهاً بين دور الشرطة ودور الجيش فكلاهما يؤدي نفس الدور وهو حفظ الأمن، أما الداخلي فتقوم به الشرطة، في حين يهتم الجيش بحفظ الأمن الخارجي، والدفاع عن دار الخلافة في حالة تمرد أو ثورة كبرى، كما تساعد الشرطة بدورها الجيش في القضاء على الثورات. وقد مكنت هذه القوة العسكرية العباسيين من تركيز المقومات الإيديولوجية للخلافة العباسية.

كما أن للشرطة دوراً آخر يشبه دور الحرس وهو حراسة الخليفة، لكن هذا الدور يبقى محدوداً، لأن الشرطة كانت تساعد أيضاً الجند للقيام بدورها المتمثل في القضاء على الثورات. بينما ينحصر دور الحرس في حماية الخليفة فقط. فالشرطة حراسة عامة وخاصة بينما الحرس حراسة خاصة، مما يضفي أهمية أكبر على دور الحرس مقارنة بدور الشرطة، ولعل أرزاق كلا الطرفين تؤكد ذلك.

وقد اعتمد الخليفة العباسي في تسيير شؤون الخلافة والحكم على الوزراء والكتاب، وفي حراسته الخاصة والعامة على الشرطة والحرس، كما اعتمد في خدمته على مجموعة أخرى من الموظفين.

5- الخدم والخصيان

اكتسب الخلفاء العباسيون على شاکلة الخلفاء الأمويين والأباطرة البيزنطيين والملوك الفرس الخدم والخصيان.¹ وقد وجدوا بكثرة في البلاط العباسي، سواء لخدمة حريم القصر أو لخدمة الخليفة نفسه داخل القصر أو في تنقلاته. وقد أشار أياألون إلى أن كلمة خادم أصبحت تستعمل في المصادر العربية ابتداء من النصف الثاني من القرن الثالث هجري مثل الطبري والمسعودي. بمعنى خصي،² لكن عكس ذلك بين عبد الله شيخ موسى أن كلمة خادم لا تعني بالضرورة خصي، وقد استند في ذلك إلى كتابات الجاحظ التي استعملت فيها كلمة خدم. بمعنى الخصيان كما استعملت كذلك بمعنى الغلمان.³

وقد استخدمت كلمة خادم في البلاط العباسي كلقب للعديد من الأشخاص اللذين تولوا عديد الأمور في القصر أو خارجه، إلى جانب دورهم الأصلي المتمثل في خدمة الخليفة.

إن الخليفة أبي العباس السفاح هو أول من اتخذ الخدم من الخلفاء العباسيين، وذلك قبل وصوله إلى الحكم عندما كان يقيم في الحميمة، فقد كان له خادم يدعى سابق الخوارزمي وهو الذي دلّ أبا حميد الطوسي عن المكان

¹ - Ayalon. D, *Eunuchs, Caliphs and Sultans, a Study in Power Relationships*, Jerusalem 1999, p. 68; Bréhier. L, *Op. Cit*, p. 109- 110; McCormick (Michael) and Kazhdan. P (Alexander), « The Social World of the Byzantine Court » *Op. Cit*, p. 168.

- كريستسن (أرثر)، المرجع السابق، ص 380.
² - Ayalon. D, "On the Eunuchs in Islam" in *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, 1979, p.85.

³ - Moussa. A. Ch « De la synonymie dans les sources arabes anciennes, le cas de hadim et de hasiyy », *Arabica*, t XXXII, 1985, fasc 3, pp. 309- 322.

الذي نجباً فيه أبا سلمة الخلال العباسيين محاولاً صرف الخلافة لأولاد علي.¹ على هذا الأساس فقد لعب دوراً في وصول العباسيين إلى الحكم.

كان حماد التركي خادماً الخليفة المنصور وكان يقف على رأسه، كما كان يقدم له سبط فيه دفاتر تحتوي على أخبار الأوائل من العباسيين، وكان المنصور لا يستأمن عليه أحد ويضع مفاتيحه في كم قميصه، فإذا غاب حماد أو خرج عوضه سلمة الخادم.² وكان سلام الأبرش و غلام آخر يخدمان المنصور داخل حجرته، فإذا لبس ثياب الخلافة ابتعدا عنه، وإذا رجع استقبلاه في ممشاه.³ وكان ياسر الخادم متولي أو صاحب وضوء الخليفة المنصور وكان يصحبه إلى الحج، ومهمته تجهيز لوازم الوضوء من ماء وإبريق، ثم التنحي حتى يفرغ الخليفة من الوضوء، فلما اعتل وعوضه الربيع بن يونس صار يضع الماء والإبريق ثم يتنحي فإذا تحرك الخليفة أخذ له الإبريق ووضاه.⁴

كما كان الخليفة المنصور مرافقاً بالخدم عند ذهابه إلى الحج سنة 158 هـ / 775 م، وكان أبو العنبر خادماً المنصور الأسود حاضراً لما توفي، فشق قبائه من بين يديه ومن خلف ظهره وحطّ على رأسه التراب جزعاً عليه.⁵

كان الخدم يخدمون الخليفة المنصور في القصر أو البلاط العباسي وكذلك في بعض تنقلاته. كما أنهم كانوا مقربين من الخليفة المنصور. ولا نعرف إن كانوا كلهم من الخصيان أو أن هناك استعمال ثنائي للخدم والخصيان.

كان للمنصور خادماً أصفر يتولى خدمة الحرم في القصر، فلما تفتن إلى أنه عربي طرده قائلاً " لا يدخل قصري عربي يخدم حرمي".⁶ وقد اعتبر أيا لون أن الخصاء لم يشمل العرب إلا في حالات نادرة وأن هذا النموذج الذي عثر عليه يعد الوحيد لخدم عربي خصي في بلاط الخلفاء.⁷ أو قد يفهم من قول الطبري أن المنصور طرده لأنه لم يكن من الخصيان، ولغيرة الخليفة على الحرم من خدمة الرجال لهم. فالعربي لا يمكن أن يكون مخصياً.* ومن ناحية أخرى فإن الخليفة تأثر بمظاهر الملك البيزنطية من بينها الخدم الخصيان.

ونلاحظ تواصل للخدم لدى الخلفاء العباسيين، فكان حمويه خادماً من خدام المهدي، وكانت له قطعة في الجانب الشرقي من المدينة المدورة، وكذلك علاء الخادم وكانت له قطعة قرب سوق العطش.⁸

¹ - الطبري، نفس المصدر، ص 1472؛ المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص 254.

² - الطبري، نفس المصدر، ص 1589-1603.

³ - الطبري، نفس المصدر، ص 1589.

⁴ - البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 283.

⁵ - الطبري، نفس المصدر، ص 1606.

* محادثة بيني وبين عبد الله شيخ موسى.

⁶ - الطبري، نفس المصدر، ص 1602.

⁷ - Ayalon. D, Eunuchs, Caliphs and Sultans, p. 75.

⁸ - اليعقوبي، البلدان، ص 19.

وقد تطورت مؤسسة الخدم الخصيان في عهد الخليفة الرشيد وبلغت درجة عالية من النضج.¹ بالإضافة إلى ذلك، فقد تولى الخدم مهمات أخرى لدى الخلفاء: فقد كلف الرشيد مسرور الخادم ضرب عنق جعفر بن يحيى البرمكي، أي صار سيّاف مهمته قطع رؤوس المحكوم عليهم بالقتل.² وكذلك جلاّد فقد تولّى ضرب الفضل بن يحيى مائتي سوط.³ ويفهم من هذا وجود أصحاب للعذاب أو للعقوبات من بين الخدم، مثل صاحب عذاب أبي جعفر المنصور،⁴ وصاحب عقوبة الرشيد.⁵

وأرسل الرشيد رجاء الخادم إلى الرقة لاستصفاء أموال البرامكة وعبيدهم ومواليهم وحملها إليه، كما كلف ثلاثة أشخاص آخرين بهذه المهمة وهم مسرور الخادم وجهه إلى منزل جعفر بن يحيى، وحسين الخادم وجهه إلى منزل الفضل بن يحيى في حين أرسل رشيد الخادم إلى منزل يحيى وابنه محمد.⁶ نستنتج أن الخدم ينفذون أوامر الخليفة.

كما أوكل الرشيد إلى الخدم الأعمال، وقد تمتع مسرور الخادم بمكانة مرموقة لدى الخليفة الرشيد وتولى عدة أعمال، فقد قلده البريد والخرايط وكان يخلفه عليهما ثابت الخادم.⁷ كما قلّد سلام أو رشيد الخادم أحد خدم الخاصة ضياعه بالثغور والشامات وبعد أن أثبت كفاءة عالية ضمّ إليه ما أحب من ضياع الجزيرة ومصر.⁸ وصار الخدم من المقربين لدى الخليفة الرشيد، فقد أمر عمّاله أن يقبلوا كتب خادمه سعيد الخفّاني وينفذوا أمره في مائة ألف درهم.⁹ كما ازداد الاعتماد على الخدم الخصيان في حراسة الحرم، إلى درجة تعلق بنات الخلفاء بهم. فقد كانت عليّة تحب خادما من خدم الرشيد يدعى طلّ.¹⁰

وقد تكاثرت أعداد الخصيان في البلاط العباسي في عهد الخليفة الأمين، الذي صيّره لخلوته في الليل والنهار، ووقت طعامه وشرابه وأمره ونهيه، ورفض النساء الحرائر والإماء.¹¹ نستنتج أن الخليفة الأمين اتخذ الخصيان للمتعة، فاقصر التلذذ بالحكم لديه على الخصيان دون الجوّاري. كما كان يحب خادما له يسمى كوثر وكان يدعوه "قرة عيني".¹² لم يقتصر التلذذ بالخصيان لديه على المتعة بل شمل الحب.

¹ - Ayalon. D, *Op. Cit*, p. 80.

² - الطبري، نفس المصدر، ص 1686.
³ - الجهشيارى، نفس المصدر، ص 244.
⁴ - البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص 148.
⁵ - المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص 368.
⁶ - الطبري، نفس المصدر، ص 1686.
⁷ - الجهشيارى، نفس المصدر، ص 265.
⁸ - الطبري، نفس المصدر، ص 1708.
⁹ - الجهشيارى، نفس المصدر، ص 266.
¹⁰ - الأصفهاني، الأغاني، ج 10، ص 130.
¹¹ - الطبري، نفس المصدر، ص 1766.
¹² - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 2، ص 160.

وعرف المأمون بحلمه وعطفه على الخدم، فكان يناديهم في الأمر المهم فلا يجيبونه ولا يفتاظ لذلك ويعتبرهم أناس كسائر البشر. فهو يرى أن الحلم من واجبات الملك.¹ وكان له خادماً يتولى وضوئه ويسرق له طسته، فعاتبه مرة وهو يوضيه ثم اشتراه منه بدينارين.²

اتخذ الخليفة المعتصم كذلك الخدم، وقد أفرد لهم قطائع خاصة في سامراء وضم إليهم الأعمال، فأقطع مسرور سمانة الخادم قرب دار الخليفة وهي دار العامة وجعل إليه خزائن العامة والخاصة، وأقطع إلى جانبه قرقاس الخادم وهو خراساني الأصل، يليه ثابت الخادم، ثم أبي الجعفاء وسائر الخدم الكبار.³ ويشير نورثادج إلى كلمة خدم في سامراء، قد تعني كلمة موالي في بغداد،⁴ وكان المنصور قد أنزلهم في سكك المدينة المدورة مع جملة قواده ومن يحتاج إليه في الأمر المهم.

وكان الفتح بن خاقان التركي خادماً من خدم المتوكل، وقد خدم قبله الواثق والمعتصم، وكان متولياً الخاتم للمتوكل، وكان يغلب عليه وكان المتوكل يقدمه على جميع أولاده، وقد اتخذ أخاً.⁵ والأخوة سلوك متجذر في الثقافة العربية الإسلامية، وكانت بعد قدوم الرسول إلى المدينة.⁶ وقد رأينا أن الخليفة المهدي آخى كذلك وزيره يعقوب بن داود. وقد قتل الفتح مع المتوكل ليلة قتله بالسيوف. وكان الفتح يتعشق خادماً آخر للمتوكل يدعى شاهك. وكان مسرة أيضاً خادماً للمتوكل ويكنى أبا شاكر.⁷

وكان غريب خادم المعتضد، ويعرف بالخادم المعتضدي نسبة إلى الخليفة المعتضد، وقد اكتفت المصادر بذكر اسمه دون التطرق إلى الدور الذي كان يلعبه في بلاط المعتضد.⁸ وقد اشتهر من خدم المعتضد أيضاً صافي الحرمي، ولعل لقب الحرمي نابع من اتصال عمله بالحرم.⁹

وكان لهذا الخادم كذلك مكانة كبيرة لدى الخليفة المقتدر، فكان متولياً لأمر دار الخلافة وصاحب الدولة كلها.¹⁰ ووهبه المقتدر جزء من جوهر الخلافة.¹¹ وصار يطلق على الخادم الحرمي في القرن الرابع هجري لقب الخادم الحرمي الرسائلي، ومهمته إيصال الرسائل إلى داخل الحرم.¹²

وقد استكثر الخلفاء العباسيون من الخدم في العصر العباسي الثاني، فقد بلغ عددهم في عهد الخليفة المكتفي

¹ - ابن طيفور، كتاب بغداد، ص 55.

² - ابن طيفور، نفس المصدر، ص 56.

³ - اليعقوبي، البلدان، ص 26.

⁴ - Northedge. A, *Entre Amman et Samarra*, p.79.

⁵ - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج 5، ص 2157-2158.

⁶ - Conte. E, « Alliance et parenté élective... », *Op. Cit*, p. 130.

⁷ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 13، ص 271.

⁸ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 12، ص 332.

⁹ - ابن الجوزي، المنتظم، ج 13، ص 65؛

- Ayalon. D, "On the Eunuchs in Islam" *Op. Cit*, p.90.

¹⁰ - ابن الجوزي، نفس المصدر، ج 13، ص 122.

¹¹ - ابن الجوزي، نفس المصدر، ج 13، ص 64.

¹² - الصائبي، رسوم، ص 78؛ Ayalon. D, *Ibidem*, p.90.

عشرة آلاف خادم بين سود وصقالبة.¹ وقد استخدم الخليفة المقتدر الخدم الخصيان بكثرة حتى وصل عددهم في قصره إحدى عشرة ألف، وكذا من صقلي ورومي وأسود.² ويبدو أن عددهم ارتفع فقد كان سبعة آلاف خادم منهم أربعة آلاف بيض وثلاثة آلاف سود إبان سفارة ملك الروم. إن هذا العدد هام يبين مدى توسع عدد الخدم في دار الخلافة العباسية. فالخليفة أصبح يعتمد على عدد كبير من الخدم الخصيان، كما أن دورهم تطور وأصبح يكتسي صبغة "بروتوكولية" في إطار الاستقبالات الرسمية.

كما نجد ذكرا للخدم الخواص الدارية والبرانية في عهد الخليفة المقتدر،³ ولعل لقب الدارية نابع من خدمتهم داخل الدار، أما البرانية فمرسومون بتوفير حاجيات الدار من الخارج، وقد اتصل وقوفهم إبان السفارة بحضرة الخليفة. كما ورد ذكر الحشم في المصادر،⁴ وهم مميزون عن الخدم ويتكونون من طبقات على ما يبدو. وكان الخدم هم المتغلبون على أمور البلاط في عهد الخليفة المقتدر إلى جانب الحرم، في حين كان هو مهتما بلذاته.⁵ ومن الخدم من وصل إلى مراكز قيادية في الجيش في عهد الخليفة المقتدر وهو مؤنس الخادم.⁶

نلاحظ تواسلا لاستعمال الخدم في البلاط العباسي، وكان هؤلاء الخدم يخدمون الخلفاء العباسيين في القصر أو في الحجرة، أو في المستراح،⁷ ويتولى هذه المهمة الخادم المرسوم بالوضوء، كما يتولى بعض الخدم تزيين الخليفة في المناسبات والاحتفالات الخاصة وقبل أن يخرج للناس، ويطلق على صاحب هذه المهمة المزين.⁸ ويخدمونهم كذلك في تنقلاتهم.

كما استخدم الخلفاء العباسيون الخدم الخصيان لحراسة الحرم. ومن الخدم من تولى مناصب إدارية وعسكرية. فهم يمثلون فئة خاصة ومميزة في البلاط ليس فقط من خلال أعمالهم بل كذلك من خلال أسمائهم والتي كانت تحمل في طياتها معنى السعادة واليسر والصفاء...، كما أنهم كانوا مقربين من الخلفاء العباسيين. وبالإضافة إلى هؤلاء الخدم المتصلة أعمالهم بالخليفة وبالحرم، هناك خدم آخرون موزعون على وظائف وأعمال مختلفة في دار الخلافة، ويمكن ترتيبهم على النحو التالي:

- الخدم الشرايية، ومهمتهم تقديم الشراب في دار الخلافة، فيكون بيد كل واحد منهم شرايية (صينية) من ذهب، فيها أكواز أو أقداح للشراب من بلور وعلى كل كوز منديل ديبقي، بينما يمسكون باليد الأخرى بمنديل شراب.⁹

¹ - الصابئي، نفس المصدر، ص 8.

² - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 100.

³ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 100.

⁴ - مسكويه، تجارب الأمم، ج 1، ص 6-43.

⁵ - مسكويه، نفس المصدر، ج 1، ص 13.

⁶ - Kennedy. H, *The armies of the caliphs*, p.158.

⁷ - ابن الجوزي، المنتظم، ج 13، ص 232.

⁸ - القاضي الرشيد، الذخائر والتحف، ص 116؛ الشاشيني، الديارات، ص 153.

⁹ - الصابئي، رسوم، ص 68؛ الصولي، أخبار الراضي لله والمتقي لله، ص 56.

- السقاةون، يترأسهم موظف كبير يعرف بالساقي. وللسقاةين مراتب يتدرجون فيها، فيرتقي الواحد منهم من مرتبة الخادم، ثم إلى المعلم، ثم إلى الشيخ، إلى أن يصل إلى مرتبة الأستاذ، وهي أعلى مرتبة للسقاة.¹ وكان السقاة الموكلون ببيوت شراب الخاصة يعملون داخل الدار، أما الموكلون ببيوت شراب العامة فيعملون بالقرب من القصر.² وقد حرص الخلفاء العباسيون على نظافة سقاتهم فألبسوهم الثياب الدبيقية السرية أي الجيدة. كما اشترطوا فيهم حسن الأخلاق والأمانة.³ ومهمتهم تزويد الناس في دار الخلافة في مناسبات الاستقبال الرسمية بالأشربة والماء المبرد بالثلج والفقاع... وكانوا كثيرون إبان سفارة ملك الروم وهم من الخدم والصقالبة.⁴

أما في مجالس الخلفاء الخاصة فيقع الاقتصار على ساق واحد، يسقي الخليفة وندمائه النبيذ، وكان ساقي المأمون يدعى حسين.⁵

- صاحب الطعام والشراب، يشرف على طعام الخليفة الذي يعد في المجالس والأسمطة، ويتصفح المطابخ أول الأوقات وآخرها ويتفقد الطعام والشراب في كل ساعة حتى الملح والخل وما شابههما ويراقب آداب المجلس.⁶ وصاحب المائدة، يتولى الإشراف على مائدة الخليفة باعدادها وترتيبها، وهو أحد الطباخين.⁷ والفراشون، ومهمتهم تزويد القصور وسائر الدور بالفرش، وقد ذكر أن عدد كل نوبة من نوب الفراشين في دار المتوكل أربعة آلاف فراش.⁸ بالإضافة إلى الحماليين والتجّادين والفرائين والمطرزين والأعوان للسري، إلخ....⁹ وكان هؤلاء الفراشين يسيرون في المواكب بالشموع الموكبية،¹⁰ ويترأس الفراشين موظف يعرف بخازن الفرش.¹¹ كما يشرف على خزانة الطيب خادماً، يعرف بالخادم الطيب.¹² بالإضافة إلى البوابين. وكان الخلفاء العباسيون يجرون على هؤلاء الخدم أرزاقاً، فقد خصص لكل مجموعة منهم في عهد الخليفة المعتضد أربعة دنائير يومياً.¹³

¹- الصابئي، الوزراء، ص 21؛ متز (آدم)، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري، ج 2، ص 111.

²- الصابئي، الوزراء، ص 20.

³- الصابئي، نفس المصدر، ص 216.

⁴- الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج 1، ص 104.

⁵- ابن طيفور، كتاب بغداد، ص 23.

⁶- ابن أبي الربيع، نفس المصدر، ص 205؛ ابن طيفور، نفس المصدر، ص 61.

⁷- ابن طيفور، نفس المصدر، ص 61.

⁸- الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 100؛ ابن حجة الحموي، كتاب ثمرات الأوراق، ص 96؛ القاضي

الرشيدي، كتاب الذخائر والتحف، 133.

⁹- الصابئي، الوزراء، ص 21-22.

¹⁰- الصابئي، نفس المصدر، ص 21-22.

¹¹- المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 130-131.

¹²- ابن الجوزي، المنتظم، ج 13، ص 67.

¹³- الصابئي، الوزراء، ص 20.

نستنتج أن الخلفاء العباسيين كان لديهم خدام يخدمونهم في القصر وخارج القصر وفي الحمام، على شاكلة الأباطرة البيزنطيين،¹ ويجرسون حريمهم ويتولون أمور قصورهم من شراب وطعام وفرش، وهذا دليل على تطور البرتوكول ومظاهر الملك والذي يزداد تأكيداً عن طريق اتخاذ الأطباء والمنجمين.

6- الأطباء والمنجمون

✓ الأطباء

إن الخليفة المنصور هو أول من اتخذ الطبيب بالبلاط،² وقد جاء هذا القرار نتيجة مرض المنصور وعجز جميع الأطباء في بغداد عن معالجته من ناحية. ومن ناحية أخرى، فإن الخليفة المنصور تأثر بمظاهر الملك الساسانية ومن بينها الطبيب.³

وعلى هذا الأساس صار الطبيب جزءاً من مستلزمات الملك،⁴ فهو الذي يحافظ على سلامة الخليفة ويرعى صحته، لذلك فقد أحب المنصور الطبيب جورجيس كحبه لنفسه.⁵ وعندما حجّ الرشيد دعا الله أن يحفظ طبيبه جبرائيل بن بختيشوع، مما أثار استنكار بنو هاشم لا سيما وأن جبرائيل ذمّي فأجابه الرشيد " صلاح بدني وقوامه به وصلاح المسلمين بي فصلاحهم بصلاحه ". ومن هنا تأتي أهمية الطبيب للحفاظ على أحد الأسس التي تقوم عليها الملة الإسلامية وهو الامام.⁶ أما المتوكل فهو يرى أن محل بختيشوع منه كمحل الروح من الجسد.⁷ نلاحظ دور الطبي كأداة للحفاظ على الملك.

وقد جعل هذا الدور الطبيب يحتل مرتبة مميزة لدى الخلفاء العباسيين، تفوق مرتبة الحرس والحجاب، فعندما يقارن الرشيد بين صاحب الحرس والحاجب وبين الطبيب، نجد أنه يفضل عليهما الطبيب ويأمر بالزيادة في غلته لأنه يجرسه من الأمراض في حين يجرسانه هما من الناس.⁸ وقد علت مرتبة الطبيب مرتبة قاضي القضاة في عهد الخليفة المعتصم فكان يقول " سلمويه طيبي أكبر عندي من قاضي القضاة لأن هذا يحكم في مالي وهذا يحكم في نفسي ".⁹

¹ - McCormick (Michael) and Kazhdan. P (Alexander), *Op. Cit*, p. 181.

² - ابن أبي أصيبعة، *عيون الأنباء في طبقات الأطباء*، بيروت 1956، ج 1، ص 37؛ ابن العبري، *تاريخ الزمان*، بيروت 1986، ص 10.

³ - كريستنسن، *إيران في عهد الساسانيين*، ص 380.

⁴ - الثعالبي، *أخلاق الملوك*، بيروت 1990، ص 144.

⁵ - ابن العبري، *تاريخ الزمان*، ص 11.

⁶ - الأب قاشا (سهيل)، " دور الأطباء المسيحيين الاجتماعي والسياسي في العصر العباسي (750 - 1258) "، *المسرة*، ع 81، 1995، ص 486.

⁷ - ابن أبي أصيبعة، *نفس المصدر*، ج 1، ص 68.

⁸ - ابن أبي أصيبعة، *نفس المصدر*، ج 1، ص 52؛ الأب قاشا (سهيل)، " دور الأطباء المسيحيين "، *نفس المرجع*، ص 486.

⁹ - ابن أبي أصيبعة، *نفس المصدر*، ج 1، ص 106؛ الأب قاشا (سهيل)، " دور الأطباء المسيحيين "، *نفس المرجع*، ص 486-487.

نستنتج أن الطبيب يحتل مكانة هامة لدى الخلفاء العباسيين، فهو مرتبط بحماية نفس الخليفة ذاتها. ولأجل ذلك كان الخلفاء العباسيون يتحرون في اختيار أطبائهم، فلا يتولى هذا المنصب إلا شخص حاذق بالطب وعالم بأسراره.¹

وقد درج الخلفاء العباسيون على اختيار أطبائهم من النصارى وهو ما نلاحظه من القائمة، ولم يحاول أي من الخلفاء إجبار هؤلاء الأطباء على اعتناق الاسلام، فقط حاول المنصور إغراء طبيبه جوجيوس بن جبرائيل بالجنة لو أسلم، إلا أن هذا الأخير رفض فتركه وحاله.² كما كان الرشيد يدفع لجبرائيل بن بختيشوع في مدخل صوم النصارى في كل سنة (50.000 درهم) سنويا من الورق.³ ولما توفي سلمويه بن بنان طبيب المعتصم أمر أن تحضر جنازته الدار ويصلى عليه بالشمع والبخور على زيّ النصارى الكامل.⁴ نلاحظ نوعا من التسامح الديني لدى الخلفاء العباسيين. ويعود استخدام هؤلاء النصارى لحذقهم لصناعة الطب.

وقد ارتفع عدد الأطباء في البلاط العباسي إلى درجة تعيين رئيس عليهم، أطلق عليه اسم "رئيس الأطباء" وقد أحدث هذا المنصب في عهد الخليفة الرشيد وأول من تقلده بختيشوع بن جورجيس كما عين ابنه جبرائيل بن بختيشوع رئيسا للأطباء أيضا.⁵ وقد تواصل هذا المنصب في القرن الرابع هجري وصار يطلق على صاحبه اسم "رئيس المتطبين" يراقب أعمال الأطباء وتلامذتهم، كما يشرف أيضا على خزانة الأدوية التي تكون في القصر.⁶

ومن أشهر من تولى مهنة الطب في البلاط العباسي آل بختيشوع، وأول من اتصل منهم بالبلاط جورجيس بن جبرائيل، عندما استقدمه المنصور سنة 148 هـ / 765 م لمعالجته من مرض أصابه في معدته وعجز الأطباء عن مداواته، وقد كان قبل ذلك رئيسا للأطباء في أحد البيمارستانات بجند يسابور، وأحضر مكرها، ثم نال من الحضوة لدى الخليفة المنصور، مما جعله يصبح طبيبه الخاص.⁷

وقد قام الخلفاء من بعده بتولية أبناءه وأحفاده الخدمة في البلاط. ومن الجدير بالذكر أن آل بختيشوع أنفسهم قد حرصوا على توريث أبنائهم مواقعهم في البلاط، فعندما طلب جعفر البرمكي من بختيشوع أن يرشح له طبيا يتولى خدمته ومعالجته رشح له ابنه مدعيّا أنه أمهر منه وليس في الأطباء من يشاكله.⁸

1- ابن أبي الربيع، سلوك المالك، ص 203.

2- الققطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، بيروت، د- ت، ص 111؛ ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 40.

3- ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 59.

4- ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 106.

5- ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 43-44؛ الققطي، أخبار العلماء، ص 72.

6- الصابئ، الوزراء، ص 24.

7- ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 37-38؛ الققطي، أخبار العلماء، ص 110-111؛ ابن العبري، تاريخ

الزمان، ص 10-11.

8- ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 43.

وقد أدّى تعاقب آل بختيشوع على الخدمة في بلاط الخلفاء إلى أن يصبحوا بمثابة أطباء العائلة الحاكمة العباسية. فبعد أن غضب المأمون على جبرائيل لاتصاله بالأمين وخدمته إياه، اضطر إلى استرضائه لأنه يعرف طبيعة ميزاجهم منذ الصبا.⁹

وقد تحصلنا من خلال القائمة على عشرة من آل بختيشوع خدموا بصناعة الطب في بلاط الخلفاء العباسيين، من أشهرهم جورجيس خدام الخليفة المنصور، ثم ابنه بختيشوع خدام الخليفة الرشيد، كما خدم جبرائيل بن بختيشوع الخليفة الرشيد أيضا، وخدم كذلك الأمين والمأمون، وقد خلّف ابنا يدعى بختيشوع على اسم جدّه برز في ميدان الطب أيضا وخدم الخليفة المأمون فالمعتصم فالوائق فالمتوكل. وقد خلّف بختيشوع الثاني ولدين عبيد الله خدم كاتبا وليس طبيا لدى الخليفة المقتدر،¹⁰ ويوحنا بن بختيشوع خدام الأمير الموفق أما ابنه بختيشوع بن يوحنا فقد خدم بالطب الخليفة المقتدر والخليفة الراضي. نلاحظ تواسلا لاستعمال آل بختيشوع من عهد الخليفة المنصور إلى عهد الخليفة الراضي، ويعود ذلك إلى مقدرتهم الطبية وثقة الخلفاء العباسيين بهم. ولم تكن عائلة بختيشوع الوحيدة التي توارثت أبنائها صناعة الطب وخدموا بها في بلاط الخلفاء العباسيين، بل كذلك عائلة ثابت بن قرّة وتبرز القائمة أربعة. فقد خدم سنان بن ثابت بن قرّة الخليفة المقتدر ثم دخل في خدمة القاهرة، والراضي. وقد خلّف ابنا وهو ثابت بن سنان بن ثابت بن قرّة كان في خدمة المتقي، ثم خدم المستكفي بالله.

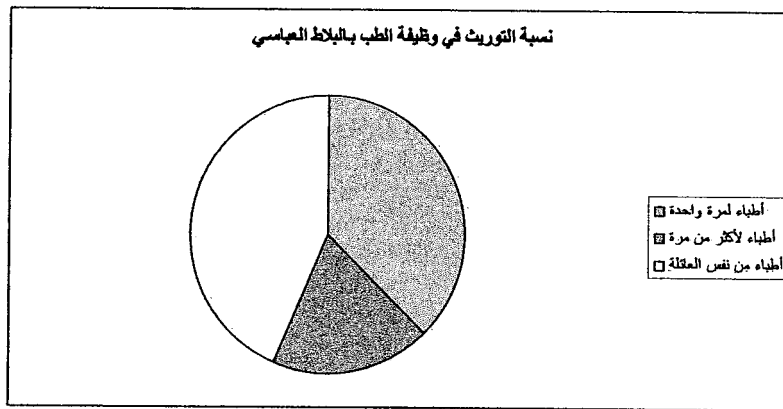
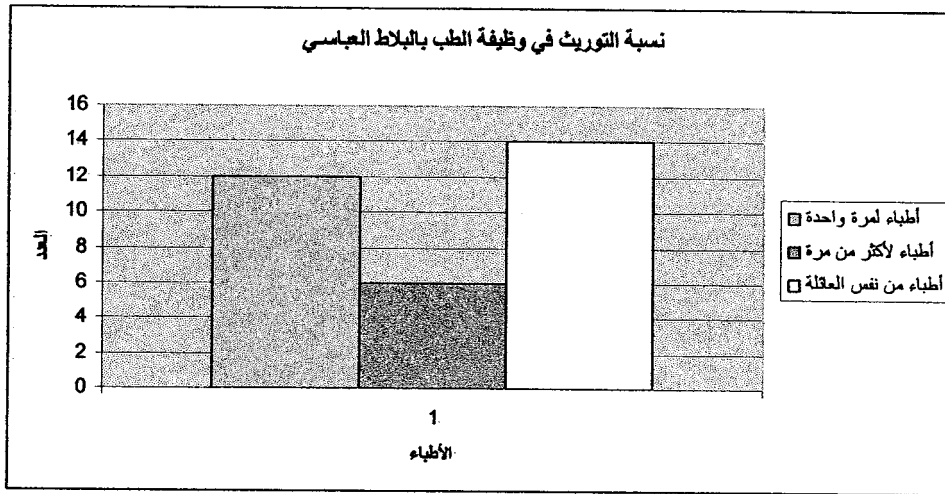
أو قد يتم استخدام الطبيب في أكثر من عهد من عهود الخلفاء فقد كان يوحنا بن ماسويه طبيب الرشيد، كما خدم الأمين والمأمون والمعتصم والوائق والمتوكل، وكان أخوه ميخائيل بن ماسويه طبيب المأمون. ومن الخلفاء من عيّنوا أطباء جدد، لم يتصلوا بالخدمة في البلاط من قبل وقد أحصينا 12، منهم جبريل الكحال وكان طبيب المأمون، وحنين بن اسحق وكان طبيب المتوكل.

نسبة التوريث في وظيفة الطب بالبلاط العباسي

النوع	أطباء لمرة واحدة	أطباء لأكثر من مرة	أطباء من نفس العائلة	المجموع
عدد الأطباء	12	6	14	32
النسبة المئوية	37.5%	18.75%	43.75%	100%

⁹ - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 46.

¹⁰ - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 72.



بالإضافة إلى الأطباء الذين كانوا في خدمة الخلفاء العباسيين، فإن أفراد الأسرة العباسية كان لهم أطباء خاصين بهم، فقد كان غالب الطبيب في خدمة الأمير الموفق طلحة قبل أن يصبح في خدمة المعتضد ويشتهر بخدمته ويقدمه على جميع المتطبين.¹ كما كان عيسى بن علي طبيب المعتمد قبل توليه الخلافة، واستمر فيها بعد توليه الخلافة.² وكان بجثيشوع بن يوحنا طبيب الأمير الموفق وكان يسميه "مفرج كربي".³ نستنتج أن أفراد الأسرة الأموية كانوا على شاكلة الخلفاء العباسيين لديهم أطباء وهذا دليل على تطور البروتوكول ومظاهر الملك. وقد عالج هؤلاء الأطباء الخلفاء وأولادهم وكذلك نساءهم. فقد استدعى الرشيد جبرائيل لمعالجة زبيدة وقد فحصها من وراء ستر.⁴ كما عالج كذلك أحد جواري الرشيد، وقد أمر بإحضارها إليه فأحضرت وعالجها بصفة مباشرة.⁵ نستنتج غير الخلفاء العباسيين على الحرائر أكثر من الجواري.

¹ - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 2، ص 218.

² - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 2، ص 169.

³ - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 2، ص 168.

⁴ - الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص 225.

⁵ - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 43-44؛ القفطي، أخبار العلماء، ص 94؛ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص 18.

ولم يقتصر دور الطبيب في البلاط على المعالجة بل تجاوزته إلى حدّ مراقبة طعام الخليفة، فكان الخليفة الرشيد لا يأكل إلاّ إذا حضر جبرائيل بن بختيشوع مائدته.¹ وكان الأمين لا يأكل ولا يشرب إلاّ بإذنه.² كما كان الطبيب يمنع الخليفة من تناول بعض الأطعمة، فقد منع جبرائيل الرشيد من تناول سمكة استنكر سمنها وغمز صاحب المائدة بعزلها.³ ومنع كذلك جبرائيل الخليفة المأمون في أحد الأيام من تناول أي نوع من اللحوم لفترة من الوقت.⁴ ويهدف الأطباء من وراء ذلك إلى وقاية الخلفاء من بعض الأمراض ومحاولة تجنبهم خطر الإصابة بها. أو قد يطلب الطبيب من الخليفة أن يأخر موعد طعامه، كما فعل جبرائيل مع المأمون عندما لاحظ تغيراً على وجهه وانخباس عرقه.⁵

كان الأطباء يلزمون الخلفاء العباسيين في القصر أو البلاط العباسي، وكذلك في بعض تنقلاتهم. فلما عزم المأمون على الخروج إلى أرض الروم سنة 213 هـ/ 828 م ومرض جبرائيل، أنفذ معه ابنه بختيشوع، ومنع جبرائيل الرشيد في إحدى الولائم التي أقيمت له بالحيرة من تناول السمك مع أنواع أخرى من الطعام والشراب حرصاً على عدم التخليط ومنعاً من أن يؤدي ذلك إلى تسمم الخليفة.⁶ كان الأطباء مقرّبين من الخلفاء العباسيين. فدورهم يشبه دور الحرس، لكن الحرس يحرسون شخص الخليفة، بينما ينحصر دور الأطباء على رعاية بدن الخليفة.

بالإضافة إلى ذلك فقد تولى الأطباء مهام أخرى لدى الخلفاء العباسيين. فقد لعب جبرائيل دور الواسطة بين الخليفة وبين القادة وقد أمره أن يرفع إليه حوائجهم.⁷ كما كانت التوقيعات تخرج أحياناً بخطّ بعض الأطباء. وهو ما حصل مع سلمويه طبيب المعتصم، فكان يرّد إلى الدواوين توقيعات المعتصم في السجلات بخطّ سلمويه، وكل ما كان يرد على الأمراء والقواد من خروج أمر وتوقيع من حضرة المعتصم فيخطّ سلمويه.⁸ كما كانت كل توقيعات المعتضد تخرج بخطّ طبيبه داود بن ديلم.⁹ نستنتج أنه أنيطت بعهدة الطبيب مهام إدارية، بالإضافة إلى دوره الأصلي المتمثل في رعاية بدن الخليفة.

¹ - ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، بيروت، د-، ص 132.

² - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 45؛ الأب قاشا (سهيل)، " دور الأطباء المسيحيين "، نفس المرجع، ص 497.

³ - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 47.

⁴ - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 54.

⁵ - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 54؛ زيتون (عادل)، " آل بختيشوع النساطرة "، عالم الفكر، المجلد 29، أفريل ماي 2001، ص 134.

⁶ - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 58؛ الأب قاشا (سهيل)، " دور الأطباء المسيحيين "، نفس المرجع، ص 487؛ زيتون (عادل)، " آل بختيشوع النساطرة "، نفس المرجع، ص 144.

⁷ - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 44.

⁸ - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 106؛ الأب قاشا (سهيل)، " دور الأطباء المسيحيين "، نفس المرجع، ص 489.

⁹ - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 2، ص 225.

كما لعب هؤلاء الأطباء دور كبير في ترجمة الكتب اليونانية القديمة مثل (كتب Galien و Hippocrate) إلى العربية لاسيما حين بن اسحق، وقد بلغ من تقدير المأمون له أنه كان يعطيه من الذهب زنة ما كان ينقله من الكتب.¹

لقد تطورت منزلة الطبيب لدى الخلفاء العباسيين، إلى أن أصبح المعتصم ينادي طبيبه سلمويه " أبي"،² وصار بختيشوع ندم الخليفة المتوكل وكان يجلسه معه في سدته،³ وهو امتياز قلما يمنحه الخليفة لشخص ما. ولم يتوقف الخلفاء العباسيون على هذا الحد، بل حرص المتوكل على استرضاع أولاده من لبن أولاد طبيبه غالب فكان يسر بدمهم.⁴ وصار أبناء راغب من هذا المنطلق أخوات لأولاد المتوكل من الرضاعة،⁵ وهو سلوك يثير الاستغراب لاسيما وأن أولاد راغب كانوا نصارى.

وكان الخلفاء العباسيون يحرون على هؤلاء الأطباء الأرزاق. فقد وصل المنصور جرجيس بمبلغ (3.000 دينار)، وأرسل إليه ثلاث جوارى روميات، وامتنع جرجيس عن قبول الجوارى نظرا لعقيدته التي تحرم الزواج بأكثر من امرأة.⁶

وخصص الرشيد لجرائيل بن بختيشوع راتبا شهريا بمبلغ (900.000 دينار)،⁷ وبالإضافة إلى ذلك كان يصله من الرشيد وأقرباءه وأعوانه إيراد سنوي قدر بـ (4.900.000 درهم)، أي ما يساوي (112.000.000 درهم) خلال 23 سنة خدمة.⁸

وقد بلغ ابنه بختيشوع بن جبرائيل من الثراء إلى درجة أنه أصبح يضاهي الخليفة المتوكل في الزي والفرش والعبيد والجواري،⁹ مخالفا بذلك عقيدته التي لا تبيح التسري بالجواري أو الجمع بين زوجتين.¹⁰ كما أجرى الرشيد على الطبيب أبو يوحنا ماسويه مرتب شهري قدر بمبلغ (1000 درهم)، وصلة سنوية قدرت بمبلغ (20.000 درهم).¹¹

¹ - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 143؛ مرجبا (محمد عبد الرحمان)، الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، بيروت 1988، ص 223؛ أسماء عمارة، البلاط العباسي، ص 275-276؛

- Micheau. F, « Medecins et medecine a Damas aux XII e et XIIIe siecles », dans *Syrie, Memoire et Civilisation*, Paris 1993, p.383.

² - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 106. الأب قاشا (سهيل)، " دور الأطباء المسيحيين"، نفس المرجع، ص 499-500.

³ - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 69.

⁴ - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 2، ص 218.

⁵ - Conte. E, « Alliance et parenté élective... », *Op. Cit*, p. 128.

⁶ - ابن العبري، تاريخ الزمان، ص 10؛ القفطي، نفس المصدر، ص 110.

⁷ - ابن العبري، تاريخ الزمان، ص 18.

⁸ - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 58-59-60-61؛ أسماء عمارة، البلاط العباسي، ص 277-278.

⁹ - ابن العبري، تاريخ الزمان، ص 39.

¹⁰ - Bianquis. Th, « La famille en Islam arabe », dans *Histoire de la famille*, Paris 1986, p.564.

¹¹ - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 2، ص 119.

ولم يقتصر الخلفاء على منح أطبائهم الأموال بل منحوهم كذلك الثروات العقارية، فقد أقطع المقتدر طبيبه بختيشوع بن يوحنا الكثير من الضياع، والتي أقرّها له الراضي من بعده.¹

إنّ هذه المكانة التي بلغها الأطباء دفعت البعض منهم إلى اتخاذ مظاهر الأبهة على شاكلة الخلفاء والأمراء. فكان بختيشوع يسير من داره إلى دار المتوكل في مركبة من ابنوس.² وكان ابن الطيفوري طبيب المتوكل أيضا يمشي في موكب وبين يديه أصحاب المقارع.³

نستنتج استعمالا مكثفا للأطباء من النصارى بالبلاط العباسي. كما نستنتج أن هؤلاء الأطباء مرتبطة أعمالهم مباشرة بالخليفة. فكانوا يقومون برعاية بدن الخليفة عندما يكون في بلاطه الملكي أو في الموكب. وقد كان التأثير الفارسي قويا في إحداث هذه الخطة بالبلاط، فلم يوجد الطبيب بالبلاط الأموي. ولم يكتف العباسيون باتخاذ الأطباء بل اتخذوا كذلك المنجمين.

✓ المنجمون

كان الخليفة المنصور أول من اتخذ الطبيب في البلاط، كما أنه أول من قرّب المنجمين وعمل بأحكام النجوم.⁴ وعلى هذا الأساس، اتخذ الخليفة المنصور المنجمين لأول مرة في الاسلام، وقد تأثر بالتقاليد الفارسية،⁵ فاقتدت به الخلفاء من بعده، وصارت وظيفة المنجم من الوظائف القارة في البلاط العباسي. فمَنجم البلاط هو عبارة عن موظف خاص يرتبط بالخليفة مباشرة ومهمته النظر في النجوم بطريقة علمية ومحاولة الكشف عن تحركاتها لصالح سيّده، لذلك يشترط فيه أن يكون رياضي وأن يكون عارفا بعلم الهيئة أو الفلك حتى يتسنى له قراءة الأبراج.⁶ وفي هذا السياق كان النوبخت من اختار للخليفة المنصور وقت وضع أسس مدينة بغداد.⁷ وبعد فراغ المنصور من بنائها دعا أحد المنجمين وأمره بأن يأخذ له طالعها فأخبره بما تدل عليه النجوم من طول زمامها، وكثرة عمارتها كما بشرّده بأنه لا يموت فيها أحد من الخلفاء.⁸ لكن الأحداث التاريخية أثبتت عكس ذلك فقد قتل فيها الأمين. وكان محمد بن موسى المنجم أيضا من اختار للخليفة المتوكل موضع مدينة الماحوزة.⁹

كان المنجمون يقومون بأخذ الطالع للخليفة عند تأسيس المدينة، فدورهم صار أساسي في بناء المدن وهو ما حدث في بناء المهديّة،¹⁰ وكذلك أثناء الحروب. فكان الفضل بن سهل وزير المأمون وكذلك أحد منجميه،

¹ - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 2، ص 169.

² - ابن العبري، تاريخ الزمان، ص 39.

³ - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 94.

⁴ - السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 214.

⁵ - كريستنسن، إيران في عهد الساسانيين، ص 379-380.

⁶ - Fahd. T, s v, « Munadjim », E.T 2, t VII, p. 558 ; Saliba.G, "The role of the astrologer in medieval Islamic society", in Bulletin d'Etudes Orientales, t XLIV, 1992, p.52.

⁷ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 67.

⁸ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 67-68.

⁹ - اليعقوبي، البلدان، ص 30.

¹⁰ - Saliba.G, "The role of the astrologer in medieval Islamic society", Op.Cit, p.57- 58.

وهو من حدّد لطاهر بن الحسين وقت خروجه لحرب الأمين، وأخير المأمون بأن طاهر يظفر بالأمين ويلقب بذي اليمينين، فكان هذا السبب الذي جعل المأمون يلقب طاهر بذي اليمينين، عقب انتصاره على الأمين.¹ والمنجم هو من يشير على الخليفة بالسفر.² صار المنجم من مستلزمات الملك فكان يرافق الخليفة في كل تنقلاته، لاسيما أثناء الحروب، كما أنه مقرب من الخليفة. فدوره يشبه دور الطبيب.

كما كان المنجم ينظر في سنة وفاة الخليفة، فقد قدّر تيوفيل أن المهدي يموت بعده بقليل، فتوفي بعده بعشرين يوم.³ ولما مرض الواصل أحضر المنجمين ومن بينهم الحسن بن سهل بن نوبخت ونظروا في مولده، فقدّروا أنه يعيش خمسين سنة لكنه لم يعيش إلا اثنتين وثلاثين سنة وتوفي.⁴

ولم تقتصر مهمّة المنجم في البلاط العباسي على رؤية حسن الطالع وسوءه، بل أصبح يلعب دور سياسي، فقد أشار تيوفيل على المهدي بالسير إلى ماسابذان للحاق بموسى الهادي وهو يحارب في جرجان وإجباره على التنحي عن ولاية العهد لفائدة أخيه هارون الرشيد، وقد بعث إليه المهدي يخبره بالأمر، لكن موسى امتنع.⁵ ولما أراد المكتفي أن يعلن عن ولاية ابنه للعهد شاور المنجمين في الأمر.⁶

نلاحظ تدخل المنجم في قرار سياسي خطير وهو ولاية العهد. ولم يتوقف دور المنجم على هذا الحد بل تجاوزه إلى أكبر من ذلك. فقد لعب دورا حضاريا وثقافيا حيث ساعد على تنشيط حركة الترجمة في البلاط العباسي وبروز علم الهيئة أو الفلك واهتمام بعض الخلفاء العباسيين به، وكان المنصور أول من عني بعلم الفلك، فقد كلف إبراهيم الفزاري بترجمة كتاب "السند هند" للعالم الهندي الفلكي برمكيت كما كلفه بتأليف كتاب آخر منه، حيث ألف "كتاب السند هند الكبير".⁷

ومن اشتهر بعلم الهيئة أيضا محمد بن موسى الخوارزمي، في عهد الخليفة المأمون وكان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجة الأول والثاني والذي هو في الأصل اختصار لكتاب الفزاري مع بعض التغييرات في الميل والتعديل.⁸ أما الأدوات التي يستخدمها المنجمون في الرصد فهي الاسطرلاب، وكان الفزاري أول من عمله وشرح تركيبه.⁹

¹ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 4، ص 41-42؛

- Saliba.G, *Ibid*, p.58.

² - ابن العبري، تاريخ الزمان، ص 11.

³ - ابن العبري، نفس المصدر، ص 12.

⁴ - ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 141.

⁵ - ابن العبري، نفس المصدر، ص 141.

⁶ - Saliba.G, *Ibid*, p.58- 59.

⁷ - القفطي، أخبار العلماء، ص 177؛ الهيتي (صبري فارس)، "إبداعات العرب في علم الفلك ورسم الخرائط"، المورد، ع 3، 2000، ص 25.

⁸ - القفطي، نفس المصدر، ص 177-178؛ الهيتي (صبري فارس)، "إبداعات العرب في علم الفلك ورسم الخرائط"، نفس المرجع، ص 25.

⁹ - الهيتي (صبري فارس)، "إبداعات العرب في علم الفلك ورسم الخرائط"، نفس المرجع، ص 24.

وكان المأمون لما عزم على رصد الكواكب تقدم إلى أحمد بن كثير الفرغاني وإلى جماعة من العلماء بإصلاح آلاته ففعلوا ذلك بالشماسية ببغداد وجبل قسيون بدمشق.¹

بالإضافة إلى ذلك فقد صار المنجم نديما وصديقا، فكان علي بن يحيى المنجم ندم الخليفة المتوكل ومن خواصه وجلسائه المتقدمين،² ثم أصبح جليس الخليفة المنتصر، ولما ولي المعتز كان أول من طلبه للمنادمة، فخصّ به وتغلب عليه حتى تقدم على الناس كلّهم.³

وكان في البلاط العباسي أكثر من منجم يشرف عليهم رئيس يسمّى رئيس المنجمين وأول من تولّى هذه المهمة في البلاط العباسي توفيل بن تومي في عهد الخليفة المهدي.⁴

وكان من أشهر من تولى مهمة التنجيم في البلاط العباسي، النوبخت في عهد الخليفة المنصور، ثم خلفه ابنه أبو سهل.⁵ فقد سعى المنجمون كما هو الشأن بالنسبة للأطباء إلى توريث مواقعهم في البلاط لأبنائهم. وإلى جانب عائلة النوبخت اشتهرت كذلك عائلة آل المنجم، وكان جدّهم أبو منصور مجوسيا وهو أول من اتصل بالخليفة المنصور وخدمه ولم يسلم، ثم ورثه ابنه يحيى وقد خدم المأمون وأسلم على يديه.⁶

وورث علي بن يحيى الخدمة في بلاط المأمون عن والده، ثم دخل في خدمة المتوكل، ثم الخليفة المنتصر، والخليفة المستعين والخليفة المعتز، إلّا المهدي فإنه حقد عليه أشياء كثيرة، ثم خدم الخليفة المعتمد إلى أن توفي في آخر أيامه.⁷ فقد صار آل المنجم بمثابة منجمي الأسرة المالكة العباسية، على شاكلة آل بختيشوع الأطباء.

وكان الخلفاء يجرون على هؤلاء المنجمين الأرزاق، فقد جعل المعتز لأبي معشر المنجم عندما اتصل بخدمته جاري شهري قدره 30 دينار وصلة قدرت بمبلغ (100 دينار)،⁸ ووصل إلى علي بن يحيى المنجم خلال خدمته للمتوكل مبلغ (300.000 دينار).⁹

نستنتج أن الخلفاء العباسيين اتخذوا المنجمين وصارت وظيفة المنجم من الوظائف القارة في البلاط العباسي. ورغم أن العرب عرفوا التنجيم منذ العهد الجاهلي،¹⁰ فإن دور المنجم في البلاط العباسي صار يشبه دور المنجم في البلاط الفارسي. فالمسألة مسألة تقليد للملوك الفرس وليس مسألة ذهنية خاصة بالعرب لأن العرب اعتقدوا في السحر والتنجيم منذ الجاهلية. فهي عنصر من عناصر نظام البلاطات.

¹ - ابن العبري، نفس المصدر، ص 137؛ القفطي، نفس المصدر، ص 234.

² - ابن خلكان، نفس المصدر، ج 3، ص 373؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 12، ص 121-122.

- Saliba.G, "The role of the astrologer in medieval Islamic society", *Op. Cit*, p.52.

³ - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج 5، ص 2008-2017.

⁴ - ابن العبري، نفس المصدر، ص 127.

⁵ - ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 125؛ القفطي، أخبار العلماء، ص 266-267.

⁶ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 7، ص 318؛

- *E.I*², t VII « Al- Munadjdjim », p.559 ; Saliba.G, *Ibidem*, p.52.

⁷ - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج 5، ص 2008-2017.

⁸ - Saliba.G, *Ibid*, p.63.

⁹ - ياقوت الحموي، نفس المصدر، ج 5، ص 2008-2017.

¹⁰ - مرحبا (محمد عبد الرحمان)، نفس المرجع، ص 419.

لقد قام مجتمع البلاط العباسي على فئات اجتماعية متنوعة، كبنى العباس، والوزراء والحجاب والشرطة والحرس والخدم والأطباء والمنجمين... واستعمل الخلفاء العباسيون معهم وسائل مادية ومعنوية لكسبهم، كمنحهم الأموال والمناصب السياسية وإكرامهم، فنجحوا بذلك فى تحقيق " أمية الاسلام "، التى عجز عن تحقيقها الأمويون، حيث صهروا العنصر العربى والعنصر الأعجمى (من الفرس والترك والزنج والصقالبة، والسود...)، والاسلامى والنصرانى، فبرزت عائلات عديدة تتوارث الوظائف فى البلاط، وقد اختصت كل عائلة بوظيفة معينة (بنو وهب فى الوزارة، آل بختيشوع فى الطب...).

وإذا استثنينا الخدم المتصلة أعمالهم مباشرة بالخليفة وبالحرىم والذين كانوا يقيمون داخل دار الخلافة، فإن سائر الموظفين سواء المهتمون بتسيير شؤون الخلافة أو القصر، كانت تتوزع محلات إقامتهم خارج دار الخلافة مكرسين بذلك أكثر " مجتمع البلاط ".

الفصل الثاني: توزيع إقامات رجال البلاط

يعدّ التعرف على مقرات الطبقة المتنفذة من وزراء وحجاب وقادة وعسكريين وكذلك على مقرات أفراد الأسرة العباسية أمراً ضرورياً، لأنها تمكننا يشير إلى ذلك نوربار إلياس " فكرة صريحة وواضحة عن بعض العلاقات الاجتماعية المميّزة لمجتمع البلاط".¹ كما تمكننا من التعرف كيف كان الخلفاء العباسيون يسكنون ويجمعون حولهم أتباعهم وحاشيتهم.

I توزيع الإقامات في بغداد

مثلاً أشرنا إلى ذلك في الباب الأول استهدف المنصور من تأسيس بغداد إنشاء، مقر له ولأهله وجنده والمتصلين به، وفي حين جعل مقرّه داخل أسوار المدينة، فإن باقي الإقامات قد وزعت خارج أسوار المدينة أي في الأرباض. وقد قسمت الأرباض إلى أربعة أرباع بشكل يتسق مع أبواب المدينة الأربعة وهي على التوالي:

- الربع من باب الكوفة إلى باب البصرة

- الربع من باب الكوفة إلى باب الشام

الربع من باب الشام إلى ربض حرب.

- وأخيراً الربع من باب خراسان. ووكل بكل ربع رجلاً من المهندسين.²

وتشير المصادر إلى أن المنصور وزع هذه الأراضي على " أهل بيته وقواده وجنده وصحابته وكتابه".³ وذكر الاصطخري "وجعل حوالها قطائع لحاشيته ومواليه".⁴ وبذلك تحولت الأرباض إلى منطقة سكنية تضم أسرة الخليفة والمتصلين به: قواده، مواليه وموظفيه، وكانت فيها طرق ودروب متعددة ومساجد وحمامات.

فعلى أي أساس نظم السكن داخل الأرباض: على أساس عرقي أم قبلي أم قرابي أو وظيفي وإلى أي مدى تعكس لنا هذه التنظيمات طبيعة العلاقات التي كانت تربط بين مجتمع البلاط؟

لم يبق لنا اليوم من معين على تحديد خصوصية السكن في أرباض المدينة المدورة، سوى ما تركته لنا المصادر الخططية من أوصاف، وقد حوى كتاب البلدان لليعقوبي على أوسع المعلومات، فقد قدّم لنا تفصيلاً أوفى عن هذه الإقامات لكنه لم يتمكن من الإحاطة بكافتها. كما ذكر لنا كل من الخطيب البغدادي والهمداني قطائع وأرباض لم يذكرها اليعقوبي. وبصفة عامة يمكن توزيع السكن خارج المدينة المدورة على التوالي:

* الربع من باب الكوفة إلى باب البصرة

¹ - Elias.N, *La Société de cour*, p. 19.

² - اليعقوبي، *البلدان*، ص 10-18.

³ - البلاذري، *فتوح البلدان*، ص 361.

⁴ - الاصطخري، *المسالك والممالك*، 215.

اسم صاحب القطيعة	انتماءه الاجتماعي، الجغرافي أو القبلي	وظيفته	نوعية القطيعة	موقعها
عبد الوهاب	ابن إبراهيم بن محمد بن علي بن العباس	-	ربض يعرف بسويقة	إزاء باب الكوفة على الصراة السفلى
العباس	ابن محمد بن علي بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب	-	جزيرة جعلها بستانا و تعرف بالعباسية	بين الصراتين
الشروية رئيسهم حسن الشروي	موالي محمد بن علي بن عبد الله بن العباس	بوابو المنصور	قطيعة	دون سويقة عبد الله مما يلي باب الكوفة
المهاجر	ابن عمرو	صاحب ديوان الصدقات	قطيعة	إلى جانب ديوان الصدقات في الرحبة التي تجاه باب الكوفة
ياسين	-	صاحب النجائب	قطيعة	إلى جانب خان النجائب، إزاء قطيعة ياسين
-	موالي	-	اصطبل	دون خان النجائب
المسيب وأهل بيته	ابن زهير الظبي	صاحب الشرطة	دار و مسجد ذي منارة طويلة	بين باب الكوفة مما يلي باب البصرة
أزهر	ابن زهير الظبي (آخر المسيب)	-	دار و بستان	وراء قطيعة المسيب على الصراة
أبو العنبر	مولى المنصور	-	قطيعة	إلى جانب قطيعة المسيب و أهل بيته
إسحاق	ابن عيسى بن علي	-	قصورا و دورا	على الصراة العظمى من الجانب الشرقي
عيسى	ابن علي	-	قطيعة	-
أبو السري	شامي مولى المنصور	-	قطيعة	-
حميد و أصحابه و جماعة من آل قحطبة	ابن قحطبة بن شبيب الطائي	-	ربض وهناك داره و دار أصحابه وأهله	على الصراة العليا
-	روميون	فراشون	دار	متصلة بدار حميد وأصحابه
-	فرس	أصحاب الشاد	منازل	في الشارع الأعظم
كعبوبة	بصري	بستانبان	دار	إلى جانب قطيعة الروميين على كمر حابا
أبو الورد كوثر حبيب	ابن اليمان ابن رغبان حمصي	خازن بيت المال	ربض و سويقة قطيعة - مسجد	قبل القنطرة العتيقة وراء قطيعة أبي الورد
-	الأنباريون	كتاب ديوان الخراج	مسجد	إلى جانب مسجد بن رغبان
سليم	مولى المنصور	صاحب ديوان الخراج	قطيعة	قبل القنطرة العتيقة و أنت مقبل من باب الكوفة، في الشارع الأعظم
أيوب	ابن عيسى الشروي	-	قطيعة	إلى جانب قطيعة سليم
رباوة وأصحابه	شروي	-	قطيعة	بعد قطيعة أيوب تنتهي إلى باب البصرة
وضاح	مولى المنصور	صاحب خزانة السلاح	ربض يعرف بقصر وضاح	بعد قطيعة رباوة
عمرو	ابن سميان من حران	-	قطيعة و بها طاق الحراني	بعد قطيعة وضاح

المهدي	ابن المنصور	-	مدينة الشرقية	بعد قطعة عمرو
جعفر	ابن المنصور	-	قطيعة	على شط دجلة
عيسى	ابن جعفر	-	دار	في قطيعة جعفر
جعفر	ابن جعفر بن المنصور	-	دار	بالقرب من دار عيسى
الربيع	مولى المنصور	-	قطيعة	في شارع باب الكرخ

* الربع من باب الكوفة إلى باب الشام

اسم صاحب القطيعة	انتماءه الاجتماعي، الجغرافي أو القبلي	وظيفته	نوعية القطيعة	موقعها
سليمان	ابن مجالد	تولى هذا الربع	ربض	-
واضح	-	-	قطيعة	-
عامر	ابن إسماعيل المسلي	-	قطيعة	-
الحسن	ابن قحطبة	-	ربض ومنازل له ولأهله	في الدرب المعروف بالحسن
الخوارزمية	أصحاب الحارث بن رقاد الخوارزمي	-	ربض و قطيعة الحارث في الدرب	-
-	مولى المنصور	صاحب الركاب	قطيعة (دار)	-
الخليل	ابن هاشم الباوردي	-	ربض	-
الخطاب	ابن نافع الصحاوي	-	ربض	-
هاشم	ابن معروف	-	قطيعة	في درب الأقباص
الحسن	ابن الجعفرات	-	قطيعة	في درب الأقباص و هو متصل بدرب القصارين
واضح	مولى المنصور	-	قطيعة هو و أولاده	في شارع طريق الأنبار
أيوب	ابن المغيرة الفزاري بالكوفة	-	درب يعرف بدرب الكوفيين	إلى جانب قطيعة واضح
سلامة و أصحابه	ابن سمعان البخاري	-	قطيعة و مسجد يعرف بمسج البخارية	إلى جانب قطيعة أيوب بن المغيرة
اللحلاج	-	متطب	قطيعة	بعد قطيعة سلامة
عوف	ابن نزار، بمامي	-	قطيعة و درب اليمامية	ينفذ إلى دار سليمان بن مجالد
الفضل	ابن جعونة الرازي	-	قطيعة	-
هيرة	ابن عمرو	-	دار	-
صالح	البلدي	-	قطيعة	في درب صباح النافذ إلى سوق عبد الوهاب
قابوس	ابن السميدع	-	قطيعة	في درب صباح النافذ إلى سوق عبد الوهاب
خالد	ابن الوليد	-	قطيعة	إلى جانب قطيعة قابوس
شعبة	ابن يزيد، كابل	-	قطيعة	بعد قطيعة خالد
القس	مولى المنصور	-	ربض و بستان يعرف به (بستان القس)	يلي قطيعة شعبة
المهشم	ابن معاوية	-	ربض	يلي ربض القس
المرورودية	آل أبي خالد الأنباري	-	قطيعة	بعد ربض المهشم
أبو يزيد الشوري و أصحابه	مولى محمد بن علي	-	-	-
موسى	ابن كعب، تميمي	شرطة المنصور	قطيعة	-
بشر	ابن ميمون	-	قطيعة و منازل	-

سعيد	ابن دعلج، تيمى	-	قطيعة	-
الشخير و ابنه زكرياء	-	-	قطيعة	-
أبو أيوب سليمان	ابن أيوب الخوزي، مورياني	-	قطيعة	-
رداد بن زاذان	-	-	قطيعة	-

* الربع من باب الشام إلى باب خراسان

اسم صاحب القطيعة	انتماءه الاجتماعي، الجغرافي أو القبلي	وظيفته	نوعية القطيعة	موقعها
الفضل	ابن سليمان، طوسي	-	قطيعة	في أول الربع و إلى جانبه سجن الشام و السوق المعروفة بسوق الشام.
حرب	ابن عبد الله، بلخي	-	ربض وفيه أهل بلخ وومرو و الختل و بخاري و خوارزم و كابل و لكل أهل بلد قائد و رئيس.	يأتي بعد سوق الشام
الحكم	ابن يوسف، بلخ	صاحب الحراة ولي كذلك الشرط	قطيعة	-
الرفيق	رفيق أبي جعفر كانوا مضمومين إلى الربيع مولاه.	-	ربض يعرف بدار الرفيق	بعد السوق الذي على جسر دجلة.
الكرمانية، قائدهم بوزان بن خالد الكرمانى	-	-	ربض	يلي دار الرفيق
الصغد	-	-	قطيعة	بعد ربض الكرمانية
خرقاش	صغدي	-	دار	تلي قطيعة الصغد
ماهان و أصحابه	صامغاني	-	قطيعة	تلي دار خرقاش الصغدي
مرزبان وأصحابه وأصحاب العمد	أبو أسد بن مرزبان الفاريابي	-	قطيعة	بعد قطيعة ماهان

* الربع من باب خراسان إلى الجسر

اسم صاحب القطيعة	انتماءه الاجتماعي، الجغرافي أو القبلي	وظيفته	نوعية القطيعة	موقعها
-	-	-	الإصطبلات	-
أبو جعفر والمهدي	-	-	قصر نزله المنصور و المهدي قبل أن ينتقل إلى الرصافة في الجانب الشرقي	على دجلة
-	-	-	مجلس الشرطة	على الجسر
-	-	-	دار صناعة	على الجسر
سليمان	ابن أبي جعفر	-	قطيعة	في الشارع الأعظم على دجلة و في درب يعرف بدرب سليمان
صالح المسكين	ابن الخليفة المنصور	-	قطيعة	إلى جانب قطيعة

سليمان في الشارع الأعظم				
متصلة بقطيعة صالح المسكين	دار	-	مولى المنصور	نجيح
آخر قطيعة صالح	قطيعة	-	الجرجانية	عبد الملك بن يزيد المعروف بأي عون و أصحابه
متصلة بقطيعة الجرجانية	قطيعة	-	باذغيسي	تميم
بعد قطيعة تميم	قطيعة	-	الفراغة	عباد و أصحابه
تلي قطيعة الفراغة	قطيعة	الحجابه	معروف بابن أبي روضة	عيسى بن نجيح و غلمان الحجابه
إلى جانب قطيعة غلمان الحجابه	قطيعة	-	الأفارقة	-
مما يلي قنطرة التبانين	قطيعة	-	ديلمي	تمام
بعد قطيعة تمام	قطيعة	-	ابن مالك	حنبل
بعد قطيعة حنبل	قطيعة - دار	-	البغين	حفص بن عثمان و أصحابه
ناحية باب قطربل	قطيعة	-	ابن المنصور	جعفر
بعد قطيعة جعفر مما على القبلة	قطيعة	-	عجلي	مرار
تلي قطيعة مرار العجلي.	قطيعة	ولي الشرطة ثم عزله و ولده خراسان فعصى هناك فبعث له المنصور المهدي لمحاربته	أزدي	عبد الجبار بن عبد الرحمان

إن ما نلاحظه من خلال هذه الجداول هو:

- أولاً تعدد التسميات التي تطلقها المصادر على كل مكان حيث نجد في بعض الأحيان تسمي المكان ربضا وفي أحيان أخرى تسميه قطيعة. أما الربض فهو الفضاء حول المدينة.¹ أما القطيعة فهي تطلق على الأرض التي لا ملك لأحد عليها فيستقطعها شخص من الإمام فيمنحها له وتصير ملكا خاصا، أو الأرض التي هي ملك للسلطان فيمنحها لأسرته والتابعين له. يذكر الهمذاني أن العباس عم الخليفة "استقطع منه الرحبة التي بين المدينة فمنحه إياها و انصرف ومعه التوقيع بإقطاعها".² وقد اكتفى اليعقوبي وكذلك الخطيب والهمذاني بالإشارة إلى الربض أو القطيعة وفي بعض الأحيان الإشارة إلى موقعها لكن ذكر مدى سعتها، لكن يبدو من خلال الأوصاف التي قدموها أن الأرباض كانت متباينة الحجم. ذكر اليعقوبي عن ربض حرب بن عبد الله البلخي "وليس ببغداد ربض أوسع ولا أكبر ولا أكثر دروبا وأسواقا في الحال منه".³ أما القطائع فبدل وصفها أنها كانت كبيرة الحجم، إلى درجة كان يقيم فيها صاحب القطيعة مع مواليه وحرمة وكانوا كثيري العدد

¹ - ابن منظور، لسان العرب، ج 3، ص 22.

² - ابن منظور، لسان العرب، ج 5، ص 148؛ الهمذاني، كتاب البلدان، ص 279.

³ - اليعقوبي، البلدان، ص 16.

"فقد كان يقيم في قصر عيسى بن علي عم المنصور " أربعة آلاف نفس".¹ وكان يقيم في بعض القطائع صاحب القطيعة مع جماعته مثال " قطيعة رباوة الكرمان وأصحابه" وذكرت قطائع لجماعات مثل قطيعة الفراشين وقطيعة الشروية ومنازل الفرس. كما ورد ذكر قطائع تحمل أسماء أشخاص مفردة، مما يدل على أن القطائع كانت متباينة المساحة والحجم.

وقد تعددت الكلمات التي استعملتها المصادر لوصف الإقامات داخل القطائع والأرباض، حيث نجد كلمة، "دار"، "متزل"، "قصر"، دون الإشارة إلى خصائص ما وصفته بالقصر أو المتزل أو الدار.

- ثانيا: نتبين من خلال القوائم التي أمدنا بها اليعقوبي، حول أسماء القطائع والأرباض أن معظمها كان لرجال من أبناء الأسرة العباسية، أو من الشرطة والحرس والجيش، أو كذلك من الوزراء والكتاب والموالي والصحابة. بالنسبة لأبناء البيت العباسي فقد أقطع أولاده، خاصة في الجهة الشرقية أي في الرقعة الضيقة المحصورة بين دجلة والمدينة.² يذكر اليعقوبي " فإذا جاوزت موضع الجسر، فالجسر ومجلس الشرطة ودار صناعة للجسر، فإذا جاوزت ذلك أول القطائع قطيعة سليمان بن أبي جعفر المنصور في الشارع الأعظم على دجلة وفي درب يعرف بدرب سليمان وإلى جنب قطيعة سليمان في الشارع الأعظم قطيعة صالح بن أمير المؤمنين المنصور".³

وكانت قطيعة جعفر بن المنصور كذلك على شط دجلة وبها دار عيسى بن جعفر وتقرّب منها دار جعفر بن المنصور. وكذلك الشرقية " وإنما سميت الشرقية لأنها قدرت مدينة للمهدي قبل أن يعزم على أن يكون نزول المهدي في الجانب الشرقي من دجلة فسميت الشرقية".⁴ وقد بين العلي أن هذه الدور كانت تقع في الطرف الجنوبي الشرقي من المدينة المدورة.⁵

أما أقاربه وأعمامه فقد أقطعهم في الجهة الجنوبية وهي مختلطة مع إقطاعات أناس آخرين من غير الأسرة العباسية.⁶ فقد كانت قطيعة عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام، إزاء باب الكوفة على الصراة السفلى التي تأخذ من الفرات.⁷ وعموما فإن أغلب الأراضي الواقعة على دجلة كانت إقطاعاتا للعباسيين، يذكر الخطيب البغدادي " وأما شاطئ دجلة فمن قصر عيسى إلى الدار التي يترها هذا اليوم على قرن الصراة إبراهيم بن حميد فإنما كان إقطاعا لعيسى بن علي وإليه ينسب نهر عيسى، وقصر عيسى وعيسى بن جعفر وجعفر بن أبي جعفر وإليه ينسب فرضة جعفر وقطيعة جعفر...".⁸

¹ - الهمذاني، كتاب البلدان، ص 300.

² - العلي (صالح أحمد)، " الأسرة العباسية في بغداد"، نفس المرجع، ص 243.

³ - اليعقوبي، البلدان، ص 16-17.

⁴ - اليعقوبي، البلدان، ص 12.

⁵ - العلي (صالح أحمد)، " الأسرة العباسية في بغداد"، نفس المرجع، ص 244.

⁶ - العلي (صالح أحمد)، " الأسرة العباسية في بغداد"، نفس المرجع، ص 243.

⁷ - اليعقوبي، البلدان، ص 11.

⁸ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 92.

نلاحظ أن المنصور لم يسع إلى تجميع رجال الأسرة العباسية في قطيعة واحدة بل سعى إلى منحهم قطائع متفرقة وموزعة على جهات المدينة الشرقية والجنوبية ولكنها متقاربة من بعضها في كل جهة من الجهات. كما سعى إلى إتباع خطة معينة تتمثل في جعل معظم الأراضي الواقعة على دجلة إقطاعاً للعباسيين.

وقد وزع المنصور الأراضي في الأرباض على أهل بيته وكذلك على الموظفين، وقد ذكر لنا اليعقوبي بعض الدواوين التي كانت خارج المدينة المدورة مثل: مثل ديوان الصدقات " وأقطع المهاجر بن عمرو صاحب ديوان الصدقات في الرحبة التي تجاه باب الكوفة فهناك ديوان الصدقات ".¹ يفهم من كلام اليعقوبي أن ديوان الصدقات كان يقع قرب قطيعة صاحبه، لكن هذا لم يكن قاعدة فقد ذكر لنا اليعقوبي قطائع لأصحاب بعض الدواوين التي ذكر موقعها حول الرحبة، مثال ربض أبي الورد كوثر بن اليمان خازن بيت المال والذي كان قرب القنطرة العتيقة. وفي ظهرها قطيعة الأنباريين كتاب ديوان الخراج وقد كان لهم مسجد كذلك. وقطيعة " سليم مولى أمير المؤمنين صاحب ديوان الخراج في الشارع الأعظم ". كما ذكر " قصر وضاح صاحب خزانة السلاح " وموقعه قرب باب الكوفة على الصراة.

نلاحظ إذن أن المنصور أقطع أصحاب الدواوين قطائع خارج المدورة ، قرب باب الكوفة وهي ليست بعيدة عن مراكز عملهم، ولا يحتاج الاتصال بينهما إلاّ عبور الخندق ودخول المدينة من إحدى أبوابها و لاسيما باب الكوفة بحكم إقامتهم بالقرب منه.

وقد ذكرت لنا المصادر محل سكن من شغل منصب وزير في عهد الخليفة المنصور، مثل ربض أبي أيوب سليمان بن أيوب الخوزي المورياني، والذي يقع شمال المدينة المدورة. كما ذكر الخطيب منازل البرامكة بالقرب من قطيعة الأنصار وهي تقع جنوب المدينة المدورة وقطيعة الربيع وتقع في الكرخ (انظر الجدول). لكن لم تشر المصادر إلى مركز عمل الوزير.

ومن موظفي البلاط الذين ذكرت لهم المصادر الخططية قطائع، الحجاب مثل عيسى بن نجيح المعروف بابن روضة. كانت له قطيعة مع غلمان الحجابة في الأطراف الشمالية للمدينة المدورة في الربع من باب خراسان إلى الجسر على دجلة.² ويبدو أنهم كانوا يقومون بعملهم في قصر الخليفة ودون الحاجة إلى بنايات خاصة بهم. و " اللحلاج المتطيب " وكانت له قطيعة في الجانب الغربي من المدينة المدورة في شارع الأنباريين.³ و "النوبختية" إقطاع من المنصور لنوبخت المنجم.⁴ وعمل الطبيب والمنجم يتصل مباشرة بالخليفة. كذلك ممن أقطعهم المنصور "الصحابه" و"الموالي".

¹ - اليعقوبي، البلدان، ص 11.

² - اليعقوبي، البلدان، ص 17.

³ - اليعقوبي، البلدان، ص 15.

⁴ - الهمذاني، كتاب البلدان، ص 303.

فأما الصحابة فقد ذكرت لهم المصادر قطائع خارج المدينة المدورة، في الجهة الجنوبية على الصراة، يذكر اليعقوبي " وعلى الصراة قطيعة الصحابة وكانوا من سائر قبائل العرب من قريش والأنصار وربيعة ويمن، وهناك دار عياش المتوف وغيره، ثم قطيعة يقطين بن موسى أحد رجال الدولة وأصحاب الدعوة".¹

وأشار الخطيب إلى "دور الصحابة" وذكر منهم " أبو بكر الهذلي وله مسجد ودرب محمد بن يزيد، وشبته بن عقال وحنظلة بن عقال ولهم درب ولعبد الله ابن الربيع الحارثي دار في درب الصحابة".² كما أشارت المصادر كذلك إلى العديد من القطائع وذكرت أنها كانت لموالي المنصور، نذكر من بينها: قطيعة أبي العنبر مولى المنصور وتقع قرب قطيعة الصحابة، وقطيعة واضح مولى أمير المؤمنين وتقع قرب شارع الأنبار. وربض القس مولى المنصور، وبستان القس المعروف به. كما أشار اليعقوبي إلى اصطبل الموالي وهو إلى جانب ديوان الصدقات، قرب باب الكوفة.³

وقد ذكرت لنا المصادر كذلك قطائع لأصحاب الشرطة والحرس وقادة الجيش خارج المدينة المدورة وهي مسماة بأسماء أصحابها: فأما أصحاب الشرطة فقد ذكرت لنا قطيعة المسيب بن زهير الضبي وموقعها " بمنا باب الكوفة الداخل إلى المدينة مما يلي باب البصرة فهناك دار المسيب ومسجد المسيب ذو المنارة الطويلة". وقطيعة موسى بن كعب التميمي في الربض الواقع بين باب الكوفة وباب الشام، أي شمال غربي المدينة المدورة. كذلك قطيعة عبد الجبار بن عبد الرحمان الأزدي قرب قطيعة أم جعفر ناحية قطربل، في شمال المدينة المدورة.⁴ وبصفة عامة فقد كانت قطائع أغلب الذين ولّوا الشرطة قرية من أبواب المدينة.

أما أصحاب الحرس فقد ذكر لنا بن الفقيه "ربض الحرس" وهو يقع في الشارع النافذ إلى مربعة شبيب أي شمال المدينة المدورة، وذكر كذلك ربض "عثمان بن سهيل وكان على حرس المنصور".⁵ وقد كان أصحاب الحرس يقيمون داخل المدينة المدورة وخارجها، وهو ما يكشف لنا مدى أهمية الحرس ودورهم في حماية الخليفة وحفظ الأمن.

كما ذكر لنا كل من الخطيب البغدادي والفقيه الهمداني، عددا من أقطعتهم المنصور وأشار إلى أنهم من القواد. كقطيعة أبي النجم وهو أحد قواد المنصور وأصله من خراسان، وربض أبي نعيم موسى أحد قواد المنصور كذلك وهو من مرو، وربض رواد بن مناذ.⁶

وقد ورد ذكر القطائع موزعة بأسماء أشخاص من القواد أو كذلك بأسماء جماعات من أهل المدن والأقاليم، وقد ورد ذكرهم مفردين أو ذكر رئيسهم أو قائدهم معهم، وهي موزعة على جهات المدينة: الشمالية، الغربية

¹ - اليعقوبي، البلدان، ص 12.

² - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ص 86.

³ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 11-12 - 15-17؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 85؛ العلي، بغداد، ج 1، ص 69.

⁴ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 12-15 - 17؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 85؛ العلي، بغداد، ج 1، ص 199.

⁵ - الهمداني، البلدان، ص 298-300.

⁶ - الهمداني، نفس المصدر، ص 298-300؛ الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 84.

والجنوبية. ونذكر منهم في الشمال قطيعة " الأفارقة"، " الجرجانية " أصحاب "عبد الملك بن يزيد الجرجاني المعروف بأبي عون"، و ربض " الكرمانية" وقائدهم " بوزان بن خالد الكرمانى"، وقطيعة " المرورذية" آل أبي خالد الأنباري.¹

وفي الأطراف الغربية ربض " الخوارزمية" أصحاب " الحارث بن رقاد الخوارزمي" قرب شارع باب الأنبار، و"درب اليمامية" وقطيعة القحاطبة من شارع باب الكوفة إلى باب الشام.²

وفي الجنوب " منازل الفرس" أصحاب الشاه، وهي في الشارع الأعظم. أما الخطيب فقد ذكر " ربض الفرس" وذكر بن الفقيه " مربعة الفرس".³

نلاحظ إذن أن أغلب قطائع الجند والقواد كانت في الأطراف الشمالية والغربية للمدينة ويمكن تفسير ذلك بما أشار إليه العلي من كون تلك المناطق كانت مكشوفة وليس فيها مواقع تعيق تقدم الأخطار المهددة لبغداد، فإقامة المقاتلة فيها يؤمن الحماية لجهة مهددة، عكس الجهات الشرقية التي كان يحميها نهر دجلة والأطراف الجنوبية التي تحميها شبكة الأنهار المتفرعة عن نهر عيسى.⁴

وقد ورد كذلك ذكر أصحاب قطائع كانت لهم أدوار أخرى في البلاط كقطيعة "الفراسين"، وتعرف بـ"دار الروميين"، وتقع على الصراة العليا، أي جنوب المدينة.⁵

وقطيعة الشروية وهم موالي محمد بن علي بن عبد الله بن العباس وكانوا "بوابي" المنصور وقد أقطعهم مما يلي باب الكوفة"، أي جنوب المدينة المدورة. وذكر اليعقوبي قطيعة لصاحب الركاب دون أن ينسبها لصاحبها واكتفى بالقول أنه من موالي المنصور.⁶ وذكر بن " ربض الترجمان بن صالح" قرب ربض حرب بن عبد الملك البلخي، غرب المدينة. كما ذكر درب السقائين.⁷

¹ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 14-15-16-17؛ الهمذاني، نفس المصدر، ص 295؛ الخطيب البغدادي، نفس المصدر،

ج 1، ص 85.

² - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 14-15؛ الهمذاني، نفس المصدر، ص 295-300.

³ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 12؛ الهمذاني، نفس المصدر، ص 298؛ الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص

85.

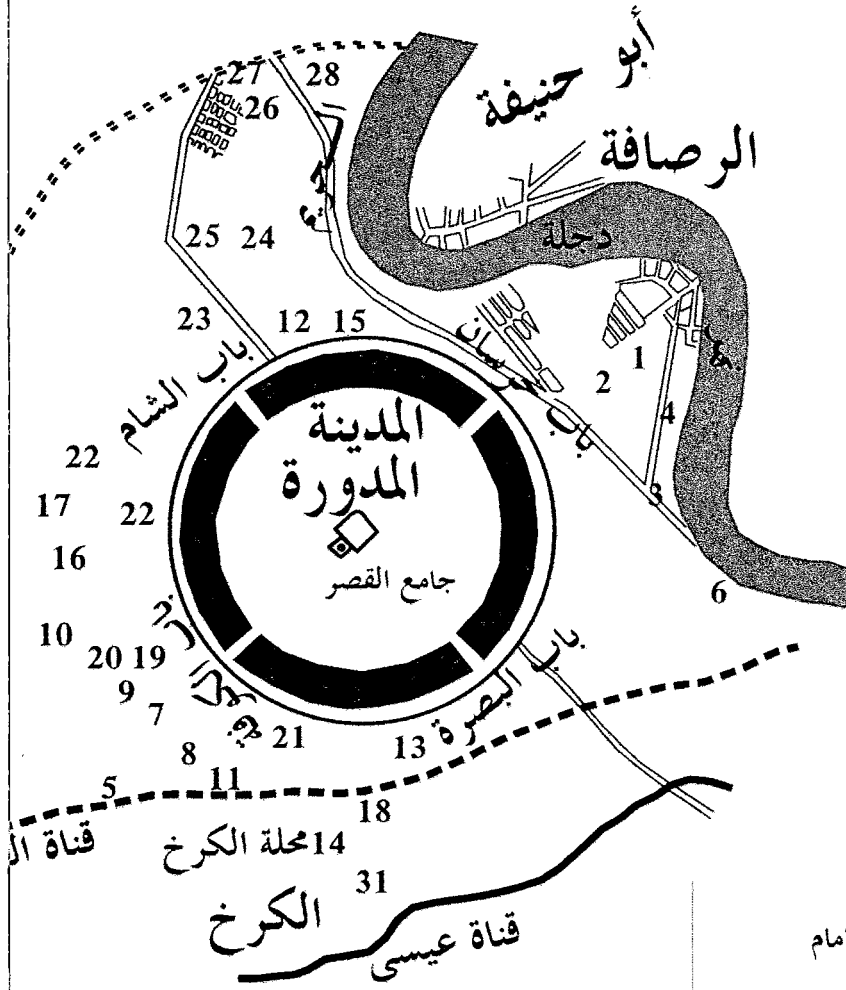
⁴ - العلي، بغداد، ج 1، ص 171.

⁵ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 12.

⁶ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 11.

⁷ - الهمذاني، نفس المصدر، ص 295-300.

تصور لخريطة توزع القطاعات في بغداد حسب نص اليعقوبي



المفتاح

الأسرة العباسية

1- أولاد الخليفة المنصور

1 قطعة سليمان

2 قطعة صالح

3 قطعة جعفر

4 الشرقية للمهدي

2- أقارب الخليفة: أعمامه

5 قطعة عبد الوهاب ابن ابراهيم الإمام

6 قطعة عيسى بن علي

أصحاب الدواوين

7 ديوان الصدقات

8 خازن بيت المال

9 قطعة الأنباريين

10 قطعة صاحب ديوان الخراج

11 قصر وضاح

الوزراء

12 ربض أبو أيوب الورياني الوزير

13 البرامكة

14 الوزير الربيع بن يونس

الحجاب

15 ابن روضة حاجب قطعة مع غلمان الحجابة

الطبيب

16 الدلاج: الطبيب

النوختية

17 المنجم

18 الصحابة

الموالي

19 قطعة أبو العنبر مولى المنصور

20 اسطبل الموالي

الشرطة

21 قطعة المسيب بن زهير الضبي

22 قطعة موسى بن كعب التميمي

23 قطعة عبد الجبار الأزدي

الحرس

24 ربض الحرس

25 ربض عثمان

الجنود

26 قطعة الأفار

27 قطعة الجرح

28 ربض الكرم

29 ربض الخوار

30 قطعة القحاح

31 منازل الفرس

نلاحظ أن الأرباض تحولت إلى منطقة سكنية يقطنها أقارب الخليفة وأعوان البلاط، وقد جعل فيها شوارع ودروب متعددة، ولم تشر المصادر إلى أن المنصور قد جعل فيها، مزارع وبساتين، عدا " العباسية "، وهي الجزيرة التي تقع بين الفراتين جنوب المدينة المدورة، وقد أقطعها المنصور عمه العباس بن محمد بن علي "فجعلها العباس بستانا ومزروعا". ولم يعرف في أرباض بغداد مزرعة غيرها.¹ ولم تشر المصادر إلى كيفية تحديد السكن في الأرباض، إذ لم تذكر وجود أي خندق أو أسوار كانت تحيط بها كما هو الشأن داخل المدينة المدورة، لكن يبدو أن السكن في الأرباض كانت تحدده الأتجار، وأن مساكن الناس لم تتجاوز نهر عيسى في الجنوب مثلما أشار إلى ذلك العلي.²

أما التجار والصناع وأصحاب الحرف والأسواق فقد جعلوا في الكرخ جنوب المدينة المدورة على الصراة، وقد مكّن ازدهار الكرخ من إيجاد مدينة " بورجوازية " مجاورة للمدينة " الملكية " في بغداد. وتشير بركن إلى أن بغداد هي من المدن الملكية القلائل التي تمكنت من إيجاد مدينة بورجوازية مجاورة لها.³ وقد كانت الصلة بين المدينتين محدودة كما أن وصول هؤلاء التجار إلى المدينة الملكية كان شديد المراقبة.⁴ ويعود ذلك إلى الاختلاف في التركيبة المكونة لكلا المدينتين، ففي حين يتكون سكان " المدينة الملكية " من أولاد الخليفة وأتباعه والمتصلين به، وهم يعتمدون في معاشهم على العطاء الذي يقدمه لهم ، تضم المدينة " البورجوازية " التجار والصناع وأهل السوق وأصحاب الحرف وهم يعتمدون في معاشهم على ما يصنعونهم بأيديهم، أو على ما يحققونه من أرباح من خلال التجارة. وقد كان المسجد الجامع هو الرابط بين المدينتين بالإضافة إلى التذكرة الشرائية.⁵ نستنتج إذن أن توزيع القطاعات في بغداد لم يتم على أساس عرقي أو قبلي كما هو الشأن في البصرة والكوفة والقيروان، وإنما هو يتجاوب وطبيعة الوظائف المسندة لأعوان البلاط، والتي تنتظم على أساس تراتبي. ونفس هذا التنظيم حسب الوظائف اعتمده المعتصم في سامراء.

¹ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 11؛ الهمذاني، نفس المصدر، ص 301.

² - العلي، " إدارة بغداد ومراكزها في العهود العباسية الأولى"، سومر، ص 133.

³ - Barrucand .M, « Les relations entre ville et ensemble palatial », *Op.Cit*, p.326.

⁴ - Barrucand .M, *Ibidem*, p.326.

⁵ - Barrucand .M, *Ibidem*, p.327.

II توزع الإقامات في سامراء

استهدف المعتصم كذلك من تأسيس سامراء أن تكون مركزا له ولجندته والمتصلين به. يذكر اليعقوبي أن المعتصم خط " القطائع للقواد والكتاب والناس واختط الأسواق حول المسجد الجامع".¹ ويبدو من خلال ما أورده اليعقوبي أن المعتصم هو الذي وزّع القطائع على أصحابها، وقد عني بعزل الكتاب والقواد عن الأهليين. كما " عزل قطائع الأتراك عن قطائع الناس جميعا وجعلهم معتزلين عنهم لا يختلطون بقوم من المولدين ولا يجاورهم إلا الفرغنة".² وقد قسمت المدينة إلى شوارع رئيسية مثلت المحاور الأساسية في تنظيم تخطيط المدينة، وقد ذكر اليعقوبي هذه الشوارع وهي كالآتي:

- شارع السريجة: وهو الشارع الأعظم يمتد من المطيرة إلى وادي إسحاق بن إبراهيم.

- شارع أبي أحمد بن الرشيد

- شارع الحير الأول

- شارع برغامش التركي

- شارع صالح العباسي: وهو شارع الأسكر

- شارع الحير الجديد: خلف شارع الأسكر

- شارع الخليج الذي على دجلة.

وقد وزعت القطائع والدور والأسواق بين هذه الشوارع.³

وهنا لا بدّ أن نشير إلى أن الكثير من المعلومات التي أوردها اليعقوبي عن قطائع وأحياء سامراء تعكس أحوال فترة متأخرة عن خلافة المعتصم وتعود إلى ما بعد وفاة الخليفة المتوكل، لكنها تنطبق مع الخارطة الأثرية للمنطقة.⁴ ولعل هذا لا يعد من المآخذ التي يمكن أن نؤاخذها على اليعقوبي بقدر ما يعبر عن منهج معين يتمثل في إحاطة القارئ علما بالتغيرات التي حصلت على بعض القطائع. وعموما يتضح من رواية اليعقوبي ومن الصور الجوية التي تظهر أماكن وجود الآثار الباقية من سامراء والتي وقعها تجسيدها على خرائط، أن تخطيط مدينة سامراء في عهد الخليفة المعتصم كان كالآتي:

يمتد شارع رئيسي من الباب الجنوبي لدار الخلافة وهو الشارع الذي أطلق عليه اليعقوبي في مرحلة لاحقة اسم " شارع أبي أحمد"، يصل إلى المسجد والأسواق وإلى ما بعد مفترق وادي، ثم يتجه نحو الجنوب الشرقي ويصل إلى المطيرة.

وفي المساحة الفاصلة بين دار الخلافة ومفترق الوادي وزعت قطائع الأتراك على طرفي الشارع الرئيسي الشرقي والغربي. وقد استعملت كلمة " قطيعة " للتعبير عن مساكن القواد والكتاب والموظفين وسائر الناس في

¹ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 24.

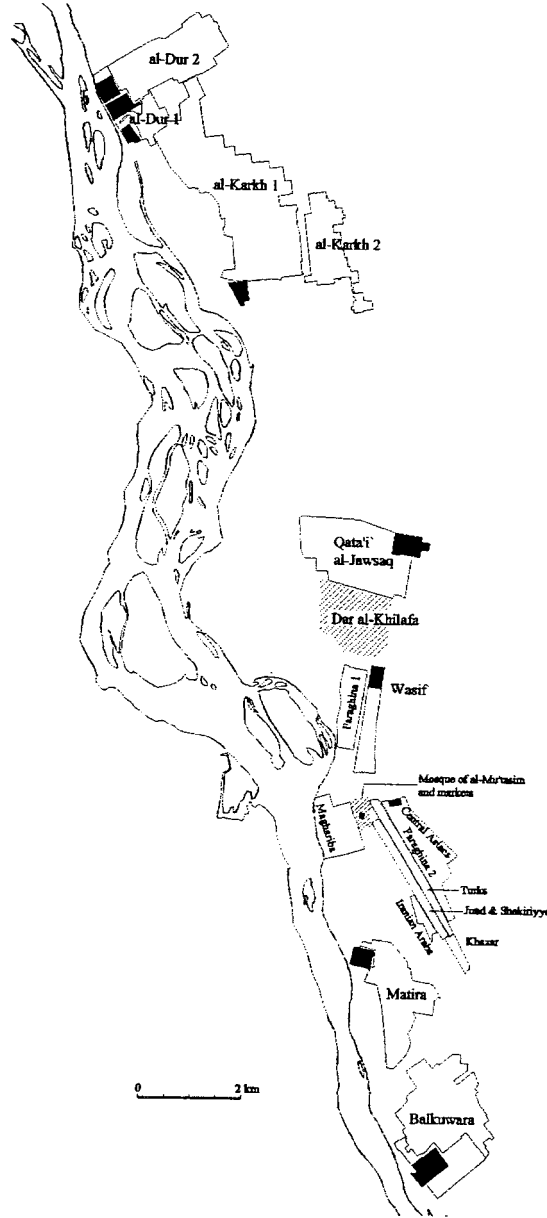
² - اليعقوبي، البلدان، ص 24.

³ - اليعقوبي، البلدان، ص 24-28.

⁴ - Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, p.100.

سامراء، بدلا من كلمة "ربض" في بغداد،¹ وهي تُعطى كما هو الشأن في بغداد إما لأفراد مستقلين أو لجماعات منحدرين من أصل واحد أو من أقاليم واحدة، وتسمى القطيعة في هذه الحالة باسم من تقطع له، وكل قطيعة ذات اكتفاء ذاتي بحيث تضم سوقا صغيرة لبيع السلع الضرورية ومسجدا وحماما.

الخريطة عدد 10- توزيع القطائع في سامراء.



2

¹ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 24-28؛

- Northedge . A, *Entre Amman et Samarra*, p. 92.

² - Northedge. A, *Entre Amman et Samarra*, fig44.

ومن أقطعهم المعتصم في المساحة الفاصلة بين القصر والمسجد الجامع "وصيف وأصحابه"، وقد أقطعهم شمال المسجد الجامع، في الطرف الشرقي للشارع الرئيسي السالف الذكر، وكذلك الفراغة وقد أقطعهم في الطرف الغربي للشارع الرئيسي،¹ وهو ما ينطبق مع ما أورده المسعودي، الذي يذكر "ومن الفراغة من أنزلهم الموضع المعروف بالعمرى والجسر".² أي الموضع الذي يمتد جنوب دار الخلافة وغربي الشارع الرئيسي،³ أما اليعقوبي فيذكر "وأقطع وصيفا وأصحابه مما يلي الخير وبني حائطا سماه حائر الخير ممتدا، وصيرت قطائع الأتراك جميعا والفراغة العجم بعيدة من الأسواق والزحام".⁴ لكن شارع الخير هذا شيده الخليفة المتوكل لذلك يرى نورثادج أن القطيعتين أي قطيعة وصيف وقطيعة الفراغة قد تحولتا زمن اليعقوبي من موضعهما بين القصر والجامع إلى شارع الخير.⁵ ويواصل الشارع الرئيسي امتداده جنوبا في عهد المعتصم، إلى ما بعد المطيرة، حيث أقطع الخراسانية في طرفه الغربي والجند الشاكرية في الطرف الشرقي لشارع الخير الأول.⁶ ونفس هذا التنظيم وقع اعتماده شمال قصر الخليفة حيث يمتد شارع رئيسي وزعت عليه قطائع الأتراك برئاسة أشناس وهي قطائع الكرخ.⁷

أما الكتاب وقاضي القضاة فقد أقطعهم المعتصم قرب المسجد الجامع والأسواق و ليس قرب القصر وهم أبو الوزير، و جعفر بن دينار في الشمال، محمد بن عبد الملك الزيات والفضل بن مروان وابن أبي دؤاد في الشرق، وقد بين نورثادج أن السكن بالنسبة لهؤلاء قرب المسجد والأسواق أهم من السكن قرب قصر الخليفة.⁸ وقد أكد نورثادج عدم وجود أي جدار يحيط بالقصر أو بالمسجد.⁹

نلاحظ أن توزع القطائع في سامراء، هو استمرار متطور لتوزع القطائع في بغداد حيث يمتد شارع رئيسي من القصر جنوبا وشمالا وزعت على جانبيه القطائع، كل قطيعة لقائد معين مع أتباعه، وتحترقها شوارع ثانوية، وفي حين أقطع القادة والعسكريين في الفضاء المحيط بالقصر والجامع، أقطع الكتاب والإداريين حول المسجد والأسواق. وذلك لحاجة الخلفاء للقادة لفرض الأمن وحاجة الكتاب للأسواق والمسجد.

وبالتالي فكما هو الشأن بالنسبة لبغداد، فإن سكان سامراء مختارون من ذوي الطابع العسكري بالدرجة الأولى، ثم الإداري يعتمدون في معاشهم على العطاء الذي يقدمه لهم الخليفة ويسدون حاجاتهم من السلع التي يقتنوها بالشراء من السوق الصغيرة التي توجد داخل كل قطيعة، وبالتالي فإن هذه القطائع تكمل مثلما أشار

¹ - Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, p.121.

² - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 55.

³ - Northedge.A, *Ibidem*, p.121.

⁴ - اليعقوبي، البلدان، ص 24.

⁵ - Northedge.A, *Ibidem*, p.121.

⁶ - Northedge.A, *Ibidem*, p.122.

⁷ - Northedge . A, *Entre Amman et Samarra*, p. 92.

⁸ - Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, p.122.

⁹ - Northedge.A, *Ibidem*, p.121.

إلى ذلك نوربار إلياس شكل القصر الملكي كإقامة مميزة لهذا المجتمع في مجموعه،¹ كما أنها تتجاوب وطبيعة الوظائف المسندة لأصحابها. ولم يسمح الخلفاء العباسيون بالإقامة معهم داخل قصورهم وتحت مراقبتهم إلا للحریم.

¹ - Elias.N, *La société de Cour*, p.19.

الفصل الثالث: الحرم في البلاط العباسي

I نشأة الحرم العباسي

1- معنى الحرم عند العباسيين

جاء في لسان العرب لابن منظور، أن كلمة حرم هي جمع حريم. وهي تستعمل بمعنى حرم الرجل أي ما يقاتل عنه ويحميه. والحرمة ما لا يحل انتهاكه من ذمة أو حق. وأيضاً بمعنى النساء، وأهل الرجل.¹ وعلى هذا الأساس يكون معنى الحرم لغة هو ما حرم فلا ينتهك ويطلق على النساء.

وحريم الدار ما دخل فيها مما يغلق عليه بابها وما خرج منها فهو الفناء.² وبهذا المعنى أطلق لفظ الحرم على الجزء المخصص من الدار للنساء والأبناء والقائمات على خدمتهم، والذي لا يجوز إلا لصاحب الدار الدخول إليه. أما الأجانب من الرجال فلا يحق لهم انتهاك حرمة.³ فالتسمية إذن تشمل الحيز البشري والحيز المكاني، وهي تسمية تكشف لنا عما يكتنف هذا المكان من مظاهر الاحترام والوقار والحشمة.

وبهذا المعنى البشري والمكاني استعملت كلمة "حرم" مع العباسيين، وأصبحت تعني في المصطلح التاريخي العباسي، واحداً من ثلاثة أقسام يتكون منها القصر أو دار الخلافة العباسية، وهذه الأقسام هي: قسم الشؤون العامة، قسم الشؤون الخاصة، والحرم.

ويعني الحرم في هذا المصطلح الجزء الخاص من القصر الذي تعيش فيه النساء. وتستعمل المصادر للإشارة إلى هذا القسم كلمة "حرم"، أو "دار الحرم"، أو "دار الحرم" أو "دار النساء"، أو "دار السر" المرسومة بالحرم.⁴

وقد ظهر قسم الحرم لأول مرة في العمارة الإسلامية - ومثلما أشرنا إلى ذلك في الباب الأول -، مع العباسيين في بغداد (سكة النساء)، وخاصة في الرقة ثم تواصل في سامراء وبغداد إثر عودة الخلافة إليها في الجانب الشرقي. ويتكون قسم الحرم مثلما بيّنا ذلك من عدة أجنحة، كل جناح منها يسمى "دار"، تحتوي على مجموعة من الغرف يطلق عليها اسم المقصورة.⁵ ويغلق على الأجنحة كلّها أبواب يتولى حراستها الخدم الموكلين بها، ويرأسهم خدام كبير يعرف بالأستاذ.⁶ أما في عهد الخليفة الرشيد فقد كان يتفقد أمر الحرم يحيى البرمكي وكان يمنع الخدم من خدمته، ويأمر بقفل أبواب الحرم بالليل، ويمضي بالمفاتيح إلى منزله.⁷

¹ - ابن منظور، لسان العرب، ج 2، 67 - 68.

² - ابن منظور، نفس المصدر، ج 2، 68.

³ - Red, sv « Harim », E.I, t III, p. 214.

⁴ - التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 363؛ الجهشيار، مصدر سابق، ص 251؛ الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص 87؛ الأصفهاني، الأغاني، ج 10، ص 86؛ الأربلي، مصدر سابق، ص 116.

⁵ - المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص 323-324.

⁶ - التنوخي، نفس المصدر، ج 4، ص 363.

⁷ - المسعودي، نفس المصدر، ج 4، ص 386.

كما تحيط بالحرم الأسوار العالية والجدران السميكة، مما يحول تماما دون تطلع أحد من الخارج إلى ما يدور بداخله. وبذلك يصبح الحرم عالما مستقلا تماما عن كل ما يدور خارجه.

وهنا لا بدّ أن نشير إلى أن ظاهرة " الحرم " أي عزل النساء والتي كانت منتشرة عند الفرس منذ أقدم الأزمنة لم يعرفها العرب قبل الإسلام، " فلم يكن بين رجال العرب ونسائها حجاب ". وقد ظهر الحجاب مع مجيء الإسلام وفرض على نساء الرسول " فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء في الجاهلية والإسلام حتى ضرب الحجاب على أزواج محمد خاصة ".¹

وليس المقصود بالحجاب، الخمار أو النقاب بمفهوما الحالي، وإنما كحدّ فاصل بين نساء الرسول والمؤمنين، وذلك احتراماً لهنّ وللرسول أكثر منه ازدياء للمؤمنين، ثم شمل بعد ذلك عن طريق التوسع كل نساء المؤمنين، وهو أقرب إلى الستارة منه إلى الحجاب، الذي ستكون لهن أيضا الريادة في وضعه، والذي سيسمو بهن وسيصبح شعارا للتقوى وللقداسة.² وبالتالي فلئن أقر الإسلام الحجاب على نساء الرسول، فليس لغاية عزلهنّ بل لغاية تمييزهنّ بحكم مرتبتهنّ الاجتماعية، فهو إذن اقتباس حضاري يستند إلى تقاليد أرسطراطية.³

ولم تنتشر ظاهرة عزل الحرم في العامل الإسلامي إلّا في أواخر العهد الأموي، وبالتحديد في عهد الوليد بن يزيد، فهو أول من وضع تقاليد الحرم في الإسلام، وذلك نتيجة التحولات الجديدة التي طرأت على المجتمع الإسلامي وأهمها التدخل الأجنبي وتدفق القيان والجواري وانتشار حياة البذخ والترف، مما أدّى إلى اتخاذ مواقف جديدة تجاه المرأة الحرة تمثلت خاصة في عزلها وحجبها عن المجتمع.⁴

وقد تطورت ظاهرة الحرم في العصر العباسي بشكل أكثر تعقيدا وتوسعا، أدّى إلى عزل المرأة ليس فقط عن المجتمع، بل داخل القصر ذاته في عالم كلّ نسائي، أطلق عليه اسم " الحرم "، والذي أصبح يمثل قسما رئيسيا في القصر العباسي. ولم يقتصر العزل فقط على الحرائر بل شمل كذلك الجواري، عدا القهرمانات لقضاء الحاجات.⁵ كذلك ولئن سمح الخلفاء العباسيين لجواريهم بحضور مجالسهم، فكانوا يضعونهم دائما خلف ستارة. كما حرص كذلك الخلفاء العباسيون على جعل دار الحرم على مقربة من مجالسهم الخاصة، حتى يتسنى لهم الدخول إليهم في أي وقت، وكلّما رغبوا في ذلك.⁶

ويعود انتشار عزل النساء في العصر العباسي بالإضافة إلى العوامل السابق ذكرها إلى موقف بعض الخلفاء العباسيين من المرأة. فقد كان الخليفة السفاح يعجب ممن يترك صحبة الرجال ويدخل إلى امرأة أو جارية " فلا

¹ - الجاحظ، رسائل الجاحظ، القاهرة 1979، ج 2، ص 148-149؛

² - Mansouri. Mohamed Tahar, *Du voile et du zunar*, Tunis 2007, p.73- 74- 75- 79.

³ - Lecerf. J, « Note sur la famille dans le monde arabe et islamique », *Arabica*, t III, janvier 1956, p.57.

⁴ - المسعودي، مروج الذهب، ج 2، ص 189؛ واجدة الأطرقجي، المرأة في أدب العصر العباسي، العراق 1981، ص 36-37؛ أسماء عمارة، " المرأة والشرف: حريم البلاط العباسي نموذجا (132 هـ / 749 م - 247 هـ / 861 م)"، *المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية*، عدد 133، 2007، ص 105.

⁵ - التتوخي، *نشوار المحاضرة*، ج 4، ص 183.

⁶ - الخطيب البغدادي، *تاريخ بغداد*، ج 14، 431، الأصفهاني، *مصدر سابق*، ج 10، ص 86-99.

يزال يسمع سخفا ويروي نقصا....¹ أما الخليفة المنصور فهو يرى أن المرأة لا يمكن أن تساوي الرجل بأي حال من الأحوال " ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء".²

ولا بدّ أن نضيف إلى ذلك غيرة بعض الخلفاء العباسيين على الحرم ، والتي لم تقتصر على نسائهم فقط بل شملت كذلك أمهاتهم وبناتهم، فقد حلف الخليفة موسى المادي لأمه الخيزران وكانت تريد التدخل في شؤون الحكم، أنه إن بلغه أن أحدا من قواده أو خاصته أو خدمه وقف على بابها أن يضرب عنقه ويصطفي أمواله، بل أكثر من ذلك عاتبها قائلا " ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم؟ أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك، إياك ثم إياك، ما فتحت بابك للمي أو ذمي".³

كما أحضر الخليفة الرشيد ابنته مواسه إلى مجلسه وكانت طفلة، وطلب من الأصمعي أن يقبل رأسها، لكن الأصمعي أدرك ما يمكن أن ينتاب الرشيد من الغيرة إن فعل ذلك، فوضع كفه فوق رأسها وقبله، فقال له الرشيد " والله يا أصمعي لو أخطأتما لقتلتكما".⁴ فتقبلت بنت الخليفة يمكن أن يساوي حياة إنسان.

ويمكن أن نتبين كذلك إلى أي حدّ يمكن أن تصل غيرة الخلفاء العباسيين على نسائهم من خلال قول المنصور، " الملوك يمكن أن تحتمل كل شيء إلا ثلاثة خلال: إفشاء السرّ والتعرض للحرم، والقدح في الملك "، ونفس هذا القول ينسب كذلك إلى الخليفة المأمون.⁵ فالتعرض للحرم إذن يساوي القدح في الملك.

ولعل هذه الأمثلة يمكن أن تكشف لنا حرص الخلفاء العباسيين، على عزل نسائهم داخل فضاء مادي، واتخاذ كل التدابير اللازمة لذلك، من تشييد الأسوار العالية، إلى غلق الأبواب بالمفاتيح، إلى قتل كل من تسول له نفسه الاقتراب من عالم الحرم. كما يمكن أن يكون تضاعف حجم الحرم في البلاط العباسي، قد أدى كذلك إلى تخصيصهن بفضاء مادي.

والجدير بالذكر أن المصادر العباسية قد استعملت كلمة حرم للدلالة على الفضاء المادي الذي تقيم فيه نساء الخليفة، وكذلك للإشارة إلى زوجات الخليفة، وجواريه وبناته وأمه، فكلهن يشكلن الحرم وكثيرا ما تترن كلمة حرم في العصر العباسي الثاني بكلمة ولد "الولد والحرم" أو بكلمة حشم أو خدم.⁶ كما استعملت المصادر كذلك كلمة حريم.⁷ وقد شهد الحرم العباسي توسعا كبيرا من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المستكفي.

¹ - المسعودي، نفس المصدر، ج 3، ص 263-264.

² - الأربلي، مصدر سابق، 71.

³ - الطبري، تاريخ، ص 1646.

⁴ - السيوطي، تحفة المجالس ونزهة المجالس، مصر 1908، ص 117-118.

⁵ - السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 213-214؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج 1، ص 12.

⁶ - مسكويه، مصدر سابق، ج 1، ص 43-44؛ الصابئ، رسوم....، ص 22؛ الصابئ، الوزراء، ص 20.

⁷ - الإلتيدي، إعلان الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، تونس 1981، ص 124.

الحرم العباسي من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المستكفي

اسم الخليفة	أمه	زوجاته	أمهات أولاده	جواريه	بناته	المصادر
أبو العباس السفاح	ربطة من بني الحارث بن كعب	سلمة بنت يعقوب المخزومية			ربطة	البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، 239؛ ابن حزم، أمهات الخلفاء، ص 18.
أبو جعفر المنصور	بربرية من نفزة وقيل من صنهاجة	*أم موسى بنت منصور الحميرية *فاطمة من ولد طلحة تميمية * امرأة من ولد خالد بن أسيد بن أبي العيص أموية	*فراشة أم صالح المسكين *أم علي *أم القاسم *صغيرة كردية (يذكر ابن حزم أنه تزوجها، في حين يذكر الطبري أنه تسراها)		*العالية *عبيدة *فاطمة	البلاذري، نفس المصدر، ج 4، 369-370؛ ابن حزم، أمهات الخلفاء، ص 18؛ ابن حزم، جمهرة النسب، ص 20؛ الطبري، تاريخ، ص 1603.
المهدي	أم موسى بنت منصور الحميري	*الخيزران بعد أن كانت أم ولد *ربطة بنت أبي العباس السفاح *أم عبد الله بنت صالح بن علي *رقية بنت عمرو العثمانية	*شكلة أم ولد		*البانوقة *عليه *سليمة وهي أسماء *العباسة	البلاذري، نفس المصدر، ج 4، 372؛ ابن حزم، أمهات الخلفاء، ص 19؛ ابن حزم، جمهرة النسب، ص 22؛ الجوزي، المنتظم، ج 8، ص 347؛ الطبري، تاريخ، ص 1610-

1615.						
ابن حزم، أمهات الخلفاء، ص 19؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج 7 ص 336؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج 7 ص 336؛ ج 8؛ ص 239؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج 5، ص 116.	*أم عيسى * أم العباس (نوتة)	*حسنة	*غادر (أمة العزير) *رحيم أم ولد *سعوف أم ولد	*لبابة بنت جعفر بن المنصور	الخيزران مولدة كوفية وقيل جرشية	الهادي
ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج 5، ص 118؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج 8 ص 320؛ الطبري، تاريخ، ص 1711؛ ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص 54.	*سكينة *أم حبيب *أم الحسن *خديجة *حمدونة *فاطمة *أم سلمة *أم القاسم *رملة أم جعفر *أم علي *الغالية *ريطة	*غصص *رحيق *حزق *حلي *أنيق *سمندل *زينة *هيلانة *ألفي جارية	*مراجل أم ولد *قصف أم ولد *ماردة أم ولد *رثم أم ولد *عراة أم ولد *شذرة أم ولد *خُبث أم ولد *رواح أم ولد *دواج أم ولد *شجر أم ولد *كتمان أم ولد	*زبيدة *أمة العزيز أم ولد موسى *عباسة بنت سليمان *أم محمد بنت صالح *عزيرة بنت الغطريف *الجرشية العثمانية	الخيزران	الرشيد
السيوطي، نزهة الجلساء في أشعار النساء، ص 76؛ السيوطي، المستطرف، ص 36.		*عريب	*نظم أم ولد	*لبابة بنت علي بن المهدي	زبيدة بنت جعفر الأكبر بن أبي جعفر المنصور	الأمين

المأمون	مراحل	* أم عيسى بنت موسى الهادي * بوران بن وزيره الحسن بن سهل		* مؤنسة * عريب * تتريف	* عائشة * أسماء * نامية * أمينة * أم الفضل	- ابن حبيب، الخبير، ص 61-62؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج 5، ص 120؛ السيوطي، المستطرف، ص 70-13.
المعتصم	ماردة مولدة كوفية	* قراطيس أم ولد * شجاع أم ولد * مخارق أم ولد تركية		* شارية	* عائشة أمها تركية * أم محمد	ابن حبيب، الخبير، ص 62؛ ابن حزم، جمهرة النسب، ص 24- 25؛ ابن حزم، أسماء الخلفاء، ص 20؛ الكازروني، مختصر التاريخ، ص 141؛ السيوطي، المستطرف، ص 31.
الوائق	قراطيس رومية	أسماء بنت المأمون	قرب أم ولد	فريدة	* العباسة * عائشة * فاطمة	ابن حبيب، الخبير، ص 62؛ الكازروني، مختصر التاريخ، ص 144؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج 5، ص 122؛ السيوطي، المستطرف، ص 49.

المتوكل	شجاع تركية	نامية بنت المأمون	* حبشية أم ولد * قبيحة أم ولد * سحق أم ولد * خزر	* فريدة * محبوبة * فضل 4000 سريّة	* أروى * ميمونة * أم محمد * عائشة	الكازروني، مختصر التاريخ، ص 147- 148؛ ابن حزم، جمهرة النسب، ص 27؛ المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 122؛ السيوطي، المستطرف، ص 50-65.
المنتصر	حبشية رومية	؟	؟	؟	؟	ابن حزم، أمهات الخلفاء، ص 21.
المستعين	مُخَارِق رومية	؟	؟	؟	؟	ابن حزم، أمهات الخلفاء، ص 21.
المعتز	قبيحة صقلبية				* خمس بنات لم تتزوج منهنّ إلاّ واحدة	ابن حزم، أمهات الخلفاء، ص 21؛ ابن حزم، جمهرة النسب، ص 28.
المهتدي	قُرب رومية				* ست بنات	ابن حزم، أمهات الخلفاء، ص 22؛ الكازروني، مختصر التاريخ، ص 160.
المعتمد	فتيان					ابن حزم، أمهات الخلفاء، ص 22.
المعتضد	ضرار (من دار محمد بن عبد				* أم سلمة * عائشة	ابن حزم، أمهات الخلفاء، ص 22؛

الكازروني، مختصر التاريخ، ص 167؛ السيوطي، المستطرف، ص 71.	*سارة				الله بن طاهر)	
ابن حزم، أمهات الخلفاء، ص 22؛ الكازروني، مختصر التاريخ، ص 171؛ الصائبي، رسوم، ص 8.	*أسماء *أمة الواحد *أم العباس *أم سلمة *سارة *أم الفضل *أم الفتح *مریم	*أربعة آلاف امراة بين حرة ومملوكة			خاضع	المكتفي
ابن حزم، أمهات الخلفاء، ص 23؛ ابن حزم، جمهرة النسب، ص 30.	ثلاث بنات				شغب	المقتدر
ابن حزم، أمهات الخلفاء، ص 23.	؟	؟	؟	؟	قتول	القاهر
ابن حزم، أمهات الخلفاء، ص 23.	؟	؟	؟	؟	ظلوم	الراضي
ابن حزم، أمهات الخلفاء، ص 24.	؟	؟	؟	؟	خلوب	المتقي
ابن حزم، أمهات الخلفاء، ص 24.	؟	؟	؟	؟	غُصن	المستكفي

2 - اتساع حجم الحرم

نلاحظ من خلال هذه القائمة أن الحرم في العصر العباسي شهد توسعا كبيرا، فمن زوجة واحدة في عهد الخليفة السفاح، وصل العدد إلى زهاء ألفي جارية في عهد الخليفة الرشيد،¹ ثم تضاعف العدد في عهد الخليفة المتوكل ووصل إلى أربعة آلاف سرية،² وقد استقر العدد في عهد الخليفة المكتفي إذ بلغ أربعة آلاف امرأة بين حرة ومملوكة.³ إن هذا العدد يبين تطور الحرم في العهد العباسي.

ويمكن تفسير اتساع حجم الحرم في العصر العباسي بتقاليد ترتبط بالتشريع الإسلامي، الذي أباح تعدد الزوجات، polygamie، "فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع".⁴ وقد مارس الخلفاء العباسيون تعدد الزوجات على نطاق واسع فقد تزوج الخليفة المنصور من فاطمة بنت محمد الطلحية، وتزوج أيضا بامرأة من بني أمية،⁵ وتزوج المهدي من رقية بنت عمرو العثمانية، وتزوج من الخيزران وتزوج من ربيعة بنت أبي العباس السفاح.⁶ أما الخليفة الرشيد فقد مات عن أربع مهاتر: أم جعفر، وأم محمد ابنة صالح، وعباسة، ابنة سليمان، والعثمانية.⁷

لكن من الخلفاء العباسيين من اكتفى بزوجة واحدة. ويرتبط ذلك بمكانة المرأة ونسبها، فقد تزوج السفاح من أم سلمة المخزومية، فحلف لها أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى في حياتها، وذلك بالرغم من أن بعض أتباعه والمقربين منه قد حثوه على التسري بالجواري.⁸ كما تزوج المنصور من أم موسى الحميرية فاشتريت عليه ألا يتزوج ولا يتسرى في حياتها وكتب عليه كتابا بذلك.⁹

ويبدو أن تحديد عدد الزوجات بأربعة لم يكن ليكتفي نزوات بعض الخلفاء العباسيين الجنسية، الذين اضطروا في بعض الأحيان إلى عقد زواج لليلة واحدة، كما فعل المأمون مع سكر، التي تزوجها على عشرة آلاف درهم، ثم خلا بها من ساعتها وواقعها وخلق سبيلها.¹⁰ كما اضطر بعض الخلفاء العباسيين إلى عقد زواج غير شرعي كما فعل المهدي عندما استغل فرصة حج زوجته الخيزران ليتزوج من أختها أسماء وعندما علم بقدوم الخيزران

¹ - الأصفهاني، الأغاني، ج 10، ص 136.

² - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 122.

³ - الصابئي، رسوم، ص 8.

⁴ - القرآن، سورة النساء، الآية 4؛ الحيدري (إبراهيم)، النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب، بيروت 2003، ص 258؛

- Bianquis. Th, « La famille en Islam arabe », dans *Op.Cit.*, p.564.

⁵ - البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 370-372.

⁶ - البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 372؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج 8، ص 346.

⁷ - الطبري، تاريخ، ص 1710؛ ابن الجوزي، نفس المصدر، ج 8، ص 346.

⁸ - المسعودي، نفس المصدر، ج 3، ص 261.

⁹ - الجاحظ، المحاسن والأضداد، القاهرة 1912، ص 117.

¹⁰ - الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج 2، ص 157.

طلقها.¹ ولعل هذا يعد تناقضا مع الدين الإسلامي الذي يمنع الجمع بين الأختين.²

ومما لا شك فيه أن مثل هذه الزيجات من شأنها أن تضخم من حجم الحرم، حيث يقع دمج هوائي النسوة، داخل الحرم، ويصبحن حرمة ولا يمكن لهن أن يجتمعن برجل آخر، إلا في حالات نادرة وبعد وفاة الخليفة. ورغم ما يستتبعه تعدد الزوجات من الطلاق،³ إلا أنه لم يكن منتشرا بكثرة في صفوف الخلفاء العباسيين، فقد طلق الخليفة المتوكل زوجته ربيعة لأنها رفضت أن تضم شعرها مثل الجواري.⁴

وبالإضافة إلى تعدد الزوجات وجد الخلفاء العباسيون وسيلة أخرى مكنتهم من مضاعفة حجم حرمهم بأعداد كبيرة وهي التسري، ذلك أن الدين الإسلامي ولئن حدد عدد الزوجات بأربعة فإنه لم يضبط عدد السراري،⁵ مما أتاح الفرصة للخلفاء العباسيين لامتلاك الآلاف من الجواري. فمثلا ذكرنا كان الرشيد يملك زهاء ألفي جارية، وامتلك المتوكل أربعة آلاف جارية. وهؤلاء الجواري كان الخلفاء يشتريهن، فقد اشترى الرشيد ذات الخال بسبعين ألف درهم.⁶ أو يأخذن كسبايا في الحروب بين العباسيين والبيزنطيين.⁷

أو يهدين إلى الخليفة من قبل نسائه والمقرين إليه، فقد أهدت زبيدة الرشيد عشر جوار، منهن ماردة أم المعتصم ومراحل أم المأمون وفاردة أم صالح.⁸ كما أهدى عبيد الله بن طاهر المتوكل أربع مائة جارية اشتهرت من بينهن محبوبة.⁹ كما أهدى زياد الله بن عبد الله الخليفة المكتفي مائة وخمسين جارية.¹⁰

نلاحظ كثرة الجواري في البلاط العباسي، وقد فضلن الخلفاء على الحرائر. فقد قيل أن التلذذ إنما يحدث باستظراف الجواري.¹¹ ولم يجد الخليفة حرجا من التمتع بالجارية ليلة ويتركها، تشجذ نفسها للترويح عن الخليفة في منتصف الليالي وتعد نفسها علّه يتكرم عليها بطلعته البهية.¹²

مما سبب كثيرا من الاضطرابات داخل الحرم منها حدوث علاقات جنسية بين الجواري مثال الجاريتين اللتين كشفهما الخليفة الهادي تتحابان وقد اجتمعتا في لحاف واحد على الفاحشة.¹³ وهو ما استوجب معهما إقامة الحد كما هو معمول به في الشريعة الإسلامية واليهودية.¹⁴

¹ - الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص 117-118.

² - Bianquis. Th, *La famille arabe médiévale*, Belgique, 2005, p.47.

³ - Lecerf. J, « Note sur la famille dans le monde arabe et islamique », *Op. Cit*, p. 53.

⁴ - الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص 138.

⁵ - Bianquis. Th, « La famille en Islam arabe », *Op. Cit*, p.571 .

⁶ - الأصفهاني، الأغاني، ج 16، ص 234.

⁷ - Mansouri (T. M), « Les femmes d'origine byzantine/ les roumiyyat sous les abbassides : une approche onomastique », *Journal of Oriental and African Studies*, p. 169.

⁸ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 18، ص 48.

⁹ - السيوطي، المستظرف من أخبار الجواري، القاهرة د- ت، ص 65.

¹⁰ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 290.

¹¹ - المسعودي، نفس المصدر، ج 3، ص 261.

¹² - يونس (محمد عبد الرحمان)، الجنس والسلطة في ألف ليلة وليلة، بيروت 1998، ص 69-70.

¹³ - الطبري، تاريخ، ص 1652.

¹⁴ - Bianquis. Th, *La famille arabe médiévale*, p.45.

كما تسبب في المنافسة بين الجوّاري من أجل كسب ودّ الخليفة، فقد كانت الخيزران تبغض مكنونة أم عليّة وتقول " ما ملك امرأة عليّ أغلظ منها"،¹ وقد تراوحت هذه المنافسة من مجرد التحاسد والتباغض، إلى محاولات اغتيال وقتل ذهب ضحيتها بعض الخلفاء. فقد قتل الخليفة المهدي نتيجة التحاسد بين الجوّاري.² كما لم تتردد الجوّاري من تحويل الحقد الدفين الذي بينهن إلى أبنائهن. مثال العداء بين أم أبيها وأبو علي ولدي الرشيد والذي هو في الأصل عداء وتحاسد بين أميهما شذر (أم أم أبيها) وشكل (أم أبا علي)، وسببه أن شذر حملت قبل أم أبيها.³ وقد أثر هذا التحاسد والتباغض على الروابط الدّمية بين أفراد الأسرة العباسية. وقد كان سببه التسابق من أجل كسب ودّ الخليفة وكذلك من أجل احتلال مرتبة متميزة داخل الحرم.

2- ترتيب النساء داخل الحرم

تنظم النساء داخل الحرم العباسي في ترتيب هرمي، يحدّده عامل القرابة والنسب أو مدى القرب من الخليفة، أو الخدمة فهنّ داخل هذا القسم من القصر بمثابة الموظفين داخل البلاط، لهنّ درجات وترقيات. ونستنتج من خلال القائمة أن النساء داخل الحرم العباسي ينقسمنّ إلى صنفين أو فئتين اثنتين وهما: أولاً الحرائر، ثانياً السراري أو الجوّاري. وتأتي الحرائر على قمة نساء الحرم، ثم السراري والجوّاري على اختلاف مراتبهنّ.

تتمتع الحرائر بمكانة أفضل اكتسبها من أصلهنّ العربي، فقد أولى الخلفاء العباسيون النسب أهمية كبيرة. فيمكن للخليفة أن يتخذ ما شاء من الجوّاري من مختلف الأعراق والجنسيات، أما إذا تعلق الأمر بالزواج فلا بدّ أن يتحرى ذات الأصل والنسب.

فقد كان أغلب زوجات الخلفاء العباسيين ينتمين إلى أصول عربية عريقة. فقد تزوج المنصور من فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله التميمي وتزوج أيضاً من امرأة من بني أمية من ولد خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية.⁴ وتزوج المهدي من رقية بنت عمرو العثمانية.⁵ وتزوج الرشيد بالجرشية العثمانية من أولاد عثمان بن عفان.⁶

ومما يدلّ على حرص الخلفاء العباسيين على اختيار نسائهم من ذوي البيوتات العريقة في النسب هو أن الرشيد أحبّ امرأة خسيصة النسب، فاضطر أن يتزوجها سرّاً من أبيه.⁷

¹ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 18، ص 129.

² - الطبري، تاريخ، ص 1632.

³ - الشاشتي، لبيارات، ص 35.

⁴ - البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 370-372.

⁵ - الطبري، نفس المصدر، ص 16152.

⁶ - ابن الجوزي، المنتظم، ج 8، ص 319.

⁷ - الأربلي، خلاصة الذهب، ص 138.

كما سعى الخلفاء العباسيون إلى التزوج من ابنة العم، والأمثلة على ذلك كثيرة، فقد تزوج المهدي من ريطة بنت أبي العباس السفاح،¹ وتزوج الرشيد من زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، وتزوج أيضا من العباسة بنت سليمان بن أبي جعفر المنصور، ومن أم محمد ابنة صالح المسكين وقد تزوجها في الرقة.² وتزوج الأمين من لبابة بنت علي بن المهدي، لكنه قتل ولم يدخل بها.³

كما تزوج المأمون أم عيسى بنت الهادي، والوائق أسماء بنت المأمون والمتوكل تزوج نامية بنت المأمون،⁴ كما تزوج من ابنة العباس بن علي بن المهدي وقد توفيت في خلافة المقتدر.⁵

ويرتبط الزواج من بنت العم بتقاليد عربية قديمة ترجع إلى فترة ما قبل الاسلام، وقد صار أكثر شيوعا بين المسلمين منه بين اليهود والمسيح.⁶ وقد سعى الخلفاء العباسيون من وراء ذلك إلى الحفاظ على الرابطة الدموية بين العائلة العباسية.

كما سعى الخلفاء العباسيون إلى عقد زواج سياسي، فقد تزوج المأمون من بوران بنت وزيره الحسن بن سهل، وقد تزوجها لمكانة أبيها عنده.⁷ كما تزوج الخليفة المعتضد بأسماء بنت خمارويه بن أحمد بن طولون صاحب مصر.⁸ فقد كانت تتمتع بمكانة اجتماعية هامة.

ولم تقتصر فئة الحرائر على زوجات الخلفاء، بل شملت كذلك بناقم وأخواقهم، وقد تكاثر عددهم مثلما تدل على ذلك القائمة، وذلك بحكم تكاثر عدد الجواري اللاتي أنجبن بنات، وهؤلاء يختلفن عن أمهاتهن فهن حرائر وذلك بحكم انتسابهن الأبوي. وقد حرص الخلفاء العباسيون كذلك على تزويجهن رجالا من الأسرة العباسية، فقد زوّج المنصور ابنته العالية من إسحاق بن عيسى بن علي وفاطمة زوّجها من يحيى بن جعفر بن تمام بن العباس بن عبد المطلب،⁹ وزوّج الخليفة المهدي ابنته العباسة من محمد بن سليمان بن علي، وزوج أم عبد الله من إبراهيم بن جعفر الكبير بن المنصور، وعليه زوجها من موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي.¹⁰ وزوج الرشيد ابنته خديجة من محمد بن صالح بن المنصور، وزوج ابنته حمدونة من جعفر بن الهادي. وزوج المأمون ابنته أمينة من عبد الله بن منصور بن المهدي، وأم الفضل زوجها علي بن الحسين بن الرضا. وزوج المعتصم ابنته أم محمد من العباس بن المأمون، كما زوج الواثق ابنته فاطمة من عبد الله بن محمد بن المعتصم،

1- البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 239.

2- ابن الجوزي، المنتظم، ج 8، ص 319.

3- السيوطي، نزهة الجلساء في أشعار النساء، القاهرة، دت، ص 76.

4- ابن حبيب، المحبر، ص 61-62.

5- ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 22.

6- Chelhod. J, « Le mariage avec la cousine parallèle dans le système arabe », dans *L'Homme*, 1965, p.115.

7- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 1، ص 287.

8- العمري، الروضة الفياض في تواريخ النساء، بغداد 1966، ص 222.

9- البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 372.

10- الأصفهاني، الأغاني، ج 10، ص 147؛ ابن حبيب، نفس المصدر، ص 61.

وزوج عائشة من أحمد بن محمد بن المعتصم.¹ وزوج المعتز ابنته ابن عمها موسى بن إسماعيل بن المتوكل.² فقد كانت بنات الخلفاء يتزوجن رجالا من أبناء البيت العباسي أو يظللن بدون نكاح، فقد رفض العباسيون تزويج بناتهم رجالا من خارج الأسرة العباسية، فكان من بين أسباب هلاك أبي مسلم الخراساني رغم الدور الكبير الذي لعبه في قيام الدولة العباسية أنه تجرأ على خطبة آمنة بنت علي عمة المنصور.³ كذلك من بين أسباب نكبة البرامكة زواج جعفر البرمكي من العباسية أخت الرشيد، ورغم أن العديد من الدراسات الحديثة تنفي قصة العباسية،⁴ إلا أن الأهمية الكبيرة التي كان يوليها الخلفاء العباسيون لمسألة النسب والشرف تجعلنا نرجحها.

كما جهد المأمون بالفصل بين سهل كي يزوجه إحدى بناته إلا أن هذا الأخير أدرك سوء العاقبة ورفض، قائلا " لو صلبتني ما فعلته ".⁵ ويدل هذا على أن الأسرة الحاكمة العباسية هي مقدسة، وعلى هذا الأساس فهي لا ترتبط إلا بالأسر العريقة في النسب أو بالعباسيين.

وتوضح قيمة المهر أو الصداق،⁶ الذي كان يدفعه الخلفاء العباسيون إلى هؤلاء الحرائر مدى مكانة المرأة وتقديرها. فقد أمهر المأمون بوران بنت الحسن بن سهل مائة ألف دينار وخمسين ألف درهم،⁷ كما أعطى الخليفة المعتضد قطر الندي صداقا بلغ مليون درهم.⁸ مما يكشف لنا المغالاة في المهور وهو ما مكن هؤلاء النساء من تكوين ثروات طائلة. عكس الجارية والتي كان يدفع ثمنها إلى سيدها.

كما يدل إسراف الخلفاء على حفلات الزواج على مكانتهن أيضا، فقد بلغت النفقة على زواج زبيدة من مال المهدي خمسين مليون درهم سوى ما أنفقه هارون الرشيد من ماله الخاص كما وهبها المهدي الكثير من الحلبي والجواهر.⁹ كما قدرّت النفقة على عرس بوران، بـ 35 مليون درهم سوى ما كان يجري في اليوم على أكثر من ثلاثين ألف ملاح.¹⁰ مما يعكس لنا المكانة المميزة التي تمتعت بها هذه الفئة من النساء في الحرم، وذلك على خلاف الجوّاري اللواتي يدفع ثمنهن إلى أسيادهن ويلحقن بالحرم.

كما يحق للحرّة أن تتزوج ثانية بعد وفاة الخليفة. فقد تزوجت أم سلمة المخزومية بعد وفاة الخليفة السفاح من عبد الله بن عبد الحميد المخزومي، الذي صار إليه مالا كثيرا وأصبح موسرا.¹¹ وتزوجت رقية بنت عمرو

¹ - ابن حبيب، نفس المصدر، ص 61-62.

² - ابن حزم، جمهرة نفس المصدر، ص 28.

³ - ابن الساعي، تاريخ الخلفاء العباسيين، ص 16.

⁴ - جواد (مصطفى)، سيّدات البلاط العباسي، ص 39.

⁵ - الجهشيري، الوزراء والكتاب، ص 307.

⁶ - E.I2, t VI, Mahr, pp. 76- 77; Lecerf. J, « Note sur la famille dans le monde arabe et islamique », Op.Cit, p. 54.

⁷ - الشابشتي، الديارات، ص 158.

⁸ - العمري، الروضة الفيجاء، ص 222.

⁹ - الشابشتي، نفس المصدر، ص 157؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 2، ص 314.

¹⁰ - الشابشتي، الديارات، ص 158.

¹¹ - جواد (مصطفى)، سيّدات البلاط العباسي، بيروت 1950، ص 12.

العثمانية بعد وفاة المهدي بعلي بن الحسين الملقب بالجزري.¹ كما تزوجت العباسة بعد وفاة زوجها سليمان بن علي من إبراهيم بن صالح بن علي.²

كما يمكن للمرأة الحرة أن ترفض زوجها يتقدم لخطبتها، فقد رفضت زينب بنت سليمان الزواج من محمد بن أبي العباس السفاح وكان يهواها، فلم يزوجها إياه.³ عكس الجوّاري اللواتي يجرن على تقديم أجسادهنّ إلى الخليفة طوعاً أو كراهية.⁴

كذلك ما يميز المرأة الحرة لاسيما بنات وعمات الخلفاء، هو أنه أثناء وفاهنّ تقام لهنّ جنازة، يحضرها الخليفة أو أولاد الخلفاء ووجوه بني هاشم.⁵

لكن رغم ما تمتعت به المرأة الحرة من مرتبة متميزة استمدتها من نسبها، فإن هذا لا يجب أن يخفي عنا ما كانت تعانيه خاصة من شدة العزل، ومن مشاركة الجوّاري لها الخليفة.

فالصنف الثاني من النساء اللاتي كنّ يقمنّ في الحرم هنّ الجوّاري وكنّ درجات. وقد ذكرنا أن الخلفاء العباسيين امتلكوا الآلاف منهنّ، ونلاحظ من خلال القائمة أنهنّ ينتمينّ إلى أصول وأجناس مختلفة، فهناك الروميات مثل فراشة أم صالح المسكين ولد الخليفة المنصور، وقرطيس أم الخليفة الواثق، وحشية أم الخليفة المنتصر، ومخارق أم ولد المستعين، وقرب أم المهدي.⁶ وهناك التركيات مثل شجاع أم الخليفة المتوكل، وخاضع أو جحك أم الخليفة المكتفي.⁷ وهناك فارسية وهي مراجل أم المأمون، وهناك صقلية وهي قبيحة أم المعتز،⁸ وهناك من اقتصرت المصادر على ذكر أسمائهنّ أو أسماء أولادهنّ دون ذكر أصولهنّ مثل شكلة أم إبراهيم بن المهدي، وغضيض وهيلانة جاريّتي الرشيد،⁹ وضرار أم المعتضد، وفتيان أم المعتمد وخاضع أم المكتفي.¹⁰

وتدلّ كثرة الجوّاري الروميات على الجمال اللاتي كنّ يتمتعنّ به فهنّ بيض، شقر، سباط الشعور زرق العيون،¹¹ ويعود ذلك إلى أصلهنّ الأوروبي وهو ما يفسّر الرغبة في الانجاب منهنّ. وتأتي بعدهنّ التركيات واللّاتي مثلنّ مزيجاً بين الأجناس فحملنّ اللون الأبيض والأسمر، والقدر الربع والقصير، والوجه الكبير والعيون الصغيرة.¹² وقد تكاثرنّ مع دخول الأتراك إلى الحكم.

¹ - الطبري، تاريخ، ص 1651.

² - ابن حبيب، نفس المصدر، ص 61.

³ - الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، القاهرة 1936، ص 4؛

⁴ - يونس (محمد عبد الرحمان)، الجنس والسلطة، ص 63.

⁵ - مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ج 4، القسم الأول، ص 210.

⁶ - ابن حزم، أمهات الخلفاء، بيروت 1980، ص 20-21-22؛

- Mansouri (T. M), « Les femmes d'origine byzantine », *Op. Cit*, pp. 174- 175.

⁷ - القلقشندي، مآثر الأنافة في معالم الخلافة، ج 1، ص 268.

⁸ - ابن حزم، أمهات الخلفاء، ص 21.

⁹ - البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 372؛ ابن الساعي، نساء الخلفاء المسمّى جهات الأئمة الخلفاء من الحرانير

والإماء، القاهرة، د- ت، ص 53-54.

¹⁰ - ابن حزم، أمهات الخلفاء، ص 21. حزم، أمهات الخلفاء، ص 21.

¹¹ - ابن عبدون (أبو الحسن المختار بن الحسن)؛ رسالة جامعة لفنون نافعة في شري الرقيق وتقليب العبيد، ص 20.

¹² - ابن عبدون (أبو الحسن المختار بن الحسن)؛ نفس المصدر، ص 20.

فقد كان لهؤلاء الجوّاري الوافدات على بلاط الخليفة من مختلف الجنسيات تأثير في تبديل مفهوم الجمال عند المرأة.¹ ولم تذكر لنا المصادر صفاتهن الخلقية لكن يمكن أن نتبينها من خلال أسمائهنّ، والتي هي في الحقيقة ليست بأسمائهنّ الأصلية وإنما هي أسماء تعبّر عن مشاعر وأحاسيس من أطلقها مثل قراطيس، شجاع، أنيق، سكر، فتنة...² فقد أصبح للجمال عندهم مقاييس روحية. كما استخدموا الأضداد للتعبير عن الجمال، كما يقال للغراب أعور لحدة بصره، وأبيض أكحل، فقيحة ليست بقيحة المنظر وإنما من أجمل نساء عهدها، وكذلك شكلة ليست سوداء وإنما هي بيضاء، ويرتبط ذلك بالخيال وب عقلية معينة عند العرب.³

وعلى هذا الأساس فإن مقاييس الجمال لم تعد مطابقة للنموذج العربي، بل زاحته نماذج أخرى من الجمال الذي جاء ممتثلاً في الجوّاري، وكان هذا التبدل قائماً على صدوفهم عن السمينات إلى المجدولات، وعن النهود الضخمة إلى النهود الكواعب، كما جذبوا ذوات القد المشوق، والتي عبّروا عنها بـ " قضيب الخيزران"، وأدركوا أنه لا بدّ من حسن تناسب الأعضاء حتى يكتمل الجمال.⁴ وهو ما نراه في صور النساء التي عثر عليها في " قاعة الحرم " في قصر الجوسق الخاقاني بسامراء.⁵

وتظنّ هؤلاء النساء يحملنّ هذه الأسماء الرمزية إلى أن ينجبن ولداً، فيصبحن أمهات أولاد وتتغير تبعاً لذلك وضعيتهن القانونية والاجتماعية لأنهنّ أنجنّ إلى الوجود ولداً حراً، فيتميزن بالتالي عن اللواتي أنجنّ بنات أو اللواتي لا أبناء لهنّ، ذلك أنه لو أمكن التخلص من الجارية عن طريق البيع أو الإهداء، فإنه لا يمكن فعل ذلك مع أم الولد، ومن ثمة يتغير اسمها وتصبح تحمل اسم ابنها الأكبر، أو ابنها الذي أصبح خليفة، مثال أم الخليفة أو أم الواصل أو أم المتوكل، أو أم المقتدر وتصبح مسلمة وتدمج في المجتمع.⁶

وتتمتع أم الولد بأرفع مكانة بين الجوّاري، وفي كثير من الأحيان بين كل الحرم، باعتبارها أم الخليفة لاسيما وأن كل خلفاء العصر العباسي إذا استثنينا السفاح، والمهدي والأمين كانوا أبناء جوّاري. فهي بمثابة الملكة بالمفهوم الغربي. ولقبها السيّدة، وقد أطلق على السيّدة شغب أم الخليفة المقتدر.⁷ وتخطب بـ " ستي ".⁸

كما أن لها داراً خاصة ضمن دور الحرم وعدد من الجوّاري من مختلف الدرجات لخدمتها وإدارة شؤون دارها وقضاء حوائجها.⁹

¹ - المنجد (صلاح الدين)، جمال المرأة عند العرب، بيروت 1966، ص 55.

² - Mansouri (T. M), *Ibid*, pp. 169- 186.

³ - القلقشندي، مآثر الأنافة في معالم الخلافة، ج 1، ص 244؛ Mansouri (T. M), *Ibid*, pp. 178- 179.

⁴ - حول مقاييس جمال المرأة في العصر العباسي انظر، المنجد (صلاح الدين)، جمال المرأة عند العرب، ص 57- 61.

⁵ - انظر الملف الإيكونوغرافي (صور نساء البلاط).

⁶ - Mansouri (T. M), « Les femmes d'origine byzantine », *Op. Cit*, p. 179; Bianquis. Th, « La famille en Islam arabe », *Op. Cit*, p.572.

⁷ - ابن الجوزي، المنتظم، ج 13، ص 294.

⁸ - ابن الجوزي، نفس المصدر، ج 13، ص 327.

⁹ - ابن الجوزي، نفس المصدر، ج 13، ص 327؛ التتوخي، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 365.

لكن رغم ما تمتعت به أمهات الأولاد من مكانة متميزة، فلا يمكن لمن أن يصبحن عربيات أو عباسيات كما هو الشأن بالنسبة لبناتهن. فهنّ عبيد محررات بحكم أمومتهم الذكورية " *maternité masculine* "، لذلك لا يمكن لمن أن يصبحن مهائراً أو حرائر، فهنّ أمهات أولاد الخليفة.¹

لكن فبالرغم من ميل الخلفاء العباسيين للجواري وتفضيلهم لمنّ في بعض الأحيان على الحرائر، فنادرًا يتزوجون منهنّ، فقط الخليفة المهدي الذي تذكر المصادر أنه تزوج من أم ولده الخيزران وقد تزوجها بعد أن أعتقها،² والخليفة الرشيد الذي تزوج من غادر أم ولد أخيه الهادي.³ كما تزوج المتوكل من فريدة.⁴ لكن ولئن كان يشترط في الزواج من الحرة أن تنتمي إلى أصل عربي عريق فإنه يشترط في الجارية أن تكون لا أهل لها.⁵

أما الجواري اللاتي أنجبّ بنات أو اللاتي لا أبناء لهنّ، فإنهنّ يحتفظنّ بالأسماء التي تربطهنّ بأسيادهنّ مثل هيلانة جارية الرشيد وفريدة جارية الواثق انظر الجدول،⁶ وبعد وفاة سيدهنّ يصبحنّ في جملة ميراثه، وينتقلنّ إلى ملك الخليفة الذي يليه، وقد لاحظنا تنقل بعض الجواري من خليفة إلى آخر، مثال عريب التي تنقلت بين ثمانية خلفاء.⁷ وفريدة التي انتقلت من الخليفة الواثق إلى المتوكل.⁸

فالجارية هي أدنى منزلة من أم الولد وفي نهاية المطاف ما هي إلا سلعة مشتراة، ويمكن بيعها أو إهداؤها في أي وقت. فبعد أن اشترى الرشيد ذات الخال بسبعين ألف درهم وهبها إلى حمويه الوصيف.⁹

وبالإضافة إلى هؤلاء الجواري اللواتي كنّ على ملك الخليفة، هناك الجواري اللواتي كنّ على ملك سيّدات القصر. فقد كان عند عليّة ثلاثون جارية يغنين.¹⁰ وكان عند زبيدة مائة جارية يحفظن القرآن.¹¹

هذا دون أن ننسى الجواري القائمات على أعمال الخدمة، ويتنظمن كذلك في ترتيب هرمي، وتأتي في القمة القهرمانة، وكان يطلق عليها في البداية القيّمة. فقد ابتاع المنصور جاريته أم علي وجعلها قيّما في داره على أم موسى وأولاده.¹² فهي المسؤولة عن دار الخليفة. ثم تطور دورها فيما بعد وأصبحت تهتم بتنظيم علاقات قسم الحرم بالخارج، وصارت تحمل رتبة القهرمانة، وترتدي زيّا خاصا يعرف بزيّ القهرمانة، وهذه الرتبة تمنحها أم الخليفة لمن تختصه من جواريتها وبعد اختبارات عديدة، ولذلك فإن عددهنّ كان محدودا.¹³ وقد برز دورهنّ

¹ - Mansouri (T. M), *Ibid*, p. 180.

² - ابن الجوزي، *نفس المصنر*، ج 8، ص 346.

³ - ابن الساعي، *نساء الخلفاء*، ص 45-46.

⁴ - ابن الساعي، *نفس المصنر*، ص 101.

⁵ - الجاحظ، *المحاسن والأضداد*، ص 117.

⁶ - السيوطي، *المستطرف*، ص 49؛ ابن الساعي، *نساء الخلفاء*، ص 54؛ ابن الجوزي، *المنتظم*، ج 8، ص 320.

- Mansouri (T. M), « Les femmes d'origine byzantine », *Op. Cit*, p. 180.

⁷ - الأصفهاني، *الأغاني*، ج 21، ص 57.

⁸ - السيوطي، *المستطرف*، ص 49.

⁹ - الأصفهاني، *نفس المصنر*، ج 16، ص 235.

¹⁰ - السيوطي، *تحفة المجالس ونزهة المجالس*، القاهرة 1908، ص 119.

¹¹ - ابن خلكان، *وفيات الأعيان*، ج 2، ص 314.

¹² - ابن عبد ربه، *العقد الفريد*، ج 5، ص 115.

¹³ - ابن الجوزي، *المنتظم*، ج 13، ص 69-70-323-325.

بصفة خاصة في عهد الخليفة المقتدر، حيث أصبح يتدخل في شؤون الخلافة وذلك بتشجيع من السيدة وأشهرهنّ ثمل التي أمرتها السيدة بأن تجلس للمظالم.¹
أخيرا الوصيفات، وهنّ يمثلنّ قاعدة هذا الشكل الهرمي، ويتم توزيعهنّ على أجنحة الحرم في وظائف محددة مثل وضع الشراب والطعام والطيب والرياحين.²
نلاحظ أن النساء يتوزعن داخل قسم الحرم في ترتيب هرمي، وقد اكتسبت كل فئة منهنّ مرتبتها بطريقة مغايرة للأخرى. ففي حين اكتسبت الحرة مرتبتها من نسبها، اكتسبت أم الولد موقعها من أمومتها الذكرية، أما القهرمانة فقد اكتسبت رتبها من كفاءتها ومدى قربها من أم الخليفة، كما اكتسبت بعض الجواري مرتبتهنّ من حبّ الخليفة لهنّ، وسوف تستغل كل فئة من هذه الفئات موقعها للتدخل في شؤون الحكم وتلعب دورا سياسيا وحتى اقتصاديا.

II دور المرأة في البلاط

1- دور المرأة في الحكم

احتلت المرأة موقعا مؤثرا في البلاط العباسي، واستطاعت رغم الحجاب الذي فرض عليها من التأثير على قرارات الخلفاء العباسيين، ومن التدخل في شؤون الحكم. لكن تدخلها كان محدودا في العصر العباسي الأول لما امتاز به خلفاء تلك الفترة من قوة مكنتهم من السيطرة على شؤون الحكم، والتصدي لكل من يحاول انتزاع السلطة من بين أيديهم. لذلك كان تدخل المرأة في تلك الفترة تدخلا بسيطا من وراء الستارة. بخلاف العصر العباسي الثاني الذي تميّز بضعف الخلفاء والذي أصبح فيه تدخل المرأة مكشوفاً وواضحاً، وخاصة في عهد الخليفة المقتدر الذي تميز ب بروز نفوذ النساء في البلاط، والذي طغى أحيانا على نفوذ الخليفة.

* التأثير على قرارات الخلفاء العباسيين: الحرائر والجواري

أثرت نساء الخلفاء العباسيين سواء الزوجات منهن الزوجات أو الجواري على قرارات الخلفاء العباسيين من عهد الخليفة المهدي إلى عهد الخليفة المأمون. فقد غلبت أم سلمة على الخليفة السفاح قبل توليه الخلافة، حتى أنه كان لا يقطع أمرا دون مشورتها أو أمر منها.³ لكن بعد توليه الخلافة لم يترك لها فرصة التدخل في شؤون الحكم، فقد كان يميل في البداية إلى تعيين ابنه محمدا وليا للعهد، ولكنه عدل عن ذلك لصغر سنه، فأشارت عليه زوجته أم سلمة أن يوليّ غيره ويجعله ولي عهد ثان، وكلمت أحواله أن يسأله في ذلك، إلّا أنه لم يعمل

¹ - ابن الجوزي، نفس المصدر، ج 13، ص 180.

² - السيوطي، تحفة المجالس، ص 119.

³ - المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص 261.

برأيها وقرر تعيين أخاه أبا جعفر المنصور.¹ تدخلت إذن زوجة الخليفة في ولاية العهد وأعطت رأيها، لكن الخليفة لم ينفذه.

كذلك رغم أن أم موسى الحميرية اشترطت على الخليفة المنصور، ألا يتزوج عليها ويتسرى في حياتها،² فإنه لم يترك لها فرصة التدخل في شؤون الحكم. وقد يعود السبب في ذلك إلى موقف المنصور من المرأة، التي حاول التقليل من شأنها في وراثة الحكم أو في إعطاء رأيها في طريقة الحكم، فقد نهي ابنه المهدي عن مشاوره النساء،³ ولعل افتخار محمد النفس الزكية على المنصور بانتسابه إلى فاطمة بنت الرسول، في حين أن المنصور هو ابن أمة من البربر هو الذي دفعه إلى مثل هذا الموقف من المرأة. لكن هذا لم يمنع من أن بعض النساء كنّ محل تقدير كبير من قبل الخليفة المنصور، ونذكر هنا ربيعة ابنة أخيه السفاح، التي استأمنها على حفظ مفاتيح بعض الخزائن أثناء ذهابه إلى الحج، وطلب منها أن لا تفتحها إلا متى صحّ عندها وفاته وبحضور المهدي ولا ثلاث معهما، وقد احتوت تلك الخزائن على جماعة من القتلى من الطالبين.⁴ ولعل هذا الخير يؤكد مدى الثقة الواسعة التي منحها المنصور لربيعة.

وقد برز دور المرأة في التأثير على الخلفاء في اتخاذ بعض القرارات الهامة، منذ أن تولّى المهدي الخلافة وتزوج الخيزران، فقد استغلت حبّ الخليفة لها لتتدخل في شؤون الحكم. فقد دفعته لتولية ولديها موسى وهارون العهد،⁵ وتفضيلهما على ولديه علي وعبيد الله ابني زوجته ربيعة، وقد بينّ فاروق عمر أن هذا شيء يثير الاستغراب لأن ربيعة هي عريية هاشمية عباسية، وهي بنت أبي العباس السفاح،⁶ لكننا لا نعتقد ذلك لأن العباسيين، أكدوا ثانوية الوراثة عن طريق النساء. لكن هذا يبرز تأثير الخيزران على الخليفة المهدي في اتخاذ بعض القرارات الهامة كولاية العهد. ويبدو كذلك أن قرار المهدي المفاجئ تقديم هارون على موسى في ولاية العهد كان بتأثير من الخيزران حيث كانت تفضل هارون على موسى.⁷

كما كان للخيزران أيضا نفوذا على أعضاء البلاط فكانت " تأمر وتنهى وتشفع وتبرم وتنقض ".⁸ فقد غضب المهدي مرة على يحيى بن خالد، وحبسه وألزمه مالا كثيرا فشفعت له عنده، فرضي عنه وردّه إلى منزله.⁹ كما كانت تقرب من تشاء وتبعد من تشاء، فقد أخذت مرة في مضايقة بخثيشوع بن جورجيس الطبيب وأثرت على المهدي حتى أعاده إلى بلده جنديسابور.¹⁰ في حين أثرت على المهدي حتى قرّب أخيها الغطريف وعينه

¹ - البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 238.

² - الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص 117.

³ - الطبري، تاريخ، ص 1604.

⁴ - الطبري، نفس المصدر، ص 1604.

⁵ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 14، ص 431.

⁶ - فاروق عمر، العباسيون الأوائل، ج 2، ص 221؛

- Red, sv « Al-Khayzurān », E.I, t IV, p. 1196.

⁷ - الطبري، نفس المصدر، ص 1604؛ فاروق عمر، نفس المرجع، ج 2، ص 221 - 222.

⁸ - ابن الطقطقي، مصدر سابق، ص 191.

⁹ - الجهشباري، مصدر سابق، ص 151.

¹⁰ - ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج 1، ص 42.

واليا على اليمن.¹ وقد بلغ الغطريف من النفوذ أن أصبحت له بعض الأملاك، وهي طاقات الغطريف في الجانب الغربي من بغداد.² أثرت الخيزران على المهدي في اتخاذ بعض القرارات إذ أصبحت تلعب دورا سياسيا. كما كان لها نفوذ في الحرم، ويؤكد ذلك ما فعلته مع مزنة زوجة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، عندما لجأت إليها فأحسنست استقبالها وأكرمته وأسكنتها مقصورة في الحرم رغم معارضة زينب بنت سليمان، وحين علم المهدي أقر ما فعلته، ورفع من منزلة مزنة.³ استغلت الخيزران حب المهدي لها للتدخل في شؤون الحكم والحرم.

كما كان لريطة تأثير على الخليفة المهدي وكان لا يرد لها طلب، فقد غضب مرة على أبي دلالة الشاعر، وألزمه قيام شهر رمضان ووكل به حارس، فصعب عليه ذلك، ولاذ بالخيزران وأبي عبيد الله وكل من له دالة على المهدي، كي يشفعوا له، فلم يجيبهم، فنصحوه بالذهاب إلى ريطة، فإنه لا يخالفها، فكتب إليها بشعر، يستشفعها به، فكلمت المهدي في شأنه، واستجاب لها وقبل شفاعتها.⁴ نفذ المهدي طلب زوجته ريطة ولم ينفذ طلب الخيزران رغم حبه لها.

ولم يتوقف دور الخيزران في الحكم، بوفاة زوجها المهدي بل استمر أيضا في عهد ابنها الهادي. فقد تدخلت لتهديئة فتنة الجيش، عندما سمعوا بخبر وفاة المهدي، وكان ابنها الهادي آنذاك في جرجان. فقد قام هارون بالبيعة له حتى يأمن شعب الجند، بالمطالبة بالزيادة في الأرزاق. وكان لتدخل الخيزران في الوقت المناسب أثره في القضاء على فتنة الجيش، حيث أمرت بجمع الأموال، وإعطاء الجند لستين.⁵ استغلت الخيزران غياب ابنها لتتدخل وتأخذ البيعة له من الجند، وتلعب دورا سياسيا.

وتواصل دور الخيزران في الحكم، في أول عهد الهادي، حيث بقيت لعدة أشهر تتدخل كعادتها في عهد المهدي، في شؤون الحكم، وكان الهادي يجيبها فيما تسأله من الحوائج، وكانت المواكب تغدو إل باجما. وعندما أدرك الهادي أن أمور الدولة أصبحت كلّها بيد أمه الخيزران، أصبح ينهرها، ويأمرها أن تلتزم بيئتها، كما حذر كل من يحاول الاتصال بها، لتشفع له في حاجة أو تقضيها له. وذلك في محاولة منه للحد من سلطتها. فساءت العلاقة بينه وبينها، لا سيما وأن الهادي حاول خلع أخاه هارون والبيعة لابنه جعفر بن موسى. فسعت إلى قتله بالاستعانة ببعض جواريتها، حيث أمرت بتغطية وجهه والجلوس فوقه، فقتلته بتحريض منها.⁶ ولعل ردة فعل الخيزران عندما أتاها خبر وفاة الهادي تجعلنا لا نستبعد هذه الرواية، فقد دعت بسويق وشربت هي ومن معها

¹ - اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 399.

² - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 5.

³ - المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص 314 - 315.

⁴ - الأصفهاني، الأغاني، ج 22، ص 248 - 249.

⁵ - الطبري، تاريخ، ص 1638.

⁶ - الطبري، تاريخ، ص 1646.

من السيدات، وأمرت لهن بأربعمائة دينار....¹ فإرادة الخيزران التدخل في شؤون الحكم دفعتها إلى قتل ابنها. كما أشرك الخليفة الهادي ربيعة في الحكم، فكان يوجه إليها بالزنادقة من النساء لتحكم عليهن.²

وقد فسح الدور الكبير الذي لعبته الخيزران في وصول ابنها هارون إلى سدة الحكم، لها المجال لتلعب دورا سياسيا وتستبد بالأمور من جديد. فقد أمرت بقتل كل من تسرع إلى خلع هارون والبيعة لجعفر بن الهادي، لكن يحيى البرمكي اقترح عليها أن يلقي بهم في نحر الأعداد، فأذنت بذلك.³ فقد أشركها في الحكم بما أنه حاول إقناعها بوجهة نظره. بل تجاوزت ذلك وأصبحت هي الناطقة في الأمور، وكان يحيى بن خالد يعرض عليها ويورد ويصدر عن أمرها.⁴ وكان الرشيد لا يعصي لها أمرا.⁵

وكانت الخيزران السند المهم لأسرة البرامكة، لذلك فقد كانت وفاتها سنة 173 هـ / 789 م، بداية لنهاية نفوذ البرامكة، ففي يوم وفاتها أخذ الرشيد الخاتم من جعفر ودفعه إلى الفضل بن الربيع، وفي السنة الموالية عزل محمد بن خالد بن برمك عن الحجابة وولّاها الفضل بن الربيع. كما أخذ الحرس من جعفر بن يحيى وردّه إلى هرثمة بن أعين، وصرف الفضل بن يحيى عن كل الأعمال التي كان يتقلدها، ولم يبق له إلا تربية الأمين.⁶

استغلت الخيزران الدور الذي لعبته لوصول ابنها هارون إلى الحكم، لتتدخل في شؤون الحكم وتلعب دورا سياسيا. وتواصل بعد وفاتها دور المرأة في الحكم. فقد استغلت زبيدة أيضا حب الرشيد لها لتتدخل في شؤون الحكم، وأثرت على الرشيد حتى ولّى ابنها الأمين العهد وعمره خمس سنوات وقدمه على المأمون، رغم قلقه من ذلك وميله إلى المأمون، وهو ما عبّر عنه قائلا: "إني لا أعرف في عبد الله حزم المنصور ونسك المهدي وعزة الهادي ولو أشاء أن أنسبه إلى الرابع يعني نفسه لنفسه لتسبته وقد قمت محمدا عليه وإني لا أعلم أنه منقاد إلى هواه مبذر لما حوته يده يشاركه في رأيه الإماء والنساء ولولا أم جعفر وميل بنو هاشم لقدمت عبد الله".⁷

تدخلت زبيدة في قرار سياسي خطير هو ولاية العهد حتى تحمي ولدها، ونفذ الرشيد طلبها دون إرادته وولّاه العهد. كما اعترضت زبيدة على الرشيد حين ولّى الأمين العراق، بينما ولّى المأمون أمور الجيش والقواد. لكنه أجابها بأنه ولّى الأمين السلم، والمأمون الحرب، وإنه يخاف من ابنها على المأمون لو ولي وليس العكس.⁸

تدخلت زبيدة في قرار زوجها، كما أشرك الرشيد زبيدة في الحكم نوعا ما بما أنه حاول إقناعها برأيه. ولم تكن زبيدة بالتدخل في ولاية العهد، بل كانت أيضا من حرّض الرشيد على البرامكة، وذلك على نقيض الخيزران. فقد كان يحيى البرمكي كثيرا ما يضايقها ويقيد تصرفاتها، وكنا قد أشرنا أنه كان يتولى حراسة

¹ - الطبري، نفس المصدر، ص 1649.

² - الطبري، نفس المصدر، ص 1640.

³ - الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص 178؛ Red, sv « Al- Khayzuran », E.I, t IV, p. 1196.

⁴ - الطبري، نفس المصدر، ص 1656؛ الجهشيارى، نفس المصدر، ص 179.

⁵ - الطبري، نفس المصدر، ص 1659.

⁶ - الطبري، نفس المصدر، ص 1659-1670؛ الجهشيارى، نفس المصدر، ص 207-227؛ فاروق عمر، نفس المرجع،

ج 3، ص 22؛ الدوري، العصر العباسي الأول، ص 127-128، أسماء عمارة، البلاط العباسي، ص 101.

⁷ - السوطي، تاريخ الخلفاء، ص 229-242؛ المسعودي، نفس المصدر، ج 3، ص 363.

⁸ - المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص 363.

الحرم، وكانت زبيدة تشتكيه إلى الرشيد.¹ كما اضطعنت على جعفر حين أكد الأيمان على ابنها في الكعبة كي لا يغدر بأخيه المأمون.² فلعبت زبيدة دورا كبيرا في سقوط البرامكة، واستغلت في ذلك قصة العباسة أخت الرشيد مع جعفر البرمكي.³

ويبدو أن تدخل زبيدة في شؤون الحكم من ولاية العهد والقضاء على سلطة البرامكة، لم يكن من باب حب السيطرة والاستبداد بالأمر كما هو الشأن بالنسبة للخيزران، وإنما من باب غريزة "الأمومة"، وربما أيضا من باب الدراية بالأمور السياسية، فيبدو أنها كانت تريد وضع حدّ للتيار الفارسي الذي يمثل البرامكة والذين اتخذوا من المأمون وسيلة لتحقيق غايتهم. ويدلّ على ذلك ما أوصت به عيسى بن ماهان عندما شخص لحرب المأمون، وكان ينفذ كلامها ويطيع أوامرها فقد أوصته الرفق بالمأمون إذا ما قبض عليه.⁴

وقد حاول البعض إقحام زبيدة في الصراع القائم بين الأمين والمأمون، وطلبوا منها أن تخرج وتثار لابنها عندما قتل، كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان، لكنها رفضت قائلة "ما للنساء وطلب الثأر ومنازلة الأبطال".⁵ ولما تولى المأمون الخلافة بعثت إليه تهنئة بما.⁶ ويدلّ هذا على بعد نظر وعلو مكانة زبيدة السياسية في البلاط العباسي، والتي لا شك أنها استمدتها من نسبها الهاشمي العباسي.

ولا بدّ أن نضيف إليها سيّدة عباسية أخرى وهي زينب بنت سليمان بن علي، وقد اشتهرت خاصة بكراميتها للأمويين، فقد رفضت استقبال مزنة زوجة مروان بنت محمد في الحرم العباسي، لولا إرادة الخيزران، لأن هذه الأخيرة رفضت أن تشفع لها في خلافة زوجها كي يدفع لها جثة إبراهيم الأمام. وزينب هذه هي من علّم الخيزران الأخلاق والعادات والآداب الحميدة.⁷ فقد كانت المسؤولة عن مراقبة الطقوس والآداب في الحرم. وكان المأمون قد ترك لباس آبائه من السواد وليس الخضرة، مما آثر استياء أهل بغداد وبني العباس، فكانت هي من حمّله على ترك الخضرة والعودة إلى السواد.⁸ تدخلت زينب بنت سليمان في قرار سياسي وإيديولوجي للخليفة المأمون فحورته، حتى تحافظ على شعار الدولة العباسية. وكانت تدخل على المأمون بدون استئذان، وكان يرفع لها الستر أيضا.⁹ وهذا يدلّ على علو منزلها في البلاط العباسي.

كما استغلت بوران، طلب الخليفة المأمون منها ليلة زفافها أن تسأله حوائجها لتدخل في شؤون الحكم، فطلبت منه الرضا عن إبراهيم بن المهدي فقبل شفاعتها، كما سأله الإذن لأم جعفر في الحج فأذن لها.¹⁰

¹ - المسعودي، نفس المصدر، ج 3، ص 386.

² - المسعودي، نفس المصدر، ج 3، ص 364.

³ - الإتيدي، إعلام الناس، ص 125؛ ابن الساعي، تاريخ الخلفاء العباسيين، ص 37-38.

⁴ - الطبري، نفس المصدر، ص 1729؛ الأطرقجي، نفس المرجع، ص 73.

⁵ - المسعودي، نفس المصدر، ج 3، ص 423-424.

⁶ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 14، ص 434.

⁷ - المسعودي، نفس المصدر، ج 3، ص 313-314.

⁸ - الطبري، نفس المصدر، ص 1793؛ أسماء عمارة، "المرأة والشرف...."، نفس المرجع، ص 122.

- Heitty. A, « The contrasting spheres of free women and jawari in the literary life of the early Abbasid caliphate » in *Al-Masaq*, v III, 1990, p. 33.

⁹ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 14، ص 433-434.

¹⁰ - ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص 67؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 2، ص 289.

وبصفة عامة فقد سلك المأمون نهج الخليفة المنصور في الحدّ من تدخل النساء في شؤون الحكم. فلم يتعدى دورهنّ طلب الشفاعة أو العدول عن بعض المواقف.

نلاحظ أن أغلب النساء اللاتي كان لهنّ دور في الحكم في العصر العباسي الأول هنّ من المهائز أو الحرائر، إذا استثنينا الخيزران التي انتقلت من مرتبة أمة، إلى أم ولد فزوجة. وتربطهنّ بالخليفة إما علاقة قرابة أو زواج. فكنّ يقضين أغلب وقتهن في الجلوس خلف الستارة والاستماع لما كان يدور بين الخليفة وأفراد حاشيته من حوار، كما كانت تفعل أم سلمة المخزومية.¹ وبالتالي فقد كنّ على دراية بكل ما يجري في البلاط من أحداث. ولذلك فقد أطلقنا على تدخلهنّ في الحكم، تدخلا من وراء الستارة.

لكن لم يقتصر الدور السياسي للمرأة خلال هذه الفترة على الزوجات والسيدات العباسيات، بل شمل أيضا الجوّاري من شاعرات ومغنيات، ويمكن أن نذكر في هذا الشأن ذات الخال جارية الرشيد والتي استغلت حبّ الرشيد لها، لتتدخل في شؤون الحكم وتطلب منه أن يولي حمويه الحرب والخارج بفارس لمدة سبع سنين، فنفذ الرشيد طلبها.² وكذلك عريب جارية المأمون وكان يعشقها ولا يرفض لها طلب، فكلمته في إخراج بن المدير من السجن فاستجاب لها.³ وبصفة عامة فقد اقتصر دورهنّ على طلب الشفاعة أو التدخل في تولية بعض المناصب.

كما استخدمت الجوّاري في العصر العباسي الأول في التجسس لاسيما الحجّامات لأنهنّ أقدر على الدخول إلى البيوت، وقد استخدمهنّ الخليفة المنصور بالأساس في التجسس على محمد النفس الزكية في المدينة، وجعل لهنّ رواتب شهرية وكسوة في الصيف وأخرى في الشتاء،⁴ وقد بلغ تجسس المرأة أقصاه في عهد الخليفة المأمون، الذي كان يطلق في بغداد ألف عجوز وسبعمئة عجوز، يقمن بالتجسس وينقلن له الأخبار ظاهرها وباطنها وكان لا ينام إلاّ بعد أن يأتينه جميعا بتلك الأخبار.⁵ ويعود استخدام النساء في التجسس ربما لقدرتهنّ على استدراج الرجال بأساليهنّ الخاصة، وأخذ المعلومة منهم.

كما استخدمت الجوّاري في نقل المراسلات بين الأمراء والقادة، وخاصة في المواقف الحرجة التي كان يتفاقم فيها الصراع، كما هو الشأن في النزاع بين الأمين والمأمون، حيث قامت المرأة بنقل الكتب بين الفرعين المتخاصمين.⁶ ويعود استخدام المرأة في نقل المراسلات لأنها لا تفتش. وبصفة عامة لم يتعدى دور الجوّاري الشفاعة، والتجسس ونقل المراسلات.

أثّرت أمهات، زوجات، بنات، وجوّاري الخلفاء العباسيين، من عهد الخليفة المهدي إلى عهد الخليفة المأمون، على قرارات الخلفاء، وبالتالي كنّ يلعبنّ دورا سياسيا.

¹ - الطبري، نفس المصدر، ص 1721-1722.

² - الأصفهاني، الأغاني، ج 16، ص 343.

³ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 22، ص 162.

⁴ - البيهقي، المحاسن والمساوئ، ج 1، ص 148؛ الأطرقجي، نفس المرجع، ص 65-66.

⁵ - ذو النسيين، نفس المصدر، ص 48.

⁶ - المسعودي، المصدر السابق، ج 3، ص 262-263؛ الأطرقجي، نفس المرجع، ص 76.

وقد اختلف دور المرأة في الحكم خلال هذه الفترة تبعاً لشخصية الخليفة، وأيضاً تبعاً لمرتبة المرأة في البلاط ففي حين استغلت الحرائر مثل ربيعة، زبيدة وزينب بنت سليمان نسيهنّ وموقعهنّ للتأثير على الخلفاء العباسيين، استغلت الجوّاري حبّ الخليفة لهنّ للتدخل في شؤون الحكم، فمهدنّ بذلك الطريق للدور السياسي الأكثر أهمية الذي ستلعبه أمهات الأولاد والقهرمانات في العصر العباسي الثاني.

* تدخل نساء الخلفاء العباسيين في الحكم: أمهات الأولاد والقهرمانات

لئن لعبت نساء العباسيين دوراً سياسياً في العصر العباسي الأول فإنه لم يتعدى في الكثير من الأحيان التأثير على قرارات بعض الخلفاء، فلم تكن لهنّ مثلاً سلطة عزل أو تعيين أحد الخلفاء أو الوزراء، أو العمال كما هو الشأن بالنسبة لنساء العصر العباسي الثاني، أين سيرز دور المرأة السياسي بصفة واضحة ومباشرة.

لقد تواصل، دور أمهات الأولاد - ولو أن عددهنّ قليل - في التأثير على الخليفة العباسي من عهد الخليفة المتوكل إلى عهد الخليفة المستكفي. فقد طلبت قبيصة أم ولد المتوكل من ابنها المعتز أن يؤمّن الشاعر علي بن الجهم وكان المتوكل حبسه، فاستجاب لها وشفع له عند أبيه.¹ كما كان المتوكل أيضاً مقرباً لأمه شجاع، حتى أنّها لما حجت سنة 236 هـ / 850 م، خرج مشيعاً لها إلى النجف.²

كما استغلت قبيصة حبّ المتوكل لتتدخل في شؤون الحكم. فبعد أن ولى العهد لأبنائه الثلاثة حسب الترتيب التالي: المنتصر ثم المعتز، فالمؤيد، طلبت منه قبيصة أن يقدم ابنها المعتز في ولاية العهد.³ فنتج عن ذلك أن تأمر المنتصر مع الأتراك على أبيه وقتلوه. ويشبه هذا الدور ما قامت به الخيزران عندما طلبت من المهدي أن يقدم هارون الرشيد على الهادي.

وتواصل دور قبيصة السياسي في عهد ابنها المعتز، فقد دفعته لقتل أخيه لأبيه المؤيد، وتولية أخيه إسماعيل بن قبيصة، مما تسبب في الصراع بينها وبين أم المؤيد. ومما يؤكد هذا الصراع أن قبيصة أرسلت بسبحة لأم المؤيد قيمتها أربعة آلاف دينار، وقالت لها " سبحي بما يا أختي " فسحقها أم المؤيد ولفتها في كاغد وردتها إلى حاملتها وقالت لها " اقرئي عني أختي السلام وقولي لها: السبح لاتذهب بحرارات الدماء ".⁴

ويندرج هذا الصراع في إطار محاولة كل منهما إبقاء الخلافة لابنها، حتى يتسنى لها التدخل في شؤون الحكم. لكن فشلت مساعي قبيصة السياسية، فقد تعرض ولدها المعتز إلى الخلع ثم إلى القتل على يد الأتراك بسبب عجزه عن دفع رواتب الجند التي تأخرت عنهم وقدرها خمسين ألف دينار. وقد كان بإمكان قبيصة إنقاذ ولدها لكنها رفضت، رغم أنّها كانت تملك ثروة طائلة اضطرت إلى إخفائها بعد موت ولدها، ثم لما ظهرت

¹ - الأصفهاني، الأغاني، ج 10، ص 230.

² - الطبري، نفس المصدر، ص 1904.

³ - السيوطي، نفس المصدر، ص 273.

⁴ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 176؛ البيروني، الجماهر في معرفة الجواهر، ص 158.

أخذها منها وصيف ونفاها إلى مكة قائلا: " قبّحها الله عرضت ابنها للقتل لأجل خمسين ألف دينار وعندها هذا".¹

أثّرت قبيحة على الأوضاع السياسية في البلاط، وهو ما يؤكد تفاقم نفوذ أمهات الأولاد ومسكهم بزمam الأمور، والذي سيبلغ أقصاه في عهد الخليفة المقتدر، الذي تولّى الخلافة وعمره 13 سنة، مما أتاح الفرصة للنساء لزيادة نفوذهم.

ومن أشهر نساء ذلك العهد أمه شغب، والتي كانت تلقب بالسيدة، أما الخليفة فكان يناديها يا " ستي ".² فقد كانت ذات سطوة كبيرة، على رجال البلاط تعزل وتولي وتقرّب من تشاء، من ذلك عزلها للوزير علي بن عيس، رغم الدور الذي قام به لإصلاح شؤون الخلافة.³ وشفاعتها لمؤنس الخادم وكان المقتدر قد عزم على اعتقاله، بعد أن أغراه عليه الوزير ابن الفرات وتسليمه إليه.⁴

كما كانت تحلل للخليفة مواقف أتباعه وأعدائه كي تبصره بالأمر السياسي، فقد قالت له " قد أبعد ابن الفرات، مؤنسا عنك وهو سيفك وثقتك ويريد الآن أن ينكب حاجبك ليتمكن منك فيجازيك على ما عاملته به من إزالة نعمه وهتك حرمة... ".⁵ تدخلت السيّد في طريقة حكم ابنها وأبدت رأيها في هذه الطريقة، وذلك لأنّها كانت تعلم ما كان عليه ابنها من الضعف بسبب صغر سنه.

ولم يقتصر تدخل السيّد عند مستوى شؤون الحكم، بل كانت تتدخل كذلك حتى في تعليم أبنائها، فكانت تقول " ما نريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء وهذا أبوهم قد رأينا كل ما نجب فيه وليس بعالم ".⁶ فبقاء الخليفة جاهلا بأمر السياسة والحكم أمرا ضروريا، لضمان استمرار سيطرة النساء على الحكم.

وقد بلغت السيدة من سعة نفوذها أن عينت سنة 306 هـ / 918 م أحد قهرمانات القصر وتدعى ثمل للنظر في المظالم، بالتربة التي بنتها في الرصافة، فكانت تجلس في كل جمعة للنظر في شكاوي الناس، وتخرج التوقيعات وعليها خطها، وكان يحضر مجلسها القضاة والفقهاء.⁷ وهكذا تعدى الجلوس للمظالم الخلفاء والوزراء والقضاة إلى جلوس القهرمانات. وكان من نتائج ذلك التعيين أن أصبحت النساء في البلاط العباسي يلعبن دورا سياسيا بصفة علنية ومباشرة بعد أن كان دور القهرمانة لا يتعدى نقل الرسائل بين الخليفة وحاشيته.

وهنا لا بدّ أن نشير إلى أن دور القهرمانات في الحكم بدأ في عهد الخليفة المكتفي، فقد كانت داية المكتفي فارس هي المسؤولة عن تنصيب الوزراء وعزلهم من مناصبهم.⁸ أما في عهد الخليفة المقتدر فقد أصبحت أمور

¹ - السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 282.

² - ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج 13، ص 59.

³ - الهمداني، تكملة تاريخ الطبري، ص 229.

⁴ - مسكويه، تجارب الأمم، ج 1، ص 117.

⁵ - مسكويه، نفس المصدر، ج 1، ص 117؛ الأتقجي، نفس المرجع، ص 76.

⁶ - الصولي، أخبار الرازي بالله والمتقي لله، ص 26.

⁷ - ابن الجوزي، المنتظم، ج 13، ص 181.

⁸ - التتوخي، نشوار المحاضرة، ج 3، ص 269.

الدولة كلّها تقريبا بيد القهرمانات. فقد أصبح لهنّ دور في تعيين الوزراء وكبار العمال وعزلهم. فقد ذكر أن القهرمانة أم موسى الهاشمية، هي التي أوصلت أبا الحسين بن أبي البغل إلى منصبه، ذلك أن الوزير الخاقاني خاف أن تفسد ما بينه وبين الخليفة، فعمل على إرضائها بأن قلّد أبا الحسين أعمال الخراج والضيايع بأصبهان.¹ وكما نجحت أم موسى في تعيين بعض العمال كان لها دور في عزل بعض الوزراء، كما فعلت مع الوزير علي بن موسى، عندما ذهبت إليه ولم يأذن لها، أغرت به السيّدة وتمّ عزله من منصبه.² وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت أم موسى تؤدي رسائل السيدة ورسائل الخليفة إلى الوزير ابن الفرات.³

وكان من تسلّط أم موسى أن سعى بها أعداؤها إلى الخليفة، وتمّ إيقافها بتهمة أنّها تريد خلع المقتدر وتنصيب ابن المتوكل لأنه كان صهرها. فصدورت أملاكها وبلغ من ثروتها أن علي بن عيسى اضطر إلى إنشاء ديوان خاص سمّاه ديوان المقبوضات عن أم موسى.⁴

كما اشتهرت قهرمانة المقتدر زيدان أيضا بالنفوذ والسلطة، حتّى أنه كان يسلم إليها كبار المعتقلين ليحبسوا عندها، فقد سلّم إليها الوزير ابن الفرات سنة 299 هـ / 911 م، وسلّم إليها الأمير الحسين بن حمدان سنة 304 هـ / 916 م.⁵ وكان لها طبيب خاص يدعى عيسى البغدادي، وقد حمّلتها الرسائل إلى الوزراء ومنهم، لتعرضها هي على الخليفة.⁶ كما كانت ثمل صاحبة المظالم أيضا، يسلم إليها المعتقلين، وكانت موصوفة بالشر، والإسراف في العقوبة، فقد سلّمت إليها أم موسى القهرمانة وقد استخرجت منها أموالا كثيرة.⁷

أيضا من قهرمانات السيدة أم المقتدر نظم وكانت المسؤولة عن قسم الحرّيم، وقد رفعت صاحبها الأول أبا القاسم، إلى أوسع الأرزاق.⁸

وهكذا فقد سيطرت السيدة والقهرمانات على كل الأمور في البلاط، إلى درجة انفرادهنّ بتصريف شؤون الخلافة دون الخليفة. ولذلك فقد وصف ابن الطقطقي دولة المقتدر بأنّها دولة " ذات تخليط كثير لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه. فكانت دولته تدور أمورها على تدبير النساء والخدم ".⁹ ومن هنا يمكن أن نطلق على بلاط الخليفة المقتدر، بلاط النساء أو بلاط القهرمانات.

1 - مسكويه، تجارب الأمم، ج 1، ص 20 - 21؛ الأترقجي، نفس المرجع، ص 77.

2 - مسكويه، نفس المصدر، ج 1، ص 40.

3 - مسكويه، نفس المصدر، ج 1، ص 20.

4 - مسكويه، نفس المصدر، ج 1، ص 84؛ الهمذاني، المصدر السابق، ص 227؛ ابن الجوزي، نفس المصدر، ج 13، ص 209.

5 - مسكويه، نفس المصدر، ج 1، ص 22.

6 - الققطي، تاريخ الحكماء، ص 165.

7 - مسكويه، نفس المصدر، ج 1، ص 88.

8 - ابن الجوزي، نفس المصدر، ج 13، ص 70.

9 - ابن الطقطقي، الفحري، ص 262.

وقد تواصل دور القهرمانات في الحكم حتى في عهد الخليفة القاهر. وقد اشتهرت منهنّ خاصة القهرمانة اختيار، فكانت هي التي تشير عليه تعيين الوزراء أو عزلهم. فقد أشارت عليه مثال تعيين أبي جعفر محمد بن القاسم بن عبد الله وزيراً.¹

أما علم قهرمانة المستكفي وكانت تدعى قبل ذلك "حسن الشيرازية" فغير لها المستكفي اسمها وسماها علم، فهي من سعت إلى توليته الخلافة، بعد أن أوعزت إلى توزون القائد التركي، خلع المتقي وسمّلت عينيه هي وغلاما لها يدعى السندي.² وقد قبض عليها بدورها مع المستكفي سنة 334هـ/ 945 م، وسمّلت عيناها وعينه، كم قطع لسانها.³

فقد لعبت أمهات الأولاد والقهرمانات في العصر العباسي الثاني دوراً سياسياً كاملاً وبشكل "سافر"، وليس من خلف الستارة كما هو الشأن بالنسبة لنساء العصر العباسي الأول، ويعود ذلك لضعف الخلفاء وعدولهم عن الزواج بالحرائر، وسعيهم للتسري بالإماء والجواري اللاتي لم يسعين فقط إلى التسلط السياسي، بل وكذلك إلى الإثراء المادي.

2- دور المرأة الاقتصادي

لقد منح الخلفاء العباسيون نساءهم وبناتهم الأموال والقطائع والقصور وأخبار ثرائهنّ تملأ كتب السير والتاريخ والأخبار. وقد مكنتهنّ هذا الثراء من القيام بالكثير من المنشآت والأعمال. فقد أقطع المنصور زوجته أم موسى الحميرية الضيعة المسماة بالرحبة فوقفتها قبل وفاتها على المولودات الإناث دون الذكور.⁴ وأقطع زوجته أم القاسم، البستان الذي بباب الشام، ويعرف ببستان أم القاسم.⁵ كما ذكر الخطيب البغدادي طاق أسماء وقصر أسماء بنت المنصور بالجانب الشرقي من المدينة المدورة.⁶ وقد سميت إحدى مقابر بغداد باسم الخيزران زوجة المهدي.⁷ كما كانت لها صلة قدّرت بمبلغ (260.000.000 درهم)، في السنة.⁸ وقد بلغ من كثرة مالها أنه كان لها كاتب خاص يدعى عمر بن مهران.⁹

¹- مسكويه، المصدر السابق، ج 1، ص 261.

²- الهمداني، تكملة تاريخ الطبري، ص 349؛ ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص 174 - 175.

³- مسكويه، المصدر السابق، ج 2، ص 86 - 100؛ الأطرقي، نفس المرجع، ص 78.

⁴- الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص 117.

⁵- الطبري، تاريخ، ص 1603.

⁶- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 92.

⁷- العلي (صالح أحمد)، "الأسرة العباسية في بغداد"، نفس المرجع، ص 247.

⁸- القاضي الرشيد، النخائر والتحف، الكويت 1959، ص 235.

⁹- الجهشيار، الوزراء والكتاب، ص 217 - 218.

وقد عرف عنها كثرة الإنفاق، فعندما حجّت سنة 171 هـ / 787 م صحبة ولدها الرشيد تصدقت بالحرمين، واشترت دارا بالصفاء وألحقها بالحرم المكي وصارت تعرف بدار الخيزران.¹

كما سميت إحدى مقابر بغداد باسم العباسية بنت المهدي، وقد دفن فيها محمد بن إبراهيم الإمام.² وذكر الخطيب البغدادي أيضا سوقية العباسية ودار العباسية بالمحرم،³ كما كانت تملك ضياعا كثيرة قدّرت غلتها بـ (4000 دينار) سنويا، وقد ورثها عنها أخويها إبراهيم ومنصور.⁴

كما كانت عليّة بنت المهدي تملك كذلك الكثير من الضياع، وكان يديرها لها وكيل خاص يدعى سباع، فلما وقفت على خيانتة في أحد المرات أمرت بحجسه.⁵ وهو يدلّ على درايتها بالأموال الاقتصادية.

أيضا مما يدلّ على مدى اهتمام المرأة بالمنشآت العمرانية والإصلاحية في العصر العباسي ما قامت به زبيدة، فقد سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار، وذلك بأن أسالت الماء عشرة أميال بحط الجبال ونحت الصخور حتى غلغلته من الحلّ إلى الحرم.⁶ وكانت العين التي أوصلت منها الماء بالحجاز تعرف بعين المشاش، وقد قدّرت النفقة عليها بـ (1.700.000 دينار).⁷ كما أنها قامت بإنشاء الكثير من الاستراحات للحجاج، منها استراحة المحدث التي تنسب إليها. وقامت أيضا بإنشاء الكثير من الآبار والبرك.⁸

كما عرف عن زبيدة كثرة الإنفاق في موسم الحج، فقد قيل أنها أنفقت في حجة واحدة (2.000.000 دينار).⁹ وقيل أيضا أنها أنفقت على حجة لها في ستين يوما (54.000.000).¹⁰

أما عن ممتلكات زبيدة فقد ذكر لنا الخطيب البغدادي "الزبيدية" التي بين باب خراسان وبين شارع دار الرقيق، وكذلك "الزبيدية"، التي أسفل مدينة السلام في الجانب الغربي.¹¹ ولم يذكر من هو الخليفة الذي منحها هذه القطيعة. ويذكر كذلك أن سوقية خالد صارت لها.¹² ولا بدّ أن ذلك حدث بعد نكبة البرامكة.

كما ورثت زبيدة عن أبيها جعفر بن أبي جعفر المنصور قطيعة التي تقع ناحية قطربل.¹³

وقد منح الخليفة الرشيد ابنته حمدونة صلة قدّرت بـ (1.000.000 درهم)، إضافة إلى إقطاع غلته (100.000 درهم).¹⁴

¹ - العمري، مذهب الروضة الفحاء، ص 200؛ Réd, sv, « Al- Khayzuran », E.I 2, t IV, p. 1196.

² - العلي (صالح أحمد)، " الأسرة العباسية في بغداد "، نفس المرجع، ص 247.

³ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 194؛ ج 10، ص 410؛ Horovitz, J, sv, « Abbasa », E.I 2, t I, p. 14.

⁴ - القاضي الرشيد، نفس المصدر، ص 235.

⁵ - الأصفهاني، الأغاني، ج 10، ص 145.

⁶ - ابن خلكان، وفیات الأعيان، ج 2، ص 314.

⁷ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 317.

⁸ - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص 60؛ ابن خلكان، نفس المصدر، ج 2، ص 314؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 14، ص 433.

⁹ - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 2، ص 214.

¹⁰ - ابن خلكان، نفس المصدر، ج 2، ص 314؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 14، ص 433.

¹¹ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 89.

¹² - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 93.

¹³ - اليعقوبي، البلدان، ص 17.

¹⁴ - الجهشيار، الوزراء والكتاب، ص 233-234.

وذكر ياقوت قصر أم حبيب بنت الرشيد في الجانب الشرقي من بغداد وقد صار إقطاعاً لها في عهد المأمون.¹ كما ورثت بوران زوجة الخليفة المأمون عن أبيها القصر الحسيني،² الذي شكّل النواة الأساسية لدار الخلافة العباسية، وقد حدث ذلك بعد وفاة المأمون لان الحسن بن سهل توفي بعد المأمون. كذلك من نساء الخلفاء العباسيين التي كان لها اهتمام أيضاً بالمنشآت والإصلاحات شجاع أم الخليفة المتوكل، وقد حجت سنة 236 هـ / 850 م صحبة حفيدها المنتصر، فخرج المتوكل مشياً لها إلى النجف.³ وفي سنة 245 هـ / 859 م غارت مشاش وهي العين التي حفرتها زبيدة بمكة، وارتفع ثمن القربة من الماء إلى 80 درهماً فبعثت شجاع الأموال وأنفقت عليها وأصلحتها.⁴

وقد خلّفت بعد وفاتها ثروة طائلة قدرّت بـ (5000 دينار) من المال عينا وورقا، وخلّفت من الجواهر ما قيمته (1.000.000 دينار)، ونفسه من الفرش والرقيق والدواب، كما خلّفت 14 ضيعة قدرّت غلتها بـ (400.000 دينار) سنوياً.⁵ وقد مكّنت هذه الضياع أم المقتدر من أن تكون لها قاعدة مالية ومنها تنفق على أعمال الاستصلاح.

وكانت قبيحة أم الخليفة المعز تمتلك أموالاً كثيرة قدرّت بـ (1.000.000 دينار)، كما كانت تمتلك سقط فيه مكوك زمرد وآخر فيه لؤلؤ حب كبار وكيلحة ياقوت أحمر، قدرّت قيمتهما بـ (2.000.000 دينار)، وقد رفضت دفع مبلغ 50.000 دينار وعرضت إبنها للقتل من قبل الأتراك.⁶

وكانت السيّد شغب أم الخليفة المقتدر تمتلك كذلك الكثير من الضياع، بعضها أقطعه لها ابنها في دفعات والبعض الآخر اشتريته بنفسها، وكانت تتلقى منها أرباحاً هامة قدرّت بـ (700.000 دينار) سنوياً.⁷ ولم تكن تحتفظ بالأموال لنفسها، بل كانت تنفق منها على استصلاح الحياض، كما كانت تواظب على مصالح الحجاج وتبعث معهم خزانة الشراب والأطباء.⁸ كما ساهمت السيّد شغب بـ 600.000 دينار من أموالها ضدّ جيوش أبي طاهر القرمطي عندما هجم على بغداد سنة 318 هـ / 930 م.⁹

كما تمتعت قهرمانات العصر العباسي الثاني بثروات مالية هامة خاصة وأنهنّ سيطرن على الأوضاع السياسية في عهد الخليفة المقتدر، وأشهرهنّ أم موسى التي كوّنّت ثروة مالية طائلة يصعب ضبطها إلى درجة أنه لما قبض عليها سنة 310 هـ / 922 م اضطر الوزير علي بن عيسى إلى عمل ديوان سمّاه " ديوان المقبوضات عن أم

1- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 355.

2- الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، ص 99.

3- الطبري، تاريخ، ص 1904.

4- الطبري، نفس المصدر، ص 1904.

5- القاضي الرشيد، نفس المصدر، ص 235.

6- السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 282.

7- القاضي الرشيد، نفس المصدر، ص 238.

8- ابن الجوزي، المنتظم، ج 13، ص 321.

9- القاضي الرشيد، نفس المصدر، ص 235.

موسى".¹ وكانت زيدان القهرمانة تملك سبحة قدّرت قيمتها بـ (30.000 دينار) لذلك كانت تعرف بـ "بسبحة زيدان".²

نستنتج أن نساء الخلفاء العباسيين أثّرين من أموال ضياعهنّ ومن ممتلكات أخرى وأصبحن يمتلكن قاعدة مالية على شاكلة الخلفاء العباسيين وأبناء البيت العباسي، وقد أنفقنّ منها على القيام ببعض المنشآت الخيرية التي ترتبط بالحج كتوفير الماء واستصلاح الطرق كما قمن بتوزيع الصدقات، فأصبحن بذلك يلعبن دورا اقتصاديا، كما ساهمن كذلك بأموالهنّ في القضاء على بعض الثورات والفتن كما فعلت السيّدة شغب، ولاشكّ أن تدخلهنّ في شؤون الحكم قد ساعدتهنّ على ذلك. وعلى هذا الأساس فإن حرم البلاط العباسي قد ساهمن إلى جانب رجال البلاط في تثبيت الحكم العباسي سواء في عاصمة الخلافة أو في الأقاليم.

خاتمة:

بناء على ما سبق نستنتج أن نشأة "مجتمع البلاط" في العصر العباسي أدّت إلى تغيير في تركيبة المجتمع ككل، والذي أصبح يتكون في مجموعه من طبقتين اثنتين "الخاصة" و "العامة"، وكثيرا ما تشير المصادر إلى باب العامة وباب الخاصة، وكذلك إلى بيعة العامة وبيعة الخاصة.

وهذه التركيبة هي مستوحاة من المجتمع الساساني. يذكر الثعلبي في وصفه لطبقات الندماء "ولنبداً بملوك الأعاجم، إذ كانوا هم الأول في ذلك، وعنهم أخذنا قوانين الملك والمملكة وترتيب الخاصة والعامة، وسياسة الرعية، وإلزام كل طبقة حظها والاقتصار على جدليتها".³

فالمجتمع العباسي قد أعيد ترتيبه على شكل هرم، يحتل فيه الخليفة القمة، والخاصة الوسط والعامة القاعدة. ومن ثمة فإن الخاصة سوف تلعب دور الوسيط بين الخليفة والعامة. لكن الخليفة سوف لن يحجب فقط عن العامة بل كذلك عن الخاصة، وهو ما سوف يزيد في إضفاء صفة القدسية عليه، لأن الخاصة سوف تلعب دورا كبيرا في حث العامة على طاعة الخليفة، سيما وأنها تستمد شرعيتها وقوتها منه لأنه سبب بقائها أو انحلالها، وهذا من شأنه أن يغذي الشعور بالرهبة والرغبة في نفوس هؤلاء العامة ويرسم لديهم صورة معينة عن الخليفة، وكلّما قوي هذا الشعور لدى العامة، كلما ازدادت صفة القدسية لدى الخليفة.

ويبدو أن الخلفاء العباسيين أنفسهم لم يمنعوا الخاصة من أن يفخموهم بهذه الصفة، ولا كانوا يردوهم عنها، أما الخاصة فهم في حاجة لتقوية صفة القدسية لدى الخليفة للحفاظ على مصالحهم وامتيازهم، لأنه كلّما كان موقع الخليفة أعلى في الهرم، كلّما كان مركز الخاصة أحسن في المجتمع. إلّا أن فكرة القداسة هذه سوف تتقلص تدريجيا في أذهان الخاصة، سيما في العصر العباسي الثاني عندما ضعف مركز الخليفة، في حين أنها ستظل راسخة في أذهان العامة.

¹ - مسكويه، تجارب الأمم، ج 1، ص 84.

² - ابن الجوزي، المنتظم، ج 13، ص 64.

³ - الثعلبي، المصدر السابق، ص 51.

ويَدَّل على ذلك ما ذكره ابن الفرات عند بيعة المقتدر، فعندما توفي المكتفي جمع أبا أحمد العباس بن الحسن كتابه وخواصه وخلا بهم وشاورهم فيمس يقلّده الخلافة فأجمعوا على العباس بن عبد الله بن المعتز، عدى الحسن بن الفرات، فإنه قال له " تقلّد جعفر بن المعتضد فإنه صبي لا يدري أين هو، وعامة سروره أن يصرف من المكتب، فكيف أن يجعل خليفة ويملك الأعمال والأموال وتدير النواحي و الرجال؟ ويكون الخليفة بالاسم وأنت هو على الحقيقة، وإلى أن يكبر قد انغrust محبتك في صدره، وحصلت محصل المعتضد في نفسه. قال فكيف يجوز أن يبايع الناس صبيا أو يقيموه إماما؟ فقال له أما الجواز، فمتى اعتقدت أنت أو نحن إمامة البالغين من هؤلاء القوم؟ وأما إجابة الناس، فمتى فعل السلطان شيئا فعورض فيه، أو أراد أمرا فوقف؟"¹

فالخواص أي المحيطين بالخليفة لم يعودوا يعتقدون لا بقديسته ولا بإمامته، وإنما يعتمدون تفكير العامة لإمامتها بذلك. أي وصل اختيار الخليفة سوريا كواجهة قدسية فقط.²

ومن هنا تتحدد طبيعة العلاقة التي كانت تربط الخليفة بمجتمع البلاط أي الخاصة على أنها علاقة أخذ وعطاء. فالخليفة يمنح الخاصة الوظائف والأموال والقطائع، وفي المقابل تقوم الخاصة بتكريس صفة القدسية لدى الخليفة في أذهان العامة. تلك القدسية التي سعى الخلفاء العباسيون إلى إبرازها سواء بواسطة رموز مرئية للسلطة عن طريق القصور والمدن أو من خلال حثّ الخاصة على تثبيتها، أو كذلك عن طريق نظام المراسم والآداب الذي كان يسود الحياة اليومية داخل القصر والحرم.

¹ - الصابئ، الوزراء، ص 130-131-132.

² - إدريس (محمد مسعود)، " السلطة والعنف والمشاهد العامة في العصر العباسي الأول 132 هـ - 332 هـ"، نفس المرجع، ج 10، 1990، ص 5-27.

باب الثالث

الحياة اليومية وتسليات البلاط العباسي

تمهيد

بعد أن أمكن تحديد الحيز أو الفضاء المادي لدار الخلافة العباسية والتعرف على أهل هذه الدار، صار من الضروري كذلك الإلمام بنمط عيشهم اليومي وتحركاتهم ومشاكلهم اليومية والحياتية.

وترتبط الحياة اليومية داخل البلاط العباسي بصفة عامة، بنشاط الخلفاء العباسيين اليومي، والذين كانوا يخصصون قسما هاما منه لعقد المجالس العامة والخاصة داخل قصورهم والتي كانت تنتظم وفق مراسم وآداب معينة تعرف في المصادر بـ "الرسوم" و "الآداب"، وهي تختلف باختلاف طبيعة المجلس "خاص" أو "عام"، "رسمي" أو "مناسباتي". كما ضمن برنامج الخلفاء العباسيين اليومي، كذلك التحول خارج القصر في مناسبات معينة: كيوم الموكب، وإجراء الخيل واللعب بالصولجان، إلخ....

وترتبط الحياة اليومية داخل البلاط العباسي، بصفة خاصة أيضا بالحياة داخل "الحرم"، بوصفه يمثل جناحا خاصا ومستقلا بذاته عن كل ما يدور حوله في دار الخلافة العباسية، كما أن لهذا القسم من القصر تنظيما دقيقا تخضع له كل النساء المقيمات داخل "الحرم".

وتسمح لنا بعض المصادر التاريخية وكذلك الايكولوجرافية بتتبع الحياة اليومية في البلاط العباسي، سواء منها المتعلقة بمجالس الخلفاء أو بالحياة داخل "الحرم". فقد شهد العصر العباسي بروز أو نشأة ما يمكن أن نسميه بـ "فن البلاط".

الفصل الأول: نشأة فن البلاط

إن الاعتماد على المصادر التاريخية وحدها في دراسة الحياة اليومية في البلاط العباسي يعدّ غير كافٍ، فلا بدّ كذلك من دراسة تحليلية لعدد من الصور واللوحات التي تجسّد حياة البلاط في العصر العباسي، ليتحول معها النص التاريخي، من طابعه الوصفي، التحليلي والسردى في بعض الأحيان، إلى مشهد حيّ يكتسب صفة الحركية والدينامكية. وقد دفعنا إلى مثل هذا العمل أولاً الإشارات العديدة التي ورد ذكرها في المصادر والتي تدلّ على أن مجالس الخلفاء العباسيين كانت مصورة.

فقد ذكر القاضي الرشيد في كتابه "الذخائر والتحف"، أن الخليفة المعتصم "لما فرغ من بناء قصره بالميدان جلس فيه هو وجميع أهل بيته وأصحابه، وأمر أن يلبس الناس كلهم الديباج، وجعل سريره في الإيوان المنقوش بالفسيفساء الذي كان في صدره صورة عنقاء مغرب".¹ وذكر اليعقوبي أن الخليفة المهدي بالله، وقد عرف بزهده وتقواه ومخالفته من تقدم من الخلفاء "عمد إلى الصور التي كانت في المجالس فمحيّت".²

ولم يقتصر التصوير على الجدران بل شمل كذلك سائر الأثاث من بسط وستائر وغيره. فقد ذكر الخطيب البغدادي في وصفه لما أعده المقتدر بالله، لاستقبال ملك الروم أن "عدد ما علّق في قصر أمير المؤمنين المقتدر بالله من الستور الديباج المذهبة بالطرز المذهبة الجليلة المصورة بالجمامات والفيلة والخيل والجمال والسباع.... ثمانية وثلاثين ألف ستر".³ وذكر المسعودي أنه فرش في مجلس المنتصر بالله بساطاً عليه صورة يزيد بن الوليد قاتل ابن عمه وصورة شيرويه قاتل أبيه أبرويز، وقد فرش كذلك تحت المتوكل ليلة قتله.⁴

وذكر الخالدين في كتاب "التحف والهدايا"، أن ملك الهند أهدى للخليفة المأمون هدية ثمينة، فقابلته المأمون بمدية مثلها، كان فيها تحف كثيرة من بينها مائدة جزع فيها خطوط سود وحمرة وخضر على أرض بيضاء، وجام زجاج فرعوني، فتحته شبر، في وسطه صورة أسد، وأمامه رجل قد برك على ركبتيه، وفوق السهم في القوس نحو الأسد، وكانت المائدة والجام مما أخذ من خزائن بني أمية.⁵

ولم يقتصر التصوير على الجدران والأثاث، بل شمل كذلك الورق والكتب. فقد ذكر الجهشيارى أن أبا جعفر المنصور، لما أمر باتخاذ ضيعة لولده صالح، وهي المعروفة بالسيّطية من أعمال البصرة، تقدم إلى بعض المهندسين بتصويرها فصوروها، وعرضوا الصورة عليه فاستحسنها.⁶

ولما ترجم ابن المقفع كتاب "كليلة ودمنة" للخليفة المنصور جعله مصوراً، بدليل قوله في باب عرض الكتاب المترجم، انه ينبغي للناظر في هذا الكتاب أن يعلم أن من بين أغراضه الأربعة "إظهار خيالات الحيوانات

1- القاضي الرشيد، كتاب الذخائر والتحف، ص 129.

2- المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 189-190.

3- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 102.

4- المسعودي، نفس المصدر، ج 4، ص 130-131.

5- الخالدين، كتاب التحف والهدايا، القاهرة 1956، ص 164.

6- الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص 118.

بصنوف الألوان والأصباغ ليكون أنسا لقلوب الملوك ويكون حرصهم عليه أشد، للترهة في تلك الصور".¹
وإلى جانب التصوير، عنى الخلفاء العباسيون كذلك بالتماثيل، والتي تعدّ أيضا ضربا من ضروب التصوير. فقد ذكر الخطيب البغدادي أن الخليفة المنصور أقام فوق قبة قصره الذي يعرف بقصر الذهب، "تمثال فرس عليه فارس".²

وذكر القاضي الرشيد أن بعض ملوك الهند أهدى إلى الخليفة الرشيد، هدايا جليلة كان في جملتها، قضيب زمرد، على رأسه تمثال طائر من ياقوت أحمر، فوهبه إلى زوجته زبيدة، التي وهبته بدورها إلى ابنها الأمين، ومنه انتقل إلى أخيه المأمون، ثم صار إلى المعتصم بعدهما.³ وأشار الخالدين أنه كان في جملة هدية المأمون للملك الهند تمثال "فارس بفرسه وجميع آلاته".⁴

ومن أخبار المستعين أنه أمر فصيح له من الذهب صورة كل حيوان من الوحوش والطيور. كما صيغت له كذلك قرى من الذهب المرصع بالجواهر تحتوي على بقر وجواميس وغنم وكلاب وعلى جميع الفواكه من بطيخ وسفرجل ورماني وأترج...⁵ كذلك "درا الشجرة" ببغداد والتي هي من أبنية المقتدر بالله. وقد ذكر ياقوت الحموي، أنها سميت بذلك لشجرة كانت هناك من الذهب والفضة في وسط بركة مدورة أمام إيوانها وبين شجر بستانها.⁶

نستنتج إذن من خلال هذه الإشارات المتفرقة التي ورد ذكرها في المصادر، مدى اهتمام الخلفاء العباسيين بالصور والمنحوتات، وذلك منذ بدايات الدولة العباسية. فقد كانت قصور دار الخلافة العباسية مصورة الجدران، وكذلك الفرش وسائر الأثاث. كما كانت كذلك محلات بتمائيل اتخذت أشكالا مختلفة آدمية وحيوانية ونباتية. وهو ما أكدته لنا كذلك نتائج التنقيب الأثري في سامراء، ومن ثمة صار من الصعب دراسة الحياة اليومية في البلاط العباسي دون المرور بالتصوير.

I التصوير العباسي

1 - التصوير على جدران القصور

✓ في العصر العباسي

¹ - ابن المقفع، *كلیلة ودمنة*، بيروت 1991، الطبعة الثانية، ص 76.

² - الخطيب البغدادي، *نفس المصدر*، ج 1، ص 73.

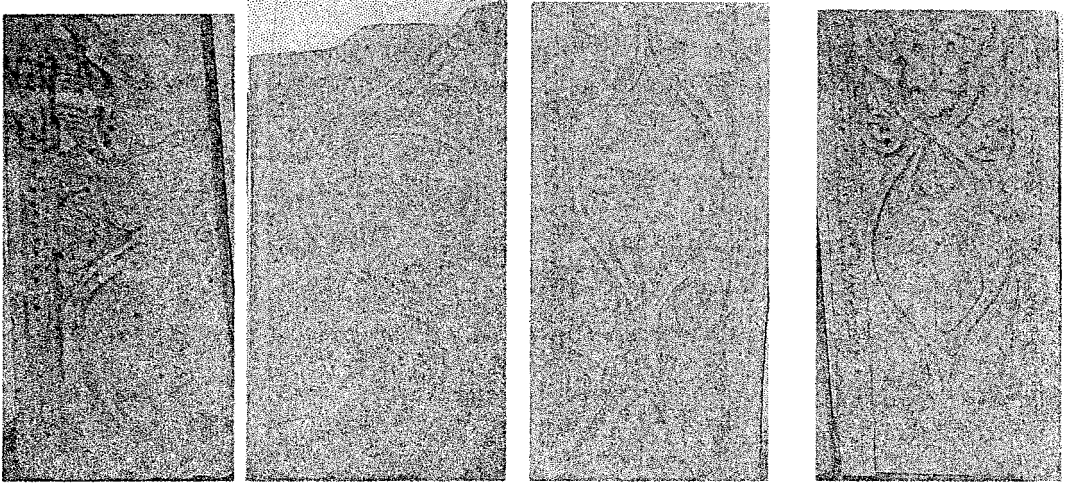
³ - القاضي الرشيد، *نفس المصدر*، ص 20.

⁴ - الخالدين، *نفس المصدر*، ص 164.

⁵ - ابن العمراني، *الإنباء في تاريخ الخلفاء*، ص 124.

⁶ - الحموي (ياقوت)، *معجم البلدان*، ج 2، ص 241؛ للمزيد من المعلومات حول التصوير التصوير الاسلامي عامة بما في ذلك العباسي انظر، أحمد تيمور باشا، *التصوير عند العرب*، القاهرة 1924.

كما هو معلوم فإن مدينة بغداد لم يبق لها اليوم أي أثر مادي، كما أن مدينة الرقة لم تكشف لنا عمليات التنقيب الأثري فيها عن أي رسوم جدارية أو تماثيل، فقط كشفت لنا عن أطر زخرفية جصية، مستمدة أساساً من ورق الكرم وعناقيد العنب وأغصان نباتات أخرى.



53 صورة أطر زخرفة جصية مأخوذة من قصور الرقة

المراجع: بإذن من المتحف الأثري بالرقة

وقد تم العثور على أولى الصور الجدارية التي تعود إلى العصر العباسي والتي تمثل رسوما تشبيهية، آدمية وحيوانية في مدينة سامراء. وقد كشفت لنا عنها عمليات التنقيب الأثري التي أشرف عليها الأثري الألماني هرتزفيلد، والتي نجحت في بداية القرن الماضي بين سنة 1911 و 1913، في إنقاذ بعض الصور في قصر الجوسق الخاقاني في سامراء وعلى الأخص في قسم الحرم منه. كما تم العثور كذلك على بعض الرسوم الجدارية في منازل الخاصة وفي مرافق بعض الحمامات.¹

ولسوء الحظ فقد أُلغيت هذه الصور خلال أحداث الحرب العالمية الأولى ولم يبق منها اليوم سوى ما نقله عنها هرتزفيلد والذي نشره في كتابه *Die Malereien Von Samarra*، وقد اطلعنا على هذه الصور عن طريق هذا الكتاب. كما توجد نماذج أخرى أصلية للبعض من هذه الصور وهي محفوظة اليوم في متحف الفن التركي والإسلامي « *Türk ve Islam* » بإسطنبول، وقد اطلعنا على البعض منها.

وهي تتكون عموماً من صور آدمية تمثل نساء: صيادات وراقصات، في بعض الأحيان شبه عاريات، وصور أخرى لكائنات بشرية يصعب تحديد جنسها، وصور كهنة، بالإضافة إلى صور حيوانية نجد من بينها الكلب،

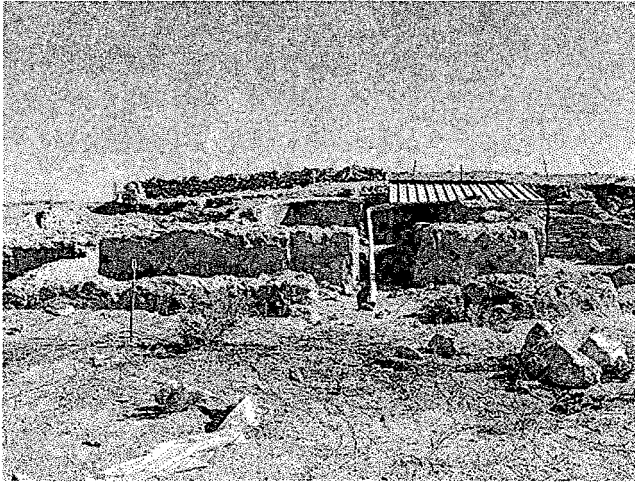
¹ - HERZFELD. Ernest, *Die Malereien Von Samarra*, Berlin, 1927 ;

- انتغهاوزن (ريتشارد)، *فن التصوير عند العرب*، ترجمة عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، بغداد 1974، ص 42.

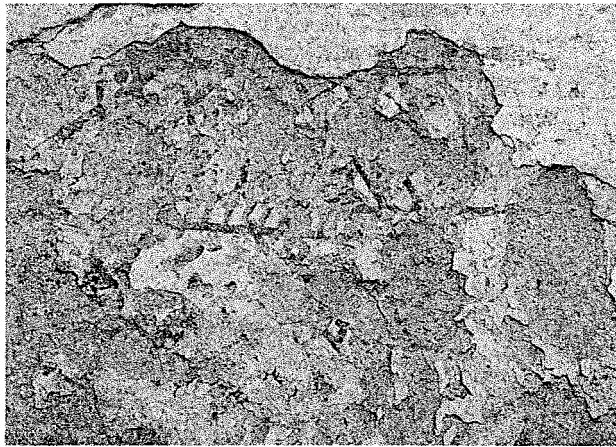
الأرنب، النمر، الثور، النسر، صور عصافير... كذلك سرحات رقص، صيد، بالإضافة إلى غيرها من المشاهد التي تجسّد لنا نماذج من تسلييات البلاط العباسي.

كما أسفرت عمليات التنقيب الأثري في موقع خراب سيار خلال السنوات 2003 - 2004، برئاسة Jan- Waalke Meyer، و تحت إشراف عماد موسى في الكشف عن أنقاض حمام¹ وقد لا حظنا احتوائه على رسوم جدارية تشيبيهية في الغرفة الساخنة على شاكلة حمام قصير عمرة وقد بدت ألوانها باهتة اليوم، وهي لا تمثل صور أشخاص، وإنما رسوم سمكات، بالإضافة إلى أشكال هندسية أخرى، ورغم أنها تعود إلى العصر العباسي فإنها لا تنمي إلى نفس الفترة، وإنما إلى فترات متلاحقة فقد لاحظنا وجود طبقات.

54 : صورة حمام خراب سيار



55 صورة لنماذج من رسوم حمام خراب سيار الجدارية



¹ - Meyer. (Jan- Waalke), " Bericht uber die 5. und 6. Grabungskampagne 2003-2004 in Kharab Sayyar ", in *Mitteilungen Der Deutschen Orient- Gesellschaft Zu Berlin*, N 37, 2005, pp. 24- 27.



وتتمثل أهمية هذه الرسوم في أنها تدلّ على استخدام التصوير في العصر العباسي ليس فقط من قبل الخلفاء وأعوانهم بل كذلك من قبل أشخاص أثرياء.

بالإضافة إلى هذه الرسوم الجدارية التي تعود إلى العصر العباسي، تم العثور أيضا على عدد من المسكوكات التي نقش عليها صور لبعض الخلفاء العباسيين، نذكر من بينها ميدالية للخليفة المتوكل (232-247 هـ / 847-861 م)، ميداليتان للخليفة المقتدر بالله (295-320 هـ / 908-930 م)، ميدالية للخليفة الطائع لله (363-381 هـ / 974-991 م)، وأخرى للخليفة القائم بأمر الله (422-467 هـ / 1031-1075 م). وقد اطلعنا عليها عن طريق مجلة المسكوكات العراقية التي توجد أعدادا منها في المكتبة الوطنية بباريس، في قسم الخزينة المالية، كما نشر أرنولد البعض منها في كتابه "Painting in Islam".¹ وكذلك كندي في كتابه "The court of the caliphs".²

وهكذا بدا لنا واضحا اعتناء الخلفاء العباسيين بالتصوير، وأصبح من الضروري، بل من الصعب دراسة الحياة اليومية في البلاط العباسي دون المرور بالرسوم الجدارية والصور التي تعود إلى العصر العباسي، لأنها تمثل مرآة ضخمة تعكس لنا إلى حدّ ما بعض جوانب الحياة اليومية للخلفاء العباسيين في بعدها الرسمي والمناسباتي. وهنا لا بدّ أن نشير إلى أن الخلفاء العباسيين لم يكونوا، أول من عنى بالتصوير في الإسلام فقد سبقهم إلى ذلك الخلفاء الأمويين.

✓ التصوير الأموي

لقد وردت إشارات في المصادر تدلّ كذلك على اعتناء الخلفاء الأمويين بالتصوير. فقد ذكر المقرئ في كتابه "شنود العقود" أن معاوية ضرب دنانير عليها تمثاله وهو متقلدا سيفه.³ وذكر الخاديين أن جام الزجاج الذي

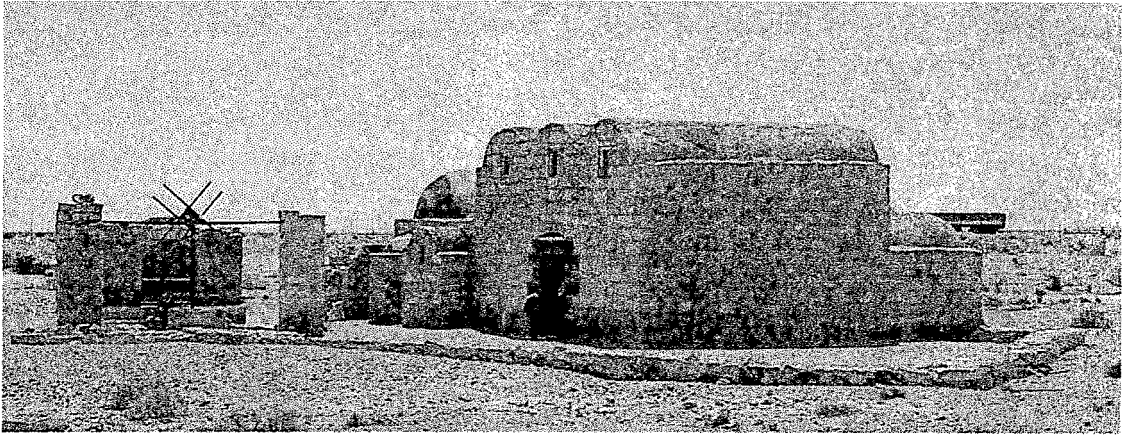
¹- Arnold. Th, *Painting in Islam, A Study of Pictorial Art in Muslim Culture*, Oxford MCMXXVIII.

²- Kennedy. H, *The court of the caliphs, the rise and fall of islam's great dynasty*, London 2004.

³- المقرئ، شنود العقود في نكر النقود، النجف 1967.

أهداه المأمون إلى ملك الروم والذي ذكرنا أنه كان في وسطه صورة أسد وأمامه رجل قد برك على ركبتيه وكذلك المائدة كانا مما أخذ من خزائن بني أمية.¹ وهو ما تدل عليه كذلك الرسوم الجدارية التي تم العثور عليها في قصر عمرة ببادية الأردن، الذي اكتشفه إلوا موزيل Illoi Muzil سنة 1898، والذي يقع على بعد حوالي 50 كلم إلى الغرب من الرأس الشمالي للبحر الميت.² وهو يتألف من منزل وحمام يرجعان إلى عهد الوليد بن عبد الملك (86 هـ / 705 - 715 / 96) سادس الخلفاء الأمويين.

56 صورة حمام قصر عمرة بالأردن



أما بالنسبة للرسوم الجدارية فيشير البهنسي، إلى أنها ترجع في الغالب إلى عهد هشام (105 هـ / 723 م - 125 هـ / 743 م)، وذلك استدلالاً من كتابة عثر عليها موجهة إلى أحد أفراد الأسرة، إما الخليفة الوليد الثاني (125 - 126 هـ / 743 - 744 م)، أو يزيد الثالث 126 هـ / 744 م، أي أن القصر قد بدأ بعمارته عام 93 هـ / 712 م واستمرت زخرفته وزياداته حتى عهد هشام.³ وقد أشار اتنغهاوزن كذلك إلى أن هذه الرسوم قد تعود إلى عهد حكم الخليفة هشام.⁴

وقد اطلعنا مباشرة على هذه الرسوم، إلا أن ألوانها أصبحت باهتة اليوم، كما أن الكثير منها قد تعرض إلى التلف، لكن رغم ذلك فقد حاولنا تكوين فكرة شاملة عنها. ويمثل ما تبقى منها: مشاهد صيد، تمارين رياضية، مصارعات، مشاهد استحمام، نساء عاريات وشبه عاريات، راقصات، وقد ارتدين أنواع مختلفة من الحلي، وحملن تسريحات شعر مختلفة، عازي مزمارة، صورة خليفة جالس على العرش، صورة ستة ملوك ولو أنها قد طمست في معظم أجزائها اليوم، صورة سماء مزخرفة بالنجوم والكواكب، رسوم لمفروشات، وسائد، وغيرها من سائر الأثاث، رسوم لزخارف معمارية، أعمدة، أقواس، تيجان، صور طيور وحيوانات وزخارف نباتية مختلفة. وقد مثلت هذه الرسوم جانباً مهماً من الحياة اليومية للخلفاء الأمويين. بالإضافة إلى سلسلة

¹- الخالدين، نفس المصدر، ص 165.

²- اتنغهاوزن (ريتشارد)، فن التصوير عند العرب، ص 29.

³- البهنسي (عفيف)، موسوعة التراث المعماري، ج 1، دمشق 2004، ص 374.

⁴- اتنغهاوزن، نفس المرجع، ص 33.

أخرى من الرسوم الصغيرة لأعمال بنائية مختلفة تؤلف مثلما أشار إلى ذلك انتغهاوزن، إشارة واضحة إلى اهتمام أموي آخر.¹

وعلى غرار قصير عمرة، يوجد قصران أمويان آخران فيهما رسوم جدارية تمثل مناظر بلاط، وهما قصر "الحير الغربي"، و"خربة المفجر".

فقصر الحير الغربي، يقع على الطريق الممتد من دمشق إلى تدمر، ويرجع إلى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، وقد كشفت عمليات التنقيب الأثري فيه والتي أشرف عليها دنيال شلوميرغرا في الثلاثينات من القرن العشرين عن صورتين كبيرتين كانتا تغطيان أرضية الغرف ذات السلام. ويشير انتغهاوزن إلى أن هذه الصور الجدارية ليست سوى تقليد لفسيفساء قد يستغرق صنعها وقت أطول.² وقد أعيد تركيبهما في القسم العلوي من جناح قصر الحير الغربي، الذي أعيد بناؤه في المتحف الوطني بدمشق.³ وقد أصبحت ألوان هاتين الصورتين باهتة اليوم وقد اطلعنا عليهما مباشرة.

ولا تخمنا الصورة الأولى بقدر ما تخمنا الصورة الثانية، والتي وقع تقسيمها في الأصل إلى ثلاثة أقسام أو مواضيع رئيسية: يمثل القسم العلوي مجلس غناء وطرب، ويمثل القسم الثاني مشهد صيد. أما القسم الأسفل فقد أصابه التلف ولا يرى منه شيئا في متحف دمشق اليوم، وقد كان يمثل صورة عبد أسود يقود حيوانا كبيرا إلى الحظيرة.⁴

أما قصر الحير الغربي الذي يقع على مقربة من أريحا، والذي شيد في عهد الخليفة هشام أيضا، فقد استبدلت فيه الرسوم الجدارية بفسيفساء، مؤلفة من مكعبات حجرية ملونة تشكل صورا تشبيهية أو زخرفية رائعة التنظيم، وهي تقع في قاعة الجلوس بالحمام الكبير وتزين أرضية الحنية المرتفعة التي تقع في نهاية القاعة.⁵ ويظن هاملتون أنها تمثل بساطا، لأن فيها أهدابا تشبه حاشية أنواع معينة من الأبسطة.⁶ وقد وردت بعض الإشارات في المصادر التي تفيد بأن البسط في العهد الأموي كانت مصورة. فقد ذكر المسعودي أنه شوهد في أحد أروقة القصر في عهد الخليفة المنتصر، بساطا في داراته صور ملوك شتى، وقد كتب على إحداها بالفارسية صورة شيرويه قاتل أبيه أبرويز، وعلى الأخرى صورة يزيد بن عبد الملك.⁷ ويبدو من خلال الكتابة الفارسية، أنه صنع في العهد الأموي، لكن على أيدي فارسية وليس عربية.

أما الفسيفساء التي تم العثور عليها في قصر المفجر، والتي من المحتمل أنها كانت تمثل بساطا، فلم تكن تحتوي على صور آدمية، وإنما على صورة شجرة رمان، تحيط بها من الطرفين نباتات أخرى صغيرة، وصورة غزلان

1- انتغهاوزن، فن التصوير عند العرب، ص 29.

2- انتغهاوزن، نفس المرجع، ص 33-34.

3- البهنسي (عفيف)، نفس المرجع، ج 1، ص 534.

4- انتغهاوزن، نفس المرجع، ص 34.

5- البهنسي (عفيف)، نفس المرجع، ج 1، ص 534.

6- انتغهاوزن، نفس المرجع، ص 37-38.

7- المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 130.

يقضمان أوراق الشجر، وقد انقض أسد على أحدهم. ويرى انتغهاوزن أن المناظر التي تضم حيوانات وديعة ووحوشا ضاربة تماجم مخلوقات هي من المظاهر المألوفة في الفسيفساء الرومانية والبيزنطية.¹

كما بين البهنسي أن الشيء الهام، في هذه اللوحة هو الأسلوب الانتقائي الذي جمع عناصره من مختلف الفنون القديمة والسائدة كالفن الروماني والساساني والبيزنطي.² ومن المحتمل أن تتعلق هذه الصورة بموضوع ملكي، فصور الحيوانات الرموز بها، قد شاعت شيوعا كبيرا لدى الفرس والبيزنطيين وكذلك الأمويين، ولم تقتصر على الجدران بل شملت كذلك الكتب، ولعل كتاب كليله ودمنة هو خير دليل على ذلك.

ولم تحفل قصور الأمويين بالرسوم الجدارية والفسيفساء فقط، بل كذلك بالتماثيل، وبصفة خاصة قصر خربة المفجر، قصر الحير الغربي، والمشق.³ وتتألف هذه التماثيل من أشكال آدمية وحيوانية.⁴ ومن أهم المنحوتات التشبيهية التي عثر عليها في قصر الحير الغربي تمثال حاكم مرتديا ملابس فارسية، وقد عثر عليه في الواجهة الخارجية للقصر، فوق الباب الرئيسي.⁵ ومن الباحثين من يرى أن هذا التمثال يمكن أن يمثل الخليفة هشام.⁶ كما عثر أيضا في الواجهة الداخلية للقصر وفوق الباب الرئيسي أيضا، على تمثال آخر يمثل ملكا أو خليفة جالسا على العرش على الطراز البيزنطي.⁷ ولم يبق منه اليوم سوى نصفه السفلي.

بالإضافة إلى عدة تماثيل أخرى، من بينها تمثال رجل مضطجع وإلى جانبه تجلس امرأة على غط التماثيل التدمرية.⁸ وقد نقلت هذه التماثيل كلها إلى متحف دمشق الدولي وقد اطلعنا عليها بصفة مباشرة.

أما قصر خربة المفجر، فمن أهم التماثيل التي عثر عليها فيه، تمثال ملك في وضع يشبه تماثيل الملوك الساسانيين، وقد عثر عليه فوق الباب الرئيسي لغرفة الاستقبال.⁹ ويعتقد البهنسي أن هذا التمثال هو كذلك للخليفة هشام، وذلك بحكم التشابه بينه وبين تمثال قصر الحير الغربي، ولكن هذا التمثال هو ملون ويحمل سيفاً ويقف على أسدين جاثمين.¹⁰ وترى باريكن أن وضع هذه التماثيل الثلاثة التي تحمل صور ملوك أو خلفاء، فوق الباب الرئيسي له دلالة رمزية معينة.¹¹

¹ - انتغهاوزن، فن التصوير عند العرب، ص 38.

² - البهنسي (عفيف)، موسوعة التراث المعماري، ج 1، ص 535.

³ - Grabar. O, *La formation de l'Art Islamique*, Paris 2000, p. 227.

⁴ - Grabar. O, *Ibid*, p. 226.

⁵ - Grabar. O, *Ibid*, p. 228- 230; Barrucand. M, " L'islam", *Op.Cit*, p.415, Barrucand. M, " L'Art de l'islam", *Op.Cit*, p.459;

- شلومبرج (دانيال)، قصر الحير الغربي، نقله إلى العربية إلياس أبو شبكة، بيروت 1945، ص 34.

⁶ - انتغهاوزن، فن التصوير عند العرب، ص 35؛ البهنسي (عفيف)، الفن الإسلامي، دمشق 1986، ص 336.

⁷ - Barrucand. M, " L'Art de l'islam", *Ibid*, p.459.

⁸ - Grabar. O, *Ibid*, p. 226- 230;

- البهنسي (عفيف)، نفس المرجع، ص 336.

⁹ - Barrucand. M, " L'Art de l'islam", *Op.Cit*, p.459.

¹⁰ - البهنسي (عفيف)، نفس المرجع، ص 338.

¹¹ - Barrucand. M, " L'Art de l'islam", *Op.Cit*, p.459.

كما تم العثور في هذا القصر أيضا على تماثيل أخرى لرجال وكذلك لنساء ذات أحجام طبيعية مختلفة، وتسريحة شعر مميزة، وتحمل إحداهن في يدها باقة زهور.¹ ومن المحتمل أنهن يمثل إحدى سيدات القصر الأموي، وهن يشبهن إلى حد كبير صور نساء قصير عمرة.

ولم يكتف الأمويون بالرسم والنحت التشبيهيين، بل قاموا كذلك بنقش صورهم على العملة، حيث ظهرت خلال الفترة الممتدة من سنة 74 هـ إلى 77 هـ / 694-697 م، أي فترة الخليفة عبد الملك بن مروان، مسكوكات ذهبية وفضية تحتوي على صورة الخليفة، وهي تدعى بمرحلة أو طور الخليفة الواقف.²

وتحتفظ الخزينة المالية بباريس اليوم، بدينارين ذهبيين، من هذه المسكوكات ضرب الأول سنة 76 هـ / 696 م والثاني سنة 77 هـ / 696 م، وقد جسم فوق كل منهما الخليفة عبد الملك بن مروان وقد اعتمدنا النسختين الأصليتين لهذين المسكوكتين. كما يحتفظ متحف موسكو، بدرهم فضي آخر، نقش عليه كذلك صورة الخليفة عبد الملك،³ وقد جاء في نفس الهيئة التي برز عليها في المسكوكتين الذهبيتين.

نستنتج إذن مما تقدم أن الخلفاء الأمويين هم أول من استعمل الصور التشبيهية في الإسلام، والتي شملت الجدران، التماثيل وكذلك العملة، وقد اقتدى بهم العباسيون فقاموا بدورهم بزخرفة قصورهم برسوم جدارية تشبيهية، كما قاموا بنقش صورهم على العملة. وما تجدر ملاحظته، هو أن الإشارات الواردة في المصادر والتي تدل على اعتناء الأمويين بالتصوير تعدّ قليلة، بالمقارنة مع ما كشفت عنه نتائج التنقيب الأثري، حيث تم العثور على العديد من الرسوم الجدارية والتماثيل في القصور الأموية الصحراوية، ويمكن تفسير ذلك، بندرة المصادر التي تعود إلى العصر الأموي، فأغلبها ألفت في العصر العباسي. والعكس بالنسبة للفترة العباسية، حيث توجد العديد من الإشارات في المصادر التي تدل على أن مجالس وقصور العباسيين كانت مزخرفة بالرسوم والتماثيل، في حين ما تبقى من رسوم جدارية تعود إلى الفترة العباسية يعدّ قليلا، كما أنه لا يوجد أي أثر مادي للتماثيل العباسية اليوم، في حين أن المصادر أكدت وجودها، ويمكن أن نرجع ذلك إلى طبيعة العمارة العباسية التي اعتمدت كثيرا على اللين مما تسبب في اضمحلالها بالإضافة إلى دور العوامل الطبيعية.

وهكذا بدا لنا واضحا الفكر التحرري، الذي تمتع به هؤلاء الخلفاء، سواء الأمويين أو العباسيين، إزاء فكرة تحريم التصوير التي كانت سائدة من قبل، لاسيما وأنه قد ثبت بالدراسة أن القرآن لم ينص على تحريم الصورة وأن النهي قد اقتصر فقط على بعض الأحاديث التي نسبت للنبي محمد والتي تنفر من تصوير الكائنات الحيّة.⁴ فقد روى البخاري أن عائشة وضعت في بيتها سترا عليه صورا فقال لها الرسول " أميطي عني فإنه لا تزال

¹ - Grabar. O, *La formation de l'Art Islamique*, p. 226.

² - Bates. M, et Darley- Doran. R, « La Numismatique », dans *Trésors de l'Islam*, Genève 1985, p. 351 ; Bates. M, *Islamic Coins*, The American Numismatic Society, New York, 1982, p. 10.

³ - Bates. M, *Islamic Coins*, p. 10.

⁴ - عكاشة (ثروت)، *التصوير الإسلامي الديني والعربي*، القاهرة 1977، ص 14؛ علام (إسماعيل نعمت)، *فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية*، القاهرة 2005، ص 42؛

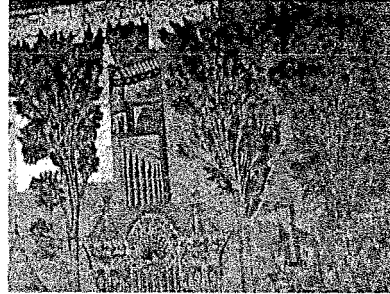
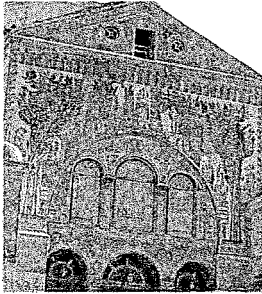
- Grabar. O, *La formation de l'Art Islamique*, p. 110; Barrucand, « Les fonctions de l'image dans la société islamique du moyen - age », dans *Image et Histoire*, Paris 1987, p. 60.

تصاويره تعرض لي في صلاتي". وذكر في موضع آخر أنها قطعتة وجعلته وسادة أو وسادتين.¹ كما ذهب جربار إلى أن أمر الرسول عند دخوله الكعبة بعد فتح مكة، بمحو كل صورة عدا صورة عيسى وأمه مريم - حسب ما أشار إليه الأزرقى - يدفع إلى التفكير بأنه لم يكن يرى في الصور التشبيهية خطرا على عقيدته الجديدة.² ففكرة النهي عن التصوير المنسوبة إلى النبي محمد، الغاية منها إذن هي حماية المسلمين في بداية عهدهم بالإسلام من الرجوع إلى الوثنية وعبادة الأصنام، أي من الردة.³ فهي في الحقيقة دعوة إلى تثبيت التقاليد المتبعة،⁴ وترسيخ الإسلام لاسيما وأنه لا يزال في بداية عهده.

إذن فتحريم الصورة هو مثلما أشار إلى ذلك عكاشة، تحريما موقوتا بزمان وظروف خاصة، ولم يكن مطلقا في الزمان والمكان.⁵ والدليل على ذلك هو أن الخلفاء الأمويين بعد أن لاحظوا زوال خطر الوثنية وترسخ العقائد الإسلامية لم يروا داعيا إلى هذا التحريم،⁶ فقاموا بزخرفة قصورهم، بل وكذلك المساجد برسوم جدارية ولوحات فسيفسائية.

لكن يبدو أن الأمويين ظلوا محتريزين في التعامل مع المواضيع المصورة، والتي اختلفت اختلافا واضحا بين المساجد والقصور، فأهم شيء يلاحظ في المساجد هو افتقارها للرسوم الآدمية، وهو ما يبدو واضحا في رسوم المسجد الأموي بدمشق، والتي تمثلت موضوعاتها في: القصور، الجسور، البرك، الأبراج، الأشجار... مثلما تدل على ذلك النماذج الفسيفسائية التالية:

57 صورة لنماذج من لوحات فسيفسائية من المسجد الأموي بدمشق



¹ - صحيح البخاري، ج 7، القاهرة 2000، ص 168.

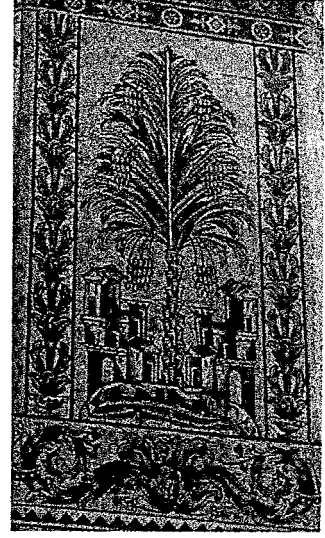
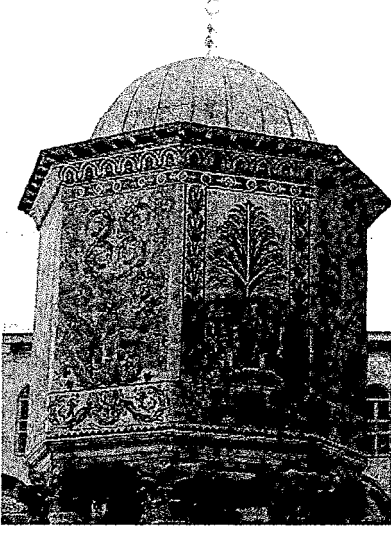
² - Grabar. O, *Ibidem*, p. 110.

³ - علام (إسماعيل نعمت)، نفس المرجع، ص 42؛ عكاشة (ثروت)، نفس المرجع، ص 14.

⁴ - البهنسي (عفيف)، الفن الإسلامي، ص 21.

⁵ - عكاشة (ثروت)، نفس المرجع، ص 14.

⁶ - علام (نعمت)، نفس المرجع، ص 42.



وهو ما أكدته كذلك الأبحاث الفنية بالنسبة لهذا المسجد ولمسجد قبة الصخرة في القدس والذي تضمنت موضوعاته أيضاً، وحدات نباتية محورة وأحياناً واقعية مثل النخيل، أغصان الزيتون، فواكه كالرمان والعنب.¹ أما القصور فقد حفلت جدرانها بالرسوم التشبيهية الآدمية والحيوانية. ويبدو أن تفادي الأمويين الصور التشبيهية في المساجد كان مرتبطاً بكرهية الإسلام للتصوير، ولأنها أمكنة عبادة وقد تذكر فيها تلك الصور بالوثنية وعبادة الأصنام، وهو نفس السبب الذي دفع بالرسول محمد إلى النهي عن التصوير في بداية الإسلام.

وهكذا نلاحظ تحول التصوير عن مفهومه التقليدي القديم الذي يقوم على العبودية والوثنية، إلى مفهوم جديد، يعتمد الواقعية وتشكل الطبيعة، الحيوان وحتى الإنسان محاوره الأساسية، فاكسب بذلك صفته الجديدة كفن وليس كعبادة، وقد مثلت بلاد الشام منطلقه الأول. وفي حين غطت الرسوم التي تجسد الطبيعة، والنباتات جدران المساجد، اقتصرَت الرسوم التشبيهية الآدمية والحيوانية على جدران القصور.

ويشير انتغهاوزن إلى أن التحول في التصوير من منظر الصيد في قصر عمرة، إلى منظر الموسيقيين في قصر الحير الغربي وأخيراً إلى رسوم سامراء، يكشف عن تحول في الاتجاه، ففي الرسوم الجدارية لقصر عمرة كانت الغاية كلها موجهة إلى الحركة، وتحديد مكان الحدث وزمانه، أما في رسوم سامراء، فقد جمّدت صور الأشخاص، وأصبحت شبيهة بإيقونات تحديق الناظر إليها وإلى اللآهية، فأكسب هذا التحول من حدث درامي إلى صور رمزية تلك الصور صفة تذكارية مؤثرة تلائم المجالس الملكية ملائمة تامة.² لكن رغم هذا التبدل في الاتجاه فإن المواضيع التي عالجها الفنانون في هذه الصور لم تتغير، وهي تعكس لنا جانب مهم من حياة الخلفاء اليومية وتسليات البلاط.

¹ - البهنسي (عفيف)، الفن الإسلامي، ص 324-326-327؛ عكاشة، التصوير الإسلامي، ص 267.

² - انتغهاوزن، فن التصوير عند العرب، ص 43؛ عكاشة (ثروت)، التصوير الإسلامي، ص 285.

إذن نستنتج أن فنّ التصوير التشبيهي في العالم الإسلامي قد نشأ بين جدران القصور فغدا فن بلاط فحسب. ولم يصبح جزءا من الحياة الحضارية الإسلامية كما كان الأمر في الحضارة المسيحية.¹ وقد ورث العباسيون هذا الفنّ عن الأمويين الذين قلّدوا به الفرس والبيزنطيين.

✓ التأثير الفارسي

لا بدّ أن نشير إلى أن المواضيع التي عالجها الرسامون، في قصر عمرة وسامراء، لا تبدو اختصاصا أمويا أو عباسيا وإنما نجد نظائر لها منقوشة على الأطباق والأواني الساسانية وكذلك على الصخور. فقد اشتهر الساسانيون خاصة بالنقوش البارزة أو النافرة، المنحوتة على الصخور العالية، وخاصة صخرة طاق البستان الواقعة على بعد بعض الكيلومترات شمال شرقي كرمانشاه kermansah.²

وقد صورت لنا هذه الصخور المنقوشة مواضيع مختلفة من داخل القصر الملكي أو خارجه: تويج ملك، تخليد نصر، سرحات صيد، ملكا جالسا على عرشه أو ممتطيا جواده. كما مكنتنا من التعرف على شخصيات الملوك المختلفة وخاصة عند مقارنتها بصورهم المنقوشة على العملة، فقد عمد الملوك الساسانيون إلى نقش صورهم على العملة، أما ظهر العملة فقد تركوه لشارات الملك. كما يعدّ غطاء الرأس (أي التاج)، كذلك وسيلة للتمييز بين شخصيات الملوك الساسانيين المختلفة.³

أما التماثيل فإنها لم تحظ بعناية فائقة من قبل الفنانين الساسانيين، والتمثال الوحيد الذي عثر عليه، والذي نحت نحتا كاملا هو لشابور الأول يتراوح ارتفاعه بين 7 و 8 م، وقد نحت في العمود الصخري الممتد بين السقف والأرض لأحد الكهوف المنتشرة عند طرف الجبل القريب من مدينة بيشابور، ويعتقد البعض أنه استخدم كقبر لشابور.⁴ ولم يعثر الساسانيون بالمنحوتات فقط، بل كذلك بالرسوم الجدارية وخاصة الزخارف الفسيفسائية، وبالأساس في قصر بيشابور وطيسفون.⁵ وقد صورت لنا هذه اللوحات الفسيفسائية، عددا من أقارب الملك والمقرّبين إليه، ونافحات الناي وعازفات وسيدات البلاط الساساني.

وقد دفعنا التشابه في المواضيع التي تناولها التصوير الساساني والعباسي، والتي عكست لنا جوانب من الرخاء الذي كان يسود البلاطات الملكية في تلك العصور: مناظر صيد، طرب، تمجيد ملوك..... إلى التفكير بأن الحوار الجغرافي، قد لعب دورا كبيرا في التأثير على فنّ التصوير العباسي، فقد كان من السهل على المصور الفارسي، كما هو الشأن بالنسبة للكاتب، أن يتقلد كي يعمل في خدمة الخليفة العباسي، أو العكس أن يبعث الخليفة العباسي في طلب أحد المصورين من بلاد فارس. ويؤكد ذلك ما جاء في إحدى قصص كتاب ألف ليلة

¹ - عكاشة (ثروت)، موسوعة التصوير الإسلامي، لبنان 2001، ص 22.

² - Huyse. PH, *La Perse Antique*, Paris 2005, p. 207 ;

- عكاشة (ثروت)، *الفن الفارسي القديم*، القاهرة 1989، ص 321.

³ - Huyse. PH, *Ibid*, p. 105- 106.

- علام (نعمت إسماعيل)، *فنون الشرق الأوسط في الفترات الهلنستية - المسيحية - الساسانية*، ص 160.

⁴ - Huyse. PH, *Ibid*, p. 208 ;

- عكاشة (ثروت)، *الفن الفارسي*، ص 304.

⁵ - Huyse. PH, *Ibid*, p. 211.

وليلة عن تلبية فناني فارس لدعوة الخليفة وقيامهم بزخرفة أحد قصوره بأسلوب بلادهم.¹ لذلك فمن الطبيعي أن يكون التأثير الفارسي قويا على التصوير العباسي، في مراحل الأولى وقبل أن يستقطب التأثير التركي.

✓ التأثير التركي

لقد تراجع دور الفرس في البلاط العباسي منذ أواخر القرن الثاني هجري، لفائدة الأتراك الذين أصبح لهم شأن كبير، في الإدارة وخاصة في الجيش إلى درجة وصول البعض منهم إلى مناصب قيادية عليا. كما كانوا - مثلما أشرنا إلى ذلك سابقا - الدافع الرئيسي وراء تأسيس الخليفة المعتصم لمدينة سامراء والتي مثلوا العنصر المتميز فيها. ويبدو أن هؤلاء الأتراك قد حملوا معهم إلى جانب تقاليدهم الحربية، كذلك تقاليدهم الفنية والتي ورثوها عن سمرقند، أي عن أواسط آسيا. ولماذا بلاد سمرقند بالذات؟ لأن نشأة هؤلاء الأتراك وأصولهم كانت هناك. يذكر اليعقوبي: " كان المعتصم يوجه في أيام المأمون إلى سمرقند إلى نوح بن أسد في شراء الأتراك، فكنّت أقدم عليه في كل سنة منهم بجماعة، فاجتمع له في أيام المأمون منهم زهاء ثلاثة آلاف غلام".² ومن المهم أن نشير هنا إلى أن هؤلاء الأتراك لم يقع جلبهم كلهم من أواسط آسيا، فمنهم من كان قد اشتراه المعتصم في بغداد مثل وسيم، ايتاخ، وصيف وأشناس.³ فمن الطبيعي إذن أن يكون لهؤلاء الأتراك تأثير على فن التصوير العباسي، لاسيما وأنهم كانوا يقيمون بالقرب من البلاط، ويعيشون تحت رعاية الخليفة وفي حمايته. وهو ما أثبتته نتائج البحث الأثري التي أكدت التواصل بين رسوم قصر الجوسق الخاقاني في سامراء، والرسوم الجدارية العالية في غرب تركستان والتي اشتهرت كذلك بتمجيدها للملوك وإبراز قوتهم البطولية وكنوزهم وشارات ملكهم، وكذلك حبهم للصيد واللهر والاستمتاع بالحياة، وهو ما مثل حلقة ربط بين رسوم قصر الجوسق الخاقاني ورسوم غرب تركستان.⁴

وهكذا فقد مثلت مدينة سامراء مركزا ثقافيا، استقطب فنانيين من أواسط آسيا، وقد حمل هؤلاء معهم تقاليدهم الفنية الأصلية، وبما أن هذه التقاليد كان يطغى عليها الطابع الوثني، كان لابد إذن من تخويرها حتى تستجيب لتعاليم الإسلام.⁵

ولأجل ذلك ترى أمال اسين، أن الرسوم الجدارية في قصر الجوسق الخاقاني، هي من عمل الأتراك الأعاجم القادمين من غرب تركستان، وذلك في اتصال بالخيوط العباسي، هذا دون أن تنفي كذلك تأثير الفن الأموي والذي يظهر بصفة خاصة على مستوى النساء العاريات.⁶

ولن يقتصر تأثير الأتراك الأعاجم على رسوم سامراء، بل سوف ينشر في سائر المدن الإسلامية الأخرى، وخاصة في مصر، حيث سيقوم أحمد بن طولون القائد التركي بجلب العديد من الفنانين الترك من سامراء

¹ - عكاشة (ثروت)، التصوير الإسلامي، ص 284.

² - اليعقوبي، البلدان، ص 22.

³ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 22.

⁴ - EMEL. Esin, « The Turk al- Agam of Samarra and the paintings attributable to them in Gawsaq al- Haqani », in *Kunst de Orients*, t IX, 1973- 74, p.86.

⁵ - Arseven. Celal Esad, *Les Arts décoratifs Turcs*, Istanbul, p.13.

⁶ - EMEL. Esin, « The Turk al- Agam of Samarra », *Op.Cit*, p.87- 88.

وتركستان، و الذين سيقومون بتشديد العديد من القصور والمساجد في مدينة القاهرة، ويمثل مسجد ابن طولون، واحد من أبرز المعالم التي يبرز فيها تأثير الفن التركي لمدينة سامراء.¹

فلأن نشأة هؤلاء الأتراك كانت في وسط آسيا، وثقافتهم الأولى كانت هناك، فلا بدّ إذن أن يكون لهم تأثير على فن التصوير العباسي، لكن مع المحافظة على التقاليد المحلية. ولذلك نجد أن فن التصوير في سامراء يعبر عن هذه الحقبة التي أصبح للأتراك دور بارز فيها.

ومن ثمة يمكن أن نستنتج ارتباط فن التصوير العباسي، بالعناصر المؤثرة في البلاط، ففي البداية كانت الأولوية للفرس، فكان التأثير الفارسي قويا على فن التصوير العباسي، ثم بدأ الاهتمام بالأتراك، وانعكس ذلك على فن التصوير العباسي، حيث ظهرت ملامح تركية لأشخاص ومعهم برز فن التصوير الذي كان منتشرا في تركستان وبدأ الخلفاء العباسيون بالاهتمام بهذا العالم وبفنونهم.

وبالتالي يمكن أن نلخص المصادر الأساسية للتصوير العباسي في: أولا التقاليد الأموية المتوارثة، ثانيا التأثير الفارسي والذي كان قويا في المراحل الأولى، ثالثا التأثير التركي والذي ظهر مع الأتراك الأعاجم و تحول الخلافة إلى سامراء.

كما أن دراسة صور تسلييات البلاط العباسي، تقتضي كذلك الانفتاح على فن التصوير البيزنطي، والذي كان تأثيره قويا على فن التصوير الأموي، لاسيما وأن العباسيين قد ورثوا هذا الفن عنهم.

✓ التصوير البيزنطي

من المحتمل أيضا أن يكون التصوير العباسي، قد تأثر ببعض الطرز والتقاليد التي كانت تسود البلاط البيزنطي في تلك الفترة أو قبلها، والتي أرساها أباطرة بيزنطة، الذين تنسب لهم بعض الصور الفسيفسائية التي كانت تزين خاصة جدران الكنائس. فقد كانت الفسيفساء أكثر العناصر التصويرية شيوعا، وقد ازدهرت خاصة ابتداء من عهد جستنيان.²

ورغم أن أزمة الأيقونات (La crise iconoclaste)، قد أتت على العديد من الشواهد التي كانت تزين جدران الكنائس، فإن كنيسة سان فيتال في رافان، قد حفظت لنا لوحتان شهيرتان: الأولى تمثل جستنيان وحاشيته والثانية تمثل تيودورا وحاشيتها.³ وهما يمثلان أولى الصور التي وقع فيهما تجسيد الإمبراطور والإمبراطورة داخل الكنيسة بصفتهم، واهيين أو مانحين، وسيتبعهما في ذلك العديد من الأباطرة الذين أتوا من بعدهما وفي القسطنطينية نفسها.⁴

¹ - Arseven. Celal Esad, *Ibid*, p.13.

² - Neyret (Clémence), *L'Art Paléochrétien L'Art Byzantin*, Ecole du Louvre, Paris 1998, p.96.

³ - Neyret .C, *Ibid*, p. 92 ;

- البهنسي (عفيف)، *تاريخ الفن والعمارة*، دمشق 1988، ص 231.

⁴ - Neyret .C, *Ibid*, p.96.

كما ظهرت الموضوعات الدنيوية في العصر البيزنطي كذلك، على الزخارف المنقوشة على العاج وخاصة في القسطنطينية.¹ ومن أشهرها لوحة تصور تتويج المسيح للإمبراطور (Constantin VII Porphyrogénète) (945).² وكذلك على المنسوجات التي عرفت ازدهارا كبيرا في القسطنطينية منذ عهد جستنيان، وخاصة الحريرية منها، وقد احتوت على زخارف هندسية، نباتية، حيوانية وكذلك آدمية.³ وقد لعبت فارس دورا كبيرا في مدّ المنسوجات البيزنطية بزخارف ساسانية وذلك عن طريق المنسوجات التي كانت تصدر إلى بيزنطة.⁴ وتظهر موضوعات البلاط في قطعة حريرية تصور إمبراطور، في إحدى مواكبه الرسمية.⁵

أخيرا لا بدّ أن لا نغفل الفن الأموي الغربي، الذي أنتج لنا عددا من علب العاج، التي صنعت في قرطبة في النصف الثاني من القرن الرابع هجري وبداية القرن الخامس، والتي يبدو من خلال النقائش التي احتوت عليها أنها أنجزت لعدد من أفراد الأسرة المالكة الأموية. وقد اشتملت كذلك على زخارف صورت مواضيع بلاط: رقص، طرب، موسيقى، سرحات صيد... ومن أشهرها العلبة الخاصة بالأمير المغيرة، ابن الخليفة عبد الناصر الثالث.⁶

نستنتج أن الصور التي تمثل مواضيع بلاط: مجالس طرب، موسيقى، رقص، سرحات صيد، لا تبدو اختصاصا عباسيا، أو أمويا أو فارسيا....، وإنما تعترضنا في كل البلاطات الملكية فهي إذن صفة من صفات الملك. نستنتج كذلك أن مشاهد البلاط في العصر العباسي وكذلك في العصر الأموي، قد غطت بالأساس جدران القصور، وهو ما جعلنا نلاحظ أن فن التصوير التشبيهي في العالم الإسلامي هو أولا وقبل كل شيء "فن بلاط"، وقد كشف لنا هذا الفن عن جوانب هامة من حياة الخلفاء اليومية.

نستنتج أيضا أن دراسة صور تسلييات البلاط العباسي عكست طابعا إسلاميا يمثل امتدادا لمدارس التصوير السابقة، في بلاد فارس وتركستان، وأيضا استمرارا للتقاليد المحلية، بالإضافة إلى الانفتاح على مدرسة التصوير البيزنطية، وفي النهاية كانت الهوية الذاتية لمدرسة التصوير العباسية التي ستبرز في نهاية العصر العباسي، والتي سيتحول مجال اهتمامها من زخرفة جدران القصور إلى تزويق الكتب لكن مع المحافظة دائما على موضوعات البلاط.

2 - التصوير على الورق

لقد غطت مشاهد البلاط بالإضافة، إلى جدران القصور، والصخور العالية والنقود والمعادن، كذلك الكتب. وهي تعرف بالمنمنمات، وتتمثل في تزويق المخطوطات الأدبية والعلمية والتاريخية برسوم توضيحية.

¹ - Neyret .C, *Ibid*, p.83.

² - Mathews. Th. F, *Le Monde Byzantin*, Paris 2002, p. 35.

³ - Neyret .C, *Ibid*, p.132.

⁴ - البهنسي (عفيف)، نفس المرجع، ص 91.

⁵ - Kondakov. N. P, « Les Costumes Orientaux à la Cour Byzantine », dans *Byzantion*, v III, p. 30.

⁶ - Grabar, *La formation de l'Art Islamique*, p. 249- 250.

ويبدو من خلال ما أورده ابن المقفع في عرضه لكتاب " كليلة ودمنة "، الذي قام بترجمته من الفارسية إلى العربية، " أنه ينبغي للناظر في هذا الكتاب ومقتنيه أن يعلم أن من بين أغراضه إظهار خيالات الحيوانات بصنوف الألوان والأصباغ ليكون أنسا لقلوب الملوك ويكون حرصهم عليه أشد، للترعة في تلك الصور".¹ أن فن تزويق المخطوطات بالصور قد ظهر منذ بدايات الدولة العباسية، ويبدو كذلك أنه قد شمل أساسا الكتب الموجهة إلى الملوك، أي أنه قد غدا كذلك فن بلاط فحسب.

لكن يبدو أن انتشار هذا النوع من الفن كان محدودا، فليس بين أيدينا شيء من التصوير على الورق يرجع إلى العصر الأموي.² ولأجل ذلك يذهب العديد من الباحثين إلى أن أقدم المنمنمات الإسلامية يرجع ظهورها إلى القرن الثالث عشر ميلادي، أي أواخر العصر العباسي.³ أما قبل هذا التاريخ فإن الفن التشبيهي في العالم الإسلامي ومثلما أشرنا إلى ذلك سابقا كان زخرفيا معماريا، يتمثل في الرسوم الجدارية والفسيفساء والتماثيل، كما شمل كذلك المسكوكات. وقد تزامن هذا التحول في التوجه، من الاهتمام بالرسم على الجدران إلى زخرفة الكتب والمخطوطات مع تدهور الخلافة العباسية، فلم يعد للخليفة من الخلافة سوى اسمها، وفي المقابل برزت فئة جديدة من التجار الأثرياء، أصبحت تلعب دورا هاما في الحضارة الإسلامية.⁴

كما لعبت الأوساط الدينية كذلك دورا في هذا التحول، ففي فترة قوة الخلافة الإسلامية، وخاصة في عهد الخلفاء الأمويين والأقياء، لم يكن بإمكان أي قوة دينية أن تقف أمام إرادة الخليفة، أما في فترة تدهور الخلافة، صار بإمكان العلماء التدخل، لذلك من الباحثين من يرجح إمكانية، أن يكون قد وقع التذكير في تلك الفترة بتحريم الإسلام للصورة، وتجنبنا لاستياء المؤمنين، تم إخفاء تلك الصور في الكتب عوضا من عرضها أمام الجماهير.⁵

وقد كانت الكتب العلمية المنقولة عن اليونانية هي أولى الكتب، التي طلب من الفنانين المسلمين تزويقها بالصور، مثل " كتاب الحشائش وخواص العقاقير " لـديوسقوريدس، وكذلك بعض الكتب الأدبية مثل كتاب "كليلة ودمنة" ومخطوطة " مقامات الحريري".⁶

ولما كانت بغداد المركز الرئيسي الذي أنتجت فيه هذه الأعمال الفنية، فقد أطلق على هذه المدرسة الأولى للتصوير الإسلامي، اسم " مدرسة بغداد".¹ والتي ازدهرت في بغداد والموصل والكوفة وواسط، وكذلك في

¹ - ابن المقفع، نفس المصدر، ص 76.

² - عكاشة (ثروت)، موسوعة الفن الإسلامي، ص 36.

³ - Mazhar. S. Ipsiroglu, *Chefs d'œuvre du Topkapi Peintures et Miniatures*, Suisse 1980, p. 11 ; Ettinghausen. R, *La peinture arabe*, Genève 1962, p.59.

⁴ - Mazhar. S. I, *Ibid*, p. 12.

⁵ - Mazhar. S. I, *Ibid*, p.13.

⁶ - Mazhar. S. I, *Ibidem*, p.13.

- عكاشة (ثروت)، نفس المرجع، ص 41.

¹ - Mazhar. S. I, *Ibid*, p.13.

إيران ومصر والشام والأندلس، إلى أن انتقل مركز التصوير الرئيسي منذ القرن الرابع عشر إلى إيران وارتبط بمدرستها، التي انبثقت عنها مدرسة التصوير في كل من الهند وتركيا.¹

وبعد أن كان التأثير الفارسي يسود التصوير الإسلامي خلال العصر العباسي، فإن التجديد الذي حققه في نهاية القرن 6 هـ / 12 م، هو أنه سمح للعنصر الكلاسيكي أن يأخذ مكان الصدارة عن طريق التأثير البيزنطي، وقد نجح في ذلك بتطويع نماذج وأساليب الصور البيزنطية لنمط الحياة العربية الإسلامية ويتجلى ذلك في الكتب اليونانية المترجمة إلى العربية والتي يظهر في أسلوب صورها التأثير بصور المخطوطات البيزنطية، المزدانة بصور الأشخاص.²

وقد مثلت مشاهد البلاط من مجالس طرب وموسيقى، ومن صورة الحاكم الجالس على العرش، وحتى صور نساء البلاط، أحد المواضيع الرئيسية التي تناولها الفنانون المسلمون في هذه المخطوطات. ولم تقتصر موضوعات البلاط فقط على الكتب الأدبية، بل شملت كذلك الكتب العلمية.³

ومن أقدم الكتب التي ضمنها الفنانون المسلمون مناظر بلاط:

- كتاب " الدرياق " المؤرخ عام 595 هـ / 1198 م، والمحفوظ حاليا بالمكتبة القومية بباريس (تحت رقم (Arabe 2964)، والذي احتوى على صورة تمثل مشهد ملكي.⁴

- كتاب " الأغاني " لأبي فرج الأصفهاني، أين يظهر المشهد البلاطي في الصفحة الأولى، لنسخة من الأجزاء الثاني والرابع، والحادي عشر لهذا الكتاب، والمحفوظة حاليا بدار الكتب المصرية بالقاهرة، ويرجع تاريخها إلى سنة 614 هـ / 1217 م.⁵ وفي نسخة من الجزء السادس المحفوظ بالخزانة الحسينية بالرباط تحت رقم 8627.⁶

وكذلك في الصفحة الأولى من الجزء السابع عشر، المحفوظ حاليا بمكتبة (Millet Kutuphanesi (Feyzullah Efendi 1566, folio 1 recto)، والذي يرجع تاريخه إلى سنة 615 - 616 هـ / 1218 - 1219 م.⁷

ويذهب عكاشة إلى أن تلك الأجزاء، هي إحدى النسخ الأصلية للكتاب، لأن أبا فرج الأصفهاني تفرغ أربعة أعوام لتصنيف كتابه حتى أتمه سنة 616 هـ / 1219 م.¹ لكن ورد في نهاية (الجزء 2، 4، 6، و 11)،

¹ - عكاشة (ثروت)، نفس المرجع، ص 41.

² - Ettinghausen. R, *La peinture arabe*, p.67.

³ - Ettinghausen. R, *Ibid*, p. 66.

⁴ - الدرياق، مخطوط بالمكتبة القومية بباريس، folio 27, arabe 2964 .

⁵ - كتاب الأغاني، (أدب 579)، ج 2 (54123)، ج 4 (54092).

⁶ - سيد (أيمن فؤاد)، " مجلدان جديان من نسخة كتاب الأغاني المصورة"، *حوليات إسلامية*، ج 40، 2006، ص 164.

⁷ - Ettinghausen. R, *Ibid*, p.61.

¹ - عكاشة (ثروت)، *موسوعة الفن الإسلامي*، ص 82؛

- Ettinghausen. R, *La peinture arabe*, p.61.

عبارة " بلغ عرضا بالأصل المنقول عنه" أو " قوبل بالأصل المنقول عنه" وهو ما لاحظناه وما أشار إليه أيمن فؤاد السيد،¹ مما يدل على أنها ليست النسخ الأصلية للكتاب، وإنما نقلت عن النسخة الأصلية. وتمثل تلك الصور الاستهلاكية مناظر من جلسات الطرب والموسيقى، ومن المحتمل أن تكون مستوحاة من نصوص الكتاب، مما يضيف على تلك الصور وعلى الكتاب بكامله أهمية خاصة لاسيما وأن أبي الفرج الأصفهاني قد تناول فيه العديد من مجالس الخلفاء العباسيين وعاداتهم في الشرب والرقص والغناء. كما تظهر مناظر البلاط كذلك في صور:

- كتاب " كليله ودمنة"، وهو مثلما أشرنا إلى ذلك كتاب موجه إلى الملوك، وقد نقل عن ترجمة فارسية، كانت تتضمن منمنمات متسقة مع الأسلوب الفني للبلاط الساساني.² ولم تصل إلينا نسخة ابن المقفع، وأقدم نسخة من هذا الكتاب يرجع تاريخها اليوم إلى ما بين سنة 617-627 هـ / 1220-1230 م، وهي محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس.³ وتعتبر لوحات نسخة بارس من كتاب "كليله ودمنة"، أحسن تعبير عن نمط حياة البلاط وخاصة على مستوى التراتبية الهرمية.

ومن المخطوطات التي يتضح في صورتها مشهد من مشاهد البلاط كذلك نسخة من:

- كتاب " الحشائش وخواص العقاقير"، « De Materia Medica»، لديوسقوريدس (Dioscoride)، والذي يوجد حاليا بمكتبة السلمانية باسطنبول، ويرجع تاريخه إلى القرن 13 م.⁴ وقد احتوت على صورة، صور فيها الديوسقوريدس الروماني وهو جالس على عرش، ويحيط به عالمان من علماء الرومان.⁵ إلا أن مناظر البلاط، تظهر بشكل أكثر وضوح في:

- مخطوط " مقامات الحريري"، والذي صورت منه عدة نسخ، ومن أشهرها ثلاثة نسخ محفوظة اليوم بالمكتبة القومية بباريس. النسخة الأولى صورت في سوريا سنة (619-620 هـ / 1222-1223 م).⁶ والثانية صورت في العراق عام (633-634 هـ / 1235-1236 م)، وقد قام بتصويرها يحيى بن محمود بن يحيى بن الحسن الواسطي، وهي من أشهرها.⁷

أما النسخة الثالثة فيرجع تاريخها إلى حوالي عام 648 هـ - 1250 م، وهي تعرف باسم مخطوط القديس واست Waast.¹

¹ - سيد (أيمن فؤاد)، " مجلدان جديان من نسخة كتاب الأغاني المصورة"، نفس المرجع، ص 164.

² - عكاشة (ثروت)، موسوعة الفن الإسلامي، ص 81؛

- Ettinghausen. R, *Ibidem*, p.61.

³ - ابن المقفع، كليله ودمنة، المكتبة الوطنية بباريس، 3465. Arabe.

⁴ - ديوسقوريدس، الحشائش وخواص العقاقير، المكتبة السلمانية باسطنبول، Sainte Sophie Ms 3703, fol.

⁵ - Ettinghausen. R, *Ibid*, p.66.

⁶ - مقامات الحريري، المكتبة الوطنية بباريس، 6094. arabe.

⁷ - نفس المخطوط، (arabe 5874)

¹ - نفس المخطوط، (arabe 3929)

وتلقي صور هذه النسخ من مخطوط " مقامات الحريري"، الضوء على حياة البلاط، وقد تنوعت فيها المواضيع المصورة: قصور ملكية، صور غلمان، خدم، عبيد، صور لجلسات حكم الولاة والقضاة، صورة حاكم جالس على العرش.

وتمثل أهمية نسخة الواسطي في أنها احتوت على صورة يذهب بعض الباحثين إلى أنها تمثل، صورة الخليفة العباسي، المستنصر بالله (603 - 640 هـ / 1226 - 1242م)¹، ولعلنا لا نستبعد ذلك لاسيما وأن الواسطي قام بنسخ هذا المخطوط وتصوير منمنماته عام 635 هـ / 1237 م، أي خلال فترة حكمه. كما احتوت كذلك على صورة أخرى لبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وهي تلي صورة الخليفة. كما ألقى هذا المخطوط الضوء كذلك ، على حياة الشعوب العامة، وهم يمارسون أنشطتهم اليومية في المسجد، في الأسواق، في الأعياد والمهرجانات...

نلاحظ إذن أن المواضيع التي تناولها المصورون على الورق والمخطوطات في أواخر العصر العباسي، لا تبعد كثيرا عن المواضيع التي تناولها المصورون على الجدران في رسوم سامراء، وهي تتعلق أساسا بمواضيع البلاط. لكن في حين كان الطابع البيزنطي يسود التصوير في الكتب العلمية، كان الطابع الفارسي يسود التصوير في الكتب الأدبية، التي أخذت عن الأنماط الفارسية، مخلدة بذلك الأسلوب العراقي الذي مرّ في لوحات سامراء.² ومن هنا نستطيع أن نستنتج تداخل العناصر الفنية المختلفة التي تألف منها الفن العباسي، وكذلك العلاقة المباشرة بين رسوم سامراء وبين منمنمات مدرسة بغداد للتصوير الإسلامي.

لكن بعد الغزو المغولي لمنطقة الشرق الأوسط، انتقل مركز التصوير الإسلامي من العراق إلى فارس، وفقدت بغداد دورها كمركز للحياة الثقافية لفائدة تبريز، التي أصبحت عاصمة السلالة الحاكمة المغولية الإيلخانية.³ وقد مرّ التصوير الفارسي بصفة عامة بثلاثة مراحل أساسية: أولها التصوير في عصر الإيلخانات المغول (694 هـ - 1295م / 794 هـ / 1392م)، وثانيها التصوير في عصر التيموريين بعهديه الأول (803 هـ - 854 هـ / 1400 - 1450 م)، والثاني (861 - 913 هـ / 1457 - 1507 م)، وثالث هذه المراحل هو التصوير في العصر الصفوي (مطلع القرن السادس عشر).⁴

ومن مخطوطات عصر الإيلخانات التي يظهر فيها المنظر الملكي، نسخة من كتاب " كلیلة ودمنة"، محفوظة حاليا بدار الكتب بالقاهرة، وقد نسخت بين سنتي (744 - 745 هـ / 1343 - 1344 م)، وقد احتوت على مجموعتين من الصور، الأولى رسمت في أواسط القرن 14 م والثانية في أواخر ذلك القرن.¹ وقد تضمنت صوراً لمشاهد بلاط، تدور أحيانا في عالم الحيوان، ويظهر في صورها التأثير بالأساليب الفنية للبلاط

¹ - حميد (عبد العزيز)، "ملابس الخلفاء في الآثار الإسلامية"، كلية الآداب بغداد، ج 30، 1981، ص 327.

² - عكاشة (ثروت)، موسوعة الفن الإسلامي، ص 83.

³ - Mazhar. S. I, Op. Cit, p.13.

⁴ - عكاشة (ثروت)، موسوعة الفن الإسلامي، ص 83.

¹ - ابن المقفع، كلیلة ودمنة، دار الكتب بالقاهرة (أدب فارسي 61).

الساساني. وبتدار الكتب المصرية كذلك نسخة من " كتاب الملوك " أو " الشهنامة " للفردوسي، والذي يعدّ من أهم وأقدم الكتب التي تمّ تزويقها خلال عصر الإيلخانات.¹

والشهنامة هي الملحمة القومية الفارسية، التي تجسّد مآثر أبطال التاريخ الفارسي القديم من أقدم عهود الفرس حتى الفتح الإسلامي، وقد أتمها الفردوسي عام 390 هـ - 1000 م وأصبحت منذ ذلك التاريخ من أهم المآثر الرئيسية في الأدب الفارسي والثقافة الإسلامية عامة.² ويبدو أن الفنانين الفرس قد أقبلوا على نسخ وتصوير الشهنامة للملوك على مرّ العصور، وتوجد منها اليوم عدّة نسخ، من أقدمها نسخة محفوظة اليوم بتدار الكتب بالقاهرة، وقد نسخت في تبريز عام 795 هـ / 1393 م، أي خلال مدرسة الإيلخانات.³ كما توجد نسخة أخرى تمّ إنجازها في باريس عام 848 هـ / 1444 م وتحتوي على 671 صورة.⁴ وقد اهتم المصورون فيها بتصوير معارك وحروب ملوك الفرس القدماء، مثل أردشير، وجلسات حكمهم. ويشير عكاشة إلى الأصل الساساني لهذه الصور وإلى إمكانية أن يكون المصورون يحتفظون بنسخ من العصور الساسانية الأولى والتي تصور حوادثها.⁵

وهكذا عادت إلى الظهور من جديد مع الشهنامة مآثر الملوك الساسانيين والتي وجدت منقوشة على المعادن والصخور، أي أن الفنانين الفرس حاولوا في الشهنامة إحياء الإرث الساساني القديم.

كما عادت المشاهد الملكية الساسانية إلى الظهور بشكل أكثر وضوحاً كذلك، مع مخطوطة " جامع التواريخ " لرشيد الدين، الذي وزر إلى السلطان المغولي غازان محمود (Ghazan Mahmoud) (1295 - 1304) ثم إلى أخيه أولجايتو خودابندا (Oldjaitu Khoudabanda) (1304 - 1360)، وقد أسس مدرسة " الرشيدية "، نسبة إليه، وألّف تاريخاً عالمياً.⁶

وقد تناول فيه تاريخ الأنبياء والرسل وتاريخ ملوك فارس قبل الإسلام، وتاريخ الرسول محمد والخلفاء الراشدين، وخلفاء بني أمية وبني العباس حتى سقوط الخلافة العباسية على يد المغول سنة 656 هـ / 1258 م، كما تناول فيه تاريخ الدويلات الفارسية اللاحقة للإسلام، كدولة " السلاجقة " وملوك " خوارزم " وحكام فارس....⁷ وقد قام العديد من الفنانين الذين قدموا من مناطق مختلفة من بينها إيران، والذين ينتمون إلى ديانات مختلفة، إسلامية بوذية ومسيحية شرقية، بتزويق هذا المخطوط، والذي توجد أقسام منه اليوم موزعة بين لندن واسطنبول، ويرجع تاريخها إلى سنة 714 هـ / 1314 م.¹ كما توجد نسخة أخرى من هذا

¹ - Mazhar. S. I, *Op. Cit*, p.44.

² - عكاشة (ثروت)، موسوعة الفن الإسلامي، ص 45؛

- Mazhar. S. I, *Ibid*, p. 44- 45.

³ - الفردوسي، الشهنامة، مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس، تاريخ فارسي 57.

⁴ - الفردوسي، الشهنامة، مخطوط بتدار الكتب الوطنية بالقاهرة، 494 sup. persan .

⁵ - عكاشة (ثروت)، المرجع السابق، ص 46.

⁶ - Mazhar. S. I, *Ibid*, p. 41.

⁷ - الشواربي (إبراهيم)، " مصادر فارسية في التاريخ الإسلامي "، مجلة كلية الآداب المصرية، ج 6، 1942، ص 96.

¹ - Mazhar. S. I, *Ibid*, p. 41.

المخطوط يرجع تاريخها إلى سنة 834 هـ / 1430م، وهي محفوظة حالياً في المكتبة الوطنية بباريس،¹ وقد احتوت على العديد من الصور التي حاول فيها الفنانون إحياء مآثر الملوك الساسانيين، كما احتوت على العديد من الصور لجلسات الحكام المغول، وكذلك على صورتين لأخر خليفة عباسي المستعصم بالله (640-656)، وهو في زيّ الخلافة، مما يضيف على هذه المخطوطة أهمية كبرى، وكذلك على صورة تمثل سقوط مدينة بغداد على يد المغول سنة 656 هـ / 1258 م.

كذلك من المخطوطات التي اتضح لنا في صورها إحياء تراث الشعوب الساسانية القديمة، نسخة من مخطوط "الآثار الباقية عن القرون الخالية" للقزويني، والذي يرجع تاريخه إلى سنة 968 هـ / 1560 م أي خلال العصر الصفوي. وهي محفوظة حالياً بالمكتبة الوطنية بباريس.² وقد احتوت على صور لبعض ملوك الفرس وألبستهم، وشارات ملكهم، ورسمهم يوم عيد المهرجان، كما احتوت على صورتين للرسول محمد، وصورة للخليفة علي بن أبي طالب وقد جلس على خشبة.

وقد ظلت المواضيع التي تمثل مشاهد بلاط تحتل مكانة فائقة خلال العصر الصفوي، رغم انحصار دائرة المواضيع المصورة، فقد حاول الفنانون فيها مدنا بصور للحاكم الجالس على العرش، ومشاهد للصيد ولعبة البولو (polo).³ والتي اشتهر بها الملوك الساسانيين واتبعهم فيها الخلفاء العباسيون.

نستنتج إذن أن مصوري المنمنمات الفارسية، قد حاولوا خلال عصر الإيلخانات المغول، وكذلك خلال العصرين التيموري والصفوي، إحياء التراث الفني التصويري الساساني القديم، والذي مثلت مشاهد البلاط من سرحدات صيد إلى مجالس طرب وموسيقى، إحدى موضوعاته الأساسية، والتي وجدت منقوشة على المعادن والصخور. أي أنهم خضعوا مثلما أشار إلى ذلك عكاشة إلى تأثير أسلافهم، فعادت إلى الظهور، بعد سبعة قرون أوثمانية مشاهد الصيد والطرْد ومآثر الملوك، ولو أن تلك الموضوعات قد ظهرت قبل ذلك بسامراء.⁴ ومن هنا تبين لنا أهمية رسوم سامراء كحلقة وصل، بين التراث الفني الساساني القديم، والفن الفارسي المغولي والإيلخاني والصفوي.

ويبدو أن الفنانين المسلمين، قد ورثوا عادة تزويق المخطوطات عن البيزنطيين، فمثلما أشرنا إلى ذلك لم يصلنا شيء من التصوير على الورق يعود إلى العصر الأموي، فقد كانت الكتب البيزنطية المنقولة عن اليونانية والمزدانة بصور هي أولى الكتب التي قام الفنانون المسلمون بتزويقها وإخضاعها لطابع الحياة العربية. وقد عرف البيزنطيون عادة تزويق المخطوطات، منذ أواخر القرن الرابع، وقد حفظت لنا هذه المخطوطات، إلى جانب الصور ذات المواضيع الدينية التقليدية، والتي تمثل الطفل، المسيح والعذراء، صور أخرى، ذات

¹ - رشيد الدين، جامع التواريخ، المكتبة الوطنية بباريس (Supplément persan 1113).

² - القزويني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، المكتبة الوطنية بباريس (Arabe 1489).

³ - Mazhar. S. I, *Ibid*, p. 78.

⁴ - عكاشة (ثروت)، موسوعة الفن الإسلامي، ص 38.

مواضيع دنيوية عكست لنا مشاهد بلاط.¹ ومن أقدمها مخطوط يرجع تاريخه إلى حوالي سنة 244 هـ / 885 م، وقد احتوى على صورة للإمبراطور قسطنطين وقد انتصر على ماكسنس Maxence في جسر ملفيوس أمام روما.² أيضا حوليات القديس سان جان كريستوم

« Le recueil de sermon de Saint Jean Chrysostome » والتي صوّر فيها الإمبراطور Nikephoros III Botaniates عديد المرات، مرة هو والإمبراطورة، وأخرى وهو جالس على العرش وتحيط بحاشيته، ومرة وهو واقف بين قديسين.³ كذلك كتاب تتريل بازيل الثاني « (976- 1025) Paustier de Basile » ، والذي احتوى على صورة خلدت لنا انتصاره على البلغاريين.⁴

وقد مكنتنا هذه المنمنمات البيزنطية، والتي تعود إلى القرنين 10 و 11 م، من وضع الخليفة العباسي في علاقة مباشرة مع نظيره البيزنطي، وذلك في محاولة لإبراز أهم التأثيرات البيزنطية على البلاط العباسي، وخاصة على مستوى شارات ورموز الحكم.

وهكذا فإن موضوعات البلاط، لم تنحصر فقط بين جدران القصور بل شملت كذلك الكتب. ورغم أن المنمنمات الإسلامية الأولى تعود إلى فترات متأخرة، فإن أهميتها تكمن في كونها ساهمت في بعث من جديد مشاهد، تعود إلى فترات سابقة، كان لها تأثير على فن التصوير العباسي، في مراحله الأولى وقبل أن يكتسب بعض صفاته الخاصة به.

وبالتالي فإن دراستنا للتصوير العباسي تمكنا من الخروج بالملاحظات التالية:

- أولا نلاحظ أن نشأة فن التصوير التشبيهي في العالم الإسلامي، اقترن ظهوره بنشأة ظاهرة البلاط، والتي عرفت بداية ظهورها مع الأمويين، ثم برزت بشكل أكثر وضوح مع العباسيين. وقد انحصر هذا الفن في البداية بين جدران القصور، ثم شمل في مرحلة لاحقة الكتب. وبالتالي غدا فن التصوير التشبيهي في العالم الإسلامي فن بلاط فحسب.

- ثانيا إن القول بأن فن التصوير الإسلامي هو فن بلاط فحسب، يجعل من الصعب دراسة الحياة اليومية في البلاط العباسي بالاعتماد فقط على ما وفرته لنا المصادر التاريخية والأدبية وخاصة كتب آداب الملوك من معلومات، بل يقتضي كذلك قراءة شمولية في عدد من الصور التي تمثل موضوعات بلاط وتعود إلى العصر العباسي، أو إلى فترات أخرى سابقة ولاحقة كان لها تأثير على فن التصوير العباسي، لأن تلك الصور هي عبارة عن مرآة ضخمة تعكس لنا جوانب مختلفة من داخل القصر العباسي. وهكذا تكون قد تكونت لدينا في

¹ - Grabar. A, *L'Art Byzantin du Moyen Age (du VIII au XV)*, Paris 1963, p. 134.

² - Grabar. A - *Ibid*, p. 134.

³ - Piltz. E, « Middle Byzantine Court Costume », in *Byzantine Court Culture from 829 to 1204*, United States of America 1994, Photos 6- 11- 14; Mathews. Th. F, *Le Monde Byzantin*, Paris 2002, p. 72.

⁴ - Mathews. Th. F, *Op.Cit*, p. 36- 37; Grabar. A, *Ibid*, p. 136.

هذه الحالة فكرة ما كان يحدث في البلاط العباسي بالنص والصورة . ولا يمكن تحقيق ذلك دون تكوين ملف "إيكونوغرافي" ، سأقوم فيه بدراسة وصفية لعدد من اللوحات التي عكست لنا موضوعات بلاط.

II الملف الايكونوغرافي:

تعتمد دراستنا للحياة اليومية في البلاط العباسي بالإضافة إلى الإشارات الواردة في المصادر على عدد من الصور تعكس لنا مواضيع من داخل القصر العباسي. وهنا لا بد أن نشير إلى الصعوبات التي تطرحها مثل هذه الدراسة والتي تتمثل أساسا في ندرة النماذج الفنية المصورة التي تم العثور عليها إلى حد الآن والتي تعود إلى العصر العباسي وذلك مقارنة بالعصر الأموي حيث وقع الكشف عن العديد من الرسوم الجدارية في القصور الأموية الصحراوية، ويمكن تفسير ذلك بطبيعة العمارة العباسية التي اعتمدت كثيرا على اللبن، مما تسبب في اضمحلالها، وليس بسبب موقف العباسيين من التصوير، فقد أشارت المصادر مثلما بينا ذلك سابقا إلى اهتمام العباسيين بالتصوير منذ بدايات الدولة العباسية وهو ما أثبتته كذلك نتائج التنقيب الأثري في سامراء وخراب سيار وكذلك في الحميمة، أي قبل تسلم العباسيين الحكم.

كذلك من بين الصعوبات التي تطرحها مثل هذه الدراسة هو أن النماذج الفنية المصورة التي تعود إلى العصر العباسي مثلما أشرنا إلى ذلك في المقدمة، مشتتة ومتناثرة بين مكتبات ومتاحف بلدان عديدة، ويحتاج جمعها إلى التنقل المستمر، فضلا عما يمكن أن يلاقه الباحث من صعوبات في التعامل مع المحافظين على هذه النماذج الفنية. وقد جعلت معظم هذه الصعوبات الوصول إلى تكوين فكرة شاملة عما كان يجري في البلاط العباسي بالاعتماد على الصورة فقط أمرا صعبا، إن لم نقل مستحيلا، ودفعتنا في الكثير الأحيان إلى العودة إلى النصوص التاريخية واعتمادها كأداة أولية. كما دفعتنا كذلك إلى الاستعانة بنماذج فنية تعود إلى فترات سابقة ولاحقة وذلك للوقوف على التطور الذي حصل في التعامل مع مثل هذه المواضيع المصورة. وبناء على ذلك فإننا سوف نقوم بتطبيق ايكونوغرافيا تحليلية وليس كمية ، وعموما تتمثل مصادرها الأساسية للتصوير العباسي في:

- أولا: بعض اللوحات من العاج التي تم العثور عليها، في الحميمة بالأردن أين نشطت الثورة العباسية، والتي نقش عليها صور قادة عسكريين.¹

- ثانيا: الرسوم الجدارية التي كانت تزين قاعة القبة بقسم الحرم في قصر الجوسق الخاقاني بسامراء، وكذلك قاعة العرش وبعض الدور الخاصة. وقد وضعت الصور في إطارات ذات أشكال مختلفة: مستطيلة، مربعة، أو دائرية، كما وجدت منقوشة على أعمدة اسطوانية، ويحتفظ متحف الفن التركي والإسلامي اليوم بعدد من هذه اللوحات وقد اطلعنا على البعض منها.

¹- Foote. R, « Frescoes and carved ivory from the Abbasid family homestead at Humeima », in *Journal of Roman Archaeology*, v 12, 1999, p. 427-426.

كما قام هرتزفيلد بمحاولة لإعادة رسم نماذج من هذه الصور، وهو من اكتشفها، وقد نشرها في كتابه « Die Malereien Von Samarra » ، الذي احتوى على 88 لوحة ضمت صورا تشبیهة لنساء

راقصات وصيادات، لابد أنهن من قصر الخليفة، وكذلك صور رجال ورهبان وطيور وحيوانات...¹

- ثالثا: بعض المسكوكات التي تحمل صورا لعدد من الخلفاء العباسيين.

فالصور التي تعود إلى العصر العباسي وخاصة منها صور الخلفاء العباسيين هي إذن أولى الصور التي شذت انتباهنا، وقد قمنا في البداية بتحديد ما ووضعها في إطارها التاريخي العام وذلك قبل الشروع في أي دراسة تحليلية أو وصفية، تليها فيما بعد صور الخلفاء الأمويين، ثم صور الملوك الساسانيين والأباطرة البيزنطيين سواء منهم السابقين أو المعاصرين للخلفاء العباسيين. كما قمنا بوضع صور تعود إلى فترات لاحقة، حاولت إحياء مواضيع تعود إلى فترات سابقة ونقصد هنا المنمنمات.

وقد جعلنا لكل صورة جذابة خاصة بها، والتي تعد من بين الطرق التي تستخدم في دراسة الصورة كأداة لكتابة التاريخ في العصر الوسيط،² حيث تحمل كل جذابة معلومات تتعلق بتاريخ الصورة، ومادة صنعها، ومصدرها، ونوعها (ميدالية، منمنمة، رسم جداري، تمثال)، كما قمنا ببعض التعليقات عليها. وقد قسمنا جميع هذه الصور إلى قسمين، يتناول كل قسم منها موضوع تصوير قائم بذاته: القسم الأول يتناول مجالس البلاط والقسم الثاني يتناول صور النساء في البلاط.

1 صور مجالس البلاط:

✓ الصور الشخصية ومجالس الخلفاء العباسيين

جمعت هذه الصور بين الخليفة وواحد أو أكثر من رجال بلاطه أو بين الخليفة وجواريه، وتمثلت في المسكوكات والمنمنمات، وقد تمكنا من خلالها من إحصاء صور سبعة خلفاء عباسيين: خمس صور منها وجدناها منقوشة على بعض الميداليات، واثنان عثرنا عليها في بعض المخطوطات المزوقة.

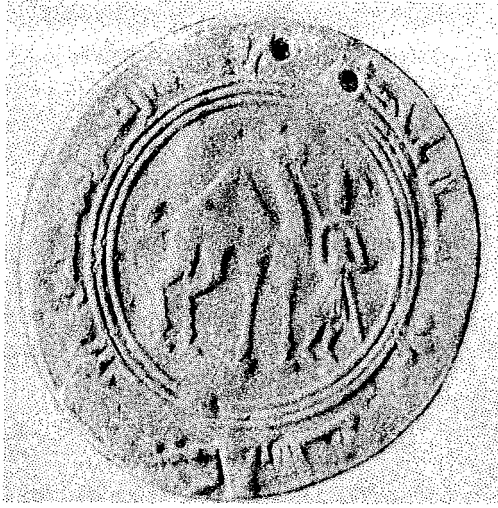
وتعود ثلاث صور منها فقط إلى الفترة التي نحن بصدد دراستها أي من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المستكفي، أما باقي الصور فإنها تعود إلى فترات لاحقة، وقد ضمناها هذا الملف لأن الكثير من رموز الحكم العباسي بقيت ثابتة ولم تتغير مثلما تشير إلى ذلك المصادر، وخاصة بردة الرسول محمد التي كان يتوارثها الخلفاء العباسيون منذ وصولهم إلى الحكم حتى سقوط الخلافة العباسية ببغداد سنة 656 هـ/ 1258 م.³ وأقدم صورة عثرنا عليها هي للخليفة المتوكل على الله أما قبل هذا التاريخ فلا نملك أي صورة لأي خليفة عباسي.

¹ - HERZFELD. Ernest, *Die Malereien Von Samarra*.

² - Alibert. D, « Image et histoire des mentalités du haut Moyen Age : méthodes et recherches », dans *Image et Histoire*, Paris 1987, p.122.

³ - القلقشندي، صبح الأعشى، ج 3، ص 291.

1 اللوحة: ميدالية المتوكل على الله (232-247 هـ / 847-861 م)



- التاريخ: ضربت سنة 241 هـ/855م

- مكان الحفظ: المتحف الفني بفينا

- المقاسات: قطرها 40 مم.

- المراجع:

- Arnold. Thomas, *Painting in Islam*, Pl. LIX. d, p.125.

- Kennedy.H, *The court of the Caliphs*.

- حميد (عبد العزيز)، " بردة رسول الله على مسكوكة المتوكل المصورة"، مجلة المسكوكات، العددان 8-9، 1977-1978، ص 31.

- النقشبندی (ناصر)، " نقود الصلة والدعاية"، مجلة المسكوكات، عدد 3، 1972، ص 9-10.

- معروف (ناجي)، " العملة والنقود البغدادية"، الأعلام، ج 8، 1967، ص 16.

- الموضوع:

+ الوجه: نقش عليه صورة نصفية للخليفة المتوكل على الله، وقد وضع على رأسه عمامة محدّدة بعقال مزخرف، ولبس أقرطا في أذنيه، و وضع على كتفيه كساء غليظا شدّه بخال.

وهو يبدو ذو شارين ولحية طويلة مزدوجة الأطراف ومدبّبي الرأس. وقد وضعت الصورة في نطاق دائري تحيط به كتابة كوفية وهي: (بسم الله، محمّد رسول الله، المتوكل على الله).

+ الظهر: أما ظهر المسكوكة فقد نقش عليه صورة رجل يقود جملا، وقد وضع على رأسه عمامة ويرتدي لباسا قصيرا. ونقش حول الصورة كتابة وهي: (بسم الله، سنة إحدى، وأربعين ومائتين).

وتعدّ هذه الميدالية أقدم نقد مصور عثر عليه بالنسبة للعصر العباسي تليه ميداليتان للخليفة المقتدر بالله.

2 اللوحة ميدالية المقتدر بالله الفضية (295 - 320 هـ / 908 - 930 م)



- التاريخ: لم يذكر تاريخ أو مدينة الضرب.

- مكان الحفظ: المتحف العراقي (سابقاً).

- المقاسات: وزنها 3.30 غ وقطرها 20 م.

- المراجع:

- سلمان (عيسى)، " المسكوكات المصورة"، مجلة المسكوكات، المجلد الأول، ج 2، 1969، ص 14-28.

- سلمان (عيسى)، " صور من حياة الخليفة العباسي المقتدر بالله"، نفس المرجع، ج 4، 1973، ص 1-

12.

- الموضوع:

+ الوجه: جسّمت فوقه صورة الخليفة المقتدر بالله، وقد امتطى فرسه ماسكا بيده اليمنى لجام فرسه

وباليسرى سيفه، مرتدياً ثوباً سميكاً مخططاً هناك من يرجح أنه بردة الرسول وعلى رأسه عمامة شدت بعصابة

أو بعقال، له شاربان ولحية كثيفة مستديرة، وشعره طويل، و كتب عن يسار رأسه (لله) وعن يمينه (جعفر).

+ الظهر: نقش عليه صورة وحش بارك، وقد كتب فوق ظهره (المقتدر بالله).

3 اللوحة ميدالية المقتدر بالله الذهبية (295 - 320 هـ / 908 - 930 م)



- التاريخ: لم يذكر تاريخ أو مدينة الضرب

- مكان الحفظ: متحف برلين بألمانيا

- المراجع:

- Arnold. Thomas, *Op. Cit*, Pl. LIX. b, p.125- 126.

- Kennedy.H, *Op. Cit*.

- سلمان (عيسى)، " صور من حياة الخليفة العباسي المقتدر بالله"، نفس المرجع، ص 11.

- النقشبندی (ناصر)، " نقود الصلة والدعاية"، نفس المرجع، ص 11 - 12.

- الموضوع:

+ الوجه: نحت عليه صورة الخليفة المقتدر بالله وهو متربع على كرسي أو مقعد قصير، وقد أمسك بيده

اليمنى كأساً وباليذ اليسرى منديلاً. وقد لبس ثوباً مزخرفاً ضيق الكمين (لباس المنادمة)، ووضع على رأسه

عمامة، وهو حليق الوجه ذو شاربين.

وقد كتب على يساره (المقتدر) وعلى يمينه (بالله).

+ الظهر: نقش عليه صورة جارية تعزف على العود، وقد تربعت على كرسي يشبه كرسي الخليفة لكنه

بدون أرجل، وقد ارتدت كذلك ثوباً مزخرفاً (ثوب المنادمة) لكنه يختلف عن ثوب الخليفة فهو واسع

الكمين. وقد نقش على يسارها ورقة زيتون. إذن تمثل هذه الميدالية الخليفة المقتدر بالله في جلسة شراب وغناء.

ونفس هذه الجلسة برز عليها الخليفة الطائع لله.



- التاريخ: ضربت بمدينة السلام سنة 365 هـ / 975 م.

- مكان الحفظ: متحف اسطنبول الأثري.

- المقاسات: قطرها 50 مم.

- المراجع:

- Arnold. Thomas, *Op. Cit*, Pl. LIX. a, p. 126.

- Ettinghausen. R, and Grabar. O, *The Art and Architecture of Islam*, Yale University Press, 1994, p. 238.

- النقشبندی (ناصر)، " نقود الصلة والدعاية "، نفس المرجع، ص 12.

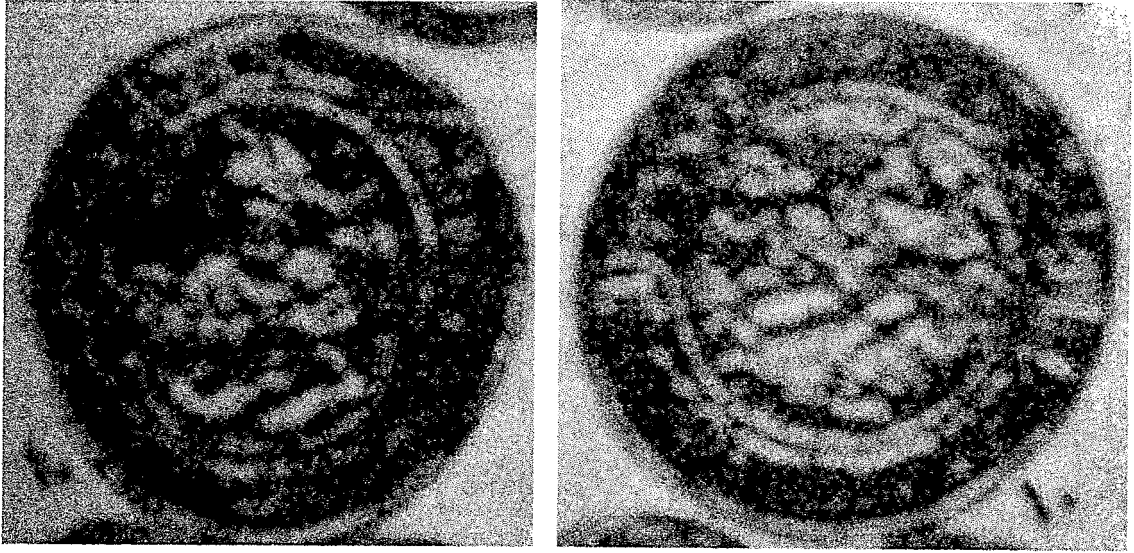
الموضوع:

+ الوجه: جسّمت فوقه صورة الخليفة الطائع لله في هيئة لا تختلف كثيرا عن هيئة المقتدر بالله، متربعا على كرسي قصير، ممسكا بيده اليمنى كوبا وباليده اليسرى منديلا، وقد ارتدى ثوبا مزينا بأشكال، لكنه وضع على رأسه تاجا عوض العمامة. وعن يمينه ويساره جارتان ترقصان وتعزفان. وقد وضعت الصورة في منطقة مستديرة وتحيط بها كتابة وهي: (لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائع لله الأمير عز الدولة).

الظهر: نقش عليه صورة جارية وهي تعزف على عود وقد جلست كذلك متربعة على كرسي، ومرتدية لباسا مزخرفا، وفي أذنيها أقراط وفي عنقها عقد. وقد وضعت الصورة في منطقة مستديرة وبين غصني نبات وتحيط بها كتابة وهي: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ضرب بمدينة السلام سنة خمس وستين وثلاثمائة).

نلاحظ في هذه الميدالية الخليفة الطائع لله وقد جلس يشرب ويستمتع بالموسيقى والطرب والرقص. أخيرا من المسكوكات التي جسّمت فوقها صورة خليفة عباسي:

5 اللوحة ميدالية القائم بأمر الله (422 - 467 هـ / 1031 - 1075 م)



ـ التاريخ: ضربت بمدينة السلام سنة 455 هـ / 1063م.

ـ مكان الحفظ: اسطنبول.

ـ المقاسات: قطره 49 مم.

ـ المراجع: النقشبندي (ناصر)، " نقود الصلة والدعاية"، نفس المرجع، ص 11-12.

ـ الموضوع:

+ الوجه: نقش عليه صورة الخليفة القائم بأمر الله تقريبا في نفس الهيئة التي برز عليها الطائع لله، قد لبس زيّ المنادمة متربعا، بيده اليمنى كأس، وباليده اليسرى مسك الخليفة منديلا، وفوق رأسه تاج وتحيط به من الجانبين جارتان تغنيان وترقصان . ونقش حول الصورة كتابة وهي (لا إله إلا الله محمد رسول الله، صلى الله عليه وسلم القائم بأمر الله أمير المؤمنين).

+ الظهر: نقش عليه صورة طغرل بك، وقد جلس متربعا، ماسكا قدحا بيديه الإثنتين ومعتما بعمامة. وتمثل كذلك هذه الميدالية مجلس غناء ومنادمة.

هذه إذن الميداليات المصورة التي عثر عليها إلى حدّ الآن والتي جسّم فوقها خلفاء عباسيون. وإلى جانب هذه النقود المصورة فقد عثرنا على لوح نقش عليها صورة أحد الخلفاء العباسيين وهو الخليفة المقتدر.

6 اللوحة نقش الخليفة المقتدر بالله (295 - 320 هـ / 908 - 930 م)

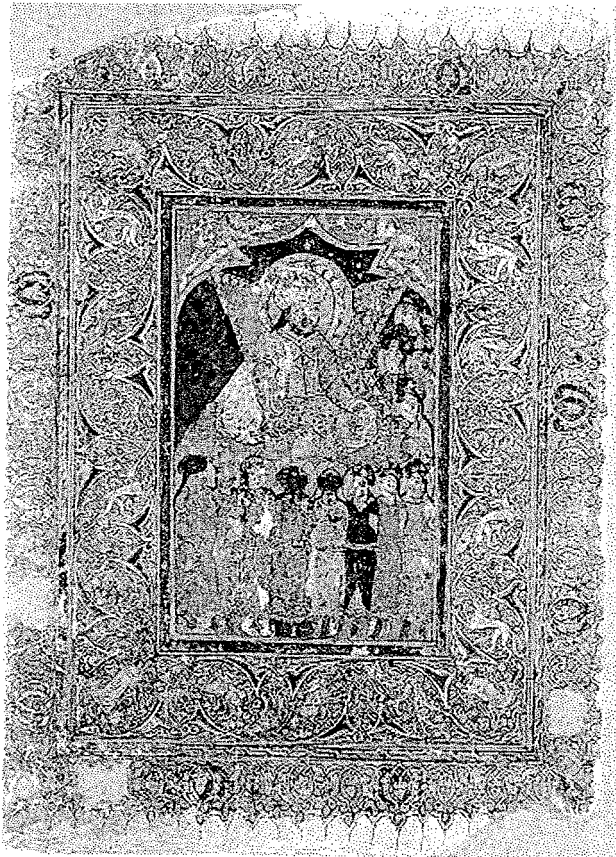


- المرجع:

- Otto- Dorn.K, *L'art de l'islam*, Paris 1964, p. 89.

- الموضوع: نقش بارز من الحجارة على واجهة كنيسة أختمر بتركيا، نحت عليه الخليفة المقتدر متربعا على وسادة، وقد وضع على رأسه عمامة، وماسكا كأسا بيده اليمنى، وإلى جانبه أحد المرتزقة الأتراك.

7 اللوحة منمنمة تمثل الخليفة المستنصر بالله (603 - 640 هـ / 1226 - 1242 م)



- عنوان المخطوط: مقامات الحريري

- التاريخ: 634 هـ / 1236-1237 م.

- الفنان: الواسطي

- المادة: ألوان مائية على الورق

- المقاسات (37 × 38 م).

- مكان الحفظ: المكتبة الوطنية بباريس (Arabe 5847).

- الموضوع: وردت هذه المنمنمة في الصفحة الثانية من مخطوط مقامات الحريري، وهي تمثل صورة حاكم متربع على أريكة العرش وقد لبس جبّة، واعتم بعمامة، وهو يبدو ذو لحية طويلة وشعر مسترسل وقد وضع يده اليسرى على فخذه ورفع يده اليمنى. وقد وقفت إلى يساره أربع جوارى، وإلى أسفل عرشه ثمانية أشخاص من الشعراء أو من المتظلمين، اثنان منهما وقفا في الوسط واتجها إليه، في حين اصطف البقية ثلاث إلى اليمين وثلاث إلى اليسار، وقد أعطوه بظهورهم. وقد رسم الخليفة بحجم أكبر من أتباعه والمحيطين به.

ويشير عكاشة إلى أن هذا الحاكم يمثل الخليفة المستنصر بالله العباسي (603 - 640 هـ / 1226-1259م)، وقد دفعه إلى هذا الاعتقاد، أن هذه المنمنمة تلي منمنمة أخرى صور فيها قائد عسكري، يرجّح أيضا أنه يمثل السلطان بدر الدين لؤلؤ (615 / 658 هـ - 1218 / 1259)، صاحب الموصل ولذلك فهو يرى أن الشخص الرئيسي في المنمنمة الثانية هو الخليفة نفسه.¹ ونحن لا نستبعد أن تمثل هذه المنمنمة أحد الخلفاء العباسيين لأن العمامة والجبّة يدلّان على أنه حاكم عربي وكذلك لأنه جاء في نفس الهيئة التي برز عليها الخليفة المستعصم بالله والمستخرجة من مخطوط "جامع التواريخ" لرشيد الدين.

8 اللوحة

منمنمة تمثل الخليفة المستعصم بالله (640 - 656 هـ / 1242 - 1258 م)



¹ - حميد (عبد العزيز)، "ملابس الخلفاء في الآثار الإسلامية"، كلية الآداب جامعة بغداد، ج 30، 1981، ص 327.



- المخطوط: جامع التواريخ (لرشيد الدين)

- التاريخ: حوالي 1430.

- المادة: ألوان مائية على الورق

- الفنان: سيف الواحدي ومساعديه

- المقاسات: 46 × 31.5 صم

- مكان الحفظ: المكتبة الوطنية بباريس (Supplément persan 1113, fol 168 r)

- النشر: لم تنشر إلى حدّ علمنا

- الموضوع: تظهر المنمنمة مثلما يشير إلى ذلك نصّها الخليفة المستعصم بالله، ماثلا بين يدي هولاء ومعه حشد من أتباعه، وقد ارتدى جبّة وعلى رأسه قلنسوة، وفوقها وعلى كتفيه طيلسانا. أما هولاء فقد تربع على وسادة داخل سدلة ويحيط به حشد من أتباعه بعضهم وقوفا والبعض الآخر جلوس حسب مراتبهم. كما ضمن هذا الملف بالإضافة إلى صور الخلفاء العباسيين ، صوراً لبعض القادة والوزراء العباسيين.

- Foote. R, « Frescoes and carved ivory from the Abbasid family homestead at Humeima », *Op.Cit*, p. 426-427.

الموضوع:

تمثل هذه الصور قطع من العاج تم العثور عليها في الحميمة أين نشطت الثورة العباسية، وقد وقعت إعادة تركيبها، وأفرزت الصورة عدد 1 وهي الأصلية عن لوحة تبلغ مقاييسها (11 × 29.5 صم)، وقد نحت عليها أحد القادة العسكريين وهو مرتد زياً عسكرياً، وماسك حربة بكلتا يديه وعلى رأسه قناع، وقد وضع وجهه في هيئة جانبية، أما جسمه فقد وضع في هيئة أمامية، ويقوم على جانبيه عمودين يسندان مظلة. كما أفرزت قطع أخرى عن تمثال قائد ثاني، جاء في نفس الهيئة تقريباً التي برز عليها القائد الأول (الصورة عدد 3). وأفرزت قطع أخرى عن لوحة نحت عليها حاوية سلاح (الصورة عدد 4). ويشير فوت بأن هيئة هؤلاء القادة توحى بتأثيرات مشرقية متأثرة من شرق الفرات، أو من أواسط آسيا أو الهند،¹ وبما أن الثورة العباسية قد اندلعت في خراسان والأسرة العباسية كانت تقيم في الحميمة، فإن هذه اللوحات وقع جلبها من نواحي إيران إلى الحميمة، كتعبير عن نضج الثورة أو المآمرة العباسية.² ولذلك لا نستبعد أن تمثل هذه اللوحات تماثيل القادة الخراسانية.

10 اللوحة ميدالية خالد البرمكي



- مكان الحفظ: المتحف البريطاني

- المراجع:

- Kennedy.H, *The court of the Caliphs*.

¹ - Foote. R, *Ibid*, p. 426.

² - Foote. R, *Ibid*, p. 427.

- Foote. R, « Frescoes and carved ivory from the Abbasid family homestead at Humeima », *Op.Cit*, p. 426-427.

الموضوع:

تمثل هذه الصور قطع من العاج تم العثور عليها في الحميمة أين نشطت الثورة العباسية، وقد وقعت إعادة تركيبها، وأفرزت الصورة عدد 1 وهي الأصلية عن لوحة تبلغ مقاييسها (29.5 × 11 صم)، وقد نحت عليها أحد القادة العسكريين وهو مرتد زياً عسكرياً، وماسك حربة بكلتا يديه وعلى رأسه قناع، وقد وضع وجهه في هيئة جانبية، أما جسمه فقد وضع في هيئة أمامية، ويقوم على جانبيه عمودين يسندان مظلة. كما أفرزت قطع أخرى عن تمثال قائد ثاني، جاء في نفس الهيئة تقريباً التي برز عليها القائد الأول (الصورة عدد 3). وأفرزت قطع أخرى عن لوحة نحتت عليها حاوية سلاح (الصورة عدد 4). ويشير فوت بأن هيئة هؤلاء القادة توحى بتأثيرات مشرقية متأثرة من شرق الفرات، أو من أواسط آسيا أو الهند،¹ وبما أن الثورة العباسية قد اندلعت في خراسان والأسرة العباسية كانت تقيم في الحميمة، فإن هذه اللوحات وقع جلبها من نواحي إيران إلى الحميمة، كتعبير عن نضج الثورة أو المأمرة العباسية.² ولذلك لا نستبعد أن تمثل هذه اللوحات تماثيل القادة الخراسانية.

10 اللوحة ميدالية خالد البرمكي



- مكان الحفظ: المتحف البريطاني

- المراجع:

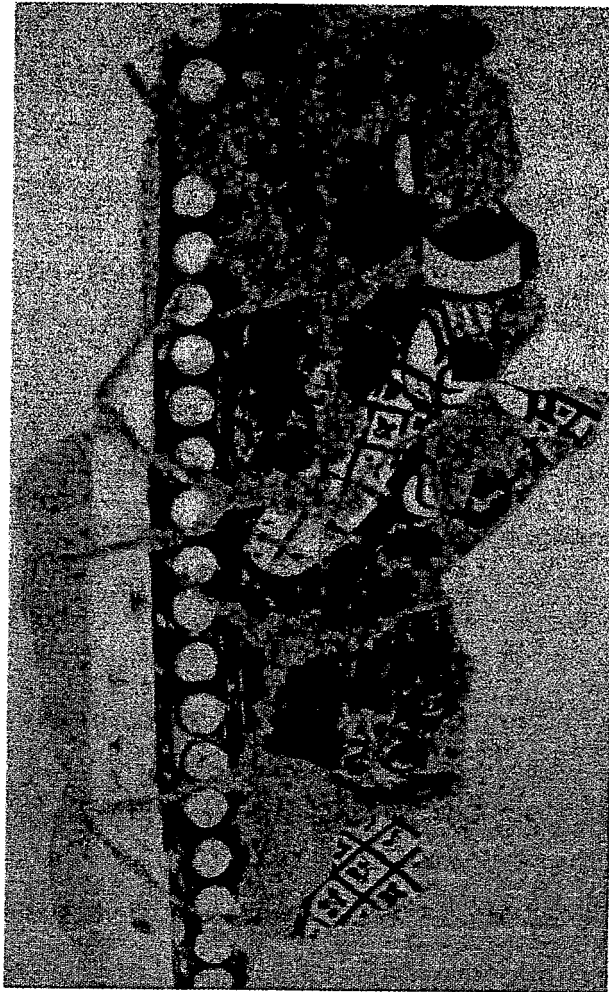
- Kennedy.H, *The court of the Caliphs*.

¹ - Foote. R, *Ibid*, p. 426.

² - Foote. R, *Ibid*, p. 427.

- الموضوع: نقد ضربه خالد البرمكي في طبرستان وقد نقش عليه صورته وهو متوج على شاكلة الملك الساساني. وفيه إحياء للإرث الفارسي القديم.

11 اللوحة صورة أحد القادة العسكريين الترك



- المراجع:

- Herzfeld E, *Die Malereien Von Samarra*, pl.LXVI; Emel. E, « The Turk al- Agam of Samarra », *Op.Cit*, p.60.

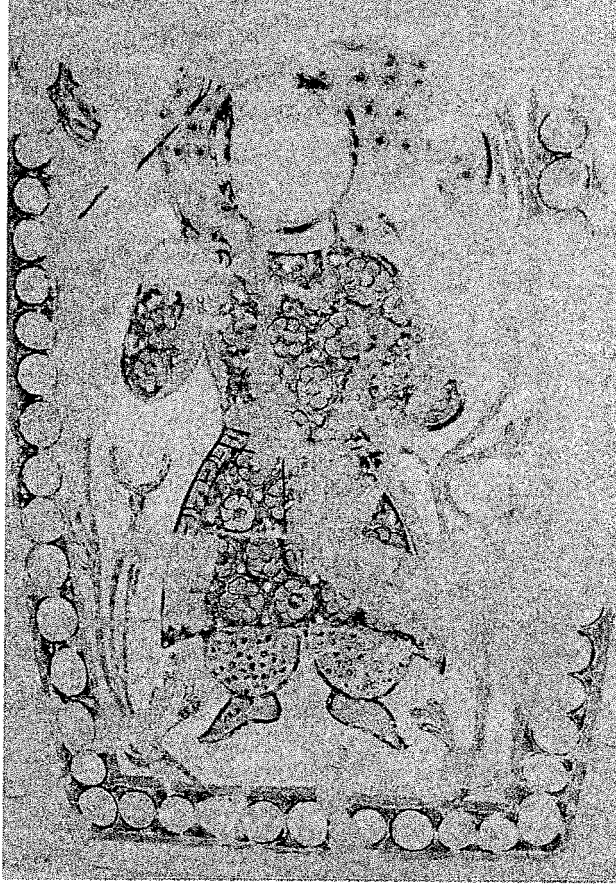
الموضوع: تمثل هذه اللوحة، أحد الأعمدة التي عثر عليها في قاعة العرش، بقصر الجوسق الخاقاني، وقد نقش عليها صورة أحد القادة العسكريين الترك، وهو حليق الوجه، شعره طويل، وقد ارتدى زي الأتراك العسكري والذي يتمثل في قباء مزخرف، بتصاميم هندسية في شكل معينات ونقاط، وقد تمتدح بمنطقة تتدلى منها أطراف إلى أسفل، وقبض بيديه الاثنتين على مؤخرة سيفه. وقد ذهب هرتزفيلد إلى أن هذا القائد يمثل الإفشين.¹

¹ - Emel. E, « The Turk al- Agam of Samarra », *Ibid*, p.74.

12 اللوحة

صورة أحد الحرس الترك

(يذهب هرتزفلد إلى أنه بغا الصغير)



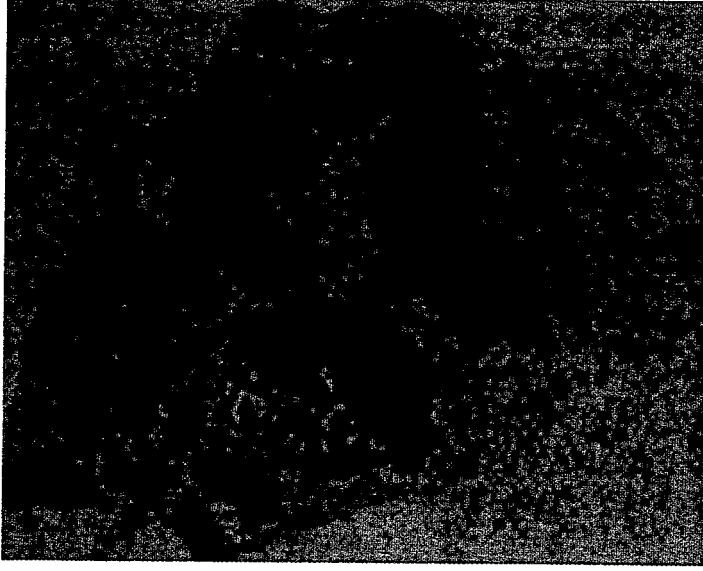
- المراجع:

- Herzfeld. E, *Op. Cit*, pl.LXVI; Emel. E, « The Turk al- Agam of Samarra », *Ibid*, fig.65.

- الموضوع: صورة لأحد القادة العسكريين الترك، وقد وجدت منقوشة على أحد الأعمدة الصغيرة التي عثر عليها، في قاعة العرش في قصر الجوسق الخاقاني، وقد ارتدى رداء مزخرفا وسروالا وتمنطق بنطاق يتدلى إلى أسفل، و حمل على كتفيه عملا، وقد ذهب هرتزفلد إلى أن هذا الرسم يمثل امرأة، لكن عكس ذلك ترجح آمال إسين أنه يمثل بغا الصغير.¹

¹ - Emel. E, , *Ibid*, p.75.

13 اللوحة صورة أحد القادة الأتراك



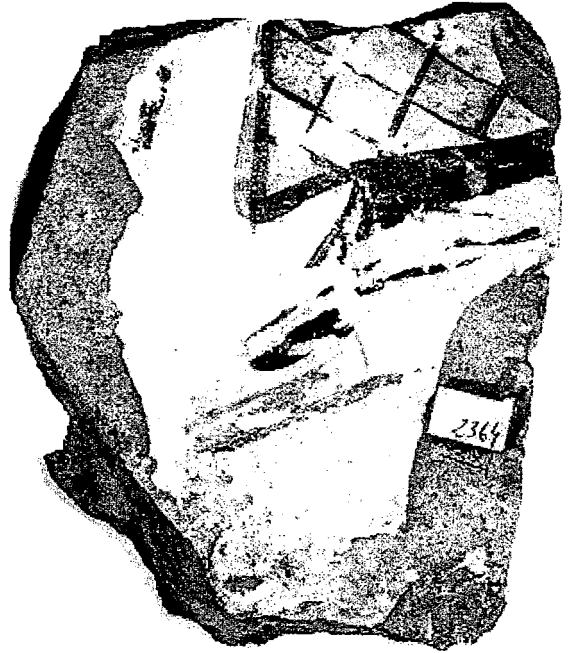
- المراجع

- Herzfeld. Ernest, *Die Malereien Von Samarra*.

- الموضوع: صورة نقش وجدت في قصر الجوسق الخاقاني في سامراء، وأغلب الظن أنه يمثل أحد القادة الترك، وقد جاء في نفس الهيئة التي برز عليها الافشين تقريبا، لابسا قباء مزخرفا ومتمنطقا بمنطقة.



2
قطعة مسجلة تحت (رقم 2351)



1
قطعة مسجلة تحت (رقم 2364)

- مكان الحفظ: متحف الفن التركي والاسلامي باسطنبول.

- النشر: لم تنشر.

- الموضوع، تمثل الأولى أحد القادة الترك، لم يبق منه إلا قسمه السفلي وقد ارتدى قباء طويلا مزخرفا بأشكال هندسية في شكل معينات. أما اللوحة الثانية فتمثل كذلك أحد القادة الترك وقد تمنطق بنطاق يتدلى إلى أسفل.

ضمّ إذن هذا الملف 13 لوحة تمثل مجالس بلاط، وصوراً شخصية لبعض الخلفاء العباسيين، ولعدد من القادة العسكريين الخراسانيين والترك وصورة لأحد الوزراء العباسيين. كما ضمّ كذلك هذا الملف سبع لوحات أخرى تمثل مجالس البلاط الأموي وصور شخصية لبعض الخلفاء الأمويين وقد وضعت في الملف للوقوف على أهمية التأثيرات الأموية في البلاط العباسي.

✓ صور الخلفاء الأمويين

14 اللوحة درهم عبد الملك بن مروان (65 - 86 هـ / 685 - 705 م) الفضي



- التاريخ: ضربت سنة 75 هـ / 694 م.

- مكان الحفظ: متحف موسكو.

- المقاسات: وزنها 3.55 غ وقطرها 35 مم.

- المراجع:

- النقشبندى (ناصر)، " نقود الصلة والدعاية"، مجلة المسكوكات، عدد 3، ص 8-9.

Bates. M, *Islamic coins*, p.10.

-الموضوع:

الوجه: نقش عليه صورة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان واقفاً، ويبدو ملتجياً، لابسا جبة وعلى رأسه كوفية تتدلى على كتفيه، ويده اليمنى سيف، وكتب عن يمينه "خليفة الله" وعن يساره "أمير المؤمنين". وقد وضعت الصورة والكتابة في منطقة مستديرة يحيط بها أربع أقمار متقابلة داخل كل واحد منها نجمة.

الظهر: نقش عليه صورة نصفية لكسرى الثاني وقد تتوج بالتاج المنح، وكتب خلف رأسه "ضرب في سنة" وأمام وجهه "خمسة وسبعين"، وقد وضعت الصورة والكتابة كذلك في منطقة مستديرة تحيط بها كتابة أخرى جعلت بين أربع أقمار متقابلة، وهي: "بسم الله" - "لا إله إلا الله" - "وحده محمد" - "رسول الله".

كما نجد صورتين أخريين للخليفة عبد الملك بن مروان على وجه مسكوكتين ذهبيتين.

15 اللوحة درهم عبد الملك بن مروان الذهبي (1)



- التاريخ: ضربت سنة 76 هـ / 695 م، ولا تحمل اسم مدينة الضرب.

- مكان الحفظ: الخزينة المالية بباريس.

- المقاسات: وزنها 4.47 غ.

- المراجع: (صورة أصلية) بإذن من محافظ الخزينة المالية بباريس.

- الموضوع: نقد ذهبي جسيم فوقه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان واقفاً، ومتقلداً سيفه بيده اليمنى وعلى رأسه كوفية وقد ارتدى جبة أيضاً، شعره طويل، كثيف اللحية، وتحيط به كتابة كوفية وهي: (بسم الله لا إله

إلا الله وحده، محمد رسول الله). أما ظهر المسكوكة فقد نقش عليها صليب محور مرفوع على أربع درجات متتالية وغير متساوية. وقد عثر على نسخة أخرى من هذا النقد ضربت سنة 77 هـ/696 م.

16 اللوحة درهم عبد الملك بن مروان الذهبي (2)



- التاريخ: ضربت سنة 77 هـ/696 م، ولا تحمل اسم مدينة الضرب.

- مكان الحفظ: الخزينة المالية بباريس.

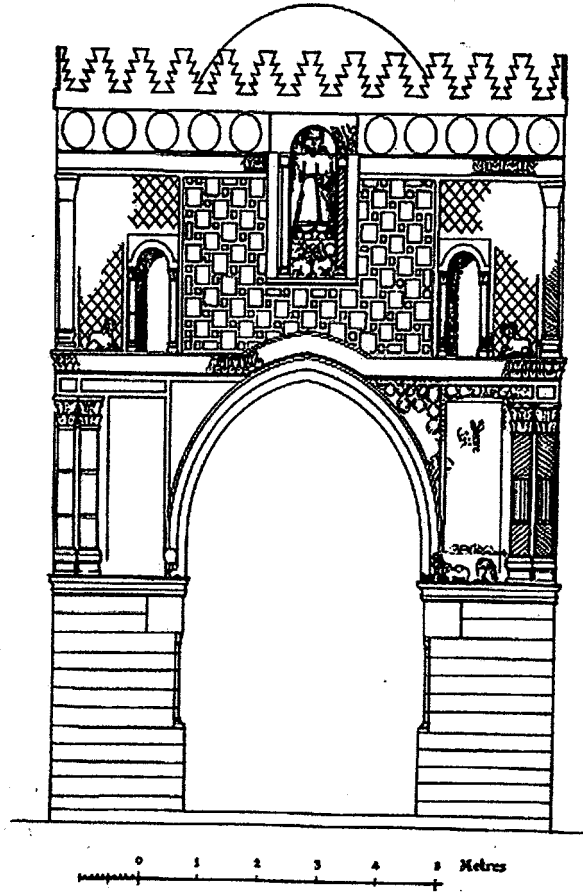
- المقاسات: وزنها 4.44 غ.

- المراجع: بإذن من محافظ الخزينة المالية بباريس

- الموضوع: نقش عليها صورة الخليفة عبد الملك بنفس المواصفات التي سبق ذكرها في النقدين السابقين مع اختلاف طفيف على مستوى اللحية.

ولم تبرز صورة الخليفة الواقف في العصر الأموي منقوشة على النقود فحسب بل كذلك على بعض التماثيل. عكس العصر العباسي فإننا لم نعثر على أي صورة لخليفة عباسي واقف.

17 اللوحة تمثل الخليفة الواقف



- مكان الحفظ: متحف القدس.

- المراجع:

Grabar. O, *La formation de l'Art Islamique*, p.228.

Ettinghausen.R, *From Byzantium to Sasanian Iran and the Islamic World*, Leiden 1972, Plate XXII, Fig75.

- الموضوع: تمثال خليفة عشر عليه في أحد المحاريب التي كانت تزين واجهة مدخل حمام قصر خربة المفجر في أريجة ، والذي بني في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (105 - 125 هـ / 724 - 734 م)، ويعتقد أنه

للخليفة هشام نفسه، أو أنه يمكن أن يمثل الخليفة الوليد بن يزيد (125-126 هـ/743-744 م).¹ وقد لبس رداء طويلاً وأمسك بيده اليمنى سيفاً، وله لحية طويلة، و وقف على قاعدة يحملها أسدان جاثمان. ورغم أن الشبه بينه وبين صورة الخليفة الواقف المنقوشة على النقود يبدو واضحاً، إلا أنه يبدو أكثر تأثراً بالتقاليد الساسانية فهو تمثال لخليفة أموي في زيّ فارسي.² ولم تظهر خلال العصر الأموي صورة الخليفة الواقف فحسب بل كذلك صورة الخليفة الجالس على العرش.

18 اللوحة

رسم جداري لخليفة جالس على العرش

(قصر عمرة)



¹- Ettinghausen.R, *From Byzantium to Sasanian*, p.19-20.

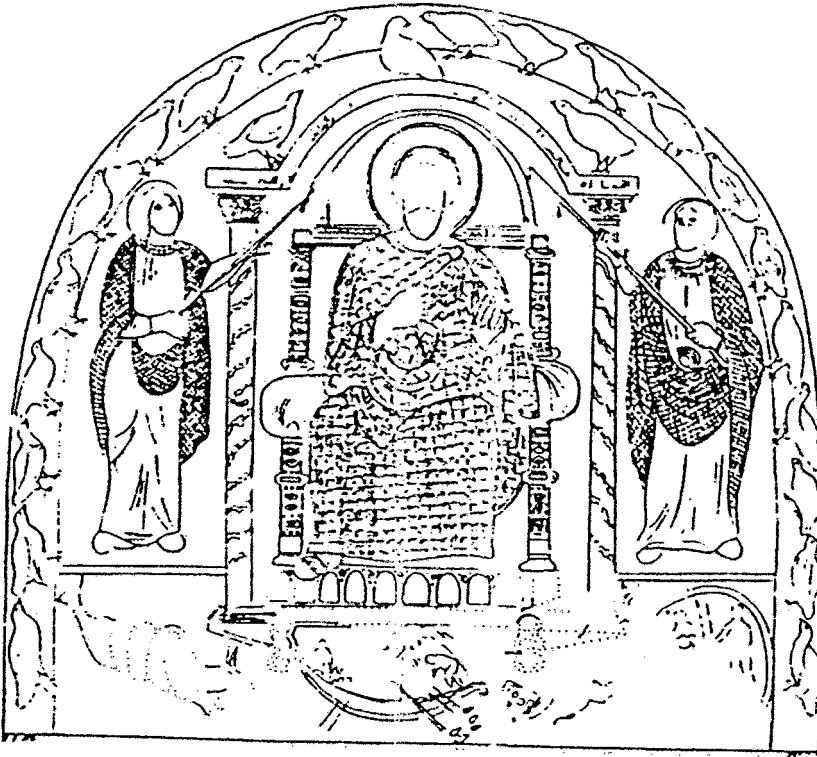
بهنسي (عفيف)، القصور الشامية وزخارفها في عهد الأمويين، دمشق 1986، ص 114.

²- Ettinghausen.R, *Ibid*, p.19-20.

رسم توضيحي



- المصدر: صور أصلية من قصر عمرة (بإذن من وزارة الثقافة بالأردن)
إعادة رسم لصورة الخليفة الجالس على العرش

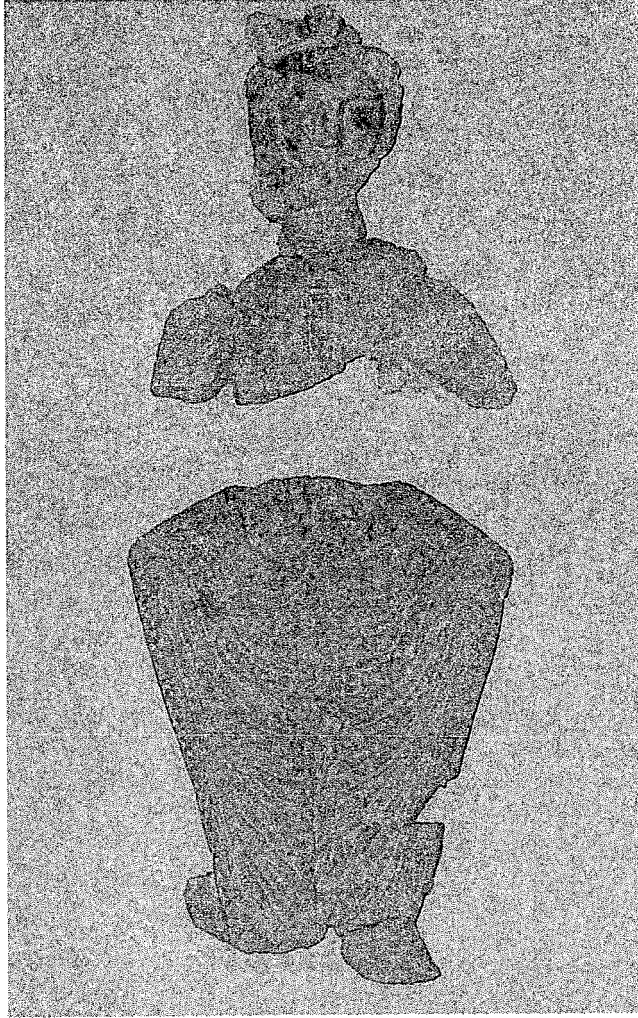


_ المرجع:

- Bisheh (Ghazi) et Vibert- Guigue (Claude), *Les peintures de Qusayr 'AMRA* , Projet de maquette de publication, Février 2002, p.15.

الموضوع: رسم جداري لخليفة جالس على أريكة العرش، يوجد في قصر عمرة بالأردن، في صدر الحنية المتصلة بقاعة العرش، وقد وضع تحته وسادة، لابسا جبة، ومعتما بعمامة، وتحيط برأسه هالة، وعلى يمينه ويساره شخصان يذبان عنه. وقد وضع العرش بين عمودين حلوزنيين تسندهما مظلة. وقد رسمت الصورة على الطريقة البيزنطية.¹

19 اللوحة تمثال الخليفة الجالس



- المصدر: صورة أصلية (بإذن من متحف دمشق الوطني)

- الموضوع: تمثال خليفة جالس بحجمه الطبيعي مبعث الركبتين مجموع الرجلين ذو شعر مسترسل ومفروق على الجنين، وله لحية كثيفة، مرتد ملابس فارسية (قميص وسروال)،² وعلى رأسه تاج محلى بوريقات، وفي أذنه قرط. وقد عثر عليه في قصر الحير الغربي، وهو محفوظ حاليا في متحف دمشق الدولي.

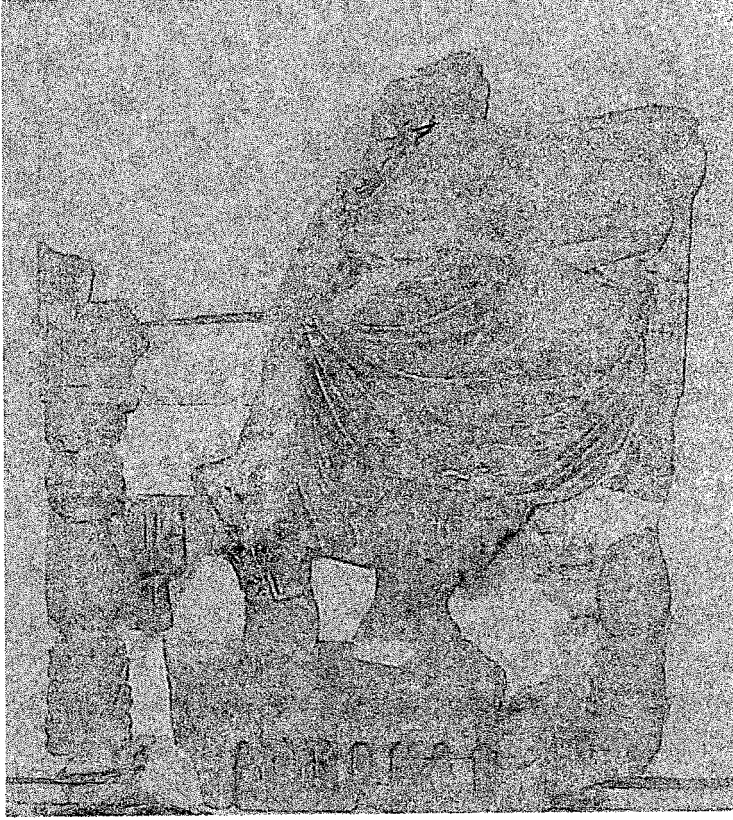
¹ - انتغهاوزن، فن التصوير عند العرب، ص 30؛

- Zayadine. F, "The Frescoes of Quseir Amra" *The Department of Antiquities of Jordan*, Amman 1997, p.5

² - حول رمزية الصورة انظر شلومبرجه (دانيال)، قصر الحير الغربي، ص 35.

ويرجح البهنسي وانتغهاوزن أن هذا التمثال يمكن أن يكون للخليفة هشام بن عبد الملك، أي صاحب القصر.¹ ومكان هذا التمثال هو الجبهة الخارجية فوق الباب مباشرة.

20 اللوحة تُمثل خليفة جالس على العرش



- المصدر: صورة أصلية (بإذن من متحف دمشق الدولي)

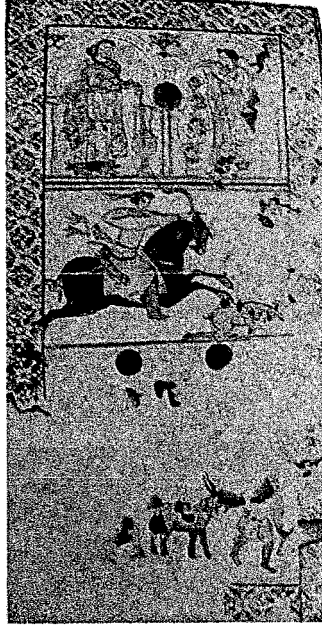
- الموضوع: تُمثل خليفة جالس على العرش، على الطراز البيزنطي،² وقد وضع قدميه على منضدة أو مصطبة، ولم يبق منه سوى نصفه السفلي. وقد وجد كذلك في قصر الحير الغربي، ومكان هذا التمثال هو الجبهة الداخلية، فوق الباب مباشرة. وهم محفوظ اليوم في متحف دمشق الدولي.

¹ - البهنسي (عفيف)، الفن الإسلامي، ص 336؛ انتغهاوزن، نفس المرجع، ص 35.

² - Grabar. O, *La formation de l'Art Islamique*, p. 227.



- المصدر: لوحة أصلية (بإذن من متحف دمشق الدولي)



- الموضوع:

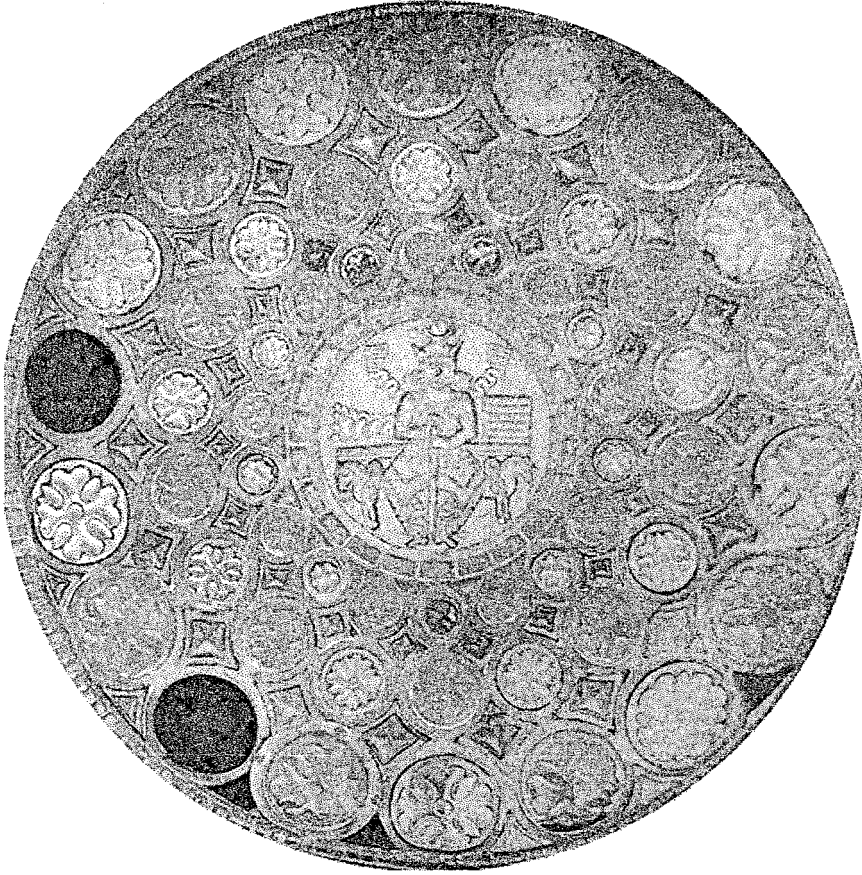
رسم جداري يمثل مشهد بلاطي ينقسم إلى ثلاثة مواضيع رئيسية، الأول يمثل مجلس طرب ويتألف من امرأة تعزف على العود ورجل ينفخ في الناي، كل واحد منهما متجه نحو الآخر، يجلسان تحت عقدتين، يفصل بينهما عمود، وقد ارتدى كل واحد منهما سروالا فوقه رداء وحذاء. والثاني يمثل أمير وهو يصطاد أما المشهد الثالث فيمثل عبد يقود وحشا أو حيوانا إلى الحظيرة.¹

وقد عثر على هذا الرسم في قصر الحير الغربي، وهو محفوظ حاليا في متحف دمشق الدولي، عدى المشهد الأخير فإنه مفقود.

¹ - انتغهاوزن، نفس المرجع، ص 34.

وقد احتوى هذا الملف على مناظر بلاط من العصر العباسي، والأموي وكذلك من العصر الساساني، والذي كان تأثيره قويا على فن التصوير العباسي لاسيما في مراحل الأولى. ✓ صور الملوك الساسانيين

22 اللوحة: الملك كسرى الأول جالسا على عرشه



صورة توضيحية.

- مكان الحفظ: المتحف المالي بباريس.

المراجع:

- Dieulafoy. M, *L'Art Antique de la Perse Achéménides Parthes Sassanides*, 5eme partie Monuments Parthes et Sassanides, Paris.

- Ettinghausen.R, *From Byzantium to Sasanian Iran and the Islamic World*, Plate XIV, Fig50.

- الموضوع:

تمثل هذه اللوحة طبقا مزخرفا بقطع الزجاج الملون، نقش عليه صورة الملك الساساني كسرى الأول وهو جالس على عرش يحمله حماران وحشيان، وماسكا سيفه بيديه الإثنتين، وعلى رأسه تاج يتوسطه هلال داخله كرة. ويعود هذا الطبق إلى القرن السادس ميلادي ويعرف بطاس سليمان.

23 اللوحة: الملك كسرى الأول جالسا على عرشه وتحيط به حاشيته



المراجع:

-Ettinghausen.R, *From Byzantium to Sasanian Iran and the Islamic World*, Plate XIV, Fig49.

- الموضوع: طبق جسّم فوقه الملك كسرى الأول، وقد جاء في نفس الهيئة التي برز عليها في الطبق السابق، جالسا على أريكة العرش، وماسكا سيفه وعلى رأسه تاج، لكن في هذه الصورة تحيط به حاشيته. كما جسّم في القسم السفلي من الطبق وهو يمارس هواية الصيد. ويعود هذا الطبق كذلك إلى القرن السادس ميلادي.

24 اللوحة ميدالية كسرى الثاني



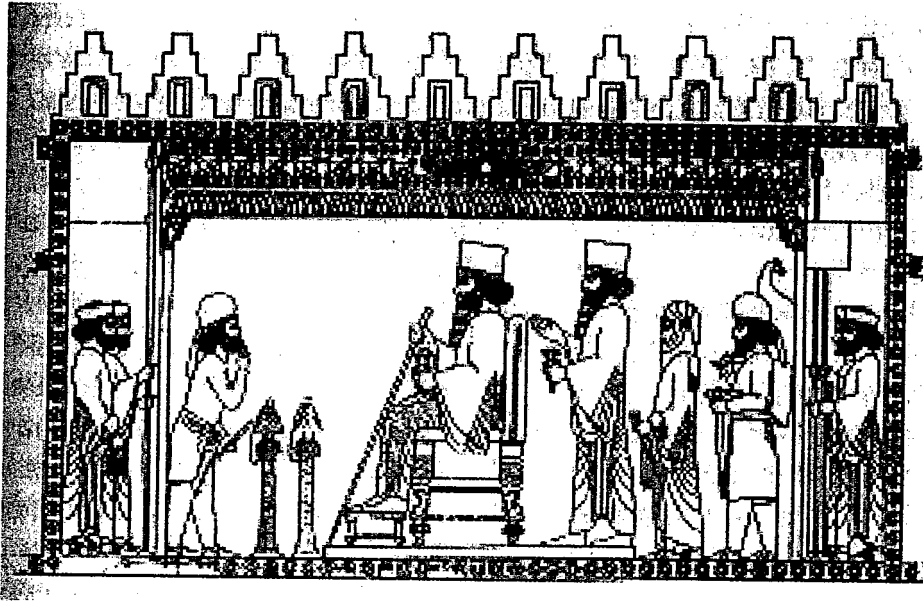
المراجع:

- Dieulafoy. M, *L'Art Antique de la Perse Achéménides Parthes Sassanides*.

الموضوع:

ميدالية نقشت عليها صورة نصفية لملك الفرس كسرى الثاني، وقد برز فيها ملتفا نحو كتفه الأيسر، وعلى رأسه تاج مجنح، يتوسطه هلال داخله نجمة.

25 اللوحة نقش دريوس



المراجع:

- Huyse. Ph, *La Perse Antique*, p. 233.

- الموضوع: نقش يمثل المراسم والآداب المتبعة في مجالس الملوك الساسانيين، لاسيما عادة تقبيل اليد. وقد شمل هذا الملف بالإضافة إلى مجالس الملوك الساسانيين، مشاهد من مجالس الأباطرة البيزنطيين.

منمنمة تمثل الإمبراطور 26 اللوحة
(Nicéphore III Botaniate)
هو وحاشيته



27 اللوحة منمنمة تمثل الإمبراطور

(Nicéphore III Botaniate)
هو والامبراطورة



المصدر:

-Recueil des Sermons, de Jean Chrysostome, coislin 97. (BNF)

الموضوع: تمثل المنمنمة عدد 26 الإمبراطور، Nicéphore III Botaniate (1078 - 1081) ، وهو جالس على عرشه وتحيط به حاشيته، أما المنمنمة عدد 27 فتظهر نفس الإمبراطور، واقفا هو وزوجته الإمبراطورة Marie.¹

28 اللوحة

منمنمة تمثل الإمبراطور

(976- 1025) Basile II



- المصدر:

- Psautier de Basile II , Venise bibliothèque Nationale Marciana, Msgr.17, fol 3r.

- التاريخ: يعود إلى بداية القرن 11.

- المقاسات: 24.4 × 30.2 صم

- المرجع:

- Culter. A / Spieser, *Byzance Médiévale 700- 1204*, Gallimard, 1996, Ill 254.

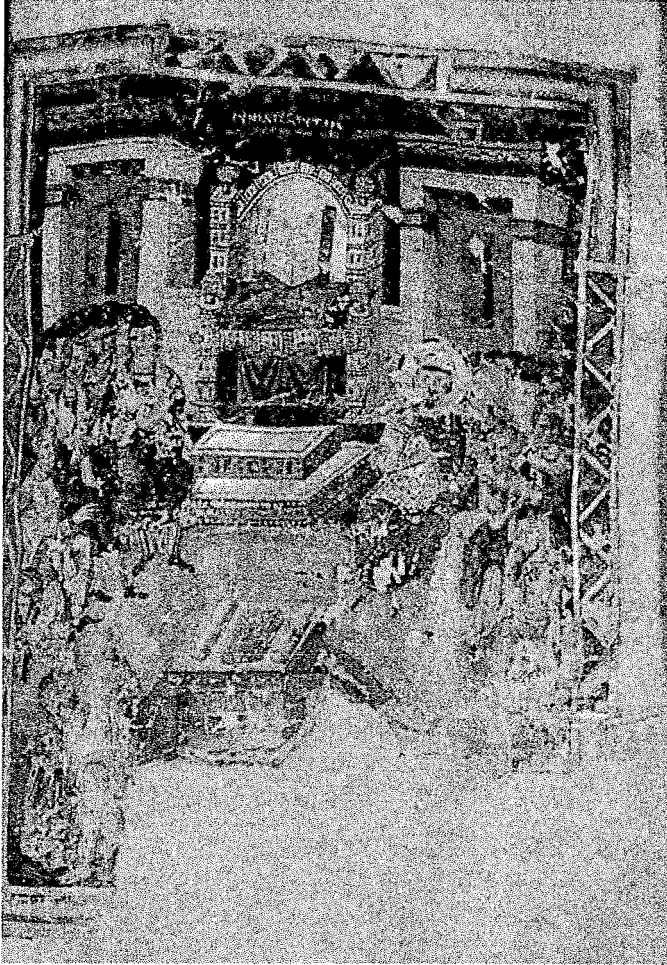
¹ - Grabar. A, *L'Art Byzantin au Moyen Age*, p.138.

الموضوع:

تمثل هذه المنمنمة، صورة شخصية للإمبراطور بازيل الثاني، وقد خلدت انتصاره على البلغار سنة 409 هـ / 1018 م، وقد شوهد فيها مرتدياً زياً رسمياً، خاصة الحذاء الأحمر الذي حرص المصور على إبرازه، والذي يمثل أحد رموز الملك البيزنطي الأساسية، ومحاطاً بحاشية سماوية، موزعة بطريقة تراتبية.

29 اللوحة

الجمع الديني لسنة 381 م



المصدر:

_ Homélie de Grégoire de Naziane, Msgr. 510. (BNF).

- التاريخ: يعود إلى سنة (880 - 883 م / 267 - 270 هـ).

- المقاسات: 43.5 × 40 صم

الموضوع: تمثل هذه المنمنمة قاعة العرش، التي انعقد فيها الجمع الديني لسنة 381 م، وقد وضع سرير العرش في صدر القاعة، و يصعد إليه عن طريق درجين وهو مصنوع من الذهب، وجعلت عليه فرش فاخرة وضع فوقها الكتاب المقدس، أما أصحاب المراتب فقد توزعوا وسط القاعة، على اليمين وعلى اليسار.

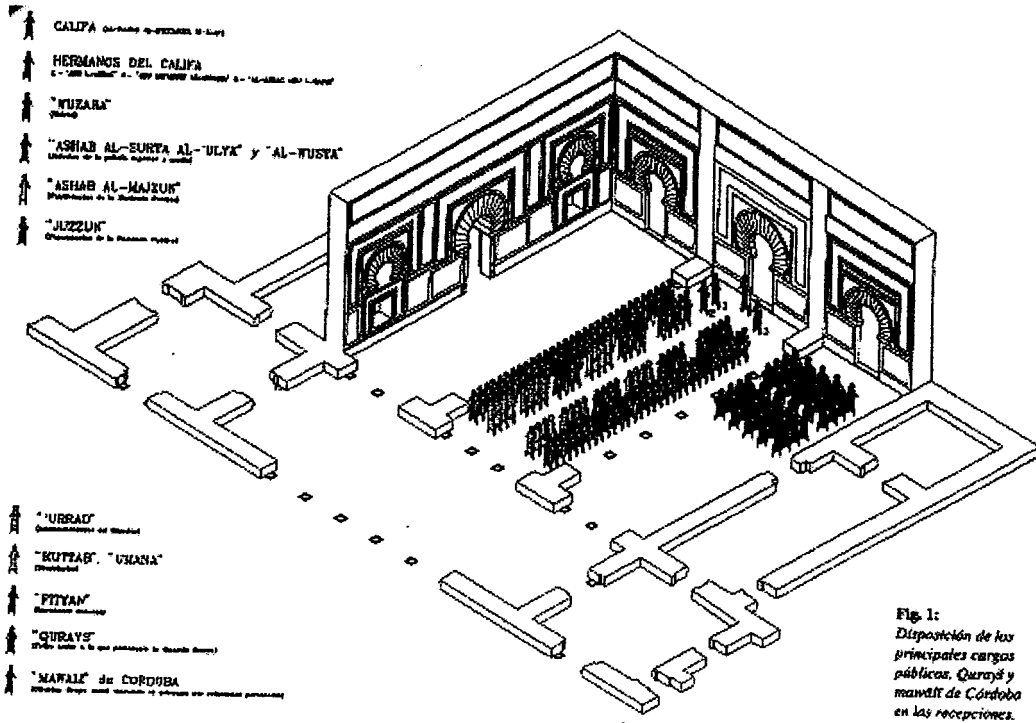
30 اللوحة علبة الأمير المغيرة بن الخليفة عبد الناصر



- مكان الحفظ متحف اللوفر بباريس.

- الموضوع: علبة من العاج جسّم فوقها الأمير المغيرة، جالسا على أريكة يحملها أسدان، وماسكا بيده اليمنى قدحا وباليسرى مشموما، وقد جلس معه رجل بيده اليمنى آلة، ووقفت بينهما امرأة تعزف على العود. أما باقي العلبة فقد زخرفت بعناصر آدمية وحيوانية.

31 اللوحة رسم بياني لقاعة عرش عبد الرحمن الثالث



- المراجع:

_ Barcelo. M, « El Califa patente : el ceremonial omeya de Cordoba o la escenificacion del poder », in *Madinat al- Zahra El Salon de 'Abd al- Rahman III*, Cordoba, Marzo, 1995, p.159, fig 1.

- الموضوع: تمثل هذه اللوحة، رسماً بيانياً لقاعة عرش عبد الرحمن الثالث، قام به برسلو، وقد حدّد فيه موقع

الخليفة وتوزع أصحاب المراتب، أثناء انعقاد المجالس في مدينة الزهراء.

كما اشتمل كذلك هذا الملف على مشاهد ملكية تعود إلى أواخر العصر العباسي، وكذلك إلى العصر المغولي والإيلخاني والصفوي. وقد وضعت في الملف للوقوف على مدى التطور الذي حصل في التعامل مع هذه المواضيع المصورة.

32 اللوحة



المرجع:

-Ettinghausen.R, *From Byzantium to Sasanian* Plate XXIII, Fig 78, P.69.

- مكان الحفظ: ليننجراد

- التاريخ: تقريبا القرن التاسع ميلادي

- الموضوع: طبق من الفضة جسّم فوقه ملك، متربع على عرش يحمله أسدان، ماسك بيده اليمنى قدحا، وواضع يده اليسرى على فخذه، وعلى رأسه تاج مجنح. وقد وقفت على يساره جارية تصب له الشراب في القدح وعلى يمينه جارية أخرى تذب عنه.

أما أسفل العرش فقد جلست عازفتان، واحدة إلى اليسار تنفخ في الناي، وأخرى إلى اليمين تعزف على العود. ونلاحظ في هذا الطبق إحياء للإرث الساساني القديم.



المرجع:

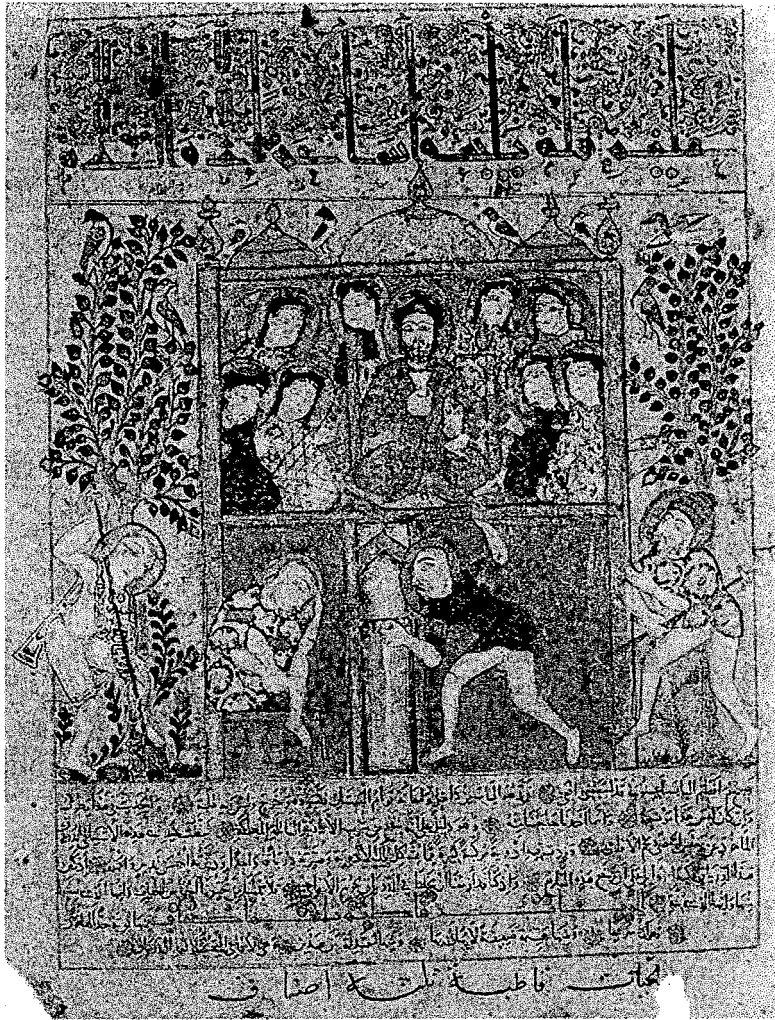
– Kennedy.H, *The court of the Caliphs.the Rise and Fall of Islam's Greatest Dynasty*.

– التاريخ: القرن الثامن ميلادي

– مكان الحفظ: المتحف البريطاني

– الموضوع:

طبق من الذهب والفضة، صنع في طبرستان، نحت عليه أحد الخلفاء، وهو جالس على أريكة من الطراز الساساني، ويمسك بيده اليمنى نوعا من الحلوى أو مشموم وباليسرى قدحا، وقد أجلس شخصا آخر إلى جانبه على الأريكة وأشركه معه في الأكل والشرب، ويحيط به عدد من العازفين والراقصين والمطربين. نلاحظ في هذا الطبق إحياء للإرث الساساني القديم. ومن ثمة نستنتج كيفية انتقال عادات البلاط الساساني إلى العباسيين.



- المصدر: كتاب الدرايق، fol 27 r

- مكان الحفظ: المكتبة القومية بباريس (arabe 2964)

- التاريخ 595هـ (1198 - 1197م).

- المراجع:

- Fares. B, « Le livre de la thériaque », in *Art Islamique*, t II, Caire 1953, p. 47- 48.

- الموضوع: تمثل هذه اللوحة ملكا جالسا القرفصاء، وعلى رأسه قلنسوة، وهو يمسك بيده اليمنى كأسا ويضع اليسرى على فخذه. وتحيط به مجموعة من الجوارى، يظهرن بحجم أصغر منه. وتحيط برأسه هالة.



- المصدر: كتاب الحشائش وخواص العقاقير.

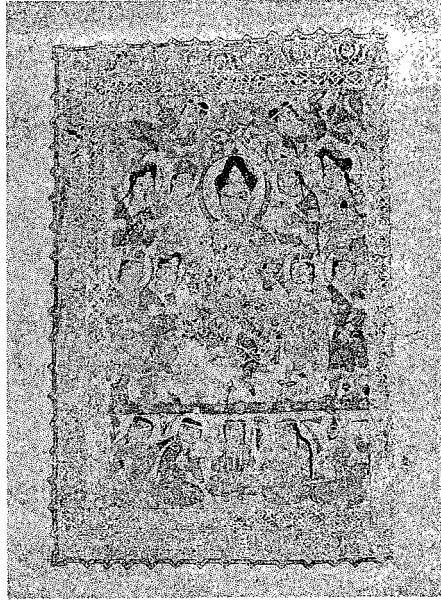
- التاريخ: يرجع تاريخها إلى القرن 13 م.

- مكان الحفظ: المكتبة السلিমانيّة باسطنبول، Sainte Sophie Ms 3703, fol 29 r

- النشر: إلى حدّ علمنا لم تنشر

الموضوع: تصور هذه المنمنمة الديوسقوريدس الروماني، وهو جالس على أريكة من الطراز البيزنطي، ولبس جبة وتمنطق بنطاق، وعلى رأسه عمامة. ويحيط به عالمان. نلاحظ كيف أن الفنان حاول إخضاع هذه الصورة لطبيعة الحياة العربية.

36 اللوحة: مجلس غناء



اللوحة عدد 36

- المصدر: الأصبهاني، الأغاني، ج 4، ص 1، أدب 579.

- مكان الحفظ: دار الكتب الوطنية بالقاهرة.

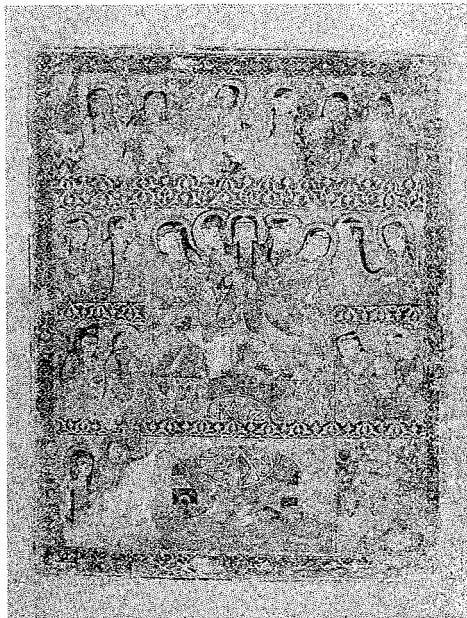
- النشر: لم تجد حظها من النشر

- الموضوع: تمثل هذه المنمنمة حاكما في مجلس طرب وموسيقى، وقد جلس على كرسي مرتفع، وهو يمسك

بيده اليسرى كأسا، وباليمينى منديلا، ووضع على رأسه قلنسوة. وتحف به مجموعة من الجواري وهن يرقصن

ويغنين وقد ظهرن بحجم أصغر منه.

37 اللوحة: مجلس غناء وطرب ورقص



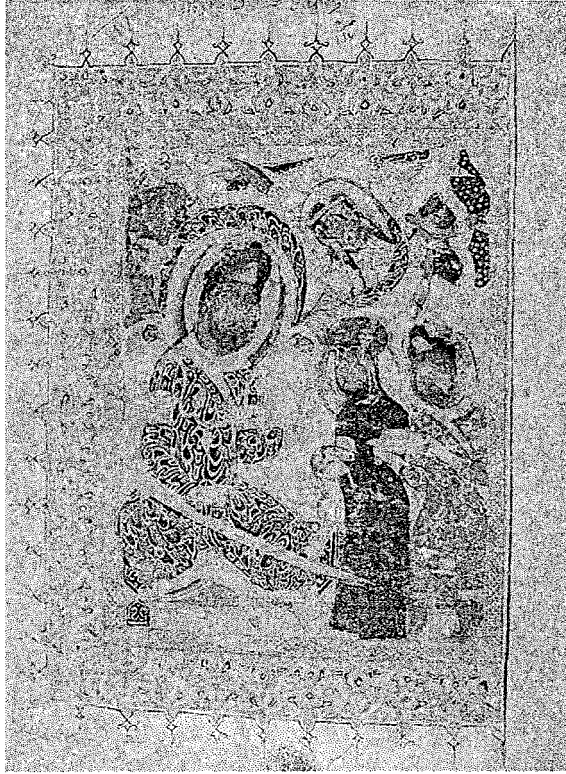
- المصدر: الأصبهاني، الأغاني، ج 2 ص 1، أدب 579.

- مكان الحفظ: دار الكتب الوطنية بالقاهرة.

- النشر: لم تجد حظها من النشر

- الموضوع: تمثل المنمنمة مجموعة من الجواري، بعضهن يعزفن على العود، والبعض الآخر على الدف أو على الطنبور، وبعضهن يرقصن.

38 اللوحة: صورة الرسول محمد



- المصدر: الأصبهاني، الأغاني، ج 11، ص 1، أدب 579. (صورة أصلية)

- مكان الحفظ: دار الكتب الوطنية بالقاهرة.

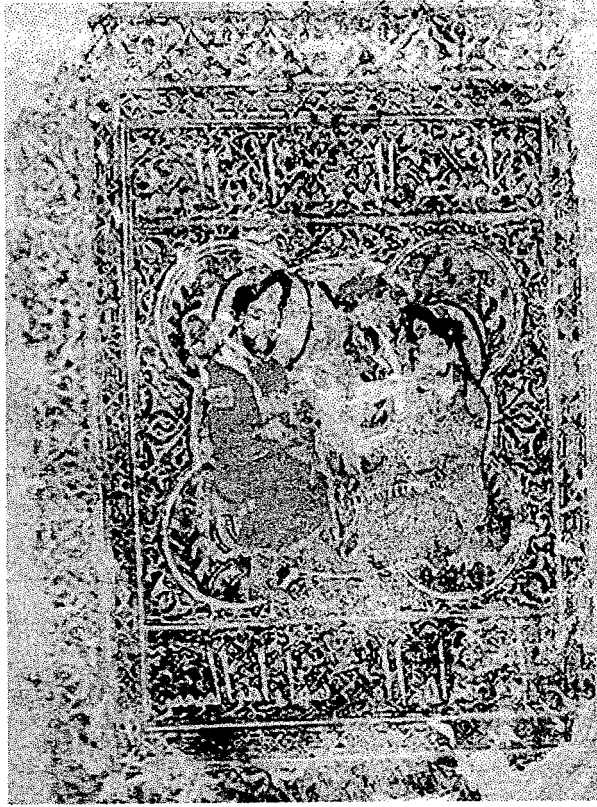
- النشر: لم تجد حظها من النشر

- المراجع:

- Fares. B, « Une miniature religieuse de l'école de Bagdad » in *Mémoires de l'Institut d'Égypte*, t 51 , Caire 1948, p.12.

- الموضوع: منمنمة تمثل الرسول محمد مثلما يدل على ذلك نصها وهو ما أكدته كذلك بشر فارس، وقد جلس على دكة يغطيها كساء، وفي خنصر يده اليمنى خاتم موجه إلى الناظر، وعلى فخذه اليمنى سيفه، وعلى رأسه قلنسوة فراء، لابسا قباء، وتحيط برأسه هالة، وقد وقف أمامه أسقفان، وتحيط به الملائكة من خلف.

39 اللوحة: صورة حاكم ومحظيته



- المصدر: الأصبهاني، الأغاني، ج 6، ص 1، رقم 8627. (غير أصلية)
- مكان الحفظ: الخزانة الحسنية بالرباط.
- المرجع:
- سيّد (أيمن فؤاد)، " مجلّدان جديّدان من نسخة كتاب الأغاني المصورة"، نفس المرجع، ص 164.
- الموضوع: تظهر المنمنة حاكما وقد جلس على أريكة متسعة وأجلس إلى جانبيه محظيته.

2 صور النساء في البلاط العباسي:

لا بدّ أن نشير إلى وجود مجموعة هامة من الصور الخاصة بالنساء في البلاط العباسي، وهنّ على أغلب الظن من المخطّيات أو الجوّاري اللاتي كنّ يشاركن الخليفة في جلسات اللّهُو والمرح، وخاصة الراقصات، الموسيقىات والمغنيات... فقد ظهرت الجوّاري في العديد من الصور التي عكست لنا مجالس البلاط، في حين لم تظهر الحرائر وذلك بحكم الحجاب الذي فرض عليهن.

ونحن نعتقد بأنّه من الصعب أن يكون للنساء دور في تلك الصور التي ظهرت في قصر الجوسق الخاقاني، وإنّما اعتمدت تلك الصور على مصورين رجال من وراء جدران قاعات الحرم وقد وقعوا أسماءهم على بعض الصور مثل "مفلح" و"مسمس".

وبصفة عامة فقد تميّزت صور النساء في البلاط العباسي بالتركيز خاصة على موضوع اللّهُو والرقص والغناء والصيد والتمتع بالوقت واللّهُو. ولا وجود لأي عنصر رجالي في تلك الصور الخاصة بالنساء.

ورغم الرتابة والتكرار اللذان طغيا على تلك الصور في الكثير من الأحيان وخاصة في وصف ملابس السيّدات وحركاتهنّ، وتعبيرات وجوههنّ، فإنّه يمكن القول بأنّ صور النساء في البلاط العباسي، هي من المواضيع التي أجاد فيها الفنانون لاسيما وان افترضنا بأنهم لم يقدروا على دخول ذلك الجناح المخصص للنساء من القصر وذلك بحكم حرمة على الرجال، فقد مكنتنا على الأقل من التعرف على الأزياء الخاصة بالنساء المخطّيات في البلاط العباسي، وحليهنّ، وأغطية رؤوسهنّ، وتزويجهنّ.

ولا بدّ أن لكل فئة من النساء في البلاط أزياءها الخاصة بها، وذلك بما يتناسب مع وضعها الاجتماعي، وسنحاول العمل على توضيح تلك الفروق ما أمكن لنا ذلك، من خلال مقارنة تلك الصور بما ورد في المصادر من إشارات خاصة حول النساء الحرائر وملابسهنّ وتزويجهنّ، واللاتي لم يشملهنّ التصوير على الجدران. وقد اعتمدنا في صور النساء على ما نشره هرتزفيلد،¹ و على صور أخرى غير منشورة من داخل قصر الخليفة في سامراء وهي محفوظة في متحف الفن التركي والإسلامي بأسطنبول.

¹ - Herzfeld. Ernest, *Die Malereien Von Samarra*, Berlin, 1927.



اللوحة 40

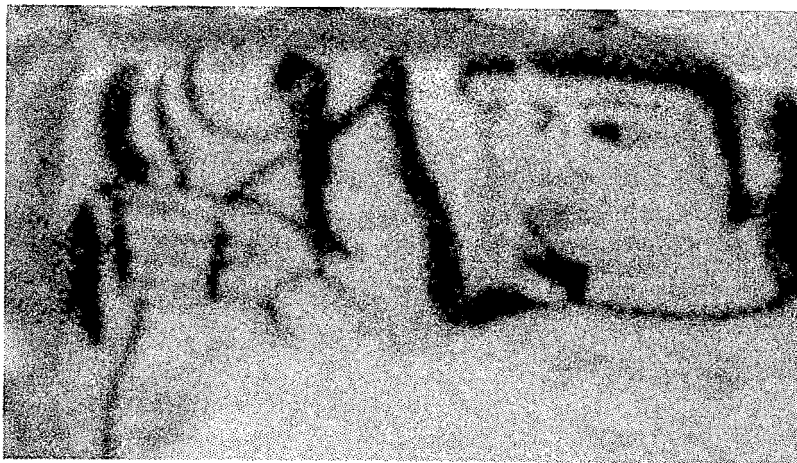
صورة سيّدة نقشّت على أحد الأعمدة التي عثر عليها في قاعة العرش في قصر الجوسق الخاقاني، وقد وضعت قرطاً في أذنها.



اللوحة 41

صورة سيّدة عثر عليها كذلك في قصر الجوسق الخاقاني في سامراء وقد شدّت شعرها إلى الوراء ووضعت على رأسها عصاة.

42 اللوحة صور لرؤوس سيّدات من قصر الخليفة



(1)



(2)



(3)



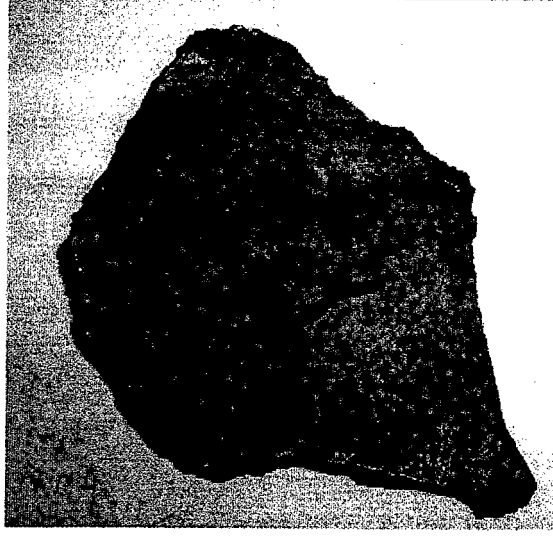
(4) قطعة مسجلة تحت (رقم N2344) أصلها زهرية مقاييسها (13 × 11 م)

متحف الفن التركي والاسلامي باسطنبول.



(4) قطعة مسجلة تحت (رقم N2354) تمثل جزء من رسم جداري مقاييسها (0.13 × 0.13 م)

متحف الفن التركي والاسلامي باسطنبول.



(5) قطعة مسجلة تحت (رقم N2356 r) تمثل جزء من رسم جداري (0.11 م)

متحف الفن التركي والاسلامي باسطنبول.

43 اللوحة صورة سيّدة نقشت على أحد الأعمدة

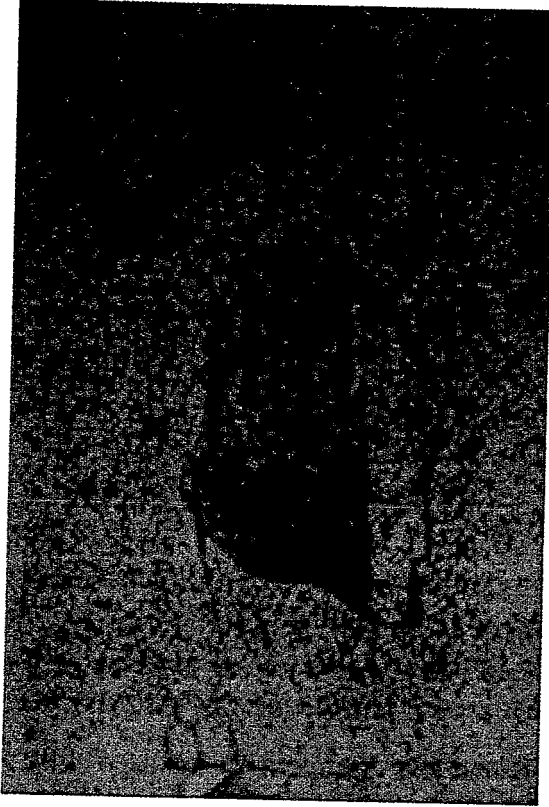


عثر عليها في قاعة العرش بالجوسق الخاقاني، وقد وضعت قلنسوة على رأسها، و أمامها قطعة قماش من نفس قماش ثوبها. وقد كتب فوق رأسها مفلح ومسمس، ويبدو أن هذه الكتابة هي توقيع الرسامين.

واسم مفلح هذا كان يحمله أحد القادة الترك في سامراء، من أتباع موسى بن بغا، ومن ثمّة تتبيّن لنا أهمية دور الجند الترك في رسوم سامراء. وفي مؤخرة العمود، نصف الكروية تظهر صورة بطة.

44 اللوحة صور لراقصتين شبه عاريتين

وقد تدلّت ضفائرها إلى خصريهما، وشددتا وسطهما بزنار.



45 اللوحة صورة الراقصتين المشهورتين

كما رسمها هرتزفيلد.





- المصدر: بترخيص من متحف الفن التركي والإسلامي بإسطنبول.

- المقياس: (73 × 82 م).

- الرقم: (N 2433)

يمثل هذا الرسم صورة الراقصتين الأصلية، وقد عثر عليها في قاعة القبة بقسم الحرم من قصر الجوسق الخاقاني، وهي معروضة اليوم في متحف الفن التركي والإسلامي بإسطنبول، وقد بدت ألوانها باهتة، كما أصابها الكثير

من التشويه، ويبدو أن هرترفلد قد حافظ إلى حد كبير على ملامح الصورة الأصلية، لاسيما على مستوى تقسيمات الوجه، والحركة، والثياب.

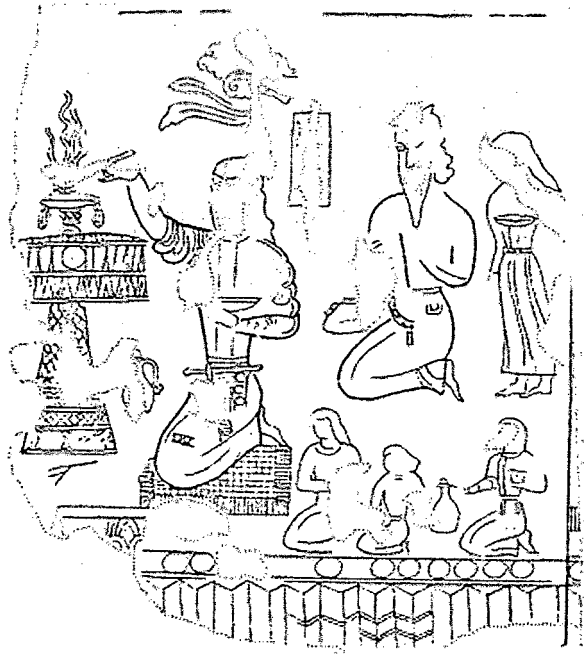
وقد نقشت هذه الصورة في إطار مربع، وهي تمثل راقصتين كاملتي الملبس،¹ قد ارتدت كل واحدة منهما رداء، ووضعت على ذراعيها إزار، وفي وسطها منطقة، وعلى رأس كل واحدة منهما قلنسوة، وفي أذنيها أقراط، وقد لبستا في قدميهما خفين، وتدلّت ضفائرها إلى الأمام والوراء. وتقابل كل واحدة من الراقصتين الأخرى، وتمسكان بأيديهما المتقاطعتين بقدرحين تصبان فيهما النبيذ أو الخمر، أو الماء من قنيتين خلف رأسيهما، وهما في حركة رقص تامة. وقد وضع بين الراقصتين إناء فيه فواكه.² ولا نستبعد أن تكون هاتين الراقصتين، إحدى جوارى الخليفة.

وتشير آمال إسبن إلى التشابه بين صورة الراقصتين وبين صورة جدارية منفذة بالألوان المائية عشر عليها في منطقة Pengikent، بأواسط آسيا (عدد 1).³ ويبرز التشابه أساسا في طريقة الإمساك بالقدح باليد اليسرى، وصب الماء أو الخمر باليد اليمنى.

كما يبدو الشبه كذلك واضحا بينها وبين صورة جدارية أخرى عشر عليها في منطقة باليليك بوسط آسيا (عدد 2)،⁴ تمثل فتاتين تمسك إحداهما في يدها اليمنى بكأس واليسرى بزهرة، ويتضح التشابه في طريقة مسك الكأس ووضع القلنسوة على الرأس، والأقراط في الأذنين وكذلك على مستوى العيون والحواجب.



(2)



(1)

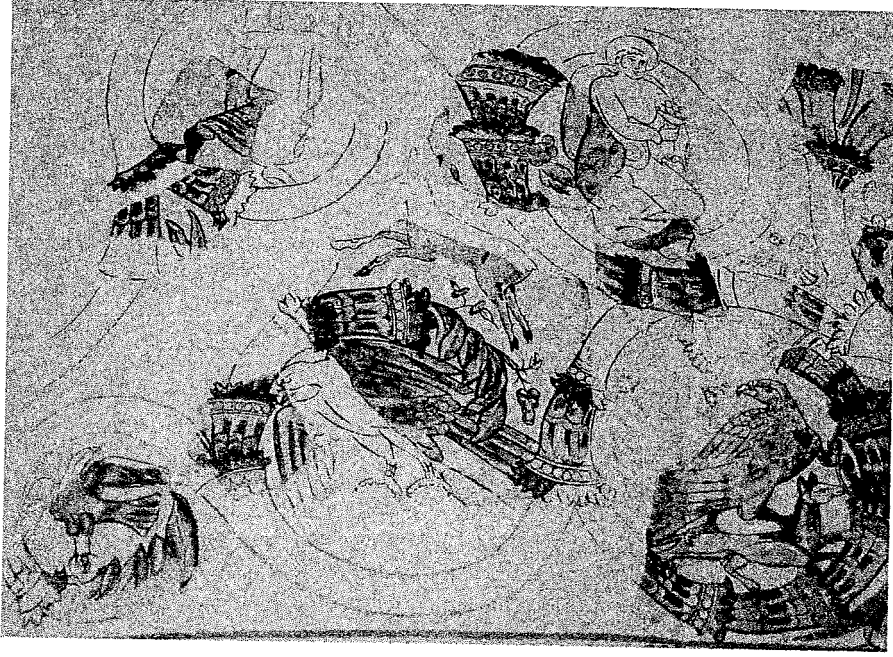
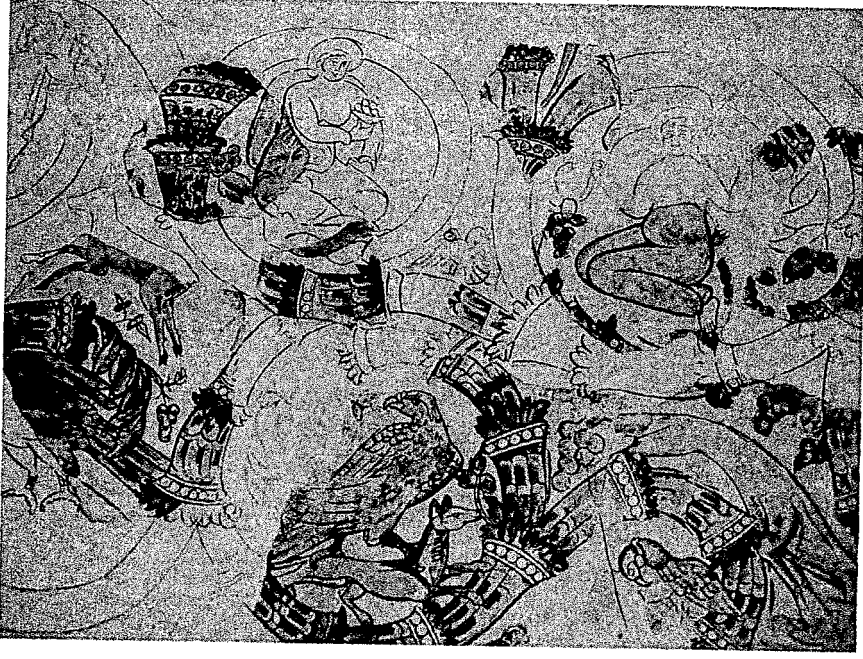
¹ - انتغهاوزن، نفس المرجع، ص 42.

² - Otto- Dorn, *Op. Cit*, p. 84;

³ - Emel. E, « The Turk al- 'Agam of Samarra », *Ibid*, p.80, fig 22.

⁴ - خليفة (حامد ربيع)، فن التصوير عند الأتراك الأويغور وأثره على التصوير الإسلامي، القاهرة 1996، ص 81- 82، اللوحة عدد 27.

46 اللوحة صور لنساء وهن يلهين ويستمتعن بوقتھن



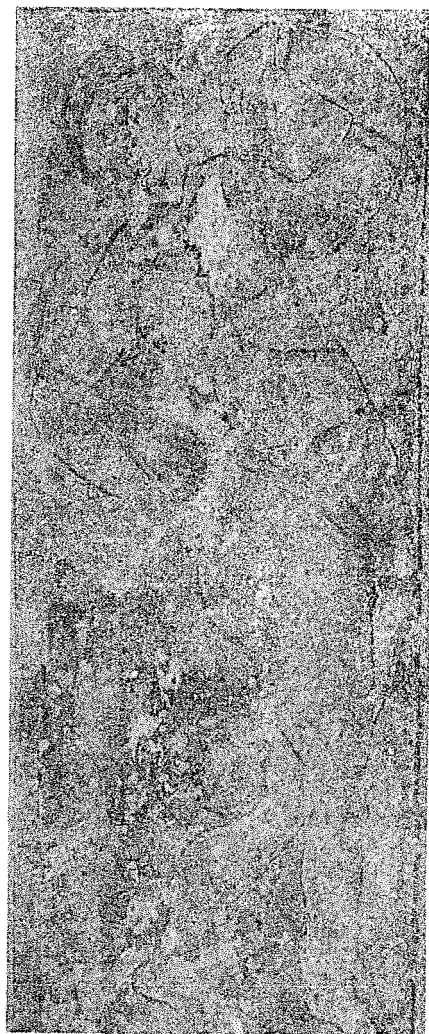
تصور لنا هذه اللوحة النساء داخل الحرم العباسي، وهن يلهين، ويرقصن ويمرحن ويقفزن ويتمتعن بوقتھن مع بعضھن البعض، وقد ارتدين ملابس شفافة، فمن بينھن من لبست غلالة، ومن بينھن من التفت بإزار. وقد أمسكت بعضھن بقدح من الفواكه، كما ضمت كذلك الصورة، رسوما نباتية وطيورا وحيوانات.

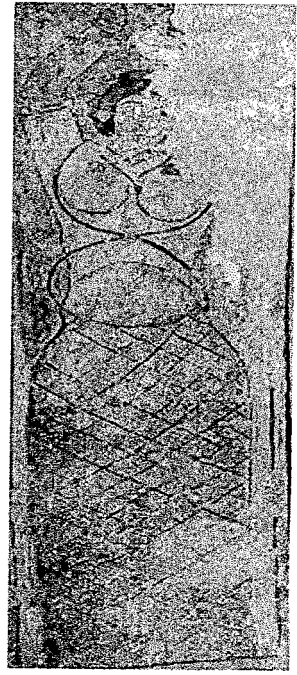
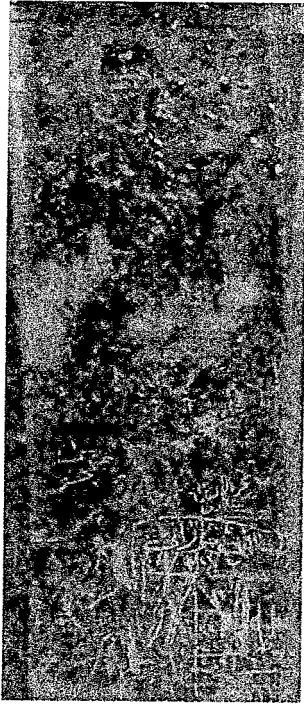


نقشت هذه اللوحة في منطقة مستديرة، وهي تمثل امرأة، تصطاد ضبياً أو أحد الوحوش، وقد ارتدت رداءً، وعلى رأسها عصاة، وقد انتهى مشهد الصيد بمقتل الضبي على يد الصيادة. ولا تختلف صور النساء في قصر الجوسق الخاقاني كثيراً، عن مثيلاتها في قصر عمرة والذي احتوى كذلك على رسوم لنساء عاريات في حمام وشبه عاريات وهن يرقصن ويعزفن، ويستمتعن بوقتهن.

48 اللوحة صور لسيدات من البلاط الأموي

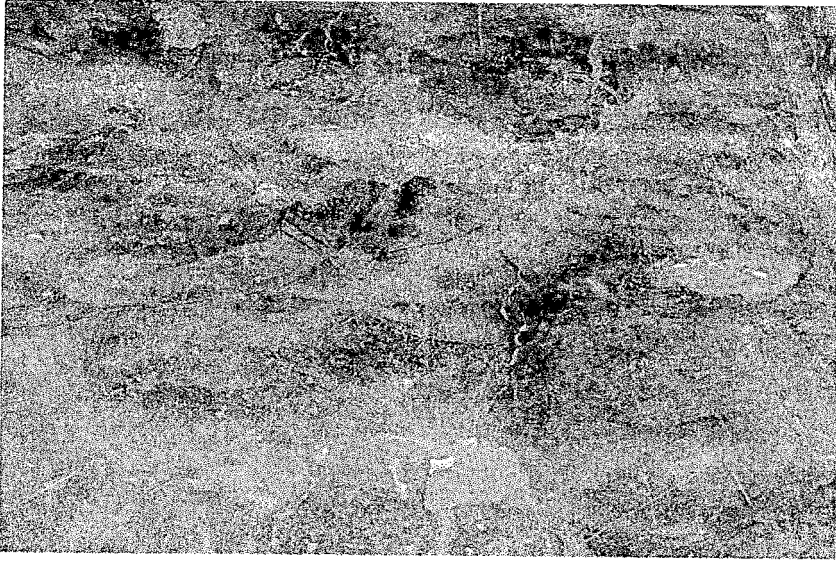
(راقصات وعازفات عود)



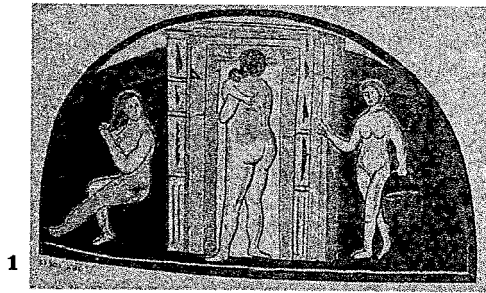
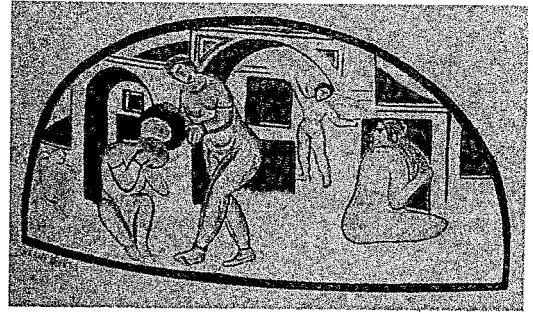
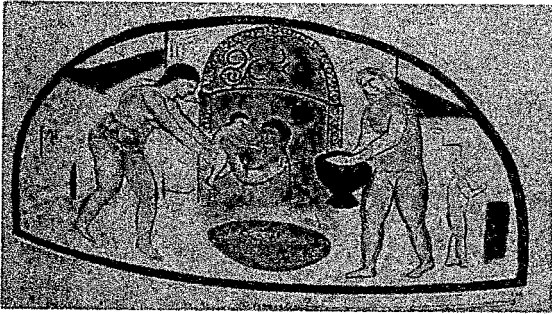


49 اللوحة مشاهد لنساء في الحمام





تبدو ألوان هذه الرسوم الجدارية باهتة، وقد أصابها الكثير من التشويه، وقد أخذت مباشرة من قصير عمرة. وقد قام فييار قيق مؤخرا بمحاولة لإعادة رسم كامل رسوم قصير عمرة ومن بينها رسوم لسيدات في الحمام.



ورغم التشابه في المواضيع المصورة بين قصر الجوسق الخاقاني وقصير عمرة: مشاهد رقص طرب غناء، فإن الاختلاف يكمن خاصة في مستوى مقاييس الجمال ووسائل الزينة، أي تسريحة الشعر التزوق، الحللي، إلخ.... وبالإضافة إلى رسوم قصير عمرة، فقد تم العثور في قصر خربة المفجر، على تماثيل لسيدات من البلاط الأموي.

¹ - Vibert- Guigue.C et Bisheh.G, *Les peintures de Qusayr 'Amra*, p.14.

50 اللوحة: تمثال امرأة
وتبدو عارية الصدر ومكتنزة



51 اللوحة: تمثال امرأة

وقد ظهرت تقريبا في نفس مواصفات السيدة الأولى وقد عثر عليهما في قصر خربة المفجر



¹ - Ettinghausen.R, *From Byzantium to Sasanian*, Plate XXVII, Fig 91.

إذن فدورنا لن يقتصر فقط عند مستوى القيام بدراسة وصفية لعدد من الصور التي عكست لنا مشاهد بلاط من داخل القصر العباسي، بل إن دورنا يتمثل بالأساس في محاولة للإجابة عن مجموعة من الأسئلة الجوهرية تتمثل في معرفة: هل أن هذه الصور لاسيما التي تعود إلى العصر العباسي هي مجرد فكرة طرحها الخليفة العباسي على فنانيه وأراد رؤيتها مرسومة؟ أم أنها رؤية إبداعية خيالية للمصور العباسي في ذلك الوقت؟ أم أنها تسجل أحداثا حقيقية موثقة بالأدلة التاريخية؟.

في الحقيقة لا يمكن التوصل إلى ذلك دون وضع النص التاريخي في علاقة مباشرة مع الصورة، و من هنا تبرز لنا أهمية الصورة ليس فقط كوسيلة فنية، وإنما كأداة لكتابة التاريخ. فإلى أي مدى استطاع الفنان العباسي، تركيا كان أم فارسيا، أن يعبر عن أفكار ملكية كانت تسود البلاط العباسي؟.

الفصل الثاني: مجالس الخلفاء العباسيين

جاء في لسان العرب لابن منظور أن كلمة "مجلس" مشتقة من فعل جلس يجلس جلوسا، وهي تطلق على موضع الجلوس كما تطلق على أهل المجلس. أي أن التسمية تشمل حيّزا مكانيا وآخر بشريا.¹ وقد شهدت الكلمة تطورا فبعد أن كانت تطلق في فترة ما قبل الإسلام على تجمع أشراف القبيلة، صارت تطلق في فترة لاحقة على مجالسة الملوك والخلفاء.² وتندرج هذه المجالس في إطار النشاط الروتيني اليومي الذي كان يقوم به الخليفة ويشاركه فيه أبنائه وبصفة رسمية رجال البلاط والخدم وربما كذلك الرسامون. لكن خلافا للمجالس القبلية التي كانت تتسم بالبساطة والتلقائية، فإن مجالس الملوك والخلفاء - باستثناء مجالس الخلفاء الراشدين - كانت تتم وفق مراسم وآداب معينة، تعكس لنا تراتبية أو هرمية داخل المجلس، بين الخليفة وحاشيته وبين الحاشية في حد ذاتها، وتختلف هذه المراسم من سلالة حاكمة إلى أخرى ومن خليفة إلى آخر، وذلك تبعا لاختلاف الأهواء والميولات. وقد تعددت وتنوعت مجالس الخلفاء العباسيين في الشكل والغرض.

I أصناف المجالس:

لم نثر فيما حصل لدينا من معلومات وفرمها لنا المصادر، على تصنيف واضح ودقيق لمختلف المجالس التي كان يعقدها الخلفاء العباسيون. لكن حاولنا أن نؤلف صورة إلى حدّ ما متكاملة عنها من خلال الإشارات المتفرقة التي عثرنا عليها في المصادر، ومن المقارنة بما وفرته لنا الايكونوغرافيا من مآثر تعود إلى العصر العباسي. جاء في كتاب "أخلاق الملوك" للثعلبي والمنسوب إلى الجاحظ سابقا " فعلى الملك السعيد أن يقسم يومه أقساما، فأوله لذكر الله تعالى وتعظيمه وتخليه، وصدّره لرعاياه، وإصلاح أمرها، ووسطه لأكله ومنامه، وطرّفه للهود وشغله، وأن لا يثابر على إدمان الشغل في كل يوم فلا يجد للهوه لذة ولا للنعيم موضعه الذي هو به ".³ ونفس هذا الخبر أورده ابن أبي الربيع في شرحه لسياسة الملك تجاه نفسه فقد ذكر أنه ينبغي على الملك " أن يقسم نهاره أقساما، فأوله لذكر الله تعالى وشكره، وصدّره للنظر في أمر الرعية، ووسطه لأكله ومنامه، وطرّفه للذاته ولهوه ".⁴

نتبين مما ذكره كل من الثعلبي وابن أبي الربيع، ما اعتاد عليه الملوك من أمر تقسيم يومهم وتوزيع وقتهم، أي اكتسابهم لبرنامج عمل يومي. ويشير الجاحظ إلى أن هذا النموذج في تقسيم العمل وتوزيع الوقت إنما هو

¹ - ابن منظور، لسان العرب، ج 1، ص 444؛ ضناوي (سعدى)، نفس المرجع، ج 1، ص 10.

² - Réd, sv « Madjlis », E.I, v VII, p. 1027.

³ - الثعلبي، أخلاق الملوك، ص 159.

⁴ - ابن أبي الربيع، سلوك المالك، ص 177.

النموذج الأمثل، باعتبار أنه يتعلق بقسمة الملك السعيد، وهو يتمثل في ذكر الله، ثم التفرغ لشؤون الرعية وأحوالهم، فالتزود بالطعام وأخيرا التمتع بكل ما يريح النفس من لهو ومرح استعدادا لليوم الموالي. والمتتبع للمصادر يلاحظ اكتساب بعض الخلفاء العباسيين لبرنامج عمل يومي، والذي هو من واجبات الملك حسب الثعلبي وابن أبي الربيع.

برنامج عمل المنصور¹

في صدر النهار	بعد صلاة العصر	بعد صلاة العشاء الآخرة	طلوع الفجر
الأمر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل والنظر في الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية لطرح عالتهم والتلطف لسكوهم وهدوئهم.	يجلس لأهل بيته إلا من أحب أن يسامره.	ينظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق ويشاور سماره من ذلك فيما أرب. فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سماره.	إذا مضى الثلث الثاني قام من فراشه، فأسبغ وضوءه في محرابه حتى يطلع الفجر، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في إيوانه.

برنامج عمل هارون الرشيد²

الليلة الأولى	الليلة الثانية	الليلة الثالثة	الليلة الرابعة	الليلة الخامسة	الليلة السادسة	الليلة السابعة
للوزراء يذاكرهم أمور الناس، ويشاورهم في المهم منها.	للكتاب يحمل عليهم الدواوين، ويحاسبهم عما لزم من أموال المسلمين، ويرتب لهم ما صلح من أمور المسلمين.	للقواد وأمرأء الأجناد يذاكرهم أمر الأمصار ويسألهم عن الأخبار، ويوقفهم على ما تبين له من صلاح الكور سد الثغور.	للعلماء والفقهاء يذاكرهم العلم ويدارسهم الفقه، وكان من أعلمهم.	للقراء والعباد يتصفح وجوههم، ويتعظ برويتهم، ويستمع لمواعظهم ويرقق قلبه بكلامهم.	لنسائه وأهله ولذاته، يتلذذ بديناه، ويأنس بنسائه.	يخلو فيها بنفسه

¹ - الطبري، تاريخ، ص 1592؛ عمارة (أسماء)، البلاط العباسي، ص 263.
² - ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص 156؛ عمارة (أسماء)، نفس المرجع، ص 263.

نلاحظ من خلال هذه الجداول تشابهاً في الحصص والنوبات التي ضمنها برنامج عمل بعض الخلفاء العباسيين اليومي، لكن الاختلاف يكمن في الأوقات المحددة لهذه الحصص والتي يقع ربطها إما بأيام معينة من الأسبوع أو بساعات محددة من النهار أو الليل.

نلاحظ كذلك ترابطاً بين هذه الحصص والأوقات وبين ما نسميه "مجلس"، والذي هو مثلما أشرنا إلى ذلك سابقاً، عبارة عن نشاط الملوك والخلفاء اليومي والذي كانوا يخصصونه، لمقابلة رجال البلاط، وقادة الجيش، وللمقابلة أهل بيوتهم، وإذا اقتضى الأمر أيضاً لمقابلة الرعية.

وبناء على ذلك فإن تلك الحصص والأوقات تقتضي على الأقل عقد أربعة مجالس، أولها مجلس لذكر الله وتعظيمه، ثانيها مجلس لمباشرة أحوال الرعية، ثالثها مجلس للطعام، ورابعاً مجلس للأنس والغناء والشرب، أي للمنادمة.

ولعل ما ورد في المصادر من إشارات حول ما كان يعقده الخليفة العباسي من مجالس، بالإضافة إلى بعض الصور التي كشفت لنا عنها بعض الميداليات والمنمنمات يمكن أن تؤكد لنا مثل هذا التقسيم.

يشير ابن طيفور في كتابه "كتاب بغداد"، إلى تكليف الخليفة المأمون عند دخوله بغداد قاضيه يحيى بن أكثم، بدعوة وجود الفقهاء والعلماء إلى مجلسه للمناظرة ويشير يحيى بن أكثم إلى أن المجلس جعل للنظر في أمور الدين، كما يشير إلى حرص المأمون إلى أن يكون مجلسه موفقاً بين الأهواء والميولات جامعاً بين الآراء والعقائد والمذاهب المختلفة والمتنوعة.¹ وكان الخليفة المأمون أول من استحدث مجلس المناظرة في الفقه، وقد حدّد له يوم الثلاثاء من كل أسبوع.² وكثيراً ما تناظر في هذا المجلس تعاليم المعتزلة وآرائهم وأفكارهم.

كما تروي لنا المصادر صنفاً آخر من المجالس، ينطبق مع ما جاء في الخبر الذي أورده كل من الجاحظ وابن أبي الربيع والخاص بصدر اليوم، هو مجلس المظالم ومهمته النظر في شكاوي الناس والتي كان الخليفة يباشرها بنفسه أو يعين من ينوب عنه فيها.³ فقد كان الخليفة المهدي يجلس للمظالم وكان يقول: "ادخلوا عليّ القضاة فلو لم يكن ردّي للمظالم إلّا للحياء منهم لكفى".⁴ وكان الخليفة المأمون يقعد للمظالم في كل جمعة مرتين لا يمتنع منه أحد.⁵ وبين المهدي قبة سماها قبة المظالم، وجلس فيها للعام والخاص للمظالم والأمر بالمعروف.⁶ ففي هذا المجلس يستقبل الخليفة أفراد رعيته وينظر في مطالبهم وشكواهم.

أما الصنف الثالث من المجالس حسب تقسيم اليوم والوقت هو مجلس الطعام، فقد اشتهر الخلفاء العباسيين بحبهم وتمتعهم بالأكل. فقد كان الرشيد بديناً كثير الأكل والشرب.⁷ وأقام المأمون مأدبة اشتملت على أكثر

¹ - ابن طيفور، كتاب بغداد، ص 45-46.

² - السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 256.

³ - Holt. P. M, s v, Khalifa », E.I, v IV, p. 973.

⁴ - ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص 179.

⁵ - ابن طيفور، نفس المصدر، ص 36؛ حول مجالس المناظرة انظر بحثنا الأول، أسماء (عمارة)، البلاط العباسي، ص

311-312.

⁶ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 183.

⁷ - ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ج 1، ص 51.

من ثلاثمائة نوع من الطعام.¹ وكان المعتصم أول من ثرد الطعام وكثره.² كما كان الواثق كثير الأكل والشرب.³

وكان الخلفاء العباسيون ينفقون الأموال الطائلة على موائدهم، التي كثيرا ما كانوا يدعون إليها أهل بيوتهم والمقرين إليهم من أفراد حاشيتهم وخاصة العلماء. فقد كان عيسى بن جعفر الهاشمي يأكل مع الرشيد، وكذلك أبو معاوية الضير.⁴ وكان أحمد بن أبي داود يأكل الخليفة الواثق.⁵ أما الخليفة المأمون فقد كان يدعو العلماء والفقهاء ويقدم لهم الطعام، وكثيرا ما يتحول مجلس الطعام إلى مجال للمناظرة والمجادلة ويكون الخليفة المأمون فيها هو الأعلم.⁶

أما أنواع المأكولات التي كانت تقدم في الأسمطة الخليفة فهي اللحوم الحيوانية والطيور والأسماك. فقد أقبل الخلفاء على تناول السمك وكان يؤلف عنصرا رئيسيا في أسمطة الخلفاء الخاصة.⁷ وكانت المريسة أكلة الرشيد المحبذة التي يشتهيها.⁸ كما شاع في أسمطة الخلفاء العباسيين الأكل الفارسي، ومن هذا الأكل نذكر خاصة السكاج، وهو أكل حار معتدل، وقوامه اللحم والسمن والخل والعسل والفاكهة المجففة. وهذه الأكلة كانت خاصة بمتساكني القصر. ويذكر الغزولي أن السكاج في الطبخ بمثابة الفالودج في الحلوى.⁹

كذلك الزرباج وقوامه الدجاج والبصل والخل والسكر والتوابل مع السمن.¹⁰ وفي كتاب مطبخ الخلفاء لدفيد ويتز وصف لجميع أكلات العباسيين. وقد ضبطت كتب الرسوم آدابا في صفة الأكل على مائدة الخليفة. أخيرا المجلس الرابع حسب تقسيم الوقت، والخاص بطرف اليوم هو مجلس الغناء والطرب والشرب أي منادمة الخليفة ومشاركته في تناول الشراب والطرب بما ينشد في مجلسه ويلقى على مسامعه من غناء وموسيقى وشعر، حيث تطلق دعوة عامة للشعراء والمغنيين والأدباء، فيدخلون على الخليفة في الوقت واليوم المحدد ويتبارون في الإنشاد أو الغناء.¹¹ وقد ذكرت لنا المصادر عادات الخلفاء العباسيين في الشرب، فقد كان الخليفة السفاح يشرب عشية الثلاثاء وكان المهدي والهادي يشربان يوما ويدعان يوما، وكان الرشيد يشرب في كل جمعة مرتين، وكان المأمون في أول أيامه يشرب الثلاثاء والجمعة ثم أدمن على الشرب إلى أن توفي، وكان المعتصم

¹ - السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 248.

² - السيوطي، نفس المصدر، ص 263.

³ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 66؛ اليعقوبي، مشاكلة الناس، ص 43.

⁴ - كشاجم (أبو الفتح)، أدب الندماء ولطائف الظرفاء، الإسكندرية، 1329، ص 12، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 226.

⁵ - كشاجم، نفس المصدر، ص 11.

⁶ - ابن طيفور، كتاب بغداد، ص 36.

⁷ -

⁸ - كشاجم (أبو الفتح)، نفس المصدر، ص 13،

⁹ - الغزولي، مطالع البور، ج 1، ص 173 ظهر؛ الغزي (نادية)، حضارة الطعام في بلاد الرافدين والشام، دمشق

2001، ج 1، ص 218؛

- Waines. D, *La cuisine des califes*, 1998, p.94 - 95.

¹⁰ - Waines. D, *La cuisine des califes*, 1998, p.58 ;

- الغزي (نادية)، نفس المرجع، ص 216.

¹¹ - الأصفهاني، الأغاني، ج 5، ص 190 - 191 - 192؛ ج 18، ص 153-154.

يشرب كامل أيام الأسبوع إلا يومي الخميس والجمعة وأدمن الواصل على الشرب عدى يوم الجمعة ويومها.¹ وقد اتبع الخلفاء العباسيون هذه العادة عدا الخليفة المنصور.² وقد قلّدوا بها الخلفاء الأمويين، ويتنزل الشرب في إطار تأكيد الملك. وقد ضبط الثعلبي في كتاب "أخلاق الملوك"، آداباً في صفة المنادمة.

وإذا ما تركنا النصوص وانتقلنا إلى المخلفات الأثرية، فإننا نجد عددا لا بأس به من الميداليات التي جسّم فوقها بعض الخلفاء العباسيون وقد جلسوا للشراب والسماع والمنادمة مثال ميدالية المقتدر (اللوحة عدد 3)، والتي نقش عليها وهو متربع على كرسي قصير وعلى رأسه عمامة وقد ارتدى ثياب المنادمة وأمسك في يده اليمنى بكأس واليسرى بمندبل. أما ظهر الميدالية فقد نقشت عليه جارية وهي تعزف على العود وقد ارتدت أيضا ثياب المنادمة.

كذلك ميدالية الطائع لله (اللوحة عدد 4) وقد برز فيها في نفس هيئة المقتدر، فقط وضع على رأسه تاجا بدل العمامة وتحيط به جارتان وهما تعزفان وترقصان، أما ظهر الميدالية فقد نقشت عليه صورة جارية وهي تعزف على العود.

كما احتوت غرة الجزء الرابع من مخطوط كتاب الأغاني بدار الكتب القومية بالقاهرة على مجلس من مجالس الغناء والرقص والطرب (اللوحة عدد 36)، جلس فيه الأمير وتحيط به القيان، أربع عن يمينه وأربع عن يساره، واثنان وراءه ترقصن. وقد وصف أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني أحد مجالس الخليفة المأمون وصفا يكاد تعبير المصور في هذه الصورة يترجمه ويشرحه. فقد ذكر أن إسحاق الموصلي دخل عليه "وفي مجلسه عشرون جارية قد أجلس عشرا عن يمينه وعشرا عن يساره ومعهن العيدان يضربن بها".³ لذلك لا نستبعد أن تكون تلك الصورة مستوحاة من نصوص الكتاب والتي خصص الكثير منها للحديث عن مجالس الخلفاء العباسيين.

وهكذا نبين الصلة الوثيقة ما بين قسمة اليوم وما يعقده الخليفة العباسي من مجالس، والتي يمكن أن نطلق عليها، اسم المجالس اليومية أو الدورية، والتي يمزج فيها الخليفة بين المذاكرة والمناظرة وبين تصريف شؤون الدولة، وبين المظالم وبين المطاعمة والمنادمة.

وقد يجري في بعض الأحيان تحويل مسبق على بعض المجالس، فيلغي الخليفة بعض المجالس ليعقد مكانه مجلسا آخر أديبا أو مجلس منادمة، ويدعو الندماء إلى البكور في الصباح، أو يدعوهم للبقاء في منازلهم لأنه قرر التفرغ للحرمة.⁴ وبصفة عامة عادة ما تعقد مجالس المأكلة والمنادمة، عند الانتهاء من النظر في الرقاع والقضايا وبعد الإطلاع على أحوال الرعية وتصريف شؤون الحكم.

¹ - الثعلبي، نفس المصدر، ص 160 - 161.

² - الجهشيارى، نفس المصدر، ص 140.

³ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 5، ص 182.

⁴ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 5، ص 117 - 148 - 157.

وبالإضافة إلى هذه المجالس الدورية أو اليومية السابق ذكرها، لا بدّ أن نضيف صنفاً آخر من المجالس، كان يعقدها الخليفة العباسي بصفة استثنائية أو مناسبتيه، كذلك التي كان يستقبل فيها زوار ذو شأن كبير، مثل سفراء الدول الأجنبية، كاستقبال الخليفة المقتدر لسفير الروم، وقد طيف به في قصور دار الخلافة وصحونها وأروقتها ودهاليزها، وقبل أن يؤذن له بمقابلة الخليفة تم المرور بدار الحاجب، ثم بالدار التي كانت يرسم الوزير، والملاحظ أن ما رآه السفير في الدارين، وخاصة دار الوزير جعله يظن أنه قد وصل إلى حضرة الخليفة حيث تأخذه الدهشة مما يراه من صنوف الزينة وجمال المظهر، وفي ذلك دلالة على الإهمار وعلى التدرج، حيث يصل في النهاية السفير إلى حضرة الخليفة، الذي يكون جالسا على سرير مفروش بالديقي وعليه السواد ويقف بين يديه الوزير والأولياء على مراتبهم.¹ ونلاحظ تشابهاً بين هذه السفارة وسفارة أخرى في قرطبة،² مما يدل على التشابه في رسوم الاستقبال بين المشرق والمغرب، وقد تأثر الأمويون في ذلك بالعباسيون الذين قلّدوا بدورهم البيزنطيين مثلما يدل على ذلك استقبال الإمبراطور نيسيفور فوكاس، للسفير الكارولنجي أوتون.³ كذلك من المجالس الاستثنائية أو المناسبتية تلك التي كان يعقدها الخليفة العباسي في الأعياد والمناسبات، كعيدي المهرجان والنيروز، وكذلك أثناء الفصد، كي يتلقى الهدايا من حاشيته والمقرين إليه والتي هي من واجبات الملك.⁴

كذلك جلوس الخليفة للخلع والتقليد والتشريف، مثل جلوس الخليفة المعتصم للإفشين القائد التركي الكبير، وجلوس الخليفة الطائع لله لعضد الدولة كي يلقيه بتاج الملة.⁵ أخيراً لا بدّ أن لا نغفل جلوس الخليفة في الحفلات الخاصة والتي تتصل بالعباسيين أنفسهم، كحفلات الزواج: مثل زواج الرشيد بريدة، وزواج المأمون ببوران، وزواج الخليفة المعتضد بالله بقطر الندى.⁶ كذلك حفلات الاعذار مثل اعذار الخليفة المتوكل لابنه المعتز.⁷ وحفلات ختم القرآن.⁸ وقد كان البلاط العباسي يحتفل بهذه المناسبات في جو رسمي، يأخذ في الكثير من الأحيان شكل المجلس، يظهر فيه العباسيون أحسن ما لديهم من الأثاث والفرش والآلات والزينة.

وفي النهاية لا بدّ أن نشير إلى شيء مهم هو أنه، ولئن تعددت مجالس الخلفاء العباسيين في الشكل والغرض، فإنه يجب التفريق بين صنفين اثنين: أولاً المجالس العامة، أي تلك التي كان يعقدها الخليفة العباسي في المناسبات

¹ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 100-101؛ الصابيّ (أبو هلال)، رسوم دار الخلافة، ص 11-12-13؛ القاضي الرشيد، الذخائر والتحف، ص 136-137.

² - الخلف (سالم عبد الله)، نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، ج 1، ص 247.

³ - Kaplan. M, *Tout l'or de Byzance*, Italie 1994, p.134.

⁴ - الثعلبي، أخلاق الملوك، ص 155؛ حول الهدايا انظر بحثنا الأول،

⁵ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 56-57؛ الصابيّ، نفس المصدر، 80.

⁶ - الشابشتي، الديارات، 156-157-158؛

⁷ - الشابشتي، نفس المصدر، 151-152؛

⁸ - القاضي الرشيد، كتاب الذخائر والتحف، ص 119.

الهامة كأخذ البيعة، إذ كانت الخاصة تباع في مجلس والعامه تباع في مجلس، يعرف بمجلس العامة.¹ وذلك بعد أن كانت البيعة تؤخذ في عهد الخلفاء الأوائل من المسلمين دفعة واحدة. كما كان الخليفة يجلس جلوسا عاما لاستقبال أفراد رعيته والنظر في شكاوهم ومطالبهم.² فقد كان الخليفة المأمون يجلس للمظالم في كل يوم جمعة مرتين لا يمتنع منه أحد.³ وكان الخليفة المعتصم يجلس في دار العامة كل يوم اثنين.⁴ وهي الدار التي كان ينظر فيها في المظالم. إذن في هذا الصنف من المجالس كانت تصرف أمور الدولة والرعية.

أما الصنف الثاني من المجالس فهو المجالس الخاصة، أي تلك التي كان يعقدها الخليفة في قصره مع خاصته وحاشيته وأفراد أسرته، وقد تعددت وتنوعت خلال العصر العباسي وغطت على جانب مهم من الحياة اليومية للخلفاء العباسيين، وكنا قد أشرنا إليها وهي تتمثل في مجالس الأدب والشعر والغناء والمنادمة والمطاعمة والمأكلة، والتي كان الخليفة يجدها فيها وسيلة إلى الاستجمام ولتجديد نشاطه بعد فراغه من تصريف شؤون الخلافة، ولذلك نجده في هذا الصنف من المجالس يتحرر إلى حد ما من قيد المراسم والآداب، التي كانت تتواصل لكن بشكل أكثر بساطة.⁵ وهكذا يصبح تصنيفنا للمجالس صنفين: أولهما المجالس العامة والتي هي استقبالا للرعية، وثانيهما المجالس الخاصة، والتي هي قبلة للقادمين من الخاصة على الخليفة.

لكن لا يكتمل حديثنا عن مجالس الخلفاء العباسيين، دون الإشارة إلى صنف ثالث من المجالس، يدخل كذلك ضمن برنامج عمل الخلفاء العباسيين اليومي، ويعرف في المصادر باسم "الموكب". فقد كان يوم الاثنين يوم موكب وكذلك يوم الخميس.⁶

وخلافا للمجالس الأخرى التي كانت تعقد في قصور الخلفاء، وتقصدها العامة والخاصة على اختلاف مراتبهم وحسب طبيعة المجلس، فإن هذا الصنف من المجالس -أي الموكب- يعدّ خروجاً إلى الرعية وتقصيا لأخبارها. وبالإضافة إلى يوم الموكب هناك موكب صلاة الجمعة، فقد كان الخليفة يخرج كذلك يوم الجمعة من قصره في موكب ليصلي بالناس في المسجد الجامع، وكذلك في العيدين، ولكن ذلك لا يتم بصفة دائمة وإنما حسب اختيار الخليفة، فقد كان الخليفة المتوكل يصلي بالناس في آخر جمعة من شهر رمضان، وكذلك في يوم عيد الفطر، أو يكلف بهذه المهمة ولي العهد.⁷ وكنا قد لاحظنا كيف تمّ فصل القصر عن المسجد الجامع في سامراء، مما من شأنه أن يضفي مزيداً من الأبهة على موكب الخليفة. لكن إثر عودة الخلافة إلى بغداد وتأسيس

¹ - الطبري، تاريخ، ص 1588.

² - الطبري، نفس المصدر، ص 1596.

³ - ابن طيفور، كتاب بغداد، ص 36.

⁴ - اليعقوبي، البلدان، ص 26.

⁵ - ابن طيفور، كتاب بغداد، ص 23.

⁶ - مؤلف مجهول، كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ج 4، القسم الأول، ص 245؛ الطبري، تاريخ، ص 1851؛ أسماء (عمارة)، البلاط العباسي، ص 266-268.

⁷ - الطبري، تاريخ، ص 1921.

دار الخلافة العباسية لم يعد الخلفاء في حاجة إلى ترك القصر الملكي، بل كانوا يقتصرون على الصلاة في الجامع الكبير الموجود داخل الحوزة الملكية.¹ كما تراجع خروج الخليفة للرعية، فلم يظهر الخليفة المقتدر للعامة إلا بعد ست سنوات من توليه الخلافة سنة 301 هـ / 913 م،² فعلى خلاف المجالس التي تعقد بصفة يومية وممتالية وتتطلب حضور الخليفة كرئيس أعلى للمجلس فإن الخروج في الموكب يبقى اختياريًا، لكن الخليفة المقتدر يمثل استثناء فقد ولي الخلافة وعمره 13 سنة.³

كما كان الخلفاء العباسيون يركبون إلى الميادين لمشاهدة سباق الخيل، وكنا قد بينّا في الباب الأول كيف أنهم قاموا بتشييد الميادين لا سيما الرشيد، الذي بنى ميدانًا لسباق الخيل في الرقة لا تزال آثاره واضحة في الصور الجوية لمدينة الرقة، وكذلك الخليفة المعتصم والمتوكل الذين قاما ببناء عدد كبير من الميادين والحلبات في مدينة سامراء. كما بنى الخلفاء العباسيون المتأخرون ميادين كثيرة في دار الخلافة ببغداد.

كذلك من أنواع السباق الذي شغف به الخلفاء العباسيون اللعب بالصوالة والكرة، وهي لعبة فارسية الأصل وتعرف حاليًا بلعبة البولو، وتتمثل في ضرب الكرة من على ظهر الخيل، وتذكر المصادر أن أول من لعبها من الخلفاء العباسيين الرشيد،⁴ أما نتائج البحث الأثري فقد أكدت غياب ميادين البولو في الرقة عكس سامراء.⁵ وكان ينصب للخليفة في صدر الميدان مجلس يتابع منه مشاهدة أنواع السباق، وكان للخلفاء ولأبنائهم أفراس خاصة بهم يشاركون بها في السباق، فإذا كانت هي الراجحة يفرح الخليفة، أما إذا سبقتها أفراس أخرى مثل فرس جعفر البرمكي التي سبقت فرس الرشيد يغضب الخليفة.⁶

لذلك فقد أصبح الخلفاء العباسيون في العصر العباسي الثاني يمتحنون الفرسان قبل إجراء عملية السباق، لا سيما في لعبة البولو، فقد كان الخليفة المعتضد يدخل إلى الميدان ويمتحن المتبارين، فإذا كان الفارس يرمي جيدًا وهو متمكن من نفسه ومستقر في سرجه ومصيب في رميه وضعت تحت اسمه علامة "ج" أي جيّد، ومن كان دون ذلك وضعت تحت اسمه علامة "ط"، أي متوسط، ومن كان متخلفًا أي لا يحسن ركوب فرسه ولا يرمي هدفه، وضعت تحت اسمه علامة "د"، أي دون.⁷ نلاحظ العناية الفائقة التي كان يوليها الخلفاء لهذه السباقات وحرص الخلفاء دائمًا على الظهور بمظهر الغلبة والسيادة.

¹ - Sourdel. D, « Questions de cérémonial abbasside », *Op. Cit.*, p.145.

² - ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة*، ج 3، ص 301.

³ - Sourdel. D, *Ibid*, p.145.

⁴ - السيوطي، *تاريخ الخلفاء*، ص 233؛ الويس (كامل طه)، "النشاط الترويحي في العصر العباسي"، أفاق عربية، 13، 1988، ص 98.

⁵ - NORTHEDGE.A, *Entre Amman et Samarra*, p.85.

⁶ - الجهشيارى، *لوزراء والكتاب*، ص 206؛ المسعودي، *مروج الذهب*، ج 4، ص 372.

⁷ - الصابئ، *الوزراء*، ص 17.



لعبة الصولجان.¹

ولكل صنف من هذه المجالس الثلاثة: العام ، الخاص ، الموكب، رمزية معينة، لا يمكن التوصل إليها دون دراسة مقومات المجلس الملكي أو الخليلي.

¹ - Mazhar. S. Ipsiroglu, *Chefs d'œuvre du Topkapi Peintures et Miniatures*, ill 30.
- مأخوذة من ألبوم صور محفوظ في متحف التوبكابي ويرجع إلى تيريز أواسط القرن 16.

II مقومات المجلس الخلفي:

لا بدّ أن نشير إلى أن للمجالس التي يعقدها الخلفاء العباسيون في قصورهم مقومات تكاد تكون ثابتة مهما كانت صفة المجلس "خاص" أو "عام"، لأن تلك المقومات هي المبدأ الذي يسعى الخليفة إلى إبرازه أيا كانت المناسبة خاصة أو عامة والمتمثل في التأكيد على ملكيته للديار. تلك الملكية التي عبّر عنها في عمارة قصوره وفي حطائنه، وكذلك داخل قصره في مجالسه.

لكن تلك المقومات ولئن كانت ثابتة فإنها لا يجب أن تحمي علينا بعض الاختلافات والتي تحددها طبيعة المجلس. فبما تتمثل إذن أهم مقومات المجلس الملكي أو الخلفي في العصر العباسي؟

1 - مكان المجلس:

يعدّ مكان انعقاد المجلس، إحدى المقومات الأساسية للمجلس، فهو الحال الذي يستقبل فيه أو يمارس فيه الخليفة السلطة ويتخذ فيه معظم قراراته. كما أن المراسم والتشريفات تطلب دائما وجود مكان تمارس فيه. لذلك فلا بدّ أنه كان يعقد في قصر الخليفة وفي قاعات مخصصة لذلك الغرض.

لكن السؤال الذي يطرح هو هل توجد قاعة واحدة مخصصة لجميع المجالس، يجرى فيها تشريف أمور الخلافة أولا، ثم تتحول مع تعيير بسيط في عابرها إلى مجلس مدامة أو أكل؟ أم توجد عدّة قاعات وكل قاعة مخصصة لغرض أو مجلس؟.

فعندما أسس الخليفة المصور، قصر الذهب بعدد اتحد لخلوسه الإيوان، وقاعة العرش المربعة، التي تلي مباشرة الإيوان والتي تعرف بالقاعة الحضرية¹ والمصور هو أول خليفة عباسي اتحد الإيوان لخلوسه، ويبدو أن الخلفاء العباسيين الذين أتوا من بعده وحتى عهد الخليفة الهادي قد قلّدوه في ذلك.

وقد اكتفى الخطيب البغدادي بالإشارة إلى أن القاعة المربعة، كانت مقرا للمجلس دون أن يحدّد طبيعة المجلس "خاص"، أم "عام"، كذلك لم توفر لنا المصادر الأخرى معلومات وافية ودقيقة، عن كيفية استعمال كل من الإيوان وقاعة العرش وقد احتلت آراء الباحثين المستشرقين في هذا الصدد.

متلا يرى ستارن أنه بحكم الارتباط الوثيق بين قاعات عرش الملوك الساسانيين، والخلفاء العباسيين الأوائل، وهو ما أكّده هرتفولد، فإن الخلفاء العباسيين امتلكوا مثل أولئك قاعة استقبال عامة (مجلس العام) وتتمثل في الحاح الطويل والكبير أي الإيوان، وقاعة استقبال خاصة (مجلس الخاص)، وتتمثل في القاعة المربعة، ويرى أنه ضمن هذه السلسلة كذلك يمكن وضع قاعة العرش في قصر المشتى².

لكن عكس ذلك تشير بركان، إلى وجود إطار واحد خاص بالمجالس الرسمية والخاصة، بالنسبة للقصور العباسية الأولى وكذلك بالنسبة للقصور الأموية في العواصم، ذلك أن مجلس خاص لا يعي بالضرورة حياة خاصة

¹ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، 73.

² - Stern. H., « Notes sur l'architecture des châteaux omeyyades », Op Cit, p. 92.

ونساء الخليفة لا يُشاركن في المجالس على الأقل بصفة مرئية، سواء منها الخاصة أو العامة. أما بالنسبة للقصور الصحراوية، فهي ترجح إمكانية أن يتم المجلس العام في القاعة البازيليكية، ثم يمتد بصفة خاصة في الحمام.¹ ولعلنا نرجح رأي ستارن أكثر، لأننا لاحظنا من خلال بعض الإشارات المتفرقة في المصادر، فصلاً تاماً ما بين مجلس العامة ومجلس الخاصة بالنسبة للقصور العباسية الأولى. فقد ذكر الطبري في خبر البيعة للخليفة المهدي أن ابنه موسى الهادي بعد أن فرغ من أخذ البيعة، عن بني هاشم والقواد وهم من الخاصة "خرج إلى مجلس العامة، فباع من تبقى من القواد والوجوه".² ولعل ذلك وإن دلّ على شيء فإنما يدلّ على وجود مجلسين مجلس للخاصة ومجلس للعامة، ولو أنه لم يحدد مكان انعقاد كل مجلس.

لكن وردت إشارات أخرى لدى الطبري تفيد بأن الخليفة المنصور كان يجلس في الإيوان لمباشرة أحوال الرعية والمملكة،³ وفيه أيضاً كان يستقبل الوفود من الأقاليم.⁴

وبناءً على ذلك، فإن الإيوان في قصر الذهب، يصبح يمثل مجلس العامة، أما القاعة المربعة التي أطلق عليها الخطيب اسم "مجلس"، فتمثل مجلس الخاصة.

ولعل ما يجعلنا نتبنى موقف ستارن أكثر هو أن الفصل بين مجلس العامة ومجلس الخاصة سيرز بشكل أكثر وضوحاً في الرقة، فمثلما بيّنا ذلك في دراستنا لقصور الرقة، فإن الخاصية العامة التي ميزت تلك القصور هو الفصل بين ما هو قسم الشؤون العامة وقسم الشؤون الخاصة وذلك عن طريق ممر وضع لهذه الغاية، حيث بدت تلك القصور وكأنها "متصلة ومنفصلة" في نفس الوقت. كما لا حظنا تخصيص كل قسم منها بقاعة كبرى عادة ما تأخذ شكل الصدر والكمين والتي ربما كانت تخصص لعقد المجالس الخاصة أو العامة حسب نوعية القسم الذي تنتمي إليه.

و سيؤكد هذا الفصل بين مجلس الخاصة ومجلس العامة في سامراء إذ ستشتمل دار الخلافة، على قصرين "دار العامة"، وتعرف كذلك بباب العامة، وهي التي يجلس فيها الخليفة يوم الاثنين ويوم الخميس للنظر في المظالم، ولاستقبال الرعية،⁵ والجوسق الخاقاني الذي يمثل مقر الخليفة الخاص الذي يعيش فيه مع نسائه وينغمس فيه في شرب الخمر والغناء واللعب.⁶ وهو ما بيّناه في دراستنا لدار الخلافة في سامراء.

وسوف يتواصل هذا الفصل بين المجلس الخاص والعام، حتى بعد عودة الخلافة إلى بغداد. فعندما قدم رسول ملك الروم، على الخليفة المقتدر بغداد، تذكر المصادر، أنه أُدخل من دهليز باب العامة، ثم أوصل إلى الخليفة المقتدر الذي كان في التاج ممّا يلي دجلة، ثم أخرج من باب الخاصة إلى دجلة.⁷

¹ - Barrucand. M, « Les audiences umayyades et abbassides », *Op.Cit*, p. 7- 8- 9.

² - الطبري، تاريخ، ص 1588.

³ - الطبري، نفس المصدر، ص 1592.

⁴ - الطبري، نفس المصدر، ص 1590 - 1591.

⁵ - اليعقوبي، البلدان، ص 26؛ الطبري، نفس المصدر، ص 1851.

⁶ - Northedge. A, *The Historical Topography of Samarra*, p.148.

⁷ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، 103- 104.

نستنتج أن الخلفاء العباسيين قد خصّصوا لكل مجلس قاعة خاصة أو قصر خاص، على شاكلة الملوك الساسانيين. ولم يكتفوا بذلك بل أولوا هذه المجالس عناية فائقة لاسيما على مستوى الأثاث والذي هو من آلات الملك، ففي حديثه عن استقبال الخليفة المقتدر لرسول ملك الروم لم يكتف الخطيب البغدادي بالحديث عن الإطار المادي والوسط البشري لدار الخلافة، بل أيضا عن محتويات الدار من الأثاث والفرش والتي هي أيضا من المقومات الأساسية للمجالس الخليفة.

- 2 الأثاث والفرش:

حفلت دار الخلافة العباسية بأشكال متنوعة من الأثاث والآلات التي أثبتت ثراء وغناء الخلفاء العباسيين، فكثير من هذه الآلات كان من الذهب والفضة ومزخرفا بالأحجار الكريمة. وكان جميع هذا الأثاث مرتبا في خزانة خاصة تعرف بخزانة الفرش،¹ تلي حاجيات دار الخلافة العباسية من الأثاث، فتزودها بكل ما تحتاج إليه من البسط والستائر والوسائد والتمارق، والكراسي والأسرة والتخوت... وغيرها من سائر أنواع الأثاث. كما تشتمل على أنواع أخرى من الفرش تتخذ في الحروب والأسفار والترهات والمواكب بصفة عامة، مثل الخيام والمضارب والفساطيط والقباب... إلخ.

وكان المسؤول عن هذه الخزانة موظفا يعرف بخازن الفرش أو صاحب خزانة الفرش، مهمته ضبط الفرش كل حسب نوعه وقياسه، وتلبية ما تحتاج إليه مجالس الخلفاء من الفرش، بالإضافة إلى مختلف الدور وخاصة دور الحرم.² ويساعده في عمله هذا عدد هائل من العمال مثل الفراشين، يذكر أنه في عهد الخليفة المتوكل "كانت عدة كل نوبة من نوب الفراشين أربعة آلا فراش"،³ بالإضافة إلى الحماليين والتجّادين والفرائين والمطرزين والأعوان للسريير، إلخ...⁴

وسوف أحاول دراسة ما تحتويه هذه الخزانة من الأثاث والأدوات والآلات المختلفة اعتمادا على ما ورد في المصادر من إشارات متفرقة حول كل عنصر من هذه العناصر ومن خلال تفريغ أشكال هذه العناصر التي وردت في بعض اللوحات، فقد حفلت لوحات مجالس البلاط بالعديد من المقاعد والوسائد إلخ...

وأهم ما تحتوي عليه هذه الخزانة من أنواع الفرش:

* الستور أو الستائر، وقد اتخذها العباسيون من الديباج والخزّ والديبق، وكانوا يقومون بنقشها وتطريزها بخيوط الذهب، ويجعلون عليها كتابات عربية جليّة كآلايات القرآنية والأحاديث النبوية، وقد بلغ عدد الستائر المطرزة باسم الخليفة المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمكتفي حسب ما ذكره القاضي الرشيد، ثمانية آلاف ستر دون ذكر عدد الستائر المطرزة باسم غيرهم من الخلفاء.⁵

¹ - عبد المنعم (ماجد)، نظم القاطمين ورسومهم في مصر، ج 2، ص 20.

² - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 130-131؛ ابن حجة الحموي، كتاب ثمرات الأوراق، ص 96؛ القاضي الرشيد، كتاب الذخائر والتحف، 133.

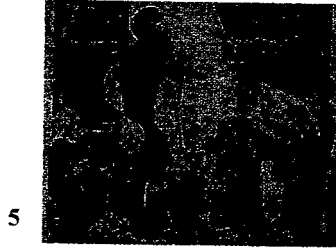
³ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص 100.

⁴ - الصابني، الوزراء، 21-22.

⁵ - القاضي الرشيد، المصدر السابق، 134.

كما كانوا يقومون بتحلية الستائر برسوم وصور حيوانات مختلفة مثل الفيلة والخيل والجمال والسباع والطيور، وغيرها من سائر الحيوانات والوحوش.¹ وكانت هذه الستائر في متناول الخلفاء وكانوا يمتلكون أعداد كبيرة منها. يذكر أنه علّق في دار الخلافة العباسية بمناسبة استقبال الخليفة المقتدر لرسول ملك الروم ثمانية وثلاثون ألف ستر من جميع أصناف الستائر، المذهبة، المطرزة، المنقوشة والمصورة.² وكانت تأتيهم من دول مختلفة مثل الصين، أرمينية، واسط، ونصيبين.³

وكانت هذه الستائر تستخدم في دار الخلافة العباسية في اتجاهين، في الاتجاه الأول فهي تعلق في القصور للزينة ولتغطية فتحات النوافذ، وفي الاتجاه الثاني تستخدم الستارة في مجلس الخليفة (خاصة مجلس الغناء) كحدّ فاصل بينه وبين وندمائه، فقد روي عن ستارة للغناء عجيبة المعنى، كانت في مجلس الخليفة الراضي.⁴ لكن لم تظهر أي صورة، لهذه الستور في رسوم سامراء، أما على الورق، ففي منمنمة من مقامات الحريري صورة، قاض جالس على عرش مرتفع، مع مساعديه عند قدميه، وأمامه أبو زيد وابنه يتشاجران، وقد أحيط المشهد بإطار وستارة، ذات ألوان مختلفة أحمر، أصفر، أخضر ومزخرفة بأشكال هندسية ونباتية بسيطة.



كذلك من ضمن الأثاث: * البسط، وهي عديدة ومتنوعة، ورث العباسيون بعضها عن الفرس، مثال البساط الفارسي المذهب الذي فرش للخليفة المنتصر ليلة قتله، وفيه دوائر في كل دائرة منها صورة الملك وتاجه وعلى كل صورة سطور مكتوبة بالفارسية.⁶ والبعض الآخر ورثوه عن الأمويين، يذكر صاحب الذخائر والتحف أن المتوكل لما عزم على إعداد ابنه المعتز، أمر أن يلتمس في خزائن الفرش بساطا للإيوان في طوله وعرضه فلم يوجد إلا فيما قبض عن بني أمية في أمتعة هشام بن عبد الملك.⁷ نلاحظ أن وراثة العباسيين للأمويين لم تشمل فقط الحكم بل شملت كذلك الأثاث.

بالإضافة إلى بسط أخرى كانت تأتي إلى دار الخلافة العباسية في الخراج سنويا، من مدن وبلدان إسلامية مختلفة، وبأعداد كبيرة، مثل البسط الأرمينية، نسبة إلى أرمينية، والبسط الميسانية نسبة إلى ميسان، والبسط الطبرية نسبة إلى طبرستان.⁸ والبسط الأفريقية، التي كان يصل منها إلى الحضرة في عهد الخليفة الرشيد مائة

¹ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 1، 102.

² - المصدر السابق، ج 1، ص 102.

³ - القاضي الرشيد، نفس المصدر، ص 134؛ الثعالبي، ثمار القلوب، ص 538.

⁴ - الثعالبي، أخلاق الملوك، ص 58-59؛ القاضي الرشيد، المصدر السابق، ص 190؛

- Mansouri. M. T, *Du voile et du Zunnar*, p. 79.

⁵ - Paris, B. N., Ms, ar.5847, fol. 114v.

⁶ - الرقيق القيرواني، المختار من قطب السرور في أوصاف الأنبياء والخمور، تونس 1976، ص 281.

⁷ - القاضي الرشيد، كتاب الذخائر والتحف، 113.

⁸ - القاضي الرشيد، نفس المصدر، ص 215-216؛ الصائغ، رسوم دار الخلافة، ص 90.

وعشرون بساطا.¹ هذا دون أن ننسى كذلك البسط التي كان يأمر الخليفة أو أحد نسائه بصنعها أو شرائها مثال البساط الذي أمرت أم المستعين بصنعه والذي يذكر أنها عملت عليه صورة كل حيوان وطائر من ذهب وأعينها من الياقوت وأنفقت عليه مائة وثلاثون ألف دينار.²

نلاحظ إذن أن خزانة الفرش كانت غنية بأصناف عديدة ونادرة من البسط التي تختلف من حيث مورد صنعها، ومن حيث أشكالها وأحجامها وقياساتها، وكذلك من حيث أنواعها فهناك البسط المبطنه وهناك المذهبة، بالإضافة إلى البسط ذات الصور الآدمية والحيوانية. كما عرف العباسيون أنواع أخرى من البسط وهي البسط المحفورة والتي كان يصل منها إلى دار الخلافة من أرمينية بين العشرين والثلاثين بساطا، وكذلك البسط الرقم أي المرقومة، والتي تصل منها خمسمائة وثمانون قطعة.³ بالإضافة إلى نوع آخر من البسط وهي الحصر، وقد اشتهرت بها بغداد وعادة ما توضع في الصحن.⁴

إلا أن هذه البسط جميعها، لم يرد لها نماذج على الصور التي وصلتنا من العصر العباسي، سواء على الورق أو الجدران أو الخزف، فيما عدا القطعة الفسيفسائية التي تعود إلى العصر الأموي والتي تم العثور عليها في قاعة الجلوس بالحمام الكبير في قصر خربة المفجر والتي تعطينا مظهرا مشابها للبساط وهي ذات أهداب وصور،⁵ لاسيما وأن العباسيين قد ورثوا بعض البسط عن الأمويين.



وقد كانت هذه البسط تغطي أرضية قصور الخلافة سواء منها الخاصة أو العامة،⁷ ووطؤها في مجلس الخليفة يعدّ رمزا للتسليم والطاعة.⁸ كما كان الخلفاء العباسيون يجلسون عليها مفردة، دون غيرها من سائر الأثاث، في المصائب (الموت) ويذكر أن الخليفة الرشيد هو أول من سنّ هذه العادة، حين أتاه خير وفاة إبراهيم بن صاحب

1- الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص 287.

2- الرقيق القيرواني، نفس المصدر، ص 282.

3- الثعالبي، ثمار القلوب، ص 538؛ الجهشيارى، نفس المصدر، ص 286.

4- الثعالبي، نفس المصدر، ص 538؛ الأصفهاني، الأغاني، ج 18، ص 248.

5- انتغهاوزن، فن التصوير عند العرب، ص 38.

6- انتغهاوزن، نفس المرجع، ص 39.

7- الأصفهاني، الأغاني، ج 16، ص 176.

8- مسكويه، المصدر السابق، ج 1، ص 82.

بن علي.¹ أما في الأيام العادية وفي المناسبات الخاصة فكانت تلقى فوقها أو توضع عليها أنواع أخرى من الفرش .

* المطارح، النمارق، الوسائد، المخدات، المساند، التكاء، والمرافق.

وهي تشكل جميعها آلات للجلوس أو للاتكاء. أما المطارح فجمع مطرح، وهو ما يجلس عليه، وقد اشتهرت بها بلاد ميسان فيقال مطارح ميسان، وكانت تتخذ من الدياج وتحشى بمحوصل الريش.² ثم النمارق ومفردها نمرق وهي الوسادة الصغيرة التي يتكأ عليها.³

أما المخدات والوسائد، فتحمل تقريبا نفس المعنى، يذكر بن منظور "والوسادة المخدة".⁴ وتستخدم تقريبا لنفس الغرض، حيث تستعمل الوسادة في بعض الأحيان للجلوس، كما تستعمل في أحيان أخرى للاتكاء.⁵ وتستخدم أيضا للنوم لاسيما في دور الخليفة الخاصة، ذكر أن الخليفة المعتضد وضع رأسه في حجر زوجته قطر الندى فنام فتلطفت في إزالة رأسه من حجرها ووسدته وخرجت من البيت.⁶

ونفس الشيء تستخدم كذلك المخدة للاتكاء، فمن أدب الندم في مجلس الخليفة أن يجلس في مرتبه " من غير اتكاء ولا استناد إلى جدار أو مخدة".⁷ وتستخدم أيضا للجلوس، ذكر أن الرشيد قعد " إلى مخدة من الدياج فجعلها تحت فخذه ثم مكن منها مرفقيه".⁸

نلاحظ أن المخدات والوسائد تستخدم في مجلس الخليفة، إما للجلوس أي كمقعد أو للاتكاء أي كمتكء. لكن المتأمل في المصادر يلاحظ اختلاف بين الوسادة والمخدة في الشكل والمضمون، إذ يبدو أن الوسادة تكون أطول من المخدة لأنها تكون قابلة للثني،⁹ أما المخدة فتكون أصغر حجم بحيث يمكن رميها. ذكر أن المتوكل كَلَمَ جاريته قبيحة فأجابته بشيء أغضبه فرماها بمخدة.¹⁰

وقد بين سادان أن المخدة عرفت تطورا في استعمالها مغايرا للوسادة، حيث كثيرا ما يقترن استخدام الوسادة بالجلوس، وقد تستخدم كذلك للنوم، أما المخدة، فقد استخدمت في البداية للنوم، مثلما يدل على ذلك الأصل الاشتقاقي للكلمة، ثم تطور استخدامها وأصبحت تلعب دور المقعد أو المتكء، وقد طغت كلمة مخدة على كلمة وسادة في بعض المناطق مثل مناطق الجيزة بالقاهرة.¹¹ ويبدو كذلك أن الجلوس على المخدة في مجلس

¹- الثعالبي، لطائف المعارف، ص 21؛ القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص 147.

²- الثعالبي، ثمار القلوب، ص 538؛ الإتيدي، إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، تونس 1981، ص 167.

³- الثعالبي، لطائف المعارف، ص 21.

⁴- ابن منظور، لسان العرب، ج 6، ص 4830.

⁵- الأصفهاني، الأغاني، ج 11، ص 166؛ المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 133.

⁶- النواجي، حلبة الكميت في الأدب والنوادر والفكاهات المتعلقة بالخمريات، القاهرة 1938، ص 27.

⁷- النواجي، نفس المصدر، ص 26.

⁸- الإتيدي، نفس المصدر، ص 82.

⁹- Sadan.J, *Le Mobilier au Proche Orient Médiéval*, Leiden 1976, p.103- 105.

¹⁰- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 10، ص 166.

¹¹- Sadan.J, *Ibid*, p. 105- 106.

الخليفة، يمثل مرتبة متميزة عن الجلوس على الوسادة، فلما بعث المتوكل في طلب إسحاق الموصلي ودخل عليه رفعه حتى أجلسه قدام السرير وأعطاه مخدة، مثلما فعل ذلك المعتصم في أول يوم جلس بين يديه.¹

كما جلس الرشيد على مخدة للاستماع إلى جميل بن معمر العذري.² وكانت المخدات والوسائد التي تلقى في قصور الخلافة العباسية من الخزّ والدياج، ومعظمها كان يأتي من طبرستان، ويوجد الآلاف منها. فقد أحصى في خزانة الفرش في عهد الخليفة الأمين حسب القاضي الرشيد "خمسة آلاف وسادة، وخمسة آلاف مخدة، وألف وسادة ومخدة خزّ وألف وسادة دياج، وألف وسادة خز رقم، وألف وسادة طبري، وألف مخدة. وحسب الغزولي" مائة ألف وسادة ميساني، وألف وسادة دياج، وألف وسادة خز مرقوم، وألف مخدة طبري".³ وكانت المخدات محشوة بريش النعام.⁴

ورغم أن العرب قد عرفوا الوسائد منذ فترة ما قبل الإسلام،⁵ إلا أن استخدامها قد تطور وأصبحت تلعب دور المقعد أو المتكأ في قصور ودور الخلفاء، دون أن تفقد دورها كأداة للنوم.

كما عرف العباسيون أنواع أخرى من الوسائد، وهي المساند، (جمع مسند)، وتستخدم للاتكاء أي كأداة يستند عليها الظهر، وقد يمسك المسند خادم بيده.⁶ ويبدو أن الكلمة قد تطورت وأصبحت تطلق اتساعاً على بعض المقاعد ذات المساند.⁷ أي الأرائك.

وقد توضع المخدات والوسائد بعضها على بعض وخلفها المسند فتصبح تشكل بذلك فرشا يجلس فوقه الخليفة. يذكر أن الخليفة الرشيد جلس "وتحتة أحد عشر فراشا خزّ أسود والوسائد والمخاد وسائر ما يقرب منه خزّ أسود.... وخلف المسند خادم يمسكه بيده لئلا يميل".⁸

ولعل ذكر المخدات والوسائد إلى جانب المسند يدل على أنها استخدمت كمقعد، في حين استخدم المسند كمتكأ. وقد أخذ العباسيون عادة الفرش عن الأمويين، فقد جلس الخليفة الوليد بن يزيد في فرش قد غاب فيها.⁹

كما استخدم العباسيون نوعاً آخر من المقاعد وهي المرفقة، وتعني المخدة.¹⁰ وكانت تستخدم للجلوس في مجالس الملوك والخلفاء، وقد ورثها العباسيون عن الساسانيين، وكانت تطرح في مجلس الخليفة في بداية الدولة

1- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 5، ص 272.

2- الإتيدي، نفس المصدر، ص 82.

3- القاضي الرشيد، المصدر السابق، ص 216؛ الغزولي، مطالع البدور في منازل السرور، ج 1، ص 33.

4- الإتيدي، نفس المصدر، ص 82.

5- Sadan.J, Ibid, p.100.

6- الغزولي، نفس المصدر، ج 1، ص 31 ظهر؛ القفطي، المصدر السابق، ص 146؛ الجهشداري، المصدر السابق، ص

274.

7- Sadan.J, Ibid, p. 107.

8- الجهشداري، المصدر السابق، ص 274.

9- الأصفهاني، الأغاني، ج 6، ص 56.

10- ابن منظور، لسان العرب، ج 3، ص 1695.

العباسية، فوق البساط، لولي العهد، وتحت البساط للوزير، تقصيرا له عن مترلة ولي العهد.¹ وقد تواصل استخدامها كذلك في مجلس الخليفة المتوكل لكن لا يذكر لأي غرض جعلت.² كما تستخدم كذلك للاتكاء، وخاصة إذا ما اقترن وجودها مع المطرح.³ وكان يوجد في خزانة الفرش في عهد الخليفة الأمين ألف مرفقة.⁴

كذلك نوع آخر من أنواع الوسائد، وهو التكاء، ويبدو أنه كان يطلق على نوع من الوسائد الوثيرة، التي كان تستخدم للاتكاء في مجلس الخليفة، فلما دخل محمد بن عمران على المأمون وجعل يأمره وينهاه، دعا له بتكاء فقال "ما كنت لأتكي في مجلسك".⁵ ويبدو أن الكلمة قد تطورت فبعد أن كانت تطلق في البداية، على العصا التي يتكأ عليها، أصبحت تطلق اتساعا على المسند أو على المقعد الذي يحمل مسندا.⁶ أي يمكن أن تكون الكلمة قد عوضت كلمة مسند، دون أن تكون قد طغت عليها.

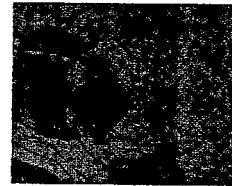
وكان التكاء يطرح في مجلس الخليفة للمقررين منه، كالذين يختصهم لموعظته، مثلما فعل المأمون مع محمد بن عمران، أو الذي يختصهم لمنادمته، فبعد أن عفا المأمون على عمه إبراهيم، دعا بالفراش وأمره أن يطرح له تكأة كلما رآه مقبلا، فكان ينادمه.⁷

هذه إذن أهم الفرش التي كانت تلقى في مجالس الخلفاء، وهي لا تمثل مقاعد في حد ذاتها، وإنما هي عبارة عن وسائد استخدمت كمقاعد أو كمساند ومتكآت، كما تدل على ذلك الأفعال التي عادة ما تقترن بها مثال فعل "طرح له مرفقة"، "طرح له تكأة"، "جعل تحته مرفقة"، إلخ....، والتي عادة لا تستعمل مع المقعد أو الكرسي، وهي تختلف من حيث الحجم والسماكة والشكل.

وقد وصلنا من خلال الصور المختلفة نماذج متعددة لهذه الوسائد التي استخدمت كمقاعد أو كمساند. مثال فقد ورد في رسوم سامراء، رسم ظهرت فيه سيدة متربعة، واضعة وسادة خلف ظهرها، وتمسك باليد اليمنى كوبا ملآن بالفاكهة (اللوحة عدد 8) . كذلك رسم لسيدة أخرى متربعة، وخلف ظهرها وسادة وهي تعزف بالعود.



8



¹ - الأصفهاني، المصدر السابق، ج 13، ص 145؛ الجهشيري، المصدر السابق، ص 125.

² - Sourdel.D, « Fragments d'Al-Suli sur l'histoire des vizirs abbassides », B.E.O, t XV, 1955-1957, p. 106.

³ - ابن منظور، لسان العرب، ج 3، ص 1695.

-Sadan.J, Ibid, p.111.

⁴ - القاضي الرشيد، نفس المصدر، ص 216.

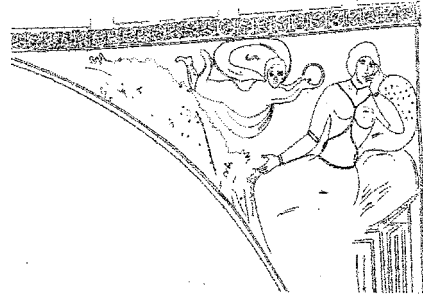
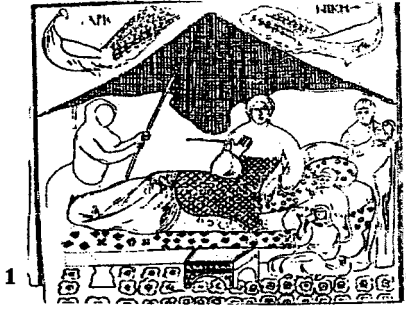
⁵ - الغزولي، المصدر السابق، ج 1، ص 32 ظهر.

⁶ - Sadan.J, Ibid, p.114.

⁷ - الأصفهاني، الأغاني، ج 10، ص 96.

⁸ - Herzfeld.E, Die Malereien von Samarra, p.23- 28.

كما نجد في رسوم قصر عمرة، صورة سيّدة جالسة على مقعد، توجد فوقه وسادة، ومتكئة بمرفقها الأيسر على مرفقة. وأيضا مشهد تظهر فيه سيّدة ذات هيئة، مستلقية على فراش، ومتكئة بمرفقها الأيسر على مرفقة أو مخدة، وقد ظهر نصفها الأعلى في هيئة ثلاثية الأرباع، والأسفل في هيئة جانبية، وتحيط بها من جوانبها المختلفة عدد من الجوارى، يظهرن بحجم أصغر منها، واحدة تقف خلف المخدة، وأخرى تذب عنها، واثنان تحت قدميها جالسة كل واحدة منهن على وسادة. وتعلو المشهد شمسية أو مظلة.



وفي الواجهة الشرقية لكنيسة أختمر بتركيا، نقش بارز من الحجارة جسّم فوقه الخليفة المقتدر (اللوحة عدد 6)، متربعا على وسادة، طويلة مزخرفة بأشكال هندسية على شكل مربعات توجد بداخلها نقاط، وطرفاها مديبان.

كما وردت نماذج لوسائد ومخدات مختلفة على الورق، وخاصة في مخطوطة مقامات الحريري التي زوّج منمنامتها الواسطي، ففي المقامة الثالثة والعشرين صورة تمثل حاكما متربعا على عرشه ويوجد خلف ظهره مخدة ضخمة مربعة، ذات زوايا حادة، وهي بدورها تستند على مسند المقعد، وقد زخرفت المخدة بزخارف نباتية، وتختلف زخرفة زواياها عن زخرفة أرضيتها.



كما ظهر حاكم آخر في المقامة الثامنة والثلاثين، متربعا على العرش وواضعا تحته وسادة مستطيلة تنتهي بسنين مديبين وخلف ظهره مخدة أخرى ضخمة، مربعة تنتهي كل زوايا منها بسن مديب ويمسك بالمخدة خادم.

¹ - Vibert- Guigue.C et Bisheh.G, *Les peintures de Qusayr 'Amra*, p.22.

² - Paris, B.N., Ms, ar.5847, fol. 64 r. (المقامة 23)



1

وتصور المقامة الثامنة والخمسون حاكما متربعا على وسادة مستطيلة وخلف ظهره مخدة أخرى ضخمة مربعة
بمسكها خادما، ومحاط بجنوده. وقد زخرفت المخدة بزخارف نباتية في شكل وريقات وتختلف زخرفة حوافها
عن زخرفة أرضيتها.



2

كما نجد في مخطوطة مقامات الحريري المعروفة باسم القديس واست كذلك صورة وال متربع على أريكة
العرش وتحت وسادة مستطيلة، وصورة قاض متربعا على وسادة مستطيلة، ومستند على وسادة أو مخدة أخرى
مربعة. وقد زخرفت الوسادتين بأشكال هندسية بسيطة.



4



3

¹ - *Ibid*, fol. 118 r.(المقامة 38)

² - *Ibid*, fol. 59 r.(المقامة 58)

³ - Paris, B .N, Ms, ar.3929, fol. 129 r.

⁴ - *Ibid*, fol. 134 r.

يتضح من خلال هذه الصور التي وردت سواء على الجدران أو على الورق، أن الوسادة التي تستخدم للجلوس عادة ما تكون طويلة ومستطيلة الشكل، وبالتالي فهي تتشابه إلى حد ما مع الوسادة التي تشير إليها المصادر والتي تكون قابلة للثني أو للطي. أما الوسائد التي يستند عليها الظهر فهي دائمة مربعة، ولعلها تمثل المخدة التي تذكر المصادر أنه لا يجوز للنديم أن يتكئ أو يستند عليها في مجلس الخليفة، أو المتكأ الذي يخص به الخليفة من يريد. ومن هنا نلاحظ نوعاً من التكامل بين النص والصورة. ففي حين أمدتنا المصادر بوظيفة كل من المخدة والوسادة والتي تستخدم إما للجلوس أو للاسترخاء، وتكون مغطاة بالخز والديباج ومحشوة بريش النعام، فقد تعرفنا من خلال الايكونوغرافيا على شكلها وزخرفتها والتي تكون إما مربعة أو مستطيلة وذات زوايا حادة، ومزخرفة بأشكال نباتية وهندسية.

ومن هنا نلاحظ أن هذه الوسائد والمخدات تمثل في الظاهر مقاعد ومكآت، ولكنها في الواقع تمثل مراتب لرواد المجلس يجلسون فيها حسب مرتبتهم أو منزلتهم.¹ وبالتالي فإن الستائر والبسط والمخدات والوسائد بالإضافة إلى دورها كأثاث وفرش يعلق وتزين به دار الخلافة، فهي تمثل عنصراً أساسياً من عناصر الرسوم والتشريفات.

¹ - الشابشتي، الديارات، ص 151.

III- المراسم والتشريفات

تمثل المراسم المتبعة في مجالس الخلفاء، إحدى المقومات الأساسية لحياة الخلفاء العباسيين اليومية سواء منها الخاصة أو العامة. وقد أولاها الخلفاء العباسيون العناية الفائقة فأحاطوها بكل مظاهر الفخامة والأبهة. والمراسم والرسوم جمع رسم وتعني الشيء الذي يبقى على السير يوما وليلة، ويقال رسمت له كذا فارتسمه، إذا امتثله.¹ وقد تطور استعمالها فيما بعد وأصبحت تطلق على مجموعة العادات والطقوس والتشريفات المتبعة في مجالس الملوك (الخلفاء) وكذلك أثناء مسائرتهم في الموكب.² وتستخدم كلمة مراسم للدلالة على ثلاثة معان أساسية بالفرنسية وهي: « cérémonial, protocole, et étiquette ». وللدلالة على مراسم البلاط العباسي استخدمت المصادر كلمة، "رسوم دار الخلافة"، "رسوم المملكة" كذلك كلمة "ترتيب الخلافة"، و"الترتيبات" و"قواعد الخلافة".³ فالسلطة السياسية لا تتجلى فقط من خلال القصور والمدن، بل تتمظهر أيضا من خلال كل الرموز التي تكتسب بها شرعيتها والمراسم التي تعكس بها تواجدتها وحضورها. وقد لعبت عوامل عديدة منها ميل العباسيين لمظاهر الترف والبذخ والذي لاحظناه خاصة في دراستنا لأثاث دار الخلافة والمتمثل في الإكثار من الفرش والآلة، بالإضافة إلى دخول عناصر جديدة أجنبية للبلاط العباسي في بلورة نظام المراسم والآداب. فقد نتج عن اعتماد العباسيين على الفرس خاصة في مجال الإدارة دخول العادات والتقاليد الساسانية للبلاط العباسي، وقد كان الفرس من أسبق الحضارات في مجال المراسم والتشريفات. كما ساهم الترك الذين استقدمهم الخلفاء العباسيون من غرب تركستان بدورهم في إدخال التأثيرات التركية على مراسم البلاط العباسي بما أضافوه من عادات شملت خاصة ميدان اللباس. كما كان للبيزنطيين أيضا تأثيرا في تكوين مراسم البلاط العباسي، وذلك ربما عن طريق السفراء، الذين حملوا إلى قصور الخلفاء العباسيين البعض من عاداتهم وتقاليدهم، أو كذلك عن طريق النساء الروميات.⁴ وبالإضافة إلى ذلك فقد اتبع العباسيون عادات ملك إسلامي ورثوا البعض منها عن طريق الأمويين، والبعض الآخر عن طريق الرسول والخلفاء الأوائل. ولا بد أن نشير في النهاية إلى أن مراسم البلاط العباسي لم تأخذ شكلا واحدا أو نظاما ثابتا، وإنما شهدت تطورا من عصر إلى آخر، وذلك طبقا للأحداث السياسية التي كانت تمر بها الخلافة العباسية، وهي ترتبط بصفة عامة بترتيب المكان أي هيئة المجلس، وبشارات السيادة أو الملك والتي تختلف حسب طبيعة المجلس خاص أو عام، فضلا عن جلوس الخليفة وهيئته وكيفية استقباله للوافدين عليه.

¹ - ابن منظور، لسان العرب، ج 3، ص 73.

² - Burton- Page. J, sv « Marasim », E.I, t IV, p.502- 503 ;

- النعيمي (سليم)، " المراسم والتشريفات"، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج 22، 1973، ص 157.

³ - الصباي، رسوم، ص 5؛ الخزرجي، المسجد المسبوك في سيرة الخلفاء والملوك، ج 2، مخطوط بدار الكتب الوطنية بالقاهرة، 3863 تاريخ، (رقم الميكروفيلم 1701)، ج 2، ص 2.

⁴ - Mansouri (T. M), « Les femmes d'origine byzantine/ les roumiyyat sous les abbassides : une approche onomastique », Op. Cit, p. 183.

لكن مهما اختلفت طبيعة المجلس توجد بعض المقومات الثابتة التي لا تتغير والتي تتمثل أساسا في حضور الخليفة، الذي أصبح يمثل قاعدة أو رسما أساسيا من رسوم البلاط العباسي وتقاليده، فبدونه لا انعقد المجلس ولا يأخذ صفة الرسمية، لأنه هو من يضفي عليه صفة الشرعية وذلك بما يحمله من مظاهر العظمة والفخامة والأبهة. أما المحيطون به من الأهل والأولاد والحاشية من الوزراء والقادة، والمغنيين والشعراء إلخ.. فهم يمثلون أصحاب المراتب، يدخلون ويجلسون كل حسب مرتبته في المجلس مركزين بذلك نظام المراسم الذي يختلف حسب طبيعة المجلس خاص أو عام، وعادة ما تسبق عملية انعقاد المجلس هيئة المجلس.

1- تهيئة المجلس:

يبدو واضحا من المصادر العناية الفائقة التي كان يوليها الخليفة العباسي لتحلية مجلسه وتزيينه بشتى أنواع الفرش، والتي تتمثل بالأساس في البسط الفاخرة، والستائر المطرزة بالذهب والنمارق والوسائد المحشوة بريش النعام إلخ...، وقد قلّد العباسيون في ذلك الفرس.¹ ويبدو أن فرش المجلس لم يبق على حاله وإنما شهد تطورا في القرن الرابع هجري حيث أصبح يفرش بالفرش الأرمن صيفا أو شتاء.² ولعل المكون اللافت للانتباه في فرش المجلس هو:

* السريّر ويسمى كذلك التخت،³ وهو ما يعرف بالعرش في الحضارات الشرقية.⁴ كذلك للدلالة على السريّر استعملت المصادر في القرن الرابع الهجري كلمة كرسى.⁵ وهنا لا يجب الخلط بين هذا الكرسي المرتفع الذي ظهر في القرن الرابع هجري والذي لا يعدو أن يكون السريّر، وبين الكرسي الذي كان يجلس عليه الخليفة في بداية الدولة العباسية، في بعض الأماكن غير الاعتيادية كالساحة مثلا والذي يعود إلى جذور ساسانية، كما استخدمه كذلك الأمويون وهو عبارة عن مقعد بدون ظهر، ويختلف عن السريّر في كونه متحرك وأقل ثبات.⁶

كان الخليفة العباسي إذن يجلس على السريّر، وهو أحد رموز الملك لدى الأباطرة البيزنطيين وملوك الفرس والحيرة والغساسنة كما استخدمه كذلك الخلفاء الأمويون،⁷ حيث تذكر المصادر أن معاوية بن أبي سفيان هو أول خليفة اتخذ السريّر في الإسلام، ذلك أنه بدن فاستأذن أصحابه في اتخاذ شيء يجلس عليه للاستراحة،

¹ - كريستنسن (أرثر)، *إيران في عهد الساسانيين*، ص 380.

² - الصابيّ، رسوم، ص 90.

³ - القلقشندي، *صبح الأعشى في صناعة الإنشاء*، ج 2، ص 140.

⁴ - Lewis (B), *Le langage politique de l'islam*, Gallimard 1988, p. 42 ; Sourdel. D, « Questions de cérémonial abbasside », *Op.Cit*, p.131.

⁵ - الصابيّ، *نفس المصدر*، ص 90.

⁶ - Grabar.O, « Notes sur les cérémonies umayyades », *Studies in Memory of Gaston Wiet / Jerusalem*, 1977, p.54; Sourdel. D, *Ibid*, p.130.

⁷ - ابن خلدون، *المقدمة*، ص 293؛ بن حسين (بثينة)، *الدولة الأموية*، ص 234؛

- Grabar.O, *Ibidem*, p.54

فأذنوا له في ذلك.¹ أي أنه أراد أن يقلد الملوك الأعاجم، وقد اقتدى الخلفاء به من بعده، كما استعمل العباسيون السرير منذ بداية الدولة العباسية وطيلة العهد العباسي واستعمله كذلك أعوانهم.² وصار السرير من رموز الملك الإسلامي.

وقد اتخذ الخلفاء أسرهم إما من أبنية الرخام، أو من الخشب، أو من فرش محشوة،³ فقد جلس الرشيد جلوسا عاما بطوس وتحتة أحد عشرة فراشا خزًا أسود.⁴ ودخل الفقهاء على المأمون وهو جالس على فراشه، فلما استقر بهم المجلس تحدر عن فراشه.⁵ ويمكن هذا النوع من السرير الخليفة من الجلوس والتمدد في نفس الوقت.⁶ لذلك فقد وصف ابن خلدون السرير، بالأعواد المنصوبة أو الأرائك المنضدة التي يجلس عليها الخليفة.⁷ أي أن السرير يمكن الخليفة أن يجلس بمجلسه مرتفعا عن أهل المجلس. وقد وصل ارتفاع السرير في العصر العباسي إلى درجة أنه احتيج في بعض الأحيان إلى التقصير منه بسبب قصر بعض الوزراء.⁸

كما اتخذ العباسون نوعا آخر من الأسرة وهو السرير الطويل الذي يتسع لشخصين، حتى يتسنى للخليفة أن يجلس معه شخص يختصه. فقد كان الخليفة الرشيد يجب دائما أن يجلس إلى جانبه أخته عليه على السرير إلا أنها تأتي ذلك احتراماً لأمة الخلافة.⁹ كما كان الخليفة المأمون يجلس معه على السرير ولي عهده علي الرضا.¹⁰ وكان الخليفة الواثق يجلس على سرير في دار الحرم وإلى جانبه جاريتة فريدة.¹¹ كما جلس المعتز والمهتدي معا على السرير.¹² وقد استعمل الأمويون هذا النوع من السرير بكثرة،¹³ ولئن تواصل هذا النوع من السرير في العصر العباسي فبصفة أقل، ويرتبط هذا النوع من السرير بطريقة الجلوس الشرقية.¹⁴

ولم نعر في المآثر التي تعود إلى العصر العباسي، إلا على صورة واحدة للسرير تعود إلى فترة متأخرة وتقع في الصفحة الثانية من مخطوط مقامات الحريري (نسخة الواسطي) بدار الكتب القومية بباريس، والتي تمثل صورة لخليفة عباسي لعله المستنصر بالله (اللوحة عدد 8)، وقد جلس متربعا على سرير مرتفع، والذي لا يغدو أن يكون إلا الكرسي المرتفع الذي ظهر في القرن الرابع هجري والذي كان يجلس عليه الخليفة في دست كامل أرميني والذي أشار إليه أبو هلال الصائغ.¹⁵

¹ - القلقشندي، مآثر الأنافة، ج 2، ص 228.

² - الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص 314؛

- Sourdel. D, « Questions de cérémonial abbasside », *Op. Cit*, p.130.

³ - القلقشندي، صبح الأعشى، ج 2، ص 141.

⁴ - الجهشيارى، نفس المصدر، ص 272.

⁵ - ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج 5، ص 92.

⁶ - Lewis (B), *Op. Cit*, p. 42

⁷ - ابن خلدون، المقدمة، ص 293.

⁸ - الثعالبي، لطائف المعارف، ص 113.

⁹ - الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص 55.

¹⁰ - ابن العمراني، الإنباء، ص 98.

¹¹ - السيوطي، المستطرف، ص 49.

¹² - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 178.

¹³ - الأصفهاني، الأغاني، ج 17، ص 174؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج 1، ص 61.

¹⁴ - Sadan. (S), *Le Mobilier au Proche Orient médiéval*, p.36- 37.

¹⁵ - الصائغ، رسوم، ص 90.

أما السرير الطويل الذي يتسع لشخصين فلم نعث له على أي نموذج سواء فيما ما وصلنا من مآثر تعود إلى العهد الأموي أو العباسي، فالسرير الذي يبرز من خلال رسم قصير عمرة (اللوحة عدد 18) هو سرير يتسع لشخص واحد، ونفس الشيء بالنسبة للتمثال الذي عثر عليه في قصر الحير الغربي والذي لم يبق منه إلا نصفه السفلي (اللوحة عدد 20)، فهو يجسد صورة خليفة جالس على سرير لشخص واحد. وهو سرير على الطريقة البيزنطية.¹ وقد عثرنا على نموذج له في اللوحة التي تقع في الصفحة عدد 25 من كتاب الحشائش وخواص العقاقير بالمكتبة السلیمانیة باسطنبول (اللوحة عدد 35)، والتي تمثل الديوسقوريدس الروماني، وهو جالس على أريكة عرش من الطراز البيزنطي. وكذلك في صورة مستخرجة من مخطوط بيزنطي تظهر الإمبراطور، Nicéphore III Botaniat (اللوحة عدد 26) وهو على كرسي العرش. كما نجد كذلك - كرسي العرش - في مخطوط بيزنطي آخر وقد وضع في صدر قاعة العرش التي انعقد فيها المجمع الديني لسنة 381 م (اللوحة عدد 29)، وهو يشبه السرير الذي تجسده الايكونوغرافيا الأموية.

أما السرير الذي يتسع لشخصين والذي تشير إليه المصادر، فقد عثرنا له على نماذج في المآثر التي تعود إلى العهد الساساني، والتي نراها في العديد من الأواني الساسانية، أهمها الطبق المزخرف بقطع الزجاج المحفوظ في الخزينة المالية بباريس، والذي نحت عليه الملك كسرى الأول (اللوحة عدد 22) جالسا على أريكة متسعة يحملها حماران وحشيان، ونفس الصورة جسمت فوق طبق آخر (اللوحة عدد 23) جلس فيه كسرى على أريكة من نفس الطراز متسعة ويحملها حمارين وحشيين، لكن تحيط به حاشيته.

وقد بقي هذا المشهد مسيطرا على المآثر الفارسية التي تعود إلى العصر العباسي، فقد نقش على طبق من الذهب والفضة عثر عليه في طبرستان، يعود إلى القرن الثامن ميلادي (اللوحة عدد 33)، أحد الخلفاء وقد جلس القرفصاء على أريكة من الطراز الساساني ولكنها قصيرة القامة، كما أجلس إلى جانبه شخصا آخر، ويبدو أن الخلفاء كانوا يستخدمون هذا النوع من الأسرة في مجالس الأنس والغناء والطرب مثلما تدل على ذلك صورة العازفين والراقصات التي تحيط بالخليفة. وهو ما نراه أيضا في المنمنمة المستخرجة من مخطوط الأغاني نسخة الرباط (اللوحة عدد 39)، وقد جلس فيها الحاكم على أريكة متسعة وأجلس إلى جانبه محضيته.

فالتشابه والقرابة بين الأريكة الساسانية والسرير الطويل الذي يتسع لشخصين والذي نتحدث عنه المصادر يبدو واضحا، ويزداد وضوحا في العلبه من العاج التي تعد من أهم المآثر الإسلامية التي ترجع إلى العصر الأموي في الأندلس (اللوحة عدد 30)، والتي جسّم فوقها الأمير المغيرة جالسا على أريكة عرش طويلة يحملها أسدان وإلى جانبه رجل آخر وبينهما امرأة تعزف. ويبين هذا التشابه اعتماد الأمويون في الأندلس على التعابير الفنية السائدة لدى الساسانيين.

لكن هذا لم يمنع من استخدام الساسانيين لأريكة العرش المتسعة لشخص واحد والتي نجدها في طبق من الفضة يعود إلى القرن التاسع ميلادي، جسّم فوقه ملكا متربعا على العرش، ورغم انتماء الطبق إلى العصر العباسي،

¹ - Grabar. O, *Ceremonial and art at the Umayyad court*, Princeton University, 1955, p. 31.

فإنه يمثل إحياء للتراث الفارسي الساساني القديم، والذي لاحظنا أنه ظلّ مسيطرا على العديد من الرسوم التي تعود إلى العصر العباسي سواء منها على المرسومة على الورق أو المنقوشة على المعادن. كما استخدم البيزنطيون بدورهم أريكة العرش المتسعة لشخصين والتي نراها في عدد من الميداليات التي نقش عليها الإمبراطور والإمراطورة وقد جلسا مع بعض على أريكة العرش، مثل كرسي العرش الذي جلس عليه الإمبراطور Justin II والإمراطورة (565- 578) Sophie.



1

نلاحظ وجود نوعين من الأسرة، السرير الطويل على طراز أريكة العرش الساسانية والذي يتسع إلى شخصين أو أكثر، وقد أشارت إليه المصادر لكننا لم نعثر له على أي نموذج إلا في علبة المجيرة، وفي بعض الأواني التي تعود إلى العصر الساساني أو التي تنتمي إلى المجال الفارسي الإسلامي عامة. والسرير على طراز أريكة العرش البيزنطية، الذي يتسع إلى شخص واحد، والذي حفظت لنا الإيكونوغرافيا نماذج منه في رسم الخليفة في قصر عمره وكذلك في تمثال الخليفة الجالس في قصر الحير الغربي، وأيضا في بعض المخطوطات العربية التي حافظت على بعض الأساليب الفنية البيزنطية مثل مخطوط ديوسقوريدس.

وبناء على ما سبق يمكن القول بأن الخلفاء العباسيين، استخدموا نوعين من الأسرة، السرير الذي يتسع إلى شخص واحد أي على طراز أريكة العرش البيزنطية، في المجالس الرسمية والعامة، والتي كان الخليفة يستقبل فيها أفراد الرعية والأمراء وسفراء الدول الأجنبية.² أو قد يجلس الخليفة كذلك في المجالس العامة على فرش مرتفعة، مثلما فعل الرشيد عندما جلس جلوسا عاما بطوس على أحد عشر فراشا.³ ومن الخلفاء أيضا من كان يجلس على اللبود للنظر في المظالم العامة، مثلما كان يفعل المأمون وعلى الحضر في الصيف.⁴

¹ - Longuet. H, *Introduction à la Numismatique Byzantine*, p. 27, Plate II, n 20.

² - القاضي الرشيد، المصدر السابق، ص 137؛ الصابى، رسوم، ص 80.

³ - الجهشيارى، نفس المصدر، ص 272.

⁴ - ابن طيفور، كتاب بغداد، ص 36- 61؛ الرقيق القيرواني، المختار من قطب السرور، ص 235.

أما السرير الطويل أي على طراز أريكة العرش الساسانية فقد استخدمه العباسيون في المجالس الخاصة، فقد كان الواثق يجلس على سرير ومعه فريدة وهي تغنيه، ومن بعده المتوكل.¹ وهو ما نجده كذلك في علبة المجيرة، وما تبرزه لنا أيضا مشاهد اللهو والطرب والغناء التي عثرنا عليها منقوشة على الأطباق الساسانية.

كما استخدم العباسيون أيضا في المجالس الخاصة الكرسي قصير القامة، مثلما تدل على ذلك الميدالية التي جُسم فوقها المقتدر (اللوحة عدد 3) والمحفوفة بمتحف برلين، وقد جلس فيها المقتدر على كرسي قصير ماسكا كأسا بيده، أما ظهر المسكوكة فقد حُسمت فوقه جارية وهي تعزف على العود وقد جلست على كرسي يشبه كرسي الخليفة لكنه بدون أرجل، وبنفس هذه الهيئة وهذا الشكل برز الطائع لله في الميدالية التي جُسم فوقها (اللوحة عدد 4) والمحفوفة بالمتحف الأثري باسطنبول. وقد يجلس الخليفة أيضا على وسادة في المجالس الخاصة وهو ما نراه في اللوح الكبير في الواجهة الشرقية لكنيسة أختمر بتركيا، والذي نقش عليه الخليفة المقتدر أيضا متربعا على وسادة ماسكا بيده اليمنى كأسا، وقد أشارت أوتو دورن إلى الأصول التركية لهذه الجلسة وبأنها ترقى إلى أواسط آسيا.² مما يدل على تأثير تركي إلى جانب التأثير الفارسي والبيزنطي.

ومن ثمة يكون العباسيون قد استخدموا السرير الذي يتسع إلى شخص واحد، والفرش المرتفعة في المجالس العامة، والسرير الطويل الذي يتسع إلى شخصين والكرسي قصير القامة والوسادة في المجالس الخاصة.

ولم يكتف العباسيون بذلك بل درجوا أيضا إلى تزيين أسرهم بالذهب، وكسوها بأفخر أنواع الديباج والحرير،³ كما عمدوا أيضا إلى وضع المخدات والوسائد على السرير للجلوس عليها أو الاتكاء،⁴ وقد تأثروا في ذلك بالأمويين وهو ما نراه في الرسم الجداري في قصر عمرة والذي يظهر فيه الخليفة وقد جلس على السرير ووضع تحته وسادة، كما جلس الخليفة في المنمنمة المستخرجة من مقامات الحريري متربعا على العرش وتحتة مخدة. ولعل القصد من استخدام المخدات والوسائد هو تمكين الخليفة من الاسترخاء والاتكاء في مجلسه، وقد اقتدى العباسيون في ذلك بالأمويين الذين قلّدوا بدورهم الفرس والبيزنطيين، لكن في حين استخدم البيزنطيون وسادة واحدة فإن الساسانيين استخدموا عدة وسائد للجلوس عليها والاتكاء أو كي يقدموها كهدية شرفية لمن يخصوه من الحاضرين في المجلس.⁵ كما استخدم العباسيون بدورهم أكثر من وسادة، فقد جلس الرشيد بطوس على مطرح خزّ أسود وهو متكئ على مخد.⁶

ولتوفير أقصى ما يمكن من وسائل الراحة للخليفة، فقد جعلوا له كذلك مصطبة يضع عليها قدميه وذلك بحكم ارتفاع السرير، وكان يصعد إليها بدرجة أو اثنتين. كما كان الهدف منها أيضا أن يصعد الرجل درجة أو

¹ - السيوطي، المستظرف، ص 49.

² - Otto- Dorn. (K), *L'Art de l'Islam*, Paris 1964, p. 83- 89.

³ - الصابئ، رسوم، ص 90.

⁴ - الاتليدي، إعلام الناس، ص 82.

⁵ - Grabar. O, *Ceremonial and art at the Umayyad court*, p. 32.

⁶ - ابن العمراني، نفس المصدر، ص 87.

درجتين ويسلم على الخليفة أو يبايعه.¹ ونجدها في رسوم وصور كل الأسرة التي جسّمت على الطريقة البيزنطية. كما كان يحيط بالسرير البساط والذي عادة ما يكون من الدياج.² وكان السرير ينصب في صدر المجلس وفي مكان مرتفع يعرف بالدست.³ وعادة ما يوضع في السدلي، وهي كلمة فارسية معربة وتعني قبة في ثلاث قباب متداخلة.⁴ ولم نعثر فيما وصلنا من مخلفات أثرية ورسوم تعود إلى العصر العباسي على أي صورة للسدلي، عدى الصورة المستخرجة من مخطوط جامع التواريخ والتي تبرز هولاء وقد جلس على وسادة وداخل قبة لعلها السدلي.

كما كان ينصب أمام السرير ستارة من الحرير. وكان لها موظف خاص بها يعرف بصاحب الستارة مهمته مدّ أو رفع الستارة.⁵ وقد استخدم العباسيون الستارة على شاكلة الخلفاء الأمويين والذين قلّدوا بدورهم الملوك الساسانيين.⁶ ولم يكن الخليفة فقط يجلس خلف الستارة بل كذلك أعوانه بصفته ممثلين له في ردّ المظالم، وذلك عدى يحيى البرمكي وأبنائه الذين كانوا يجلسون للمظالم دون أن يحجب عنهم أحد.⁷ وتظهر لنا منمنمة مستخرجة من مخطوط مقامات الحريري (نسخة الواسطي)، قاضيا وقد جلس على كرسي مرتفع، وخلف ستارة قد رفعت. ولعل الهدف من استخدام الستارة في المجالس العامة هو حجب الخليفة عن الرعية. أما في المجالس الخاصة فقد اختلفت عادات الخلفاء العباسيين في الجلوس خلف أو بدون ستارة. فمن الخلفاء من ظهر للندماء ثم احتجب عنهم مثل السفاح، ومنهم من لم يظهر للندماء والمغنيين ويستمع إليهم إلا من خلف الستارة مثل أبي جعفر المنصور، فقد كان بينه وبين الستارة عشرون ذراعا وبين الستارة والندماء مثلها، وكذلك الرشيد كان لا يطرب إلا من وراء الستارة، ومن الخلفاء من احتجب عن الندماء ثم ظهر مثل المهدي، ومن الخلفاء من لم يحتجب قط مثل الأمين.⁸ يرتبط استخدام الستارة في المجالس الخاصة بمدى حب الخليفة للظهور أو الاحتجاب. ويشير عبد الله شيخ موسى إلى أن هذه الستارة لا تعني مجرد ستر rideau، وإنما هي عبارة عن سرادق، أو كشكة أو قاعة للغناء.⁹

أولى الخلفاء العباسيون تهمة بحالهم عناية فائقة على شاكلة ملوك الفرس والأباطرة البيزنطيين، والتي اختلف في ترتيبها حسب طبيعة المجلس الخاصة أو العامة. ولعل الهدف من ترتيب المجلس هو أن يدّل فرش

¹ - الصابئ، نفس المصدر، ص 82.

² - الجهشيار، نفس المصدر، ص 225؛ الاتليدي، إعلام الناس، ص 166.

³ - الصابئ، نفس المصدر، ص 90.

⁴ - الصابئ، نفس المصدر، ص 16 (انظر الحاشية) - 80 - 81 - 90.

⁵ - الصابئ، نفس المصدر، ص 91؛ الجهشيار، نفس المصدر، ص 315 - 132؛

⁶ - Sourdel. D, « Questions de cérémonial abbasside », *Op.Cit*, p.132; Grabar.O, « Notes sur les cérémonies umayyades », *Op.Cit*, p.55.

⁷ - الجهشيار، نفس المصدر، ص 177؛

- Sourdel. D, « Questions de cérémonial abbasside », *Op.Cit*, p.132.

⁸ - الثعلبي، أخلاق الملوك، بيروت، 2003، ص 58 - 76.

⁹ - Cheikh- Moussa. A, « La négation d'éros ou li 'isq d'après deux épîtres d'al- Gahiz », *Studia Islamica*, fasc LXXII, paris, MCMXC, p. 96.

المجلس على وجاهة صاحب المجلس الذي هو الخليفة عقب الرسول محمد. فهو مثلما لا يقبل أن يكون هناك شخص أكثر وجاهة ونسب منه، لا يقبل أيضا أن يكون هناك مجلس أشد نفاسه من مجلسه. فقد أراد الخلفاء العباسيون أن يكسبوا مجلسهم صفة الفرادة، تلك الفرادة التي تأكدت خاصة عن طريق السرير الذي أشير إليه بأنه مرتفع وفي دست، فهو إذن يرمز إلى الخلافة والملك، وإلى كل ما يتصل بالسيادة والعرش، تلك السيادة التي لا تكتمل إلا بتوفر مجموعة من الرموز الأخرى.

2- شارات السيادة أو الملك:

هي من القواعد الأساسية للرسوم، وتمثل في رموز الخلافة التي كان يلبسها أو يحملها الخلفاء العباسيون في المناسبات المختلفة، كأخذ البيعة والجلوس إلى المظالم والخروج إلى الصلاة والغزو والحج إلخ...، وهي التي بها تكون شرعية المنصب أو الخلافة.

فقد حرص الخلفاء العباسيون في ترسيخ حكمهم على تميزهم بمجموعة من الشارات التي تحدد تفردهم وترسم معالم المسافة التي تفصل بينهم وبين حاشيتهم من جهة وبين رعاياهم من جهة أخرى. وقد ورث الخلفاء العباسيون البعض من هذه الشارات عن الرسول والخلفاء الأوائل والخلفاء الأمويين، والبعض الآخر عن ملوك الفرس والأباطرة البيزنطيين. كما اتخذوا أيضا شارات ملك تركية.

شارات الملك الإسلامية

وتمثل بصفة عامة في أن يكون للخليفة العباسي بردة الرسول محمد فيضعها على كتفيه، وأن يكون له سيفه فيقلده وقضيه فيمسكه بيده، وأن يكون بين يديه أيضا مصحف عثمان.¹ فهي إذن كلها رموز ملك إسلامي وهي بالأساس وراثية وقد شهدت تطورا من العصر العباسي الأول إلى الثاني.

فقد ذكرت البردة والقضيب مع الخاتم منذ بدايات الخلافة العباسية حيث كان كل خليفة عباسي يتلقى عند توليته البردة والقضيب مع الخاتم، فلما توفي المنصور بعث موسى بن المهدي والربيع، بقضيب الرسول وبردته إلى المهدي مع الحسن الشروي، وبعث له أبو العباس الطوسي بخاتم الخلافة مع منارة.² وإثر وفاة المهدي أنفذ الرشيد نصير مولاه إلى الهادي بالقضيب والبردة والخاتم.³ وسار رجاء الخادم إلى الأمين إثر وفاة الرشيد بالبردة والقضيب والخاتم.⁴

وكان الخلفاء الأمويون يتلقون عند توليتهم في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك الخاتم مع العصا.⁵ أما ملوك فارس فكانوا يتلقون عند تنصيبهم الخاتم مع الصولجان، ويمكن أن نشير هنا على وجه التحديد إلى نقش

¹ - الصابئ، رسوم، ص 90-91.

² - الطبري، تاريخ، ص 1607.

³ - الطبري، نفس المصدر، ص 1638.

⁴ - السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 234.

⁵ - بن حسين (بثينة)، نفس المرجع، ص 234.

تنصيب أردشير الأول بواسطة الإله أهورا مزدا، (نقش رستم)، الذي يرجع إلى الربع الثاني من القرن الثالث ميلادي، والذي يظهر فيه الملك والإله وقد امتطيا جوادين وتقدم كل منهما نحو الآخر. وقد أمسك الإله باليد اليسرى صولاجانا ومادا باليمنى الخاتم إلى الملك الذي يتلقاه باليد اليمنى، وهو رافع اليد اليسرى.¹ وكان أباطرة بيزنطة يتلقون عند تتويجهم التاج من قبل بطريق القسطنطينية.² وهي كلها رموز للملك. أما في العصر العباسي فقد أصبح شعار الخلافة القضيبي والبردة والخاتم.³ وبذلك يكون الخلفاء العباسيون قد طوروا أحد رموز الملك الإسلامي.

أما الخاتم، فهو من الخطط السلطانية والوظائف المملوكية على حدّ تعبير ابن خلدون.⁴ ويذكر أن أول من اتخذ الخاتم في الإسلام الرسول محمد. وعن سبب اتخاذه أنه أراد أن يكتب إلى أحد الملوك الأعاجم كتابا، فقليل له أنهم لا يقرؤون كتابا غير محتوم، فاتخذ خاتما من فضة، ونقش عليه اسمه " محمد رسول الله"، ثم اتخذه من بعده أبي بكر، فعمر، إلى أن وقع من عثمان في بئر.⁵ وصار الخاتم منذ ذلك الوقت من تقاليد الحكم الإسلامي، فقد اتخذ الخلفاء الأمويون، ومن بعدهم العباسيون، وصار لكل خليفة عباسي خاتم عليه نقش يتميز به عن نقش الخليفة الذي سبقه، وعلى سبيل المثال، فقد كان نقش الخليفة السفاح " الله ثقة عبد الله وبه يؤمن"، وكذلك نقش خاتم المنصور، أما نقش الخليفة المهدي فكان " الله ثقة محمد وبه يؤمن"، والمهدي " الله ربي"، ونقش خاتم الرشيد " بالله يثق هارون"، والأمين " نعم القادر الله" وقيل " سائل الله لا يخيب" والمأمون " الله ثقة عبد الله وبه يؤمن".⁶

وتشهد هذه النقوش عن الحضور الثابت والمستمر للإله، مع الحرص على التأكيد على مختلف خصاله، كما تبرز لنا كذلك طبيعة العلاقة التي تربط بين الإله وصاحب الخاتم أو ما يعنيه الإله بالنسبة لصاحب الخاتم.⁷ كما عمد بعض الخلفاء إلى نقش أسمائهم على خواتيمهم مثل الخليفة القاهر بالله الذي كان نقش خاتمه "القاهر بالله"، والمتقي نقش خاتمه "المتقي بالله" ونقش خاتم المستكفي "المستكفي بالله أمير المؤمنين".⁸ وتعود هذه النقوش ذات الطابع الديني إلى جذور ساسانية، لكن الاختلاف بينها وبين النقوش الإسلامية يتمثل في كونها لا تتوجه إلى آلهة مازدية، وإنما إلى إله واحد، مع المحافظة دائما على نفس الأدعية كطلب الحماية،

¹ - Godard . A, *L'Art de l'Iran*, p. 204, Pl. 98 ;

كريستنسن (أرثر)، *إيران في عهد الساسانيين*، ص 78-79.

² - Yannopoulos, « Le couronnement de l'empereur à Byzance : rituel et fond institutionnel », *Byzantion*, t LXI, 1991, p. 75.

³ - Sourdel. D, « Questions de cérémonial abbasside », *Op.Cit*, p.133 ; CANARD.M, « Le Cérémonial Fatimide et le Cérémonial Byzantin, Essai de Comparaison », *Byzantion*, t XXI, 1951, p. 389.

⁴ - ابن خلدون، *المقدمة*، ص 297.

⁵ - القلقشندي، *صبح الأعشى*، ج 3، ص 289، ج 2، ص 139.

⁶ - المسعودي، *التنبيه والإشراف*، ص 340-342-343-345-346-352.

⁷ - Gignoux. PH et Kalus. L, « Les formules des sceaux sasanides et islamiques : continuité ou mutation ? », *Studia Iranica*, t 11, 1982, pp. 137- 138.

⁸ - المسعودي، *نفس المصدر*، ص 352-360-361.

وإعطاء الثقة المطلقة للإله.¹ وكان للخاتم في العصر العباسي ديوان يعرف بديوان الخاتم، يترأسه موظف يعرف بصاحب ديوان الخاتم.² ولم نعثر في المخلفات الأثرية التي تعود إلى العصر العباسي على أي خاتم، عكس العملة التي وصلتنا منها نماذج.

أما البردة فهي بردة الرسول، وقد اختلف في طريقة وصولها إلى الخلفاء العباسيين. فقد جاء في بعض الروايات أن الخليفة العباسي الأول أبا العباس السفاح اشتراها من أهل أيلة بثلاثمائة دينار، وكانت عندهم لأن الرسول أعطاهما لهم مع كتابه الذي كتب لهم فيه أمانا.³ أي أن البردة انتقلت من أهل أيلة إلى العباسيين. أما الرواية الثانية فتذكر أن الرسول لم يعطها إلى أهل أيلة وإنما ألبسها للشاعر كعب بن زهير عندما مدحه بقصيدته "بانت سعاد فقلبي اليوم متبول..". ولما تولى الخليفة معاوية بن أبي سفيان الخلافة كتب إلى كعب ليشتري منه البردة بعشرة آلاف دينار فأبى، ثم لما توفي كتب إلى أولاده واشتراها منهم بعشرين ألف درهم وقيل بعشرة آلاف درهم وأخذ البردة.⁴ أي أن البردة حسب هذه الرواية انتقلت من الأمويين إلى العباسيين. لكن مهما يكن الأمر فإن المصادر لا تذكر أن البردة كانت من ألبسة الخلفاء الأمويين الرسمية، كذلك لم تكن البردة من تركة الرسول.

كما اختلف أيضا في وصفها، فقليل أنها شملة مخططة وقيل أيضا أنها كساء أسود مربع.⁵ ووصفها السيوطي بأنها رداء حضرمي طوله أربعة أذرع وعرضه ذراعان وشير، وبأنها تصنع من الكساء الأسود المربع.⁶ ونفس هذا الاختلاف، نلاحظه حتى بالنسبة للمآثر العباسية، حيث يرى أحد الباحثين أن الخليفة المتوكل كان واضعا على كتفيه بردة الرسول محمد على ما يظهر من الميدالية المورخة من سنة 241 هـ / 855 م، والمحفوفة بالمتحف الفني باسطنبول.⁷ كما يرى نفس الباحث أن الخليفة المقتدر جَسَم فوق الميدالية الفضية المودعة بالمتحف العراقي سابقا، في نفس الهيئة التي خرج فيها لقتال مؤنس، والذي تذكر المصادر أنه كان يضع على كتفيه بردة الرسول، لذلك فهو يرى أن البردة التي كانت تغطي كتف المقتدر في المسكوكة هي بردة الرسول مع شيء من التحوير.⁸

أما الوثيقة الثالثة التي نضيفها لهذه المسألة فتتمثل في البردة المحفوظة اليوم في متحف التوبكاي باسطنبول، والتي يقال بأنها بردة الرسول محمد.⁹ وهي عبارة عن كساء أسود من الصوف قد فتح من أمام. فأيهما إذن بردة الرسول محمد؟.

¹ - Gignoux. PH et Kalus. L, *Op.Cit*, p. 151.

² - القلقشندي، صبح الأعشى، ج 2، ص 139.

³ - القلقشندي، صبح الأعشى، ج 3، ص 290.

⁴ - السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 20؛ القلقشندي، مآثر الأنافة، ج 2، ص 233-234.

⁵ - القلقشندي، صبح الأعشى، ج 3، ص 290.

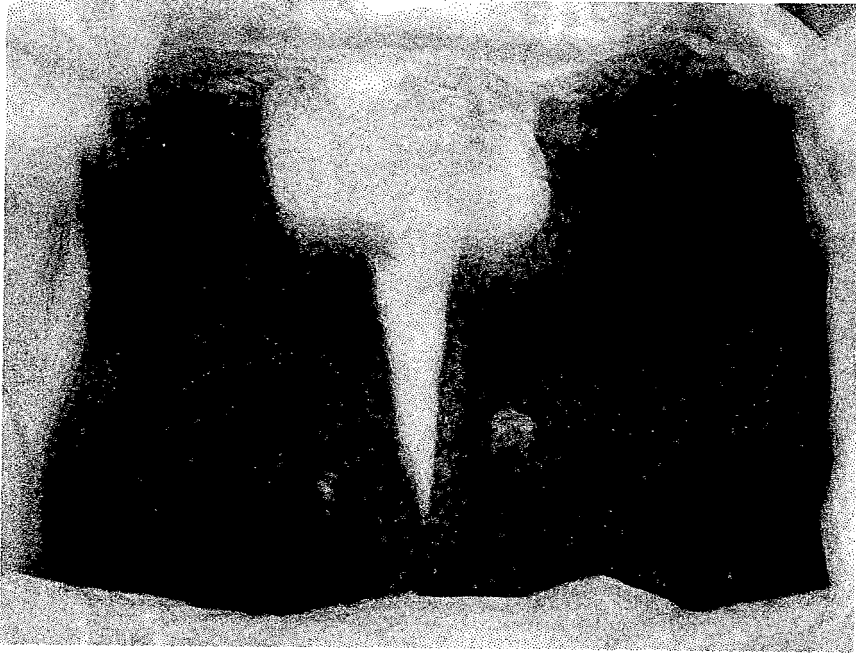
⁶ - السيوطي، نفس المصدر، ص 20.

⁷ - حميد (عبد العزيز)، "بردة رسول الله على مسكوكة المتوكل المصورة"، مجلة المسكوكات، ع 8-9، 1977.

1978، ص 26-31.

⁸ - حميد (عبد العزيز)، "ملابس الخلفاء في الآثار الإسلامية"، كلية الآداب بغداد، عدد 30، 1981، ص 337-338.

⁹ - Basset. R, sv, « Burda », *E.I*, t I, p. 1354.



بردة الرسول المحفوظة في متحف التوبكابي بإسطنبول

في الحقيقة تصعب الإجابة عن هذا السؤال، وذلك بسبب الاختلاف سواء بين الروايات التاريخية أو بين الوثائق الإيكونوغرافية، فالبردة التي جُسمت فوق كتفي المتوكل والمقتدر هي مخططة، أما البردة المحفوظة في متحف التوبكابي فهي من الكساء الأسود.

ولذا فبناء على هذا، لا يمكن أن نقر أي منها كانت بردة الرسول، لكن يمكننا أن نرجح بأن البردة التي كان تغطي كتفي المتوكل في الميدالية هي البردة التي كان يتوارثها الخلفاء العباسيون وقد دفعنا إلى ذلك أن الميدالية التي جُسم فوقها الخليفة هي مؤرخة وتحمل اسمه، وخاصة ظهر المسكوكة الذي نقش عليه رجل يقود ناقه أو جملا، وهو الذي تطلق عليه المصادر اسم صاحب الركاب، وبما أن الناقه كانت ركاب الخليفة أثناء مسيره الحج، والبردة كانت من ألبسة الخلفاء في موكب الحج.¹ فهذا يجعلنا لا نستبعد أن تكون تلك البردة هي التي كان يتوارثها الخلفاء العباسيون ويلبسونها في المواكب والأعياد.

أما البردة التي جُسمت فوق كتفي المقتدر فنستبعد أن تكون هي بردة الرسول، لأن ظهر المسكوكة والذي نقش عليه صورة ثور بارك يوحى بأن الخليفة كان على هيئة صيد وليس حرب، وفي رحلات الصيد كثيرا ما يخرج الخليفة متنكرا وقد يحدث أن ينقطع عن الموكب، ولم تكن البردة من ألبسة الخلفاء في موكب الصيد.² أما بخصوص البردة المحفوظة في متحف التوبكابي بإسطنبول فليس من المقبول تاريخيا أن تكون بردة الرسول في أيدي الأتراك، وإنما نعتقد أنها تعلّه كان يحتج بها السلاطين العثمانيين لكسب الطاعة، كما أن شكلها لا يوحى بأنها بردة، لأنه من خلال الوصف الذي قدمته لنا المصادر والذي نجده أيضا في " المعجم المفصل بأسماء

¹ - لدينا مقال سوف ينشر قريبا حول مواكب الخلفاء العباسيين.

² - المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص 311-312.

الملابس" لدوزي فإن البردة هي عبارة عن قطعة من القماش الصوفي السميك الذي يستعمله الناس ككساء لأجسامهم في النهار أو كغطاء أثناء الليل.¹ أي أنها لا تكون مخاطة، كما وصفت البردة كذلك بالعباءة أو بالدثار "mantle".²

أما البردة المحفوظة في المتحف التركي فهي أشبه ما تكون بالدراعة، والتي هي نوع من الجباب تكون مفتوحة من جهتها الأمامية وتتخذ من الصوف أو من الخز وكانت من ألبسة الخلفاء العباسيين الرسمية وكانوا يتخذونها سوداء.³ ولذلك نعتقد أنه لا شيء من ذلك تاريخياً، وأن البردة التي جسّمت فوق كتفي المتوكل هي أقرب ما تكون البردة التي تحدث عنها المصادر، لاسيما وأنه قد شدّها بخال أي أنها ليست مخاطة، وذلك إلى أن يتم العثور على ميداليات لخلفاء عباسيين آخرين قد تغير ما ذهبنا إليه.

لكن المهم من هذه الأوصاف هو أن بردة الرسول أصبحت أحد الرموز الأساسية للخلافة العباسية، وصار الخلفاء العباسيون يتوارثونها، فقد أصبحت إذن بمثابة الكساء الجامع للخليفة بالريعية وبالأمة.

أما القضيبي فهو عمود كان النبي يأخذه بيده. وذكر الماوردي أنه من تركة الرسول التي هي صدقة.⁴ وقد أصبح الخلفاء العباسيون يمسكون به كشعار من شعار الملك في جلوسهم أو ركوبهم.⁵ أما الخلفاء الأمويون فقد استعملوا العصا أو المخضرة أو قضيبي الخيزران.⁶ وهو ما نراه في تمثال الخليفة الواقف في زيّ فارسي وقد أمسك بيده قضيبي أو مخضرة (اللوحة عدد 17). وقد قلّدوا في ذلك الملوك الساسانيين، فقد نحت الملك كسرى على طبق، جالسا على أريكة العرش، وماسكا قضيبياً بيديه الاثنين (اللوحة عدد 22). كما كان الأباطرة البيزنطيون يمسكون بيدهم اليمنى الصليب في شكل عصا،⁷ وهو ما تجسده المنمنمتان المستخرجتان من مخطوط Jean Chrysostome، وتظهر الأولى (اللوحة عدد 26) الإمبراطور Nicéphore III Botaniate على أريكة العرش ماسكا بيده اليمنى عصا، أما في المنمنمة الثانية (اللوحة عدد 27)، فيظهر واقفاً هو والإمبراطورة وقد أمسك بيده اليمنى مخضرة أو صليب.

ويرمز القضيبي في العصر العباسي إلى دور الخليفة كإمام عن طريق الخطبة في الناس، وتسوية كلمة الله فيهم. وقد ظلّ القضيبي والبردة عند الخلفاء العباسيين يتوارثهما حتى سقوط الخلافة في بغداد، فهما إذن من شارات الخلافة أو الملك العباسي.

أما سيف النبي، فهو السيف المشهور بذی الفقار، كان الرسول غنمه يوم معركة بدر فصار لا يفارقه في حرب من حروبه.⁸ ثم صار للخلفاء العباسيين فكانوا يحملونه في بعض المناسبات الخاصة، مثل استقبال الخليفة

¹ - دوزي (رينهارت)، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، بغداد 1971، ص 55.

² - Ahsan. M, *Social Life under the Abbasids*, Liban 1979, p. 51.

³ - العبيدي (صلاح حسين)، الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي من المصادر التاريخية والأثرية، بغداد، دت، 37-255.

⁴ - القلقشندي، صبح الأعشى، ج 3، ص 291؛ القلقشندي، مآثر الأنافة، ج 2، ص 233-234.

⁵ - الصابئي، رسوم، ص 90-91.

⁶ - بن حسين (بنينة)، الدولة الأموية، ص 234.

⁷ - Bréhier. L, *Les institutions de l'empire byzantin*, t I, p. 20.

⁸ - الصابئي (أبو هلال)، رسوم دار الخلافة، انظر الحاشية ص 81.

الطائع لله، لعضد الدولة كي يلقيه بـ " تاج الملة " ¹ ولم تشر المصادر إلى حمله من قبل الخلفاء العباسيين الأوائل. كما كان الخلفاء الأمويون يحملون كذلك السيف، ونجده في القطعتين النقديتين التي نقش عليهما الخليفة عبد الملك بن مروان وقد تقلد سيفاً بجماثل (اللوحة عدد 15 و 16). وجسم الخليفة المقتدر أيضاً فوق ميدالية فضية وهو ممتط جوداه ومتقلدا سيفه (اللوحة عدد 2). ولعل حمل الخليفة العباسي لسيف النبي إنما هي كناية عن السيف في رعاية الدين ومقاومة البدع. وهكذا يصبح الخليفة العباسي بالبردة والقضيب والسيف بمثابة الوارث للنبي محمد.

إلا أن هذه العناصر الثلاثة التي تشير إلى وراثة النبوة يشذ عنها عنصر آخر هام، وهو مصحف عثمان الذي أصبح يضعه الخليفة بين يديه في القرن الرابع هجري. حاول سور달 تفسير ذلك بالقرار الذي اتخذته القاهرة سنة 322 هـ / 934م، والقاضي بإحياء ذكرى عثمان دون غيره من الخلفاء لاسيما علي. كما بين أنه يشير إلى أن الخليفة العباسي هو حامي السنة النبوية والمدافع عنها ضد الأمراء البويهيين الشيعة ². أي كأن عثمان كلفه بالحفاظ على كتاب الله والدفاع عن السنة، وفي ذلك دليل على المواصلة والاستمرار.

إذن حرص الخلفاء العباسيون، على إثبات وراثتهم للرسول محمد، ليس فقط عن طريق الانتساب الأبوي، بل كذلك بواسطة أشياء مادية، تتمثل في استعمالهم لبردته وقضيبه وسيفه. فأحدثوا بذلك شارات ملك إسلامي. كما استعمل الخلفاء العباسيون مصحف عثمان فطوروا بذلك تدريجياً أحد عناصر رمزية الملك من عهد الخليفة أبي العباس إلى عهد الخليفة المطيع لله.

بالإضافة إلى ذلك حرص العباسيون على التميز ببعض الشارات ذات الصبغة العربية الإسلامية، أهمها العمامة، فهي من شارات الخلافة أيضاً، عرفها ابن منظور بأنها من لباس الرأس ³. وتحمل عند دوزي مدلولان: مدلول أول يشير إلى العمامة بقضها وقضيضها أي الكلوة مع قطعة القماش الملوقة حولها، والمدلول الثاني يعني قطعة القماش وحدها وهي التي تلف عدة لفات حول الطاقية ⁴. كان الخلفاء العباسيون يلبسونها في المناسبات المختلفة. وقد جعلوا لكل مناسبة عمامة خاصة. فقد كان الرشيد يرتدي في المجالس العامة عمامة خز سوداء ⁵، أما في مجالس الطرب فكانوا يرتدون عمامة وشي مذهبة ⁶ وكانت العمامة السوداء لباس الخليفة في المواقب والمناسبات الرسمية وتسمى كذلك معممة ⁷. فلما خرج المعتصم لفتح عمورية تعمم بعمامة الغزاة ⁸. كذلك لما

¹ - الصابئي (أبو هلال)، نفس المصدر، ص 80-81.
² - Sourdel. D, « Questions de cérémonial abbasside », *Op.Cit*, p.136.

³ - ابن منظور، لسان العرب، ج 4، ص 432.

⁴ - دوزي (رينهارت)، " المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب " نفس المرجع، ص 160.

⁵ - الجعفي، مصدر سابق، ص 274.

⁶ - العبيدي، الملابس العربية، ص 33.

⁷ - الصابئي (أبو هلال)، رسوم دار الخلافة، ص 78-90.

⁸ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 60.

خرج المعتصم لقتال مؤنس وضع على رأسه عمامة.¹ وقد لبس الأمويون من قبلهم العمامة، لاسيما أثناء إمامتهم للصلاة،² والذين قلّدوا بدورهم الرسول. والعمامة زيّ عربي إسلامي لم يكن في تقاليد العرب في الجاهلية.³ وهي ترمز إلى القوة، والسلطة والعزة والشرف.⁴ ولذلك قيل بأن العمام هي تيجان العرب، كناية عن التاج الذي يلبسه الملوك من غير العرب.⁵ وعلى حدّ قول بعض الخلفاء العباسيين من أحفاد المعتصم، فإن الرسول محمد قد منح عمّه العباس عمامته وهي تلك التي يتعمّم بها الخلفاء العباسيون.⁶ ويندرج ذلك في إطار تأكيدهم على أحقيتهم في إرث النبوة. وتبيّن لنا بعض الوثائق الأيكونوغرافية الواصلة إلينا شيوع العمامة لدى الخلفاء العباسيين. أهمها الميدالية التي نقش عليها الخليفة المقتدر، وقد امتطى صهوة جواده، متقلدا سيفه، وعلى رأسه عمامة خفيفة أو كوفية قد شدّها بعقال ويتدلّى طرفها خلف رأسه.⁷ كما نحت على ميدالية أخرى (اللوحة عدد 2) وقد تربع على كرسي قصير ويده اليمنى كوبا وقد ارتدى عمامة ثقيلة. ونقش أيضا على لوح كبير في الواجهة الشرقية لكنيسة أختمر بتركيا (اللوحة عدد 6)، متربعا على وسادة وعلى رأسه عمامة قد شدّها بعقال ويتدلّى طرفها خلف رأسه. وتضم مخطوطة مقامات الحريري (نسخة الواسطي)، صورة لخليفة لعله المستنصر بالله (اللوحة عدد 7)، وقد جلس متربعا على العرش ومعتما بعمامة رفيعة بيضاء. يبدو إذن من النصوص ومن المآثر التي تعود إلى العصر العباسي، أن العمامة كانت لباسا رسميا للخلفاء العباسيين سواء في المجالس العامة أو الخاصة وكذلك في المواكب. وقد امتلكوا أعدادا كبيرة منها فقد ضمت خزانة هارون الرشيد أربعة آلاف عمامة.⁸ أما بالنسبة للخلفاء الأمويين فإن العمامة كانت لباس الخليفة في المسجد أي أثناء إمامته للصلاة بوصفه وريث الرسول محمد، إذن فهي ترتبط بالمراسم الدينية.⁹ في حين استخدمها الخلفاء العباسيون كرمز للسيادة العربية. ولم يقتصر الخلفاء العباسيون على حمل هذه الشارات ذات الصبغة الدينية الإسلامية، بل حرصوا على حمل شارات أخرى تظهر قوتهم وترمز إلى عظمة سلطاتهم، وتعود إلى جذور ساسانية وبيزنطية.

¹ - ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص 159.

² - Grabar.O, « Notes sur les cérémonies umayyades », *Op. Cit*, p.55.

³ - عبد الكافي (أبو بكر)، " العمامة تاريخها وتقاليد لباسها عند العرب " مجلة الفكر، السنة 25، عدد 10، جويلية 1980، ص 38.

⁴ - Kister. (M. J), "The crowns of this community....Some notes on the turban in the muslim tradition" *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, v 24, 2000, pp. 222.

⁵ - ابن منظور، لسان العرب، ج 4، ص 432؛

⁶ - Kister. (M. J), "The crowns of this community...." *Ibid*, p. 223.

⁷ - Kister. (M. J), *Ibid*, p. 233.

⁸ - الكوفية ما يلبس في الرأس، سميت لاستدارتها، ومن أسمائها أيضا العمامة. أما العقال فهو العصابة التي تشدّ بها الكوفية. انظر الكارمالي (انسطاس ماري)، " الكوفية والعقال"، اللسان العربي، جانفي 1973، ج 10 / 3، ص 212-213.

⁹ - القاضي الرشيد، مصدر سابق، ص 215؛ العبيدي، الملابس العربية، ص 34.

⁹ - Grabar. O, *Ceremonial and art at the Umayyad court*, p. 59.

ونذكر أهمها، القلنسوة، وهي: من لباس الرأس أيضا، وتدل عند دوزي على الطاقية أو الكلوتة أو العرقية التي توضع تحت العمامة، وكلمة شاشية لها نفس المعنى أيضا.¹ وكانت القلنسوة تلبس غطاء للرأس إما وحدها أو تلف حولها العمامة.² وقد أخذ العباسيون لبسها عن الأمويين اللذين قلّدوا بدورهم الفرس، ويشير جربار إلى أنها ربما تمثل تجديدا من قبل الأمويين،³ لكن تفيد بعض الإشارات الواردة في المصادر بأن الرسول محمد كان يلبس القلانس تحت العمامة كما يلبسها دونها، أو يلبس العمامة دونها كما يلبس القلانس ذات الآذان في الحرب.⁴

وكانت القلانس في العهد الأموي ذات مقاييس متغيرة لكنها ذات معنى محدد.⁵ أما العباسيون فقد أصبحوا يتدخلون في أمر القلانس، فقد ألزم المنصور رعيته باستبدال القلانس القصيرة بالطويلة، فكانت تعمل من القصب الذي هو عبارة عن ثياب كتان والورق وتلبس بالسواد، ويعود ذلك ربما إلى أن القلانس القصيرة كانت شائعة في عهد بني أمية.⁶ وكان أول من اتخذ لبسها من الخلفاء العباسيين الرشيد، يذكر اليعقوبي أن الرشيد أول خليفة يلبس القلنسوة الطويلة الرصافية.⁷ وذكر الجهشيارى أن الرشيد جلس جلوسا عاما وعلى رأسه قلنسوة طويلة.⁸ وقد واصل الخلفاء من بعده لباس القلانس الطوال فقد كان الأمين لابسا ثياب الخلافة في حصار بغداد وهي دراعة وطيلسان وقلنسوة طويلة.⁹ وجلس المأمون للفقهاء وعليه سواد وطيلسانه والطويلة وعمامته.¹⁰

وصارت القلانس الطويلة تلبس عند البيعة، فلما توفي الواثق أراد الأتراك مبايعة ابنه محمد فألبسوه دراعة سوداء وقلنسوة رصافية. ثم عدلوا إلى بيعة جعفر بن المعتصم وهو المتوكل فألبسه أحمد بن أبي دؤاد الطويلة وعممه¹¹ ولما ولي المستعين ألبسوه الطويلة وزيّ الخلافة.¹² لكن الخليفة المستعين أمر فيما بعد بتصغير القلانس بعد أن

¹ - ابن منظور، لسان العرب، ج 5، ص 309؛ دوزي (رينهارت)، "المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب" نفس المرجع، ص 183؛

² - العبيدي، نفس المرجع، ص 136.

³ - Grabar.O, « Notes sur les cérémonies umayyades », *Op. Cit*, p.55.

⁴ - عبد الكافي (أبو بكر)، "القلنسوة تاريخها وتقاليد لباسها عند العرب" مجلة الفكر، عدد 7، أبريل 1980، ص 77؛ العلي (صالح أحمد)، المنسوجات والألبسة العربية في العهود الإسلامية الأولى، بيروت 2003، ص 217.

⁵ - Grabar.O, *Ibidem*, p.55.

⁶ - الطبري، المصدر السابق، ص 1580؛ السيوطي، تاريخ، ص 209؛ العبيدي، نفس المرجع، ص 34.

⁷ - اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر، ص 37.

⁸ - الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص 274.

- Sourdel. D, « Questions de cérémonial abbasside », *Op. Cit*, p.133.

⁹ - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 10، ص 198؛ العبيدي، نفس المرجع، ص 34.

¹⁰ - ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج 5، ص 92؛ العبيدي، نفس المرجع، ص 34.

¹¹ - الطبري، المصدر السابق، ص 1891.

¹² - الطبري، المصدر السابق، ص 1934.

كانت طويلة حتى شبهت بأقباع القضاة.¹ ثم عادت القلائس الطويلة للظهور من جديد، فلما بويع الخليفة المستكفي شوهد على رأسه قلنسوة طويلة كان قد ورثها عن أبيه المكتفي.² كما تلبس القلنسوة الطويلة في المناسبات الرسمية، فقد استقبل الخليفة المقتدر سفير ملك الروم وعلى رأسه الطويلة.³ وجلس الخليفة الطائع لله لاستقبال عضد الدولة وعلى رأسه رصافية.⁴ ورغم أن سوردال يشير إلى أن القلائس الطويلة هي لباس خاص بالخلفاء العباسيين، وقد تأثروا في ذلك بملوك الفرس القدامى الأخمينيين،⁵ فقد وردت إشارة لدى الثعلبي تفيد لبسها من قبل الأمويين فقد كان الحجاج يضع على رأسه طويلة.⁶ وهو ما أثبتته الإيكونوغرافيا، فقد بين هرتزفيلد أن تمثال الخليفة الواقف الذي عثر عليه في قصر خربة المفجر، والذي جُسم في وضعية لتلقي التحية، كانت على رأسه طويلة (اللوحة عدد 17)، لذلك فهو يعتقد بأن لباسها كان مألوفا زمن الأمويين.⁷

كما لبس الأمويون القلنسوة القصيرة، وهو ما نراه في الدينار الذهبي المضروب سنة 77 هـ/696 م، والمخفوظ في الخزينة المالية بباريس، والذي توجد منه نسخة أخرى ضربت سنة 76 هـ/695 م. وقد نقش على صورة الخليفة عبد الملك بن مروان وهو واقف، ومتقلد سيفه بيده اليمنى. وقد أثارت هذه الصورة إشكالا من قبل المستشرقين، فهل كان الخليفة يضع على رأسه تاجا، أم عمامة، أم قلنسوة؟

فقد افترض مايل "Miles" احتمالين اثنين: فهو يرى أن الغطاء الذي كان يضعه الخليفة عبد الملك على رأسه، قد يكون تاجا وقد استند في ذلك إلى التشابه بينه وبين تاج كان يضعه ملك الفيزيقوط وامبا Wamba على رأسه (672-680 م) والذي نقش صورته على بعض العملات، وكذلك إلى التشابه بينه وبين صورة الملك رودريك Rodéric في قصير عمرة. أو الاحتمال الثاني أن تكون قلنسوة تغطيها عمامة.⁸

أما جربار فهو يرى أنه لا يمكن أن يكون تاجا لأن التاج لم يدخل العالم الإسلامي قبل عملية الإصلاح النقدي التي قام بها عبد الملك بن مروان، ولذلك فهو يرجح أن القلنسوة هي التي تظهر على دينار الخليفة الواقف، ذلك أنه في حين ترمز العمامة إلى الخليفة كإمام، فإن القلنسوة ترمز له كملك.⁹ ويشير سوردال إلى أن الخليفة كان يضع على رأسه حجابا voile والذي لا يزال البدو يلبسونه إلى يومنا هذا.¹⁰

¹ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 180.

² - المسعودي، نفس المصدر، ج 4، ص 356، العبيدي، نفس المرجع، ص 137.

³ - القاضي الرشيد، مصدر سابق، ص 137.

⁴ - الصابي (أبو هلال)، رسوم دار الخلافة، ص 81. الرصافية قلنسوة طويلة عالية، انظر حاشية الصفحة.

⁵ - Sourdel. D, « Questions de cérémonial abbasside », Op.Cit, p.134.

⁶ - الثعلبي، أخلاق الملوك، ص 71-72.

⁷ - Ettinghausen. R, From Byzantium to Sasanian Iran and the Islamic World, p.31.

⁸ - Miles. (C. George), « Mihrab and anazah: a study in early islamic iconography », in Archaeologica Orientalia in Memoriam Ernest Herzfeld, Locust Valley 1952, pp. 169 - 170.

⁹ - Grabar. O, Ceremonial and art at the Umayyad court, p. 59- 60.

¹⁰ - Sourdel. D, La civilisation de l'islam classique, p. 104.

أما نحن فنرجح احتمال مايل الثاني، أي أن الخليفة عبد الملك بن مروان كانت تعلو رأسه قلنسوة وتحيط بها عمامة. فقد كانت القلنسوة تلبس لوحدها أو تلف حولها العمامة، أوقد ترخى العمامة من الأمام و الخلف.¹ ويعتد ذلك تجديدا، سوف يتواصل في العصر العباسي وهو ما نلاحظه في الميدالية التي جسّم فوقها الخليفة المتوكل، وقد وضع على رأسه قلنسوة، وحولها عمامة على هيئة قماش وقد تدلّيتا طرفاها على جانبي رأسه. وقد دخل إبراهيم بن المهدي على ابن أبي داود معتما في هيئة لا تبعد كثيرا عن هيئة المتوكل في المسكوكة، فقد اعتم على رأسه رصافية (وتعني قلنسوة) بعمامة خزّ سوداء لها طرفان من خلفه وأمامه.² ومثلما أشرنا إلى ذلك لما تولى المتوكل الخلافة ألبسه أحمد بن دؤاد الطويلة وعمّمه على الطويلة. أي أن الخلفاء العباسيين كانوا يضعون الطويلة ويلفون حولها العمامة.

ولعل أهم ما يميّز هذه القلنسوة هو أنها محددة في جزئها السفلي أو في محيطها بحلقة anneau مزخرفة بشريط من الأحجار الكريمة. وبذلك يكون الخلفاء العباسيون قد استعملوا القلائس الطوال والمحددة وكذلك القلائس "المتعصميات" نسبة إلى الخليفة المعتصم، ويبدو من خلال الوصف الذي قدمه اليعقوبي أنها كانت مربعة.³ كما استخدموا كذلك القلائس "المجالسية" أي التي كانت تلبس في المجالس والتي تتخذ من الوشي المذهب.⁴ كذلك القلائس السمورية، فمن جملة ما أهدها إسماعيل بن أحمد الساماني صاحب ما وراء النهر إلى الخليفة المعتضد سنة 280 هـ / 893 م قلانس سمور.⁵ وتحتوي اللوحة التي تقع في غرة الجزء الرابع من كتاب الأغاني بدار الكتب بالقاهرة (اللوحة عدد 36)، على صورة أمير جالس على كرسي مرتفع وعلى رأسه قلنسوة سمور،⁶ ويبدو رأس الأمير في غاية الهيبة إذ تحيط به هالة.

كما تضم المنمنمة الواقعة في الصفحة 27 من كتاب الترياق بالمكتبة الوطنية بباريس (اللوحة عدد 34) على صورة ملك جالس القرفصاء وتحيط به الجوارى، وقد وضع على رأسه قلنسوة سمور. وتظهر المنمنمة المستخرجة من الجزء 11 من كتاب الأغاني (اللوحة عدد 38) الرسول محمد وقد وضع على رأسه قلنسوة سمور.⁷

إذن لبس الخلفاء العباسيون القلنسوة كالملوك الساسانيين، والخلفاء الأمويين، وقد اتخذوا أنواعا كثيرة، منها الطويلة، المربعة، الموشاة بالذهب، السمور، وأصبحت الطويلة لباسا رسميا للخلفاء العباسيين، أثناء توليهم الخلافة وفي المجالس الرسمية والعامّة عدا في عهد الخليفة المستعين الذي ذكرنا أنه قصّر من القلائس. ولأجل ذلك صار لا يجوز لأي كان أن يضع على رأسه طويلة حتى لو كان أنحا الخليفة، فمن جملة ما عابه الخليفة

¹ - العلي (صالح أحمد)، المنسوجات والألبسة العربية في العهود الإسلامية الأولى، ص 215.

² - الثعلبي، أخلاق الملوك، ص 72.

³ - اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم ..، ص 43.

⁴ - الصابئي (أبو هلال)، رسوم دار الخلافة، ص 96.

⁵ - القاضي الرشيد، مصدر سابق، ص 41-42؛ العبيدي، نفس المرجع، ص 137 - 138.

⁶ - حميد (عبد العزيز)، " ملابس الخلفاء في الآثار الإسلامية"، كلية الآداب بغداد، عدد 30، 1981، ص 328.

⁷ - Fares. B, Une miniature religieuse de l'école de Bagdad, p.12.

المأمون على أخيه القاسم لما علم بخبر وفاته أنه كان إذا ركب بمرور ركب في رصافية.¹ أي أنها أصبحت رمزا من رموز الملك.

ورغم أن العباسيين قد قلّدوا الفرس في لبس القلنسوة إلا أنهم حاولوا إضفاء بعض التقاليد العربية عليها، فأحاطوها بعمامة والتي هي رمز السيادة العربية، ولو أن الأمويين قد سبقوهم في ذلك مثلما تشير إلى ذلك مسكوكة الخليفة الواقف، إلا أن العباسيين طوروا من لبسها أكثر وأصبحت لباسا رسميا وفي ذلك دليل على الاستمرار والمواصلة وكذلك على التجديد. لكن أهم ما يميّز قلنسوة المتوكل ليس فقط العمامة التي تحيط بها، وإنما الحلقة التي ذكرنا أنها تحدها في محيطها والمزخرفة بشرائط أو سلسلة من الأحجار الكريمة. هذه الحلقة التي تمثل المكون الأساسي للتاج، والذي هو من ألبسة الخلفاء العباسيين كذلك.

التاج: فقد لبس الخليفة المعتصم التاج حسب ابن العمري، ويذكر أنه أول خليفة تتوج من الخلفاء العباسيين.² لكن وردت إشارة لدى الأصفهاني تفيد بأن الخليفة هارون الرشيد كان جالسا وبين يديه ابن جامع يغنيه وعلى رأسه تاج.³ فالذي يبدو من قول ابن العمري ليس أن المعتصم هو أول من لبس التاج من الخلفاء العباسيين، بل أول من تتوج من الخلفاء عند البيعة، وقد كان الخلفاء قبله يلبسون الطويلة عند البيعة. وقد فسّر المقرئ ذلك بإرادته التزيّ بزيّ الأعاجم،⁴ أي كملوك الفرس والأباطرة البيزنطيين.⁵ وربما أراد الخليفة المعتصم إبراز الطابع الملكي لحكمه عن طريق التاج على رأسه.

ولم يذكر ابن العمري إن أبقى الخلفاء بعده لباس التاج عند البيعة، لكن كُنّا قد بيّنا أنهم عادوا إلى الطويلة. لذلك يمكن القول بأن التاج كان لباس الخلفاء العباسيين في مجالس الغناء والمنادمة، فقد جلس الخليفة المعتز للمنادمة ولبس التاج المرصع بالجواهر النفيسة.⁶ وهو ما نلاحظه كذلك من خلال الايكونوغرافيا، وأوضح وثيقة تبرز لنا التاج في العصر العباسي، هي ميدالية الطائع لله المؤرخة من سنة 365 هـ / 976 م (اللوحة عدد 4)، والمودعة بالمتحف الأثري باسطنبول،⁷ وقد جلس فيها للمنادمة على كرسي قصير وعلى رأسه تاج قد حلي بخمس وريقات مسننة وحوله جارتان ترقصان وتعزفان. كما وضع غيره من الخلفاء المتأخرين التاج وهو ما تبرزه ميدالية القائم بأمر الله، المؤرخة من سنة 455 هـ / 1063 م (اللوحة عدد 5)، والتي جسّم فوقها الخليفة في هيئة لا تبعد عن هيئة الطائع، وقد جلس في مجلس شراب وسماع و وضع على رأسه تاجا، محلى بأربع وريقات كبيرة.

¹ - الثعلبي، أخلاق الملوك، ص 73.

² - ابن العمري، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص 104.

³ - الأصفهاني، الأغاني، ج 6، ص 215.

⁴ - المقرئ، كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، القاهرة 1988، ص 108.

⁵ - Bréhier. L, *Op. Cit*, t I, p. 15- 16 ; Yannopoulos, « Le couronnement de l'empereur à Byzance ... », *Op. Cit*, t LXI, 1991, p. 79 ;

- كريستسن (أرثر)، المرجع السابق، ص 429.

⁶ - ابن العمري، نفس المصدر، ص 128.

⁷ - Ettinghausen. R et Grabar. O, *The art and architecture of Islam*, p. 238.

إذن لبس الخلفاء العباسيون التاج وذلك خلافا لما ذهب إليه سوردال الذي يبين أن التاج لم يظهر البتة مع العباسيين، وإنما ظهر مع الفاطميين وفي شكل عمامة.¹ بل أكثر من ذلك لم يكن العباسيون أول من اتخذ التاج في الإسلام، بل سبقهم إلى ذلك الأمويين، فقد لبس الخليفة عبد الملك بن مروان التاج حسب ابن قيس الرقيات.² كما أن تمثال الخليفة (اللوحة عدد 19)، الذي عثر عليه في قصر الحير الغربي والذي أعيد تركيبه، حيث فصل قسمه السفلي عن قسمه العلوي³ والمودع حاليا بمتحف دمشق الدولي يبين شيوع التاج في العصر الأموي. فقد جلس الخليفة مرتديا لباسا فارسيا، وعلى رأسه التاج، وقد تعرض الجزء الأيسر من هذا التاج، إلى التلف لكن يبدو من خلال محاولة لتصور شكله الأولي أنه كان محلى بثلاثة أو أربع وريقات. أي أن الشبه بينه وبين التاج العباسي يبدو واضحا مع اختلاف في عدد الأوراق.

ولذا فبناء على هذا يمكن القول بأن الخليفة الوليد بن عبد الملك هو أول من وضع التاج من الخلفاء الأمويين، وقد أبقى الخلفاء بعده على لباس التاج لاسيما في عهد الخليفة هشام الذي ينسب إليه بناء قصر الحير الغربي، والذي أصبح في عهده التاج من أغطية الرأس النموذجية بالنسبة للخليفة.⁴ لذلك يمكن أن نقر من خلال تمثال قصر الحير الغربي أن الخلفاء الأمويين قد وضعوا التاج وهو ما أكدته كذلك إيتنغهاوزن،⁵ وقد تأثروا في ذلك بالملوك البيزنطيين والفرس، وملوك الغساسنة بالشام.⁶

وبذلك يكون الخلفاء الأمويون قد استخدموا ثلاثة أغطية رأس: العمامة، القلنسوة والتاج، وفي حين توحى العمامة برمزية دينية، فإن القلنسوة والعمامة يوحيان برمزية ملكية أو إمبراطورية.⁷

وقد استخدم العباسيون نفس هذه الأغطية لكن بطريقة مغايرة فقد جعلوا لكل مناسبة غطاء، أو نفس الغطاء قد يستخدم في مناسبات مختلفة. فقد استعملت العمامة في المجالس العامة، والخاصة وفي المواقب، أما القلنسوة فقد استخدمت في الاستقبالات الرسمية ولاسيما عند البيعة. كما استخدم التاج أيضا عند البيعة، لكن بصفة خاصة في مجالس الغناء والمنادمة. وقد أحدث العباسيون بلباس التاج قطيعة مع فترة الرسول والخلفاء الأوائل لكن استمرارا مع فترة الخلفاء الأمويين.

ولم نعثر في المصادر على وصف دقيق وواضح للتاج العباسي، فقد اكتفت فقط بالإشارة إلى اعتداله على رأس الخليفة " خليفة لا يخيب سائله عليه تاج الوقار معتدل ".⁸ وذلك في محاولة من الشاعر لإظهار الخليفة

¹ - Sourdel. D, « Questions de cérémonial abbasside », *Op. Cit*, p.134.

² - Tyan. (E), *Institutions du droit public musulman, le califat*, Paris 1954, t I, p. 490 ;
- بن حسين (بثينة)، المرجع السابق، ص 233.

³ - Fowden. G, *Qusayr 'Amra, Art and the Umayyad Elite in Late Antique Syria*, p. 121.

⁴ - Grabar. O, *Ceremonial and art at the Umayyad court*, p. 62.

⁵ - Ettinghausen. R, *From Byzantium to Sasanian Iran.....*, p.32.

⁶ - بن حسين (بثينة)، المرجع السابق، ص 233.

⁷ - Grabar. O, *Ceremonial and art at the Umayyad court*, p. 63.

⁸ - الأصفهاني، الأغاني، ج 6، ص 215.

في مظهر المسيطر على الكون. أو الإشارة إلى أنه مرصع بالدر اليتيم،¹ أو بالجواهر النفيسة،² والنموذج الوحيد الذي وصلنا عن طريق المآثر التي تعود للعصر العباسي والأموي هو التاج الذي يأخذ شكل حلقة أو شريط يعلوه أربعة أو خمسة أوراق.

ولذا يمكن القول بأن التاج العباسي كان أقل تعقيدا من التاج الساساني، فلم يعرف العباسيون التاج المنح الذي عرفه الساسانيون. وأبرز ما لدينا في هذا الباب الدراهم الفضية التي جسّم فوقها الملك كسرى الثاني سواء تلك التي ضربها الملوك الساسانيون، وظلّ العرب يتداولونها بعد الفتح الإسلامي، أو تلك المضروبة على الطراز الساساني والتي حافظ العرب فيها على صورة كسرى، ونقش اسمه بالفهلوية، ومذبح النار الزرادشتي، ثم أضيف إليها كلمات عربية مثل "بسم الله"، وابتداء من سنة 50 هـ / 670 م حلّ اسم الوالي أو الخليفة محلّ اسم الإمبراطور الفارسي لكن بالفهلوية كما ظلّ تاريخ واسم مدينة الضرب يكتبان بالفهلوية، وهي النقود العربية الساسانية،³ وأهمها تلك التي ضربها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بين سنوات (72 هـ - 691 م / 74 هـ - 693 م) والتي حافظ فيها على صورة كسرى ونقش اسمه، لكن الجديد هو أن اسم مدينة الضرب والتاريخ كتبنا بالعربية، كما ضرب نقود أخرى في مرحلة ثانية من 74 هـ - 963 م إلى 77 هـ - 696 م حافظ فيها كذلك على صورة كسرى كما تحتوي على صورة عربية، وهي صورة الخليفة الواقف والتي عوضت مذبح النار الزرادشتي.⁴

وقد جسّم كسرى فوق جميع هذه الدراهم في صورة نصفية (اللوحة عدد 24)، وهو ملفف نحو كتفه الأيسر، وعلى رأسه التاج المنح، يتوسطه هلال داخله نجمة، ويحيط به شريط مزركش بالأحجار الكريمة.⁵ وقد زوّد هذا التاج الزخرفة الإسلامية بنموذج مألوف،⁶ ومن أبرز ما لدينا في هذا الباب الميدالية المحفوظة بالمتحف البريطاني والمضروبة بطبرستان والتي جسّم فوقها خالد البرمكي (اللوحة عدد 10)، وقد جاء في نفس الهيئة التي برز عليها الشاه الساساني متوجا بالتاج المنح يتوسطه هلال وتعلوه نجمة، عدا غياب الشريط المزخرف الذي يحيط بالتاج، وذلك بكيفية تعكس لنا الإرث الساساني القديم.⁷

¹ - ابن العمراني، نفس المصدر، ص 104

² - ابن العمراني، نفس المصدر، ص 128.

³ - Bates. M, "Islamic coins", in *The American Numismatic Society*, New York, 1982, p.6- 7; Bates. M et Darley – Doran, « La numismatique », dans *Trésors de l'islam*, Genève 1985, p. 351.

⁴ - Bates. M et Darley – Doran, « La numismatique », *Op.Cit*, p. 351 ; Bates. M, "Islamic coins", *Op.Cit*, p.10- 11.

⁵ - حول رمزية الصورة انظر عموما: القزاز ووداد، " درهم أموي على طراز ساساني"، *مجلة المسكوكات*، عدد 6، 1975، ص 39؛ القزاز ووداد، " الدرهم الإسلامي المضروب على طراز ساساني"، *مجلة المسكوكات*، عدد 3، 1972، ص 47؛ القزاز ووداد، " الدرهم الإسلامي المضروب على طراز ساساني للحجاج بن يوسف الثقفي"، *مجلة المسكوكات*، عدد 2، 1969، ص 30.

⁶ - Sourdel. D, *La civilisation de l'islam classique*, p. 104, fig. 22.

⁷ - KENNEDY.H, *The court of the Caliphs*.

وقد اعتمد الفرس " التاج المجنح " لرمزيته، فأجنحة العصفور المبسوطة توحى إلى الشمس أو الخيال الشمسي لدى الفرس القدامى، الصقر، أما النجمة واللال فيرمزان إلى الملك الساساني بوصفه الأخ الأرضي، لكل الأجسام السماوية.¹ وقد استبدلت النجمة واللال في بعض الأحيان بكرة تعلو قبعة التاج، وهو ما نجده في الدرهم الفضي، الذي نقشت عليه صورة نصفية لكسرى الثاني وهو ملتفت نحو الجهة اليسرى، وقد وضع على رأسه تاجا مغائرا تعلوه كرة في الوسط ويزينه شريط مزخرف، أما ظهر المسكوكة فقد نقشت عليه صورة محراب وعنازة.²

أو قد تستبدل الأجنحة بورقتين يتوسطهما هلال تعلوه كرة على ما يبدو في الطبق الذي نحت عليه كسرى الأول (اللوحة عدد 22) وقد جلس على أريكة العرش وعلى رأسه تاج من هذا الطراز. وقد تكون لهذا دلالة مقصودة أيضا.

كما نجد له تجسيمات في بعض الأواني التي تعود إلى العصر العباسي مثال ذلك الطبق من الفضة (اللوحة عدد 32) الذي نقش عليه أحد الملوك أو الخلفاء وقد جلس متربعا على أريكة العرش وعلى رأسه تاج محلى بورقتين عوض الأجنحة، يفصلهما هلال و نجمة، ويعود اختلاف هذا التاج عما هو متعارف عليه لدى الخلفاء العباسيين ربما إلى انتماء الطبق إلى المجال الفارسي. لكن يبقى التاج المجنح أكثر شيوعا.

إذن نتيجة لشدة رمزية التاج المجنح اعتمده الساسانيون، في حين حاولت التيجان الأموية والعباسية أن تبتعد عن هذا الشكل، فظهر التاج عندهم يحتوي على خمسة أوراق أو أربعة، ولم تتوصل إلى معرفة من أين استوحى العباسيون هذا الصنف من التيجان. فهي تختلف حتى عن التيجان البيزنطية، والتي تظهر في شكل إكليل دائري يحيط بالرأس يتوسطه فص أو جوهرة في واجهة الجبين، تكون إما من اللون الأحمر أو الأبيض أو الأخضر أو الأزرق توضع على قلنسوة تتخذ من الحرير ومن نفس اللون وفقها يحط الإكليل،³ وهو ما نراه في الصورة المستخرجة من مخطوط والتي تظهر الإمبراطور Nicéphore III Botaniat (1078-1081) (اللوحة عدد 27)، على كرسي العرش وعلى رأسه تاج مذهب في شكل إكليل دائري، يتوسطه فص أحمر.

أما التيجان المورقة فنلاحظها في بعض اللوحات التي تعود إلى فترة متأخرة (القرن 12 م)، وأهمها تلك التي تزين سقف كنيسة القصر الملكي بمدينة بالرمة بإيطاليا، والتي يرجع تاريخها إلى سنة 1140 م، وقد جلس فيها الملك روجير الثاني على كرسي عرش بدون أرجل، ماسكا بيده اليمنى كأسا، وعلى رأسه تاج محلى بثلاثة أوراق أكبرها الوسطى، وتحيط به جارتان واحدة تصب له النبيذ أو الخمر والأخرى تغنيه.⁴

¹ - Barry. M, *L'art figuratif en islam médiéval et l'énigme de Behzâd de Hérat (1465 – 1535)*, Paris 2004, p. 58.

² - Bates. M, "Islamic coins", *Ibid*, p.10.

³ - Piltz. (E), « Middle Byzantine Court Costume » in *Byzantine Court Culture from 829 to 1204*, United States of America, 1994, p. 40- 41.

⁴ - اتنغهاوزن (ريتشارد)، فن التصوير عند العرب، ص 45- 47؛ محفوظ (فوزي)، " بين المهديّة وصقلية تحليل لمشهد منحوت"، *أفريقية*، عدد 20، ص 29- 30.

لذلك نعتقد أن التاج العباسي هو مستوحى من الحضارة الرومانية الغربية، مع تحوير في عدد الأوراق أربعة أو خمسة بدلا من ثلاثة، حيث يتصل الرقم ثلاثة بالثالث المقدس: الأب والابن، والروح القدس،¹ بينما يرتبط الرقم خمسة بقواعد الإسلام الخمسة، في حين يرمز الرقم أربعة إلى الكون المؤلف من عناصر أربعة منتظمة في فصول أربعة، وذلك كناية عن الملك الذي قوامه أربعة.

وقد كان التاج الساساني ثقیل إلى درجة أن الملك لم يكن قادرا على وضعه على رأسه، ولذلك فقد كان يعلّق بسلسلة في سقف المجلس، وكانت توضع الستارة حتى يجلس الملك ثم يدخل رأسه في التاج ولا يراه الزائرون.² وقد قدر وزنه بـ 91.5 كلف.³ وقد لاحظ اتنغهاوزن وجود سلسلة مماثلة في قصر خربة المفجر، في سقف حنية كرسي العرش، مع فارق فقط في مادة صنعها، حيث استخدم الجص على ما يبدو المطلي بالذهب أو الملون في قصر خربة المفجر، بينما كانت تصنع من الذهب في زمن الساسانيين.⁴ ولعل تقليد الأمويين لهذه السلسلة دون أن يكونوا قد استخدموها في مجالسهم هو أحسن شاهد على قدرة وتماسك هذا الرمز الملكي.⁵ وليس لنا أي وثيقة أو نص يجعلنا نقر باستخدامها من قبل العباسيين.

كل هذا يؤدي بنا إلى القول أن التاج لم يظهر مع العباسيين إلا في مناسبات محدودة، فإذا استثنينا المعتصم الذي توجّج به عند توليه الخلافة، فإن من لبسه من سائر الخلفاء كان في مجلس الغناء أو المأدبة، و ليس أيضا بصفة دائمة بل كانوا يضعون كذلك العمامة وهو ما لاحظناه من خلال النصوص والمآثر العباسية.

لذلك يمكننا القول أن أكثر غطاء رأس استخدمه العباسيون مقارنة بالتاج الساساني هي القلنسوة، إذ يبدو الشبه واضحا بين ميدالية المتوكل، وبين الدراهم الفضية التي جسّم فوقها كسرى ملك الفرس على مستوى غطاء الرأس، باستثناء بعض الاختلافات ذات الرمزية المحددة والتي سوف نحاول إبرازها.

فيبدو واضحا أن على رأس كل واحد منهما قبعة ضخمة، والتي هي ربما من القماش السميك الموشى بالذهب وتمثل القلنسوة بالنسبة للمتوكل، أو هي من الذهب بالنسبة لكسرى. كما يحدّ كل واحدة منهما شريط أو اثنين مزخرف بالأحجار الكريمة. لكن الاختلاف يكمن على مستوى الجناحين اللذان يفصلهما هلال ونجمة ويعلوان تاج كسرى، واللذان استبدلا بالعمامة حول القلنسوة في ميدالية المتوكل، وقد تدلّى طرفاها على جانبي رأسه، ومما يؤيد هذا أن النصوص تذكر أن الخليفة العباسي كان يضع على رأسه القلنسوة ويعتم حولها، فالتاج العباسي لا يختلف عن التاج الساساني إلا عن طريق لفّ العمامة وفي ذلك دلالة معينة. ففي حين ترمز الأجنحة والهلال والنجمة إلى الخيال الشمسي ومؤاخاة الطبيعة لدى ملوك الفرس. ترمز العمامة إلى السيادة العربية والسير على نهج النبوة لدى الخلفاء العباسيين.

¹ - محفوظ (فوزي)، " بين المهديّة وصقلية تحليل لمشهد منحوت"، نفس المرجع، عدد 20، ص 31.

² - Shaked (Shaul), "From Iran to Islam: on some symbols of royalty" in *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, t 7, 1986, p. 76.

³ - كريستسن (أرثر)، المرجع السابق، ص 381.

⁴ - Ettinghausen. R, *From Byzantium to Sasanian Iran.....*, p.32.

⁵ - Shaked (Shaul), "From Iran to Islam....." *Ibidem*, p. 76.

فالأرجح لدينا أن التاج العباسي لم يكن تاجا بالمعنى الغربي أو الإفريقي للكلمة بل هو قلنسوة يقع تحويلها إلى تاج وذلك عن طريق شريط محدد ومرصع بالياقوت، ولعل ما سماه ابن العماري تاجا قد يكون قلنسوة محددة بشريط مزخرف بالأحجار الكريمة، كما أن التاج المورق، لم نره إلا في بعض الميداليات التي جسّمت فوقها مناظر شرب وغناء . إذن فلتن عرف التاج الساساني "بالتاج المنح " فإن التاج العباسي هو " تاج- عمامة " . ويزداد الشبه بين المتوكل وكسرى ليس فقط على مستوى التاج فحسب بل كذلك على مستوى الأقراط.

- الأقراط، لبس الخلفاء العباسيون الأقراط كشارة من شارات الملك. فقد كان الخليفة المتوكل على ما يبدو من الميدالية التي جسّمت فوقها لباسا أقراطا في أذنيه تتألف كما يظهر من سلك يثبت في الأذن تتدلى منه حبة كروية صغيرة، تتصل بنهايتها حبة أكبر منها مخروطية الشكل تصل إلى أسفل عنقه عند مستوى العقد أو الشريط المزخرف الذي يزين رقبته.

وقد جاء في نفس الهيئة التي برز عليها كسرى، غير أن القرط هناك تتدلى منه حبة كروية، تتصل بها ثلاثة حبات كروية أصغر منها موزعة في شكل مثلثي. كما يختلف عنه كذلك على مستوى الشارب واللحية الطويلة المقسومة بالتنسيق إلى قسمين متساويين مديي الرأس في الأسفل، في حين ظهر كسرى بشارب ولحية مستديرة. ولم نعث في المصادر على إشارة تفيد لباس الخليفة المتوكل للأقراط، كذلك لا تذكر لنا المصادر إن كان لبسها من سبقه من الخلفاء، وإن أبقى عليها الخلفاء من بعده.

لكن يبدو أن الخلفاء الأمويين قد سبقوهم في لبسها على ما يظهر في تمثال الخليفة الذي عثر عليه في قصر الحير الغربي (اللوحة عدد 19) ، والذي كان واضعا في أذنه قرطا على شكل حلقة بسيطة خالية من التواءات. وقد تأثروا في ذلك بالملوك الساسانيين¹، والأباطرة البيزنطيين، فقد كانت الأقراط كذلك أحد رموز الملك البيزنطي يتلقونها عند تنويجهم مع التاج و العصا.² وقد اتخذها البيزنطيون من الذهب الموشى والحلى بالؤلؤ والأحجار الناعمة.³ وبذلك يكون العباسيون قد طوروا أحد عناصر رمزية الملك العباسي.

كما استعمل العباسيون رمزا آخر من رموز الملك لدى الأباطرة البيزنطيين وهو: الخف الأحمر، فقد جرت العادة في القرن الرابع هجري أن يلبس الخليفة في المجالس الرسمية والمواكب خفا أحمر في قدميه.⁴ وينكر دخول أي كان إلى دار الخلافة بخف أو نعل أو لكة حمراء مهما كانت مرتبته لأن الأحمر لباس الخليفة، فقد كان من أسباب تنكر الخليفة المطيع لله للقاضي أبي الشوارب أنه دخل داره بخف أحمر.⁵ لأنه أحد رموز الملك. وقد

¹- Fowden. G, *Op.Cit*, p. 121.

²- Dagron. (G), *Empereur et prêtre*, Paris 1996, p. 81 ; Labarte (J), *Le palais Impérial de Constantinople et ses Abords, Sainte Sophie , le Forum Augustéon et l'Hippodrome tels qu'ils existaient au 10^e siècle*, Paris MDCCLXI, p. 76.

³- Labarte (J), *Ibidem*, p. 76.

⁴- الصابئي (أبو هلال)، رسوم ، ص 90؛

-Mansouri. M. T , *Du Voile et du Zunnar*, P. 151.

⁵- الصابئي (أبو هلال)، نفس المصدر ، ص 75- 76.

لبس الخلفاء العباسيون من قبل الخف الأحمر، دون أن يتخذونه رمزا من رموز الملك. فقد طلب الخليفة المعتصم من إسحاق بن إبراهيم أن يلبس مثله خفا أحمر.¹ أما في القرن الرابع هجري، فقد استعمل الخلفاء العباسيون الخف الأحمر كشعار من شعار الملوك على شاكلة الأباطرة البيزنطيين.

فقد كان الحذاء الأحمر " les bottines rouges " أحد الرموز المميزة للملكية البيزنطية، وظلّ الأباطرة يلبسونه إلى نهاية الإمبراطورية، عند تنويعهم وحتى خارج نطاق المراسم.² وهناك نماذج لهذا الحذاء في رسوم الفن البيزنطي، أهمها المنمنمة التي تصور الإمبراطور Nicéphore III Botaniat (اللوحة عدد 26) وهو جالس على أريكة العرش ويلبس في قدميه خفا أحمر حرص المصور على إبرازه، وتحيط به حاشيته موزعة بطريقة منتظمة. وثمة منمنمة أخرى مستخرجة من مخطوط يظهر فيها الإمبراطور بازيل الثاني (اللوحة عدد 28) واقفا وتحيط به حاشية سماوية موزعة بطريقة تراتبية، وقد لبس زيا عسكريا وفي قدميه حذاء أحمر صاعدا إلى ركبتيه، وتخلد هذه اللوحة انتصاره على البلغاريين.

ولا تذكر المصادر سبب لبس الخليفة العباسي الخف الأحمر في المناسبات الرسمية. وقد فسّر سور달 ذلك بإرادة العباسيين تقليد الإمبراطور البيزنطي في هذا الامتياز.³ وهذا التقليد هو أحد مميزات الملك.

أحدث الخلفاء العباسيون من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المستكفي، شارات ملك إسلامي باتخاذهم البردة والقضيب ومصحف عثمان...، كما اتخذوا شارات الملك التي كان ملوك الفرس والأباطرة البيزنطيون يتبعونها. فأحدثوا بذلك قطيعة مع فترة الرسول والخلفاء الأوائل لكن تواصلوا مع فترة الخلفاء الأمويين، إلا أنهم تميزوا عنهم بحمل شارات ملك " تركية ".

الرموز التركية

لم يقتصر العباسيون على حمل شارات ملك ساسانية وبيزنطية، بل حرصوا أيضا على حمل شارات أخرى تظهر قوتهم وترمز إلى عظمة ملكهم ذات تأثير تركي. ورغم أن ظهور الأتراك في بلاط الخلفاء العباسيين يرجع إلى عهد مبكر في عهد الخليفة المنصور،⁴ فإن دورهم برز بصفة خاصة في عهد الخليفة المعتصم الذي كان يوجه لجلبهم منذ عهد أخيه المأمون، وقد استقدمهم من سمرقند وفرغانة، وأشروسنة، وغيرها من بلاد تركستان وما وراء النهر،⁵ واتخذهم لحرسه الخاص وأفرد لهم قطائع خاصة في سامراء، فاستطاعوا أن يكونوا طبقة مميزة في البلاط لها شأن كبير، لا يقل أهمية عن شأن الفرس، وصاروا يشاركون الخليفة مجالسه.⁶ وعن طريق هؤلاء الأتراك دخلت التأثيرات التركية إلى البلاط العباسي، وشملت عدة مجالات أهمها اللباس وأثرت بصفة خاصة في المراسم، عن طريق اتخاذ شارات ملك جديدة لم تكن معروفة من قبل.

¹ - الطبري، نفس المصدر، ص 1878.

² - Dagron. (G), *Ibid*, p. 94; Bréhier. L, *Op.Cit*, t I, p. 19.

³ - Sourdel. D, « Questions de cérémonial abbasside », *Op.Cit*, p.135.

⁴ - الجهشيارى، مصدر سابق، ص 134.

⁵ - اليعقوبي، البلدان، ص 22.

⁶ - الطبري، نفس المصدر، ص 1922.

وهؤلاء الأتراك هم الأويغور ويُعرفون في المراجع الصينية، بأنهم سلالة قبائل الهون الآسيوية، وكانوا في تبعية للكوك الأتراك، ثم حدث عام 127 هـ / 745 م أن تخلصوا من تبعيتهم تلك وأسسوا دولة أويغورية.¹ والأتراك اللذين استقدمهم المعتصم واستقروا في سامراء هم من الأويغور وقد كونوا مجموعة بشرية شغلت نفسها بالأنشطة الفنية.² وتعتبر مجموعة الصور المائية المرسومة على الجص والتي عثر عليها في مدينة سامراء، من أهم الرسوم الجدارية العباسية التي وضحت فيها تأثير فن التصوير الأويغوري.³ والتي عكست لنا بعض التأثيرات التركية في البلاط العباسي، وقد شملت أساسا اللباس، وتجلت بالخصوص على مستوى غط حزام الخصر المتدلي في شكل لسان أو شريط نحو الأسفل، وقد لاحظناه في رسوم جميع القادة الأتراك اللذين وصلتنا صورهم (اللوحة عدد 11، 12، 13). والذي وجد له مثل في الرسوم الجدارية بوسط آسيا، وبالخصوص في الصور الشخصية لأمرأ الأويغور في منطقة تورفان "Tourfan".⁴

هذا الطراز من النطاق المتدلي إلى الأسفل، الذي كان يمثل اللباس الرسمي للشعوب الحرة المتنقلة، تحول في فترة لاحقة من علامة ترمز إلى القبيلة التي ينتمي إليها الشخص، إلى شارة تدل على انتماء الشخص إلى رتبة معينة، وأصبح في البلاط العباسي على وجه التحديد من مميزات الحرس التركي.⁵ ومن أبرز ما لدينا في هذا المجال صورة حامل الغزال (اللوحة عدد 12) التي نقشت على أحد الأعمدة التي عثر عليها في قاعة العرش في قصر الجوسق الخاقاني، والتي برز فيها التأثير التركي ليس فقط على مستوى الأطراف التي تتدلى من النطاق، بل كذلك على مستوى الصياد الناقل لفريسته.⁶ ويزداد الأثر التركي وضوحا عند مقارنة هذه الصورة، باللوحة من العاج المحفوظة في المتحف الأثري بالعقبة (اللوحة عدد 9)، والتي نقش عليها صورة أحد القادة العسكريين، وقد جُسم رأسه وهو ملتفت نحو الجهة اليمنى، أما جسده فقد جُسم في وضعية مواجهة، وقد شدّ وسطه بنطاق دون أن يكون قد تدلى منه شريط إلى الأسفل. كما يكمن الاختلاف أيضا على مستوى السروال ففي حين ارتدى حامل الغزال رداء تحته سروال واسع، والذي عثر على نماذج أخرى منه في رسوم سامراء، ارتدى قائد الحميمة رداء تحته سروال ضيق. وقد جعلت التأثيرات الشرقية التي ميّزت تلك اللوحة وغيرها من اللوحات الأخرى التي عثر عليها في الحميمة، فوت "Foote" يقترح إمكانية أن تكون قد أنجزت في نواحي خراسان أين نشطت الثورة العباسية ثم حملت إلى الحميمة، كتعبير عن نضج الثورة العباسية.⁷

¹ - أصلان آبا (أوقطاي)، فنون الترك وعمايرهم، استانبول 1987، ص 3.

² - خليفة (ربيع حامد)، فن التصوير عند الأتراك الأويغور وأثره على التصوير الإسلامي، القاهرة 1996، ص 80.

³ - خليفة (ربيع حامد)، نفس المرجع، ص 80.

⁴ - Otto- Dorn. (K), *L'Art de l'Islam*, p. 81.

⁵ - Otto- Dorn. (K), *Ibid*, p. 81 ; نفس المرجع، ص 22.

⁶ - Otto- Dorn. (K), *Ibid*, p. 81.

⁷ - Foote (M. Rebecca), "Frescoes and carved ivory from the abbasid family homestead at Humeima" *Journal of Roman Archaeology*, n 12, 1999, p. 428.

كما أننا لا نستبعد أن يكون ذلك القائد أحد جنود الخراسانية. ومن هنا نتبين أهمية النطاق المتدلي كعلامة مميزة في البلاط العباسي للحرس التركي عن القادة الفرس. مما يدل على أهمية الدور الذي لعبه فن التصوير العباسي في الكشف عن التأثيرات الوافدة على البلاط العباسي سواء من فارس، أو من أواسط آسيا.

ورغم أننا لم نعثر فيما وصلنا من رسوم سامراء على أي صورة لخليفة عباسي جالس على العرش كما هو الشأن بالنسبة للقصور الأموية الصحراوية، فإن الميدالية التي نحت عليها الخليفة المقتدر تكشف لنا عن تأثير تركي أو يغوري. فالخليفة المقتدر لم يجسّم على أريكة العرش كما هو الشأن بالنسبة للرسم الجداري الذي يزين صدر قاعة العرش في قصر عمره والذي ظهر فيه الخليفة جالسا على أريكة عالية الظهر، يعلوها عقد نصف دائري يحمله عمودان حلزونيان.¹ أو كما هو الشأن بالنسبة لتمثال الخليفة الذي عثر عليه في قصر الحير الغربي والذي جسّم في هيئة مماثلة لرسم الخليفة في قصر عمرة،² جالسا على أريكة من الطراز البيزنطي وقد وضع ساقيه على منضدة. كذلك لم يجسّم واقفا، كالتمثال الذي عثر عليه في قصر خربة المفجر والذي نحت فيه الخليفة واقفا على أسدين جاثمين على شاكلة ملوك الفرس.³

فخلافًا لهذه التجسيمات ذات التأثيرات الإغريقية- الرومانية ولاسيما الساسانية،⁴ لم يجلس المقتدر على أريكة العرش وإنما جلس متربعًا على كرسي قصير القامة. وقد بينت أتودورن أن أصول هذه الجلسة تركية وترقى إلى أواسط آسيا، إذ نجد لها أمثلة في منغوليا (القرن الخامس والسادس ميلادي)، وسمرقند (القرن السابع والثامن ميلادي)، وكذلك في منطقة تورفان، وبينت أنهما من تأثير الحرس التركي.⁵

ولعل أهم ما يميز هذه الجلسة ليس التريبة في القعود، وإنما وضع الذراعين والأشياء التي يحملها الخليفة في يديه. حيث تثني الذراع اليمنى بطريقة أفقية، تمكن اليد اليمنى من الارتفاع إلى أعلى الصرة أو المعدة، حيث يمسك الخليفة بكأس يوضع دائما في المحور التناظري للجسم. أما الذراع اليسرى فتأخذ شكل قوس يمكن اليد اليسرى من الاستراحة على الفخذ، والتي تمسك عادة بمنديل مطوي.⁶

وبنفس هذه الطريقة جسّم المقتدر وقد أمسك بيده اليمنى كوبا، وباليدي اليسرى مندिला وفي ذلك رمزية معينة. فالكوب يوحى بالقوة والسيطرة الكونية "gobelet cosmique"، كما يبرز لنا كذلك قلب الخليفة العاقل، المصقول بالوساطة إلى درجة أنه أصبح مرآة تعكس الكون. وعادة ما يأخذ الكوب شكل المثلث، أي ما يشبه كأس الخمرة لكن بدون ساق. في حين يرمز المنديل إلى المتزلة الرفيعة والنقاوة.⁷

¹ - Fowden. G, *Op.Cit*, p. 116.

² - Fowden. G, *Ibid*, p. 122.

³ - Ettinghausen. R, *From Byzantium to Sasanian Iran....*, p.21.

⁴ - Roux. Jean – Paul, *Etudes d'iconographie islamique, quelques objets numineux des turcs et des mongols*, Paris 1982, p. 83.

⁵ - Otto- Dorn. (K), *Ibid*, p. 83.

⁶ - Roux. Jean – Paul, *Ibid*, p. 84.

حول رمزية الكأس والمنديل انظر:

⁷ - Otto- Dorn. (K), *Ibidem*, p. 83; Barry. M, *Op.Cit*, p. 69; Roux. Jean – Paul, *Ibid*, p. 85.

والكأس والمنديل نراهما أيضا، في لوحة أخرى للخليفة المقتدر نقشت في الواجهة الشرقية لكنيسة أختمار بتركيا الشرقية (303 - 309هـ / 915 - 921 م)، وقد جلس فيها متربعا على وسادة وماسكا بيده اليمنى كأسا وبيده اليسرى مندिला، وعلى يساره أحد المرتزة الأتراك وقد شدّ وسطه بنطاق تدلّى منه شريط إلى أسفل، والذي ذكرنا أنه رمز الحرس الترك.¹

ومن المآثر الأخرى كذلك التي تعود إلى العصر العباسي والتي جسّم فوقها الخليفة متربعا وبيده قدح، ميدالية الطائع لله المؤرخة من سنة 365 هـ / 975 م، وقد جاء في نفس الصفة التي برز عليها المقتدر في ميداليته، متربعا على كرسي قصير، وبيده اليمنى كوبا، وباليدين اليسرى مسك الخليفة مندिला، عدا أنه يضع على رأسه تاج محل العمامة، وتحيط به جاريتان ترقصان وتغنيان.

ويبدو أن صورة الأمير المتربّع في جلسته وبيده قدحا، قد أصبحت من المشاهد المألوفة في الرسوم والنحوت الإسلامية، شرقا وغربا ومن أبرز ما لدينا في هذا الباب العلة من العاج التي جسّم فوقها الأمير المغيرة، ماسكا بيده اليمنى قدحا، لكنه مختلف عما هو متعارف عليه، له بطن منتفخ، وعنق ضيق، يتسع عند الفتحة، والذي عثر على نماذج منه في القطع المغربية.² كذلك لم يتربع الأمير على كرسي قصير القامة، بل على أريكة متسعة يحملها أسدان. ويرجع إلى زرياب نقل عادات بغداد إلى بلاط قرطبة.³ كما سيصبح الكوب أحد الشارات الأساسية لحكام السلاجقة.⁴

اتخذ الخلفاء العباسيون الكأس والمنديل، كشعار من شعار الملك على شاكلة الأمراء البوذيين في منطقة تورفان في آسيا الوسطى وقد لعب الحرس التركي دورا كبيرا في نقل هذه العادات إلى البلاط العباسي. ورغم أن القلقشندي يشير إلى أن المنديل لم يكن من آلات الخلافة وإنما من آلاها البردة،⁵ فقد بيّنت لنا الوثائق الأيكونوغرافية الواصلة إلينا أن الخلفاء العباسيين استعملوا المنديل، وهو الذي أضحي مع الكأس من شارات الخلافة العباسية في المجالس الخاصة والتي توحى بالقوة والعظمة. وقد امتلك الخلفاء العباسيون أعداد كبيرة من المنديل، فقد احتوت خزانة الرشيد على خمسة آلاف منديل أصناف.⁶

بقي أن نشير إلى أن استخدام الخلفاء العباسيين لهذه الشارات كان حكرا على مجالس الشرب والمنادمة، حيث يتربع الخليفة على كرسي قصير أو وسادة أو أريكة تتسع إلى شخصين أو أكثر، ويعتم بعمامة وشي مذهبة، أو يضع على رأسه تاجا، ويمسك بيده اليمنى كأسا وباليدين اليسرى مندिला. كما أن استعمالها كشارات ملك قد بدأ مع هيمنة الحرس التركي على البلاط العباسي، حيث أصبحت تظهر في مجالس الخلفاء كجزء من المراسم العباسية، إلا أنها تبقى حكرا على المجالس الخاصة، أما في المجالس العامة فإن شارات الملك هي البردة والقضيب

¹ - Otto- Dorn. (K), *Ibid*, p. 89; 21 نفس المرجع، ص 140.

² - Roux. Jean – Paul, *Ibid*, p. 87- 88.

³ - Al- Asad (M), « Le faste de la vie quotidienne et les loisirs à la cour des califes omeyyades », dans *Les Omeyyades Naissance de l'Art Islamique*, p. 125.

⁴ - Otto- Dorn. (K), *Ibid*, p. 83.

⁵ - القلقشندي، صبح الأعشى، ج 2، ص 140.

⁶ - القاضي الرشيد، المصدر السابق، ص 215.

والسيف. وبذلك يكون الخلفاء العباسيون قد أنسوا الرمزية أو أحد عناصر الرمزية في المجالس الخاصة فتميزوا بذلك عن الخلفاء الأمويين. كما تميزوا عنهم كذلك باكتسابهم لزي رسمي.

زيّ الخلافة

من رسوم البلاط العباسي كذلك، زيّ الخلافة، ويعرف في المصادر بـ "لبسة الخلافة"، أو "ثياب الخلافة".¹ وكان الغالب على لباس الخلفاء العباسيين اللون الأسود، والذي هو شعار الدولة العباسية. وأول ما لبس العباسيون السواد، حين قتل مروان بن محمد إبراهيم الإمام، لبسوه حزنا عليه فصار شعارا لهم.² وقد مثل عهد الخليفة المأمون استثناء حيث استبدل اللون الأسود بالأخضر، لاسيما أثناء إقامته في خراسان، لكن حالما عاد إلى بغداد أبطل لباس الخضرة وعاد إلى لباس السواد، ويروى أن الفضل بن سهل هو الذي دفع المأمون إلى اتخاذ شعار الخضرة لأنه كان شعار الساسانيين.³

كما اتخذ العباسيون لباس اللون الأحمر، على شاكلة الأباطرة البيزنطيين، وكان يحجر على الرعية لباس اللون الأحمر سواء في بغداد أو القسطنطينية،⁴ لأنه من لباس الملوك.

وكانت ألبسة الخلفاء تصنع في دار الطراز الموجودة بالبلاط العباسي، وكان يشرف عليها موظف يعرف بصاحب الطراز وهو مكلف بمراقبة عمل النساجين، وآلاتهم وحسن سير أعمالهم كما كان يدفع إليهم مرتباتهم، وكان الخلفاء يوظفون على الطراز أهل ثقتهم وأساسا الموالي.⁵ وعلى هذا الأساس فإن دور الطراز تتمثل مهمتها في تلبية الحاجيات الملكية المتزايدة من الثياب، وليست لها أي صبغة رأسمالية.⁶ كما كانت دور الطراز تعنى أيضا بتطريز الملابس الرسمية والأعلام وبعض الأثاث مثل الستائر والبسط، فترسم أسماء الخلفاء على القماش من الحرير أو الديباج أو الابريسم بخيوط من ذهب أو بما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة.⁷ وكان الخلفاء يقدمون هذه الثياب كهدية لحاشيتهم ورجالهم المقربين، وهذه العادة قديمة ترجع إلى عهد الفراعنة الذين كانوا يمدون رجالهم المقربين بثياب مطروزة، كما كانت دار الطراز موجودة بالبلاط الأموي

¹ - الطبري، نفس المصدر، ص 1650؛

- Sourdel. D, « Questions de cérémonial abbasside », *Op. Cit*, p.132.

² - الصابني (أبو هلال)، رسوم، ص 74.

³ - ابن طيفور، كتاب بغداد، ص 9- 10؛ العلي (صالح أحمد)، "ألوان الملابس العربية في العهود الإسلامية الأولى"، مجلة المجمع العلمي العراقي، 1976، ج 27، ص 76- 77؛

- Sourdel. D, *Ibid*, p.133 ; Ahsan. M .M, *Op. Cit* , p. 51.

⁴ - Mansouri. M. T, *Op. Cit*, p. 166.

⁵ - ابن خلدون، المقدمة، ص 299- 300؛

- Grohmann. A, s v « Tiraz », *E. I.*, t IV 2 , p. 826.

⁶ - Chapoutot. M .R, « Réflexions sur l'industrie textile dans le monde musulman au moyen age . A propos d'un livre récent », *Annales. E. S.C.*, n 3- 4, Mai- Aout 1980, p. 508.

⁷ - ابن خلدون، نفس المصدر، ص 299.

في الشام وكذلك في الأندلس.¹

وإلى جانب الملابس التي كانت تصنع في دار الطراز، كانت تقد إلى دار الخلافة العباسية أنواع أخرى من الثياب من البلدان والولايات المختلفة مثل الثياب " التوزية " من فارس، والثياب " المنيرة " من الري.²

وقد تأتق الخلفاء العباسيون في ألبستهم، فكانوا يتخذون أقمشتها من الوشي والدياج، الذي كان يجلب من طرز تستر وكذلك من بلاد الروم، والخزّ وكان يجلب من طرز السوس.³ لكن الخليفة المهدي اتبع سياسة مخالفة لأصحابه فقلّل من الفراش واللباس ورفع الدياج.⁴

وينسب إلى الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، أول من اتخذ الوشي في الإسلام، فكان لباسه في ركوبه وجلسه وعلى المنبر.⁵ فترك بذلك ميراثا للعباسيين طوروا فيه، حيث أصبح لهم زيّا رسميا، أما الأمويين فيذكر جربار أنه لم يكن لهم لباسا رسميا.⁶ فلم يميّز الأمويون أنفسهم عن غيرهم في اللباس إلا من حيث النفاسة والكثرة.⁷

بقي أن نشير إلى أن زيّ الخلافة العباسية لم يتخذ شكلا رسميا منذ البداية وإنما تطور عبر الزمن،⁸ وقد مثل خليطا متجانسا يجمع في نفس الوقت بين الزيّ العربي، والفارسي والتركي. كما استحدث العباسيون أنواعا جديدة من الألبسة لم تكن موجودة من قبل. وتتمثل أهم ألبسة الخلفاء العباسيين في:

- الدراعة، ذكر ابن منظور بأنها جبة مشقوقة المقدم، وذكر العبيدي أنها نوع من الجباب، وهي عند سوردال رداء فتحت أزواره من أمام.⁹ كانت من لباس الخلفاء العباسيين الرسمي، وكانوا يلبسوها في جميع المناسبات الخاصة والعامة وكذلك في المواقب. فقد كان الهادي يرتدي دراعة في مجلس المعين،¹⁰ وجلس الرشيد جلوسا عاما بطوس وعليه دراعة خزّ سوداء مبطنة بفتك،¹¹ وكان الرشيد يحج سنة ويغزو سنة، وكان يلبس دراعة كتب من خلفها حاج ومن قدامها غاز.¹² وكان الأمين لابس ثياب الخلافة في حصار بغداد وهي دراعة وطيلسان وقلنسوة طويلة.¹³ ولما خرج المعتصم لفتح عمورية لبس دراعة من الصوف.¹⁴

¹ - Grohmann. A, s v « Tiraz », Ibid, p. 826;

- بن حسين (بثينة)، نفس المرجع، ص 28-29؛ خلف (عبد الله)، نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، ج 1، ص 199؛ Grohmann. A, s v « Tiraz », E. I, t IV 2, p. 825-826.

² - الثعالبي، لطائف المعارف، ص 179-182.

³ - الثعالبي، نفس المصدر، ص 174؛ الثعالبي، ثمار القلوب، ص 335؛ الصابئي، رسوم، ص 26.

⁴ - المسعودي، نفس المصدر، ج 4، ص 190؛ اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص 46.

⁵ - اليعقوبي، نفس المصدر، ص 29.

⁶ - Grabar. O, « Notes sur les cérémonies umayyades », Op. Cit, p. 54.

⁷ - حميد (عبد العزيز)، " ملابس الخلفاء في الآثار الإسلامية "، نفس المرجع، ص 317.

⁸ - Sourdel. D, « Questions de cérémonial abbasside », Op. Cit, p. 133.

⁹ - ابن منظور، لسان العرب، ج 5، ص 532؛ العبيدي، المرجع السابق، ص 37؛ Sourdel. D, Ibidem, p. 133.

¹⁰ - الجهشيار، الوزراء والكتّاب، ص 176.

¹¹ - الجهشيار، نفس المصدر، ص 273-274.

¹² - الجهشيار، نفس المصدر، ص 206.

¹³ - الطبري، نفس المصدر، ص 1757.

¹⁴ - المسعودي، نفس المصدر، ج 4، ص 60؛ العبيدي، المرجع السابق، ص 37.

وكانت الدراعة السوداء تستعمل عادة في المجالس العامة، أما في المجالس الخاصة فكانوا يرتدون دراعة ملونة، فقد جلس المهدي في مجلس سرور وعليه ثياب مودة،¹ وكان المتوكل لا يلبس أيام الورد إلا الثياب المودة.² كما ارتدى المتوكل دراعة حمراء في مجلس منادمة.³ وفي متحف برلين قطعة قماش منسوجة من الكتان ذي اللون الأحمر، ومسجلة تحت رقم (S. 16)، تحمل اسم هارون الرشيد، وتزدان بزخرفة من بينها كتابة فيها عبارة "فسيفكم الله"، يرجح العبيدي أنها تمثل دراعة، وقد استند في ذلك إلى القرار الذي اتخذته المنصور والذي أمر أن تكتب بين كتف كل رجل على الدرايع التي يلبسوها عبارة "فسيفكم الله".⁴ وقد ذكرت الدراعة في عهد الرسول، وكانت من أهم ثياب النساء.⁵

كما جرت العادة أن يلبس الخليفة جبة خزّ سوداء بغير قميص، وفوقها دراعة خزّ سوداء وهو آخر ما لبسه الرشيد، عندما جلس جلوسا عاما بطوس، قبل وفاته.⁶ وقد عرّف ابن منظور الجبة بأنها من مقطعات الثياب،⁷ وكانت الجبة لباسا رئيسيا للخلفاء الأمويين، فقد جلس الخليفة عبد الملك في مجلس وعليه جبة ورداء.⁸ ويظهر الخليفة في الرسم الجداري الذي يزين صدر قاعة العرش في قصر عمرة جالسا على كرسي العرش (اللوحة عدد 18)، مرتديا جبة وإزارا ذوي اللون الأصفر الغامق (الزعفراني).⁹

كما جسّم الخليفة عبد الملك بن مروان على الدنانير الذهبية (اللوحات عدد 14 - 15 و 16) واقفا متقلدا سيفه ويلبس جبة. ولما كانت الجبة أكثر الألبسة شيوعا لدى الأمويين، استبدلها العباسيون بالدراعة، وأصبحوا يلبسونها تحتها، عوض القميص كما فعل الرشيد فقد لبس الجبة بغير قميص. أو يلبسون القميص تحت الدراعة، ومن الخلفاء من كان يلبس القميص مرارا مثل العباس، والمنصور، ومنهم من كان لا يلبس القميص إلا مرة واحدة عدا أن يكون معجبا غريبا مثل المهدي والهادي والرشيد.¹⁰ وكان الهادي يلبس قميصا محلولة أزراره.¹¹ إذن أصبحت الدراعة لباسا رسميا للخلفاء العباسيين، يلبسونها فوق الجبة أو القميص، وكانت لا تفارقهم في مجالسهم العامة والخاصة، فقط اختلفت في لونها طبقا للمناسبة.

ورغم أنه لم تصل إلينا رسوم أو صور لخلفاء عباسيين يرتدون الدراعة، فقد عثرنا على صورة مستخرجة من مخطوط مقامات الحريري (نسخة الواسطي)، تظهر لنا الدراعة ككري من أزياء الأمراء. وقد جلس فيها أمير

¹ - الجهشيبار، نفس المصدر، ص 160.

² - النواجي، طلبة الكميت، ص 235.

³ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 120.

⁴ - العبيدي، المرجع السابق، ص 37-38.

⁵ - العلي (صالح أحمد)، المنسوجات والألبسة العربية، ص 197.

⁶ - الجهشيبار، نفس المصدر، ص 274.

⁷ - ابن منظور، لسان العرب، ج 1، ص 367.

⁸ - Grabar.O, « Notes sur les cérémonies umayyades », *Op.Cit*, p.54 ;

- حميد (عبد العزيز)، " ملابس الخلفاء في الآثار الإسلامية "، نفس المرجع، ص 317.

⁹ - Fowden. G, *Qusayr 'Amra...*, p. 120.

¹⁰ - الثعلبي، أخلاق الملوك، ص 161-162. (القميص له فتحة من الأمام تصل إلى المقدم، انظر العبيدي، ص 28.

¹¹ - الجهشيبار، نفس المصدر، ص 172.

مرو في وسط الصورة من أعلى، وهو لابس دراعة سوداء مفتوحة من أمام، ذات أكمام طويلة يزخرها شريطان عند الكتف، أما الدراعة فهي خالية من أي زخرفة.¹

لكن يبدو من النصوص التاريخية أن الدراعة قد استبدلت في العصر العباسي الثاني بالقباء، وهو ثياب فارسي الأصل، ويشير دوزي إلى نوعين من الأقيية، أما النوع الأول فيكون طويلا ومقفلا من الأمام بأزرار ومقورا تمام التقوير في موضع الرقبة، وهو يشبه ملابس الأرمن، وتحت هذا اللباس يلبسون الجبة. أما النوع الثاني فهو القفطان نفسه، يطوى تحت الإبط بصورة منحرفة.²

كما أشارت أوتو دورن كذلك إلى الأصول التركية للقفطان.³ وأكد أحمد صالح العلي أن هذا اللباس هو لباس الأعاجم.⁴ وقد أخذه عنهم الخلفاء العباسيون، وأصبح القباء في العصر العباسي الثاني لباسا رسميا، يتخذه الخلفاء العباسيون في المجالس العامة. فبعد أن جلس المعتضد في مجلس سرور، فحضر لينظر في قضية عاجلة، فلبس القباء وأخذ الحربة، وجلس في مجلس عام.⁵ وكذلك في الموابك، فقد دخل الخليفة المعتضد بغداد وهو على فرس وعليه قباء أسود وقلنسوة محددة.⁶

وتواصل لبسه في القرن الرابع هجري فقد جرت العادة كذلك أن يكون جلوس الخليفة في المجالس الرسمية وعليه قباء مولد، أسود، إما مصمتا (أي لا يخالط لونه لون)، أو خزرا.⁷

ولم تصل إلينا صور لخلفاء يرتدون الأقيية في رسوم سامراء، لكن وصلتنا نماذج منها كزيّ من أزياء الحرس التركي، منها صورة قائد (ولعله الافشين) (اللوحة عدد 11) وهو واقف ماسكا بمؤخرة سيفه، مرتديا قباء قصير يصل إلى أسفل الركبة، مزخرف بنقاط في شكل دوائر صغيرة، له كمّان قصيران يزينهما عند الكتف شريطان خاليان من الزخرفة. وقد وضع الجانب الأيسر للقباء فوق الجانب الأيمن، وشدّ بنطاق يتدلى منه شريط إلى الأسفل، وقد لبسه فوق جبة طويلة لها كمان طويلا ضيقان، ومزخرفة بأشكال هندسية في شكل معينات داخلها علامات.

وقد ظهر في مثل هذا الزي قائد آخر (اللوحة عدد 13)، وقد ارتدى قباء من النوع المتقدم ذكره قصير إلى فوق الركبة يزينه شريط في الأسفل، له كمّان قصيران يزينهما كذلك شريط، وقد شدّه بنطاق يتدلى منه شريط إلى الأسفل، إلا أنه يختلف عنه من حيث الزخرفة واللون، فقد زخرف بمعينات داخلها نقاط حمراء، وقد لبسه أيضا فوق الجبة.

¹ - العبيدي، المرجع السابق، ص 258-259، اللوحة عدد 53.

² - دوزي (رينهارت)، "المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب" نفس المرجع، ص 176.

³ - Otto- Dorn. (K), *L' Art de l' Islam*, p. 85.

⁴ - العلي (صالح أحمد)، المنسوجات والألبسة العربية، ص 201.

⁵ - ابن الجوزي، المنتظم، ج 12، ص 315.

⁶ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 255.

⁷ - الصابئي (أبو هلال)، نفس المصدر، ص 90.

وقد ذكر المقرئزي وهو مصدر متأخر أن الخليفة المعتصم، هو أول من خلع لباس العرب وزيّهم وتزيّا بزّي العجم.¹ كما ذكرت لنا المصادر مشاركة الأمراء والقواد الخلفاء في لبس الأقبية.² لذلك يمكن القول بأن الحرس التركي كانوا وراء استبدال الخلفاء العباسيين القباء بالدرّاعة في العصر العباسي الثاني.

ومن المآثر التي يظهر فيها القباء كزّي من أزياء الأمراء أو الحكام، اللوحة الواقعة في غرة الصفحة الأولى من الجزء الرابع من كتاب الأغاني بدار الكتب المصرية (عدد 36)، وقد جلس فيها الأمير على كرسي تحيط به الجوّاري، وعلى رأسه قلنسوة ولايسا قباء أزرق مزخرف بأشكال هندسية مذهبة، وهو من نوع القباء المفتوح، وقد وضع الجانب الأيمن للقباء فوق الجانب الأيسر، وثبت بنطاق. ويحيط بفتحة القباء عند الرقبة شريط ذهبي خال من الزينة، وله كمان طويلان يصلان إلى الرسغين يزينهما شريطان عرضيان عند الكتفين، ويمتد القباء في طوله إلى ما تحت الركبة، كما تردي الجوّاري التي تحيط بالأمير أقبية متشابهة من حيث التفصيل إلا أنّها تختلف في لونها والزخرفة التي تحليها. فقد شارك الأمراء السلاجقة الخليفة العباسي في لبس القباء.

ومن ألبسة الخلفاء العباسيين الرسمية بالإضافة إلى الدرّاعة والقباء كذلك الطيلسان. وقد ذكر منذ بداية الدولة العباسية. فقد لبس الأمين ثياب الخلافة في حصار بغداد وهي درّاعة وطيلسان وقلنسوة طويلة.³ والطيلسان أصله فارسي معرب يلبس على الكتف، وقيل أيضا أن شكله مربع يجعل على الرأس فوق العمامة، أو القلنسوة ويغطّي به أكثر الوجه ثم يدار طرفان منه من تحت الحنك إلى أن يحيط بالرقبة جميعا ثم يلتقيان على الكتفين، أما طرفاه الآخران فإنهما يتدليان على الظهر.⁴

ويظهر الطيلسان كزّي من أزياء الخلفاء العباسيين، في صورة من مخطوط متأخر وهو "جامع التواريخ" لرشيد الدين، تظهر الأولى الخليفة العباسي المستعصم بالله (اللوحة عدد 8) واقفا في حشد من أتباعه بين يدي هولاء، لايسا طيلسانا فوق قلنسوة، وهو من قماش أسود وقد غطّي به جزءا من القلنسوة، وكامل الجسم من خلف، حيث بدت أطرافه الخلفية أطول من أطرافه الأمامية، وقد ضمّه من أمام. ويرتدي الخليفة تحت الطيلسان جبة تبدو ظاهرة في الصورة. ويبدو من هذه الصورة أن الطيلسان ظلّ لباسا رسميا، للخلفاء العباسيين حتى سقوط الخلافة العباسية ببغداد.

أما لباس القدمين فيتمثل في الخفين، وقد اتخذوها من النوع المبطن بالسّمور والفنك وسائر أنواع الوبر، وقد جعلوا في كلّ خف سكّين ومنديل،⁵ حيث يستعمل السكّين لإدخال الساق، في حين تستخدم المنديل لتنظيف الخف. وقد احتوت خزانة الرشيد على أربعة آلاف زوج خفاف.⁶ وفي القرن الرابع أصبح الخليفة يلبس الخف الأحمر في المجالس الرسمية، وينكر على الآخرين لباسه داخل دار الخلافة،⁷ وقد ذكرنا أنه أصبح من رموز الملك.

¹ - المقرئزي، النزاع والتخاصم، ص 108.

² - الصابيّ، رسوم، ص 92.

³ - الطبري، نفس المصدر، ص 1757.

⁴ - العبيدي، نفس المرجع، ص 269.

⁵ - القاضي الرشيد، المصدر السابق، ص 218.

⁶ - القاضي الرشيد، نفس المصدر، ص 218.

⁷ - الصابيّ، رسوم، ص 75-90.

ولم يكتف العباسيون بهذه الألبسة، التي اقتبسوها عن الفرس والترك والروم، بل استحدثوا ألبسة جديدة نسبت إلى أسمائهم. فقد استحدث الرشيد نوعاً من الألبسة يسمى الإزار الرشيدي،¹ والإزار والمئزر والإزار هي ما يلتحف به.² وقد كان كذلك من لباس الخلفاء الأمويين، على ما نراه في رسم الخليفة في قصير عمرة (اللوحة عدد 18)، الذي كان واضعاً على كتفيه إزار،³ كما التف الشخصان اللذان يذبان عنه كل واحد منهما بإزار. لكن ما يميّز الإزار الرشيدي هو أنه عريض الأعلام، شديد التضريح.⁴

ولبس المعتصم الثياب الضيقة الأكمام، فضيّق الناس أكمام ثيابهم، كما لبس الخفاف الكبار.⁵ أما المتوكل فقد أحدث، لباس الملحمة، فكانت لباسه ولباس كل من في داره من كبير وصغير. وقد وصفها صلاح الدين المنجد، بأنها ثوب مسدود لا فتحة فيه، وقد شهرت باسمه فصارت تعرف بالثياب المتوكلية.⁶ كما ينسب إلى الخليفة المستعين أنه أول خليفة وسع أكمام الثياب، فجعلها ثلاثة أشبار وأكثر.⁷ فنتج عن ذلك أن تطور الزي العباسي، ولم تبق الألبسة التي أخذها العباسيون عن الفرس والترك على حالها.

أحدث إذن الخلفاء العباسيون لباساً رسمياً في البلاط العباسي، تمثل عموماً في الدراعة، والقباء والطيلسان، ورغم أن الخلفاء العباسيين قد أخذوا هذه الألبسة عن الفرس والترك، إلا أنهم أضفوا عليها صبغة عباسية، فقد كان الغالب عليها هو السواد، عدى في المجالس الخاصة حيث يستخدمون الألوان المتنوعة الموردة والحمراء. وقد أصبح زيّ الخلافة من مظاهر الهيبة داخل البلاط، فقد روى الحسن بن معاذ أنه كان يخلو مع موسى الهادي فلا يجد له هبة في قلبه، فإذا تلبس لبسة الخلافة وجلس في مجلس عام يأمر وينهى، صار لا يملك نفسه من الهيبة والرعدة.⁸

وكان يوضع فوق السواد من لباس الخلفاء بردة الرسول محمد.⁹ ولم تكن الطويلة من ثياب الخلافة وإنما كانت تمثل شارة أخرى على حده، فلما قلّد الأتراك المستعين الخلافة، ألبسوه الطويلة وزيّ الخلافة.¹⁰ وكان الأمين مثلما أشرنا إلى ذلك لا يلبس في حصار بغداد ثياب الخلافة وهي دراعة وقلنسوة وطيلسان دون ذكر الطويلة. اتخذ الخلفاء العباسيون زيّ الخلافة وطوروه كرمز من رموز الملك،¹¹ من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى

1- الطبري، نفس المصدر، ص 1709.

2- العبيدي، نفس المرجع، ص 181.

3- Fowden. G, *Qusayr 'Amra...*, p. 120.

4- الطبري، نفس المصدر، ص 1709.

5- اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص 43.

6- اليعقوبي، نفس المصدر، ص 44؛ المسعودي، نفس المصدر، ج 4، ص 255؛ المنجد (صلاح الدين)، بين الخلفاء والخلفاء في العصر العباسي، بيروت 1957، ص 153.

7- اليعقوبي، نفس المصدر، ص 45؛ العلي (صالح أحمد)، المنسوجات والألبسة العربية، ص 222.

8- الطبري، نفس المصدر، ص 1651.

9- الطبري، نفس المصدر، ص 1965.

10- الطبري، نفس المصدر، ص 1934.

11- الثعالبي، آداب الملوك، ص 106.

عهد الخليفة المستكفي، وقد تأثروا في ذلك بالملوك الساسانيين والأباطرة البيزنطيين،¹ فأحدثوا بذلك قطعة مع فترة الخلفاء الأوائل، والخلفاء الأمويين. ومن رموز الخلافة الأخرى التي اتخذها العباسيون في المجالس:

ع المذبات

تستخدم للذب عن الخليفة، صار يحملها في القرن الرابع هجري خدم صقالبة يقفون من وراء السرير وعلى جانبيه ويذبون عن الخليفة.² أو تحملها الوصائف، فقد دخل الشاعر أبو نخيلة على الخليفة أبي العباس وعلى رأسه وصيفة تذب عنه.³ وقد اتخذها العباسيون من القماش الفاخر وكانت تزين بالذهب والفضة.⁴

وقد وردت إشارة في كتاب الأغاني تفيد بأن الأمويين لم يعرفوا المذبات وأنهم كانوا يستخدمون المنديل للذب عن الخليفة، وإنما المذاب عباسية.⁵ لكن الإيكونوغرافيا بينت عكس ذلك، فمن بين الرسوم التي تزين صدر قاعة العرش في قصر عمرة صورة خليفة جالس على العرش لعله الوليد الأول (اللوحة عدد 13) وحوله جاريتان تذببان عنه، وقد صوروا على هيئة بيزنطية.⁶

لكن يشير كانار إلى أن المذاب لم تكن معروفة لدى البيزنطيين.⁷ أما الفرس ففي نقش تنصيب أردشير نحت عبد وهو واقف وماسك بمذبة عالية فوق رأس سيده.⁸ وقد تأثر بهم الخلفاء العباسيون فكانوا أول من استخدم المذاب في الإسلام حسب النصوص، فطوروا بذلك أحد عناصر رمزية الملك. كما استعمل العباسيون رمزا آخر من رموز السلطة أو الملك وهي:

ع الشمسة، وكانت تحمل على رأس الخليفة في المواكب ويختص بحملها أحد القواد وكانت تزين بالجوهر النفيس، كتلك التي كانت مع صالح الأسود في الموكب الذي أرسله المعتضد للحج سنة 294 هـ / 907 م.⁹ وكان لها موظف خاص في دار الخلافة، فقد كان عبد الملك بن الزيات يتولى ما كان أبود يتولاه للمأمون من عمل المشمس والفساطيط قبل أن يوليه المعتصم الوزارة.¹⁰ وقد تواصل استخدامهما إلى أواخر العصر العباسي وصارت من شارات الملك الأساسية في موكب الحج هي والمحفة.¹¹ وهي ذات دلالة رمزية هامة فهي تغطي رأس الخليفة من الشمس.¹²

¹ - Piltz. (E), « Middle Byzantine Court Costume » *Op Cit*, p. 39- 42- 43- 44; Kondakov. N. P, " Les costumes à la cour byzantine", *Byzantion*, t I, 1924, p.11.

² - الصابئي، رسوم، ص 81- 91.

³ - الأصفهاني، الأغاني، ج 20، ص 257.

⁴ - الصابئي، نفس المصدر، ص 91.

⁵ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 13، ص 197.

⁶ - Zayadine. F, "The Frescoes of Quseir Amra" *The Department of Antiquities of Jordan*, Amman 1997, p. 5.

⁷ - CANARD.M, « Le cérémonial Fatimide », *op.cit*, p 408.

⁸ - كريستنسن، نفس المرجع، ص 78.

⁹ - الطبري، نفس المصدر، ص 2154.

¹⁰ - الطبري، نفس المصدر، ص 1837.

¹¹ - الخزرجي، المسجد المسبوك في سيرة الخلفاء والملوك، ص 162 ظهر. (المحفة وهي محمل على أعلاه قبة، انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج 2، ص 145.

¹² - CHalmeta. (P), sv « Mizalla », *E.I*, v VII, p. 192.

إن العباسيين أول من اتخذ الشمسة في الإسلام، فلم تشر المصادر إلى استخدامها من قبل الأمويين، كذلك يذكر كانار أن البيزنطيين لم يعرفوا المظلة البتة.¹ وقد مكثوا الخلفاء الفاطميين من تبني هذا الرمز من رموز السلطة وتطويره، وأصبحت الشمسة عندهم تعرف بالمظلة، وترمز إلى الفخامة والأبهة، شأنها في ذلك شأن ثياب الخلافة والتي تكون دائما مناسبة لها، وصار استخدام المظلة عندهم في ارتباط وثيق بالنسب وبالتعاقب على السلطة.² ولم نثر في المآثر التي تعود إلى العصر العباسي على أي صورة للمظلة، التي أصبحت أحد شارات الخلافة العباسية في الموكب، إلى جانب الحربة.

ع الحربة، كان حملها من قبل الخلفاء العباسيين في المواكب تقليدا للرسول والتي كانت تعرف في عهده بالعنازة، وهي عبارة عن شيء وسط بين العصا والرمح، تشبه الرمح على مستو الرأس،³ وأصلها يعود للنحاشي ملك الحبشة الذي وهبها للزبير بن عوام فأهداها للرسول، وصار يمشي بها بين يديه في العيدين، وتركز في الفناء وقت الصلاة، ثم يأخذها المؤذنون ويحتفظون بها.⁴ وواصل الخلفاء الأوائل المشي في الأعياد بالعنازة للصلاة على شاكلة الرسول كما استعملها الولاة في الأقاليم.⁵

وقد وقع التخلي تدريجيا عن عادة استخدام العنازة وقت الصلاة، وأصبحت في العصر العباسي تلعب دورا هاما في المراسم،⁶ كشعار من شعارات الملك في الموكب واختص موظف بحملها، وكان في العادة صاحب الشرطة (محمد بن العباس بن المسيب بن زهير في عهد الخليفة المأمون).⁷ وفي عهد الخليفة المتوكل صارت حربة الرسول للخلفاء العباسيين، فكان يحملها بن يديه صاحب الشرطة، في حين يحمل حربه خليفة صاحب الشرطة.⁸ وبهذا يضاف عنصر رابع للبردة والقصيب، والسيف ليدل على وراثة العباسيين للنبوّة.

ويبدو أن العباسيين قد طوروا من استخدامها فيما بعد وصاروا يمسكون بها في مجالسهم العامة. فبعد أن جلس الخليفة المعتضد في مجلس سرور، نحض لمعالجة أمر مهم، فلبس قباء، وأخذ بيد حربة وجلس جلوسا عاما.⁹ فقد أصبحت من شارات الملك التي قد تستخدم عوض القصيب.

ومن المآثر الإسلامية التي جسّمت فوقها العنازة، الدرهم الفضي الذي ضرب في دمشق في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان بين حوالي (76هـ / 695 م - 80هـ / 699 م)، حيث نقش على الوجه صورة الملك

¹ - CANARD.M, « Le cérémonial Fatimide », *op.cit*, p 408.

² - Sanders (Paula), *Ritual Politics and the City in Fatimid Cairo*, United States of America, 1994, p. 25.

³ - Miles. (C. G), « Mihrab and Anazah... », *Op.Cit*, p. 166.

⁴ - الطبري، نفس المصدر، ص 1916.

⁵ - E.I, t I, « 'Anaza », p. 496; Miles. (C. G), *Ibid*, p. 165.

⁶ - Miles. (C. G), *Ibidem*, p. 165.

⁷ - ابن طيفور، كتاب بغداد، ص 14-20.

⁸ - الطبري، نفس المصدر، ص 1916.

⁹ - ابن الجوزي، المنتظم، ج 12، ص 315.

الساساني كسرى الثاني، وعلى رأسه غطاء رأس مختلف، أما الظهر فقد نقش عليه صورة محراب ورمح يعتقد مايل أنه يمثل عنازة وقد وضعت بين عمودين.¹

استعمل العباسيون الحربة كرمز من رموز الملك في الموكب ثم في المجلس، فطوروا بذلك أحد رموز الملك الإسلامي وتميزوا بها عن الملوك الفرس والأباطرة البيزنطيين. كما استعملوا الأعلام.

لا يكتمل حديثنا عن شارات الخلافة العباسية دون الحديث عن الأعلام، وهي الرايات التي تحمل خلف السلطان عند ركوبه، لذلك فهي تعد من الآلات الملوكية.² وقد اتخذها العباسيون شعارا لخلافتهم في الموكب، وكانت تعرف بالسودة، لأن شعار الخلافة العباسية كان السواد، وقد اختلف في سبب اتخاذ الخلفاء العباسيين للسواد، ف قيل اتخذوه حدادا على إبراهيم الإمام، وقيل أيضا لأن راية الرسول كانت سوداء يوم حنين وعند فتح مكة.³ والأرجح لدينا أنهم اتخذوه اقتداء بالرسول لأن لون السواد يرمز لنموذج النبوي. هذا بخلاف علم الرسول الذي كان يسمى عقاب، كما كان الرسول يحمل راية لينادي بها أتباعه للصلاة.⁴ ويرى مايل بأن المنقوش على ظهر الدرهم الفضي المذكور ليس فقط عنازة وإنما علم وعنازة وذلك في محاولة من المصور لابرار رمزية معينة وليس لأن الراية ترتبط مباشرة بالعنازة.⁵

أما العباسيون فقد استعملوا الأعلام لتمييزهم في الموكب،⁶ وكانت للعباسيين رايات أخرى تعرف بالألوية، وتميز بكونها مكتوبة بكتابة مذهبة في شكل أدعية وتستعمل في الحروب، مثل اللواء الذي عقده المأمون لطاهر بن الحسين عندما انتدبه إلى مضر لمحاربة نصر بن شيث، وقد كتب عليه " يا منصور".⁷ فقد درج العباسيون على تطريز أعلامهم فطوروا بذلك أحد رموز الملك الإسلامي.

بناء على ما سبق نستنتج أولا أن الخلفاء العباسيين اتخذوا رموز الملك لدى الساسانيين والبيزنطيين، وكذلك لدى أمراء الأويغور في أواسط آسيا، ولو أن الكثير من هذه الرموز ورثها العباسيون عن طريق الأمويين اللذين ورثوها بدوهم عن البيزنطيين والفرس. لكن لم يكتف العباسيون بتقليد البيزنطيين أو الفرس أو الترك في شارات الملك، بل اتخذوا شارات ملك إسلامية، وتمثل في البردة والقضيب والخاتم، والحربة والسيف إلخ وهي كلها آلات ورثها العباسيون عن الرسول، وفي ذلك رمز للانتماء والوراثة والخلافة.

ثانيا، توحى رموز الملك التي اتخذها العباسيون بنوع من الازدواجية أو الثنائية، ففي حين اختصت بعض الرموز مثل البردة والقضيب والخاتم والطويلة والدراعة السوداء والقباء الأسود، ثم في مرحلة لاحقة مصحف عثمان والخف الأحمر بالمجالس العامة، اختصت رموز أخرى مثل الكأس والمنديل والتاج المورق أو عمامة الوشي المذهبة والثياب الموردة أو الحمراء بالمجالس الخاصة، بينما اختصت الشمس، والحربة والأعلام بالموكب.

¹ - Miles. (C. G), « Mihrab and Anazah... », *Op.Cit*, p. 164.

² - القلقشندي، صبح الأعشى، ج 2، ص 142.

³ - القلقشندي، مآثر الأنافة، ج 2، ص 236.

⁴ - E.I, t I, « Alam », p. 359.

⁵ - Miles. (C. G), « Mihrab and Anazah... », *Ibid*, p. 167- 168.

⁶ - الأصفهاني، الأغاني، ج 16، ص 165.

⁷ - ابن طيفور، كتاب بغداد، ص 25.

لم يعرف العباسيون التاج إلا بصفة محتشمة وفي بعض المناسبات الخاصة، وقد بينت لنا الوثائق الأيكونوغرافية أن ما تسميه النصوص تاجا ما هو إلا قلنسوة محددة بشريط من الأحجار الكريمة، وملفوفة حولها عمامة، وبالتالي فالتاج العباسي ليس تاجا بالمعنى الأجنبي للكلمة، وإنما هو تاج- عمامة، والذي غدا الرمز الصريح للخليفة العباسي.

ثالثا ساهم الفنانون الأويغور الذين شاركوا في عمل الرسوم الجدارية بسامراء في الكشف عن تأثيرات تركية في البلاط العباسي لم تكن معروفة من قبل شملت رموز السلطة وتجلت أساسا على مستوى لباس الخلفاء العباسيين للقباء، والحرس التركي للنطاق الذي يتدلى منه شريط إلى أسفل، واتخاذهم لشارات ملك تركية ترمز إلى القوة والعظمة وتتمثل في الكأس والمنديل، والتي جسّمت فوق بعض الميداليات التي تحمل صورة شخصية لخلفاء عباسيين، مما يدل على أهمية التصوير العباسي في الكشف عن التأثيرات الوافدة من أواسط آسيا. ويجعلنا نقر أيضا بدور الفنانين الفرس في دخول التأثيرات الساسانية إلى البلاط العباسي، والذين كان دورهم قويا لاسيما في العصر العباسي الأول، فمن السهل على المصور الفارسي كما هو الشأن بالنسبة للتركي أن ينتقل ليعخدم في البلاط العباسي.

في النهاية إن شارات الملك التي اتخذها العباسيون هي إما شارات دخيلة ورثها العباسيون عن الفرس والبيزنطيين والترك وغيرهم، أو مستحدثة في الإسلام طورها العباسيون وأضافوا عليها صفة ملكية، وفي النهاية لم يحدث العباسيون أي شارة ملك عباسية خاصة بهم، كما فعل الأمويون فقد أحدث معاوية المقصورة بالمسجد وتتمثل في اتخاذ سياج على المحراب فيجاز وما يليه.¹

ويمكن تفسير ذلك برغبة الخليفة العباسي في الظهور بمظهر الوريث للرسول محمد، والمستولي على عرش الملك الساساني، والمنافس للإمبراطور البيزنطي، حتى تحقق في النهاية السيطرة الكونية للخليفة العباسي التي سعى إلى إبرازها ليس فقط على مستوى شارات الخلافة أو الملك بل وكذلك على مستوى نظام الآداب الصارم الذي كان يسود مجالس الخلفاء العباسيين.

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص 302.

3 - آداب المجلس أو التشرifications

لم تقتصر مظاهر السلطة في المجلس على شارات الخلافة أو الملك، بل شملت أيضا التشرifications أو البرتوكول. وهي تتعلق عموما بكيفية الدخول إلى المجلس، والجلوس في المجلس، وبكيفية الحديث إلى الخليفة، والانصراف عن المجلس.

وكان القائم على هذه التشرifications موظف يعينه الخليفة بعد أن يتأكد من أمانته وهو الحاجب.¹ ثم صار حاجب الحجاب وذلك كنتيجة لتطور وظيفة الحجابة في البلاط العباسي.² ينظم دخول الناس وخروجهم. وكانت رسوم الدخول إلى مجلس الخليفة العباسي تمثل خليطا متباينا من عادات وتقاليد ساسانية، بيزنطية، إسلامية وتركية. وقد شهدت هذه الرسوم تطورا خلال العصر العباسي الأول والثاني.

✓ الدخول إلى المجلس

إن أهم ما يكون في التشرifications هو الدخول إلى مجلس الخليفة. وقد بدئ في تنظيم الدخول إلى مجالس الخلفاء العباسيين في عهد الخليفة المنصور، حيث جعل للوافدين بيوتا في قصره يجلسون فيها حتى يؤذن لهم.³ وهناك إشارات أخرى في المصادر تفيد بقاء الجلساء في حالة انتظار، فكان إذا انعقد المجلس يتوافد من يحق لهم الحضور ويجتمعون في أحد الأروقة أو الدهاليز، في انتظار الإذن بالدخول.⁴ كما كان الخلفاء الأمويون من عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان إلى آخر عهد الخليفة هشام يأذنون للناس حتى يدخلوا لمجلسهم،⁵ لكنهم لم يخصصوا لهم قاعات للانتظار، فكانوا يعجون بالموقف أمام باب الخليفة في انتظار الإذن بالدخول أو الانصراف.⁶ كذلك لم تكن للفرس قاعات انتظار بل كانت الجماهير تتدفق أمام البوابة العظيمة التي هي باب الجو الاستقبال.⁷

إن الخليفة المنصور أول من أحدث قاعات للانتظار. وقد تأثر في ذلك بالبيزنطيين، فقد كان القادة، والقناصل وأعضاء مجلس الشيوخ ومن يسمح لهم بالدخول في بيزنطة يجتمعون في القاعة المثمنة الكبيرة ينتظرون قدوم الإمبراطور، وحين يستقر في القاعة التي فيها كرسي العرش والتي يفصلها عن قاعة الانتظار باب ذي مصراعين، يقع الإذن للأشخاص الذين يرغب الإمبراطور في استقبالهم.⁸

¹ - ابن أبي الربيع، سلوك المالك، ص 198؛ E.I, t IV, « Hadjib », p. 47.

² - الصابي، نفس المصدر، ص 78.

³ - الثعالبي، لطائف المعارف، ص 59.

⁴ - الصابي، نفس المصدر، ص 78؛ القالي، نيل الأمالي والنوادر، ص 88.

⁵ - بن حسين (بثينة)، الدولة الأموية، ص 229.

⁶ - الثعالبي، نفس المصدر، ص 59؛ الأصفهاني، الأغاني، ج 13، ص 44.

⁷ - كريستنسن، نفس المرجع، ص 380.

⁸ - Labarte (J), *Le palais Impérial de Constantinople*, p. 168- 169.

كما أحدث الخليفة المنصور عنصرا آخر من عناصر التشريفات في البلاط العباسي، وهو إدخال الناس إلى مجلسه وفق تراتبية معينة، يذكر الثعالبي أن الخليفة المنصور هو " أول من رتب المراتب من الخلفاء ".¹ لكن الثعالبي لم يذكر ما هي نوعية التراتبية. لكن وردت إشارة لدى الطبري تفيد بأنها تراتبية حسب نسب الشرف، فقد طلب معن بن زائدة من الربيع الحاجب أن يجعله في آخر من يدخل، فأجابه: " لست بأشرفهم فتكون في أولهم، ولا بأخسهم نسبا فتكون في آخرهم، وإن مرتبتك لتشبه نسبك ".² أما بنو هاشم فكان يؤذن لهم على الأسنان، عدا ولي العهد فإنه يقدم عليهم.³

وضع المنصور تراتبية تخضع للعامل الجاهلي (مفهوم الشرف) وللسن، مما يدل على سعيه إلى ضبط المسافة التي يجب أن تفصل بين الخليفة وبين سائر الرعية.⁴ وقد تأثر في ذلك بالخلفاء الأمويين، فقد كان معاوية أيضا يدخل الناس إلى مجلسه حسب تراتبية معينة تخضع للشرف القبلي.⁵ وجعل زياد بن أبيه الإذن للناس على السابقة ثم على الشرف ثم على الأسنان.⁶

وفي عهد الخليفة المأمون رتب الدخول على الخلفاء بنظام جديد، فقد جعل الإذن للناس حسب الوظائف، فكان يؤذن أولا للوزراء، ثم للقواد، ثم للقضاة، ثم للفقهاء، ثم للشعراء وأخيرا للمغنين.⁷ وبناء على ذلك يحتل الوزراء المرتبة الأولى في نظام المراتب، ثم يأتي في المرتبة الثانية القواد، وفي المرتبة الثالثة القضاة والرابعة الفقهاء والخامسة الشعراء، في حين يحتل المغنون المرتبة الأخيرة في نظام المراتب.

وقد صار ذلك سنة في الاستئذان في العهد العباسي. وقد تأثر العباسيون في ذلك بالفرس، الذين كانوا يؤذنون للناس حسب الوظائف،⁸ وكذلك البيزنطيون، اللذين كانوا يؤذنون للناس حسب دورهم في البلاط، حيث يقع تقسيمهم إلى مجموعات يطلق على كل مجموعة منها اسم فئة " ordre " أو " voile"، حيث يقع الإذن أولا للفئة الأولى والتي تتألف من الأسياد، ثم يؤذن للفئة الثانية وتتألف من البطارقة، ثم الفئة الثالثة وتتألف من رجال الدين، إلى أن يقع الإذن لجميع المجموعات.... مثلما حدث في حفل استقبال الإمبراطور البيزنطي لسفير لسارازن "sarrasins".⁹

وضع الخلفاء العباسيون بعد المنصور تراتبية معينة في الإذن لمجالسهم، لا تخضع لمفهوم الشرف أو السابقة وإنما تخضع للترتيب الوظيفي، بما أنهم تأثروا بالفرس والبيزنطيين.

¹ - الثعالبي، نفس المصدر، ص 59.

² - الطبري، تاريخ، ص 1589.

³ - الطبري، نفس المصدر، ص 1588.

⁴ - Sadan. (J), « A propos de martaba : remarques sur l'étiquette dans le monde musulman médiéval », R.E.I, v XLI, 1973, p. 57.

⁵ - الطبري، نفس المصدر، ص 968؛ بن حسين (بثينة)، نفس المرجع، ص 232.

⁶ - بن حسين (بثينة)، نفس المرجع، ص 256.

⁷ - القالي، نيل الأمالي والنوادر، ص 88.

⁸ - كريستنسن، نفس المرجع، ص 96.

⁹ - Labarte (J), Op.Cit, p. 189.

أما في يوم الموكب فيقع الإذن للناس حسب التراتبية التالية، يؤذن أولا لولي العهد، ثم لأولاد الخليفة الآخرين، ثم للوزير ثم بعده لأمر الجيش، ثم للكتاب، ثم لأخص القواد، ثم لبني هاشم، ثم للقضاة.¹ أي يصبح ولي العهد يحتل المرتبة الأولى في نظام المراتب، يليه في المرتبة الثانية أخواته، في حين يحتل الوزير المرتبة الثالثة، يليه أمير الجيش في المرتبة الرابعة، والكتاب في المرتبة الخامسة، ثم أخص القواد في المرتبة السابعة، وبنو هاشم في المرتبة الثامنة، في حين يحتل القضاة المرتبة الأخيرة في الموكب، ويقدم منهم قاضي القضاة، عكس في المجلس حيث يحتلون المرتبة الثانية في نظام المراسم.

ولا يقع الإذن إلا بعد أن يدخل الخليفة ويجلس، كذلك لما يقع إدخال فئة يبقى الباقون في حالة ترقب، وحين تستقر يخرج الآذن والذي أصبح حجاب الحجاب في القرن الرابع هجري ليسمح لمن سواها بالدخول. وقد تأثر العباسيون في ذلك بالبيزنطيين حيث لا يقع إدخال أصحاب المراتب إلا بعد أن يجلس الإمبراطور على كرسي العرش، وكلما يقع إدخال فئة يغلق الباب ثم يفتح من جديد لإدخال الفئة الثانية، ثم يغلق ويفتح للفئة الثالثة وهكذا دواليك.²

نستنتج أن الإذن كعنصر من عناصر التشريفات أو البرتوكول، تطور نحو التعقد من عهد الخليفة المنصور إلى عهد الخليفة المأمون وإلى القرن الرابع هجري. لكن يبقى الخليفة المنصور أول من وضع نظام للدخول إلى مجالس الخلفاء، وخلق تراتبية داخلها.³ وقد قام الخلفاء من بعده بتطويرها.

ولم تقتصر مظاهر التشريفات على الإذن، بل شملت طريقة الدخول إلى المجلس، والتي شهدت تطورا خلال العصر العباسي الأول والثاني. فقد كان للداخلين إلى مجلس الخليفة مراتب مختلفة في دخولهم، كما كان لهم داخل المجلس مراتب تتعلق بسلامتهم وقعودهم وانصرافهم. وقد أمدنا الصابي بصورة عامة لنظام بروتوكول الدخول على الخلفاء العباسيين، مينا رسم دخول كل فئة من الموظفين على حدة.

أما الوزير أو الأمير فيذكر أنه لا يقبل الأرض وإنما يكتفي بالتسليم بأن يقول "السلام عليك أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته"، أو قد يعطيه الخليفة يده مغشاة بكفه ليقبلها إكراما له، لكن عدل عن ذلك فيما بعد وصار يقبل الأرض. وأما ولاية العهد من أولاد الخلفاء والأهل من بني هاشم والقضاة والفقهاء والزهاد والقراء، فإنهم لا يقبلون لا اليد ولا الأرض، وإنما يقتصرون على التسليم مثلما كان يفعل الوزير في البداية، وربما خطب قوم منهم بثناء أو بدعاء على الخليفة، لكنهم صاروا يختلطون بالفئة التي تقبل الأرض في القرن الرابع هجري. أما أواسط الجند ومن دونهم وعامة الناس، ومن لا رتبة له فمكرر منهم تقبيل الأرض لأن منزلتهم تقصر عن ذلك.⁴ ويمكن أن نعتبر أن هذا البرتوكول خاص بالمجالس الخاصة وكذلك العامة، إذ نجد من الوافدين من الرعايا.

¹ - الصابي، نفس المصدر، ص 78.

² - Labarte (J), *Op. Cit*, p. 168- 189.

³ - Sadan. (J), « À propos de martaba », *Op. Cit*, p. 58.

⁴ - الصابي، رسوم، ص 31 - 32.

أما سفراء الدول، فإنهم يقبلون الأرض كما فعل سفير ملك الروم، بحضرة الخليفة المقتدر.¹ كما ظهرت في القرن الرابع هجري عادة أخرى تتمثل في السجود أمام الخليفة عندما ترفع الستارة وتقع عين الخليفة على الأمير، وهو ما فعله عضد الدولة عندما استقبله الخليفة الطائع لله سنة 367 هـ / 978 م ليخلع عليه.² كما يحدث أن يقبل الأمير البساط وهو ما فعله ابن أبي الساج عندما وصل إلى المقتدر ليخلع عليه خلع الرضا، فقد قبل البساط أولاً ثم قبل يد المقتدر ثانياً.³ أو قد يقبل الأمير الكرسي مثلما فعل عضد الدولة بحضرة المطيع لله.⁴

كان الناس يدخلون إلى مجلس الخليفة ويسلمون كل حسب طريقته أو مرتبته في البلاط. أما عادة تقبيل اليد فلم تكن حكراً على الخليفة بل شاركه فيها كذلك الوزير، فلما دخل نازوك على الوزير علي بن عيسى قبل يده، لذلك يرى سوردال أنها تمثل علامة تقدير واحترام.⁵

وقد يحدث أن يقبل الزائر في نفس الوقت يد الخليفة ورجله، كما فعل يحيى البرمكي مع الرشيد عندما كان ولياً للعهد.⁶ وعضد الدولة عندما دخل على الخليفة الطائع لله.⁷ أحدثت العباسيون عادة تقبيل يد الخليفة ورجله على شاكلة الإمبراطور البيزنطي.⁸ أما عادة تقبيل اليد عند الفرس فكانت تتم بطريقة مغايرة تتمثل في أن يقبل الزائر يده وليس يد الملك ويطلقها في الهواء، وهو ما نجد لها تجسيماً في نقش داريوس Darius (اللوحة عدد 25).⁹

أو قد يحدث أن يقبل ما بين عيني الخليفة، مثلما فعل القاضي أحمد بن أبي داود مع الخليفة المتوكل عند تقليده الخلافة، فقد ألبسه الطويلة وعممه وقبل ما بين عينيه.¹⁰ وقد تأثروا في ذلك بالساسانيين.¹¹ أما تقبيل البساط فيرمز إلى البلاط، و"وطء البساط" يعني تقديم الولاء للخليفة والاعتراف بسيادته.¹² ورغم أن الصابئ يذكر أن عادة تقبيل الأرض لم تكن من العادات القديمة، يذكر المقرئ وهو مصدر متأخر، أن

¹ - القاضي الرشيد، المصدر السابق، ص 138.

² - الصابئ، رسوم، ص 82.

- Sourdel. D, « Questions de cérémonial abbasside », *Op.Cit*, p.138.

³ - مسكويه، تجارب الأمم، ج 1، ص 82؛

- Sourdel. D, « Questions de cérémonial abbasside », *Op.Cit*, p.138.

⁴ - الصابئ، رسوم، ص 83.

⁵ - الصابئ، نفس المصدر، ص 10؛

Sourdel. D, *Ibidem*, p.138.

⁶ - الجهشاري، المصدر السابق، ص 170.

⁷ - الصابئ، نفس المصدر، ص 83.

⁸ - Canard. M, « Le cérémonial Fatimide », *op.cit*, p 385.

⁹ - Huyse. (PH), *La Perse Antique*, p. 233- 234.

¹⁰ - الطبري، نفس المصدر، ص 1891.

¹¹ - Huyse. (PH), *Ibid*, p. 235.

¹² - Sourdel. D, *Ibidem*, p.138.

الخليفة أبا جعفر المنصور هو أول من أحدث عادة تقبيل الأرض في الدولة العباسية.¹ إلا أنها أصبحت أكثر انتشاراً في القرن الرابع هجري، فلما قلّد المقتدر حامد وزارته قبل الأرض بين يديه.²

وقد تأثر العباسيون في ذلك بالتقاليد الفارسية، والتي تفرض على من يمثل في الحضرة الملكية أن ينحني أولاً قبل أن يقوم بتقبيل الأرض، وذلك اعترافاً بعظمة الملك، ويتراوح الانحناء بين السجود التام أو بين مجرد الجثو أو حني الظهر وهو ما نراه في نقش داريوس Darius (اللوحة عدد 25).³

في حين لم ينتشر هذا الرسم في مجالس الخلفاء العباسيين إلا في حالات نادرة لاسيما في القرن الرابع هجري. وقد ذهب الساسانيون إلى أكثر من ذلك فقد يلقي الزائر بنفسه على الأرض أمام الملك عندما يؤذن له بالدخول ويبقى في هذه الحالة إلى أن يأمره الملك بالوقوف.⁴

نستنتج أن بروتوكول الدخول على الخلفاء العباسيين قد تطور تطوراً كبيراً، إلى درجة أصبح يميل معها نحو التكلف والتعقيد، ويرتبط ذلك بالتراتبية وما تنتجه من مراسم في البلاط، ذلك أن هرمية الامتيازات التي أسستها آداب البلاط تجعل هذه الأخيرة تستمر وتحافظ على وجودها نظراً لأن الأطراف المختلفة تتمسك بالمتزلة التي أفردتها لها تلك المراسم حرصاً على حظوظ النفوذ داخل البلاط، وهذه العملية التلقائية هي التي توفر أساس الاستمرار لنظام المراسم.⁵ وهو عموماً أي " البروتوكول " يختلف عما كان معروفاً في عهد الخلفاء الأمويين والخلفاء الأوائل ، ولا سيما في عهد الرسول فقد كان الزائر يقف ببابه ويقول " السلام عليكم " أ أدخل ويكرر ذلك ثلاثة مرات، فإن لم يؤذن له انصرف.⁶ أما في العصر العباسي فقد أصبح يسلم على الخليفة العباسي كما يسلم على الملك الساساني والإمبراطور البيزنطي.

وكان الرسم كذلك في البلاط العباسي أن يأتي الزائرون إلى مجلس الخليفة بالزي الرسمي. فالوزير يدخل على الخليفة بلباس الوزراء والذي يتألف في عهد الخليفة المهدي من دراعة وطيلسان وشاشية، مع العلم أن الربيع كان يعمل عمل الوزراء دون أن يتسمى به⁷ ثم أصبح في عهد الخليفة المتوكل يتألف من سيف ومنطقة وقلنسوة ودراعة.⁸ أما في القرن الرابع هجري فيتألف زي الوزير من قباء أسود وعمامة سوداء، وهو ما لبسه البريدي وزير المتقي لله، فقد عوض القباء الدراعة كما الشأن بالنسبة لألبسة الخلفاء.⁹

¹ - المقرئزي، النزاع والتخاصم، ص 100؛ الصايي، نفس المصدر، ص 31.

² - مسكويه، نفس المصدر، ج 1، ص 58.

³ - Huyse. (PH), *Ibid*, p. 234.

⁴ - Huyse. (PH), *Ibid*, p. 235 ;

- كريستنسن، نفس المرجع، ص 384.

⁵ - Elias. N, *La société de cour*, p. 71.

⁶ - ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج 1، ص 70.

⁷ - الجهشاري، المصدر السابق، ص 121؛ العلي (صالح أحمد)، المنسوجات والألبسة العربية، ص 230.

⁸ - الطبري، نفس المصدر، ص 1892.

⁹ - مسكويه، نفس المصدر، ج 2، ص 16.

ويقرب من لباس الوزير زيّ حاجب الحجاب والذي يتكون هو الآخر من قباء أسود مولد وعمامة سوداء وسيف ومنطقة.¹ أما الحاجب العادي فيلبس قباء أسود وسيف ومنطقة.² والكتاب في زيّ الكتاب والذي يتألف من قباء وسيف بحمائل، كما كان الكتاب يلبسون الشاشية، كما لبس الكتاب كذلك الدراعة.³ والقضاة بلباس القضاة ويتألف في القرن الرابع هجري من الطيلسان والقمص والدنيات* والقراقفات*، ثم ترك لباس الأخرتين وعدل عنهما إلى العمامم السود المصقولة.⁴ والأمراء والقادة في زيّ الأمراء ويتألف من الأقبية السود والعمائم، والجوارب المشدودة بالزنانير في أرجلهم.⁵ أما لباس ولي العهد فيشبه لباس الخليفة ويتألف من قباء أسود وخف،⁶ فقط يختلف عنه من حيث شارات الخلافة لاسيما البردة، والخف الأحمر.

فقد كان لكل فئة في البلاط العباسي، زيّها الرسمي الذي يتناسب مع دورها في البلاط، وذلك على شاكلة أصحاب المراتب والجيش و المشاة، والفرسان... في البلاط البيزنطي، حيث خصت كل فئة منهم بزيّ موحد، واللذين قلّدوا بدورهم الساسانيين.⁷ إلى درجة أن أحد المؤرخين شبه الحياة في البلاط البيزنطي بسلسلة من الاستعراضات المسرحية.⁸

إن زيّ الداخلين إلى البلاط العباسي يوحى برتبهم داخل المجلس لأنه مرتبط بوظيفتهم. وإلى جانب الزيّ لا بد أن يدخل الوزير نظيفا في بزته وهيأته، وقورا في خطواته ومشيه ومتبخرا بالبخور الذي تفوح رائحته منه، وعلى هيئة الوزير تكون هيئة باقي الحضور من أصحاب المراتب.⁹ وكان الدخول إلى المجلس يتم وفق مراسم وآداب وكذلك الجلوس في المجلس.

✓ الجلوس في المجلس

كان الداخلون إلى مجلس الخليفة على مراتب مختلفة في سلامهم ولباسهم وكذلك في جلوسهم. فقد كان لهم مراتب داخل المجلس تتراوح بين الجلوس والوقوف. ويتولى حاجب الحجاب وخلفاء الحجاب ترتيب هؤلاء

¹ - الصابئي، رسوم، ص 78.

² - الصابئي، نفس المصدر، ص 81- 82.

³ - الجهمشاري، المصدر السابق، ص 261؛ الطبري، نفس المصدر، ص 1837؛ نفس المرجع، ص 231.

⁴ - الصابئي، نفس المصدر، ص 91.

* الدنية، قلنسوة في شكل الدن طولها شيران، العبيدي، نفس المرجع، ص 93. اللوحة 21.

* القرقة، وهي القلائس المستديرة الضخمة. العبيدي، نفس المرجع، ص 135. اللوحة 55.

⁵ - الصابئي، رسوم، ص 92.

⁶ - الصابئي، نفس المصدر، ص 92.

⁷ - Kondakov. N. P., "Les costumes à la cour byzantine", *Op.Cit*, p.10- 11 ;

حول أزياء أصحاب المراتب في البلاط البيزنطي انظر؛

Piltz. (E), « Middle Byzantine Court Costume » *Op Cit*, p44- 47.

⁸ - Kondakov. N, *Ibid*, p.9.

⁹ - الصابئي، رسوم، ص 32.

الناس وإيصالهم إلى منازلهم أو مراتبهم.¹ أي إلى أماكن جلوسهم أو وقوفهم حسب الرسم المعمول به، والذي يختلف من خليفة إلى خليفة ومن عصر إلى آخر.

ففي عهد الخليفة أبي العباس السفاح كان الناس يدخلون إلى مجلس الخليفة ويجلسون وفق تراتبية تعتمد الأثاث كأداة تمييز بين الفئات، فقد كان هو يجلس على السرير، بينما يجلس بنو هاشم دونه على الكراسي، ويجلس بنو أمية على وسائل قد ثبتت لهم.²

وقد تبعه في ذلك الخليفة المنصور، إلا أنه اعتمد على آلة جلوس أخرى وهي المرفقة وقد اختلف في وضعها تبعاً لرتبة الشخص، فقد كانت توضع في مجلسه مرفقة تحت البساط للوزير الربيع بن يونس، في حين تطرح مرفقتان ظاهرتان فوق البساط للمهدي وعلي بن موسى، تقصيرا به عن منزلتهما.³ وهما وليا عهده.

أما في عهد الخليفة الواثق فقد أصبح الزائرون يقسمون إلى وقوف وجلوس، ويراعى في الجلوس عامل السن، فمن سنه صغير لا يلحق في الجلوس بمراتب ذوي الأسنان.⁴ وقد كان وصيف يجلس في مجلس الخليفة الواثق على كرسي.⁵ وضع الخليفة الواثق تراتبية للجلوس على السن.

وكان رسم الجلوس في عهد الخليفة الراضي، الأقربون إليه عن يمينه والباقيون عن يساره على ترتيب خاص، فكانوا في المجلس أربعة عن يمينه وخمسة عن يساره.⁶ أي وضع تراتبية للجلوس على اليمين واليسار.

وقد تطور رسم الجلوس في القرن الرابع هجري، فقد أصبح كل الحاضرين في مجلس الخليفة وقوف لا سيما أثناء الاستعداد للخروج إلى الموكب، ويصطفون إلى يمين وشمال سماط يمتد من آخر قاعة العرش إلى صدر المجلس، أين يجلس الخليفة على السرير في صدر السدلي، ويقف الوزير إلى يمين السرير على بعد خمسة أذرع، في حين يقف أمير الجيش إلى يسار السرير، ثم يوزع الكتاب إلى اليمين والشمال حسب مراتبهم، يليهم القواد بنفس الكيفية إلى اليمين والشمال يتقدمهم خلفاء الحجاب، يليهم القضاة. إلا بنو هاشم فإنهم يقفون مفردين.⁷ وفي النهاية نصل إلى صف طويل من الوقوف يمتد من مؤخرة قاعة العرش وحتى صدر الإيوان أين يجلس الخليفة على سرير العرش داخل السدلي والذي يؤكد بهذه الطريقة مركزته ليس فقط بالنسبة لأصحاب المراتب، وإنما كذلك بالنسبة لأفراد الأسرة المالكة العباسية. أما المنطقة الوسطى أي السماط فيترك لمن سيخاطب الخليفة من الشعراء والسفراء والخطباء.⁸ وهو ما يزيد في تكريس محوريته ومركزته.

¹ - الصابي، نفس المصدر، ص 78-79.

² - الأصفهاني، الأغاني، ج 4، ص 241.

³ - الجهشاري، المصدر السابق، ص 125.

⁴ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 76؛ Sadan. (J), « À propos de martaba », *Op.Cit*, p. 61.

⁵ - النيهقي، المحاسن والمساوي، ص 401.

⁶ - الصولي، أخبار الراضي بالله والمتقي لله، ص 9.

⁷ - الصابي، نفس المصدر، ص 79.

⁸ - Sauvaget. J, *La mosquée omeyyade de Médine, étude sur les origines architecturales de la mosquée et de la basilique*, Paris MCMXLVII, p. 132.

ونلاحظ تشابها بين هذا التنظيم وبين الرسم البياني الذي قام به ميكال برسيلو Miquel Barcelo¹ انطلاقا من المصادر التاريخية، وذلك في إطار دراسته للمراسم الخليفة ببلات قرطبة في القرن الرابع هجري/ العاشر ميلادي، والذي يبرز لنا قاعة بازيليكية وهي قاعة العرش التي تدور فيها المراسم، وقد احتشدت بأعداد كبيرة من أصحاب الوظائف والأتباع وقد اصطفوا وقفا بطريقة متساوية مكونين أربعة صفوف يفصلها إلى قسمين متساويين سماط يمتد طولا من مؤخرة قاعة العرش وحتى صدر المجلس أين يقف الخليفة، ثم يقف إلى يمينه ولي العهد أبو الأصبع وخلفه المحيرة وإلى يساره الأصبع أبو القاسم، ثم يوزع الوزراء إلى اليمين واليسار، يليهم أصحاب الشرطة الوسطى والعليا كذلك إلى اليمين واليسار حسب مراتبهم، يليهم أصحاب المخزن بنفس الكيفية، يليهم السُجن يمينا وشمالا، يليهم العراد، يليهم الكتاب الأمناء، وإلى يمين هؤلاء جميعا يصطف الفتان، وإلى يسارهم أشخاص من قبيلة قريش، في حين يقف موالي قرطبة مفردين، وفي النهاية نصل كما هو الشأن بالنسبة إلى بغداد إلى صف طويل من الوقوف يمتد من مؤخرة القاعة وحتى صدر الإيوان أين يقف الخليفة. ويعد هذا الرسم هاما فهو يبرز لنا توزيع أصحاب المراتب في بلاطين إسلاميين من نفس الفترة ببلات بغداد وبلاط قرطبة.

وضع الخلفاء العباسيون تراتبية لتوزيع الجلساء في المجلس، اعتمدت في البداية على الأثاث كوسيلة تمييز وسادة / كرسي، ثم أصبحت تعتمد فيما بعد على علامات محددة مثل فوق وتحت، أكبر وأصغر، اليمين واليسار، مع المحافظة دائما على مكان الصدر للخليفة.

وقد تأثروا في ذلك بالأمويين اللذين كانوا يجلسون معهم أهل بيته على السرير في حين يجلس بنو هاشم على الكراسي،² كما كان الوليد بن عبد الملك يجلس أهل بيته عن يمينه وأخواله عن شماله.³ واللذين قلّدوا بدورهم الساسانيين، فقد كان على من يمثل في حضرة الملك الساساني أن يبقى واقفا في مكانه حسب مرتبته لا سيما بعد أن يكون الملك قد أمره بالنهوض، أو أن يأمره الملك بالجلوس إما على أريكة على الأرض، أو إلى جانبه على السرير على يمينه أو شماله ولا بد له في هذه الحالة أن يقول بعض الجمل المناسبة التي تعبر عن دعائه للملك الذي خصه بهذا الامتياز قبل أن يجلس.⁴

وقد ورث الأمويون هذه العادة عن الفرس فكان الخليفة الأموي دائما يجلس معه على السرير شخصا يختصه.⁵ أما في العهد العباسي فإن هذه الظاهرة لم تكن منتشرة بكثرة فقط الخليفة المأمون الذي يذكر ابن العماري أنه كان يجلس معه على السرير ولي عهده علي الرضا.⁶

¹ - Barcelo (M), « El califa patente : el ceremonial omeya de cordoba o la escenificacion del poder », dans *Madinat al- Zahra el Salon de Abd al-Rahman III*, Cordoue, 1995, p. 159.

² - الأصفهاني، الأغاني، ج 4، ص 241؛

- Sauvaget. J, *Op. Cit*, p. 132.

³ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 4، ص 221.

⁴ - Huyse. (PH), *La Perse Antique*, p. 235.

⁵ - الأصفهاني، الأغاني، ج 17، ص 174.

⁶ - ابن العماري، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص 198.

أما إبقاء الزائرين وقوفا، فإن هذه الظاهرة لم تكن معروفة من قبل، كما أنها ظهرت في البلاط العباسي في القرن الرابع هجري، لذلك يمكن القول بأنها من تأثير الحرس التركي، لاسيما وأن أمل إيسين تذكر أن الرسوم المائية التي عثر عليها هرتزفلد منقوشة على اثني عشرة عمودا في قاعة العرش في قصر الجوسق الخاقاني والتي تحمل صور أشخاص، قد وزعت في قاعة العرش بنفس ترتيب نظام المراسم الذي تحدث عنه الصايي في وصفه لتوزيع أصحاب المراتب في بغداد. وتبعاً لذلك فإن الأشخاص الذين وصلتنا صورهم هم إما يمثلون أمراء الحضرة أو الحاجب أو الشراي أو خدام المعتصم أو من عقب الخاقاني الذين ينسب لهم بناء قصر الجوسق الخاقاني. ولذلك فهي ترى أنه ليس من الخطأ أن تكون تلك الرسوم لبعض أصحاب الوظائف في سامراء وقد وزعت صورهم في قاعة العرش حسب مرتبة كل واحد منهم في البلاط العباسي.¹

كما أصبحت العادة كذلك في القرن الرابع هجري أن يوضع كرسي مربع مغشى، مما يلي الجانب الأيمن من سرير الخليفة يجلس عليه أمير الأمراء في حضرة الخليفة،² فقد جلس الخليفة المستكفي على سرير، وجلس معز الدولة إلى جانبه على كرسي،³ كما جلس المطيع لله على السرير وجلس عضد الدولة إلى يمينه على الكرسي.⁴ ويوحى ذلك بمشاركة شخصية أخرى الخليفة في نفوذه. نستنتج أن رسم الجلوس داخل مجلس الخليفة العباسي قد تطور نحو التعقد من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المستكفي.

ولم يقتصر هذا الرسم على المجالس الرسمية والعامة بل شمل كذلك المجالس الخاصة أي مجالس المندمة، وينسب إلى الخليفة هارون الرشيد أول من جعل للمغنين مراتب وطبقات، على شاكلة ملوك الفرس. فكان في الطبقة الأولى إبراهيم الموصللي وابن جامع وزلزل، وتجلس هذه الطبقة على بعد عشرة أذرع من الستارة، وفي الطبقة الثانية سليم بن سلام وعمرو الغزال ومن أشبههما وتجلس على بعد عشرة أذرع من الطبقة الأولى، أما الطبقة الثالثة فتضم أصحاب المعازف والطناير وتجلس على بعد عشرة أذرع من الطبقة الثانية، وعلى قدر مراتبهم كانت تخرج صلاتهم.⁵

نلاحظ أن مجلس الغناء أيضا هو مضبوط بجرمية معينة، لكن لا يذكر لنا الثعلبي إن واصل الخلفاء بعده السير على نفس هذا الترتيب، لكن بصفة عامة يمكن القول أن رسم الجلوس في المجالس الخاصة يتواصل لكن بأقل حدة، فلا يجوز مثلا لصاحب الشرطة أن يجلس بين يدي سيده في المجالس العامة أما في المجالس الخاصة فطلق.⁶ نستنتج أن مجلس الخليفة هو مجلس مرتب حسب منازل الناس، وتلك المنازل ليس كما ارتضى المجتمع أو أهل المجلس وإنما حسب ما ارتضاه الخليفة، لذلك فهي بمثابة الرسم الذي لا يمكن تجاوزه. ومن ثمة يصبح مجلس

¹ - Esin (Emel), "The turk al-'agam of Samarra and the paintings attributable to them in Gawsaq al- Haqai", in *Kunst des Orients*, IX, 1973- 1974, p. 72.

² - الصايي، نفس المصدر، ص 83.

³ - مسكويه، نفس المصدر، ج 2، ص 86.

⁴ - الصايي، نفس المصدر، ص 83.

⁵ - الثعلبي، أخلاق الملوك، ص 51- 63.

⁶ - ابن طيفور، كتاب بغداد، ص 23.

الخليفة بمنازل الناس اختزالاً لتراتبية المجتمع ككل. وقد كان للجلوس في مجلس الخليفة العباسي رسم محدد، وكذلك للكلام في مجلسه آداب محددة.

✓ آداب الكلام في المجلس

فلا يجوز للدخول إلى مجلس الخليفة أن يذكر شيئاً إلا ما يسأل عنه، أو يورد قولاً في أخبار أو مطالعة إلا ما أستاذن فيه.¹ وإذا سمح له بالحديث فعليه أن لا يعجل في كلامه وأن يدمج ألفاظه ولا يشير بيده، ولا يحرك رأسه ولا يزحف من مجلسه ولا يرفع صوته ولا يلتفت يمينا أو شمالاً.² وسيله كذلك أن يخفض صوته في حديثه ومحاورته ولا يرفعه إلا بقدر السماع الذي لا يحتاج معه إلى استفهامه واستعداته.³ فلا تكفي دعوته إلى المجلس ليجلس حيث شاء، ولأن يتحدث كما يريد، وإنما هو مقيد بآداب محددة.

ويجب عليه كذلك أن يقل الالتفات إلى جانبيه وورائه والتحريك ليداه أو رفع رجله للاستراحة عند الإعياء، وأن يغض طرفه عن كل مرأى إلا شخص الخليفة وحده ومخارج لفظه،⁴ وإن أخطأ الخليفة في قراءة بيت أو رواية حديث فليس من الآداب أن يصب،⁵ كذلك لا يجوز الضحك من كلام الخليفة.⁶ وهذا متأد من مبدأ أن سلطة الخليفة هي مقدسة. ويجب أن يجعل وقوفه من أول مدخله وإلى حين مخرجه في موضع رتبته من غير أن يتجاوزده إلى ما فوقه أو دونه، إلا أن يدعوه الخليفة إلى سرّ يقرب منه فيه.⁷ لأنه لا يقبل أن يتقدم فرد من طبقة دنيا فرد من طبقة عليا.

نلاحظ أن الحياة في المجلس هي حياة تنعدم فيها الحركة الشخصية أمام حركة الخليفة. فهي حياة لا نبض فيها إلا لنبض الخليفة كما تنعدم كل صلة بين الفئات فيما بينهم وتصبح العلاقة الوحيدة فيما بين الوافدين على منازلهم والخليفة. فالخليفة وهو مفرد هو الكل في المجلس والناس على مراتبهم لا ينظرون إلا إليه ولا يسمعون إلا هو، ولا يتكلمون إلا بأمره، ولا ينصرفون إلا بإشارته.

✓ الانصراف من المجلس

لقد أحدث العباسيون عنصراً آخر من عناصر التشريفات وهو إعلام الحاضرين بانتهاء المقابلة، وهي من حقوق الملك حسب الثعلبي، وقد تأثروا في ذلك بالأمويين اللذين قلدوا بدورهم الفرس، فكان أبو العباس السفاح إذا تئأب قام من حضره، وكان المهدي إذا قال يا غلام قام من حضره، وكان الهادي إذا قال: "السلام عليكم"، قام من حضره، وكان الرشيد إذا قال سبحانك اللهم وبحمدك قام سماره، وكان المأمون إذا استلقى على فراشه قام من حضره. وكان المعتصم إذا نظر إلى صاحب النعل قام من حضره، وكان الواثق إذا مسّ عارضيه

¹ - الصابى، رسوم، ص 33.

² - الثعلبي، نفس المصدر، ص 131.

³ - الصابى، نفس المصدر، ص 33.

⁴ - الصابى، نفس المصدر، ص 34.

⁵ - الصابى، نفس المصدر، ص 52.

⁶ - ابن أبي الربيع، سلوك المالك، ص 165.

⁷ - الصابى، نفس المصدر، ص 34-35.

وتشاءب قام سَمَّاره.¹ ومن الآداب أن لا ينصرف الحاضر ظهرياً وأن ينصرف مقبلاً دون أن يراه الخليفة.² وإن كان له طريقان عدل عند خروجه عن أنظار الخليفة.³ وقد كان على من يخرج من حضرة الملك الساساني أن يقبل يد الملك، وتاجه، وعرشه، والأرض ثم ينصرف ظهرياً،⁴ ولم تشر المصادر إل اقتباس العباسيين لهذه العادة.

إن هذه الرسوم الضابطة لآداب الكلام والانصراف هي واحدة مهما كانت صفة المجلس خاص أو عام، وهي لا تختلف كثيراً عن آداب الأكل، فمن هذه الآداب غسل الأيدي قبل بدأ الأكل، وكان الخلفاء العباسيون يحرصون على تطبيقها بكل دقة. فقد أمر المأمون أحد خواصه بإعادة غسل يديه من جديد عندما لاحظ أن يده قد سبقت إلى رأسه وقد أبطأ الطعام.⁵ أما بعد الأكل فلا يجوز لأي كان غسل يديه في حضرة الخليفة إلا إذا أذن له في ذلك، فمن أسباب غضب المعتصم على الافشين أنه دعا بالطست وغسل يديه بحيث رآه المعتصم.⁶ كذلك من الآداب أن لا يشارك أحد الخليفة في صحفته، ولا يجوز الشره أو الكلام في حضرة الخليفة أو النظر إليه، وإذا رفع يديه عن الطعام، فعلى الجميع أن يكفوا عن الأكل وينهضوا عن المائدة و يتواروا عنها، لأن ذلك يعني انتهاء السماط أو المائدة، وإذا أراد الجلوس لهم بعد انتهاء الأكل دخلوا عليه بإذن ثان.⁷

نلاحظ أن الوافد على مجلس الخليفة العباسي مهما كانت طبقته ومهما كانت صفة المجلس، إنما هو مقيد بأمر الخليفة وأنه لا يتجاوزته البتة. فالخليفة هو صاحب المجلس وهو الذي يرتب الأماكن حسب هرمية معينة، وهو الذي يضبط موضوع المجلس ويدير الحوار، ويكلف الحاضرين الإنصات إليه ويقطع حركتهم ويخفف أصواتهم ويحملهم على الخضوع وعدم الإبصار إلا إليه، والانصراف إلا بإرادته، ولعل كل هذا من شأنه أن يرد الخليفة العباسي إلى مقولة "سلطان الله في أرضه"، والتي تزيد عملية تقبيل الأرض في تكريسها. وهكذا تصبح صورة الخليفة العباسي يجلسه على السرير وخلف الستارة، وتوزيعه لأصحاب المراتب، وإدارته للمجلس، صورة مثيرة لمفهوم العرش مكرسة لمبدأ الاستواء ضامنة للسيادة العليا، وهي الصورة التي سعى الخلفاء العباسيون إلى إبرازها ليس فقط عن طريق نظام الآداب والتشريفات بل كذلك عن طريق شارات السيادة والملك، لكن تلك الصورة بدل أن ترد الخليفة العباسي إلى النموذج الكسروي أو البيزنطي، فإنما ترده إلى النموذج النبوي والذي اكتسبه عن طريق وضعه للردة وحمله للقضيبي، وبذلك يصبح الخليفة العباسي وريثاً للرسول محمد وهو ما سعى إليه الخلفاء العباسيون لأنه في النهاية سبب السيادة والاستمرارية والملك. وقد كان مجالس الخلفاء آداب ورسوم، كما كان للحياة داخل الحرم تقاليد وآداب يخضع لها جميع الحرم.

¹ - الثعلبي، نفس المصدر، ص 133.

² - الصابئي، نفس المصدر، ص 35.

³ - ابن أبي الربيع، نفس المصدر، ص 165.

⁴ - Huyse. (PH), *Op.Cit*, p. 235.

⁵ - كشاجم، أدب الندماء، ص 39.

⁶ - الغزولي، مطالع البدر، ج 1، ص 181.

⁷ - الثعلبي، أخلاق الملوك، ص 45-46.

الفصل الثالث: الحياة اليومية داخل الحرم العباسي

تمهيد

إن النظم الدقيقة التي كان يخضع لها قسم الحرم في البلاط العباسي، جعلت من العسير، اختراقها لمعرفة ما كان يدور داخل أجنحته. وإن كانت بعض المعلومات عن الحرم العباسي قد وصلتنا من خلال الكتب الأدبية، وخاصة تلك التي ألّفت عن النساء، فإنها لم تهتم بجياقنّ اليومية في جميع جوانبها وإنما ركزت اهتمامها في الكثير من الأحيان عن مدى حذقهنّ لفن الغناء والشعر والأدب. فقد كان الحرم يوصف بأنه دار السرّ،¹ لصعوبة تجول أحد من خارج الحرم، داخل أجنحته. ولذلك فقد ظلّ الحرم العباسي في معظم الأحيان عالماً مجهولاً لصعوبة اقتحامه والكتابة عنه.

وقد ظهرت صور النساء في البلاط العباسي، سواء في مواضيع مجالس البلاط أو في المواضيع الخاصة بهن أو في صور مفردة لهن. وبما أن صور النساء في البلاط العباسي قد نفذت بواسطة مصورين رجال مثلما تدلّ على ذلك توقيعاتهم (مفلح، سمسم)، فيبدو أنهم قد أنجزوا أعمالهم من وراء جدران قاعات الحرم، لأنه لم يكن مسموحاً لهم دخول تلك القاعات، ولذلك فقد تميزت موضوعات تلك الصور في الكثير من الأحيان بالرتابة والتكرار في وصف ملابس السيدات وحركاتهن، ووقفتهن وتعبيرات وجوههن.... كما أن تلك الصور اشتملت على فئة واحدة من النساء وهي الجوّاري، ولا وجود للحرّائر فيها.

لكن رغم ذلك فقد أعطتنا تلك الصور فكرة عن نساء البلاط العباسي وهن يلهين ويمرحن ويتمتعنّ بأوقاتهنّ والتي يمكن من خلال إضافتها لما ورد في المصادر من إشارات متفرقة، أن نخرج بصورة عن الحياة اليومية داخل الحرم العباسي. فكيف كانت نساء الحرم العباسي يقضين وقتهنّ؟ وما هي أنواع الأشغال والأعمال التي كنّ يقمن بها؟.

¹ - الصابيّ، رسوم دار الخلافة، ص 87.

I الزينة: اللباس، التجميل، الحلي.

كانت للحريم من مختلف درجائن حياة خاصة تخضع في جميع مظاهرها لتقاليد وآداب لا يمكن التهاون فيها وتتعلق بالمظهر الخارجي، وتدور كلّها في إطار ما يمكن أن نسميه بالزينة والتي تشمل اللباس، الحلي، والتزويق، إلخ... ويشترط الخليفة على المقيمات داخل الحرم تطبيقها بكل دقة. كما أن التنافس الشديد بين الحريم من أجل احتلال أعلى مرتبة لدى الخليفة، دفعهن إلى الحرص المتزايد على حسن المظهر والذي نتج عنه ابتكار أصناف جديدة من اللباس والحلي، وغيره من وسائل الزينة...

1- اللباس:

فقد كان لكل فئة من النساء داخل الحرم زيّهن الخاص بهن. وقد شهدت الأزياء في الحرم العباسي تطورا ملحوظا ساعد عليه دور الطراز التي كانت موجودة بالبلاط العباسي، وكذلك حرصهنّ على التأنيق والفخامة، بالإضافة إلى انتشار حياة البذخ والترف. فقد تميّزت أزياء نساء العباسيين بارتفاع أثمائهما، ويكفي هنا أن نذكر ثمن ثوب لزيدة زوجة هارون الرشيد قدر بخمسين ألف دينار.¹ وكانت الأزياء تتخذ من الحرير والوشي والخزّ والإبريسم والديباج... والتي كانت تجلب من مناطق صنعها مثال ديباج الروم، وخزّ السوس، وحرير الصين، وملحم مرو.² وقد ساعد وجود هذه الأنواع المتعددة من الأقمشة، النساء على استخدام أزياء مختلفة، فضلا عن استحداث أزياء جديدة، ومما يدلّ على هذا التنوع في الألبسة النسائية ما ذكره صاحب الأغاني عن الرشيد أنه اصطبح يوما فكان جميع من حضره من جواريه المغنيات والخدمة في الشراب زهاء ألفي جارية في أحسن زيّ من كل أنواع الثياب والجواهر.³ ولا يذكر لنا بالتفصيل أنواع هذه الألبسة، لكن يمكن أن نستخرج نماذج لها من خلال بعض الإشارات المتفرقة في المصادر، وكذلك من خلال الصور التي وفرّتها لنا الإيكونوغرافيا. فمن أنواع الألبسة النسائية في الحرم العباسي يمكن أن نذكر:

- البدنة: وهي بدنة عبده زوجة هشام بن عبد الملك، وكانت في جملة ما اصطفاه عبد الله بن علي من ثروات بني أمية عندما قام بتقتيلهم، وقد أرسل إلى أبي العباس السفاح بالجواهر والأموال إلا البدنة، فبعثت أم سلمة المخزومية في طلبها منه لكنه أبى إرسالها إليها. ثم لما هزم أبو مسلم الخراساني عبد الله بن علي أخذ البدنة منه وأرسلها إلى المنصور فكانت في خزائن بني العباس، إلى أن أهداها المهدي إلى زبيدة ليلة زفافها على الرشيد. وهي عبارة عن قميص تلبسه النساء ذو أكمام طويلة ومزركش بالحَبّ، فقد كان في ظهرها وصدرها خيطان

¹ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 318.

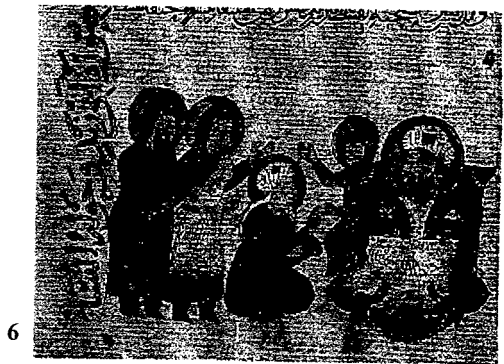
² - النعالي، لطائف المعارف، ص 235.

³ - الأصفهاني، الأغاني، ج 10، ص 136.

من الياقوت الأحمر، أما الباقي فكان من الحبّ الكبير، وقد كانت من الثقل إلى درجة أن زبيدة كانت غير قادرة على السير بها.¹

وكانت البدنة توضع في المناسبات الخاصة مثل حفلات الزواج، فقد ألبستها زبيدة لبوران زوجة الخليفة المأمون ليلة زفافه.² وقد ظلت في خزائن الخلافة العباسية إلى أن بعث بها المتوكل إلى ابنة طاهر بن عبد الله بن طاهر عندما زوجها لابنه المعتز.³ فالبدنة هي من تركة نساء الأمويين، وتظهر في البلاط العباسي كزي من أزياء الحرائر، تضعه بعض زوجات الخلفاء العباسيين ليلة زفافهن.

- الطيلسان: وهو لباس فارسي معرب، ليست له أكمام أو جيوب خال من الخياطة يوضع فوق الكتف أو فوق الرأس ويتدلّى على الجبين إذ يغطي نصف الوجه.⁴ وقد اشتركت النساء مع الرجال في لبسه، وقد استعمل الطيلسان في البلاط العباسي من قبل الحرائر. فقد كانت زينب بنت سليمان تدخل على المأمون وعليها طيلسان مضيق أبيض.⁵ ويظهر الطيلسان في منمنمة من مخطوطة مقامات الحريري محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس وتعرف بمخطوط القديس واست، وتبدو فيها سيّدة واقفة بين يدي القاضي وقد ارتدت طيلسانا.



- البرقع: وهو عبارة عن قطعة قماش مربعة تثقب في موضع العينين تبصر المرأة من خلالها ويلحق بالبرقع خيطان تشدهما المرأة في قفا الرأس يسميان الشبامان.⁷ ويعرف كذلك بالنقاب. يذكر أن عليّة بنت المهدي توفيت بسبب البرقع، حيث أن المأمون ضمها إليه وجعل يقبل رأسها وكان وجهها مغطى فشرقت من ذلك ثم حمت وماتت.⁸ فهو إذن من ألبسة الحرائر.

¹ - الغزولي، مطالع البذور، ج 1، ص 224 ظهر؛ الشابشتي، الديارات، ص 156، القاضي الرشيد، المصدر السابق، ص 94.

² - ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص 67.

³ - القاضي الرشيد، مصدر سابق، ص 95.

⁴ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج 2، ص 342؛ مليحة رحمة الله، "الملابس في العراق خلال العصور العباسية"، المجلة التاريخية المصرية، ج 13، القاهرة 1967، ص 197؛

- Ahsan. M. M , *The social life under the abbassids*, p . 42.

⁵ - الخطيب البغدادي، مصدر سابق، ج 14، ص 434.

⁶ - Paris, B .N, Ms, ar.3929, fol. 134 r.

⁷ - العبيدي، الملابس العربية الإسلامية، ص 159؛

- Mansouri. M. T, *Du Voile et du Zunnar*, p. 82.

⁸ - الأصفهاني، مصدر سابق، ج 10، ص 147.

أيضا الخمار وكانت تضعه كذلك الحرائر، فقد دخلت زينب بنت سليمان على المأمون مختمرة بخماره عدي أسود.¹ وهو تعبير عن الفخامة والأبهة وتميز للحرائر عن فئة الجواري،² وليس تقليدا دينيا كما فعلت نساء الرسول. وجميع هذه الأصناف من الألبسة اختصت بها أكثر فئة الحرائر. أما ألبسة الجواري فتتمثل في:

- القميص: وهو يشبه البدنة، لكنه أقل قيمة، وهو معمول من الحرير، وله كمان واسعان.³ وقد اتخذ من قبل الجواري المغنيات. يذكر الخطيب البغدادي أن جارية كانت ترتدي قميصا وقناعا مصبوغين.⁴

وكان بعضهن يحلن قمصانهن بالأشعار. يذكر الوشاء أن عريب كان عليها قميص ملحم موشى بالذهب مكتوب في وشاحه.⁵ يظهر القميص كزي من أزياء الجواري. ولم نعث في رسوم سامراء على نماذج لهذه الأقمصة.

- الدرع: وهو أيضا قميص قصير تلبسه الجارية، وله كمان قصيران.⁶ وفي رسوم سامراء صورة نصفية لامرأة (اللوحة عدد 40)، وقد ارتدت درعا ترينه دوائر صفر داخلها نقاط سوداء.



- الرداء: وهو نوع من الملاحف، كما يُرتدى كلباس مفصل على الجسم أيضا.⁷ وقد لبست الجواري الأردنية الملونة في أوقات لهوهم وشراهم،⁸ وقد وصلتنا أمثلة عن هذه الأردنية في رسوم سامراء أهمها صورة الراقصتين حيث ترتدي كل واحدة منهما رداء طويلا يصل إلى أسفل قدميها وله كمان طويلا يصلان إلى المعصم (اللوحة عدد 45). وكذلك صورة الجارية التي تصطاد ضببا وقد ارتدت رداء أصفر، له كمان يصلان إلى المرفق (اللوحة عدد 47). وقد أخذ الرداء عن الفرس، فقد كانت الأردنية من ألبسة سيدات البلاط الساساني، (اللوحة عدد 52 - 53).

- الغلائل: وهي لباس شفاف رقيق إلى درجة أنه كان يطلق عليه اسم " الغلائل الدُّخانية"،⁹ وقد كانت الجواري يستخدمه في مناسبات اللهو والرقص وأوقات الشرب والخلوات، ليكشفن عن مفاتن ومحاسن جسدهن، وهو ما نراه في رسوم سامراء المائية، إذ تظهر في (اللوحة عدد 46) سيدتان واحدة إلى اليمين

1- الخطيب البغدادي، مصدر سابق، ج 14، ص 434.

2- Mansouri. M. T, *Op. Cit*, p. 80- 86.

3- دوزي، "المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب"، نفس المرجع، ص 183.

4- الخطيب البغدادي، مصدر سابق، ج 10، ص 414.

5- الوشاء، الموشى أو الظرف والظرفاء، ج 2، ص 252؛ العبيدي، نفس المرجع، ص 221- 222.

6- العبيدي، نفس المرجع، ص 217 - 218.

7- العبيدي، نفس المرجع، ص 261- 303.

8- الوشاء، نفس المصدر، ج 2، ص 184؛ الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص 182.

9- الوشاء، نفس المصدر، ج 2، ص 184.

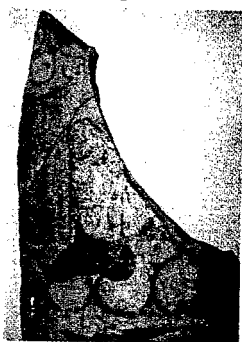
- Ahsan. M. M , *Op. Cit*, p. 41.

ترتدي غلالة تغطي أسفل جسدها من تحت الثديين حتى القدمين، وهي من قماش شفاف يظهر أجزاء جسم السيّدة من تحته. وأخرى إلى اليسار ترتدي غلالة فوق بدنها كلّها وهي شفافة تبرز تفاصيل الجسد من تحتها.¹

- السروال: وهو لباس أصله فارسي وقد شاركت النساء الرجال في لبسه.² ولم تكف الجوارى بلبس السراويل بل زيّنها بالنقوش والكتابة، وشاع بينهن استخدام السراويلات البيض المذيلة والفضفاضة والمتفتحة.³ والمتفتحة.³ ويحتفظ متحف الفن التركي والإسلامي بإسطنبول، بقطعة من الخزف تعود إلى سامراء يزيناها رسم رسم سيّدة لم يبق منها إلا نصفها السفلي وقد ارتدت سروالا أبيض فضفاضا ومتفتحا، لم تبق منه إلا ساق واحدة وقد جمعت في نهايتها فوق الرجل مما تسبب في هذا الانتفاخ.*

كما نقش على إحدى الأعمدة التي عثر عليها في قصر الجوسق الخاقاني (سابقا) رسم جداري يمثل شخصا وقد ارتدى سروالا فضفاضا ومزخرفا، وقد جمع أيضا برباط في نهاية الساق مما نتج عنه انتفاخ في السروال (اللوحة عدد 12).

كما شاع هذا النوع من السراويل لدى نساء ورجال البلاط الأموي مثلما تمثل ذلك (اللوحة عدد 21)، لكن في حين جمع سروال الرجل في نهاية الساق، ظل سروال السيّدة مفتوحا وفضفاضا.



* (قطعة مسجلة تحت رقم 2346).

- القباء: وهو ثوب واسع يشبه الفستان ولكنه شديد الضيق من الأعلى، يمر مرتين فوق البطن ويشد تحت الذراع، الشدة الأولى تحت الذراع الأيسر والثانية تحت الذراع اليمنى ومقور من الرقبة.⁴ وقد اختصت به الجوارى وربما شاركتهن فيه الحرائر فقد شوهدت البانوقة بنت المهدي وهي تسير بين يدي أبيها وبين يدي صاحب الشرطة، وعليها قباء ومنطقة،⁵ ويبدو أنهن استخدمته أثناء التزهة أو السير في المواكب، أما الجوارى فقد اتخذته للرقص خاصة، فقد ذكرت عريب أنها كانت وصيفة لمحمد الأمين وكانت تلبس القباء والمنطقة.⁶ كما ألبستهما زبيدة لجواريهما حتى تصرف ولدها الأمين عن شغفه بالخدم فبانت قدودهن وبرزت أردافهن.⁷ والمنطقة هي كذلك من لباس الجوارى وهي عبارة عن حزام من الذهب والفضة.⁸ يستعمل لشد القباء حيث

¹ - للمزيد حول رمزية الصورة انظر، العبيدي، نفس المرجع، ص 224.

² - Ahsan. M. M , Op. Cit, p. 45; 219. نفس المرجع، ص 219.

³ - الوشاء، نفس المصدر، ج 2، ص 184.

⁴ - دوزي، " المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب "، نفس المرجع، ج 10، ص 179.

⁵ - الطبري، تاريخ، ص 1638.

⁶ - الشابشتي، مصدر سابق، ص 165.

⁷ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 318.

⁸ - دوزي، نفس المرجع، ص 203.

يسهل على الجارية الرقص ويبرز قدها، فقد لبست جوارى القاهرة الأقبية ومناطق الذهب والفضة مما أضفى عليهن جمال بارز.¹ وقد زادت الجوارى من زينة الأقبية والمناطق فكتبن الشعر عليها.² ولم نثر في رسوم سامراء على أي صورة للقباء، أما المنطقة فيمكن مشاهدتها في صورة الراقصتين (اللوحة عدد 45) حيث كانتا تشدان المنطقة على الرداء.

كما استخدمت النساء كذلك لشد ملابسهن الزنار، وهو عبارة عن حزام يشد في وسط الجسم وقد شاركت النساء فيه الرجال، وكان من أزياء أهل الذمة، فقد كان على المرأة الذمية أن تشد زناراً فوق الإزار وتحت.³ وقد فرض عليهن هذا اللباس لتمييزهن عن المسلمات. وقد طورت الجوارى في الزنار مثلما فعلت ذلك متيم الهاشمية عندما عقدت في طرف إزارها زناراً وخيط إبريسم ثم جعلته في رأسها فيثبت الإزار.⁴ وقد قلدها الجوارى في ذلك. كما زينت الجوارى زنايرهن بكتابة الأشعار عليها.⁵ ولا يشركن الرجال في الزناير العراض والكثيرة الألوان، فلكن يبدو هيف خصورهن ودقتها وبروز أردافهن وعظمتها.⁶

ويظهر الزنار الذي يحمل هذه الصفة في (اللوحة عدد 44) من رسوم سامراء، حيث يشاهد حول وسط كل من السيدتين اللتين تظهران في هذه الصورة. ولم نشاهد الزنار في رسوم قصر عمره. أما الإزار فهو قطعة قماش يلف بما على وسط الجسم،⁷ وهو من لباس الجوارى فقد كانت متيم الهاشمية تضع إزاراً وتشده بزنار، بينما لبست حجاباً جارية الأمويين زناراً خلوقي وجعلت له ذنين.⁸ وقد اتخذن في الأوقات العادية الأزرق الملحم الخراسانية، أما في الخلوات وأوقات الشراب فكن يتخذن الأزرق القصب الشرب (الحمرة) أو الأزرق المعصفرة.⁹

ويمكن أن نشاهد الإزار في رسم راقصتي سامراء، فقد وضعت كل واحدة منهما على ذراعيها إزاراً. أما في العصر الأموي فيمكن مشاهدته في تمثال امرأة عثر عليه في قصر خربة المفجر (اللوحة عدد 50)، وقد ارتدت إزاراً سترت به أسفل جسدها من سرّة البطن إلى مستوى الركبتين.

كما لبست كذلك النساء التبان وهو سروال صغير يستر العورة،¹⁰ ويظهر التبان في رسوم قصر عمره، وقوامها مشهد لسيدة في وضعية رقص عارية لا ترتدي إلا تباناً يكسو عورتها عند إلتقاء الفخذين (اللوحة

¹ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 318.

² - الوشاء، نفس المصدر، ج 2، ص 261.

³ - العبيدي، نفس المرجع، ص 304.

- Mansouri. M. T, *Op. Cit*, p. 127.

⁴ - الأصفهاني، مصدر سابق، ج 7، ص 228.

⁵ - الوشاء، نفس المصدر، ج 2، ص 261.

⁶ - الوشاء، نفس المصدر، ج 2، ص 186؛ العبيدي، نفس المرجع، ص 305.

⁷ - الثعالبي، فقه اللغة، ص 240.

⁸ - الأصفهاني، مصدر سابق، ج 7، ص 228؛ ج 15، ص 91.

⁹ - الوشاء، نفس المصدر، ج 2، ص 178-179-184.

¹⁰ - Ahsan. M. M , *Op. Cit*, p. 46

عدد 48). ومشهد آخر لسيدة في الحمام لا ترتدي أيضا إلا تابانا قصيرا (اللوحة عدد 49). أما بالنسبة لرسوم سامراء فلم تصلنا أي أمثلة للتبان.

أما لباس الرأس بالنسبة للجواري فيبدو أنه كن يفضلن القلائس وخاصة في مناسبات اللهو ومجالس الشراب،¹ كما يظهر لنا ذلك في رسم راقصتي سامراء، فعلى رأس كل منهما قلنسوة (اللوحة عدد 45). وكذلك في رسم سيّدة أخرى على رأسها قلنسوة مطوقة بعصابة (اللوحة عدد 43).

أما لباس القدم فيتمثل في الخفاف: وهي من أصل فارسي يذكر الجاحظ " أن العرب تلج بذكر النعال والفرس تلج بذكر الخفاف " ويبدو أن التسمية كانت تطلق على الحذاء القصير أو الحذاء ذو الساق العالية.²

وقد اتخذت زبيدة الخفاف المرصعة بالجواهر، وطيتها بشمع العنبر.³ فقلدتها النساء في ذلك. وشاركت الجواري الحرائر في لبس الخفاف مع الاختلاف في الألوان، فكانت خفاف الجواري مزركشة ومزينة بألوان مختلفة. كما زين خفافهن بكتابة الأشعار عليها.⁴ وقد وصلتنا أمثلة من هذه الخفاف في رسوم سامراء، مثال صورة الراقصتين وقد لبست كل منهما خفا أسود قصير يلتصق بالساق (اللوحة عدد 45)، ومثال آخر لخف أسود ويظهر في القطعة المسجلة تحت رقم 2346 والتي سبق أن أشرنا إليها.

كما استخدمن أيضا النعال وهو الصندل، فقد اتخذت السيدة أم المقتدر نعالا مصنوعا من ثياب دبيقية مخططا بالحرير ومحشوا بالمسك.⁵ أما الجواري فقد اتخذن النعال الملونة والمزينة بالأشعار.

يدلّ تعدد وتنوع الألبسة النسائية التي اطلعنا عليها من خلال بعض الإشارات المتفرقة في المصادر، ومن خلال ما وفرته لنا الايكونوغرافيا على التمايز الطبقي بين الحرائر والجواري، فقد اختصت كل فئة منهن بلباس ما يناسب وضعهن الاجتماعي. كما يدلّ أيضا ذلك التنوع على الروح الخلاقة والخيال الإبداعي لنساء الحرم العباسي اللاتي ساهمن في ابتكار ملابس خاصة بهن، وفي حين سعت الحرائر وخاصة منهن زبيدة التي كانت من أكثر نساء الحرم أناقة، إلى تزيين ملابسهن بالأحجار الكريمة. اختصت الجواري بتزيين ملابسهن بكتابة الأشعار عليها للتعبير عما يختلج صدورهن من مشاعر وعواطف، مما ساهم في تطوير أزياء النساء. ولم تعتن نساء الحرم بالألبسة فقط بل كذلك بالتجمل.

¹ - العبيدي، نفس المرجع، ص 174.

² - الجاحظ، البيان والتبيين، ج 3، ص 106؛ Ahsan. M. M , Op. Cit, p. 47.

³ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 318.

⁴ - الوشاء، نفس المصدر، ج 2، ص 180 - 173.

⁵ - العبيدي، نفس المرجع، ص 333؛ Ahsan. M. M , Op. Cit, p. 48.

2- التجمل:

أولت نساء الحرم جمالهن عناية فائقة لا تقل في أهميتها عن عنايتهن بملابسهن. فقد اهتممن بنظافة شعرهن فغسلنه وعطرنه بأنواع مختلفة من العطور، يذكر صاحب الأغاني أن عريب المغنية كانت تغسل شعرها من جمعة إلى جمعة وتغلفه في كل غسلة بستين مثقالاً من المسك والعنبر.¹

كما اعتنت نساء الحرم بتزيين شعورهن وتصفيفه كل حسب منزلته، فقد كانت للجواري تصفيفات شعر خاصة بهن، فكان يقمن برفع شعرهن إلى أعلى بأشكال متعددة، وهو ما تبرزه لنا رسوم قصر عمرة، مثال تفريق الشعر إلى قسمين ولفه حول الرأس، أول جعله في شكل عناقيد ملفوفة (انظر اللوحة عدد 48). وعرفت الجواري اللاتي صففن شعورهن بالجواري المطمومات أو الغلاميات تشبهاً بالغللمان.²

كما اهتمت الجواري بتصفيف الأصداغ، وهي خصلة الشعر القصيرة المتدلّية بين الأذن والعين (القصة)، وجعلتها على هيئة النون أو القاف أو الواو أو على هيئة عقارب.³ وأوضح مثال للأصداغ على هيئة النون ما يظهر في رسم راقصتي سامراء (اللوحة عدد 45)،⁴ أما الأصداغ بهيئة حرف القاف فتراها في (اللوحة عدد 40). في حين تظهر الأصداغ على هيئة الحرف واو في (اللوحة عدد 43).

أو تصفيف الشعر على هيئة صغيرة أو عدة ضفائر، وهو ما نراه في رسم راقصتي سامراء (اللوحة عدد 45)، فقد سدلتا شعرهما في أربعة ضفائر طويلة، إثنان إلى الأمام وإثنان إلى الخلف. كذلك من ألوان تصفيف الشعر الأخرى جعل الشعر منسدلاً إلى الظهر، ومن السيّدات في رسوم سامراء من تميزت بهذه التصفيفة (اللوحة عدد 42 "صورة عدد 2" واللوحة عدد 43)، حيث بدا شعرهما طويلاً مسترسلاً وقد تدلّ خلف ظهرهما. لكن من السيّدات العباسيات من فضلن لف شعرهن خلف ظهرهن (اللوحة عدد 47)، وهناك من تميزن بشعر قصير لا يتجاوز شحمة الأذن (اللوحة عدد 46).

وقد حرصت الحرائر على زينة جواريهن حتى يكنّ في أحسن منظر، فقد اتخذت زبيدة الجواري المقدودات وجعلت لهن الطرر والأصداغ.⁵ ومن ثمة ساهمت في تطوير زينتتهن. ولم تشأ الحرائر التشبه بالجواري في تصفيف شعورهن، ولذلك فقد استخدمت تصفيفات شعر تختلف عن الجواري. فقد رفضت ربيعة بنت العباس طلب زوجها الخليفة المتوكل بأن تظم شعرها مثل الجواري المتشبهات بالغللمان واختارت الطلاق على أن تشبه بالجواري.⁶

¹ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 21، ص 61.

² - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 318.

³ - زكية عمر العلي، التزيين والحلي عند المرأة في العصر العباسي، بغداد د- ت، ص 47-49؛ الأطرقجي، نفس

المرجع، ص 234-235.

⁴ - زكية عمر العلي، نفس المرجع، ص 47.

⁵ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 318.

⁶ - الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص 118؛ الأطرقجي، نفس المرجع، ص 237؛ زكية عمر العلي، نفس المرجع، ص

وبالإضافة إلى شعورهن فقد أولت نساء الحرم العباسي، عناية فائقة لبشرتهن فغسلنها بأنواع كثيرة من الطيب والدهون كالورس، لطلاء البشرة وإكسابها اللون الأصفر الذي مال إليه العرب.¹

كما استخدمن الكحل لتزيين عيونهن، لأن العرب اعتبرت الكحل أزين الزينة.² أما الجارية التي لا تكتحل فكانت تسمى " مرهاء"،* وهذه الصفة نعتت محبوبه جارية المتوكل عندما أضربت عن الزينة بعد قتله.³ ولم يقتصرن على تكحيل العينين بل قمن بالتنميص أي إزالة الحواجب أو إطالتها بالإثمد.⁴ فقد وصفت جارية للرشيد ذات " حاجبان مقرونان وعينان كحلوان".⁵ وقد بدت تقريبا كل السيدات في رسوم سامراء ذواتي حواجب طويلة ومقرونة و عيون كحللوية، وقد بالغ المصور في تسويد حدود العينين والحواجب (مثال راقصتي سامراء، القطعة المسجلة تحت رقم 2354 ، القطعة المسجلة تحت رقم r 2356، وقطعة مسجلة تحت رقم 2344).

وتوحي تصفيفة الشعر لاسيما الأصداغ، فضلا عن الوجه المستدير والعيون اللوزية والحواجب الرفيعة والمقرونة، والضم الصغير، بعلامح جمال تركية، وهو ما أكدته أو تو دورن،⁶ مما يدل على دور التصوير في الكشف عن مقاييس الجمال التي كانت تسود البلاط العباسي.

وبالإضافة إلى الحواجب اعتنت نساء الحرم بزينة الوجه فقد قمن بإزالة الشعر منه.⁷ كما رسمت الجواري شوارب في وجوههن من الطيب والمسك والعنبر تشبها بالغللمان.⁸ كما رسمن الخال وهي نقطة توضع على الخد أو في أجزاء أخرى من الوجه. والتزوق بالخال يمكن أن يكون نقطة واحدة أو عدة نقاط.⁹ ولذلك فقد رسمن الخال على الوجه بنقطة أو نقطتين، وهو ما يمكن أن نراه في رسوم سامراء المائية فقد نقش تحت فم كلا السيدتين في القطعة عدد 2344 والقطعة عدد 2354 خال واحد. كما كتبت بعض الجواري على وجوههن بالمسك أسماء من تحب كما فعلت محبوبه جارية المتوكل، إذ كتبت على خدها " جعفر"، تعبيرا عن حبها له، وقد استعمل هذا النوع من الزينة من قبل الجواري عامة.¹⁰

كما استخدمت الحرائر الخضاب لصيغ شعورهن لاسيما الحناء وذلك منذ العصر الجاهلي،¹¹ أما الجواري فقد طورن في استخدام الخضاب يرسم أشكال متعددة وخاصة كتابة الأشعار على أيديهن وأرجلهن، وقد فعلت

¹ - الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص 187؛ زكية عمر العلي، نفس المرجع، ص 90.

- * مرهت، مرها عينه فسدت و ابيضت بواطن أفافانه لترك الكحل.

² - الجاحظ، البيان والتبيين، ج 2، ص 91-92؛ زكية عمر العلي، نفس المرجع، ص 68.

³ - السيوطي، المستطرف من أخبار الجواري، ص 67.

⁴ - زكية عمر العلي، نفس المرجع، ص 69.

⁵ - الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص 182.

⁶ - Otto- Dorn, Op. Cit, p. 84 ; 82. نفس المرجع، ص 82.

⁷ - ابن حجة الحموي، كتاب ثمرات الأوراق في المحاضرات، ص 96.

⁸ - زكية عمر العلي، نفس المرجع، ص 89.

⁹ - زكية عمر العلي، نفس المرجع، ص 25.

¹⁰ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 125؛ الوشاء، نفس المصدر، ج 2، ص 180 - 278 - 279.

¹¹ - زكية عمر العلي، نفس المرجع، ص 61.

ذلك " قائد " إحدى جوارى الخليفة المأمون، حيث كتبت الشعر بالحناء على راحة يدها اليمنى.¹

كما ولعت نساء الحرم بالتطيب. وقد اقتصصن بأنواع من الطيب ليس للرجال فيها نصيب مثل الخلق، ويغلب عليه اللونان الأحمر والأصفر وأكثر أجزائه من الزعفران.² كذلك من أنواع الطيب الأخرى الند وهو مركب من العود والعنبر واللبان، أيضا المسك والعود والعنبر.³ كما استخدمت نساء الحرم ماء الورد وقد جلب إليهن من مدينة آجور الفارسية التي اشتهرت به.⁴ كما ابتاعت نساء الحرم ما احتجن إليه من ماء الورد والعطر وكانت توضع في صناديق، وكانت المكلفة بعملية الشراء قهرمانة القصر.⁵

وتكثر الحرائر من الطيب في المناسبات الخاصة كما حدث في زواج زبيدة من الرشيد وزواج بوران بنت الحسن بن سهل من المأمون.⁶ أما الجوارى فقد أسرفت في استخدام الطيب حتى وصل بمن الأمر إلى غسل شعورهن به كما فعلت عريب.⁷ كما تعطرن من رأسهن إلى أقدامهن بجميع أنواع الطيب.⁸

وكانت سيّدات الحرم تستعنّ في القيام بحمامهنّ بعدد كبير من الجوارى والوصائف يساعدنّ من البداية إلى النهاية. فلما استقبلت الخيزران مزنة زوجة مروان بن محمد بدارها، دعت الجوارى وأمرنّ أن يدخلنّ معها إلى الحمام ويساعدنّها.⁹ كما كانت الجوارى تقتسم غسل شعر عريب بالقوارير وما تسرحه منه بالميزان.¹⁰ وهو ما نراه في الرسوم الجدارية لحمام قصير عمرة (اللوحة عدد 49)، والتي تبرز لنا في أحد الصور سيّدة وقد جلست تغسل شعرها وجارية أخرى تصب عليها الماء، في حين تساعد جوارى أخريات سيّدة على الغسل لابنها، بينما اختصت جارية بجلب الماء. أو قد تغتسل الجارية بمفردها، كما فعلت عريب عندما جلست على كرسي نائرة شعرها و تغتسل.¹¹ وهو ما يجسّده رسم السيّدة في قصير عمرة التي جلست على كرسي أيضا تغتسل بمفردها وقد نثرت شعرها.

كما كنّ يستعنّ أيضا بالماشطة لتصفيف الشعر وللقيام بعملية التجميل والتجميل، فقد طلبت الخيزران من الماشرات أن يصلحنّ شعر مزنة ويرمينّ ما على وجهها من الشعر.¹² وعلى هذا الأساس فإن ارتفاع عدد الحرم والجوارى اللائي يساعدنّ على الاغتسال، بالإضافة إلى الماشرات للتجميل كل ذلك أدّى إلى تخصيص الحمام بمساحة كبيرة وشاسعة. ولم تكتف نساء الحرم بالتزوق والتطيب بل تحلن كذلك بالحلي.

¹ - الوشاء، نفس المصدر، ج 2، ص 276.

² - الوشاء، نفس المصدر، ج 2، ص 186؛ زكية عمر العلي، نفس المرجع، ص 85.

³ - الأبيشي، المستظرف في كل فن مستظرف، ج 2، ص 37-38.

⁴ - الثعالبي، لطائف المعارف، ص 179.

⁵ - التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 363.

⁶ - الشابشتي، مصدر سابق، ص 156؛ المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 30.

⁷ - الأصفهاني، مصدر سابق، ج 21، ص 61.

⁸ - الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص 153.

⁹ - التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 78.

¹⁰ - الأصفهاني، مصدر سابق، ج 21، ص 61.

¹¹ - الأصفهاني، مصدر سابق، ج 21، ص 53.

¹² - ابن حجة الحموي، نفس المصدر، ص 96.

3- الحلّي:

تعدّ الحلّي من أهم وسائل الزينة لما تضيفه على المرأة من جمال. وقد ملكت نساء الحرم في البلاط العباسي سواء منهن الحرائر أو الجوّاري الكثير من المجوهرات التي تحلّين بها في المناسبات المختلفة. ففي حفلة زفاف زبيدة قيل أن ما عليها من الجواهر بلغ من كثرته أنها لم تستطع المشي، كما زينت بالتيجان رأسها.¹ وكانت تزين بالجواهر خفيها.² كما ابتكرت على بنت المهدي العصائب المكحلة بالجواهر لتستر بها جبينها.³ فقلدتها النساء في ذلك.

كما استخدمت الجوّاري العصائب وكتبن عليها بالخيوط الذهبية الأشعار التي تحمل عبارات ومعاني الحب والمحرم، فقد كتبت جارية من جوّاري الرشيد على عصابتها " ظلّمتني في الحب يا ظالم * والله فيما بيننا"، وكتبت أخرى " ورميتني فأصبتني يا رامي ".⁴ وغنت شمس الطنبورية للرشيد وعليها عصابة مزينة بأبيات شعرية.⁵

وقد عثرنا على نماذج لهذه العصائب في رسوم سامراء النسائية، والمتمثلة في رسم امرأتين (اللوحة عدد 41 واللوحة عدد 47) تحيط برأسيهما عصابتان مرصعتان بالجواهر أو اللؤلؤ. ورغم أن الأصفهاني يذكر أن على هي من ابتكر العصائب المكحلة بالجواهر، فإن الإيكونوغرافيا تبين عكس ذلك، فقد كان يعلو رأس تمثال السيدة الذي كشفت عنه الحفائر في قصر خربة المفجر عصابة (اللوحة عدد 51). فالعصائب إذن قد عرفت في العصر الأموي وتواصل استعمالها في العصر العباسي. وقد أخذ الأمويون لبسها عن الساسانيين.⁶

وإلى جانب العصائب استخدمت الجوّاري الأحجار الكريمة لتزين شعورهنّ. وهو ما نراه في صورة راقصتي سامراء (اللوحة عدد 45)، فقد كان يحلّي رأس كل منهما صفيّ من الأحجار الكريمة في شكل سلسلة، لعلهما يمثلان نوعاً من الأمشاط التي تزينها الأحجار الكريمة.⁷ كذلك الزنار، وكنّ يشدّدن به طرفهنّ، وقد يزين بكتابة بعض الأشعار،⁸ وهناك ما يشبه هذا الزنار في رسم يمثل رأس سيّدة ضمن رسوم سامراء وقد شدت منتصف طرفها بزنار على هيئة شريط ضيق يحيط بالرأس،⁹ وأثبتته بسلسلة من الأحجار الكريمة تتدلّى إلى وراء رأسها، ولعل هذا الزنار هو الذي ذكر صاحب الأغاني أن عريب ابتدعته وكانت تشده في طرف الإزار وخيط إبريسم ثم تجعله في رأسها فيبت الإزار ولا يتحرك ولا يزول.¹⁰ وهو يختلف عن الزنار الذي هو عبارة عن حزام أو مجموعة خيوط تشدّ وسط الجسم.

¹ - الشابشتي، مصدر سابق، ص 156.

² - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 317.

³ - الأصفهاني، مصدر سابق، ج 10، ص 129.

⁴ - ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج 6، ص 424.

⁵ - الوشاء، نفس المصدر، ج 2، ص 260.

⁶ - زكية عمر العلي، نفس المرجع، ص 123.

⁷ - زكية عمر العلي، نفس المرجع، ص 132.

⁸ - الوشاء، نفس المصدر، ج 2، ص 262.

⁹ - زكية عمر العلي، نفس المرجع، ص 133.

¹⁰ - الأصفهاني، مصدر سابق، ج 7، ص 228.

وقد حرص الخلفاء العباسيون على اقتناء الكثير من الجواهر لجواربهم، فقد كان في مجلس الرشيد زهاء ألفي جارية عليهن أصناف مختلفة من الجواهر. ورغم أن صاحب الأغاني لم يذكرها فقد أبانت المصادر الأخرى عن أسماء البعض منها. مثل المخنقة، وهي القلادة وقد أطلق عليها هذا الاسم لأنها تلتصق بالرقبة التصافا.¹

وقد تزينت بما مقيم الهاشمية، وتتوسط المخنقة حبة ذات قيمة عالية وعن يسار الحبة ويمينها أربع زمردات وأربع يواقيت.² كما استعملن أيضا المخانق الذهبية المحلاة بالخرز.³ ولم نعر على أي نقش للمخنقة في رسوم سامراء، لكن تبدو المخنقة في غرة كتاب الجزء الرابع من مخطوط كتاب الأغاني المحفوظ في دار الكتب بالقاهرة (اللوحة عدد 36)، حيث تبدو السيدتان المحيطتان بأعلى الحاكم وقد تحلنا كل منهما بمخنقة كذلك نراها في عنق بعض السيدات في اللوحة عدد 37. كما تبدو المخنقة في رسوم سيدات قصير عمرة (اللوحة عدد 48). وتحلت الجواري المسيحيات بتعليق الصلبان الذهبية في أعناقهن.⁴

واتخذت الجواري الخلاخيل لزينة أرجلهن.⁵ ورصعت بعض هذه الخلاخيل بالأحجار الكريمة. ولم نعر في رسوم سامراء على نماذج لهذه الخلاخيل. لكن يبدو الخلاخال واضحا في رسم سيدة ضمن رسوم قصير عمرة (اللوحة عدد 48 - 49)، وكذلك في تمثال السيدة التي عثر عليها في قصر خربة المفجر (اللوحة عدد 50). كما استخدمت الجواري الخواتيم لتزيين أصابعهن، وتحلين أحيانا بخاتمين.⁶ كما كتبن عليها الأشعار.⁷ ولم نعر على نماذج لهذه الخواتيم في رسوم سامراء، ولا في رسوم قصير عمرة.

كما زينت الجواري معاصمهن بالأساور، ونجد في رسوم سامراء نماذج للأساور العباسية، منها ما هو بسيط لا زخرفة فيه، لكنه غليظ منفوخ،⁸ وهو الذي يزين معصمي إحدى راقصتي سامراء (اللوحة عدد 45). ومنها ما هو مرصع بالأحجار الكريمة وهو الذي يزين معصمي الصيادة التي تصطاد وحشا (اللوحة عدد 47).

وفي رسوم قصير عمرة نماذج متعددة لهذه الأساور وأغلبها من الشكل البسيط الذي لا زخرفة فيه. كذلك من ضروب الأساور الأخرى التي نلاحظها في رسوم قصير عمرة الدماليج، وهي من حلي الذراع،⁹ (اللوحة عدد 47 و48)، ولم نجد في رسوم سامراء أمثلة للدماليج.

كما استخدمت الأقراط لزينة أذونهن. ومن نماذجها ما كان يزين أذني راقصتي سامراء (اللوحة عدد 45) وهي تتألف من سلك من الذهب أو الفضة يشد في الأذن تتدلى منه حبة كروية تتصل بحبة أخرى أكبر منها

1- زكية عمر العلي، نفس المرجع، ص 155.

2- الأصفهاني، مصدر سابق، ج 7، ص 231.

3- الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص 153.

4- الطبري، تاريخ، 1637.

5- الجاحظ، نفس المصدر، ص 153.

6- اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج 1، ص 453.

7- الوشاء، نفس المصدر، ج 2، ص 248.

8- زكية عمر العلي، نفس المرجع، ص 184.

9- زكية عمر العلي، نفس المرجع، ص 191.

مخروطية الشكل.¹ وفي رسم سيّدة أخرى قرط مشابه ولكنه يتألف من حبتين كرويتين تتصلان بحبة مخروطية (اللوحة عدد 40).

ويبدو أن نساء الحرم في العصر العباسي الثاني قد فقن في امتلاك الحلي نساء العصر العباسي الأول وذلك بحكم تسلطهن على أمور البلاط، فقد امتلكت قبيحة الكثير من الحلي والمجوهرات.² نلاحظ أن الحلي التي استخدمتها المرأة في الحرم العباسي، تتمثل عموماً في الأساور التي تزين المعصم أو الذراع، والعقود التي تزين العنق، والأقراط التي تزين الأذن، وقد اتخذها من الذهب والأحجار الكريمة، مما يدل على الثراء وعلى الذوق الرفيع.

إن دراستنا لأزياء ووسائل زينة وحلي المرأة في الحرم العباسي تمكننا من الخروج بالاستنتاجات التالية:

- أولاً نلاحظ أن نساء الحرم في البلاط العباسي قد بالغن في أناقتهنّ وزينتهنّ، فارتدينّ الملابس الحريرية، وصففنّ شعورهنّ وزينتهنّ بالأحجار الكريمة، واستخدمنّ كل ضروب الزينة من التحمل والتنميص والتعطر إلخ، وتحلّين بأنواع كثيرة من المجوهرات، فساهمنّ بذلك في تطوير وابتكار وسائل زينة جديدة وذلك رغم الحظر الذي فرض عليهنّ.

- ثانياً نلاحظ أن موضوع أزياء وحليّ وزينة النساء في البلاط العباسي هي من المواضيع التي أجادها الفنانون العباسيون في رسوم سامراء الجدارية، لاسيما وإن افترضنا أنهم قد قاموا بتنفيذها دون الدخول إلى قاعات الحرم. فقد ألقت الضوء على الملابس النسائية وأساليب الزينة والحلي إلخ...، إلّا أنّها اقتصرّت على فئة معينة من النساء وهي الجوّاري في حين أهملت الحرائر، لكنّ مكتنتا الإشارات المتفرقة التي وردت في المصادر من سدّ ذلك الفراغ. وهكذا فقد حصلت لدينا في النهاية صورة إلى حدّ ما متكاملة عن هذا الجانب من الحياة النسائية.

- أخيراً كشفت لنا وسائل الزينة التي حصلت لدينا من النصوص التاريخية والوثائق الأيكونوغرافية، عن التمايز الطبقي بين الجوّاري والحرائر داخل الحرم العباسي. فقد كان لكل فئة من النساء أزياءها الخاصة وأيضاً حليها وأساليب زينتها بما يناسب وضعها الاجتماعي، فقد عدلت الحرائر عن بعض وسائل الزينة التي اتخذها الجوّاري كالكتابة على الثياب والخدود والأساور، إلخ... ولعل في ذلك دلالة على المحافظة على نوع من الخصوصية بالنسبة للحرائر، ودلالة على الذوق الرفيع والقدرة عند الجوّاري في استخدام أدوات زينة وتطوير أساليب استعمالها. ولم تكتفِ نساء الحرم بابتكار وسائل جديدة للزينة والتزين، بل أثرنّ كذلك على الحركة الفنية والأدبية داخل الحرم وفي البلاط العباسي بصفة عامة.

¹ - زكية عمر العلي، نفس المرجع، ص 140.

² - البيروني، الجماهر، ص 67-68؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 282.

II الفنون دخل الحرم العباسي

حظيت فنون الأدب والشعر والغناء والطرب، إلخ.. بعناية كبيرة داخل الحرم العباسي. فقد استطاعت نساء الخلفاء رغم الحجاب الذي فرض عليهنّ الاستفادة من الازدهار الثقافي والأدبي الذي عرف أوجه في العصر العباسي،¹ بل والمساهمة بصفة فعّالة في إثرائه مما أدّى إلى بروز ما يمكن أن نسميه "هضة فنية نسائية" شملت جميع مجالات الشعر والنثر والغناء والرقص، ساهمت فيها الجوّاري وبصفة أقلّ الحرّاء، ذلك أن الجوّاري كنّ أكثر تأثيراً بحكم اتصّالهن بالشعراء والمغنيين، عكس الحرّاء اللاتي كنّ من المحارم بالإضافة إلى مناداة الفقهاء بعزلهن.² فقد كانوا يغارون على الحرّاء أكثر مما يغارون على الجوّاري ويحجبون الحرّة ويشدّدون في تحجيبها.³ لكن ذلك الحجب لم يمنع من بروز سيّدات عباسيات كان لهن رصيد أدبي وفني هام.

وقد جلبت هذه النهضة الفنّية النسائية اهتمام المؤرخين من إخباريين وأصحاب طبقات وتراجم، بالإضافة إلى أصحاب الشعر والأدب، الذين خصّصوا قسماً هاماً من كتاباتهم للحديث عن النساء المشهورات بالعلم والأدب، واللاتي برزن بصفة خاصة في قصور الخلفاء. ففي كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني مثلاً ذكر لعدد هام من النساء الشاعرات والأديبات من العصر العباسي، وفي كتاب المنتظم لابن الجوزي أيضاً، ووفيات الأعيان لابن خلكان ترجمة لعدد كبير من النساء من الحرم العباسي وذكر مآثرهن الفنية والشعرية والأدبية وذكر أساتذتهن. ومن المؤرخين أيضاً من أفرد كتباً ضمّنها أخبار النساء وأشعارهن، مثل السيوطي والأصفهاني وابن الساعي والعمرى.⁴

ولعل الاهتمام بهذا الجانب الفنّي من الحياة النسائية، هو مرتبط بالازدهار الأدبي الذي عرف أوجه في العصر العباسي، فالمرأة شأنها شأن الرجل سعت إلى التعلّم،⁵ لكن عكس الحرّاء اللاتي تميزن بحب العلم والأدب، فإن حذق فنّ الشعر والغناء بالنسبة للجوّاري، كان أمراً ضرورياً لاسيما لإلحاقهن بالحرم الخلفي. لذلك لا بدّ من التمييز داخل الحرم العباسي بين ثقافتين أدبيتين: ثقافة الحرّاء وثقافة الجوّاري.

1 - دور الحرّاء الفنّي

لقد كانت أغلب الحرّاء من زوجات وبنات وأخوات الخلفاء العباسيين شاعرات أو أديبات أو مغنيات. وهو ما يكشف لنا عن العناية الفائقة التي كان يوليها الخلفاء العباسيون لتعليم بناتهم وتنقيتهنّ.

¹ - الأطرقجي، المرجع السابق، ص 319.

² - الأطرقجي، المرجع السابق، ص 38.

³ - يوحديّة، الجنسانية في الإسلام، 135.

⁴ - السيوطي، المستطرف من أخبار الجوّاري؛ السيوطي، نزهة الجلساء في أشعار النساء؛ ابن الساعي، نساء الخلفاء؛ الأصفهاني، التقيان؛ العمرى، مهذب الروضة الفياض في تواريخ النساء.

⁵ - الأطرقجي، المرجع السابق، ص 319.

ومن زوجات الخلفاء الحرائر اللاتي ذاع صيتهن في الحرم العباسي نذكر : زبيدة فقد كانت على درجة كبيرة من العلم والأدب، وكان الشعراء يجتمعون بدارها ويلقون قصائدهم وكانت تسمعهم وتختار أحسن القصائد وتكافئ قائلها، مثلما فعلت مع العباس بن الأحنف عندما أرسلت جاريتها وأمرتها أن تنثر الدراهم في حجره لاستحسانها أحد أبيات شعره.¹ ولعل هذا وإن دلّ على شيء فإنما يدلّ على الذوق الشعري والحسّ النقدي الذي كانت تتمتع به زبيدة.

ولم يقتصر الأمر بها على حدّ السماع وإنما كانت تكتب الشعر أيضا، وليس أدلّ على ذلك من القصيدة التي كتبها إلى المأمون عندما قتل ابنها الأمين، فقد أمرت بدواة وقرطاس وكتبت له قصيدة أرسلتها إليه.² وقد اشتهرت زبيدة بشعر الرثاء خاصة، مثال رثائها لنظم أم ولد لها الأمين، وكان معجبا بها فلما توفيت جزع عليها جزعا شديدا، وعلمت زبيدة بالأمر، فدخلت عليه وواسته بقصيدة.³ ولها أيضا أشعارا في رثاء ابنها الأمين.⁴ كما امتازت أيضا بالقدرة على المحاوراة الشعرية مثال تحاورها مع زوجها الرشيد في شأن كاتبين لهما، ويذكر أنها قالت الشعر في تلك الساعة.⁵ مما يدلّ على سرعة بديتها وتمكنها من القدرة على نظم الشعر.⁶ وبصفة عامة فقد كان شعر زبيدة محصورا في نطاق المواساة والرثاء، مثل شعر معظم النساء في الجاهلية والإسلام، حيث كان منتشرا رثاء الآباء والأبناء والأزواج.⁷

وكانت زبيدة تحذق الشعر وكذلك النثر، وقد برعت بصفة خاصة في أدب المراسلات، حيث نجد لها رسائل في التهنية،⁸ كما نجد لها أيضا وصايا وتوقيعات،⁹ وهو فن لم ينبغ فيه إلا جهابذة البلاغة والبيان من الخلفاء والوزراء وكبار الكتاب.¹⁰ وهكذا فقد أثر عن زبيدة نشاط أدبي وافر كمتذوقة لفن الشعر أولا، ثم كمبدعة له ثانيا، وكما لكة لنواصي البلاغة والبيان في فن النثر ثالثا.¹¹

أما الغناء فلم يكن لزبيدة فيه مجال لكنها حرصت على تعليمه للجواري، فقد كان يوجد في القصر زهاء ألفي جارية من جواريها وسائر جواري القصر كلّهن يغنين في لحن واحد، وقد أخرجتهن زبيدة للغناء بحضرة الرشيد، مثلما طلبت منها عليه ذلك، عندما أرادت صرف الرشيد عن تعلّقه بإحدى الجواري.¹² فشكّلن بذلك فرقة موسيقية للغناء داخل الحرم.

¹ - الأصفهاني، الأغاني، ج 8، ص 266.

² - المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص 424.

³ - المسعودي، نفس المصدر، ج 3، ص 402؛ الأطرقجي، نفس المرجع، ص 340.

⁴ - المسعودي، نفس المصدر، ج 3، ص 423.

⁵ - الجهشيار، المصدر السابق، ص 256-257.

⁶ - الأطرقجي، نفس المرجع، ص 49-339-382.

⁷ - الأطرقجي، نفس المرجع، ص 339.

⁸ - الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج 14، ص 433؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ...، ص 316.

⁹ - الأطرقجي، نفس المرجع، ص 49.

¹⁰ - يوسف غيبة، " حرائر البلاط العباسي في كتابات الجاحظ - السيّد زبيدة أم جعفر نموذجاً -"، مجلة العلوم الإنسانية،

عدد 11، 1999، ص 204-205.

¹¹ - يوسف غيبة، " حرائر البلاط العباسي ... -"، نفس المرجع، ص 204.

¹² - الأصفهاني، الأغاني، ج 10، ص 136-137.

كما كانت زبيدة تبذل العطايا والأموال للمغنيين، فقد أعطت ابن جامع مائة ألف درهم لكل بيت غناه، عندما اصطحبه الرشيد معه إلى جناح الحرم للقائها، وكان قد صيّرهُ في موضع بحيث يسمع منه ولا يكون حاضرا معهما.¹ ولعل هذا وإن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أن الاستماع إلى المغنيين والشعراء لم يكن حكرا على الخليفة وخاصته، بل تعدّاه أيضا إلى نساءه، لكن خلف ستارة أو حجاب. وهكذا فلكن نبغت زبيدة في فن الشعر والنثر، فإن ذلك لا يجب أن يغفل عنّا اهتمامها وحُبّها للغناء والموسيقى.

كما عرفت بوران زوجة الخليفة المأمون بقول الشعر أيضا، فقد قالت شعرا ترثيه به بعد موته.² أما خلال العصر العباسي الثاني فممن اشتهرت من سيّدات الحرم الحرائر بالثقافة العالية، قطر الندى زوجة الخليفة المعتضد، فقد كانت على درجة كبيرة من العلم والأدب، فمن حسن أدبها أن المعتضد خلا بها يوما في بيت دون سائر حظاياها، فلما أخذه النعاس نام في حجرها، فتلطفت في إزالة رأسه ووضعت على وسادة وخرجت، فلما استيقظ استشاط غضبا وناداهما فأجابته عن قرب، فقال لها "أسلمت نفسي إليك فذهبت عني"، فأجابته "إن مما أدبني به أبي أي لا أجلس مع النيام ولا أنام مع الجلوس".³ فهي وإن كانت تركية الأصل إلّا أنّها كانت تفهم العلم وتذوق الأدب، فأنشأت في قصرها حلقة تجتمع فيها الأديبات والعالمات ليتناقشن ويتناظرن في شتى الأمور.⁴

ولم يقتصر التعلم على زوجات الخلفاء بل شمل أيضا بنات الخلفاء. وقد اشتهرت من بينهن خاصة: عليّة بنت المهدي، فقد كانت تجمع في نفس الوقت بين الشعر والغناء. وقد شهرت بالأساس بشعر الغزل، فكانت ترسل بالأشعار من تحتصه، فاختصت خادما يقال له "طلّ" من خدم الرشيد، فقالت فيه أشعارا وأرسلتها إليه. فعندما علم الرشيد بذلك حلف عليها أن لا تكلمه ولا تلفظ اسمه، فضمنت له ذلك. ودخل عليها الرشيد يوما وهي تقرأ سورة البقرة حتى وصلت إلى الآية "فإن لم يصبها وابل فطلّ"، فسكت قليلا، ثم واصلت "فالذي نمانا عنه أمير المؤمنين". فقَبِلَ الرشيد رأسها ووهب لها طلّ، ووعدا بأن لا يمنعا بعد هذا من أي شيء تريده.⁵ كما أنّها قالت الشعر أيضا في خادم آخر لها يدعى "رشا"، وكانت تكني عنه بزینب.⁶

فقد كان قلب عليّة يفيض بالحبّ، إلّا أنّها وهي أخت الخليفة وبنت الخليفة لا تستطيع أن تبوح باسم من تحب، ولهذا كثيرا ما كانت تكني عن حبيبها باسم فتاة فتارة تسميها ظل كناية عن ظل وتارة تسميها زینب كناية عن رشا.⁷ فهي ومثلما أشارت إلى ذلك الأُطرقجي وإن استطاعت أن تنفس بهذا الغزل عن مشاعرهما

1- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 6، ص 217.

2- السيوطي، نزّهة الجلساء، ص 33.

3- النواجي، حلبة الكميت، ص 27؛ مصطفى جواد، سيّدات البلاط العباسي، ص 99.

4- الأُطرقجي، نفس المرجع، ص 51.

5- الأصفهاني، الأغاني، ج 10، ص 130.

6- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 10، ص 131.

7- الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص 57؛ السيوطي، نزّهة الجلساء في أشعار النساء، ص 72، الأُطرقجي، نفس

المرجع، ص 315-316.

وعواطفها الفياضة إلا أنها لم تأت القدرة على إظهارها صريحة واضحة فكانت تصدر مثقلة بالآلام والحسرات مفعمة بالكتمان.¹

إلا أنها استطاعت بهذا اللون من الشعر تطوير الشعر النسائي أي - شعر الحرائر - من طابعه التقليدي في الرثاء إلى الغزل. كما توصلت عليّة في شعرها الغزلي إلى إصدار الأحكام وسنّ القوانين في الحب.² وكان الرشيد يستحسن أشعارها في الحب.³ وهكذا يدلّ شعر عليّة على تطور روح العصر العباسي،⁴ إلى درجة تسمح بتقبله لهذا النوع من الشعر من أخت الخليفة.

ولم تقف عليّة عند حدّ قول الشعر بل تجاوزته إلى حدّ تلحين بعض الأشعار للجواري لتغنيها، مثلما حدث عندما ضمت جواربها وجواري زبيدة وصنعت شعرا وصاغت فيه لحنا وألقتة عليهنّ وأرسلتهن للرشيد فغنين في حضرته في صوت واحد.⁵ فقد كانت عليّة شاعرة وملحنة ومغنية في نفس الوقت، حتى قيل أن لها ثلاثة وسبعون صوتا.⁶ وقد أخذت الغناء عن إبراهيم الموصلي.⁷ وكانت عليّة تغني بحضرة الرشيد وكان يحب سماعها ويطرب ويشرب على صوتها بقية يومه.⁸ وكان يعظمها ويحبها إلى درجة أنه كان يجلسها معه على السرير فتأبى ذلك، وكان كثيرا ما يدعوها "يا حياتي".⁹

أما عليّة من جانبها فلم تكن تترك مناسبة تمر دون أن ترسل إلى الرشيد تحياتها وتغدق عليه الهدايا الأكثر رقة وشاعرية. فقد جلس الرشيد يوما للشرب صحبة أخيه منصور فأرسلت إليهما عليّة جاريتهما خلوب ومعهما كأسان مملوءتان وتحتان وخادم، فغنتهما قائمة والكأسان في أيديهما والتحتان بين أيديهما.¹⁰ ولعل هذه الإشارة وإن دلّت على شيء فإنما تدلّ على العلاقة الخاصة التي كانت تربط عليّة بالرشيد وبسائر إخوتها.

كما نلمس تشابها بين هذا الوصف وبين رسم راقصتي سامراء، حيث تمسك كل واحدة منهما في يدها اليمنى بكأس، وفي يدها اليسرى بقينة، ومما لا شكّ فيه أن طريقة الإمساك ترقى إلى أصول تركية، إذ نجد لها نماذج في منطقة Pengikent، ومنطقة باليليك بوسط آسيا (انظر اللوحة عدد 45 صورة 1 و 2).¹¹ كما أشار اتنغهاوزن إلى وجود نظائر لها في الفنون الزخرفية الساسانية.¹² والتي كان كان تأثيرها قويا على فن البلاط العباسي، في بداية تكونه.

¹ - الأطرقجي، نفس المرجع، ص 315.

² - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 10، ص 138-141؛ الأطرقجي، نفس المرجع، ص 319.

³ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 10، ص 141.

⁴ - الأطرقجي، نفس المرجع، ص 50.

⁵ - الأصفهاني، المصدر السابق، ج 10، ص 136.

⁶ - الأصفهاني، المصدر السابق، ج 10، ص 138.

⁷ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 10، ص 134.

⁸ - الأصفهاني، المصدر السابق، ج 10، ص 143.

⁹ - الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص 55.

¹⁰ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 10، ص 135-136.

¹¹ - Otto- Dorn, Op. Cit, p. 84 ; 82 ; نفس المرجع، ص 82 ; 84 - Otto- Dorn, Op. Cit, p. 84 ; 82 ;

¹² - اتنغهاوزن، فن التصوير عند العرب، 43.

كما كانت عليّة تمارس الغناء أيضا بحضرة أخويها إبراهيم المغني، وكذلك يعقوب ١ الذي كان أحذق الناس بالزمر.^١ كما كان إبراهيم يأخذ الغناء عنها.^٢ فكانوا يشكلون فيما بينهم فرقة موسيقية.

وقد ساهم بعض الشعراء والمغنيين في تكوينهم وتثقيفهم ويكفي أن نذكر في هذا الصدد أبو حفص الشطرنجي أحد شعراء القصر، الذي كان ينظم الشعر لأولاد وبنات الخلفاء، فكان يقول الشعر لعلية فيما تريده من الأمور بينها وبين إختوتها وبني أخيها فتنتحل البعض وتترك البعض كما كانت تأمره بأن يقول لها المعاني التي تريدها ثم تغنيها.^٣ مما يعطينا فكرة عن حياة اللهو والترف التي كان يعيشها أولاد الخلفاء داخل القصر.

وقد سعت عليّة إلى تطوير نفسها سواء في مجال الشعر أو في مجال الغناء وبأية وسيلة، فكما هو معلوم لم يكن يسمح لأحد من رجال البلاط الدخول إلى الحرم، إلّا أن عليّة تجرأت وأدخلت إسحاق الموصلي وجعلته في حجرة خاصة وطلبت منه أن يسمعها صوتا جديدا كان قد أعدّه للرشد، ثم استعادت منه مرارا، ولما تيقنت أنّها قد أخذت الصوت منه دفعت له عشرين ألف درهم، وعشرين ثوبا، وأخبرته بأنّها ستدخل على الرشد وتغنيه إياه وتدعي أنه من صنعها، وهدّته بالقتل إن هو أخبر الرشد بالأمر، هذا طبعاً إن سلم هو منه نتيجة تجرّؤه على دخول الحرم. فلم يجد الموصلي من بدّ إلّا أن أخذ الهدية مكرها وخرج أسفا على الصوت. وظلّ محتفظاً به ولم يغنه إلّا بعد وفاة عليّة وفي حضرة المأمون الذي تغيّر لونه لما سمعه لعلمه أنه من صنع عمته عليّة، فاضطر الموصلي إلى إخباره بالأمر، إلّا أن المأمون استخف به وذلك لما كان يكتنه من المحبة والتقدير لعمته عليّة.^٤

يدلّ إذن هذا الخبر على حدّة ذكاء عليّة وفطنتها وسعيها إلى الاستفادة من رجال القصر المختصين في هذا الفن. وقد جعلها ذكاؤها هذا أيضا محلّ تقدير من قبل نساء الحرم اللاتي حاولن الاستعانة بها في حلّ بعض المشاكل التي تعترضهنّ، مثلما فعلت زبيدة عندما أرادت صرف الرشد عن تعلقه بإحدى جواري القصر، فقد استشارت عليّة في الأمر.^٥

وهكذا فقد كانت عليّة تحدث في الحرم شيئا عجيبا من القدرة على حلّ المشاكل وقول الشعر وتلحينه وغنائه. كما كانت تشرب النبيذ أيضا، ولعل هذا السلوك يدعو إلى التساؤل لاسيما وأن عليّة لم تكن أمة من الجوّاري، وإنّما كانت ابنة خليفة وأخت خليفة؟

يمكن القول بأن ذلك وإن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على مدى تحرر عليّة الفكري وقوة ثقافتها التي استطاعت رغم الحواجز التي فرضت عليها أن تخترق جدران القصر والعصر، والدليل على ذلك الشهرة الواسعة التي

١- الأصفهاني، نفس المصدر، ج ١٠، ص ١٣٧.

٢- الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص ٥٥.

٣- الأصفهاني، نفس المصدر، ج ٢٢، ص ٣٣؛

- Al- Heitty. Abd al – Kareem, “The contrasting spheres of free women and jawari in the literary life of the early ‘abbasid caliphate”, S.A.I.M, v 3, p.41.

٤- الأصفهاني، الأغاني، ج ١٠، ص ١٣٤.

٥- الأصفهاني، نفس المصدر، ج ١٠، ص ١٣٦؛

- Al- Heitty, Ibidem, p.41.

حظيت بها عليّة في كتب الأدب والشعر فقد أفرد لها كل من الصولي والأصفهاني فصلا كاملا للحديث عن أشعارها وأغانيها.

ومن بنات الخلفاء العباسيين اللاتي ذاع صيتهنّ بعد عليّة خديجة بنت المأمون، فقد سارت على خطى عمتها في قول الشعر لاسيما في التكني عن حبيبها باسم فتاة، فقد كان أكثر شعرها في خدام من خدم أبيها.¹ ولعلّ تعلق كل من خديجة وعليّة هؤلاء الخدم يعود إلى أن فرصة الالتقاء بهم كانت متاحة، أكثر من باقي رجال البلاط الذين لم يكن يسمح لهم دخول الحرم، فقادهنّ ذلك إلى حبّ هؤلاء الخدم وقول الشعر فيهم. وقد كانت خديجة تجمع كذلك في نفس الوقت بين الشعر والغناء، فقد غنت شارية يوما بين يدي المتوكل من شعر وغناء خديجة.² ولعلّ بقاء شعرها حتى عهد المتوكل يدلّ على أنّها كانت ذات ثقافة واسعة في فنّ الشعر والغناء. فلا تزال الجوّاري حتى عهد المتوكل تردّدنّ شعرها وتغنيه.

ولا تذكر لنا المصادر موقف الخليفة المأمون من نشاط ابنته الفني، أي هل كان يستحسنه أم لا؟ أما الخليفة المتوكل فقد طلب من شارية بأن لا تغني هذا الشعر أبدا، مما يدلّ على حرص الخلفاء العباسيين على التكنم على شعر هؤلاء الحرّات باعتبارهنّ من المحارم.

أما بنات الخلفاء العباسيين الأخريات فقد ذكرت لنا المصادر أخبارهنّ الشعرية والفنية بصفة عرضية وخاطفة. فقد اشتهرت العباسة بنت المهدي بالشعر، وليس أدلّ على ذلك من القصيدة التي أرسلتها إلى وكيل لها يدعى سباع عندما بلغها أنه يحتاج إلى مالها ويبيّ به المساجد والحيّاض.³ كما اشتهرت عائشة بنت الرشيد بتنشيطها للحركة الشعرية، فكان الشعراء يجتمعون بياها، وكانت تخرج لهم رسولها وتطلب منهم إجازة أحد الأبيات وتبذل لهم الأموال، مثلما حدث مع مسلم بن الوليد، عندما أخرجت له مائة دينار لاستحسانها بيت أجازه.⁴ واشتهرت لبابة بنت علي بن المهدي بقول الشعر أيضا لاسيما في مجال الرثاء، وقد كان الأمين خطيبها وتوفي قبل أن يدخل بها، فقالت شعرا ترثيه به.⁵ كما كانت عائشة بنت الخليفة المعتصم تقول الشعر أيضا حتى وصفت بأنها أديبة وشاعرة.⁶

هذه إذن قائمة بأسماء الحرّات من بنات وزوجات وأخوات الخلفاء العباسيين، اللاتي ذكرت لنا المصادر بأنهن كنّ أديبات وشاعرات ومغنيات، والملاحظ أن أغلبهنّ ينتمين إلى العصر العباسي الأول، فيبدو أن الاستقرار السياسي والازدهار الأدبي الذي عرفه ذلك العصر، قد دفع بالخلفاء العباسيين إلى الاعتناء بتثقيف بناتهم وتعليمهنّ، واللّاتي استغلّنّ بدورهنّ الفرصة لإبراز مواهبهنّ الشعرية والفنية والإثبات للخلفاء العباسيين أنّهن

¹ - السيوطي، *نزهة الجلساء*، ص 48-49؛ الأصفهاني، *نفس المصدر*، ج 16، ص 12-13.

² - الأصفهاني، *نفس المصدر*، ج 16، ص 12؛

- Al- Heitty, *Ibid*, p.41.

³ - السيوطي، *نزهة الجلساء*، ص 66-67.

⁴ - عبد مهنا وسمير جابر، *أخبار النساء في العقد الفريد لابن عبد ربه*، بيروت 1990، ص 159.

⁵ - السيوطي، *نفس المصدر*، ص 76؛ الطبري، *تاريخ*، ص 1764.

⁶ - السيوطي، *نفس المصدر*، ص 60؛ Al- Heitty, *Ibid*, p.41.

قدرات على مزاحمة الرجال في تلك المجالات لاسيما الشعر والغناء إلى درجة التفوق عليهم. فقد كانت عليه تتقدم أخاها إبراهيم بن المهدي في مجال الغناء.¹

أما خلال العصر العباسي الثاني، فإذا استثنينا قطر الندى زوجة الخليفة المعتضد، فإن المصادر لا تذكر لنا أي من بنات الخلفاء العباسيين كنّ ينظمن الشعر في مجال الرثاء أو الغزل أو غيرها من الأغراض الشعرية أو كنّ يغنين، لذلك يمكن القول بأن ضعف الخلفاء وهيمنة الأتراك قد أثرت على إنتاج الحرائر الأدبي، فزهدن عن قول الشعر والغناء، وكنا قد لاحظنا ترجعا أيضا للحرائر على المستوى السياسي خلال نفس الفترة.

لكن رغم ذلك فقد استطاعت الحرّة في الحرم العباسي رغم القيود التي فرضت عليها، أن تتمتع بثقافة عالية مكنتها من التعبير عما كان يخالج نفسها من مشاعر وعواطف، سواء كانت هذه الحرّة ابنة أم زوجة أم أخت. ومن ثمّ شاع في الحرم العباسي فنّ يمكن أن نطلق عليه فنّ الحرائر الأدبي، وقد استطاع في بعض الأحيان أن يتجاوزته إلى خارج حدود القصر. لكن النبوغ في الفنون الأدبية والشعرية والغنائية لم يقتصر فقط على الحرائر بل تعداه أيضا إلى الجوري.

2- دور الجوّاري الفنّي

إن جمال الجارية لدى الخلفاء العباسيين لم يكن كافيا لإحداها بالحرم الخلفي، بل لا بدّ كذلك من حذقها لفنّ الشعر والأدب. فالجارية صارت لا تحسن عندهم لمجرد حسناتها وفتنتها ورخامة صوحتها ورشاقة رقصها، ولكنهم أرادوا فيها حلاوة في الحديث، وبراعة في المنطق وذكاء في الإجابة وقابلية في الشعر.² بل لقد كانوا يعرضون أحيانا عن شراء الجارية لتشويهاات خلقية فيها، لكنهم يعودون ويشترونها، إذا ما أبدت الجارية إجابة ذكية، أو قالت بيت شعر جميل، كالذي وقع للخيزران حينما عرضت على المهدي لشرائها وقال لها " والله يا جارية إنك لعلّى غاية التمني ولكنك خمشة الساقين" فأجابته " إنك أحوج ما تكون إليهما لا تراهما".³ فاستحسن إجابتها واشتراها على الفور وحظيت عنده وهي أم ولديه موسى وهارون.

أو كالذي وقع لأحد الجوّاري التي أدخلت على الرشيد لشرائها، فتأملها ثم أعرض عنها لكلف في وجهها وكلس في أنفها، فأنشدته بيتين غير على إثرهما رأيها، واشتراها وصارت من أحظى جوّاريه.⁴ كما عرضت على المأمون جارية في غاية الجمال إلّا أنّها كانت تعرج برجلها، فقال لمولاه " لولا عرج بها لاشريتها"، فأجابته " إنه في وقت حاجتك لا يكون بحيث تراه"، فأعجبته سرعة إجابتها وأمر بشرائها.⁵

¹ - الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص 55.

² - الأطرقجي، نفس المرجع، ص 52.

³ - ابن الجوزي، المنتظم، ج 8، ص 346.

⁴ - السيوطي، تحفة المجالس، ص 272-273؛ الأبيهي، نفس المصدر، ج 1، ص 75.

⁵ - الأبيهي، المستطرف، ج 1، ص 75.

وبالتالي فإن حذق الجارية لهذا الفن أي القدرة على نظم الشعر، فضلا عن بديهية وسرعة جوابها هو أحسن وسيلة لجلب انتباه الخليفة وسحره.

لذلك لم يكن الخلفاء ليدفعوا في الجواري الأثمان الباهظة لمجرد الجمال وإنما كانوا يجرون اختبارات لهن¹ فلم يقبل الرشيد بشراء "تودد" إلا بعد امتحان قاس خضعت له أمام لجنة مؤلفة من أكبر رجالات العلم في تلك الفترة، ويقال إنها أجابت بسهولة كبرى على كل ما طرح عليها من أسئلة في مجالات الطب وعلم الفلك والفلسفة والموسيقى والرياضيات والفقه والحديث فضلا عن الشعر والأدب والتاريخ، وقد كلفت الرشيد عشرة ملايين دينار.²

أو قد يلقي الخليفة بنفسه بيتا شعريا على الجارية لتجيزه ويكون تقدير ثمنها بقدر إجازتها، مثال ما ذكره بعض النخاسين وقد عرض على المأمون جارية شاعرة فصيحة متأدبة شطرنجية، فساومه في ثمنها بألفي دينار، فقال له المأمون، إن هي أجازت بيتا أقوله بيت من عندها اشتريتها بما تقول وزدتك.³ أو كما فعل المعتمد مع نبت لما عرضت عليه، فقد امتحنها في الغناء والكتابة ثم طلب من ابن حمدون الشاعر مقارضتها في الشعر.⁴ ولعل هذه النماذج تكشف لنا عما بلغت الجواري من الثقافة والعلم. لذلك كان ثمن الجارية أيام الأمويين، ولاسيما في العصر العباسي يزداد حسب جمالها ولكن أيضا حسب لباقتها ومهارتها ومواهبها في مجالات الشعر والرقص والغناء.⁵ وقد لعب النخاسون دورا كبيرا في تثقيف الجواري وتعليمهن صنوف الآداب والفنون لأن قيمة الجارية ومكانة النخاس بمقدار ما تتقنه الجارية من آداب وفنون ومعارف.⁶ وقد بلغ من براعة هؤلاء الجواري في قول الشعر أن أفرد لهن بعض المؤرخين كتباً ضمنها أخبارهن وأشعارهن، مثل كتاب "المستظرف من أخبار الجواري" للسيوطي وكتاب "الإماء" للأصفهاني.

إذن فاكسب الجارية للقدرة على الجواب وبراعة المنطق وقابلية الشعر، يعد امتيازاً قد يطغى أحيانا على كل جمال، وقد استغلت العديد من الجواري هذه النقطة للفوز بقلب الخليفة وتحقيق ما تصبو إليه لاسيما احتلال مرتبة متميزة في الحرم، قد تساوي أو تفوق أحيانا مرتبة المرأة الحرة وهناك شواهد كثيرة على ذلك. فقد اشتهرت بين نساء الخلفاء العباسيين الجواري بالعلم والأدب: الخيزران، جارية الخليفة المهدي والتي أصبحت فيما بعد أم ولده ثم زوجته. فقد كانت أديبة وشاعرة.⁷ أخذت العلم عن الأزواج،⁸ فضلا عن

¹ - الأطرقجي، نفس المرجع، ص 52.

² - Miquel. A, *Sept contes des milles et une nuits*, Paris 1981, pp. 17- 27 ;

- بوحدية، نفس المرجع، 134- 135.

³ - السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 253.

⁴ - السيوطي، المستظرف من أخبار الجواري، ص 253؛ الأطرقجي، نفس المرجع، ص 53.

⁵ - بوحدية، نفس المرجع، 134.

⁶ - الأطرقجي، نفس المرجع، ص 53.

⁷ - الأبيهي، المستظرف، ج 2، ص 72.

⁸ - ابن الأثير، الكامل، ج 6، ص 75.

استفادتها من العلم والأدب والحديث الذي كان يروج في قصر المهدي عندما كان وليا للعهد.¹

كما كانت تقابل العلماء وتناظرهم ويفد إليها الشعراء من شتى الجهات، وتحض المهدي على تشييد دور العلم ومكافأة المهويين، وتنشئ أولادها على حب العلم والعلماء والأدب والأدباء، حتى قيل أنها كانت عاملا من عوامل نشاط الحركة الأدبية في قصر الخلافة.²

وقد عرفت عنها قدرتها على قول الشعر، وتمثل شعرها بالأساس في أبيات أرسلتها لزوجها المهدي عندما عزم على شرب الدواء،³ أو في الردّ على الأشعار التي كان يبعث بها إليها أثناء فترة غيابها عنه. فقد أرسلت للمهدي قصيدة ردّا على قصيدته التي بعث بها إليها وهي في مكة.⁴

كما اشتهرت الخيزران بحسن الجواب والكتابة، ومما يدلّ على براعتها في الجواب وسرعة بديعتها ردّها المغربي على المهدي عندما رفض شرائها لما عرضت عليه. ويذكر ابن الجوزي أن محمد بن سليمان عندما تسلّم ولاية البصرة أرسل إليها هدية، فقبلتها منه وكتبت إليه "إن كان ما وصل إلينا منك ثمن رأينا فيك، فقد بخستنا في القيمة وإن كان وزن مثلك إلينا فظننا بك فوقة".⁵ ولعل ذلك وإن دلّ على شيء فإنما يدلّ على بلاغتها في كتابتها. كما أرسل إليها كاتبها عمر بن مهران كتابا يذكر فيه أعماله وكانت قد لاحظت فيه كثرة اعتداده بنفسه، فردت عليه برسالة تدلّ على نصحتها وحسن جوابها.⁶

إذن فما نبوغ الخيزران في الشعر والنثر، فضلا عن حسن جوابها، إلا دلالة على عمق أدبها، والذي جعلها تحتل مكانة مميزة في الحرم رغم أصلها المتواضع، وليس أدلّ على ذلك من تولية المهدي ولديها موسى وهارون العهد، وتفضيلهما على ولده علي بن ربيعة رغم كون أمه عباسية. وهو ما ذكره المهدي إذ قال "اشتريتها من نخاس ورأت منّي ما رأت وعقدت لابنيها ولاية العهد".⁷ مما يكشف لنا عما أوتيت به الخيزران من العلم والذكاء والفتنة وبعد النظر.

ومن الجوارح اللاتي ذاع صيتهن أيضا في مجال الشعر والأدب: عنان جارية الناطفي وتشير بعض الروايات إلى أن الرشيد لم يشتريها إلا بعد وفاة مولاهما وبمائتين وخمسين ألف درهم، وكان الناطفي أبي أن يبيعها إياه في حياته بأقل من مائة ألف دينار.⁸ لكن عكس ذلك تذكر روايات أخرى أن الرشيد لم يشتريها لأن أم جعفر علمت شغفه بها ومساومته في ثمنها، فطلبت من شاعر معروف وهو أبو نواس صرفه عنها، فقال فيها شعرا هجأها به، إلى درجة منعت الرشيد من شرائها.⁹

¹ - الجومرد، هارون الرشيد، ص 53.

² - الأطرقجي، نفس المرجع، ص 48.

³ - الأبيشي، نفس المصدر، ج 2، ص 72-73.

⁴ - ابن الجوزي، المنتظم، ج 8، ص 348-349.

⁵ - ابن الجوزي، نفس المصدر، ج 8، ص 347.

⁶ - الجهشيار، مصدر سابق، ص 221.

⁷ - الخطيب البغدادي، مصدر سابق، ج 14، ص 431.

⁸ - الأصفهاني، الأغاني، ج 23، ص 89؛ السيوطي، المستطرف، ص 44.

⁹ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 23، ص 90-91؛ ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص 47.

وإن كان غير واضح في المصادر، إذا ما كانت عنان قد ألحقت بحرم الرشيد أم لا، فإن أهميتها تكمن فيما اكتسبته من مقدرة على نظم الشعر، فقد كان يحضرها في مجلس الناطفي فحول الشعراء أمثال أبي نواس ومروان بن أبي حفصة، وكانوا يساجلونها ويقارضونها الأشعار فتنتصف منهم، بفضل سرعة بديحتها وإتقانها للصنعة الشعرية.¹ كما كانت تدخل مع الشعراء في مطارحات شعرية كالمطارحة التي دارت بينها وبين العباس بن الأحنف.² حتى قيل أن عنان حازت المرتبة الأولى في قول الشعر في الدولة العباسية،³ بل كان الرشيد يريد شراءها وما له فيها من أرب غير الشعر.⁴

ومن يذكر في هذا المجال عريب، التي كانت من أشهر النساء الشاعرات اللاتي برزن في قصور الخلافة،⁵ وقد نبغت في قول الشعر وكذلك الغناء،⁶ كما عرفت عنها قدرتها على النظم والكتابة، وتما يدل على بلاغتها أن المأمون هجرها أياما لأشياء عتبها عليها، ثم عادها وسألها عن طعم الهجر فأجابته، "لولا مرارة الهجر ما عرفت حلاوة الوصل"، فقال "أترى هذا لو كان من كلام النظام ألم يكن كبيرا".⁷ كما كانت لها مكاتبات مع إبراهيم المدبر أحد كتاب الخليفة المتوكل.⁸

فقد كانت إذن عاملا من عوامل النهضة الفنية في قصر الخلافة طيلة عهد ثمانية خلفاء،⁹ من عهد الخليفة المأمون إلى عهد الخليفة المعتمد، ولا أدل على ذلك من شهرتها في كتب الأدب الذين أفردوا لها ترجمة خاصة تضمنت أخبارها الشعرية والغنائية والخاصة.

واشتهرت أيضا فضل جارية الخليفة المتوكل بقول الشعر، لاسيما في مجال المدح، فقد قالت شعرا مدحت به المتوكل في أول يوم أهديت إليه.¹⁰ كما كانت تجلس على كرسي في مجلس المتوكل وتعارض الشعراء، وكثيرا ما كانت تتفوق عليهم.¹¹ في حين لم يكن بإمكان الحرائر أن يحضرن مجالس الخلفاء لينشدن الأشعار في المديح أو غيره. كما كانت لها القدرة أيضا على الإجازة الشعرية، فكثيرا ما كان يطلب المتوكل إلى شاعر معروف مثل علي بن الجهم أن يلقي عليها أبياتا لتجيزها.¹² وقد جعلها ذلك تحتل المرتبة الأولى في قول الشعر بين نساء عصرها.¹³

¹ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 23، ص 84-85؛ السيوطي، المستطرف، ص 38.

² - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 23، ص 89-90.

³ - ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص 47.

⁴ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 23، ص 88.

⁵ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 21، ص 43.

⁶ - ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص 55؛ الأصبهاني، القيان، ص 111.

⁷ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 21، ص 62.

⁸ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 21، ص 62.

⁹ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 21، ص 57.

¹⁰ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 19، ص 215-216.

¹¹ - السيوطي، المستطرف، ص 50.

¹² - السيوطي، نفس المصدر، ص 51.

¹³ - السيوطي، نفس المصدر، ص 53.

كما عرفت جارية أخرى من جوارى المتوكل بقول الشعر وهي محبوبة، ولم تكن فضل تتقدمها إلا قليلا، وقد شهرت أساسا بالبديهة الشعرية. ومما يدل على تمكنها من القدرة على نظم الشعر وسرعة بديتها ما ذكره صاحب الأغاني، أن المتوكل دخل يوما إلى الحرم فوجد قبيحة جاريتها قد كتبت اسمه على خدّها بالغالية، فخرج من عندها وطلب من علي بن الجهم أن يقول في ذلك شعرا، وكانت محبوبة حاضرة من وراء الستارة فقالت على البديهة " وكاتبة بالمسك في الخدّ جعفرا بنفسى مخطّ المسك من حيث أثرّا " ¹. وقيل أنّها قالت هذا الشعر بدون تفكير ولا روية. نلاحظ إذن أنه كان للجوّاري أن يحضرن مجالس الخلفاء لينشدن الأشعار، إما بطريقة سافرة أو من وراء الستارة.

ولم تكتفي الجوّاري بحضور مجالس الخلفاء لمطارحة الشعراء وإلقاء القصائد والمدائح، بل استخدمن الشعر حتى في حياتهنّ اليومية، للتعبير عمّا يخالجهنّ من مشاعر وعواطف، وذلك في محاولة منهنّ للفوز بحبّ الخليفة. فكنّ يكتبن بعض الأبيات الشعرية التي تدلّ على العشق والحبّ والغرام على الملابس، والعصائب، والمراوح، إلخ...، وفي المصادر إشارات كثيرة إلى ذلك. من ذلك ما رواه أحد الأشخاص أنه دخل على الرشيد وحوله جوار كالتمثيل وقد كتب على عصابة إحداهنّ بالدّر والياقوت " ظلمتني في الحبّ يا ظالم والله فيما بينا حاكم " ². كما ذكر إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنه دخل يوما على الأمين وعلى رأسه وصائف بيد كل واحدة منهنّ مروحة كتب عليها بيتا شعريا موحدا وهو " بي طاب العيش في الصيف وبى طاب السرور " ³. كما كتبت عريب على وشاح وكمّ قميص لها ملحم وموشح بالذهب، أبيات شعرية غزلية ⁴. وكتبت جارية لقيبيحة على رداء لها رشيد أبياتا شعرية في الحبّ ⁵. كما كتبن أيضا على نعولهنّ مثلما فعلت مقيم المغنية ⁶. واستخدمت الجوّاري الحناء أيضا للكتابة على راحة الأيدي والأقدام مثلما فعلت جارية لبعض جوّاري المأمون ⁷.

واختصت الجوّاري بهذه الكتابات فلم تشاركهنّ فيها الحرائر. فساهمنّ بذلك في نشر نوع من الظرف الأدبي ⁸، في البلاط العباسي لم يكن معروفا من قبل، وتفننّ في المراسلات والمكاتبات بينهنّ وبين عشاقهنّ من الخلفاء، اللّذين استحسنوا منهنّ هذا الفن من الشعر.

ويعدّ الغناء فنا آخر من الفنون الأدبية التي نبغت فيها الجوّاري إلى جانب الشعر. فقد وجدت في قصور الخلفاء العديد من المغنيات، وأشهرهنّ عريب التي كانت تغني من شعرها، والتي ذكرنا أنّها عاصرت ثمانية خلفاء، وقد جمع غناؤها فكان ألف صوت، ولغنائها ديوان مفرد ⁹. وقد عرف عن عريب خفتها وتحرّرها، فقد كانت تفعل

1- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 22، ص 140.

2- ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج 6، ص 424.

3- ابن عبد ربه، نفس المصدر، ج 6، ص 424.

4- الوشاء، الموشى، ص 252.

5- الوشاء، نفس المصدر، ص 254.

6- الوشاء، نفس المصدر، ص 273.

7- الوشاء، نفس المصدر، ص 276.

8- البشير المجدوب، الظرف بالعراق في العصر العباسي، ص 113-116.

9- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 21، ص 44؛ ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص 57.

ما تريد دون أن تخشى شيئاً، فلما كانت تحت عصمة المأمون كانت تحبّ محمد بن حامد وكانت تغادر دار الخليفة وتذهب إليه ويخلوان مع بعض،¹ ولما فطن بهما المأمون، استغل فرصة حضورهما في مجلس للغناء وسألها إن كانت تحبه وتريد الزواج به، فأجابته بنعم فأعلن زواجهما على الفور.² وقد جعل تحررها هذا الخليفة المأمون يحضرها للغناء في مجلسه دون ستر، ومما يدلّ على ذلك ما ذكره ابن طيفور إذ قال أن المأمون طلب منها أن تجسّ جبين مخارق المغني حين رفض الغناء وادّعى أنه محموم.³ ويذكر الأصفهاني أن المأمون اصطبح يوماً وعريب معه على مصلاه وحضره جماعة من المغنين، وندماؤه وفيهم محمد بن حامد فأوماً إليها بقبلة، فاندفعت تغني وفطن به المأمون ثم عفا عنه.⁴ مما يكشف لنا تحرر الخليفة المأمون دون غيره من سائر الخلفاء. أما في السنوات الأولى من خلافته فلا بدّ أنه كان يجعلها خلف ستارة، لاسيما وأنه احتجب عن المغنين والندماء طيلة سبع سنين.⁵ وقد عادت عريب فيما بعد للجلوس خلف الستارة.⁶ ولعل براعتها الغنائية هي التي أكسبتها هذه الدرجة من الخفة والتحرر.

كما اشتهرت كذلك مغنية أخرى وهي بذل، كان قد اشتراها جعفر بن موسى الهادي، فوصفت للأمين فطلبها منه فأعطاهم له مقابل مال كثير. وكانت تغني ثلاثين ألف صوت، كما كان لها كتاب مجرد في الأغاني يشتمل على اثني عشر ألف صوت،⁷ لكن رغم ذلك لم تكن لها من الشهرة ما كانت لعريب، ولعل ذلك ربما يعود لحشمتها وحجلها الذي جعلها محلّ إعجاب من قبل القواد والكتّاب والهاشمين الذين رغبوا في الزواج منها بعد وفاة الأمين إلّا أنّها أبت.⁸ عكس عريب التي عرفت بتحررها. كما غنّت كذلك المأمون،⁹ دون أن يكون قد اتخذها جاريته.

كذلك اشتهرت ذات الخال في خلافة الرشيد بالغناء، اشتراها من صاحبها قرين بسعين ألف درهم، فصارت إحدى الجوّاري الثلاثة اللّواتي ملكن قلبه. وقد جعلتها هذه الصفة تحتل مكانة مميزة في البلاط، فلم تعد تحتل أن يخالف لها وعد حتى لو كان من قبل الخليفة، فقد دعت يوماً الرشيد، فوعدها بالمسير إليها ولما خرج إليها اعترضته جارية وسألته الدخول إليها، فأجابها وأقام عندها وشقّ ذلك على ذات الخال، التي اشتد غضبها ولم تجد من شيء تغيط به الرشيد إلّا أن قصّت الخال الذي كان يزيّن خدّها والذي كان يضيء عليها جمالا خاصا، فاغتاظ الرشيد ولم يجد وسيلة يروح بها عن نفسه إلّا أن طلب من أحد الشعراء الموجودين بالباب وهو العباس بن الأحنف أن يقول في ذلك شعرا.¹⁰ كما كان الرشيد يحضرها في بعض مجالس شربه ويجلسها في

¹ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 21، ص 63.

² - ابن طيفور، كتاب بغداد، ص 150-151.

³ - ابن طيفور، نفس المصدر، ص 150.

⁴ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 21، ص 55.

⁵ - الثعلبي، خلاق الملوك، ص 68.

⁶ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 21، ص 57.

⁷ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 17، ص 58.

⁸ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 17، ص 59.

⁹ - الأصبهاني، القيان، ص 119.

¹⁰ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 16، ص 234-235.

حجره ويأمرها أن تغنيه وبدون أن يجعل بينهما وبين ندمائه ستارة، يذكر إسحاق أن الرشيد وجّه إلى ذات الخال ليلة وقد مضى شطر الليل، فخرجت جارية وكأها المهابة.¹

لكن علاقة الرشيد بجاريته المميزة استاءت عندما علم بوجود علاقة بينها وبين إبراهيم الموصلي لاسيما بعد أن صدقته بالأمر، فقرّر وهبها لحمويه الوصيف. لكن حبّ الرشيد لذات الخال وخاصة لصوتها جعله لا يطيق صبرا عنها فكان يذهب لسماعها. ويذكر أن حمويه لما علم بقدوم الرشيد عليه استأجر لها من بعض الجوهرين بدنة وعقودا كثيرة، مما أثار استنكار الرشيد لما رآها، وسأل حمويه عن مصدر الجوهر فلما أعلمه بالأمر بعث إلى أصحابه واشتراه منهم ووهبه لذات الخال.² ولعلّ هذه الروايات تكشف لنا عن المكانة المميزة التي كانت تتمتع بها ذات الخال في البلاط وفي قلب الرشيد.

وكانت دنانير من المغنيات المشهورات أيضا، وكانت جارية ليحيى بن خالد البرمكي، وقد أخذت الغناء عن بذل فهي التي خرّجتها، وكذلك عن إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق، وابن جامع وغيرهم من المغنيين المشهورين. وقد أعجب الرشيد بصوتها إلى درجة جعلته يكثر من المسير إلى مولاه لسماعها، مما أثار غيرة زبيدة التي اشتكتها إلى أهله وعمومته فعاتبوه. ورغم كونها لم تكن من مغنياته فقد كان يغدق عليها الهدايا السنية، فقد وهبها عقدا قيمته ثلاثون ألف دينار. وقد ظلت وفيه لسيدا يحيى بعد وفاته وقررت أن لا تغني أبدا بعده، حتى أُلها امتنعت عن الغناء بحضرة الرشيد. وقد بلغت قدرتها الغنائية أن كان لها كتاب مجرد في الأغاني.³

كذلك متميم الهاشمية جارية علي بن هشام، وقد كانت من تعليم بذل أيضا، كما أخذت الغناء عن إسحاق وأبيه إبراهيم، وقد جعلها ذلك من أحسن النساء غناء وأداء، وقد غنّت المأمون والمعتصم، إلا أنها لم تكن من مغنيائهما، فقد حاول المأمون أخذها من علي بن هشام لإعجابه بغنائها وألح عليه في ذلك لاسيما وأنه لم يكن له منها أولاد، فحرص على أن حملت منه ويُس المأمون منها وكان ذلك سبب هلاك علي بن هشام. واكتفى المأمون بأن يبعث إليها فتحيته وتغنيه، أما المعتصم فقد أنزلها دارا داخل الجوسق الخاقاني، وكانت تستأذنه في الدخول إلى بغداد لزيارة أولادها ثم تعود، وقد ظلت وفيه لسيدا بعد وفاته فكانت تنوح عليه وترثيه حتى في حضرة المعتصم الذي أمر بإخراجها من مجلسه.⁴

وقد شهرت متميم الهاشمية بأناقته، فهي أول من عقد من النساء في طرف الإزار زئارا وخيط إبريسم ثم تجعله في رأسها فيثبت الإزار ولا يتحرك، كما كانت تغني وفي كمّها البنفسج.⁵

1- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 16، ص 237.

2- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 16، ص 235.

3- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 18، ص 47-48؛ الأصبهاني، القيان، ص 83-84-85؛ السيوطي، المستطرف،

ص 25.

4- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 7، ص 222-224-229؛ السيوطي، المستطرف، ص 63.

5- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 7، ص 228-231.

كذلك اشتهرت فريدة في عهد الخليفة الواثق بالغناء، وكان يجلسها معه على السرير في حجرة من دور الحرم، وفي حجرها عود وهي تغني. كما غنّت المتوكل أيضا في نفس المكان وب نفس الكيفية.¹

كذلك شارية تزعمت الحركة الغنائية بعد عهد المعتصم وإلى آخر خلافة الواثق،² كانت في الأصل جارية لإبراهيم بن المهدي اشتراها من إسحاق الموصلي بثلاثمائة دينار،³ لكن جاء في رواية أخرى أنه اشتراها من امرأة هاشمية وقد أخذت أغلب غناها إن لم نقل كلّ عنه، ولم تقتصر علاقتها به على الغناء وإنما اتخذها كسريرة له لكنها لم تنجب منه أولاد، لذلك اشتراها المعتصم بعد وفاته من ابنته ميمونة بخمسة آلاف وخمسمائة دينار وقيل بثلاثمائة ألف درهم، وضمّها إلى حرمه فظلت على ملكه حتى وفاته.⁴

وقد غنّت شارية أيضا للواثق ثم للمتوكل فالمعتز فالمعتصم، وكانوا يجلبونها ويغدقون عليها الهدايا السنية، فقد أهداها المعتصم يوما ألف ثوب من جميع أنواع ثياب الخاصة لغناء غنته إياه من شعر وتلحين مولاها إبراهيم.⁵

وقد ساهمت كما هو الشأن بالنسبة لعريب، في تنشيط الحركة الغنائية في قصر الخلافة وذلك من خلال تعليمها الجوّاري الغناء فقد أخذت عنها فريدة.⁶ وعلى خلاف عريب لم تكن شارية تغني إلاّ من خلف الستارة، عدى إذا ما أقيم مجلس الغناء في دار الحرم.⁷ كما كانت بينها وبين عريب منافسة شديدة، وكان أهل سامراء منقسمين بينهما قوم مع شارية وقوم مع عريب، ولا يدخل أصحاب واحدة منهما في أصحاب الأخرى.⁸ أما داخل الحرم فيبدو أن عريب كانت تتمتع بموقع أفضل من شارية، فعدا المعتصم لم يدخلها أي من الخلفاء الذين اتصلت بهم في حرمهم أي لم يتخذوا منها سريرة، عكس عريب التي تداول عليها ثمانية خلفاء. فدورها إذن اقتصر على الغناء الذي احتلت فيه المرتبة الأولى، وذلك حتى آخر عهد الخليفة الواثق.

كما عرفت محبوبة جارية الخليفة المتوكل بالغناء والعزف على العود، وكان المتوكل إذا جلس للشرب يجعلها خلف ستارة وراء ظهره ويدخل رأسه إليها ويحدثها ويرأها في كل ساعة.⁹ وهو ما يدل على المكانة المميزة التي تمتعت بها محبوبة في بلاط المتوكل، والتي جعلتها تعزف عن الغناء بعد قتله، ولما اضطرها وصيف على الغناء وكانت ضمن جواريه اللاتي وقعن من نصيبه، أخذت العود واندفعت تغني وهي تبكي، مما أثار غضبه والذي همّ بقتلها لولا أن بغا استوهبها منه وكان حاضرا، فوهبها له وأعتقها وأمر بإخراجها وأن تكون بحيث تختار من البلاد، فخرجت من سرّ من رأى إلى بغداد.¹⁰

1- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 4، ص 92-93؛ السيوطي، المستطرف، ص 49.

2- الأصفهاني، الأغاني، ج 16، ص 10.

3- السيوطي، المستطرف، ص 31.

4- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 16، ص 5-7-8.

5- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 16، ص 9-11-12.

6- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 16، ص 10.

7- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 16، ص 9-13.

8- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 16، ص 11.

9- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 22، ص 140-141-142.

10- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 22، ص 142-143.

هذه إذن قائمة بأسماء أهم المغنيات اللاتني ورد ذكرهن في المصادر، ولم نعتمد في ترتيبهن التسلسل الزمني وإنما مدى شهرتهن، ونلاحظ أن البعض منهن كنّ من جوارى الخلفاء ويقمن في دار الحرم، أما البعض الآخر فكنّ يترددن على قصور الخلفاء لإحياء مجالس الغناء لا غير مثل مقيم الهاشمية، أو العكس يذهب الخليفة بنفسه للاستماع إليهنّ مثل دنانير. ونلاحظ كذلك أن أغلبهنّ ينتمين إلى العصر العباسي الأول، عدا عريب وشارية اللاتي عاصرنا أيضاً خلفاء من العصر العباسي الثاني.

وبالإضافة إلى هؤلاء المغنيات الشهيرات لا بدّ أن نشير إلى وجود صنف آخر من المغنيات لم تتح لهنّ فرصة الشهرة، وهنّ أولئك اللاتني كنّ يغنينّ في الغناء الجماعي واللاتني اكتظت بهنّ أيضاً قصور الخلفاء. فقد كان الرشيد يمتلك زهاء ألفي جارية من الجوارى المغنيات والخدمة في الشراب.¹

والملاحظ أن هؤلاء الجوارى كنّ يغنينّ ويعزفنّ على العود في نفس الوقت مثل شارية ومحبوبة، وقد اكتظت بمجالس الخلفاء بمثل هؤلاء الجوارى اللاتني يعزفنّ على العود. فقد حضر إسحاق الموصلي مجلس غناء للخليفة المأمون وفيه عشرون جارية يغنينّ ومعهنّ العيدان يضربنّ بها.² وأرق الرشيد ليلة فذهب إلى منزل إبراهيم الموصلي، وخرجت الجوارى لتغنيه، فطلب من إبراهيم أن تضرب اثنتان اثنتان وتغني واحدة فواحدة.³ والجوارى مطالبات بإصلاح أعوادهنّ إذا ما طرأ عليها خطأ أثناء العزف في مجلس الخليفة، فقد اكتشف إسحاق الموصلي أثناء حضوره مجلس المأمون، خطأ في وتر في أحد الأعواد بين ثمانين وترا.⁴ فالعود إذن يعدّ من أهم الآلات الموسيقية التي كانت تستخدمها الجوارى للعزف.

كما وجد صنف آخر من الآلات اتخذها الجوارى للضرب عليها والغناء وهو الطنبور. وكانت تحذقه جارية تدعى عبيدة، يذكر الأصفهاني أنه "لم يعرف في الدنيا امرأة أعظم منها في الطنبور"،⁵ حتى صارت تعرف بـ "عبيدة الطنبورية"، وقد غنّت للعباس بن الرشيد، ولإسحاق الموصلي، إلّا أنّها لم تتح لها فرصة الدخول والغناء لأي من الخلفاء العباسيين.

ونجد في المآثر التي تعود إلى العصر العباسي نماذج لهذه الآلات، ففي رسوم سامراء صورة سيّدة متربعة في جلستها وتعزف على العود.



¹ - الأصفهاني، الأغاني، ج 10، ص 136.

² - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 5، ص 183.

³ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 5، ص 142.

⁴ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 5، ص 184.

⁵ - الأصفهاني، نفس المصدر، ج 22، ص 144-145.

كما جسّمت فوق ظهر ميدالية المقتدر سيّدة وهي تعزف على العود، ومتربعة على كرسي قصير بدون أرجل (لوحة عدد 3). وجسّمت أيضا عازفة عود متربعة على كرسي قصير، لكنه يحتوي على أرجل على ظهر ميدالية المطيع (اللوحة عدد 4).

أما الطنبور فنلاحظه في اللوحة التي تقع في غرة الجزء الرابع من كتاب الأغاني بدار الكتب المصرية، والتي تمثل مجلسا من مجالس الغناء قعد فيه الحاكم أو الأمير وتحيط به الجواري. فنرى في أسفل اللوحة خمس جواري جالسات، تتوسطهنّ جارية متربعة في جلستها وقد رفعت يديها لتستعين على الأداء، وإلى يمينها ويسارها عازفتان جالستان القرفصاء وتدقان على دفيهما، وإلى أقصى اليسار جارية جالسة القرفصاء وتعزف على العود وإلى أقصى اليمين جارية أخرى تجلس القرفصاء أيضا وتحتضن طنبورا تعزف عليه (اللوحة عدد 36)، وخلافا لثروت عكاشة الذي يرى أن هؤلاء القيان متجهات للأمير ولكن التصوير حينذاك لم يبلغ مرحلة التوفيق بين الوضعات، بل كان ينظر فيه إلى كل وضعة على حده، فإننا نرى أهنّ متجهات إلى الأمام وليس إلى الأمير، والدليل على ذلك الشريط المزخرف الذي يمتد عرضا ويفصل بين هذا الجزء الأسفل للصورة وبين جزئها الأعلى الذي يحتل حوالي ثلثي مساحة الصورة كلّها.¹ أي أهنّ يمثلنّ مشهدا على حده.

ويعدّ المزمار أيضا من آلات العزف التي تستخدمها الجواري، وهو عبارة عن قصبة جوفاء بأبخاش في جوانبها معدودة ينفخ فيها فتصوت.² ومن أوضح الأمثلة عليه ما نراه في الطبق من الفضة الذي نقش عليه ملك متربع على أريكة العرش وعلى يمينه جارية جالسة القرفصاء وتعزف على العود، وعلى يساره جارية أخرى جالسة القرفصاء أيضا وتنفخ في المزمار (اللوحة عدد 32).

وعادة ما يتبع الغناء والعزف الرقص، وقد اشتهرت به الجواري وبرعن فيه، فقد جلس المأمون في يوم عيد الشعانين وغنّى إبراهيم ورقصت الجواري أنواع الرقص. وقد عرف من أنواع الرقص أن تتمايل الجواري وهنّ يغنينّ، ومن أقدم الأمثلة ما نلاحظه في الرسوم الجدارية التي ترين صدر قاعة العرش في قصر عمرة، والمتمثلة في رسم سيّدة وهي تتمايل واضعة يدها اليمنى على خصرها، ورافعة اليسرى إلى كتفها. كذلك رسم سيّدتين أخريين وهما تتمايلان وقد رفعتا أيديهما إلى أعلى وأمسكتا كل واحدة منهما بسلة من الفواكه (اللوحة عدد 48). كما نجده كذلك في رسوم سامراء النسائية، والتي تظهر فيها سيّدة وهي تتمايل رافعة يدها اليسرى إلى رأسها وواضعة اليمنى على خصرها، (اللوحة عدد 44).

كما يوجد نوع آخر من الرقص ويتمثل في تقاطع أذرع الجواري بعضهنّ ببعض، ونلاحظ هذا الضرب من الرقص في رسم راقصتي سامراء. ويمثل هذا الرسم راقصتين مرسومتين في تماثل تام، ذراعاهما الداخليتان متقاطعتان، وأيديهما الخارجيتان في كل منهما قنينة تصب منها، كل راقصة النبيذ في قدح تمسكه الراقصة

¹ - عكاشة، موسوعة التصوير الإسلامي، ص 82.

² - ابن خلدون، المقدمة، ص 462.

الأخرى (اللوحة عدد 45). ويدل هذا الرسم على أن الجوّاري كنّ يتخذنّ للغناء والعزف والرقص ولصب الشراب أيضا، وهو ما تذكره النصوص فقد كان الرشيد يمتلك زهاء ألفي جارية للغناء والخدمة في الشراب.¹ وهناك أيضا نوع آخر من الرقص ويتمثل في القفز بواسطة آلة وهو ما تمثله سيّدتين في رسوم سامراء ماسكتين بجبل تقفزان به (اللوحة عدد 46). كما اتخذت الجوّاري آلة أخرى للرقص تعرف بالكرج، وهو عبارة عن تماثيل خيل مسرّجة من الخشب، معلقة بأطراف أقبية يلبسها الجوّاري، ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرونها ويفرون.² ولم نعث في المخلفات الأثرية المتوفرة لدينا على نماذج للكرج. أما الملابس التي تستخدمها الراقصات أثناء الرقص فتتمثل في الزنار والرداء والإزار.

وتعبّر اللوحة التي تقع في غرة الجزء الثاني من كتاب الأغاني بدار الكتب المصرية (اللوحة عدد 37) خير تعبير، عن نمط حياة الغناء والطرب والرقص والعزف الذي تعيشه الجوّاري داخل الحرم، والتي ضمت عددا من الجوّاري بعضهنّ يعزف على الآلات الموسيقية وبعضهنّ يرقص والبعض الآخر يغني. وقسمت اللوحة إلى أربعة صفوف بواسطة أطر مذهبة ومزركشة. يضمّ الصف الأول جوّاري جالسات القرفصاء منهنّ من يعزف على العود، ومنهنّ من يدقّ على الدف ومنهنّ من يغني. أما الصفان الثاني والثالث اللذان يتوسطان الصورة، فتخللهما حلقة مربعة في الوسط تضم جوّاري يرقصن، ومن حولهن على اليمين واليسار تجلس جوّاري أخريات للعزف والدق والغناء. أما الصف الرابع في أسفل الصورة فيتوسطه حوض فيه أسماك وطيور، ومن حوله على اليسار قينة تضع ساقها في إناء مملوء بالماء، وعلى اليمين قينة تستر نفسها بإزار.

وهكذا فقد كانت الجوّاري تنتظم داخل الحرم العباسي في شكل حلقات للغناء والعزف والرقص. وكنّ يتلقين تدريبات على يد مختصين كبار في هذا الفن، ومن أشهرهم إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق اللذين لعبا دورا كبيرا في تعليم الجوّاري الغناء، فبعد أن كانوا لا يعلمون إلّا الجوّاري الصفر والسود، فإن إبراهيم أول من علّم الجوّاري المثلثات أي المقدوادة.³ فكان له الفضل إذن في إبراز مواهب الجوّاري في الغناء.

ذلك أن دور الجوّاري لم يكن يقتصر على الغناء والرقص داخل الحرم فحسب، بل كان لهنّ أيضا حضور مجالس الخلفاء لاسيما مجالس الغناء والطرب أي المنادمة والتي عادة ما يصاحبها الشرب. ومثلما أشرنا إلى ذلك فإن هذه المجالس كانت تعقد في قصر الخليفة الخاص مثل الجوسق الخاقاني، التاج، أو في قسم الشؤون الخاصة، أين يوجد الحرم، وفي قاعة مخصصة لذلك الغرض، فقد حرص الخلفاء العباسيون على أن يكون حريمهم بالقرب منهم، حتى يتسنى لهم الدخول إليهنّ متى شاؤوا، أو إحضارهنّ كلّما أرادوا ذلك مثلما فعل الرشيد عندما أمر بإحضار ذات الخال وقد ذهب من الليل شطره.⁴

1- الأصفهاني، الأغاني، ج 10، ص 136.

2- ابن خلدون، نفس المصدر، ص 466.

3- الأصفهاني، الأغاني، ج 5، ص 111-112.

4- الأصفهاني، الأغاني، ج 16، ص 237.

وكانت هذه المجالس تعقد في الليل أو في الصباح، سيما إذا ما عزم الخليفة على " الاصطباح"، فقد اصطبح الرشيد فكان جميع من حضره من جواريه المغنيات وساقيات الشراب زهاء ألفي جارية.¹ وبما أن عدد هؤلاء الجواري كبير فيبدو أن الخلفاء العباسيين، قد جعلوا لكل واحدة منهم أو لكل مجموعة "نوبة" في يوم محدد من الأسبوع، كما هو الشأن بالنسبة للمغنين الرجال اللذين كانوا يخدمون الخليفة بنوبة.² فقد كان لإبراهيم الموصلي نوبة في دار الخليفة وكذلك ابنه إسحاق.³

وكانت الجواري تجلس في مجلس الخليفة وفق ترتيب يعتمد أساسا على مبدأ التناظر أو التماثل " la symétrie"، انطلاقا من سرير الخليفة الذي يحتل دائما صدر المجلس، كما هو الشأن في المجالس العامة والرسمة، ثم يقع توزيع الجواري بالتساوي على اليمين واليسار. ويدل على ذلك ما ذكره صاحب الأغاني، أن إسحاق الموصلي دخل على المأمون وفي مجلسه عشرون جارية، قد أجلس عشرا عن يمينه وعشرا عن يساره.⁴ ونفس هذا النص ورد ذكره لدى ابن طيفور والنواجي لكن مع اختلاف في عدد الجواري، حيث يذكر أن أجلس ثمانية عشرة مغنية بدلا من عشرين تسعة عن يمينه وتسعة عن يساره.⁵

ويعبر القسم الأعلى من اللوحة عدد 36 التي تقع في غرة الجزء الرابع من كتاب الأغاني بدار الكتب المصرية والذي يحتل حوالي ثلثي مساحة اللوحة، ويمثل مجلس طرب وغناء لأمر أو والي، خير تعبير عن هذا التنظيم. فترى الأمير قد جلس على كرسي وسط الصورة، ممسكا بكأس ومن حوله عشرة جوارى، أربع عن يمينه وأربع عن يساره. واثنان في الركبتين العلويتين للوحة يرحح عكاشة أهما راقصتان، وأثنى لسن في الحقيقة عن يمين أو يسار بل هن بين يدي والي.⁶ ولكننا نرجح أهما في صدر المجلس، ويؤكد ذلك ما ذكره الأصفهاني أن الرشيد لما زار إبراهيم الموصلي وطلب منه أن تغنيه الجواري أخذن صدر الإيوان وجانيه.⁷ وتؤكد أهمية الأمير ضخامة حجمه بالمقارنة مع حجم أتباعه. ويبدو أن المصور قام بالتنقيص من عدد الجواري فجعلهن عشرة بدلا من عشرين كي لا تأخذ الصورة حجما أكبر.

كما يتجلى لنا أثر هذا التنظيم في صورة مستخرجة من مخطوط " الترياق " بباريس، موضوعها منظر ملكي. يتوسط الملك المساحة العليا للصورة، ويظهر فيها متربعا على وسادة أو على مقعد منخفض له من الخلف مسند للظهر، ماسكا بيده اليمنى كأسا، وتحيط به ثمانية جوارى، ثلاثة عن يمينه، وثلاثة عن يساره، واثنان خلف المقعد تمسكان بالمسند واحدة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار. وثمة شريط قد امتد عرضا يفصل بين هذا الجزء الأعلى من الصورة وبين جزئها الأسفل الذي يحتل مساحة أطول، ويظهر فيه واحد من أتباع الملك وقد جلس في إيوان القصر وأمسك برجله التي لدغته منها أفعى، وشخص آخر قد أتاها مسرعا وأحضر له الدواء.

1- الأصفهاني، الأغاني، ج 10، ص 136.

2- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 5، ص 190.

3- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 5، ص 163-248.

4- الأصفهاني، الأغاني، ج 5، ص 183.

5- ابن طيفور، كتاب بغداد، ص 105؛ النواجي، حلبة الكميت، ص 181.

6- عكاشة، نفس المرجع، ص 82.

7- الأصفهاني، نفس المصدر، ج 5، ص 142.

ولعل الملفت للانتباه في هذا القسم هو أن المصور لم يحترم مبدأ التناظر كما هو الشأن بالنسبة لصورة الملك. فالباب لم يقسم الصورة إلى جزئين متساويين، مثلما فعل الكأس الذي أمسك به الملك في الجزء الأعلى من الصورة، لأنه جعل قليلا إلى الأمام.¹ ولعل المصور أراد بذلك التأكيد على أهمية مبدأ التناظر بالنسبة لمجلس الملك.

إذن مهما اختلف عدد الجواري، فلا بد أن يكون زوجيا حتى يقع ترتيبهن بطريقة متساوية، وذلك للحفاظ على نوع من الانسجام داخل مجلس الخليفة والذي لا يكون إلا باحترام مبدأ التناظر الذي يعدّ أحد المقومات الأساسية لمجالس الخلفاء. بل ولتحقيق مزيد من الانسجام قد يفرض الخليفة أحيانا أن تكون فرش المجلس - أي مجلس الغناء - كلّها موحدة أو موزدة بما في ذلك لباس الخليفة والجواري. فقد دعا المهدي بيعقوب بن داود وهو في مجلس، فرشه كلّها موزدة، وعليه ثياب موزدة، وعلى رأسه جارية عليها ثياب موزدة.² وكان لا يرى في مجلس الخليفة المتوكل أيام الورد إلا الثياب الموزدة والفرش الموزدة، كما كان يورد جميع الآلات.³ كما جلس المتوكل يوما للشرب في بركوارا على سرير من ذهب وعليه ثياب وشي، وأمر ألا يدخل عليه أحد إلا في ثياب وشي منسوجة أو ديباج.⁴

إن الغاية من هذا الانسجام هو تحقيق نوع من اللذة السمعية بما يلقي في مجلس الخليفة من غناء، ونوع من اللذة البصرية بما يشاهد فيه من تراصف وتناسق وانتظام، بالإضافة إلى التأكيد على محورية الخليفة. ولم تكن الجواري تستخدم للغناء والرقص في مجالس الخلفاء فحسب، بل وكذلك في مناسبات البلاط الخاصة كحفلات الزواج والختان إلخ. ففي حفل ختان المعتز بن المتوكل اجتمعت في صحن الدار أربعمئة بليّة يرتدين ثيابا متنوعة، ويحملن بين أيديهن أنواعا مختلفة من الفواكه مثل التفاح والليمون والورود مثل الترحس والبنفسج، إلخ... وحضرت من المغنيات: عريب، بدعة جاريتها، سراب، شارية وجواريها، ندمان، منعم، نجلة، تركية، فريدة، عرفان.⁵ أما الحرائر فلم يكن لهنّ الغناء في مناسبات البلاط الخاصة، وإنما يقتصر دورهم على الحضور فقط، وتلقي الأموال والهدايا. ففي حفل زواج الرشيد بريدة أحضر المهدي نساء بني هاشم وأغدق عليهم الأموال والطيب والخلع.⁶ فحضورهنّ إذن يقتصر على الاستمتاع بالحفل والاستفادة بما يوزع فيه من العطايا والهبات لا غير، بالإضافة إلى تبادل أطراف الحديث.

وكانت هؤلاء الجواري يجلسن مع الخليفة خلف الستارة. وكنا قد أشرنا إلى اختلاف عادات الخلفاء العباسيين في الظهور والاحتجاب عن الندماء والمغنين. فكان الرشيد يجلس مع جواريه خلف ستارة تفصل بينه وبين المغنين، وكانت هؤلاء الجواري يضربن ويغنين.⁷ أما المأمون فقد واطب على السماع مستترا مدة أربع سنين،

¹ - Farès. (Bishr), « Le livre de la thériaque », *Op. Cit*, p. 48.

² - الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص 160.

³ - النواجي، نفس المصدر، ص 235.

⁴ - الشابشتي، الديارات، ص 160-161.

⁵ - الشابشتي، نفس المصدر، ص 151-154.

⁶ - الشابشتي، نفس المصدر، ص 157.

⁷ - المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 387.

متشبهها بالرشيد ثم ظهر للندماء والمغنين.¹ وكنا قد رأينا كيف كانت عريب تجلس مع المغنين في مجلس المأمون. وكان الخليفة المقتدر يجلس مع الجوّاري خلف ستارة تفصله عن المغنين، وكنّ هنّ يطالبن بإحضارهم ليأخذنّ منهم أصواتا عرفنها ويسمعونهم.² فالغناء إذن هو مجال الجوّاري فحسب.

إن دراستنا للفنون داخل الحرم العباسي تمكّنتنا من الخروج بالاستنتاجات التالية:

- أولا نلاحظ استفادة نساء الحرم من الازدهار الأدبي الذي عرف أوجه في العصر العباسي. لكن الجوّاري كنّ أكثر تأثرا بحكم اتصاهنّ بالشعراء والأدباء والمغنين، هذا الأمر الذي حرمت منه الحرائر. لكن ذلك لم يمنع من وجود سيّدات عباسيات كان لهنّ آثارهنّ الفنية الشعرية والغنائية. ومن ثمة شاع في البلاط العباسي أدب نسائي وبلغ شأنًا كبيرًا.

- ثانيا نلاحظ مساهمة الخلفاء العباسيين بصفة مباشرة أو غير مباشرة في إثراء هذا النشاط الفني النسائي. فقد حرصوا على تعليم بناتهم فيبرز منهنّ من عرفنّ بجبهنّ للأدب ورواية الشعر. كما اشترطوا في الجوّاري لا مجرد الجمال فحسب، وإنما كذلك مدى حذقهنّ لفن الشعر والأدب، ورأينا كيف استطاعت بعض الجوّاري رغم ما أصابهنّ من تشوهات خلقية فرض أنفسهنّ على بعض الخلفاء وأصبحنّ من أحظى النساء لديهم.

ومعلوم أن النخاسين لعبوا دورا كبيرا في تثقيف الجوّاري، لكن الخلفاء ساهموا بدورهم في إثراء نشاط هؤلاء الجوّاري الفني عن طريق شعرائهم ومغنيهم. كما سعت الجوّاري بدورهنّ إلى نشر طرفا من نشاطهنّ الأدبي في قصور الخلفاء، فكتبن عبارات العشق والحب والغزل على ملابسهنّ وأيديهنّ، مما أشاع نوعا من الظرف الأدبي في البلاط العباسي لم يكن موجودا من قبل، ولم تشاركهنّ فيه الحرائر لأنه لا يتناسب ووضعهنّ الاجتماعي.

- ثالثا نلاحظ أنه بالرغم من بروز بعض الحرائر اللاتي تتمتعنّ بمكانة عالية في شتى أنواع الفنون، فإن دورهنّ يبقى محدودا بالمقارنة مع دور الجوّاري. فلم يكن لهنّ مثلا حضور مجالس الخلفاء لمشاركة الشعراء في إلقاء القصائد أو مطارحتهم، بل في أقصى الحالات قد يأخذ لهنّ الخليفة أحد الشعراء ليستمعنّ إليه داخل الحرم ويُترك في موضع بحيث يسمع منه ولا يكون حاضرا معهنّ.

كما أن الغناء هو الآخر يعدّ ضربا من الفنون التي نبغت فيها الجوّاري. ورغم وجود بعض الحرائر اللاتي حذقنّ هذا الفن، فإن عددهنّ يبقى محدودا جدّا، كما أن دورهنّ لا يتعدّى في معظم الأحيان الغناء داخل الحرم. عكس الجوّاري اللاتي كان لهنّ حضور مجالس الخلفاء للغناء والرقص والطرب فيه، لكن حضورهنّ لم يكن دائما سافرا، وإنما كان في الكثير من الأحيان من خلف الستارة وذلك حسب عادة الخليفة في الظهور للمغنين أو الاحتجاب عنهم. وكنا قد بيّنا حرص الخلفاء العباسيين على ترتيب جواريتهم بطريقة تعتمد أساسا مبدأ التناظر، وهو ما أشارت إليه النصوص وأكّده لنا الايكونوغرافيا، وذلك قصد إضفاء نوع من الجمالية

¹ - التتوخي، الفرج بعد الشدة، ج 1، ص 402.

² - الأصفهاني، الأغاني، ج 5، ص 144.

والانسجام على المجلس. ومن ثمة فقد كان للجواري أكبر الأثر في المساهمة في النهضة الغنائية داخل الحرم والبلاط العباسي بصفة عامة. ورغم أن فنون الشعر والغناء والطرب حظيت باهتمام نساء الحرم، فإن ذلك لم يمنع من تعاطيهن لأعمال ووسائل ترفيه أخرى.

III أنشطة ووسائل ترفيه أخرى

لم يقتصر نشاط النساء داخل الحرم، على التزيق والتجمل وقول الشعر والغناء فحسب، بل كانت لهن أعمال أخرى متنوعة يقمن بها. ورغم أن معلوماتنا عنها تعدّ قليلة ونادرة، فقد حاولنا أن نكون فكرة عامة عنها من خلال بعض الإشارات المتفرقة في المصادر. ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنشطة كبرى: علمية، يدوية وترفيهية.

بالنسبة للأنشطة العلمية، حظيت العلوم الدينية مثل القرآن والحديث باهتمام نساء الحرم، فقد كانت الخيزران تروي الحديث، وقد روت عن زوجها المهدي، وعنهما هي روت زينب بنت سليمان ومحمد بن سليمان بن منصور.¹ فقد كانت إذن محدثة.

كما حرصت زبيدة على تعليم الجواري قراءة القرآن على قواعد صحيحة. فقد كانت لها مائة جارية يحفظن القرآن، ولكل واحدة منهنّ ورد عشر القرآن، وكان يسمع في قصرها كدوي النحل من قراءة القرآن.² فقد كان قصرها أشبه ما يكون بمسجد تحفظ فيه الجوّاري القرآن. وبالتالي كانت عاملاً من عوامل نشاط الحركة الدينية داخل الحرم.

كما أن المواظبة على أداء العبادات داخل الحرم كانت أمراً لازماً. فقد أمر الخليفة الهادي أمه الخيزران بالتزام الصلاة والتسبيح ونهاها عن التدخل في شؤون الملك.³ كما كانت عليه لا تغتني ولا تشرب النبيذ إلا إذا كانت حائضاً، أما إذا طهرت فإنها تلتزم المحراب وتقبل على الصلاة وتلاوة القرآن وقراءة الكتب، إلا إذا دعاها الرشيد إلى قول شعر أو غناء، فإنها لا تقدر على خلافه، وعندها تجدد عليه فتوى تبرر بما شعرها وغنائها، فكانت تقول " ما حرّم الله شيئاً إلا وقد جعل فيما حلّ منه عوضاً ".⁴ إذن فإقامة الصلاة وقراءة القرآن في الحرم أمر إجباري وتحرص كل النساء على أدائها.

وهكذا فقد كان يسود الحرم العباسي جوّ ديني، لكن يبدو أنه ليس بالعميق فقد كان عدد الجوّاري المغنيات حوالي ألفي جارية، أما الجوّاري اللآئي يحفظن القرآن فعدهنّ مائة.

كما حظيت أخبار الماضيين والسلف، باهتمام نساء الحرم، فكنّ يحفظنها عن ظهر قلب، وكنّ يستغلن فرصة اجتماعهنّ مع الخليفة ليتناقلن الأحاديث والأخبار حولها، وقد اشتهرت في هذا المجال مزنة زوجة مروان بن

1- ابن الجوزي، المنتظم، ج 8، ص 346؛ الخطيب البغدادي، مصدر سابق، ج 14، ص 430-431.

2- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ...، ص 314.

3- الطبري، نفس المصدر، ص 1646.

4- الصولي، نفس المصدر، ص 55؛ الأصفهاني، نفس المصدر، ج 10، ص 129.

محمد، التي أصبحت تقيم داخل الحرم منذ عهد المهدي، والتي لم تكن تترك المجال لأحد في المجلس، إذا ما ابتدأ الكلام عن أيام الناس وأخبارها.¹

وقد تجاوزتها في ذلك زينب بنت سليمان التي لم تكتفي فقط بتناقل أخبار أهلها بل قامت بتدوينها. فقد كانت لها وصيفة تدعى كتاب، وكاتب يدون عليها ما ترويه له من أخبار أهلها.² ولعل ذلك يعدّ مبادرة من زينب بنت سليمان لتدوين تاريخ الأسرة العباسية. ويبدو أن الاهتمام بأخبار الماضين داخل الحرم قد اختصت به الحرائر أكثر من الجوّاري.

أيضاً من العلوم الأخرى التي حظيت باهتمام نساء الحرم لا سيما الجوّاري علم الأنساب، فقد كنّ على معرفة بأنسابهنّ، وأنساب غيرهنّ من القبائل، وكنّ يحفظنها عن ظهر قلب. ويدلّ على ذلك ما ذكره الأبشيهي أن المأمون التقى بجارية، أثناء رحلة صيد، فتبيّن له من خلال الحوار الذي دار بينه وبينها معرفتها بنسبها من بني كلاب، وبأنساب غيرها من القبائل لاسيما من مضر وقريش، فقرّر الزواج بها على الفور، ولم يكن له فيها من أرب غير براعتها في علم الأنساب، وهي أم ولده العباس.³ ولعل هذا وإن دلّ على شيء فإنما يدلّ على مدى اهتمام الخلفاء العباسيين بعلم الأنساب.

كما أبدت بعض الجوّاري اهتماماً بالعلوم الطبيعية. فقد ذكر ابن عبد ربه أن إحدى جوّاري المأمون أهدت إليه تفاحة، وأرفقتها برسالة شرحت له فيها منافعها ومحاسنها بالنسبة لجسم الإنسان، فلما اطلع عليها المأمون اندهش من معرفتها وتفوقها في هذا العلم، فقرّر أن يقتسم معها جميع ما أهدى إليه في ذلك اليوم.⁴

إذن تكشف لنا هذه النماذج عمّا تمتعت به نساء الحرم من ذكاء ومعرفة، كما تكشف لنا كذلك عن حرصهنّ على الاهتمام بجميع العلوم التي كانت سائدة في ذلك العصر. لكن لا بدّ أن نشير إلى أن اهتمامهن لم يقتصر فقط على الأنشطة العلمية بل شمل كذلك العديد من الأعمال اليدوية.

ومن الأعمال التي مارسها المرأة داخل الحرم، نذكر الغزل، ولا بدّ أن نشير هنا إلى أن نساء الحرم كنّ يمارسن هذا العمل كملهاة وليس كمهنة، كما هو الشأن بالنسبة لنساء العامة.⁵ ويدلّ على ذلك ما قاله الخليفة الهادي لأمه الخيزران "أما لك مغزل يشغلك".⁶ كذلك التطريز فقد عملت أم المستعين بساطاً، طرزت عليه صورة كل حيوان وطائر من الذهب وأعينها من الياقوت وأهدته إليه.⁷ مما يدلّ على المهارة والذوق الرفيع.

كما حظيت أعمال الخط، بعناية كبيرة داخل الحرم، فقد اتخذها الجوّاري كضرب من ضروب الزينة للكتابة مثلما أشرنا إلى ذلك على الثياب والعصائب والمناديل والستائر، إلخ... وهي بدون شك أعمال تطلب وجود

¹ - المسعودي، مصدر سابق، ج 3، ص 315.

² - التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 81-82.

³ - الأبشيهي، المستطرف، ج 1، ص 73-74.

⁴ - ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج 6، ص 287.

⁵ - الأَطْرَقِي، نفس المرجع، ص 66.

⁶ - الطبري، نفس المصدر، ص 1646.

⁷ - الرقيق القيرواني، المختار من قطب السرور، ص 282.

كاتبات وخطاطات،¹ فقد ورد ذكر بعض الجواري ممن استحسن خطهنّ، فقد أعجب المأمون بخط إحدى جواريه عندما رآها تخط خطاً حسناً.² كما كانت فضل الشاعرة أحسن خلق الله خطأ.³ أيضاً من الأعمال الأخرى التي اشتغلت بها الجواري الحجامة، وكنا قد رأينا كيف أن الخليفة المنصور، استغل هؤلاء الحجامات في التجسس ونقل الأخبار، وجعل لهنّ راتب شهري وكسوة في الصيف وأخرى في الشتاء.⁴ ووجدت من الجواري غير الحجامات اللاتي اشتغلنّ في التجميل وهنّ الماشطات، ويطلق على من تقوم بهذه الصنعة ماشطة. فقد كانت نساء الحرم يستعنّ بالماشطة للاستحمام وللقيام بتصفيف شعورهنّ، كما كانت الماشطة تقوم بجميع أنواع الزينة كالتمصص أي إزالة الشعر من الوجه.⁵

ومن الجواري من عملن ساقيات شراب، وكُنّ يتفننّ في إبراز زينتهنّ ومفاتنتهنّ من حيث تصفيف شعورهنّ وملابسهنّ وحليهنّ، وهو ما نلاحظه في رسم راقصتي سامراء فقد أمسكت كل واحدة منهما بقدح تصب فيه الشراب من قينة تحملها الراقصة الأخرى خلف رأسها، وقد ارتدت كل واحدة منهما رداء طويلاً ينسدل إلى القدم، وشدتا وسطهما بمنطقة، ووضعتا كل واحدة منهما على ذراعيها إزاراً، وفي قدميهما خف، وعلى رأس كل واحدة منهما قلنسوة تحتها الشعر منسدل في أربع ظفائر طويلة، ويتدلّى من أذني كل منهما قرط، ويزين شعرها حبات صغيرة من الأحجار الكريمة.

وبالإضافة إلى مختلف هذه الأعمال والأنشطة اليدوية، فقد كانت لنساء الحرم أيضاً ألعاب يمارسها في أوقات فراغهنّ كضرب من ضروب الترفيه والتسلية. فقد كانت ربيعة تمارس نوعاً من الرياضة مع أخيها محمد بن أبي العباس، فكان إذا لوى العمود ألقاه إليها، فتقومه وترده إلى حالته الأولى.⁶ مما يدل على متانة جسمها وقوة عضلاتها، ومن ثمة اكتسابها لروح رياضية. أيضاً من بين الألعاب الأخرى التي كانت تمارسها المرأة في الحرم، لعبتا "النرد" و"الشطرنج"، وقد اشتهرت بهما عريب، فكانت لا يلاعبها فيهما أحد.⁷

كما كانت للحريم العباسي نزهاقنّ، لكن يبدو أنهنّ لم تكن بكثرة، كما كانت تتم وفق استعدادات وضوابط. فقد كانت زينب بنت سليمان تتحول على حمار لها أشهب، وهي مختمرة بخمار أسود ومرتدية طيلساناً أبيض.⁸ كما وردت إشارة لدى الشابشتي تفيد بأن زبيدة كانت تتحول بين ضفتي دجلة في حراقتها.⁹ كما اصطحب الخليفة المهدي مرةً معه ابنته البانوقة في رحلة لعلها رحلة صيد، فكانت تسير بين يدي صاحب الشرطة، وقد ارتدت قباء وتمنطقت بمنطقة وعلى رأسها شاشية، ومتقلّدة سيفاً، على هيئة الغلمان.¹⁰ مما يعطينا

1- الأظرقحي، نفس المرجع، ص 64.

2- ابن عبيد ربه، نفس المصدر، ج 4، ص 198.

3- السيوطي، المستطرف، ص 50.

4- البيهقي، المحاسن والمساوي، ص 148.

5- التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 78-79؛ ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، ص 95.

6- البلاذري، أنساب الأشراف، ج 4، ص 238؛ الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص 8.

7- الأصفهاني، الأغاني، ج 21، ص 43.

8- الخطيب البغدادي، مصدر سابق، ج 14، ص 434.

9- الشابشتي، نفس المصدر، ص 45.

10- الطبري، تاريخ، ص 1638.

فكرة عن منظر صيد نسائي، وهو منظر فريد من نوعه لم نعثر له على نظير، ويدل علاوة على تحرر الخليفة المهدي، على جرأة ربطة وشجاعتها وإقدامها على الخروج للصيد، للتسلية وقضاء وقت ممتع في الصيد. كذلك من نساء الحرم من كنّ يتعاطين الفروسية، ونذكر هنا عريب التي كانت تجيد ركوب الخيل وكانت تستخدمه للتجول. لكن عدا هذه التزهات التي كانت تتم من حين إلى آخر، فقد كان ممنوعاً على نساء الحرم الخروج من القصر، إلاّ القهرمانات اللاتي يتمثل دورهنّ، في توفير حاجيات سيّدات الحرم من السوق، فتكتبنّ احتياجاتهنّ من الثياب والعطور في تذكرة وتدفعنها إليها، فتقوم بشراء ما يلزمهنّ من السوق وعادة ما يصاحب القهرمانة خادم.¹ كما كانت لنساء الحرم جلسات يتبادلن فيها أطراف الحديث، ويليهنّ ويمرحنّ ويأكلن ويستمتعن بأوقاقهنّ، ولاسيما في بعض المناسبات الخاصة كمناسبات الزواج والولائم، أين كان يفرد للهاشميات مجلس خاص فلا يختلطن بالقيان، أو قد يقع جمعهنّ مع الأمويات.²

وعموماً نلاحظ أنه بالرغم من تعدد الأنشطة العلمية، واليدوية والترفيهية التي كانت تمارسها المرأة داخل الحرم أو خارجه، فإنّ الفنون الأدبية مثل الشعر والغناء، تبقى المسيطرة على نشاط المرأة في البلاط العباسي. ولم تقتصر الحياة داخل الحرم على مجموعة من الأنشطة الفنية والعلمية والترفيهية، بل كانت تسير كذلك وفق مراسم وآداب.

VI المراسم والتشريفات داخل الحرم

كانت النساء في البلاط العباسي يقمنّ في الحرم، ولهذا القسم من القصر العباسي تنظيم دقيق يخضع له كل نساء الحرم بلا استثناء سواء كنّ من الحرائر أو أمهات الأولاد أو الجوّاري أو الوصيفات القائمات على الخدمة. وجدير بالذكر أن المعلومات عن هذا الجانب تعدّ قليلة ونادرة.

وعموماً تأتي سيّدة على قمة نساء الحرم، قد تكون أم الخليفة أو زوجته أو أم ولده. ففي عهد الخليفة المهدي كانت الخيزران المسؤولة عن قسم الحرم، وكانت تتمتع بأرفع مكانة بين كلّ الحرّيم، فقد كانت لها دار تعرف بدار "أشناس"، وعندها أمهات أولاد الخلفاء وغيرهنّ من بنات بني هاشم.³ وفيها كانت تستقبل المواكب التي كانت تغدو وتروح إلى بابها.⁴ أما في عهد الخليفة المقتدر فقد كانت أمه السيّدة شغب هي الرئيسة لقسم الحرم، ولها جناح خاص وعدد من الجوّاري من مختلف الدرجات لخدمتها وتوفير حاجياتها، ترأسهنّ جارية من رتبة خاصة وهي "القهرمانة".

¹ - التتوخي، نشوار المحاضرة، ج 4، ص 178-179-180-181.
² - القاضي الرشيد، النخائر والتحف، ص 95-96؛ الشابشتي، نفس المصدر، ص 157.
³ - المسعودي، مصدر سابق، ج 3، ص 313.
⁴ - الطبري، تاريخ، ص 1646.

وكانت الرئيسة لقسم الحرم تخاطب من قبل الجوّاري وخدم القصر بـ " ستي " ¹ وهذه الرئاسة تعطيها حق التدخل في النظام الخاص بالحريم، فلما أقبلت مزنة زوجة مروان بن محمد على الخيزران في دارها، التي تعرف بأشناس رفضت زينب بنت سليمان استقبالها وأمرت بإخراجها، كرد فعل على ما فعلته هي بما عندما توجهت إليها لتشفع لها عند زوجها مروان كي يسلمها جثة إبراهيم الإمام، إلّا أن الخيزران أمرت بردها والإحسان إليها وألحقها بنساء الحرم دون أن تستشير زوجها المهدي في ذلك. ² ولم ترض السيّدة شغب ترويح جارياتها بأحد التجار إلّا بعد أن تراه، فاحتالت الجارية في إدخاله إلى الحرم وأوصلته إلى السيّدة، فلما تأملته أعجبت به وأذنت لها في الزواج به. ³

ويتكون قسم الحرم مثلما أشرنا إلى ذلك من عدة دور جمع " دار "، وكل دار تحتوي على مجموعة من الغرف تسمّى كل واحدة منها " مقصورة "، وهي تختلف من حيث حجمها وفُرشها والآلة التي فيها حسب أهمية المرأة أو الجارية التي تقيم فيها، فلما استقبلت الخيزران مزنة زوجة مروان بن محمد في دارها طلبت من الجوّاري أن يظنّ بما في المقاصير حتى تختار منها ما يناسبها، فاختارت أوسعها وأحسنها. ⁴ أي ما تناسب وضعها الاجتماعي.

ولسيّدة الحرم في جناحها " مجلس " تستقبل فيه الزوار، والخليفة الذي يأتي من حين إلى آخر لرؤيتها وللإجتماع بالحريم، فقد كان المهدي يجتمع بخاص حرمه كل عشية. ⁵ ويذكر أن مجلس الخيزران كان في عتبة الرواق وكانت تجلس فيه هي وزينب بنت سليمان، ⁶ أما مجلس السيّدة شغب فكان في حجرة من حجرات دور الحريم. ⁷

ولهذا المجلس مراسم خاصة عند الدخول إليه. وهناك مسؤولية عن المراسم والتشريفات داخل الحرم، وتختار من بين قدامى العباسيات، وقد اشتهرت في البلاط العباسي زينب بنت سليمان التي أدركت أوائل العباسيين، وكان المهدي قد أمر الخيزران بملازمتها والاقتراب من آدابها. ⁸

وتتمثل مراسم المجلس في أن يخصص صدر المجلس للجلوس الخليفة، والذي يتألف إمّا من مجموعة من الفرش تمثل في برذغة ووسادتان ومسانيد، فإذا جاء الخليفة جلس في ذلك الموضع، وإذا انصرف غطّي ذلك الفرش بسبّينة. ⁹ أو قد يوضع للخليفة في صدر المجلس سرير، عادة ما يتسع لشخصين، حتى يتسنى له أن يجلس إلى جانبه من يختصها من نسائه. فقد كان للوائق في حجرة من دار الحرم سرير يجلس عليه هو وفريدة وفي حجرها

1- التتوخي، نشوار المحاضرة، ج 4، ص 186؛ التتوخي، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 79.

2- المسعودي، مصدر سابق، ج 3، ص 314.

3- التتوخي، نشوار المحاضرة، ج 4، ص 185-186-187.

4- التتوخي، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 80؛ ابن حجة الحموي، نفس المصدر، ص 95.

5- المسعودي، مصدر سابق، ج 3، ص 314.

6- التتوخي، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 76.

7- التتوخي، نشوار المحاضرة، ج 4، ص 186.

8- المسعودي، نفس المصدر، ج 3، ص 313.

9- التتوخي، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 76.

عود وهي تغنيه، ثم لما توفي صارت تجلس في نفس الحجرة وعلى نفس السرير مع المتوكل.¹ كما كان الخليفة المقتدر يجلس معه أمه في دسته.²

وقد ورث العباسيون هذه العادة عن الفرس، فقد جُسم فوق طبق ساساني يرجع إلى القرن السادس أو السابع ميلادي، الملك والملكة وقد جلسا على أريكة العرش، ماسكا هو بيده اليسرى كأسا، وبيده اليمنى تاجا قد قدّمه إليها كدليل على مشاركته في الحفل، أما هي فقد أمسكت بيدها اليسرى مندبلا، في حين تلقت باليسرى التاج من عند زوجها، وقد وضعت على رأسها تاجا ذي قرني كبش، أما التيجان الأخرى الملقاة على الأرض فلعلها إشارة إلى وجود ضيوف آخرين.³

أو قد يوضع للخليفة في صدر المجلس كرسي، يجلس عليه عند زيارته للحريم، أو تجلس عليه السيدة لاسيما عند استقبالها لأحد الضيوف أو الأشخاص.⁴

كما يتطلب الدخول إلى مجلس السيدة التقيد بتقاليد وآداب، تتمثل أولا في الإذن، فلا يجوز الدخول إلى مجلس السيدة دون إذن، فلم تستقبل الخيزران مزنة في مجلسها إلا بعد أن استأذنت، وكانت القائمة على الإذن إحدى الجوارى.⁵ فدورها إذن يشبه دور الحاجب في مجلس الخليفة. ومن ثمة يمكن أن نتبين أن طلب الإذن قد اكتسب أهمية كبيرة كعنصر من عناصر التشريفات في الحرم والبلاط العباسي بصفة عامة.

ثم بعد الإذن التسليم، وذلك بأن تقول "السلام عليكم".⁶ أما إذا كان الزائر من الرجال فإنه يقبل الأرض بين يدي السيدة.⁷ ولا بدّ من التذكير بأنه يحظر تماما على الرجال الدخول إلى الحرم، إلا بإذن من الخليفة أو في حالات نادرة على سبيل الحيلة، كما فعلت جارية السيدة أم المقتدر عندما أرادت الزواج بأحد التجار.

وكانت الهاشميات وأمهات الأولاد والزائرات يدخلن ويجلسن حسب تراتبية معينة بمجلس الخيزران، فكانت هي تجلس على بساط أرمني، وهنّ على غمارق أرمنية.⁸ تقصيرا لهنّ عن مرتبتها. وكانت زينب بنت سليمان أعلاهنّ مرتبة، فكانت تجلس بإزائها، وفي الصدر يجلس المهدي.⁹ ثم رفع المهدي منزلة امرأة مروان فوق منزلة زينب بنت سليمان، وذلك بأن استدناها إلى جانبه،¹⁰ أي من الطرف الآخر. وكانت الخيزران قد رفعت بدورها من منزلة مزنة، فأجلستها في الموضع الذي يجلس فيه المهدي أثناء غيابه، أي في صدر المجلس.¹¹

¹ - السيوطي، المستطرف، ص 50.

² - ابن الجوزي، المنتظم، ج 13، ص 71.

³ - عكاشة (ثروت)، الفن الفارسي القديم، ج 8، ص 323-338.

⁴ - التتوخي، تشوار المحاضرة، ج 4، ص 186.

⁵ - التتوخي، الفرج بعد الشدة، ج 4، ص 76.

⁶ - التتوخي، نفس المصدر، ج 4، ص 77.

⁷ - التتوخي، تشوار المحاضرة، ج 4، ص 186.

⁸ - المسعودي، نفس المصدر، ج 3، ص 313.

⁹ - ابن حجة الحموي، نفس المصدر، ص 95.

¹⁰ - المسعودي، نفس المصدر، ج 3، ص 315.

¹¹ - ابن حجة الحموي، نفس المصدر، ص 96.

إذن تنتظم سيّدات الحرم داخل المجلس حسب تراتبية معينة لا تخضع للنسب، وإنما لمكانة المرأة بالنسبة للخليفة، والتي قد تكون زوجته أو أمه أو أم ولده، وأيضا للسنّ، فقد ذكرنا أن زينب بنت سليمان كانت أكبرهنّ سنّا. لكن هذا التنظيم قد يتغير من خليفة إلى آخر لكن مع المحافظة دائما على تراتبية معينة، يحتل فيها الخليفة المركز أو الصدر.

نلاحظ إذن أن المراسم لم تقتصر فقط على مجالس الخلفاء، بل شملت كذلك نظام الاستقبال في الحرم، وهي تعتبر في درجة متساوية من حيث التشريفات، لاسيما على مستوى الإذن والجلوس حسب تراتبية معينة، لكنّها أقلّ تعقيد، حيث نلاحظ غياب نظام الآداب الصارم والذي يتمثل في انعدام الصلّة بين الطبقات، والإعلان عن انتهاء المقابلة، إلخ. لكن المهم هو أنه لا يمكن لأيّ امرأة داخل الحرم، حتى زوجاته وبناته وأخواته، وأمّهات أولاده أن يقابلنه ويجلسن معه دون ترتيب أو تنظيم. فعلاقة الخليفة بالحريم تتم كذلك وفق تقاليد وآداب. وهكذا فقد كان للمجالس التي يعقدها الخليفة مع حاشيته والمقربين إليه مراسم وآداب، وكذلك للمجالس التي يجتمع فيها مع حريمه آداب خاصة. ولعل الغاية من هذه المراسم والتشريفات هو ردّ الخليفة إلى مقولة "سلطان الله في أرضه" التي سعى الخلفاء العباسيون إلى إبرازها على مستوى العمارة، وعلى مستوى الخطاب الإيديولوجي، وأيضا على مستوى المراسم والآداب، داخل المجلس، وحتى داخل قسم الحرم ومع الحريم.

خاتمة

حاولنا في هذا البحث دراسة البلاط العباسي خلال مائتين واثنين سنة. فقمنا من جهة بدراسة البلاط بوصفه فضاء مادي معماري، وبوصفه مجتمع بشري من جهة ثانية، ثم بحثنا في الحياة اليومية داخل البلاط العباسي. وقد اعتمدنا المقارنة بين النصوص والآثار في حدود الإمكان، ومهما كانت نوعية الآثار سواء آثارا معمارية أو رسوم جدارية، أو منمنمات... فقد كان الخلفاء العباسيون مولعون بالعمارة كما اهتموا بفن التصوير، وقد عكست تلك الصور في غالب الأحيان الأحداث التي تجري في البلاط العباسي بصورة طبيعية تسودها في كثير من الأحيان التزعة الواقعية.

كان البلاط في العصر العباسي يلقب بدار الخلافة أو بدار الملك، فلم تستعمل كلمة بلاط للدلالة على مقرات الخلفاء العباسيين، عدا في مصدر سرياني متأخر وهو " تاريخ الزمان " لابن العبري، ويعود ذلك لارتباط كلمة بلاط بمقرات الأباطرة الرومان والبيزنطيين في حين تتصل كلمة دار بتقاليد عربية وإسلامية. وقد اتضح لنا أن المبدأ الأساسي الذي ميّز البلاط العباسي هو مبدأ الثنائية أو الإزدواجية، والذي لم يقتصر فقط على العمارة، بل شمل كذلك في نفس الوقت المجتمع، وكذلك الحياة داخل القصر.

فعلى المستوى المعماري تميزت دار الخلافة العباسية، بخاصية أساسية وهي الفصل بين ماهو قسم الشؤون الخاصة وقسم الشؤون العامة، وقد ظهر هذا الفصل بصفة تدريجية وعلى مراحل. فعندما أسس الخليفة المنصور مدينة بغداد اتخذها مقرا له ومركزا لتسيير شؤون الخلافة والحكم لكن لم يلبث أن تركها وانتقل إلى قصر الخلد، الذي اتخذها مقرا خاصا في حين حافظت مدينة بغداد على دروها كمركز إداري وحكومي.

ونفس هذا الدور لعبته مدينة الرافقة في عهد الخليفة الرشيد، والتي تذكر المصادر أن المنصور بناها على شاكلة بغداد، لكنه لم يتخذها مقرا له. ولم تصبح الرافقة مقرا للبلاط إلا في عهد الخليفة الخليفة الرشيد وذلك قبل أن يبني قصور الرقة إلى الشمال منها، والتي بدأت معها العمارة العباسية تكتسب خصائصها الأساسية والتي من أهم ميزاتها الفصل بين ماهو قسم الشؤون العامة وقسم الشؤون الخاصة، لكن مع المحافظة دائما على نفس القصر، والتي غدت السمة الأساسية للقصور العباسية في الرقة.

وقد تأكدت هذه الخاصية أكثر مع تأسيس الخليفة المعتصم لمدينة سامراء، حيث خصّص لكل قسم قصر خاص به، وأصبح يطلق على القصر المخصص للشؤون العامة اسم " دار العامة " وعلى بابها اسم " باب العامة "، وبالتالي ظهور هذه العبارة لأول مرة في العمارة الإسلامية. وتشكّل كل من دار العامة والجوسق الخاقاني والذي هو قصر الخليفة الخاص: دار الخلافة. ومن هنا بدأ يظهر مركب دار الخلافة والذي سيتطور إثر عودة الخلافة إلى بغداد من جديد في الجانب الشرقي، حيث لم يعد يشتمل فقط على قصرين وإنما على عدّة قصور، مع المحافظة دائما على باب العامة وظهور باب الخاصة. ففي دار العامة إذن يستقبل الخليفة العامة ويأشرف شؤون الخلافة والحكم، وفي دار الخاصة يتلذذ بحكمه مع ندمائه ونسائه.

فقد شهدت دار الخلافة كذلك بروز الحرم كفضاء معماري مخصص للنساء لأول مرة في العمارة الإسلامية في الرقة، والذي تواصل في سامراء، ثم في بغداد، وأصبح الحرم يمثل أحد الأقسام الأساسية التي تتكون منها دار الخلافة العباسية والتي هي: دار العامة، دار الخاصة والحرم، ويتبع الحرم دائما قصر الخليفة الخاص. وسيصبح الحرم انطلاقا من ذلك التاريخ سمة مميزة للبلاطات الملكية الإسلامية لاسيما مع العثمانيين والذين أطلقوا على هذا الجناح من القصر اسم "حرمك".

وعلى هذا الأساس فقد كان الناس في دار الخلافة العباسية ينقسمون إلى عالمين اثنين عالم رجالي وعالم أنثوي. بالنسبة للعالم الرجالي فيمكن التمييز داخله بين أولاد الخليفة وأقاربه والذين تطلق عليهم المصادر بنو هاشم. وبين الموظفين على اختلاف مراتبهم، والذين ينقسمون بدورهم إلى فئتين اثنتين فئة تختص بخدمة الخليفة مباشرة وتهتم بتسيير شؤون القصر، وفئة أخرى تهتم بتصريف شؤون الخلافة والحكم.

وقد بينا أن الوظائف في البلاط العباسي لم تخلق دفعة واحدة وإنما البعض منها ورثه العباسيون عن الأمويين كمنصب ولي العهد، والشرطة والحرس والحجابه، والبعض الآخر أخذوه عن الفرس كالوزارة، والبعض الآخر استحدث بحكم التطور خلال العصر العباسي الأول والثاني، مثال إحداث منصب حاجب الحجاب، كما أن الوظائف في البلاط العباسي لم تبق على حالها، فقد تغير بعضها، وأدخلت على البعض الآخر بعض التعديلات والتحسينات الجديدة، مثال استخدام الخدم البرانية والدارية وحرس النوبة، وذلك بحكم دخول عناصر جديدة إلى البلاط العباسي من أتراك وزنج وصقالبة وسود، حملت معها البعض من نظمها وعاداتها وتقاليدها، بالإضافة إلى ميل العباسيين إلى الترف والبذخ والذي تجلّى على مستوى استخدامهم للسقائين، وللخدم الشراية، كما أصبح للخليفة العباسي طيب يعنى بصحته ومزين يشرف على تربيته... إلخ.

أما الحرم فينقسم بدورهم إلى فئتين اثنتين: تشتمل الفئة الأولى على الحرائر من بنات الخلفاء وأخواتهم وزوجاتهم، وقد اكتسبن مكانتهن في البلاط من نسبهن الشريف، أما الفئة الثانية فتتكون من السرائر أو الجواري وتأتي على رأسهن أم الولد، وقد اكتسبت مكانتها في البلاط بحكم إنجابها للولد، أما الجارية التي تنجب بنتا أو التي لا تنجب فإنها تحتل مرتبة أدنى من أم الولد. هذا دون أن ننسى الجواري القائمات على الخدمة وتأتي على رأسهن القهرمانة، فهي المسؤولة عن تنظيم علاقات قسم الحرم بالخارج.

لقد أثرت جميع هذه الفئات التي تتكون منها دار الخلافة على تركيبة المجتمع في العصر العباسي والذي أصبح يتكون في مجموعه من فئتين اثنتين الخاصة والعامة وذلك على شاكلة المجتمع الساساني.

وقد شملت هذه الازدواجية أيضا الحياة داخل القصر لاسيما مجالس الخلفاء، وقد تجلّت أساسا على مستوى شارات الخلافة أو الملك والتي تختلف تبعا لنوعية المجلس خاص أو عام.

فقد كان الخليفة في المجالس العامة يجلس في قاعة مخصصة للمجالس العامة، والتي كانت تتمثل في الايوان وذلك قبل بروز دار العامة، وعلى سرير مرتفع يتسع لشخص واحد، والذي عادة ما يوضع في السدلي، ويضع على كتفيه بردة الرسول محمد، ويمسك قضيه بيديه ويتقلد سيفه، ويضع على رأسه عمامة، أو قلنسوة

محدّدة بشرط مزخرف من الأحجار الكريمة وتحيط بها عمامة والتي أصبحت تمثل غطاء الرأس الرسمي للخلفاء العباسيين. أما في المجالس الخاصة فيجلس الخليفة في قاعة مخصصة للمجالس الخاصة، والتي كانت تتمثل في قاعة العرش في بغداد ثم أصبحت تابعة لقسم الشؤون الخاصة أو لقصر الخليفة الخاص، أين يوضع للخليفة سرير متسع يجلس عليه هو ومن يختصها من من نسائه أو رجاله المقربين إليه، أو قد يجلس الخليفة على كرسي قصير، ويضع على رأسه التاج المورق أو عمامة خز أو وشي. وتحول شارات الخلافة من البردة والقصيب إلى الكأس والمنديل.

ولم تقتصر هذه الازدواجية، على مجالس الخلفاء بل شملت كذلك الحياة داخل الحرم، وقد تجلّت أساسا على مستوى اللباس ووسائل الزينة، والتي كشفت لنا عن نوعا من التمايز الطبقي بين الحرائر والجواري، فقد عدلت الحرائر عن الكثير من وسائل الزينة التي استخدمتها الجواري كالكتابة على اللباس وعلى الحدود، كما كان لكل فئة أزياءها وحليها بما يناسب وضعها الاجتماعي.

فالسمة الأساسية التي ميّزت البلاط العباسي هي إذن الازدواجية أو الثنائية، والتي تشير عادة إما إلى المتناقضات أو إلى التناظر، لكنها استخدمت في البلاط العباسي للدلالة على المتناقضات بين المرأة والرجل وبين الخاصة والعامة.

ولم يكنف العباسيون بالتأكيد على مبدأ الثنائية أو الازدواجية، بل أكّدوا على مبدأ السيادة أو الكونية. فقد كان المنصور يقول " أنا سلطان الله في أرضه ". أي أن سلطة الخليفة العباسي أصبحت مقدسة لأنها مستمدة من الله. كما كان يرى أن الملك لا يقوم إلا بأربع كما لا يقوم السرير إلا بقوائمه الأربع.

ولم يقتصر هذا التقديس على الخطب الشفوية، بل حاول العباسيون التأكيد عليه من خلال العمائر والقصور والمدن التي قاموا بتشييدها، وهو ما يدلّ عليه الشكل الدائري الذي اختاره العباسيون للعديد من المدن التي قاموا بتشييدها مثل بغداد وهرقلة أو الشكل المثلث بالنسبة للقادسية، إذ يرمز شكل هذه المدن وموقع الخليفة منها والذي يوجد دائما في المركز على أنه القطب، وتدلّ الأبواب الأربعة التي كانت على هذه المدن أيضا على محوريته وتميزه عن الآخرين الذين يوجدون على نفس المسافة منه . ونفس الشيء تمحورت حلقات سباق الخيل التي أنشأها الخلفاء العباسيون لا سيما الحلبة ذات الأربع حلقات حول كونه سلطان يستمد سلطته من الله.

كما جاءت معظم الصور التي جسّم فوقها خلفاء عباسيون والتي عثرنا عليها منقوشة على بعض الميداليات، تعكس قوته فهو ملك العالم وحاكمه. ولئن وظّف الخلفاء الأمويون المقدرة الإلهية بتلقيب أنفسهم " خلفاء الله "، فإنهم لم يصلوا إلى درجة تقديس الحكم. ولقد أطلقنا على عواصم العباسيين لا سيما الرقة وسامراء، وبغداد (الجانب الشرقي)، عواصم ملكية ولعلنا لم نبالغ في ذلك لاسيما وأن الخلفاء العباسيين ذاهم قد أطلقوا على أنفسهم لقب ملوك.

لقد ثبت الخلفاء العباسيون مبدأ البلاط بكل ما يحمله من مظاهر الأبهة والفخامة والوراثة والتراتبية. فقد استحدثوا عواصم ملكية، قاموا فيها بتشييد قصورا فخمة، كما أسسوا الحكم السلالي أو الأسروي، فتوارثوا بذلك الحكم من عهد الخليفة أبي العباس السفاح إلى عهد الخليفة المستكفي. وأحاطوا أنفسهم بحاشية كبيرة العدد وعلى درجة كبيرة من التراتبية، والتي لا تخضع لعاملي النسب والشرف وإنما للعامل الوظيفي. كما استخدموا مراسم وتشريفات على درجة كبيرة من التعقيد لاسيما على مستوى الاذن والآداب داخل المجلس أو خارجه.

لكن ولئن نجح الخلفاء العباسيون واحتلوا مرتبة عالية في ممارستهم للبلاط والسلوك البلاطي عبر أكثر من قرنين من الزمن، فإنهم بقوا في الكثير من الأحيان مقلدين، لمن سبقهم من الخلفاء الأمويين، والملوك الساسانيين وكذلك الأباطرة البيزنطيين، وللملوك الأيوغور في غرب تركستان.

فقد بينا أن دار الخلافة العباسية، انطلقت ساسانية لتنتهي بيزنطية، مع المحافظة طبعاً على أهم مميزات العمارة العباسية، والتي من خصائصها الفصل بين ماهو شؤون خاصة وما هو شؤون عامة والفصل بين ماهو امرأة وما هو رجل. كما لاحظنا أن أغلب شارات الملك التي اتخذها العباسيون كانت إما ساسانية أو بيزنطية مثل السرير والقلنسوة والتاج والخف الأحمر والأقراط، وأغلبها كان قد سبقهم إليها الخلفاء الأمويون، عدى رموز الملك التركية مثل الكأس والمنديل والتربع على كرسي قصير القامة والتي ظهرت مع العباسيين.

لكن ما تميز به العباسيون هو قدرتهم على استخدام رموز من سبقهم من الملوك والخلفاء وتطويرها كما بالغوا في اتخاذ مظاهر الأبهة والفخامة، حتى أصبح الخليفة مقدساً لا يرى ولا يُكلم، كما تميزوا خاصة باستخدامهم لرموز ملك اسلامية تتمثل خاصة في بردة الرسول وقضييه وسيفه. فما سعى إليه الخلفاء العباسيون هو الظهور بمظهر الورثاء للرسول محمد وذلك ليس فقط بواسطة الخطب الشفوية والمراسلات بل وكذا كمثل ذلك عن طريق أشياء مادية، لأنه في النهاية أساس الاستمرارية والمواصلة والخلافة والملك، وهو ما تأكد في فترة ضعف الخلافة، حيث أبقى على الخليفة كواجهة قدسية لاغير. فما حققه العباسيون هو نجاحهم في تطوير ما اقتبسوه لخدمة صالحهم.

لقد كانت العلاقة بين النصوص والآثار في دراسة البلاط العباسي وثيقة. فقد كشف لنا نص البلاذري والطبري عن حقيقة هامة وهي مشاكلة مدينة الرافقة لمدينة بغداد، وهو ما أثبتته الآثار المتبقية من مدينة الرافقة. كما أثبتت المقارنة بين النصوص والآثار، بخصوص مدينة سامراء أن دار العامة والجوسق الخاقاني لا يمثلان قصراً واحداً مثلما ذهب ذهب إلى ذلك كريزوال وهرتزفلد، وإنما يمثلان قصرين مختلفين من حيث الشكل والمضمون مثلما ذهب إلى ذلك نورثادج وكلاهما يكونان مركب دار الخلافة.

لقد كانت معظم قصور الخلفاء العباسيين مزينة بالرسوم الجدارية، والتي كانت في معظمها تعكس حياة البلاط. كما كانت العلاقة وثيقة بين تلك الصور والنصوص لا سيما كتب آداب الملوك، التي كتب أصحابها

عن دار الخلافة، بينما قام المصورون برسم صور تعكس الحياة اليومية للبلاط، فكانت رسومات المصورين في الكثير من الأحيان انعكاسا لما ورد في تلك الكتب من اشارات.

مثال فقد أشارت تلك الكتب إلى شرب الخلفاء العباسيين للخمر، وجاءت الكثير من الصور من ذلك العصر تعكس موضوعات الشرب لا سيما تلك التي جسّدت فوق بعض الميداليات مثل ميدالية المقتدر وميداية الخليفة الطائع.

كشفت لنا كذلك المقارنة بين النصوص والوثائق الايكونوغرافية أن التاج العباسي ليس تاج بالمعنى الساساني والبيزنطي وإنما هو قلنسوة يقع تحويلها إلى تاج وتلف حولها العمامة، والتي وقع استبدالها بالجنّاحين اللذين ميّزا التاج الساساني.

شهد فن التصوير العباسي كثرة عدد صور النساء سواء في المواضيع الخاصة بمجالس الخلفاء، أو في المواضيع الخاصة بالنساء أو في صور مفردة لهنّ، وقد كشفت لنا تلك الصور عن جانب هام من حياة نساء الخلفاء العباسيين اليومية لاسيما على مستوى الزينة واللباس، لكن ظهرت الجوّاري في العديد من الصور، بينما لم تظهر الحرائر. والجوّاري كما تصوّرهم الصور يقضين معظم وقتهنّ في الرقص والغناء والاستحمام وهو ما أشارت إليه كذلك المصادر.

عكست صور البلاط في العصر العباسي مؤثرات مختلفة بعضها نابع من الحضارة الساسانية وبعضها من أواسط آسيا، وأغلبها مجلوبة عن طريق المصورين لاسيما الترك الأيوغور، لكن مع ذلك فقد ظلّت تفاصيل الصورة قوية الصلة بالبيئة المحلية العباسية.

لقد حاولنا في هذا البحث دراسة البلاط العباسي على مستوى المركز فقط، أي على مستوى عاصمة الخلافة لكن دراستنا للبلاط في العصر العباسي لا تكتمل إلّا من خلال دراسة البلاطات الملكية في العصر العباسي على مستوى الولايات والأقاليم، لاسيما البلاط الأغلي والطولوني، والذين استطاعوا بدورهم أن يؤسسوا نظاما ملكيا سلاليا ووراثيا، أضف إلى ذلك أن العديد من الفنانين قد انتقلوا من العمل في البلاط الخلفي إلى العمل في بلاطات الحكام في الولايات والأقاليم، مثلما تدلّ على ذلك الرسوم والصور التي تعود إلى العصر الطولوني والتي عكست نفس مواضيع البلاط في عاصمة الخلافة العباسية.

المصادر والمراجع

§ المصادر

- 1 - ابن أبي أصيبعة (أبو العباس موفق الدين الخزرجي المتوفى سنة 668 هـ / 1270 م)، عيون الانباء في طبقات الأطباء، بيروت 1965.
- 2 - ابن أبي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، (جاء في كتاب الفلسفة السياسية عند ابن أبي الربيع لناجي التكريتي)، بغداد 1987.
- 3 - ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد تـ 630 هـ / 1233 م)، الكامل في التاريخ، بيروت 1982.
- 4 - ابن تغري بردي (الأتابكي تـ 874 هـ / 1469 م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة د-ت.
- 5 - ابن الجوزي (أبو الفرج جمال الدين متوفى 630 هـ / 1233 م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، بيروت 1992.
- 6 - ابن حبيب (أبو جعفر محمد تـ 245 هـ / 859 م)، المحبر، بيروت د-ت.
- 7 - ابن حجة الحموي (تقي الدين أبو بكر بن علي)، كتاب ثمرات الأوراق في المحاضرات، القاهرة د-ت.
- 8 - ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد تـ 456 هـ / 1064 م)، أمهات الخلفاء، بيروت 1980.
- 9 - ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد تـ 456 هـ / 1064 م)، جمهرة أنساب العرب، القاهرة 1977.
- 10 - ابن حوقل (أبو القاسم)، صورة الأرض، بيروت د-ت.
- 11 - ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمان تـ 808 هـ / 1405 م)، المقدمة، بيروت 2001.
- 12 - ابن خلكان (ضياء الدين أبو العباس أحمد بن محمد تـ 681 هـ / 1281 م)، وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، بيروت 1971.
- 13 - ابن خياط (أبو عمر خليفة متوفى 240 هـ / 854 م)، تاريخ خليفة بن خياط، دمشق بيروت 1977.
- 14 - ابن الساعي (علي بن أنجب تـ 674 هـ / 1275 م)، تاريخ الخلفاء العباسيين، القاهرة د-ت.
- 15 - ابن الساعي (علي بن أنجب تـ 674 هـ / 1275 م)، نساء الخلفاء المسمّى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء، القاهرة د-ت.

- 16 - ابن الطقطقي (محمد بن علي بن طباطبا)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت 1966.
- 17 - ابن طيفور (أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب تـ 280 هـ / 893 م)، كتاب بغداد، 1949.
- 18 - ابن عبد ربه (شهاب الدين المرواني الأندلسي تـ 328 هـ / 950 م)، كتاب العقد الفريد، القاهرة 1965.
- 19 - ابن عبدون (أبو الحسن المختار بن الحسن المعروف بالبغدادي)؛ رسالة جامعة لفنون نافعة في شري الرقيق وتقليب العبيد.
- 20 - ابن العمراني (محمد بن علي بن محمد تـ 580 هـ / 1184 م)، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ليدن 1973.
- 21 - ابن قتيبة الدينوري (عبد الله بن مسلم تـ سنة 270 هـ / 883 م)، الإمامة والسياسة، بيروت د- ت.
- 22 - ابن الكازروني (ظهير الدين علي بن محمد البغدادي تـ 697 هـ / 1298 م)، مختصر التاريخ، بغداد 1970.
- 23 - ابن كثير (أبو الفداء الحافظ تـ 774 هـ / 1372 م)، البداية والنهاية، بيروت 2004.
- 24 - ابن المقفع، كلیة ودمنة، الطبعة الثانية، بيروت 1991.
- 25 - ابن شدّاد (عز الدين أبي عبيد الله المتوفي سنة 684 هـ / 1285 م)، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، دمشق 1956.
- 26 - الأبشيهي (شهاب الدين محمد بن أحمد تـ 850 هـ / 1446 م)، المستطرف في كل فنّ مستظرف، بيروت 1996.
- 27 - الإتيدي، إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، تونس 1981.
- 28 - الأربلي (عبد الرحمان سُنْبُط قنيتو تـ 717 هـ / 1317 م)، خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، بغداد د-ت.
- 29 - الأزدي، تاريخ الموصل، د-ت.
- 30 - الاصطخري (أبو اسحق الفارسي النصف الأول من القرن الرابع هجري)، المسالك والممالك، الجمهورية العربية المتحدة، 1961.
- 31 - الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين تـ 356 هـ / 967 م)، الأغاني، 24 جزء، بيروت 2004.
- 32 - الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين تـ 356 هـ / 967 م)، الأغاني، مخطوط بدار الكتب المصرية يرجع تاريخه إلى سنة 1217 م / 614 هـ، (أدب 579)، ج 2 (54123)، ج 4 (54092).

- 33 - الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين تـ 356 هـ / 967 م)، القيان، د- ت.
- 34 - البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر تـ 279 هـ / 892 م)، أنساب الأشراف، بيروت 1996.
- 35 - البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر تـ 279 هـ / 892 م)، فتوح البلدان، القاهرة د- ت.
- 36 - البيروني (محمد بن أحمد تـ 430 هـ / 1039 م)، كتاب الجماهر في معرفة الجواهر، بيروت د- ت.
- 37 - البيهقي (إبراهيم بن محمد تـ 320 هـ / 933 م)، المحاسن والمساوي، بيروت 1970.
- 38 - التنوخي (أبو علي المحسن بن علي بن محمد تـ 384 هـ / 994 م)، الفرج بعد الشدة، بيروت.
- 39 - التنوخي (أبو علي المحسن بن علي بن محمد تـ 384 هـ / 994 م)، نشوار المحاضرة، بيروت 1971.
- 40 - الثعالبي (أبو منصور عبد الملك توفي سنة 429 هـ / 1038 م)، آداب الملوك، بيروت 1990.
- 41 - الثعالبي (أبو منصور عبد الملك توفي سنة 429 هـ / 1038 م)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، القاهرة 1965.
- 42 - الثعالبي (أبو منصور عبد الملك توفي سنة 429 هـ / 1038 م)، كتاب نخاص الخاص، بيروت 1966.
- 43 - الثعالبي (أبو منصور عبد الملك توفي سنة 429 هـ / 1038 م)، لطائف المعارف، دمشق 1960.
- 44 - الثعالبي (محمد بن الحارث ق 3 هـ)، أنحلاق الملوك (المنسوب للجاحظ سابقاً)، بيروت 2003.
- 45 - الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1 و 2، القاهرة 1968.
- 46 - الجهشيارى (أبو عبد الله محمد بن عبدوس تـ 331 هـ / 942 م)، كتاب الوزراء والكتاب، القاهرة 1938.
- 47 - الجهشيارى، (أبو عبد الله محمد بن عبدوس تـ 331 هـ / 942 م) كتاب الوزراء والكتاب، (نصوص ضائعة جمعها من مصادر مخطوطة ومطبوعة وعلّق عليها ميخائيل عواد)، بيروت 1964.
- 48 - الخالدين (أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابني هاشم)، كتاب التحف والهدايا، القاهرة 1956.
- 49 - الخزرجي (جمال الدين علي بن الحسن الأنصاري)، المسجد المسبوك في سيرة الخلفاء والملوك، ج 2، مخطوط، دار الكتب بالقاهرة، رقم الحفظ 3863 تاريخ عربي.
- 50 - الدينوري (أبو حنيفة أحمد بن داود تـ 282 هـ / 895 م)، الأخبار الطوال، القاهرة د- ت.
- ديوسقوريدس، الحشائش ونحوها العقاقير، مخطوط بالمكتبة السلিমانيّة، تحت رقم Sainte Sophie Ms 3703.
- 51 - ذو النسيين (دحية والحسين أبو الخطاب عمر بن أبو علي حسن بن علي سبط الإمام أبي البسمّ الفاطمي تـ 633 هـ / 1236 م)، كتاب النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، بغداد 1946.
- 52 - رشيد الدين، جامع التواريخ، مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس، Supplément persan 1113 .

- 53 - الرقيق القيرواني (إبراهيم بن القاسم القرن 5 هـ)، المختار من قطب السرور في أوصاف الأنبياء والخمور، تونس 1976.
- 54 - الروحي (أبو الحسن ت بعد 567 هـ / 1171 م)، مبلغة الظرفاء في تاريخ الخلفاء، القاهرة 2003.
- 55 - الزبيري (أبو عبد الله مصعب متوفى سنة 236 هـ / 850 م)، نسب قريش، القاهرة 1982.
- 56 - السدوسي (مؤرخ)، حذف من نسب قريش، ص القاهرة 1982.
- 57 - السيوطي (جلال الدين ت 911 هـ / 1505 م)، المستطرف من أخبار الجوارى، القاهرة 1989.
- 58 - السيوطي (جلال الدين ت 911 هـ / 1505 م)، تاريخ الخلفاء، بيروت دار أرقام د-ت.
- 59 - السيوطي (جلال الدين ت 911 هـ / 1505 م)، تحفة المجالس ونزهة المجالس، القاهرة 1908.
- 60 - السيوطي (جلال الدين ت 911 هـ / 1505 م)، نزهة المجالس في أشعار النساء، القاهرة د-ت.
- 61 - الشابشتي (أبو الحسن علي بن محمد ت 388 هـ / 998 م، الديارات، بغداد 1966.
- 62 - الصائبي (أبو الحسن هلال بن محسن الصائبي ت 448 هـ / 1056 م)، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، دار إحياء الكتب العربية، 1958.
- 63 - الصائبي (أبو الحسن هلال بن محسن الصائبي ت 448 هـ / 1056 م)، رسوم دار الخلافة، بيروت 1986.
- 64 - الصولي (أبو بكر محمد بن يحيى ت 335 هـ / 946 م)، أخبار الراضي بالله والمتقي لله، بيروت د-ت.
- 65 - الصولي (أبو بكر محمد بن يحيى ت 335 هـ / 946 م)، أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق، القاهرة 1936.
- 66 - الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير ت 310 هـ / 922 م)، تاريخ الأمم والملوك، ج واحد (طبعة جديدة)، السعودية (بيت الأفكار الدولية)، د-ت.
- 67 - العمري (ياسين بن خير الله)، مهذب الروضة الفيحاء في تواريخ النساء، بغداد 1966.
- 68 - الغزولي (علي بن عبد الله)، مطالع البدور في منازل السرور، مخطوط المكتبة القومية بباريس. Suppt. An 1551.
- 69 - القاضي الرشيد (ابن الزبير القرن الخامس هجري)، كتاب الذخائر والتحف، الكويت 1959.
- 70 - القالي (علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي)، كتاب ذيل الأمالي والنوادر، د-ت.
- 71 - القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي توفي سنة 646 هـ / 1248 م)، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، بيروت د-ت.
- 72 - القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي ت 820 هـ / 1417 م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، بيروت 1987.

- 73 - القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي تـ 820 هـ / 1417 م)، مآثر الأنافة في معالم الخلافة، بيروت 1964.
- 74 - كتاب الدرايق، (المورخ عام 595 هـ / 1198 م)، مخطوط بالمكتبة القومية بباريس، folio 27.
- 75 - الكوفي (أبو محمد بن أعثم تـ 314 هـ / 926 م)، كتاب المفتوح، مطبعة دائرة المعارف العثمانية 1975.
- 76 - مؤلف مجهول (ق 3 هـ)، أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العباس وولده، بيروت 1971.
- 77 - مؤلف مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، (256 / 870 - 350 / 961، ج 4، القسم الأول، تحقيق عمر السعيد، دمشق 1972.
- 78 - مؤلف مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، (من خلافة الوليد بن عبد الملك إلى خلافة المعتصم)، بغداد 1987.
- 79 - المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين تـ 346 هـ / 957 م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت 1983.
- 80 - المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين تـ 346 هـ / 957 م)، التنبيه والإشراف، ليدن 1976.
- 81 - المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين تـ 346 هـ / 957 م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت 1983.
- 82 - المقرئ (تقي الدين تـ 845 هـ / 1441 م)، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، القاهرة 1955.
- 83 - المقرئ (تقي الدين تـ 845 هـ / 1441 م)، كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، (ذكر منسوباً للجاحظ)، القاهرة 1988.
- 84 - مقامات الحريري، مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس، نسخة القديس واست (1250 م - 648 هـ)، arabe 3929.
- 85 - مقامات الحريري، مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس، نسخة الواسطي (1236 - 1237 م / 633 - 634 هـ)، arabe 5874.
- النواجي (شمس الدين محمد بن الحسن)، حلبة الكميت في الأدب والنوادر والفكاهات المتعلقة بالخمريات، القاهرة 1938.
- 86 - الهمداني (محمد بن عبد الملك تـ 521 هـ / 1127 م)، تكملة تاريخ الطبري، بيروت 1961.
- 87 - الهمداني (الفقيه)، كتاب البلدان، بيروت، 1996.
- 88 - الوشاء (أبو الطيب محمد بن إسحق تـ 325 هـ / 937 م)، الموشى أو الظرف والظرفاء، بيروت د-ت.

- 89 - اليافعي (أبو محمد عبد الله بن أسعد اليمني المكي ت 768 هـ / 1366 م)، مرآة الجنان وعبرة
اليقظان، ج 1، القاهرة 1337 هـ.
- 90 - اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ت 284 هـ / 897 م)، مشاكلة
الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر، القاهرة د-ت.
- 91 - اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ت 284 هـ / 897 م)، تاريخ
اليعقوبي، بيروت 1960.
- 92 - اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ت 284 هـ / 897 م)، كتاب
البلدان، النجف 1957.
- 93 - ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله)، كتاب المشترك، بغداد 1846.
- 94 - ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله)، معجم البلدان، بيروت د-ت.

§ المراجع والمقالات باللغة العربية

- 1- انتغهاوزن (ريتشارد)، فن التصوير عند العرب، ترجمة وتعليق عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، بغداد 1974.
- 2- إدريس (محمد مسعود)، " السلطة والعنف والمشاهد العامة في العصر العباسي الأول 132 هـ - 332 هـ"، مجلة الفنون والتقاليد الشعبية، ج 10، 1990، ص 5-27.
- 3- آصلان آبا (أوقطاي)، فنون الترك وعمائرهم، ترجمة أحمد محمد عيسى، استانبول 1987، ص 3.
- 4- أيوب (إبراهيم)، التاريخ العباسي السياسي والحضاري، بيروت 1989.
- 5 - بن حسين (بثينة)، الدولة الأموية ومقوماتها الإيديولوجية، تونس 2008.
- 6- بهنسي (عفيف)، الفن الإسلامي، دمشق 1986.
- 7- بهنسي (عفيف)، موسوعة التراث المعماري، دمشق 2004.
- 8- بهنسي (عفيف)، القصور الشامية وزخارفها في عهد الأمويين، دمشق 1986.
- 9- بهنسي (عفيف)، تاريخ الفن والعمارة، دمشق 1988.
- 10- بهنسي (عفيف)، موسوعة التراث المعماري، ج 1، دمشق 2004.
- 11- بيشه (غازي)، القصور الأموية في الأردن، الأردن 1974.
- 12- بيشه (غازي)، القصور الأموية في الأردن، الأردن 1974.
- 13- بيلي (عثمان سيد أحمد إسماعيل)، ثلاثية الحكم في العصور العباسية الخلافة والسلطة والدولة، بيروت 2004.
- 14- جعيط (هشام)، الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية، بيروت، 1993.
- 15- جواد (مصطفى)، سادات البلاط العباسي، بيروت 1950.
- 16- حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، القاهرة 1939.
- 17- حسون (مصطفى) ، " دار الرشيد وعاصمته الثانية "، وقائع الندوة الدولية لتاريخ الرقة و آثارها، 24 - 28 تشرين أول، 1981، ص 34-43.
- 18- حمودي (خالد خليل)، " قصر الخليفة المعتصم في سامراء "، سومر، ج 38، 1982، ص 168-175.
- 19- حميد (عبد العزيز)، " بردة رسول الله على مسكوكة المتوكل المصورة "، مجلة المسكوكات، ع 8-9، 1977-1978، ص 26-31.
- 20- حميد (عبد العزيز)، " ملابس الخلفاء في الآثار الإسلامية "، كلية الآداب بغداد، عدد 30، 1981، ص 314-342.

- 21- حيدري (إبراهيم)، النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب، بيروت 2003.
- 22- خلف (سالم عبد الله)، نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، ج 1، بيروت دت.
- 23- خلف (مرهف)، "سور مدينة الرافقة أثريا وتاريخيا"، وقائع الندوة الدولية لتاريخ الرقة وآثارها، 24-28 تشرين الأول سنة 1981.
- 24- خليفة (ربيع حامد)، فن التصوير عند الأتراك الأويغور وأثره على التصوير الإسلامي، القاهرة 1996.
- 25- دغفوس (راضي)، إشكاليات الانتشار في الإسلام المبكر، تونس 2002.
- 26- دغفوس (راضي)، التاريخ العربي والإسلامي في القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة من خلال النصوص والوثائق، تونس 2009.
- 27- دغفوس (راضي)، محمد ونشأة الإسلام، تونس 2006.
- 28- دوري (عبد العزيز)، العصر العباسي الأول دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي، بيروت 1988.
- 29- دوزي (رينهارت)، "المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب" اللسان العربي، جانفي 1973، ج 3/10، ص 154-207.
- 30- دوزي (رينهارت)، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، بغداد 1971.
- 31- رباط (ناصر)، "الإيوان: معناه الفراغي ومدلوله التذكاري"، *B. E. O.*، XLIX، v، 1997، ص 249-250.
- 32- زيتون (عادل)، "آل بختيشوع النساطرة"، *عالم الفكر*، المجلد 29، أفريل ماي 2001، ص 133-160.
- 33- سوبليه (جاكلين)، *حصن الاسم*، ترجمة سليم محمد بركات، دمشق 1999.
- 34- سوداني (عبد الرحيم)، "أسوار بغداد"، *المورد*، عدد 8، 1979.
- 35- سوسة (أحمد) وجواد (مصطفى)، *دليل خارطة بغداد قديما وحديثا*، المجمع العلمي العراقي 1958.
- 36- سوسة (أحمد)، *رأي سامراء في عهد الخلافة العباسية*، بغداد 1948.
- 37- سوسة (أحمد)، "الفيضان وغرق بغداد في العصر العباسي"، *مجلة المجمع العلمي العراقي*، 1962، المجلد 10، ص 30-68.
- 38- سيّد (أيمن فؤاد)، "مجلدان جديدان من نسخة كتاب الأغاني المصورة"، *حوليات إسلامية*، ج 40، 2006، ص 155-167.
- 39- سيّد (رضوان)، "الخلافة والملك: دراسة في الرؤية الأموية للسلطة"، *المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام في العهد الأموي*، عمان 1989، 96-142.
- 40- سيّد (رضوان)، "السلطة في الإسلام: دراسة في نشوء الخلافة"، *بلاد الشام في صدر الإسلام*، عمان 1987، ص 399-416.

- 41- شاعر (مصطفى)، في التاريخ العباسي، دمشق 1957.
- 42- شتورم (يوتر)، " أهمية مدينة الرقة منذ الفتح العربي وحتى الآن "، وقائع الندوة الدولية لتاريخ الرقة، 24 - 28 تشرين أول، 1981، ص 129 - 148.
- 43- شلوميرجه (دانيال)، قصر الخير الغربي، نقله إلى العربية إلياس أبو شبكة، بيروت 1945.
- 44- شواربي (إبراهيم)، " مصادر فارسية في التاريخ الإسلامي "، مجلة كلية الآداب المصرية، ج 6، 1942، ص 89 - 127.
- 45- شيباني (محمد سعد)، تاريخ العراق زمن الخلافة العباسية في العراق على عهد المعتضد بالله العباسي 279-289 م / 892-902 م، تونس د-ت.
- 46- صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة "، مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد 4 - 5، 1954 - 1955، ص 69 - 76.
- 47- صليبي (نسيب)، " حفريات الرقة تقرير أولي عن الموسم الثالث خريف 1953 اكتشاف القصر (ج) "، الحوليات الأثرية السورية، المجلد 6، 1956، ص 24 - 40.
- 48- صليبي (نسيب)، " ثلاثة قصور من الرقة القديمة "، وقائع الندوة الدولية لتاريخ الرقة، 24 - 28 تشرين أول، 1981، ص 45 - 49.
- 49- طوير (قاسم)، " نتائج التنقيب في هرقل 1976-1981 "، الحوليات الأثرية السورية، المجلد 33، ج 1، سنة 1983، ص 99 - 112.
- 50- طوير (قاسم)، " الموسم الأول والثاني للتنقيب في هرقل 1976-1977 "، الحوليات الأثرية السورية، المجلد 27-28، 1977-1978، ص 111 - 130.
- 51- طوير (قاسم)، " لغة الأرقام في العمارة الإسلامية "، الحوليات الأثرية السورية، م 31، سنة 1981، ص 57 - 66.
- 52- عبد الحق (سليم عادل)، " تشييد بغداد وأثره في فن العمارة والعمران العربي والعالمي "، الحوليات الأثرية السورية، المجلد 13، 1963، ص 3 - 24.
- 53- عبد الرازق (علي)، الإسلام وأصول الحكم بحث في نشأة الخلافة والحكومة في الإسلام، القاهرة 1925.
- 54- عبد الكافي (أبو بكر)، " العمامة تاريخها وتقاليدها لباسها عند العرب " مجلة الفكر، السنة 25، عدد 10، جويلية 1980، ص 38 - 44.
- 55- عبد الكافي (أبو بكر)، " القلنسوة تاريخها وتقاليدها لباسها عند العرب " مجلة الفكر، عدد 7، أفريل 1980، ص 75 - 81.

- 55- عبيدي (صلاح حسين)، الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي من المصادر التاريخية والأثرية، العراق 1980.
- 56- عش (أبو الفرج)، "الرقعة من خلال التاريخ وكتب الرحالة"، الحوليات الأثرية السورية، المجلد السابع، 1957، ص 53-72.
- 57- عكاشة (ثروت)، التصوير الإسلامي الديني والعربي، القاهرة 1977.
- 58- عكاشة (ثروت)، الفن الفارسي القلتم، القاهرة 1989.
- 59- عكاشة (ثروت)، موسوعة التصوير الإسلامي، لبنان 2001.
- 60- علام (إسماعيل نعمت)، فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، القاهرة 2005.
- 61- علام (نعمت إسماعيل)، فنون الشرق الأوسط في الفترات الهيلينية- المسيحية- الساسانية، القاهرة 1991.
- 62- علي (أحمد صالح)، " إدارة بغداد ومراكزها في العهود العباسية الأولى"، سومر، مجلد 31، عدد 1، 1975، ص 126-146.
- 63- علي (أحمد صالح)، " الأسرة العباسية في بغداد"، سومر، مجلد 31، عدد 1، 1975، ص 231-251.
- 64- علي (صالح أحمد)، " ألوان الملابس العربية في العهود الإسلامية الأولى"، مجلة المجمع العلمي العراقي، 1976، ج 27، ص 62-101.
- 65- علي (صالح أحمد)، " منازل أولاد الخلفاء وقصورهم في بغداد في العهود العباسية الأولى"، سومر، ج 1 و 2، المجلد 32، 1976، ص 145-189.
- 66- علي (صالح أحمد)، المنسوجات والألبسة العربية في العهود الإسلامية الأولى، بيروت 2003.
- 67- عمر (فاروق)، " مصطلح أهل البيت"، المدخل إلى تاريخ آل البيت منذ فجر الإسلام وحتى مطلع العصر الحديث، عمان 1998، ص 1-17.
- 68- عمر (فاروق)، " العباسيون إنجازاتهم الحضارية"، المدخل إلى تاريخ آل البيت منذ فجر الإسلام وحتى مطلع العصر الحديث، عمان 1989.
- 69- عمر (فاروق فوزي)، الخلافة العباسية في قصر القوة والإزدهار، الأردن 1998.
- 70- عمر (فاروق فوزي)، النظم الإسلامية مقدمة تاريخية، العين 1983.
- 71- عمر (فاروق فوزي)، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، بغداد 1977.
- 72- عميد (طاهر مظفر)، العمارة العباسية في سامراء، بغداد 1987.
- 73- غزي (نادية)، حضارة الطعام في بلاد الرافدين والشام، دمشق 2001، ج 1.
- 74- قاشا (سهيل)، " دور الأطباء المسيحيين الاجتماعي والسياسي في العصر العباسي (750-1258)"، المسرة، ع 81، 1995، ص 481-504.

- 75- قزاز وداد، " الدرهم الإسلامي المضروب على طراز ساساني"، مجلة المسكوكات، عدد 3، 1972، ص 46-47.
- 76- قزاز وداد، " الدرهم الإسلامي المضروب على طراز ساساني للحجاج بن يوسف الثقفي"، مجلة المسكوكات، عدد 2، 1969، ص 29-35.
- 77- قزاز وداد، " درهم أموي على طراز ساساني"، مجلة المسكوكات، عدد 6، 1975، ص 38-40.
- 78- كارمالي (انسطاس ماري)، " الكوفية والعقال"، اللسان العربي، جانفي 1973، ج 10 / 3، ص 208-215.
- 79- كريستنسن (أرثر)، إيران في عهد الساسانيين، القاهرة 1998.
- 80- لسترنج، بغداد في عهد الخلافة العباسية، بغداد 1936.
- 81- لسر، خطط بغداد في العهود العباسية الأولى، الجمع العلمي العراقي، 1984.
- 82- مانيكه (ميخائيل)، هوش (يان كريستوف)، قصر هارون الرشيد في الرقة، تعريب قاسم طوير، المعهد الأثري الألماني بدمشق، 2000.
- 83- محفوظ (فوزي)، " بين المهدية وصقلية تحليل لمشهد منحوت"، افرقية، عدد 20، ص 5-33.
- 84- مرجبا (محمد عبد الرحمان)، الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، بيروت 1988.
- 85- مصطفى (جواد)، " دار الخلافة العباسية تعيين موضعها وأشهر مبانيها"، مجلة الجمع العلمي العراقي، 1965، المجلد 12، ص 98-115.
- 86- مصطفى (شاكر)، التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت 1979.
- 87- منجد (صلاح الدين)، جمال المرأة عند العرب، بيروت 1966.
- 88- نعيم (سليم)، " المراسم والتشريفات"، مجلة الجمع العلمي العراقي، ج 22، 1973، ص 157-160.
- 89- هارندج (لانكستر)، آثار الأردن، تعريب سليمان موسى، الأردن 1965.
- 90- هيتي (فارس)، " تخطيط مدينة بغداد عبر العصور التاريخية"، المورد، عدد 8، 1979، 9-20.
- 91- يونس (محمد عبد الرحمان)، الجنس والسلطة في ألف ليلة وليلة، بيروت 1998.

Ouvrages et articles en langues étrangères

- 1- Abel. Armand, « Le khalife, présence sacrée », *Studia Islamica*, 1957, v II, pp. 29- 45.
- 2- Ahrweiler. H, *L'idéologie politique de l'empire byzantin*, Presses Universitaires de France, 1975.
- 3- Ahrweiler. H, *L'idéologie politique de l'empire byzantin*, Presses Universitaires de France, 1975.
- 4- Ahsan. M, *Social Life under the Abbasids*, Liban 1979.
- 5- Al- Asad (M), « Le faste de la vie quotidienne et les loisirs à la cour des califes omeyyades », dans *Les Omeyyades Naissance de l'Art Islamique*, Aix en Provence 2000.
- 6- Alibert. D, « Image et histoire des mentalités du haut Moyen Age : méthodes et recherches », dans *Image et Histoire*, Paris 1987, pp.119- 126.
- 7- Arseven. Celal Esad, *Les Arts décoratifs Turcs*, Istanbul.
- 8- Auzepy (Marie-France), Cornette (Joël), « Lieux de pouvoir, pouvoir des lieux », dans *Palais et Pouvoir de Constantinople à Versailles*, Saint- Denis, 2003, pp. 5- 31.
- 9- Ayalon. D, *Eunuchs, Caliphs and Sultans, a Study in Power Relationships*, Jerusalem 1999.
- 10- Ayalon. D, "On the Eunuchs in Islam" in *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, 1979, p.67- 101.
- 11- Barrucand, « Les fonctions de l'image dans la société islamique du moyen - age », dans *Image et Histoire*, Paris 1987, pp. 59- 67.
- 12- Barrucand. M, « L'art de l'islam », dans *Histoire de l'Art : Moyen Age, Chrétienté et Islam*, Paris 1996.
- 13- Barrucand.M, « L'Islam », dans *L'Art du Moyen Age*, Paris, 1995.
- 14- Barrucand.M, « Les relations entre ville et ensemble palatial dans les villes impériales marocaines : Marrakech et Mekhnès », dans *Collection d'Histoire et d'Archéologie médiévales*, n 13, Lyon 2004.
- 15- Barrucand. M, « Les audiences Umayyades et Abbassides : rituels et cadres spatiaux », Colloque international, *L'audience : rituels et cadres spatiaux de l'antiquité au haut moyen age*, 6- 8 novembre 2003, pp. 1- 17.
- 16- Barry. M, *L'art figuratif en islam médiéval et l'énigme de Behzâd de Hérat (1465 – 1535)*, Paris 2004.
- 17- Basset. R, sv, « Burda », *E.I*, t I, p. 1354.
- 18- Bates. M et Darley – Doran, « La numismatique », dans *Trésors de l'islam*, Genève 1985, pp. 350- 358.
- 19- Bates. M, *Islamic Coins*, The American Numismatic Society, New York, 1982.

- 20- Becker. Udo, « Überlegungen zur anlage von Hiraqla bei Raqqa », in *Raqqa III*, Deutsches Archäologisches Institut, 2004, pp. 149- 156.
- 21- Bianquis. Th, *La famille arabe médiévale*, Belgique, 2005.
- 22- Bisheh (Ghazi) et Vibert- Guigue (Claude), *Les peintures de Qusayr 'AMRA* , Projet de maquette de publication, Février 2002.
- 23- Burton- Page. J, sv « Marasim », *E.I*, t IV, p.502- 505.
- 24- Canard. M, « Bagdad au IV siècle de l'hégire (X siècle de l'ère chrétienne) », *Arabica*, t IX, 1962, p. 267 - 287.
- 25- Canard.M, « Le Cérémonial Fatimide et le Cérémonial Byzantin, Essai de Comparaison », *Byzantion*, t XXI, 1951, pp. 355- 420.
- 26- Cheikh- Moussa. A, « La négation d'éros ou li 'isq d'après deux épîtres d'al- Gahiz », *Studia Islamica*, fasc LXXII, paris, MCMXC, pp 71- 119.
- 27- Cheikh- Moussa. A, « De la synonymie dans les sources arabes anciennes, le cas de hadim et de hasiyy », *Arabica*, t XXXII, 1985, fasc 3, pp. 309- 322.
- 28- Chelhod. J, « Le mariage avec la cousine parallèle dans le système arabe », dans *L'Homme*, 1965, p.113- 173.
- 29- Creswell (K. A. C), *A Short Account of Early Muslim Architecture*, (révision J. W. Allan) Aldershot, 1989.
- 30- Creswell.K.A.C, *Early Muslim Architecture*, New York, 1979.
- 31- Dagron. (G), *Empereur et prêtre*, Paris 1996.
- 32- Dakhli. J, *L'empire des passions*, Flammarion 2005.
- 33- Denoix. S, « Note sur une des significations du terme « Dar » », *Annales Islamologiques*, t XXV, 1991, pp. 285- 288.
- 34- Dictionnaire des Antiquités Grecques et Romaines.
- 35- Dietrich. A, « Quelques aspects de l'éducation princière à la cour abbaside », *R.E.I*, v 44, 1976, pp. 89- 104.
- 36- Dieulafoy. M, *L'Art Antique de la Perse Achéménides Parthes Sassanides*, 5eme partie Monuments Parthes et Sassanides, Paris.
- 37- Dieulafoy. M, *L'Art Antique de la Perse Achéménides Parthes Sassanides*, 5eme partie Monuments Parthes et Sassanides, Paris.
- 38- Elad (Amikam)et Arazi (Albert), « Al- inafa fi rutbat al- xilafa de Galal al- Din al- Suyuti » *Israel Oriental Studies*, VIII, 1978, pp. 230- 265.
- 39- Encyclopédie de l'Islam, Leiden et Brill, 1978.
- 40- Esin (Emel), " The turk al-'agam of Samarra and the paintings attributable to them in Gawsaq al- Haqai", in *Kunst des Orients*, IX, 1973- 1974, p. 47- 88.
- 41- Ettinghausen. R et Grabar. O, *The art and architecture of Islam 650- 1250*, Yale University Press, 1994.
- 42- Ettinghausen. R, *From Byzantium to Sasanian Iran and the Islamic World*, Leiden 1972.
- 43- Ettinghausen. R, *La peinture arabe*, Genève 1962.
- 44- Fares. B, « Une miniature religieuse de l'école de Bagdad » in *Mémoires de l'Institut d'Egypte*, t 51, Caire 1948.
- 45- Fares. B, « Le livre de la thériaque », in *Art Islamique*, t II, Caire 1953, Institut Français d'Archéologie Orientale.

- 46- Foote (M. Rebecca), "Frescoes and carved ivory from the abbasid family homestead at Humeima" *Journal of Roman Archaeology*, n 12, 1999, p. 423-428.
- 47- Fowden. G, *Qusayr 'Amra, Art and the Umayyad Elite in Late Antique Syria*, University of California Press 2004.
- 48- Gignoux. PH et Kalus. L, « Les formules des sceaux sasanides et islamiques : continuité ou mutation ? », *Studia Iranica*, t 11, 1982, pp. 123- 153.
- 49- Goldziher. I, « Du sens propre des expressions ombre de dieu, khalife de dieu, pour designer les chefs dans l'islam », *Revue de l'Histoire des Religions*, Paris 1897, pp. 1- 8.
- 50- Grabar. A, *L'Art Byzantin du Moyen Age (du VIII au XV)*, Paris 1963.
- 51- Grabar. O, *Ceremonial and art at the Umayyad court*, Princeton University, Ph.D., 1955.
- 52- Grabar.O, « Notes sur les ceremonies umayyades », *Studies in Memory of Gaston Wiet / Jerusalem*, 1977, pp 51- 60.
- 53- Grabar.O, *La formation de l'art islamique*, Paris 2000.
- 54- Heitty. A, « The contrasting spheres of free women and jawari in the literary life of the early Abbasid caliphate » in *Al- Masaq*, v III, 1990, p. 31- 51.
- 55- Herrin.J, « Byzance : le palais et la ville », *Byzantion*, t LXI, fasc. 1, Bruxelles 1991, pp.213- 228.
- 56- Herzfeld. Ernest, *Die Malereien Von Samarra*, Berlin, 1927.
- 57- Huyse. (PH), *La Perse Antique*, Paris 2005.
- 58- Kaplan. M, *Tout l'or de Byzance*, Italie 1994.
- 59- Kennedy. H, *The armies of the caliphs, military and society in the early islamic state*, London and New York 2001.
- 60- Kennedy. H, *The court of the caliphs, the rise and fall of islam's great dynasty*, London 2004.
- 61- Kister. (M. J), "The crowns of this community....Some notes on the turban in the muslim tradition" *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, v 24, 2000, pp. 217- 245.
- 62- Kondakov. N. P, " Les costumes à la cour byzantine", *Byzantion*, t I, 1924, p.7- 49.
- 63- Labarte (J), *Le Palais Impérial de Constantinople et ses Abords, Sainte Sophie , le Forum Augustéon et l'Hippodrome tels qu'ils existaient au 10^e siècle*, Paris MDCCLXI.
- 64- Lewis (B), *Le langage politique de l'islam*, Gallimard 1988.
- 65- Longuet. H, *Introduction à la Numismatique Byzantine*, Cabinet des Médailles, Paris.
- 66- Mansouri (M. T), *Du voile et du zunnar*, Tunis 2007.
- 67- Mansouri (T. M), « Les femmes d'origine byzantine/ les roumiyyat sous les abbassides : une approche onomastique », *Journal of Oriental and African Studies*, pp. 169- 186.
- 68- Mathews. Th. F, *Le Monde Byzantin*, Paris 2002.

- 69- Mazhar. S. Ipsiroglu, *Chefs d'œuvre du Topkapi Peintures et Miniatures*, Suisse 1980.
- 70- Meer. P.U.D, « Les fouilles de la direction générale des antiquités de Rakka », *Les annales archéologiques de Syrie*, T 1, 1951, pp. 107- 128.
- 71- Micheau. F, « Medecins et medecine a Damas aux XII e et XIIIe siecles », dans *Syrie, Memoire et Civilisation*, Paris 1993, p.383- 385.
- 72- Miles. (C. George), « Mihrab and anazah: a study in early islamic iconography », in *Archaeologica Orientalia in Memoriam Ernest Herzfeld*, Locust Valley 1952, pp. 156 - 171.
- 73- Milwright. M, « Fixtures and Fittings. The role of decoration in abased palace design », in *A Medieval Islamic City Reconsidered, An Interdisciplinary Approach to Samarra*, Oxford 2001, p. 79- 109.
- 74- Miranda.S, *Les palais des empereurs byzantins*, Mexico 1965.
- 75- Mottahedeh. Roy. P, “ Some attitudes towards monarchy and absolutism in the eastern Islamic world of the eleventh and twelfth centuries A. D”, *Israel Oriental Studies*, t X, 1980, pp.86- 91.
- 76- Neyret (Clémence), *L'Art Paléochrétien L'Art Byzantin*, Ecole du Louvre, Paris 1998.
- 77- Neyret (Clémence), *L'Art Paléochrétien L'Art Byzantin*, Ecole du Louvre, Paris 1998.
- 78- Northedge. A, “ The Ja'fari Palace of al- Mutawakkil”, in *Damaszener Mitteilungen*, Band 11, 1999, pp. 345- 363.
- 79- Northedge. A, “The Palaces of the Abbasids at Samarra”, in *A Medieval Islamic City Reconsidered, An Interdisciplinary Approach to Samarra*, Oxford 2001, pp. 29- 67.
- 80- Northedge. A, « An interpretation of the palace of the caliph at Samarra (Dar al- khilafa or Jawsaq al- Khaqani », in *Ars Orientalis*, 1993, pp. 143- 170.
- 81- Northedge. A, *Entre Amman et Samarra :l'archéologie et les élites au début de l'Islam (VII e- IX e siècles ,* synthèse de travaux soumise pour l'obtention de l'habilitation à diriger des recherches, Université de Paris I, octobre 2000.
- 82- Northedge.A, « Analyse du plan du palais du calife al- Mu'tasim à Samarra », dans *Textes Arabes et Etudes Islamiques*, Institut Français d'archéologie Orientale, le Caire 1998, p.149- 179.
- 83- Northedge.A, « The racecourses at Samarra », in *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, v LIII, part 1, 1990, pp. 37- 58.
- 84- Northedge.A, *The Historical Topography of Samarra*, Samarra Studies I, published by The British School of Archaeology in Iraq, London, 2005.
- 85- Otto- Dorn. (K), *L'Art de l'Islam*, Paris 1964.
- 86- Piltz. (E), « Middle Byzantine Court Costume » in *Byzantine Court Culture from 829 to 1204*, United States of America, 1994, p. 40- 51.
- 87- Réd, sv « Madjlis », *E.I*, v VII, p. 1027.
- 88- Roux. Jean – Paul, *Etudes d'iconographie islamique, quelques objets numineux des turcs et des mongols*, Paris 1982.

- 89- Runciman.S, « Baghdad and Constantinople, two centres of medieval civilization », *Sumer*, v XII, 1956, p.43- 50.
- 90- Sadan. (J), « A propos de martaba : remarques sur l'étiquette dans le monde musulman médiéval », *Revue des Etudes Islamiques*, v XLI, 1973, p. 51- 69.
- 91- Sadan.J, *Le Mobilier au Proche Orient Médiéval*, Leiden 1976.
- 92- Saliba.G, "The role of the astrologer in medieval Islamic society", in *Bulletin d'Etudes Orientales*, t XLIV, 1992, pp.45- 67.
- 93- Saliby(Nassib), « Les fouilles du palais B 1950- 1952 » , in *Baudenkmaler und palaste I*, Deutsches Archaologisches Institut , 2004, pp. 77- 103.
- 94 Saliby.N, « Les Fouilles du Palais C 1953 », in *Raqqa III*, Deutsches Archaologisches Institut, 2004, pp. 105- 120.
- 95- Schimmel. A, *Noms de Personne en Islam*, Paris 1998.
- 96- Shaked (Shaul), "From Iran to Islam: on some symbols of royalty" in *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, t 7, 1986, pp. 75- 91.
- 97 Sharon. M, « Ahl al- bayt _ people of the house », *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, 8, 1986, pp.169- 184.
- 98 Sharon. M, « Notes on the question of the legitimacy of government in Islam », *Israel Oriental Studies*, 1980, pp. 116- 123.
- 99- Sourdel. D, " Bagdad capitale du nouvel empire abbasside", *Arabica*, 1962, v IX, pp. 251- 265.
- 98- Sourdel. D, *L'Etat impérial des califes abbassides, VIII- X siècle*, Paris 1999.
- 100- Sourdel. D, *La civilisation de l'islam classique*, Paris 1968.
- 101- Sourdel. D, *Le Vizirat Abbasside de 749 à 936 (132 à 324 de l'Hégire)*, Damas, 1959.
- 102- Stern. H, « Notes sur l'architecture des châteaux omeyyades », *Ars Islamica*, t XI- XII, 1946, pp.72- 97.
- 103- Toueir (Kassem), « Raqqa », in *Syrie mémoire et civilisation*, Paris 1993, p. 378-381.
- 104- Tyan. (E), *Institutions du droit public musulman, le califat*, t I, Paris 1954.
- 105 - Waines. D, *La cuisine des califes*, 1998.
- 106 - Yannopoulos, « Le couronnement de l'empereur à Byzance : rituel et fond institutionnell », *Byzantion*, t LXI, 1991, pp. 71- 92.
- 107 - Zayadine. F, « al- Houmayma », dans *Les Omeyyades naissance de l'art islamique*, Aix en Provence 2000, 193- 196.
- 108- Zayadine. F, *The Frescoes of Quseir Amra*, The Department of Antiquities of Jordan, Amman 1997.

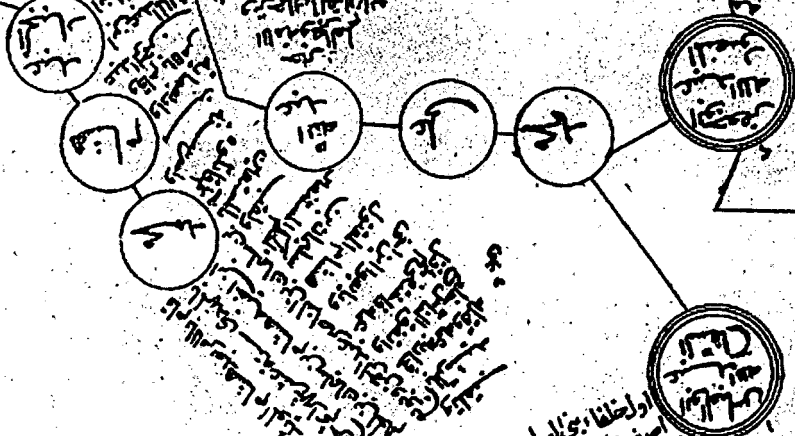
Handwritten text at the top left margin.

Vertical column of handwritten text on the left side.

Central block of handwritten text.

Central block of handwritten text.

Large block of handwritten text on the right side.



Vertical column of handwritten text on the left side.

Large block of handwritten text at the bottom of the page.

۵
 ۱۰
 ۱۱
 ۱۲
 ۱۳
 ۱۴
 ۱۵
 ۱۶
 ۱۷
 ۱۸
 ۱۹
 ۲۰
 ۲۱
 ۲۲
 ۲۳
 ۲۴
 ۲۵
 ۲۶
 ۲۷
 ۲۸
 ۲۹
 ۳۰
 ۳۱
 ۳۲
 ۳۳
 ۳۴
 ۳۵
 ۳۶
 ۳۷
 ۳۸
 ۳۹
 ۴۰
 ۴۱
 ۴۲
 ۴۳
 ۴۴
 ۴۵
 ۴۶
 ۴۷
 ۴۸
 ۴۹
 ۵۰
 ۵۱
 ۵۲
 ۵۳
 ۵۴
 ۵۵
 ۵۶
 ۵۷
 ۵۸
 ۵۹
 ۶۰
 ۶۱
 ۶۲
 ۶۳
 ۶۴
 ۶۵
 ۶۶
 ۶۷
 ۶۸
 ۶۹
 ۷۰
 ۷۱
 ۷۲
 ۷۳
 ۷۴
 ۷۵
 ۷۶
 ۷۷
 ۷۸
 ۷۹
 ۸۰
 ۸۱
 ۸۲
 ۸۳
 ۸۴
 ۸۵
 ۸۶
 ۸۷
 ۸۸
 ۸۹
 ۹۰
 ۹۱
 ۹۲
 ۹۳
 ۹۴
 ۹۵
 ۹۶
 ۹۷
 ۹۸
 ۹۹
 ۱۰۰

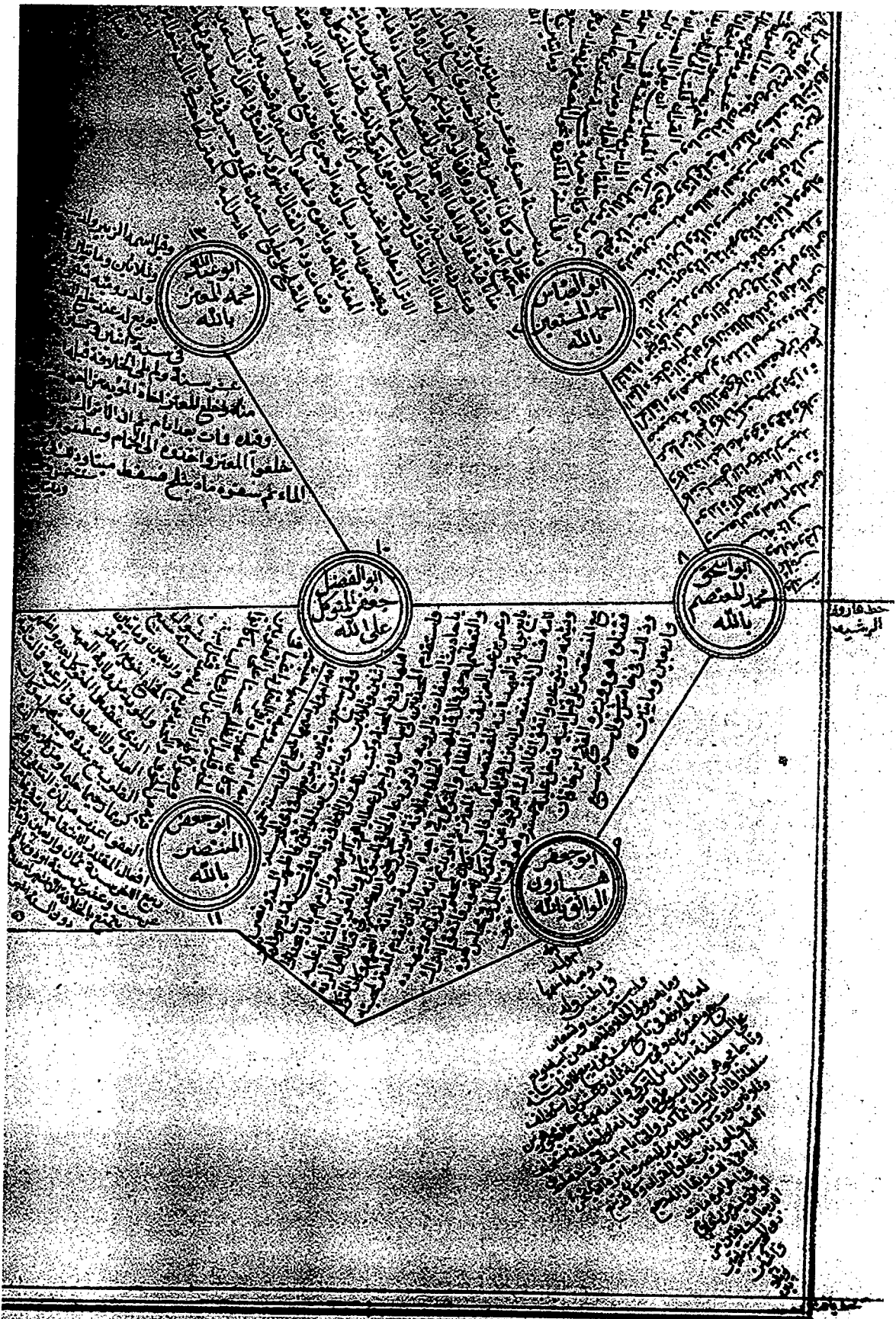
ابو عبد الله محمد المهدي

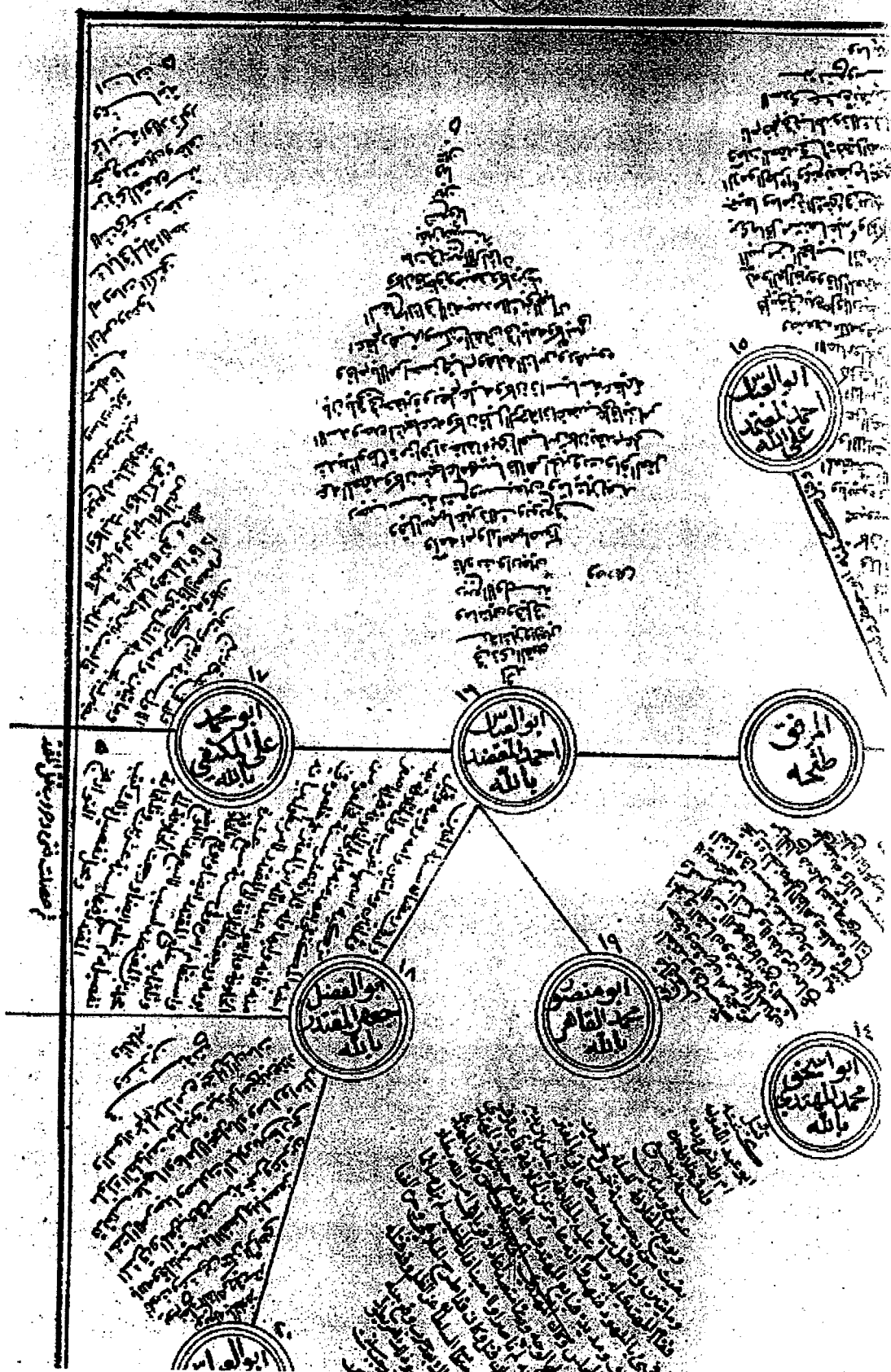
ابو جعفر
مازون
الرشد

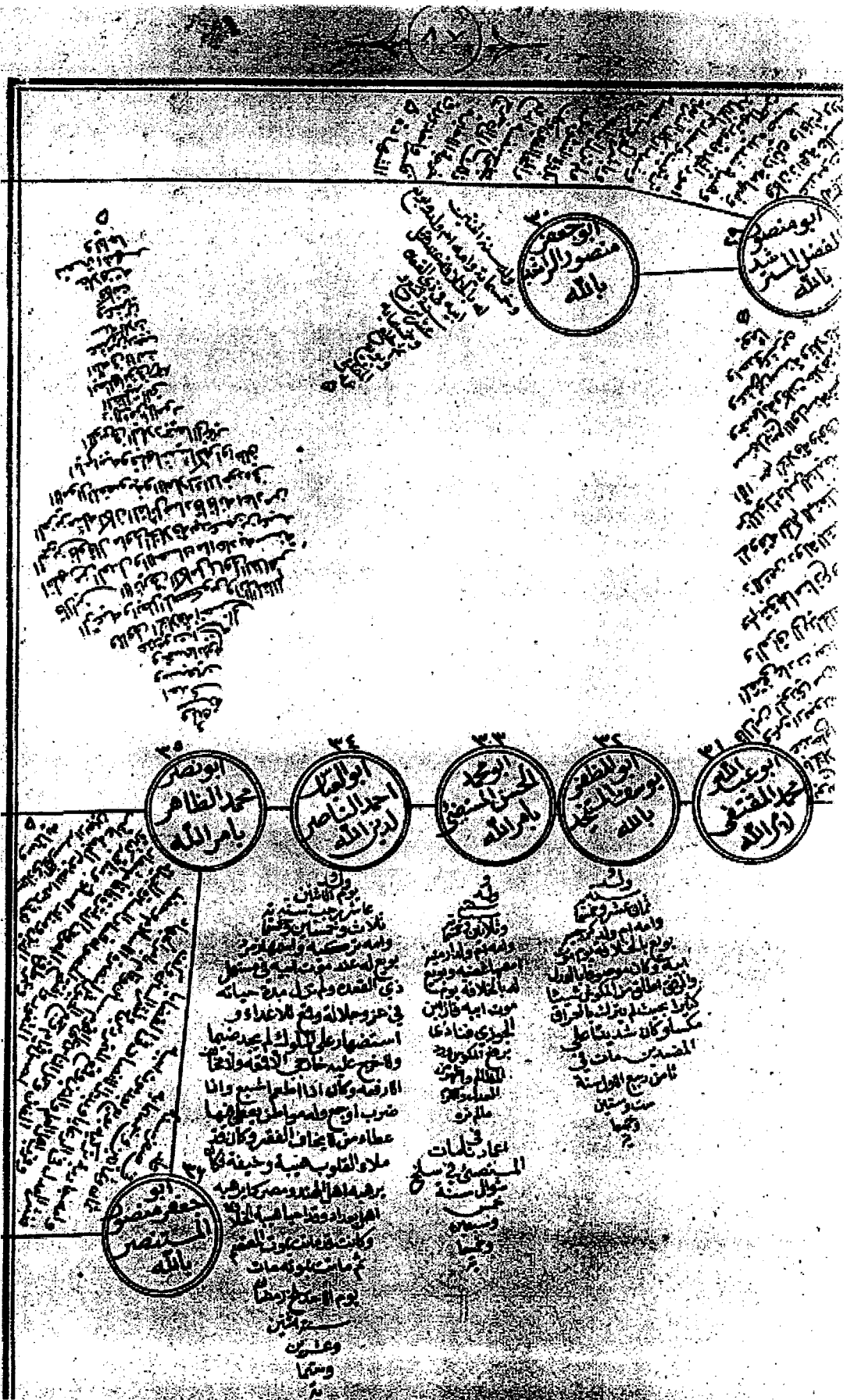
ابوالعباس
عبيد الله
المازوني

۱۰۰

[illegible]







ایچ بی

علی



ابو القاسم
احمد المستنصر
بالله

٣٧
الواحد
عبد الله
المستقيم
بالله

١٠٠
 ١٠١
 ١٠٢
 ١٠٣
 ١٠٤
 ١٠٥
 ١٠٦
 ١٠٧
 ١٠٨
 ١٠٩
 ١١٠
 ١١١
 ١١٢
 ١١٣
 ١١٤
 ١١٥
 ١١٦
 ١١٧
 ١١٨
 ١١٩
 ١٢٠
 ١٢١
 ١٢٢
 ١٢٣
 ١٢٤
 ١٢٥
 ١٢٦
 ١٢٧
 ١٢٨
 ١٢٩
 ١٣٠
 ١٣١
 ١٣٢
 ١٣٣
 ١٣٤
 ١٣٥
 ١٣٦
 ١٣٧
 ١٣٨
 ١٣٩
 ١٤٠
 ١٤١
 ١٤٢
 ١٤٣
 ١٤٤
 ١٤٥
 ١٤٦
 ١٤٧
 ١٤٨
 ١٤٩
 ١٥٠
 ١٥١
 ١٥٢
 ١٥٣
 ١٥٤
 ١٥٥
 ١٥٦
 ١٥٧
 ١٥٨
 ١٥٩
 ١٦٠
 ١٦١
 ١٦٢
 ١٦٣
 ١٦٤
 ١٦٥
 ١٦٦
 ١٦٧
 ١٦٨
 ١٦٩
 ١٧٠
 ١٧١
 ١٧٢
 ١٧٣
 ١٧٤
 ١٧٥
 ١٧٦
 ١٧٧
 ١٧٨
 ١٧٩
 ١٨٠
 ١٨١
 ١٨٢
 ١٨٣
 ١٨٤
 ١٨٥
 ١٨٦
 ١٨٧
 ١٨٨
 ١٨٩
 ١٩٠
 ١٩١
 ١٩٢
 ١٩٣
 ١٩٤
 ١٩٥
 ١٩٦
 ١٩٧
 ١٩٨
 ١٩٩
 ٢٠٠
 ٢٠١
 ٢٠٢
 ٢٠٣
 ٢٠٤
 ٢٠٥
 ٢٠٦
 ٢٠٧
 ٢٠٨
 ٢٠٩
 ٢١٠
 ٢١١
 ٢١٢
 ٢١٣
 ٢١٤
 ٢١٥
 ٢١٦
 ٢١٧
 ٢١٨
 ٢١٩
 ٢٢٠
 ٢٢١
 ٢٢٢
 ٢٢٣
 ٢٢٤
 ٢٢٥
 ٢٢٦
 ٢٢٧
 ٢٢٨
 ٢٢٩
 ٢٣٠
 ٢٣١
 ٢٣٢
 ٢٣٣
 ٢٣٤
 ٢٣٥
 ٢٣٦
 ٢٣٧
 ٢٣٨
 ٢٣٩
 ٢٤٠
 ٢٤١
 ٢٤٢
 ٢٤٣
 ٢٤٤
 ٢٤٥
 ٢٤٦
 ٢٤٧
 ٢٤٨
 ٢٤٩
 ٢٥٠
 ٢٥١
 ٢٥٢
 ٢٥٣
 ٢٥٤
 ٢٥٥
 ٢٥٦
 ٢٥٧
 ٢٥٨
 ٢٥٩
 ٢٦٠
 ٢٦١
 ٢٦٢
 ٢٦٣
 ٢٦٤
 ٢٦٥
 ٢٦٦
 ٢٦٧
 ٢٦٨
 ٢٦٩
 ٢٧٠
 ٢٧١
 ٢٧٢
 ٢٧٣
 ٢٧٤
 ٢٧٥
 ٢٧٦
 ٢٧٧
 ٢٧٨
 ٢٧٩
 ٢٨٠
 ٢٨١
 ٢٨٢
 ٢٨٣
 ٢٨٤
 ٢٨٥
 ٢٨٦
 ٢٨٧
 ٢٨٨
 ٢٨٩
 ٢٩٠
 ٢٩١
 ٢٩٢
 ٢٩٣
 ٢٩٤
 ٢٩٥
 ٢٩٦
 ٢٩٧
 ٢٩٨
 ٢٩٩
 ٣٠٠
 ٣٠١
 ٣٠٢
 ٣٠٣
 ٣٠٤
 ٣٠٥
 ٣٠٦
 ٣٠٧
 ٣٠٨
 ٣٠٩
 ٣١٠
 ٣١١
 ٣١٢
 ٣١٣
 ٣١٤
 ٣١٥
 ٣١٦
 ٣١٧
 ٣١٨
 ٣١٩
 ٣٢٠
 ٣٢١
 ٣٢٢
 ٣٢٣
 ٣٢٤
 ٣٢٥
 ٣٢٦
 ٣٢٧
 ٣٢٨
 ٣٢٩
 ٣٣٠
 ٣٣١
 ٣٣٢
 ٣٣٣
 ٣٣٤
 ٣٣٥
 ٣٣٦
 ٣٣٧
 ٣٣٨
 ٣٣٩
 ٣٤٠
 ٣٤١
 ٣٤٢
 ٣٤٣
 ٣٤٤
 ٣٤٥
 ٣٤٦
 ٣٤٧
 ٣٤٨
 ٣٤٩
 ٣٥٠
 ٣٥١
 ٣٥٢
 ٣٥٣
 ٣٥٤
 ٣٥٥
 ٣٥٦
 ٣٥٧
 ٣٥٨
 ٣٥٩
 ٣٦٠
 ٣٦١
 ٣٦٢
 ٣٦٣
 ٣٦٤
 ٣٦٥
 ٣٦٦
 ٣٦٧
 ٣٦٨
 ٣٦٩
 ٣٧٠
 ٣٧١
 ٣٧٢
 ٣٧٣
 ٣٧٤
 ٣٧٥
 ٣٧٦
 ٣٧٧
 ٣٧٨
 ٣٧٩
 ٣٨٠
 ٣٨١
 ٣٨٢
 ٣٨٣
 ٣٨٤
 ٣٨٥
 ٣٨٦
 ٣٨٧
 ٣٨٨
 ٣٨٩
 ٣٩٠
 ٣٩١
 ٣٩٢
 ٣٩٣
 ٣٩٤
 ٣٩٥
 ٣٩٦
 ٣٩٧
 ٣٩٨
 ٣٩٩
 ٤٠٠
 ٤٠١
 ٤٠٢
 ٤٠٣
 ٤٠٤
 ٤٠٥
 ٤٠٦
 ٤٠٧
 ٤٠٨
 ٤٠٩
 ٤١٠
 ٤١١
 ٤١٢
 ٤١٣
 ٤١٤
 ٤١٥
 ٤١٦
 ٤١٧
 ٤١٨
 ٤١٩
 ٤٢٠
 ٤٢١
 ٤٢٢
 ٤٢٣
 ٤٢٤
 ٤٢٥
 ٤٢٦
 ٤٢٧
 ٤٢٨
 ٤٢٩
 ٤٣٠
 ٤٣١
 ٤٣٢
 ٤٣٣
 ٤٣٤
 ٤٣٥
 ٤٣٦
 ٤٣٧
 ٤٣٨
 ٤٣٩
 ٤٤٠
 ٤٤١
 ٤٤٢
 ٤٤٣
 ٤٤٤
 ٤٤٥
 ٤٤٦
 ٤٤٧
 ٤٤٨
 ٤٤٩
 ٤٥٠
 ٤٥١
 ٤٥٢
 ٤٥٣
 ٤٥٤
 ٤٥٥
 ٤٥٦
 ٤٥٧
 ٤٥٨
 ٤٥٩
 ٤٦٠
 ٤٦١
 ٤٦٢
 ٤٦٣
 ٤٦٤
 ٤٦٥
 ٤٦٦
 ٤٦٧
 ٤٦٨
 ٤٦٩
 ٤٧٠
 ٤٧١

